تهويد التاريخ



توت عنخ آمون

مؤامرة الخروج

تأليف : أندرو كولينز

كريس أوجيلفي – هيرالد

ترجمة : رفعت السيد علي

تصميم غلاق : علي مولا

توت عنخ آمون

مؤامرة الخروج.. حقيقة أعظم لغز أثرى

• تأليف :

أنـدرو كـــــــولـيـنـز

كـريس أوچيلڤى - هيـرالد

• تـرجمة:

رفـعـت السـيـد عـلـى

دار العلوم للنشر والتوزيع

تليفون : ٥٧٦١٤٠٠ (٢٠٢)

فاكس : ٥٧٩٩٩٠٧

إدارة المبيعات: ٠١٠١٦٣٦١٩٢

بريد اليكترونى : daralaloom@hotmail.com

المراسلات : ص.ب ٢٠٢ محمد فريد - ١١٥١٨ القاهرة

الكتاب : توت عنخ آمون.. مؤامرة الخروج

الكاتب : أندرو كولينز - كريس أوجيلفى - هيرالد

الترجمة : رفعت السيد على

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٨٥٧

الترقيم الدولى : 977-380-037-7

التدقيق : الحسينى عمران

التنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشرت : ٣٩٠٤٠٩٦

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع :

الجمعية المصرية للدراسات الحضارية

(تحت التأسيس)

الطبعة الأولى : ٢٠٠٥

توت عنخ آمون

مؤامرة الخروج.. حقيقة أعظم لغز أثرى



دعوة مفتوحة للدفاع عن التاريخ القديم، تهدف للتعريف بالثقافة المضادة وترجمة نصوصها، ونشر الردود عليها في سبيل المساهمة في إحياء حركة تنوير فكرية/تاريخية تعتمد العلم والأصالة والجدية.

أبدأ بشكر زوجتى سو؛ لمساعدتها الرائعة فى إعداد الرسومات، والدعم، وصبرها الذى دائماً ما كانت تظهره أثناء إعداد مادة هذا الكتاب، وكذلك أشكر دافيد سوثويل؛ لمعاونته الدائمة لى، وأفكاره الملهمة، ورؤيته الثاقبة الصائبة، وجراهام فيليبس؛ لتفهمه أعباء كونى مؤلفاً وكاتباً؛ ولكونه توصل إلى النتائج ذاتها، وأوجه الشكر - أيضا- إلى آمبر ماكولى وكاترين هيل، لقيامهما بأعمال الترجمة لما لزم من نصوص، وإلى رودنى هيل؛ لدعمه ومعاونته فى رسم الخرائط والصور التوضيحية، وإلى ريتشارد وارد؛ لصداقته الدائمة ومعاونته فى الأبحاث المقدمة فى هذا الكتاب.

وشكرى وامتنانى - أيضا- إلى ليزا آدامز لرسومها التوضيحية ثلاثية الأبعاد لغرفة دفن توت عنخ آمون، وإلى دوروثى أرنولد من متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك؛ لإجاباتها على استفساراتى الخاصة عن آرثر س. ميس، وإلى مايكل كارمايكل للمادة التحريرية التى قدمها عن السموم والكيمياء فى مصر القديمة، وإلى لورين إيفانز؛ للمشاركة الفعالة فى جمع المعلومات، وإلى نيجل فوستر الذى أتاح لنا الوقت بلا حدود فى مقهاه، وچوناثان هاريس؛ لمكالماته الهاتفية المتأخرة ليلاً، وإلى كل العاملين بمكتبة لاى؛ لعدم هروبهم وصمودهم كلما رأونى داخلا لديهم، وإلى جاريث ميدواى؛ لمقترحاته فى تحرير مواد البحث، وإلى أحمد معمر؛ لتزويده إياى بالمادة التاريخية عن مدينة البتراء، ولقراءته ومراجعته الفصول الخاصة بها وضيافته الكريمة، وإلى موتاسيم نوافله؛ لإمدادنا بمادة أسطورة انتقال هارون طائراً إلى جبل هارون، وإلى نيجل سكينر سيمبسون؛ للاحظاته التحريرية، وتصنيف المادة على الحاسوب كلما

احتجنا إليه، وإلى فيكتور وينستون؛ لتزويدنا بمادة السياسة البريطانية فى مصر وفلسطين فى عشرينيات القرن العشرين.

وأخيرا، إلا أنه ليس قليلاً، أود أن أشكر ماثيو آدامز، ومايكل بيجنت، وروبرت بوڤال، وتود بورست، وإيرنى كولينز، وستورم قنسطنطين، وأدريان چيلبرت، وكليف هاربر، وروبن كروكشانك هيلتون، وبول كايفن، وايان لوتون، وچونى مارون، ودافيد بانتر، ولين بيكنت، وكليف برنس، ودافيد رول، وآن سميث ، وروب سبايت، وكاثى وكولين ستالارد، وباندورا ستيڤنز، جريج تايلور من جريدة «ديلى جريل»، وبول ويستون، وماركوس ويليامسون، وكارولين وايس، وكل من ساهم فى نشر هذا الكتاب.

أندرو كولينز

٢٢ يوليو ٢٠٠٢

كيف ترنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة؟
إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى
ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك
إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى

المزمور ١٣٧

فندق كونتيننتال ، القاهرة، ٥ أبريل ١٩٢٣، ١:٥٥ صباحًا

تنبه لورد بورشيستر، الابن الأكبر، ووريث الإيرل الخامس لكارنر ڤون من إغفاءته على صوت أطار النوم من عينيه. كان الدق متواصلا على باب غرفته بالفندق مما أعاد اليقظة لكل حواسه، بعد أن كان مستلقيًا على وشك الاستغراق فى النوم، فى تلك اللحظة بدأ يدرك أن ممرضة أبيه كانت تدق الباب وتنادى باسمه.

حاول «بورشى» استعادة رباطة جأشه، وتذكر الظروف الصعبة التى أدت إلى سفره إلى القاهرة قبل ذلك بيومين[1]، كان قبلها مشتركاً فى مباراة للبولو ضد وحدة الفرسان رقم ١١ فى ساحة لعب ويلر للبولو، فى مدينة ميروت بالهند، وبعد أن انحرفت الشمس المحرقة عن كبد السماء ومالت منحدرة تجاه الأفق بدأوا اللعب فى حضور مشاهدين، كان منهم الحاكم البريطانى للهند، لورد ريدنج ومعه مجموعة من ضيوفه. كانت نتيجة المباراة هى التعادل، وقبل ثوان من انتهاء المباراة، قام «بورشى» الذى كان ضمن فريقه يمثل الفرقة السابعة من سلاح الفرسان، بشق طريقه وسط دفاع الفريق المنافس، وحالفه بعض الحظ وأتته فرصة ضرب الكرة باتجاه المرمى، ولما اصطدمت بعامود المرمى أطلق - رغما عنه - صرخة ذعر وأسى، إلا أنه لما رد بصره باتجاه المرمى، شاهد الكرة ترتد وتعبر خط المرمى، ويعلم الله وحده كيف حدث ذلك، وبعد المباراة تقدم رئيس فريق «بورشى»، واستلم كأس الفوز من الحاكم، ومن بعده اصطف الفريق الفائز وتلقوا ميداليات الفوز، لقد كان يومًا من تلك الأيام البالغة الروعة، وسيظل يذكره لأعوام طويلة قادمة.

ثم تبدلت حالته المعنوية بعد قدوم الحارس الشخصى للحاكم، كان من السيخ، يرتدى زيا أبيض وعليه شريط قرمزى، وأحنى رأسه فى احترام قبل أن يمد يده ببرقية عاجلة من مصر.

وبعد أن طلب الإذن من الحاكم لفض البرقية، أحس بقلبه ينقبض وهو يقرأ نصها :

من سير چون ماكسويل القائد العام للقوات بمصر إلى سير تشارلز مونرو بالهند - عاجل - التكرم بارسال لورد بورشستر إلى القاهرة والده مريض وفى حالة خطيرة جداً[٢].

كانت أنباء سيئة لم يتمن - أبداً - أن يقرأها. أبوه الحبيب مريض جداً، ويجب أن يكون إلى جواره، وكذلك يجب أن تكون أمه وشقيقته إلى جواره أيضا.

وبعد أن أمر زوجته كاترين بحزم حقائبهما، وبيع خيول البولو، طلب منها أن تدبر أمورها للحاق به إلى القاهرة، أو إنجلترا حسب ما يستجد من أحوال. تم إعداد الترتيبات؛ ليرحل هو على الفور متجهاً إلى القاهرة، وترك ذلك على زوجته أثرا سيئا، فقد أدركت المسكينة أنها لن تراه لفترة طويلة قادمة. أكثر من هذا، أدرك هو - أيضًا - أن عمله بالجيش البريطانى قد وصل إلى نهايته، وأنه فى وقت قريب جداً سيحمل أعباء ومسئوليات حين يرث لقب الإيرل السادس لكارنر ڤون بعد موت أبيه.

وألغى نائب الملك وحاكم الهند أى توقف للباخرة حتى يضمن وصولها إلى مصر عن طريق عدن فى أقصر وقت ممكن، وغادر الهند فى باخرة اسمها «ناركوندا» رست به فى ميناء السويس، وكان بانتظاره لنش صغير أقلَّه إلى اليابسة حيث ركب قطاراً خاصًا يملكه سير چون ماكسويل، والذى نبهه إلى أنه من المحتمل أن يكون قد وصل بعد فوات الأوان، فقد كانت حالة والده سيئة للغاية.

ووصل إلى فندق جراند كونتننتال فى الثانية بعد ظهر الأربعاء ٤ أبريل حيث حيَّته ممرضة، وأخبرته أن أمه آلمينا هربرت الكونتيسة

الخامسة لكارنر ڤون كانت قد وصلت وهى الآن بجوار فراش زوجها، كما كانت شقيقته ليدى إيڤيلين هربرت الرفيق الدائم لأبيها فى كل أسفاره فى أعوامه الأخيرة، والتى كانت تقوم بخدمته بنفسها أثناء مرضه فى الشهور الأخيرة، كانت - أيضا - إلى جوار فراش أبيها.

وحين كان يصعد الدرج اكتشف بورشى أن الجميع نائمون، وبالرغم من أن الممرضة أخبرته أنها ستصحبه لرؤية أبيه حين يستيقظ، إلا أنه أصر على رؤيته فى الحال، سارت الممرضة أمامه؛ لترشده إلى الطريق، وشرحت له وهما فى طريقهما إلى غرفة أبيه أن الإيرل لم يعد فى وعيه، وأنه من غير المحتمل أن يتعرف على ابنه. وحين دخلا الغرفة، وجد بورشى أباه ممدداً فى فراشه وذقنه غير حليقة، وعيناه فى احمرار الجمر مع زبد يميل إلى اللون الأصفر يحيط بشفتيه. بدت حالته فى غاية السوء.

وأمسك الابن بيد أبيه وقال له : إنه جاء إليه ويأمل أن يجعله فى حال أفضل، بالرغم من أنه أدرك فى داخله أن أباه فى آخر مراحل احتضاره، إلا أن أباه راح يتمتم بكلمات وأصوات غير مفهومة، لم يميز منها إلا أنه سيقتل الإيطاليين كما يقتل الأرانب، بالرغم من أنه لم يشارك أبدا فى الحرب، إلا أنه كان يهذى بلا وعى.

وتطلع بورشى إلى وجه أبيه يملؤه الأسى والحزن حين أدرك أنه لن يستطيع أن يعوض الأعوام الماضية التى لم يكن أى منهما ليعرف أى شيء عن الآخر، وتذكر أن والده كان على الدوام عظيماً، فبالرغم من صحته المتداعية، إلا أنه أنجز الكثير خلال سنى حياته، كرياضى، ومربى لخيل السباق، وقائد سيارة فذ، ومصور بارع، ورجل متعطش للمغامرات الغامضة. إلا أن أعظم إنجازاته كانت فى مجال هوايته للمصريات القديمة، وجمعه للآثار، ورعايته لأعمال البحث الآثارى التى كان يقوم بها هوارد كارتر، والذى تكلل بحثه المستمر على مدى خمسة أعوام متتابعة بالعثور على مقبرة توت عنخ آمون فى وادى الملوك فى شهر نوفمبر السابق. بعدها أصبح أبوه من الشخصيات الشهيرة المحتفى بها فى جميع أنحاء

العالم، وكانت حالته الصحية التى انحدر إليها بمثابة مأساة كئيبة، لا على المستوى الشخصى وحده، بل لكل من أذهله لغز توت عنخ آمون، وكنوزه الرائعة التى تنتظر إخراجها من غرفة الدفن.

وطبقا لما ذكرته ابنته ليدى ايڤيلين : بدأ مرضه إثر لدغة بعوضة، ثم تضاعف أثرها نتيجة لموسى الحلاقة الذى زاد من التهابها بعد أن جرح موضع اللدغة مما سبب تدهور حالته .

وبالرغم من أنه طهر الجرح باليود، إلا أن درجة حرارته كانت ترتفع حتى تصل إلى ١٠١ فهرنهايت، وفى الصباح التالى تعود حرارة الجسم إلى طبيعتها، إلا أنه مع حلول الليلة التالية ارتدت حالته إلى أسوأ مما كانت، وحين وجدت ابنته إيڤيلين أن حرارة بدنه أصبحت من جديد ١٠١، استدعت له أفضل الأطباء الموجودين بمدينة القاهرة. وفى فندق جراند كونتننتال بالقاهرة قدمت له أفضل رعاية طبية وأفضل عناية من الفندق، وشخَّص الأطباء حالته على أنها تسمم عام بالدم.

بعد عشرة أيام من المرض بدا أن الايرل الخامس قد شفى وعوفى من كل ما ألم به، حتى إنه أصبح بمقدوره الجلوس فى فراشه. إلا أنه سرعان ما عانى نكسة شديدة شخصت تلك المرة على أنها التهاب رئوى ڤيروسى، ولم تتحسن حالته بعد ذلك أبدا، ولما رآه أول مرة عند ظهر يوم الأربعاء ٤ أبريل أدرك بورشى أن مخاوفه عن احتضار أبيه أصبحت مؤكدة ومؤلمة، وزاره مرة أخرى فى المساء قبل أن يأوى إلى فراشه، ولم تكن حالته قد تغيرت عما كانت عليه.

كان الدق على باب غرفته مستمراً وهو ما زال يحدق بساعته. كانت الساعة الواحدة وخمسة وخمسون دقيقة صباحا[٣]، وبعد أن أذن للممرضة أن تدخل، فتحت الباب وقالت بأسى : «من الأفضل يا لورد بورشستر أن تأتى بسرعة. لقد مات أبوك، وأصابته صدمة، بالرغم من أنه كان على يقين أن موته محتم، وأضافت الممرضة : «إن أمك بجواره الآن، فلتحضر بسرعة من فضلك».

وبعد أن ارتدى على منامته عباءة، رجل شعره، وتناول مصباحاً يدوياً من على طاولة غرفة نومه، ومضى عبر الردهة ميممًا شطر غرفة أبيه. وانقطع التيار الكهربى - فجأة - عن الفندق، واختفت كل معالم القاهرة فى ظلام دامس، فقد شمل انقطاع التيار القاهرة بأجمعها، وبسرعة أضاء مصباحه اليدوى، وناوله إلى الممرضة، وطلب منها أن تأتى ببعض الشموع من إدارة الفندق.

وأخيراً، وفى حلكة الظلام، استطاع أن يدخل غرفة أبيه وظل ما رآه فى تلك اللحظة يؤرق ذاكرته بقية أعوام حياته. كانت الغرفة مضاءة ببضعة شموع، وأبوه مسجى على فراشه، وأمه راكعة بجوار الفراش، وفى صمت ركع بجوار الفراش إلى جانب أمه وأمسك بيد أبيه، وبدأ فى التمتمة بالصلوات.

كان چورچ إدوارد ستانهوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنرڤون يرقد فى سلام أبدى، وانتهت مهنته وعمله المثير فى سن السابعة والخمسين، إلا أنه بخلاصه من هذا العالم الملىء بالمشاكل وذهابه إلى عالم آخر، ذهبت معه أسرار حرص كل الحرص ألا تخرج لمخلوق، أسرار خاصة بما وقع وما حدث حين دخلوا مقبرة توت عنخ آمون سر هو وكارتر وابنته ليدى إيڤيلين والمهندس آرثر «بيكى» كاليندر تحت جنح الظلام فى نهاية نوفمبر من العام المنقضى. كان سراً ربط بين أولئك الأشخاص على مدى الأربعة أشهر السابقة على موت كارنرڤون. سراً أو أسرار لو أفشيت لدمرت سمعة كارنرڤون كارستقراطى بريطانى يتمسك بالأخلاق النبيلة والسمعة الحميدة، يحظى باحترام فائق فى جميع أرجاء العالم، لا هو وحده، بل كان الدمار يلحق - أيضًا - بسمعة هوارد كارتر كأشهر آثارى مصريات عرفه العالم . أسرار قد تكون هى السبب فى الموت المبكر للورد كارنرڤون. أسرار لو أفشيت وعرفها العالم - فى وقت كانت فيه وسائل الإعلام الدولية تركز أخبارها يوميًا على أنباء المقبرة المكتشفة التى أصبحت حديث العالم - لم تكن لتسبب فقط فضيحة سياسية ودينية، بل ربما كانت غيَّرت وجه العالم إلى الأبد.

الجزء الأول

توت عنخ آمون

١ - مات الملك

وادى الملوك، مصر، عام ١٣٣٩ ق.م

ساد الحداد العام، وعم الحزن جميع أرجاء مصر. مات الملك الشاب توت عنخ آمون الذى حكم الإمبراطورية لتسعة أعوام فقط. وبين مظاهر ومشاهد الحزن الجارف التى سادت العاصمة الجنوبية، طيبة ، كانت مراسم وطقوس الدفن قد بدأت عبر الوادى الصحراوى الملتهب بأشعة الشمس الحارقة. كان جثمان الإمبراطور المحنط مغطى بغطاء من النسيج الملون، وينقل عبر أرض خشنة غير ممهدة على نقالة خشبية يجرها اثنا عشر من الثقات، منهم بنتو وأوسرمونت، وزيرا مصر العليا والدنيا بزيهما الرسمى الكامل، والكل عاقد شريط حداد من الكتان الأبيض على جبهته حول رأسه.

ومن خلف الجثمان بمسافة كافية كان يأتى صوت عويل النساء وبكائهن، كان النواح يتصاعد، ويقطعه صوت لطم الخدود والرءوس، ينعين خسارتهن الفادحة وخسارة كل شعب مصر فى ذلك الوقت، ومن بعد النسوة النائحات سارت زوجة الملك الميت يغلبها حزنها الجارف، الملكة عنخيسين آمون، ومعها كهنة معبد آمون وأصدقاء الأسرة الإمبراطورية المقربون، وهيئة البلاط الإمبراطورى المصرى، وكبار رجال الدولة، وآى، الملك القادم بعد توت عنخ آمون.

كان آى يحضر طقوس الدفن بصفتيه: الكاهن الأكبر الذى سيؤدى طقوس الدفن كنائب للملك، وصفته الثانية كممثل حى لإله الشمس حورس، وكان عليه بالصفتين أن يقوم بأداء طقوس الانتقال من عالم الحياة الدنيا إلى العالم الآخر، والتى تمكن الفرعون من ولوج عالم الأبدية

الخـالد، فبمـوته انتقل إلى عـالم الأبدية عند أوزوريس، إله العـالم الآخـر، وأبى حورس.

سـار فى ذيل مـوكب الدفن عشـرات الرجـال عراة الصـدور، يـحـمل كل منهم بعضـاً مما سـيـحتـاجـه الملك فى عـالم الأبدية، من عـربات مـفككة ، وكرسى عرش مذهب، وعجلات حربية مفككة، وأسلحته، وألعابه، وتماثيله المقدسة، وصناديق بلا حصر تحتوى على كل احتياجاته الشخصية من أثواب كتانية، وأطعمة مطهية، ومئات من تماثيل الأشابتى الصغيرة التى ستقوم بخدمة الملك فى الحياة الأخرى، كل ذلك كان سيوضع مع الملك فى مدفنه المكون من أربع غرف حفرت فى صخور هضبة من الحجر الجيرى تقع فى مـجرى قديم جـاف لنهر النيل، أطلق عليه بعـد جفافه وانحسار النهر عنه من آلاف السنين اسم «الوادى»، أسفل قمة الهضبة التى تشبه قمة الهرم، والتى اتخذت كعلامة تميز موقع دفن ثلاثين ملكاً آخر سبقوه فى حكم الامبراطورية المصرية.

التحنيط

مر سبـعون يومـاً على مـوت الملك الشـاب، لم يـكن قد تجـاوز الثـمـانية عشرة من عمره حين وافته المنية إثر ضربة مباغتة قاتلة أصابت رأسه، والأكثر احتمالا أنها نجمت عن سقوطه من عجلة حربية (ارجع إلى الملحق رقم ١ - موت توت عنخ آمون).

وأثناء تلك الفترة من الحداد القومى كان جسده قد غسل وطهر على أيدى المحنطين الملكيين فى بر - وابت، وهو المكان المخصص لتغسيل الجسد بعد الموت، ويحتمل أنه كان بمعبد الكرنك شمال مدينة طيبة.

قام المحنطون الخبراء بإزالة كل الأنسجة الرخوة والأمعاء من البدن بسرعة وإتقان، ثم أزالوا الأعضاء المقدسة من فتحة فتحوها فى الجهة اليسرى من البطن، ثم بدأ تجفيف الجثة لتخليصها من كل السوائل، وجمعت السوائل المستخلصة فى حوض خاص بها. أما أنسجة المخ فقد

تم إخراجها من فتحتي الأنف بخطاف خاص تم إدخاله إلى تجويف الجمجمة من فتحتى الأنف. أما الأعضاء الأخرى مثل المعدة والكليتين والكبد والأمعاء فتحفظ من التلف بمواد خاصة أعدت لذلك، ثم تحفظ فى الأوعية الكانوبية بعد أن توضع مع الطبقات الأربع الذهبية لكفن الأمعاء، ثم ترص الأوعية الكانوبية فى فراغ خاص بها بجوار جسد الفرعون. القلب وحده ترك فى موضعه من الجسد حتى تتمكن روح الفرعون من التعرف على التعاويذ السرية التى تمكنه من الخروج من قبره وولوج العالم الآخر.

بمجرد الانتهاء من إفراغ البدن من أعضائه الداخلية يغمر لمدة خمسة وثلاثين يوما فى ملح النطرون ، وهو ملح طبيعى من مركبات الصودا يقوم بامتصاص كل السوائل الباقية بالجسد، وينقل الجثمان بعدها إلى بر - نفرت، وهو المركز الخاص بتجميل الجسد حيث يغمر فى الزيوت العطرية والراتنج والتوابل، ثم تخاط الفتحات التى فتحت لإزالة الأعضاء الداخلية. بعد ذلك يقوم كهنة يرتدون أقنعة حيوانية على وجوههم - على شكل الإله أنوبيس، قاضى العالم الآخر ورب التحنيط وممثل بوجه ثعلب - بلف الجسد بطبقات متتالية من الأربطة، وبين طيات طبقات اللفافات توضع التعاويذ الحامية للملك وطلاسم سحرية لدرء الشر وجلب الحظ الحسن، ويسرى مفعول التعاويذ والطلاسم بعد قراءة نصوص سرية سحرية يقوم بها كهنة مختصون .

بعد الانتهاء من التحنيط ولف الأكفان، اكتملت عمليات إعداد جسد توت عنخ آمون لرحلته الأخيرة إلى وادى الملوك عصابة من الذهب على جبين الملك الميت، عليها النسر وثعبان الكوبرا رمزا الربتين نخ - بت ووا - جت حاميتا الأرضين، أرض مصر العليا، وأرض مصر الدنيا، ثم وضع على وجهه ورأسه قناع من الذهب الخالص على شكل الملك فى كل ملامحه، وعلى صدره ذراعان متربعتان من الذهب بكفين تقبضان على الصولجان والطره، رمز السلطة الإمبراطورية.

فلتبعث من جديد، إلى الأبد

بمجرد أن توقف موكب الدفن أمام المقبرة، شرع صف طويل من موظفي البلاط الملكي مع كوكبة من الخدم في ملء غرف المقبرة بالأغراض والأدوات الجنائزية، في الوقت الذى كانت تتخذ فيه الإجراءات للقيام بالطقس الجنائزى الأخير الذى يمكن روح الملك الميت من الانتقال من حالته الدنيوية إلى حالة آخ - أى الروح الخالدة، ولا تنتقل الروح عادة وتتحول إلى هذه الحالة إلا بعد مرورها عبر رحلة خطرة خلال عالم غريب ملىء بالمخاطر يعرف باسم آم - دوات، أى : العالم السفلى، تواجه فيه الروح وحوشًا كاسرة، ومخلوقات مرعبة، وأفاعى وحيات، وتتعرض لسلسلة من المحاكمات والمحن والاختبارات العسيرة. فإن نجحت الروح فى اجتياز كل العقبات وأثبتت نقاءها، تتمكن من اجتياز العالم السفلى وتصل إلى بوابة الأفق الشرقى، وعلى ضوء الفجر الوليد فى الأفق الشرقى يولد الميت من جديد، ويبعث بين النجوم القطبية المحيطة بالنجم الشمالى، محور الوجود ومركزه.

ذلك الطقس الجنائزى الأخير يسمى طقس «فتح الفم»، ويقوم به اثنا عشر كاهنًا، وجرى العرف أن يؤمه خليفة الملك، وكان آى من سيخلف توت عنخ آمون على عرش مصر. وحين استعد الجميع لبدء الطقس، وضع أربعة كهنة أربعة أقماع من الدهون العطرية حول التابوت الذى يضم الجسد، لتحديد إطار المنطقة المقدسة التى سيشملها الطقس، ثم بدأ كهنة آخرون بنثر الماء من آنية خزفية فى الاتجاهات الرئيسية الأربعة، وبعدها بدأت الابتهالات الدينية لكل الآلهة، وتقديم الأضحيات الحيوانية كقرابين إلى روح حورس المنتصر على الإله ست - إله الشر - الذى مزق جسد أبيه أوزوريس، وضمت حيوانات القرابين ثورين، واحداً للشمال وآخر للجنوب، وعدداً وفيراً من طيور البط ومن الغزلان، وانتزعوا فخذ أحد الثورين وقلبهما، وقدموهما إلى الجسد المسجى، بينما احتفظوا ببقية الذبائح حتى تكون طعاماً للملك فى حياته الأخرى.

تناول «أى» خليفة الملك أداة جنائزية طقسية تسمى «أدز» مصنوعة من خشب أو من حديد، ومس بنهايتها المعقوفة أنف الملك الميت، وعينيه، وأذنيه، وفمه، وذراعيه، وعضوه التناسلى، وساقيه، حتى يضفى عليها سحراً يعيدها إلى الواقع. أثناء ذلك راح يتمتم بأدعية وتعاويذ من نصوص سفر «فتح الفم» باسم الإله أنوبيس والإله حورس، ثم اختتمها بكلمات «فلتبعث من جديد، إلى الأبد».

وبعناية، رفعوا جسد الملك من فوق النقالة وحملوه عبر المدخل الواطئ المؤدى إلى باب المقبرة. كان يلى باب المقبرة غرفة خارجية، إلى يمينها باب يؤدى إلى غرفة الدفن، وغرفة النفائس التى ستوضع مع الميت، وصندوق من الحجر الجيرى يحتوى على الأوعية الكانوبية التى حفظت بداخلها الأحشاء الداخلية لجثة الملك، وحول آنية الأمعاء والأحشاء وضعت أربعة تماثيل من الذهب بالحجم الطبيعى لربات الموت الأربع - نيت وسيلكت، وإيزيس ونفتيس. وبين تابوت الجسد ومدخل الغرفة وضعت أداتان من أدوات الحماية : رأس منحوتة من خشب على هيئة رأس بقرة تمثل الربة حتحور، والثانية من خشب أسود للإله أنوبيس فى هيئة ثعلب.

كانت حوائط غرفة الدفن قد احتشدت برسومات ومشاهد؛ لمعاونة روح الميت على اجتياز عتبات الحياة الأخرى، بينما قبع فى وسط الغرفة تابوت ضخم من حجر الكوارتز الوردى، وبداخل التابوت الهائل وضعت سلسلة متداخلة من التوابيت الأصغر حجماً مكونة من ثلاثة توابيت، بينما كانت أغطيتها المتدرجة الأحجام على شكل الملك على هيئة الإله أوزوريس، ووضعت الأغطية الحجرية حسب تدرج أحجامها كل فى مكانه، وبينما كانت تنتهى تلك المراحل واحدة بعد أخرى، كان الحاضرون وبينهم أرملة الملك الشاب يضعون أكاليل الزهور على جبين وصدر النماذج المنحوتة للملك على أغطية التوابيت، بينما كانت تسكب فوقها الزيوت العطرية والراتنج الدهنى المعطر. وبمجرد أن انتهوا من وضع آخر غطاء وتثبيته فى موضعه باستخدام مسامير ذهبية وفضية، نشر فوقه نسيج من الكتان

الدقيق النسج، ثم انهمك العمال فى رفع غطاء التابوت الجرانيتى الضخم الذى يغطى كل التوابيت المتداخلة، وراحوا يحركونه ببطء وعناية حتى تم ضبطه فى موضعه، وبذلك انتهوا من إغلاق التابوت الحجرى الضخم وفى داخله رفات الملك الراحل وبينما كان الضبط النهائى للغطاء الضخم يجرى فى حيطة وحذر لثقل الغطاء العملاق، وقعت كارثة مفاجئة لم تخطر بذهن أحد من الحضور، فقد انشطر الغطاء بشرخ امتد فى سرعة وقسّم الغطاء الجرانيتى إلى جزءين، وكان ذلك نذير شؤم أربك كل الحاضرين الذين لم يكن بوسعهم عمل أى شىء إزاء تلك الكارثة المفاجئة، ولم يجدوا أمامهم إلا أن يضموا القسمين إلى بعضهما ويملئوا فجوة الشرخ بالملاط. وفى سرعة راح النجارون يحيطون التابوت الضخم بمقاصير متتالية من الخشب المذهب كانت أجزاؤها معدة من قبل، كل مقصورة من الخشب المذهب أكبر قليلا من سابقتها، ووضعت على الأرض بجوار التابوت وبين طبقات المقاصير الخشبية الأدوات الطقسية التى سيحتاج إليها الفرعون خلال رحلته الخطرة فى العالم السفلى. كان مقبض الحبال لكل مقصورة مذهبة يغطى بالشمع ويختم بالشعار الملكى الجنائزى على هيئة الإله انوبيس الثعلب فوق رمز لتسعة من أسرى الأعداء الموثقين بالحبال.

بعد أن تم وضع كل شىء بموضعه من غرفة الدفن، وضع الكهنة تمثالين حارسين أسودى اللون بالحجم الطبيعى المذهب ، يمسك كل منهما فى إحدى اليدين بصولجان وفى الثانية ما يشبه الكرة ويرمزان إلى روح الملك التى تسمى «كا» يمثلان وجوده الروحى، ووضعا على جانبى مدخل غرفة الدفن كحارسين للمثوى النهائى للملك.

وراح حضور الدفن ينسحبون واحدا بعد آخر، تاركين أرملة الملك والمقربين من الأسرة المالكة ليتناولوا الطعام الجنائزى من بعض الأضحيات التى ذبحت فى مراسم إجراء طقس «فتح الفم»، بعد الانتهاء من الوجبة حطموا فى إجراء طقسى كل أوانى الطعام، ونظفت الأرض من بقايا الأطعمة، وشرائط الحداد البيضاء، وأدوات التحنيط، وضعت

جميعها فى اثنتى عشرة جرة فخارية صفت بمدخل المقبرة، بعيداً عن فراغ المقبرة النقى المعقم والمعطر.

وبعد الانتهاء من صف كل شىء بالغرف الأربع، تم إغلاق مداخل الغرف باستثناء غرفة الكنوز والنفائس بحجارة رصت رصاً هيناً، ثم غطيت بطبقة من الملاط تم ختمها بأختام توت عنخ آمون والأختام الجنائزية. وأخيراً أصبح بإمكانهم ترك الملك الشاب يرقد فى سلام، باستثناء حراس المقابر الذين يقومون بحراسة مثواه الأخير.

ومرت الأعوام - وباستثناء محاولتين قام بهما لصوص المقابر فى عهد «آى» أو خليفته حورمحب لسرقة ذهب المقبرة - لم يتمكن أحد - أبدا - من دخول مقبرة توت عنخ آمون.

وبالرغم من نذير الشؤم الذى هز من قاموا بطقوس الدفن بعد انشطار غطاء التابوت الجرانيتى الضخم، إلا أن الآلهة حفظت جسد الملك الشاب، وسرعان ما نسيت بقاياه الدنيوية، وبعد ذلك بمائتى عام، حين كان العمال يشيدون مقبرة - أكبر كثيراً - للملك رمسيس السادس فوق مقبرة توت عنخ آمون مباشرة، قاموا بإعداد كهوف لإقامتهم فوق المدخل الخفى لمقبرة توت عنخ آموت مباشرة، مما ساعد - دون قصد منهم - على التمويه على سارقى المقابر فى العصور الحديثة. وظل الملك الشاب نائماً فى سلامه الأبدى على مدى مليون طلعة شمس فى عالم الأبدية الذى سعى إلى ضمانه، حتى جاء يوم بدأ فيه رجل إنجليزى يدعى هوارد كارتر فى الحفر بحثاً عن الآثار فى وادى الملوك.

٢ - لغز الوادى

نجح الملك الشاب فى البقاء آمنًا من عبث اللصوص والفضوليين والمنقبين على مدى يربو على ثلاثة آلاف عام، بالرغم من تمكنهم من انتهاك حرمة أغلب مقابر وادى الملوك ونهب محتوياتها. ولم تسفر المحاولات الدؤوبة وعزيمة ومثابرة الباحث الإيطالى بيلزونى (١٧٧٨ - ١٨٢٣ .م) التى أدت إلى اكتشافه لأماكن خمس مقابر فى وادى الملوك، ومنها مقبرة سيتى الأول عام ١٨٠٧م ، عن اقتراب العالم المعاصر قيد أنملة من موضع دفن الملك الشاب، وفى عام ١٨٢٠، وبالرغم من كل إنجازاته السابقة، اعترى اليأس بيلزونى، وأعلن أنه : «لا توجد مقابر أخرى» فى «بيبان الملوك»، وهو الاسم الذى يطلقه عرب المنطقة المصريون على وادى الملوك. وبعد أن غادر الوادى حل آخرون محله، وحققوا مزيداً من الاكتشافات، وعثروا على مقابر أخرى، وارتبطت أسماء باحثين معينين بمكتشفاتهم فى الوادى مثل شامبليون، وروسيللينى، وليبسيوس الذى ارتبط اسمه باكتشاف مقبرة رمسيس الأكبر واكتشاف القسم الأكبر من مقبرة ميرنبتاح.

ثم وصل إلى الوادى تيودور م. داڤيز (١٨٣٧ - ١٩١٥) وهو محام ومليونير أمريكى من مدينة بوسطن، يحدوه أمل اكتشاف مقابر وآثار مصرية قديمة، وحصل عام ١٩٠٢.م على ترخيص بالبحث والتنقيب من مصلحة الآثار المصرية وكوّن فريقا كان على رأسه عالم المصريات الفرنسى الشهير جاستون ماسبيرو، وبدأ أعمال البحث والتنقيب فى وادى الملوك. وعلى مدى اثنى عشر عاما أحرز نجاحات مدوية، وتوصل إلى اكتشاف مقابر شخصيات شهيرة فى التاريخ المصرى الحافل، مثل

مقبرة الملكة ذائعة الصيت حتشبسوت، والملك تحتمس الرابع، وكليهما ينتميان إلى الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك مقبرة سبتاح الذى كان من ملوك الأسرة ١٩، وكانت كل تلك المقابر قد تعرضت للسطو على أيدى لصوص المقابر على مدى العصور السابقة.

فضلا عن ذلك، توصل داڤيز إلى اكتشاف مقبرة القائد العسكرى العظيم «حور محب» (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م)، والذى تلى «أى» على عرش مصر بعد موت توت عنخ أمون.

وفى وادى الأمراء والنبلاء القريب من وادى الملوك، توصل داڤيز إلى الكشف عن مقبرة النبيل «يويا» وزوجته الأميرة «تويا»، والدى الملكة العظيمة «تى» زوجة الإمبراطور «أمونحتب الثالث»، الذى لم يكن أبا - فقط - للمرتد أخناتون وحده (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م)، بل - من المحتمل جدا - إنه كان - أيضا - أبا للملك توت عنخ آمون. وعدا اكتشاف جثتى «يويا» و«تويا» كاملتين ومحنطتين بالرغم من عدم انتمائهما إلى الأسرة المالكة، فقد عثر فى مقبرتيهما على أثاث جنائزى كامل، وعربة مفككة الأجزاء، وكانت تلك المقتنيات الجنائزية الكاملة أفضل ما تم التوصل إليه حتى ذلك الوقت قبل اكتشاف مكان مقبرة توت عنخ أمون.

لغز المقبرة ٥٥

فى شهر يناير من عام ١٩٠٧م ، توصل داڤيز إلى اكتشاف مقبرة أثارت جدلاً واسع النطاق بسبب الغموض الذى اكتنفها دون كل مقابر طيبة، وأصبح التعرف على صاحبها يتسم بأهمية فائقة فى تحديد التتابع الزمنى الصحيح لحكام مصر فى عصر توت عنخ أمون، وصنفت المقبرة برقم رمزى هو kv - 55 من مصلحة الآثار المصرية، وكان من بين بقايا محتوياتها تابوت مطلى فى حالة سيئة ومطعم بزجاج ملون، وتبين أن الصندوق الصخرى الذى يضم التابوت الخشبى داخله كان قد تصدع حين اهترأت الدعامات الخشبية التى تثبته فى موضعه، فلم تحتمل ثقله

وانهار، وأدى ذلك إلى إزاحة الغطاء الصخرى عن موضعه جزئياً، فظهرت المومياء داخله.

كانت محتويات المقبرة على حالة تشى بأن هناك من عبث بها وتركها على تلك الحالة من الفوضى، ووجد الباحثون أنفسهم فى حالة تشوش كلى فى تحديد صاحب المومياء والمقبرة.

على يسار الممر الداخلى للمقبرة وجدت أجزاء مفككة من تابوت صخرى مطلى، وعلى تلك الأجزاء نقش محفور يذكر أن تلك الأجزاء صنعت لـ «تى» الزوجة الملكية العظيمة لآمونحتب الثالث، وأن ابنها أخناتون قد أمر بصنعها لها، وعثر على مقتنيات أخرى صغيرة مبعثرة فى غرفة الدفن تحمل الاسم ذاته.

وعثر - أيضا - فى كل ركن من أركان غرفة الدفن الأربعة على حجر مطلسم لحماية روح الميت أو هيئته الخالدة «كا» من أى قوى شريرة. كانت تلك الأحجار الأربعة المطلسمة تحمل قبل ذلك الاسم الأول لأخناتون وهو نفر خابيرور - وا إنر[١]، وعلى التابوت ذاته نقوش تعظم أخناتون. وبالرغم من أن الضمائر فى النص الأصلى كانت أنثوية تتكلم عن زوجة ملكية إلا أن الضمائر المؤنثة تم محوها، وبدلت بضمائر مذكرة تشير إلى الملك، وبعد ذلك التبديل أزيلت كل النقوش السابقة والمعدلة ويبدو أن محاولة إزالتها قد حدثت بعد انهيار النظام الدينى لاخناتون (انظر الفصل الثالث)، ويفترض أن ذلك قد حدث أثناء دفن صاحب المقبرة المجهول.

وخمنت بعض الأبحاث الدؤوبة المعاصرة أن الاسم الممحى يحتمل أنه كان لـ «كايا»، الزوجة الأقل شأنا لأخناتون[٢]. كما عثر بالمقبرة ذاتها على أربعة أوعية كانوبية تحتوى على أحشاء الميت فى فجوة بجدار المقبرة. كانت أغطية الأوعية الكانوبية منحوتة على هيئة رأس سيدة ترجل شعرها على نمط منطقة النوبة جنوب مصر، وهو ما دفع إلى الاعتقاد بأن ساكنة تلك المقبرة هى «كايا». ولسوء الحظ، تلاشت - أيضا - النصوص المكتوبة على الأوعية الكانوبية.

وهكذا، أصبح التعرف على صاحبة المقبرة بالوسائل المباشرة ضربا من ضروب التخمينات.

وظل التساؤل بلا إجابة يقينية، لمن ذلك الجسد المسجى فى المقبرة التى تحمل رقم KV-55 ؟

وفى سعيه لإجابة ذلك التساؤل، استعان داڤيز بطبيبين شهيرين : أحدهما باطنى، والثانى جراح؛ لفحص الجثة فى موضعها[٣].

وفض الطبيب الأول بعض لفائف الكتان التى تغلف الجسد، وقرر بعد فحص منطقة الحوض والشكل الظاهرى للبدن أنه لامرأة، ودون سعى من داڤيز لتمحيص تلك النتائج والتأكد من دقتها ، أعلن لوسائل الإعلام أنه اكتشف جثمان الملكة تايى[٤]. ولدهشة كل المختصين بالآثار، وبعد الفحص التشريحى الدقيق الذى قام به البروفيسور چورچ إليوت سميث أستاذ التشريح بمدرسة طب القاهرة، أثبت أن العظام لرجل لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره[٥].

وفتح ذلك التحديد الطبى الباب على مصراعيه لمزيد من النظريات التخمينية. حتى إن إدوارد ايرتون، الآثارى البريطانى الذى كان يقوم بالبحث فى وادى النيل لحساب داڤيز، أعلن : أن جثة ساكن المقبرة الغامض ليست سوى جثة توت عنخ آمون، ومن الواضح أن ذلك لم يكن صحيحا بأى حال. ومن جهة أخرى أعلن آرثر ويجال زميل ايرتون : أن الأحجار الأربعة المطلسمة تشير إلى أن الجسد لأخناتون، وأيده فى ذلك سميث، واعتبروا أن جسد الملك المرتد قد نقل على وجه السرعة وبتعجل إلى مقابر طيبة من مقبرته الملكية التى كان قد أعدها فى تلال الوادى الملكى خلف مدينة أخيتاتون، وهى المدينة التى شيدها بمنتصف مصر، وأقام بها فى آخر اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاماً من فترة حكمه الذى دام سبعة عشر عاماً. وأثار ذلك تساؤلا آخر : هل فعلاً أعدت المقبرة التى تحمل رقم KV-55 كمثوى أخير للملك المرتد ؟

مكتشفات البروفيسور هاريسون

في ديسمبر من عام ١٩٦٣م قام فريق من العلماء على رأسه البروفيسور رونالد ج. هاريسون من جامعة ليڤربول بفحص جديد للجثة التي عثر عليها في المقبرة رقم KV-55 ، وبدأوا بفحصها في المتحف المصري أولا، ثم قاموا بمزيد من الفحص بعد نقل الجثمان إلى مستشفيات كلية طب القصر العيني[٦] ، وذكر هاريسون في التقرير النهائي: «تبين بعد الفحص الدقيق لما تبقى من الجسد أنه لرجل بكل يقين، وكان عمره حين مات أقل من خمسة وعشرين عاماً، وكان طوله خمسة أقدام وسبع بوصات (أي حوالي ١٧٠ سنتيمترا) حين وافته المنية.

كما رجح - أيضا - مستعيناً بمعلومات حيوية معينة (مثل تركيز الماء في عظام الأسنان، وحالة عظام العانة، والتحام نهايات عظام الترقوة والساعد، ونهايات العظام الطويلة الأخرى) أنه يحتمل - أيضا - أن صاحب الجثة كان في العشرين من عمره حين وافته المنية[٨]، واتفقت نتائج ذلك البحث مع نتائج أول فحص أجراه علماء المصريات للجثة بعد اكتشافها مباشرة. أما إليوت سميث فقد أعلن : أن الجثة لذكر كان يبلغ ٢٥ أو ٢٦ عاماً، بينما توصل دكتور دوجلاس إ. ديرى - وكان في ذلك الوقت يشغل منصب أستاذ التشريح في الجامعة المصرية، وقام بفحص الجثة عام ١٩٣١ - إلى أن العظام لشاب لا يزيد سنه عن ٢٣ عاما[٩].

وتأكدت المعلومات نهائيا عام ٢٠٠٠م. حين قامت جويس فيلر الأخصائي المساعد لعلم رفات الإنسان والحيوان في قسم المصريات بالمتحف البريطاني بفحص الهيكل العظمي الموجود بالمتحف المصرى. ولعدد من الأسباب العلمية الموضوعية قررت : أن العمر في لحظة الوفاة كان ٢٥ عاما، ويحتمل أقل من ذلك[١٠] ، ومن جديد ثار التساؤل ذاته : لمن تلك الجثة التي وجدت بالمقبرة KV-55 ؟

كان أخناتون قد اقترن بأشهر وأجمل امرأة في التاريخ المصرى ، ونقصد بالطبع نفرتيتي، التي وُجد لها تمثال نصفي ملون من الحجر

الجيرى بين حطام وبقايا ورشة لنحت التماثيل فى موقع مدينة أخيتاتون عثر عليه عالم الآثار الألمانى لودفيج أوركارد عام ١٩١٢م، وكانت نفرتيتى قبل صعودها إلى مشاركة زوجها فى الحكم فى العام الرابع عشر من حكمه الذى امتد إلى سبعة عشر عاماً (انظر الفصل الثالث)، قد أنجبت منه ست إناث كن يظهرن بوضوح فى كل الرسوم والنقوش بصحبة والديهن، وبعد ذلك حلت الابنة الكبرى ميريت آتون محل أمها كزوجة أولى أثيرة، وبالرغم من ذلك ظلت محتفظة بصفتها الرسمية كابنة الملك، وخلال عام أو نحوه وضعت طفلة ربما كانت من أبيها. وعلى ضوء ذلك، لابد أنها كانت فى الثالثة عشر، أو الرابعة عشر، من عمرها حين أصبحت زوجة ملكية. وبافتراض أن أخناتون كان فى أواخر العقد الثانى من عمره حين اعتلى عرش مصر، فإن ذلك يعنى أنه كان فى منتصف الثلاثينيات من عمره حين وافته المنية، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون هو صاحب الجسد الذى عثر عليه بالمقبرة KV-55 ، ولابد أن يكون لامرئ آخر غيره[١١].

وكان من المثير حقاً أن نجد دكتور دوجلاس ديرى يبرز من وجهة نظر تشريحية تماثل وثيق بين الجمجمة التى عثر عليها فى المقبرة KV-55 وجمجمة توت عنخ آمون، مما يدفع إلى الاعتقاد بقوة أنهما كانا أخوين[١٢]، وتوصل هاريسون إلى الافتراض ذاته بعد أن فحص جثة توت عنخ آمون (وأكدت چويس فيلر صحة هذا الاستنتاج عام ٢٠٠٠م)،[١٣] وترتب على ذلك إقدام هاريسون على إعادة تركيب ملامح الوجه طبقا للتكوين التشريحى للجمجمة التى عثر عليها بالمقبرة KV-55، معتمدا على التركيب التشريحى، وقام بتنفيذ تلك المحاولة د.ج. كيد الرسام الطبى لكلية طب جامعة ليڤربول، وبعد الانتهاء من عملية إعادة تصوير وتجسيد الملامح تبين كما ذكر هاريسون : «التطابق والتشابه المذهل» بين وجه وملامح صاحب المقبرة KV-55 مع ملامح وجه توت عنخ آمون كما بدت من موميائه، كما ثبت تباعد الشبه نهائيا إن لم يكن تناقضه مع ملامح أخناتون[١٤]، وبعد ذلك أجريت فحوص بقايا الدماء لكلا الجثتين ثبت منها

تطابق فصائل الدم، وبالرغم من عمومية الفصيلة، إلا أنها تثبت أن هناك قرابة دم مباشرة بين صاحب المقبرة KV-55 وتوت عنخ آمون[١٥].

وحيث إن صاحب المقبرة KV-55 قد دفن فى أعوام الاضطراب والنزاع الدينى التى يشير إليها علماء التاريخ المصرى المعاصرون بأنها أعوام هرطقة العمارنة أو فتنة العمارنة، فمن المحتمل أن يكون أحد الملوك الأربعة الذين حكموا فى تلك الفترة المضطربة، وهو بالطبع ليس أخناتون؛ لأن الجسد لرجل مات فى سن أصغر كثيراً من سن أخناتون عند موته، كما أن الجثة ليست «لآى»، فقد كان شيخاً عند موته وحكم لمدة أربعة أعوام بعد موت توت عنخ آمون، هذا عدا أن مقبرة آى قد اكتشفت فى البر الغربى، ومن الواضح أنها ليست لتوت عنخ آمون الذى اكتشفت مقبرته وبها جثته عام ١٩٢٢. ولا يتبقى أمامنا إلا العضو الرابع والأخير الذى لم تعرف له مقبرة، وهو سمنخ كارع الذى افترض باحث الآثار والرسام البريطانى نورمان دى جارى داڤيز أنه هو صاحب المقبرة KV-55 بعد اكتشافها مباشرة، إلا أن معاصرى داڤيز تجاهلوا ذلك الافتراض مرجحين عليه افتراضا آخر وهو أن صاحب المقبرة KV-55 هو أخناتون ذاته. ولم يتم تناول هذا الأمر من جديد إلا عام ١٩٣١، حين توصل أحد تلامذة ديرى وهو عالم المصريات البريطانى ريجنالد «ريكس» انجلباك إلى أن النقوش التى محيت عن عمد فى المقبرة KV-55 تدل بقوة على أن الجثمان الذى وجد فى أكفان مذهبة إنما هو لسمنخ كارع[١٦] ، فمن هو ذلك الملك الغامض المنتمى إلى مرحلة العمارنة من التاريخ المصرى؟

سمنخ كارع

من المعروف أنه قبل موت أخناتون مباشرة عام ١٣٥٠ ق.م حكم سمنخ كارع (وينطق سمينكارى) مصر من تل العمارنة وممفيس، وكانت ممفيس العاصمة الإدارية لمصر الدنيا، واستمر فى الحكم ثلاثة أعوام، واتخذ من ميريت آتون زوجة له، وكانت قد أنجبت قبل ذلك ابنة من والدها

أخناتون، وعدا اسم سمنخ كارع، اتخذ لنفسه اسمًا شخصياً هو عنخ خبرورى، وتوجد نقوش ونصوص تتحدث عن شريك لأخناتون فى الحكم فى آخر أيامه يدعى عنخ خبرورى نفرن نفرو آتون، ويفترض أنه هو سمنخ كارع إلا أن ما يثير بعض التشوش حول ذلك الأمر أن نفرتيتى - أيضا - حملت اسم نفر نفرو آتون، فماذا نفعل فى مواجهة ذلك اللغز؟

من الحقائق المعروفة لمتخصصى مرحلة العمارنة فى عصرنا الحالى أن نفرتيتى حملت لقب عنخ خبرورى نفرن نفرو آتون حين أصبحت شريكة لزوجها أخناتون فى حكم مصر فى أيامه الأخيرة، إلا أنها حين راحت تبتعد عن مسرح الأحداث اعتلى سمنخ كارع العرش وسبب مزيداً من التشوش والخلط حين اتخذ لنفسه - أيضا - بعد اعتلائه العرش اسم نفرن نفرو آتون، وربما كان دافعه إلى ذلك التأكيد على اختيار نفرتيتى له كخليفة لها، وأدى ذلك الخلط إلى افتراض متخصصى وباحثى مرحلة العمارنة أن نفرتيتى وسمنخ كارع لم يكونا إلا شخصية واحدة، وهو افتراض يتعذر اثباته (ارجع إلى الملاحظات والمراجع لمعرفة تفاصيل تلك المشكلة)[١٧].

لقد وجدت كثير من الأدوات الجنائزية فى مقبرة توت عنخ آمون تحمل اسماً، إما عنخ خبرورى أو نفرن نفرو آتون (وبالمصادفة اقترن الاسمان أيضا باسم ميريت آتون)، وتبين أن الاسمين، عنخ خبرورى، ونفرن نفرو آتون قد محيا وكتب موضعهما اسم توت عنخ آمون، ومن ضمن ما تم اغتصابه الأوعية الكانوبية، وغطاء الصندوق الحجرى الذى يضم تابوت الجسد، وعدد كبير من الرقائق الذهبية التى كانت تزين بها الأغطية من المنسوجات الكتانية والتى تلف بها التوابيت، وسوارات من الخزف الملون وأجزاء قوس [١٨] ، ورأى بعض الباحثين أن الصندوق الصخرى الضخم الذى يوضع التابوت داخله كان قد صمم أصلاً لسمنخ كارع قبل الاستيلاء عليه لخليفته توت عنخ آمون[١٩]. فلو لم تكن كل تلك القطع قد جاءت من أحد مخازن طيبة، فلابد أنه تم الاستيلاء عليها من مقبرة،

واحتمال أنه استولى عليها من المقبرة KV-55 الواقعة فى الجانب المقابل من وادى الملوك احتمال مقبول .

من الغريب أن سمنخ كارع لم يذكر اسمه فى أى نقوش نصية، كما لم يتم تصويره فى أى مناسبة حتى رفع فجأة واعتلى عرش مصر فى نهاية حكم أخناتون. من تلك الحقيقة وحدها يفترض أنه كان على درجة من قربى الدم بأخناتون، ومن الثابت أنه لم يكن ابناً له، والأقرب إلى الاحتمال أنه كان أخ غير شقيق له مع غموض كامل يحيط بشخص أمه. ومن المفهوم - أيضا - أن توت عنخ آمون الذى لم يظهر هو الآخر فى أى تسجيلات مصورة قبل اعتلائه عرش مصر كان أخاً غير شقيق لأخناتون، وأخاً شقيقاً لسمنخ كارع، وهو افتراض يبدو معقولاً ومنطقيًا إزاء التماثل التشريحى المذهل بين جمجمة صاحب المقبرة KV-55، وجمجمة توت عنخ آمون.

والدليل النصى الوحيد الذى يلقى الضوء على والدى توت عنخ آمون موجود على تمثال لأسد من الجرانيت عثر عليه فى بلدة صوليب فى شمال السودان، وهى منطقة النوبة المصرية القديمة، وذلك التمثال يحمل نقشًا نصيًا يتضمن أن أباه هو نت فاعت رع آمو نحتب [٢٠] ، وهو آمو نحتب الثالث، وكان آمونحتب قد بدأ فى تشييد ذلك المعبد المزدوج فى صوليب، واحد له، والثانى لزوجته الملكة العظيمة تاى، وأتم بناءهما توت عنخ آمون ليؤكد أنه من نسل آمونحتب الثالث، وليثبت آنه ليس على دين المرتد أخناتون. وسيان بدا هذا دليلا كافيا أم لا على أن توت عنخ آمون كان ابنًا لأمونحتب الثالث، أو على الأقل ينحدر من نسله، فإنه لا يوجد للأسف دليل آخر يحسم ذلك الأمر، إلا أن الغالب أنه كان ينحدر من صلب أمونحتب الثالث، كابن مباشر، أو حفيد فى أضعف الاحتمالات.

ومهما كان كنه شخصية سمنخ كارع، إلا أنه أكثر الأشخاص ملائمة لأن يكون صاحب المقبرة KV-55 [٢١] ، بالرغم من المحاولات المستميتة المعاصرة التى عادت من جديد لتحاول إثبات أن صاحب المقبرة هو

أخناتون ذاته [٢٢]، إلا أن ذلك الجسد تم التعرف عليه مرة أخرى عام ١٩٦٠ على أنه سمنخ كارع من خلال بحث قام به عالم المصريات البريطانى هـ. و. فيرمان [٢٣] ، وأكد على ذلك مرة أخرى عام ١٩٦٦ العالم الكبير هاريسون بعد فحص أنسجة الجسد وتوصل فى تقريره النهائى إلى ما يلى :

«بمراعاة الصفات البدنية، والعمر لحظة الوفاة، وملامح الوجه.. يستحيل إثبات أن هناك تشابهًا بين صاحب الجثة وأخناتون، التشابه المذهل موجود بينه وتوت عنخ آمون، ويشير عمر صاحب الجثة عند موته إلى أنه هو سمنخ كارع» [٢٤].

وعلى ذلك ، إن كانت مقبرة سمنخ كارع قد اكتشفت عام ١٩٠٧، فأين مقبرة أخيه، الشقيق أو غير الشقيق، توت عنخ آمون؟

ثلاثة مفاتيح لحل لغز مكان مقبرة توت عنخ آمون

عكف تيودور دافيز على تمحيص كل ما ذكر من قبله عن الأماكن التى يحتمل وجود مقبرة توت عنخ آمون بها، وأكد كل الباحثين السابقين أنها لابد وأن تكون بموضع ما من وادى الملوك. وفى موسم حفر ١٩٠٥ – ١٩٠٦ عثر إيرتون تحت صخرة على كوب خزفى رائع منقوش عليه الاسم الملكى لتوت عنخ آمون وهو نب خبرو رع [٢٥].

وفى الأسبوع الأول من موسم حفر ١٩٠٧ – ١٩٠٨ عثر على ما ظن فى حينه أنه مقبرة، وكانت على عمق سبعة أمتار، وتبين بعد ذلك أنها غرفة خاوية امتلأت بطمى جاف، مما دل على أن ماء الفيضان غمرها مرات لا عدد لها على مر آلاف الأعوام (وهى مشكلة مزمنة فى وادى الملوك الذى كان مجرى قديما للنهر قبل جفافه وتحوله إلى وادٍ)، فى قاع الغرفة وجد تمثال صغير من المرمر – لشخص ما – ذراعاه معقودان على صدره، ويحتمل أنه للفرعون آى، وعثر – أيضا – على صندوق صخرى محطم، يحتوى على بعض الرقائق الذهبية مختومًا عليها اسم توت عنخ

آمون وزوجته عنخوسن آمونو [٢٦] ، وحملت إحدى الرقائق الذهبية نقشاً يصور توت عنخ أمون على عجلة حربية أثناء رحلة صيد [٢٧] ، وعلى قطعة أخرى نقشاً آخر يصور توت عنخ آمون يذبح أحد أسرى الأعداء، بينما زوجته عنخسن آمون تقف خلفه، بينما يقف أمامه آى فى منصب حامل المروحة الملكية و«الأب المقدس» [٢٨]، وحملت رقائق أخرى اسم توت عنخ آمون، وبعضها حملت اسمى آى وزوجته تى.

بعد ذلك بعدة أيام، اكتشفت فجوة فى تل غير مصقولة الجوانب (حملت بعد ذلك اسم «حفرة ٥٤») بلغت أبعادها ٩ر١ × ٢٥ر١ مترا ، وعمقها مترا ونصف المتر. كانت تلك الفجوة فى موضع من التل يعلو مقبرة سيتى الثانى، وعلى بعد ١٢٠ مترا من مقبرة رمسيس السادس الذى حكم فى الفترة من ١١٤١ حتى ١١٣٤ قبل الميلاد (وكانت مقبرة توت عنخ أمون المخفية تقع أسفلها مباشرة)، وعثر بداخل تلك الفجوة على اثنتى عشرة جرة فخارية بأغطيتها وتحمل نقوشًا بأعلاها، وقام داڤيز بنقلها إلى مسكنه فى البر الغربى للأقصر، بعد ذلك فتحت تلك الجرار رسميًا فى حضور القنصل العام البريطانى فى مصر، سير إلدون جورست، وعثر بداخل الآنية الفخارية على أكواب فخارية محطمة، وأوانى جعة محطمة، وحطام أوانى خزفية للطعام، وصرر من الكتان تحتوى على ملح النطرون وقشور حبوب قمح، ولفائف أربطة تحنيط، وأكاليل كبيرة من الزهور وأوراقها مثبتة على أوراق بردى، ومكنستين، وبقايا عظام حيوانية وعظام طيور، وقناع جنائزى مطلى [٢٩]. كان من الواضح أن تلك الجرار تمت بصلة إلى مقبرة توت عنخ آمون، فقد كانت أغطيتها الفخارية تحمل اسم إما توت عنخ آمون الملكى وهو نب خبرو رع، أو خاتمه الملكى الجنائزى وهو صورة الإله أنوبيس على هيئة ثعلب مقعى فوق تسعة من أسرى الأعداء الموثقين بالحبال، ولأن تلك الموجودات لم تكن تمثل لداڤيز قيمة مالية تذكر تبرع بها ذلك المليونير الأمريكى إلى متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، وكان المتحف حريصا على اقتناء كل ما يمكن اقتناؤه من آثار مصرية، وبعد وصول تلك المقتنيات إلى المتحف، تم تخزينها، ولم

يكتشف أحد مغزاها الحقيقى إلا بعد سنين حين عكف على فحصها الأمين المساعد للمتحف هربرت إ. ونلوك (١٨٨٤ - ١٩٥٠)، وأدرك ونلوك على الفور أن صرر ملح النطرون ولفائف التحنيط الكتانية ليست إلا ما تبقى من عملية تحنيط لفرعون، وتمثل باقى الموجودات بقايا وليمة الدفن التى تتم عادة داخل المقبرة بعد اسجاء الميت فى مرقده الأخير وإغلاق الصندوق الحجرى. وتبين له أن تلك الوليمة ضمت ثمانية أفراد، وضع كل منهم أحد تلك الأكاليل الجنائزية حول رقبته وكذلك أحد أشرطة الحداد الكتانية البيضاء التى تربط على الجبين، وكان مسجل على واحد من تلك الأشرطة الكتانية تاريخ «العام الثامن من حكم توت عنخ آمون»[٣٠].

كانت الوليمة الجنائزية مكونة من خمس بطات وأوزتين وفخذ ضأن، مع كميات من الجعة والنبيذ. وبعد الانتهاء من الوليمة قاموا بتحطيم أدوات وأوانى الطعام الفخارية كأحد طقوس الوليمة الجنائزية ووضع الحطام مع باقى المخلفات فى الجرار الفخارية، بينما استخدمت المكنستان لتنظيف أرض المقبرة من أى مخلفات للوليمة.

وحين اكتشفت المقبرة بعد ذلك، اتفق كارتر ونيلوك على أن تلك الجرار كان من المفترض أن تترك فى الممر الخارجى للمقبرة، إلا أنهم بعد الدفن ملئوا الممر الخارجى بالأحجار والحصى ووضعوا الجرار فى تلك الفجوة التى كانت قريبة من مدخل المقبرة.

وبالرغم من تلك المفاتيح التى كانت تشير إلى وجود المقبرة، إلا أن دافيز افترض أن تلك الفجوة هى مقبرة الملك الشاب، وصرح بعد ذلك قائلا: «أخشى أن وادى الملوك لم يعد به ما يحتاج إلى بحث» [٣١]، واقتنع أنه لم تعد بالوادى أسرار ليبوح بها، لذلك قرر عام ١٩١٤ ألا يجدد تصريح الحفر للموسم التالى، إلا أن شابا إنجليزيًا دؤوبًا كان يعمل رساماً ناسخاً للآثار كان ينتظر فرصة سانحة لم يقر دافيز على رأيه ، وكان اسم ذلك الشاب : «هوارد كارتر».

٣ - تساؤلات كارتر

ولد هوارد كــارتر فى ٩ مــايو عــام ١٨٧٤ بمنزل أســرته فى حى كينستون بلندن، وكان أبوه صامويل چون كارتر رساماً، يقوم برسم صور الحيوانات المختلفة لجريدة لندن المصورة، ونشأ كارتر بين عمتين له لم تتزوجا فى قرية سافولك بمنطقة سوافام، حيث لم يتلق إلا تعليماً أولياً بسيطاً، إلا أنه كان موهوبا بالرسم مثل أبيه.

وسرعان ما لفتت تلك الموهبة انتباه اللورد ويليام أمـهرست، وكان أمـهرست من أشـهر جـامعى الآثار المصـرية القـديمـة، وصـاحب فكرة مـشـروع صندوق تمويل البـحث عن الآثار المصــرية (E.E.F) والمتــبـرع الرئيسى لتمويله، وتطورت فكرة الصندوق بعد ذلك لتصبح جمعية الكشف عن الآثار المصرية القديمة (.E.E.S). وبعد نجاح كارتر فى مهام عديدة كلفه بها اللورد أمهرست، قام بتزكيته كرسام آثار بارع لدى البروفيسور بيرسى نيوبرى (١٨٦٩ - ١٩٤٩)، وكان بيرسى نيوبرى عضواً بجمعية الكشف عن الآثار المصرية، ويقوم بالبحث عن المقابر الصخرية فى بنى حسن الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل فى مصر الوسطى. وبعد ثلاثة أشـهر قـضاها هوارد كارتر فى تحبير وتلوين رسومات تخطيطية لآثار مصرية، وجهت إلى كارتر الدعوة لزيارة مصر - وهو فى السابعة عشـرة من عمره - لنسخ الرسوم والنقوش الفرعونية التى يتم الكشف عنها فى بنى حسن، وقرية البرشا الواقعة على مبعدة بضعة كيلو مترات جنوب بنى حسن، وكان ذلك فى شهر سبتمبر عام ١٨٩١. كانت تلك الدعوة بمثابة البداية لعلاقة حميمة بين هوارد كارتر ومصر دامت أربعين عاما حتى نهاية عمره، كما نتج عن تلك العلاقة على ذلك المدى الزمنى أن يصبح كارتر أهم وأشهر عالم مصريات على مدى كل العصور.

كان كارتر عابس الوجه، صارم الملامح، تبدو عليه إمارات التفكير العميق بوجهه المستطيل، وشاربه المشذب الصغير. كان يعانى من صعوبة بالتواصل مع الآخرين، وتعتريه نوبات ضجر أدت به فى أحيان كثيرة إلى الوقوع فى مشاكل فى مناسبات مختلفة خلال فترة عمله الطويلة، إلا أنه كان ناسخ رسوم بارع، وملونًا ماهراً، وسرعان ما حاز إعجاب ورضى من عملوا معه، بل إنه تمكن من قراءة الهيروغليفية بمجهوده الذاتى.

وأدى كارتر مهامه التى كلفه بها نيوبرى بكفاءة تامة، وترتب على ذلك أن كلفه البارون أمهرست بالانضمام إلى فريق التنقيب الذى يموله صندوق التنقيب عن الآثار المصرية، فى موقع مدينة أخيتاتون سيئة الطالع فى مصر الوسطى، تحت إشراف أحد أعظم علماء المصريات القديمة وهو ويليام ماثيو فلندرز بترى (١٨٥٣ - ١٩٤٢). كان بترى بحاجة إلى معاونين فى بحثه الدؤوب للكشف عن صفحات الماضى الخاصة بالملك المارق دينيا، والذى شيد مدينته وأطلق عليها اسم أخيتاتون، ويعنى الاسم «أفق آتون» على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة غير مأهولة، عرفت فى العصور الحديثة باسم تل العمارنة.

هرطقة العمارنة

بعد أن حكم أخناتون الذى ينتمى إلى عصر الأسرات الحديثة الإمبراطورية المصرية من عاصمتها طيبة مثل من سبقوه من أسلافه ، خرج عن ديانة آبائه وشعبه التى تتضمن تعدد الآلهة، وهى الديانة التى ظلت سائدة من قبله لأكثر من ألفى عام. استبدل تلك المعتقدات الدينية القديمة بمعتقد دينى جديد تبنى فيه مفهوم التوحيد بجوهره المؤمن بآتون إله واحد. وطبقًا للتسجيلات التى صمدت حتى عصرنا الحالى تبين أن ذلك المفهوم كان ينحصر حول وجود قوة واحدة إلهية مطلقة مزدوجة الجنس هى قرص الشمس ونورها، وتم تصوير تلك القوة فنياً على هيئة قرص الشمس، تنبعث منها خيوط وخطوط الضوء التى ينتهى كل خط

منها بكف حانية واهبة معطاءة وبعضها يمسك بمفتاح الحياة.

في الوقت نفسه منع الشعب من عبادة أي آلهة أخرى مذكرة أو مؤنثة، كما صرف كهنة الآلهة القديمة من المعابد، وأهمل المعابد التي تركها كهنتها وأصبحت خربة مهجورة ينعق فيها البوم، وحوَّل موارد المعابد القديمة ووجهها لصالح معبد آتون في مدينة أخيتاتون، وحرَّم كل أشكال العبادات التعددية واعتبرها وثنية، وأزال من على جدران وحوائط المعابد كل ما استطاع محوه من أسماء الآلهة القديمة.

كان الدين الراسخ من قبله الإيمان بإله طيبة القوى آمون، أو آمون – رع ، وكان معبده الرئيسي يقع بمنطقة الكرنك، على بعد بضعة كيلو مترات شمال مدينة طيبة (الأقصر حالياً).

وكان الكاهن الأكبر لمعبد آمون يمثل أعلى سلطة دينية، ويهيمن على كل ما يختص بالممارسات والطقوس الدينية في مصر العليا ويمارس تلك السلطة ويفرض هيمنته حتى على الأسر الملكية.

ولم يسعد الكهنة أن يجدوا أسباب قوتهم وهيمنتهم وسيطرتهم ونفوذهم والمزايا التي يتمتعون بها تنتزع من أيديهم بين عشية وضحاها، وتكرر المشهد في كل المعابد الأخرى في جميع أرجاء الإمبراطورية. المعابد الوحيدة التي استثنيت كانت تلك التي تقوم على عبادة إله الشمس رع، والذي كان يصور على هيئة رع – حوراختي (حيث تعني حوراختي حورس في الأفق وتبناه بعد ذلك كأحد تجليات آتون)، وكما سنرى لاحقا، لم تقتصر ثورة التغيير على المفهوم الديني، بل امتدت إلى الجانب الثقافي والفني استخدمت فيها رموزا وأنماطا وأشكالاً كانت كلها غريبة على المجتمع المصري بدءاً من تاريخه القديم حتى حاضره في ذلك الوقت. علاوة على ذلك، أدخل في عناصر الدين عنصر الحب الذي يحض على الاحتضان وهو ما كان يتعارض جذرياً مع المفاهيم الدينية السائدة. في الاحتفالات والأعياد على سبيل المثال : كان يظهر للشعب مع زوجته وبناته من «شرفة الإطلال» التي يرى منها مدينة أحلامه، ومن تلك الشرفة يلقي

الخطب والأحاديث إلى الشعب المحتشد فى ساحة المدينة، أشبه ما يكون بالخطاب الأسبوعى الذى يوجهه بابا الفاتيكان حاليا إلى المحتشدين فى ساحة سان بيتر.

صعود توت عنخ آمون

انتهى عهد أخناتون نهاية مفاجئة وغامضة، ولا يعلم أحد حتى الآن سبب ذلك الانهيار المفاجئ ولا كيفيته، إلا أن هناك علاقة لا يمكن تجاهلها بين موت عدد من أعضاء الأسرة الملكية فى الأعوام الأخيرة من حكمه، وذلك الانهيار السريع المفاجئ لحكم دام اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاما، وبعد فترة حكم قصيرة لسمنخ كارع الذى خلفه على عرش مصر، بدأت الديانة القديمة ترجع إلى سابق عهدها، وشأنها فى عهد الملك الذى تلى سمنخ كارع على عرش الإمبراطورية وهو توت عنخ آمون الذى كان يدعى قبل ذلك توت عنخ آتون، وتزوج توت عنخ آمون من ثانى أكبر ابنة بقيت على قيد الحياة من بنات أخناتون وهى عنخ سيناتون، (وتغير اسمها بعد العودة إلى الديانة التقليدية وأصبح عنخ سينامون)، وكانت قد سبق لها الزواج من أبيها أخناتون بعد زواج سمنخ كارع من شقيقتها الكبرى ميريت آتون. وفى بداية عهده حكم توت عنخ آمون من مدينة أخيتاتون فى تل العمارنة، إلا أن الملك الصبى سرعان ما هجرها وأسس بلاطا ملكيا فى مدينة ممفيس، فى الوقت الذى استعادت فيه معابد طيبة كامل سلطتها وهيمنتها الدينية، واستردت مكانتها كمركز دينى رئيسى فى مصر العليا، وهيئ القصر الملكى بها؛ ليقيم به الملك حين يأتى إلى طيبة فى المناسبات الاحتفالية الدينية الكبرى، وعدا ذلك كان الملك والملكة قد غيرا اسميهما اللذين يمجدان الإله آتون، وبدلاه لتمجيد اسم آمون.

لم يكن توت عنخ آمون قد تجاوز بعد التاسعة من عمره حين اعتلى عرش الإمبراطورية المصرية، لذلك ظلت إدارة الشئون اليومية للبلاد بين أيدى من يقدرون على إدارة دفتها، واتخاذ القرارات الملائمة.

وأصبح الجنرال حور محب نائبا للملك ووصيا عليه إضافة إلى توليه الشئون العسكرية، والسياسية، ومارس سلطاته تلك من مدينة ممفيس، بينما أصبح آى الذى كان وزيراً أولاً فى بلاط أخناتون مستشارا شخصيا للملك الصبى والمسئول الإدارى عن كل الأمور الأخرى المتعلقة بالدين. وبالرغم من أن الملك الصبى توت عنخ آمون وزوجه عنخ سينامون قد ارتدًا عن الإيمان بالإله آتون، وهجرا مركز عبادته فى مدينة أخيتاتون، إلا أنه لم يقم إلا بأقل القليل لوأد مروق العمارنة. وفى الحقيقة، اتضح بجلاء من عديد من المقتنيات التى وجدت بمقبرته أنه هو وزوجه عنخ سينامون استمرا على عبادة الإله آتون طوال حياتهما .

العودة إلى الدين الأول

يمكننا أن نقدم صورة عن الموقف فى ذلك العصر عند نهاية حكم أخناتون من خلال أثر تاريخى هام جدا يرجع تاريخه إلى العام الأول من حكم توت عنخ آمون، ويعرف هذا الأثر باسم لوحة عودة الدين، وهو عبارة عن بلاطة منقوشة عثر عليها عام ١٩٠٧م بين حطام وبقايا المركز الدينى فى الكرنك العالم الفرنسى الآثارى چورچ لاجرا، ويذكر النص المنقوش عليها :

توج جلالته ملكا، معابد الآلهة من جزيرة إليفانتين حتى مستنقعات الدلتا تركت للخراب، وهجرت حرماتها المقدسة، وأصبحت ساحاتها يبابا تنمو فيها الأعشاب الشيطانية، وتحولت طرق المواكب والترانيم إلى ممرات مهجورة. انقلب حال البلاد وأدارت الآلهة ظهرها للناس وتخلت عنهم... «إذا ابتهلوا للآلهة لتلبى حاجتهم لا تستجيب لهم...» وبعد زمن اعتلى جلالته عرش آبائه وحكم بلاد حورس، سيطر على الأرضين، الحمراء والسوداء(١).

ويوجد نقش مصور آخر على أحد أعمدة معبد الأقصر يظهر فيه الملك الصبى يقوم بأداء طقس اسمه «أوبيت»، أى : يسير فى موكب يحتفى

بتمثالين للإله آمون (فى هيئة إله الخصب والجنس الإله مين) وللربة موت، محمولين إلى معبد الأقصر. وهو احتفاء بتزاوجهما وحمل الربة موت بابنها الإله خنسو. كان يصاحب ذلك الطقس الدينى إقامة الاحتفالات الدينية لبضعة أيام متتابعة، تقدم فيها الأطعمة والأشربة مجاناً لكل من يشاء من أبناء الشعب. لم تحى أى من تلك الاحتفالات الدينية طوال عهد أخناتون الذى حرم الاحتفال بكل الأعياد التى كانت للدين القديم، واحتفى بدلا منها بأعياد الإله آتون متجاهلاً كل فضل للآلهة الأولى بما فيهم آمون وموت.

عصر التمرد

كان الثمن الذى دفعه أخناتون لارتداده عن الآلهة القديمة ثمناً باهظاً. فقد أمر الجنرال حور محب الذى ارتقى عرش مصر بعد حكم آى الذى دام أربعة أعوام بهدم مدينة أخيتاتون كليا، وإزالة أى أثر لها من الوجود. كل السجلات التى صورت وذكرت اسم آتون تم اتلافها ومحوها، وأمر بإحراق وتدمير وتحطيم أى صورة تمثل آتون، ليس هذا فقط، بل أمر بتجاهل ومحو أسماء الملوك الأربعة المنتمين لمرحلة العمارنة (أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآى) من كل السجلات الرسمية للدولة، ومد تاريخ بداية حكمه إلى العام الذى بدأ فيه امونحتب الثالث يشرك معه ابنه أخناتون فى حكم الإمبراطورية المصرية. وبعد ذلك ، محى ذكرى أخناتون والثلاثة الذين خلفوه تماما من جميع أرجاء المملكة المصرية، وأصبح مجرد ذكر أسمائهم من المحرمات الكبرى، ولا يشار إليهم فى السجلات الرسمية بدءاً من عصر حور محب إلا بكلمة «زمن التمرد» أو «جريمة المرتد»[٢].

وكمثال على الوسائل الصارمة والنهج المتشدد الذى انتهجه حور محب لمحو ذكرى العهد السابق بمن فيهم توت عنخ آمون من السجلات الرسمية للدولة، نجد أنه أزال اسم توت عنخ آمون بالأزميل من على لوحة «إحياء

. الديانة الأولى»، وسجل اسمه هو مكانه. وحيث إنه قاد بنفسه معركة إحياء الديانة القديمة فى عهد الملك الصبى توت عنخ آمون، من الواضح أنه اعتقد أن لديه كل الحق أن ينسب إلى نفسه شرف استعادة الدين الأصلى للبلاد.

الحياة فى العمارنة

كان عهد كفر العمارنة بالآلهة القديمة، أو ثورتها الدينية بتعبير آخر، من أهم العهود إثارة فى التاريخ المصرى، وكانت بالتأكيد مثار اهتمام هوارد كارتر بعد أن كلفه بترى بالعمل مع فريق تل العمارنة. فى العام الأول له بتل العمارنة، كلف برسم نسخى للقطع الأثرية التى يتم العثور عليها بين أنقاض معبد أخناتون وقصره، وأنجز تلك المهمة وزاد عليها أن قام برسم خريطة للمدينة القديمة وما كانت عليه فى عصرها[٣]. وبمجرد أن أتم تلك الخريطة اقترح عليه بترى أن يرسلها بالبريد إلى مصلحة الآثار المصرية، ويبدو - لسوء حظه - أن الخريطة ضلت طريقها، أو سرقت من البريد أثناء نقلها، فقد نفت مصلحة الآثار المصرية بعد ذلك تلقيها لأى خرائط لمدينة اخيتاتون القديمة[٤]. وكانت تلك أول صدمة يتلقاها كارتر وتؤكد ظنونه عن حماقة الإدارة الفرنسية التى تدير مصلحة الآثار المصرية من القاهرة، وراحت تلك المشاعر تتعمق وتتأكد لديه مع مرور الأعوام.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ كارتر يجرب بنفسه السعى والبحث فى محاولة للكشف عن خبايا الآثار المصرية القديمة، وكان ذلك أول عهده بالبحث والتنقيب، ونجح بالفعل فى اكتشاف قطع أثرية ذات قيمة مع اقتراب نهاية موسم عمل شتاء ١٨٩١ - ١٨٩٢م. وبانتهاء ذلك الموسم كان قد أكمل دليلاً مرسوماً لسبع عشرة قطعة محطمة كأجزاء من تماثيل عثر عليها بنفسه، ويقال : إن اثنتى عشرة قطعة كانت لأخناتون وخمسًا لنفرتيتى[٥].

وإزاء غزارة القطع التى عثر عليها بترى فى تل العمارنة، قام بوضع أول كتاب عن الحياة بها والعصر الذى تنتمى إليه أسماه «تل العمارنة» ونشر عام ١٨٩٤.

فى ذلك الكتاب بدد بترى الشائعات التى كانت تروج عن الملك المرتد والتى كانت تذكر أنه كان فى حقيقة الأمر امرأة أو خصى، وكان مصدر تلك الشائعات الصور الغريبة التى تمثله والتى وجدت بين حطام مدينة اخيتاتون، وحطام معبد آتون الذى كان قد شيده بالكرنك[٦].

كانت بقايا التماثيل الكبيرة تظهر ذلك الفرعون برأس مستطيلة بشكل غير معهود، ووجه وعنق مستطيلين على نحو غير معتاد، وعينين مسحوبتين باستطالة، وشفتين مكتنزتين، ونهدين ممتلئتين، وأفخاذ مستديرة ممتلئة، وبطن بارز، وساقين مثل سيقان الدجاج مع عدم تمثيل أى أعضاء جنسية.

وتبين أن الملك تبنى هذا الشكل بدءا من العام الخامس من حكمه بعد أن انتقل بالبلاط الملكى إلى العمارنة، وبدَّل اسمه من آمونحتب الرابع (كان ينطق بالاغريقية القديمة آمينوفيس) الذى يظهر فيه انتماؤه للإله آمون، إلى أخناتون، الذى يعنى الروح المعظمة (آخ) لآتون[٧].

أدرك بترى قبل غيره أن الطريقة التى صور بها أخناتون شكله، وكذلك إلى حد ما زوجته وأسرته كانت ثورة فنية بكل المعايير وتحولاً جذريًا عن كل توجهات الفنون المصرية السابقة[٨]. وأكد ذلك بشكل أكثر عمقًا ظهور الملك والملكة فى صور الجداريات الملونة فى المعابد والمقابر والقصور متعانقين فى أوضاع تظهر اللذة والمتعة الحسية، وفى واحدة من تلك الصور يبدو أخناتون وهو يقبِّل زوجته وهما فى عربة ملكية تجرها الجياد، وفى صورة أخرى تظهر جالسة على ساقيه وبناتهما يلهون حولهما، تمامًا مثلما تبدو الأسرة الغربية المعاصرة فى صورها الفوتوغرافية، وواكب ذلك الاختفاء الكلى للصور الحربية والعسكرية للمعارك والانتصارات التى اعتاد أسلافه تسجيلها.

وسجل بترى ما توصل إليه قائلاً :

«كانت الحياة الأسرية فى عهد أخناتون مثال الاكتمال وجوهر تحقق الحقيقة ، وأعلن أن تلك هى الحياة الحقة لكل من يتبعها. وهكذا بدا أخناتون كأعمق مفكر أصيل بين كل الشخصيات التى عرفها التاريخ المصرى، وأحد أعظم المثاليين فى العالم بأسره»[٩].

فن غريب

السبب الحقيقى وراء تفضيل أخناتون لظهوره فى الصور بذلك الشكل المخنث والوجه الثعبانى الطويل غير معروف على وجه اليقين.

وظهرت تخمينات ذهبت إلى أن أخناتون وبعضًا من أفراد العائلة من أقرباء الدم كانوا يعانون من اضطراب بالغدة النخامية ، يعرف باسم عرض فروليخ، وكان أول من افترض ذلك ج. إليوت سميث بعد أن فحص الجثة التى عثر عليها فى المقبرة KV-55 ، واعتقد أن تلك الجثة هى جثة الملك المرتد، ورأى أن الجمجمة تظهر أن صاحبها كان مصابًا باستسقاء الرأس، وهو يحدث نتيجة لتجمع وازدياد السائل النخاعى بالمخ، ويسبب تأخراً فى تعظم العظام ،(وأدى ذلك إلى تقديره عمرا أكبر لصاحب الجثة لحظة وفاته)، وثبت بعد ذلك أن تشخيصه لم يكن صحيحاً، بعد أن قام دكتور ديرى بإعادة تركيب أجزاء الجمجمة، وبيَّن خطأ تقديرات سميث قائلاً :

لتلك الجمجمة - بلا أدنى شك - شكل غير طبيعى، إلا أن ذلك الشكل لم يكن نادراً بين أعضاء الأسر المالكة فى مصر القديمة، فقد كانت «ميريس عنخ» حفيدة خوفو - على سبيل المثال - ذات جمجمة مشابهة فى الشكل والنوع مع استواء قمتها وصورت بهذا الشكل فى الصور التى ترجع إلى ذلك العهد، وينتمى ذلك النوع من الجماجم إلى ما يطلق عليه علماء الانثروبولوجيا الجماجم المسطحة، حيث تبدو الجمجمة مستطيلة من أعلى إلى أسفل ويزداد عرضها كلما نزلنا إلى قاعدتها.

وبالرغم من ذلك التوضيح، ظل الاعتقاد بأن أخناتون كان يعانى من عرض فروليخ، أو أمراض الغدد الصماء قائما[١١] . ويصيب عرض فروليخ الذكور نتيجة تلف الغدة النخامية التى توجد بقاع المخ وتفرز الهرمونات التى تسيطر على باقى غدد الجسم وتوجهها. فمثلا : يؤدى خلل الغدة النخامية إلى اضطراب الغدة الدرقية التى تتحكم فى نمو الجسم وعمليات التمثيل الغذائى، ويترتب على ذلك أن يصبح الفك على هيئة المصباح القديم مع استطالة الرقبة، عدا ذلك يؤدى اضطراب الغدة النخامية إلى اضطراب مهاد المخ المسئول عن تنظيم الماء بالجسم، وينتج عنه اجمالاً تراكم السوائل بتجويف الجمجمة مما يؤدى إلى استطالة الرأس، وهو ما جعل إليوت سميث يعتقد أن صاحب الجثة التى وجدت بالمقبرة KV-55 كان مصابًا بهذا العرض. وقد يفسر ذلك - أيضا - الشكل الغريب الذى تبدو عليه بنات أخناتون فى التماثيل التى تظهرهن بتلك الرؤوس المستطيلة.

وأخيراً، فإن تأثير هرمونات الغدة النخامية على قشرة الغدة الكظرية (غدة فوق الكلى) التى تفرز هرمون الادرينالين والتى تتحكم فى مستويات الكورتيزون بالجسم، من الممكن أن ينتج عنها مظاهر أنثوية فى جسم الذكر المصاب بها مثل تضخم حجم الثديين والفخذين والبطن والردفين، مما قد يفسر ذلك الازدواج الجنسى كما يبدو فى النتاج الفنى لمرحلة العمارنة.

من السهل أن ندرك لماذا اعتقد بعض الباحثين أن أخناتون وأسرته كانوا يعانون من تلك الأعراض الخاصة بالغدد الصماء. إلا أن آلوين ل. بوريدچ من جامعة تورنتو قام باجراء دراسة خاصة حول الشكل الغريب الذى تميزت به أسرة أخناتون، وتوصل فى تلك الدراسة إلى أن :

نقص مستوى الهرمونات، خاصة الادرينالين، يجعل من يعانى من عرض «فرولخ» متبلداً. وعلى العكس، كان أخناتون ولعاً بأسرته، وكان شعلة من النشاط والذكاء طول عهده، وشيّد مشاريع معمارية هائلة، كما

أدخل وسائل تعبير جديدة على الفنون والشعر من خلال عبادته لآتون. كل تلك الانجازات تتجاوز بمراحل قدرات شخص معاق ذهنيا وبدنيا.

وعدا ذلك، أكد آلوين چ. بوريدچ على أن :

«كل الرجال المصابين بعرض فروليخ مصابون بالعِنَّة - فخلل التوازن الكيميائى للجسم يحول دون نضج الأعضاء الجنسية وبالتالى لا تعمل - فالأعضاء الجنسية للذكر تكون موجودة، إلا أنها تظل على حالة الطفولة»[١٣].

من الواضح تماما أن أخناتون لو كان عنِّيناً لم يكن لينجب على الأقل ستًا من البنات، عدا ذلك ، كما يشير المؤرخ جراهام فيليبس، فإن أى استطالة لعظام الجمجمة لابد وأن تكون قد وقعت فى الأعوام الأولى من العمر حين تكون عظام الجمجمة مازالت مرنة، مع أن تماثيلاً كثيرة وصوراً جدارية تظهر أخناتون فى صورة مثالية بدنيًا قبل العام الخامس من حكمه[١٤]. وأخيرًا، كما لاحظ بوريدج، فإن عرض «فروليخ» عرض غير وراثى: «فهو ينتج عن إصابة للمخ أو عيب خلقى»[١٥]، أى أن احتمال إصابة أخناتون بذلك العرض، لا يفسر ظهور باقى أفراد أسرته فى الصور الرسمية بوجه طويل وذقن بارز، وجمجمة مستطيلة الشكل، وبطن بارز، خاصة بناته.

أما نظرية بوريدچ عن سبب ذلك التكوين البدنى كما يبدو فى الصور والتماثيل فتذهب إلى أنه لم يكن يعانى من عرض «فروليخ»، بل كان يعانى من خلل چينى يسمى عرض «مارفان»[١٦]، وينتج عن هذا العرض تشوه من يصاب به، يشمل طول الوجه واستطالة الأطراف، واستدارة الأصابع، وطولاً غير معتاد للجمجمة، وعينين ضيقتين منسحبتين طوليا للأجناب، وطول القامة، وازدياد عرض عظام الحوض، وبروزاً زائداً لعظمة القفص الصدرى الأمامية.

وهذا العرض من الممكن أن ينتقل للأبناء وراثياً، وقد يفسر ذلك الشكل الغريب لبناته، كما قد يؤدى إلى الموت المبكر، مما يفسر زيادة عدد

من ماتوا من أسرة أخناتون موتاً مبكراً فى السنوات الأخيرة من عهده. وبالرغم من أن عـرض مـارفـان من الممكن أن يؤدى إلى تشـوه الرأس والبدن، إلا أنه لا يؤثر على الإدراك العقلى، ولا على عواطف من يصاب به مما سمح للملك بممارسة كل أنشطته الذهنية والجسدية.

وتبدو نظرية بوريدچ أكثر إقناعا وقبولاً من افتراض سميث الذى افترض أنه كان يعانى من عرض «فروليخ».

على أى حال ، أثبتت كل الفحوص للجثة التى عثر عليها بالمقبرة KV-55، والتى يعتقد كثير من الباحثين حتى الآن أنها جثة الملك المرتد. إن الجثة لا يوجد بها ما يشير إلى أن صاحبها كان يعانى من عرض «مارفان». وما توصل إليه ديرى هو أن الجمجمة تظهر تسطحًا عند قمتها، إلا أن ذلك - أيضا - ظهر فى جماجم أشخاص من أسر ملكية فى عصر بناء الأهرامات العظمى فى الجيزة ما بين ٢٥٥٠ إلى ٢٥٠٠ ق.م، وتوصلت إلى النتائج نفسها الباحثة البريطانية چويس فايلر من المتحف البريطانى بعد أن قامت بإجراء فحص دقيق للجمجمة عام ٢٠٠٠م، وهو أحدث فحص للجمجمة حتى الآن، وأقرّت أنه لا توجد أعراض مرضية فيما يخص الجمجمة لشاغل المقبرة KV-55، بالرغم من أنها تذكرنا بوجود جماجم مماثلة من عصور ما قبل الأسرات، ومن عصور المملكة القديمة[١٧].

بعبارة أخرى، ربما كانت عائلة أخناتون تنحدر سلاليًا وچينيًا من الملوك المصريين المبكرين، والذين ظهروا على مسرح أحداث التاريخ حوالى عام ٣١٠٠ ق.م.

باستثناء أى نظريات أخرى، اقتنع بوريدچ أن أخناتون شاء أن يصور هو وأفراد أسرته فى شكل من الممكن أن يفسر على أنه حالات شديدة من عرض «مارفان». لو صح هذا، فأى شىء فى هذه الدنيا كان من الممكن أن يلهمه أن يختار هذا الشكل الذى يتفق كليا مع عرض «مارفان»؟ يبدو أن الإجابة لا تكمن فى الأعراض المرضية المتفشية فى الأسرة بقدر ما

تكمن فى المثاليات الدينية والروحية التى تبناها فى السنوات المبكرة من عهده. وفى الوقت الذى أعلن فيه أن آتون هو الواحد الأحد وهو الجوهر الإلهى الأوحد، غيّر اسمه هو أيضا إجلالا وتعظيماً للإله كلى القدرة، وأنشأ عاصمة جديدة، وقاد ثورة فنية فى جميع أرجاء مصر. توافق الأمر كله وتزامن ليصب فى توجه واحد، ولابد أن المظاهر المختلفة للتوجه الجديد كانت مترابطة معا ومعبرة عن فكر واحد متكامل.

وبالرغم من أننا لا نملك إجابات مكتملة، إلا أنه من المحتمل أنه حين عبر عن نفسه بظهوره بشكل مزدوج الجنس، كان يعمد إلى ترسيخ فكرة أنه بكونه أول نبى يدعو لآتون، توافق بنفسه وبذاته مع فكرة ازدواج الجنس التى بشر بأنها من صفات آتون. إضافة إلى ذلك، ربما كان لإرادته فى إظهار نفسه بتلك الرأس المستطيلة، والعيون المشروطة المنسحبة للجانبين، والوجه والعنق الثعبانيين الطويلين، صلة بإيمانه بـ «سب تيبى»، وهو المصطلح الدال على لحظة الخلق الأولى للوجود، والذى كون لديه مفهوم الخلق الإلهى والحكم الإلهى المقدس لمصر القديمة[١٨]. وكان شغفه وإيمانه العميق بذلك هو ما حدا به إلى تشييد مدينة أخيتاتون فى منتصف المسافة تمامًا بين المركز الدينى القديم فى عين شمس (هليوبوليس) فى الشمال وطيبة فى الجنوب[١٩].

من الصعب أن نقرر إن كانت المفاهيم الدينية لديه هى التى كانت تكمن خلف تشكيل تماثيل بناته، ورسم صورهن بتلك الرءوس الغريبة المستطيلة، ولابد أن نضم للاحتمالات أن جماجم البنات ربما تم تشكيلها فى الواقع بهذا الشكل بلف رؤوسهن بقوة بلفائف المنسوجات أثناء طفولتهن فى السن التى تقبل فيه العظام التشكل. ولقد كانت تلك العادة متفشية بين ملوك ما قبل التاريخ المسجل فى شمال سوريا وشرق تركيا، الذين انحدر من أصلابهم مباشرة الميتانيون، وكانت مملكتهم معاصرة لمرحلة العمارنة فى الشرق القديم[٢٠].

السنوات المبكرة لكارتر

بعد أن حاز كارتر إعجاب فلندرز بترى بدأ يعمل مع كبار الآثاريين العاملين بمواقع البحث عن الآثار المصرية، وكان منهم عالم المصريات السويسرى «إدوارد نيقل» (١٨٤٤ - ١٩٢٦)، وتحت إشرافه عكف كارتر على نسخ كل الرسومات الجدارية الرائعة الألوان التى وجدت على حوائط المعبد الجنائزى بالدير البحرى، والذى شيد على سفح تل يفصله عن وادى الملوك الواقع خلفه. كانت حتشبسوت قد شيدت ذلك المعبد ، وهى واحدة من بضع نساء حكمن مصر، وأحكمت قبضتها وسيطرتها على الوجهين، البحرى والقبلى على مدى عشرين عاما هى فترة حكمها ، ما بين ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م.

وكانت للوحات التى نسخها كارتر عن الآثار المصرية القديمة قيمتها ، حتى إن بعضها مازال يزين حوائط متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، ويرى بعض الناقدين أنها «تتسم بدقة متناهية، ومع احتمال صدقها وصحتها إلا أنها تخلو من الحياة»[٢١]، إلا أن ذلك إجحاف يخلو من الإنصاف، فما رسمه كان متقنا ومتطابقا تماما مع الأصول، وهو إتقان لا تخطئه عين، ولا جدال أن كارتر كان مثل أبيه رساماً بارعاً، وأدى ما عهد به إليه بإتقان وصل إلى حد الكمال، وهو ما جعله موضع اهتمام علماء الآثار ودفعوه بدورهم إلى ما هو أعمق فى علم المصريات.

فى عام ١٨٩٩ ، قرر مدير مصلحة الآثار المصرية وكان فى ذلك الوقت جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦م) أن يسند إلى كارتر وظيفة كبير مفتشى آثار جنوب مصر والسودان، وقبل كارتر تلك الوظيفة على الفور وبدأ العمل فى يناير ١٩٠٠م وبذلك أصبح مسئولا عن الجوانب الإدارية والمحافظة على آثار جنوب مصر، كذلك أصبح لأول مرة على علاقة بوادى الملوك.

وبعد أن تولى ذلك المنصب كلف بالحفاظ على مقبرة أمونحتب الثانى بعد اكتشافها، ووجد بها مومياوات ملكية عديدة تبين أنها نقلت إلى تلك

المقبرة فى عصور سابقة؛ للحفاظ عليها أثناء فترات الاضطراب والانهيار التى مرت بها مصر قديمًا، وتوصل إلى مكانها الفرنسى «ڤيكتور لوريه» حين كان يشغل منصب مدير متحف الآثار المصرية بالقاهرة، وآثار انتباه «لوريه» وقلقه فى بداية تسعينيات القرن التاسع عشر ظهور قطع أثرية نفيسة يتم بيعها خفية فى السوق السوداء، وبدا له أنها من مقبرة ملكية مجهولة للسلطات. وعلم بعدُ ذلك أن عائلة من أبناء منطقة القرنة القريبة من وادى الملوك كانت تعرف مكان تلك المقبرة من سنوات طويلة، وأنهم كانوا يسطون على محتوياتها من آن لآخر، ويسرقون المومياوات بعد أن يجردونها من حليها وأكفانها ويبيعونها لتجار الآثار ومهربيها، حتى توصل إلى مكانها.

وكان كارتر قد اكتشف وهو يعمل لحساب داڤيز بعض المقابر إلا أن محتوياتها كانت قد نهبت، وكانت تلك المكتشفات إضافة جديدة لعلم الآثار إذ كان من بينها مقبرة جد اخناتون، تحتمس الرابع، وافتتحت رسميًا عام ١٩٠٣.

فى وادى الملوك

فى عام ١٩٠٤ أصبح كارتر مفتشاً عاماً لآثار الوجه البحرى، إلا أنه بعد حادث تبادل فيه اللكمات مع بعض الفرنسيين الثملين الذين أصروا على دخول السرابيوم فى منطقة سقارة دون دفع الرسوم المقررة، استقال من تلك الوظيفة، وأتاح له ذلك أن يعود إلى العمل فى الموقع الذى استهواه، وهو منطقة مقابر طيبة غرب النيل. واعتمد فى معيشته على عمولات الوساطة ورسم الصور الملونة للحياة فى مصر القديمة والحديثة، كما عمل مرشدا للأجانب فى جولاتهم بين مختلف المواقع الأثرية الهامة، ومن آن لآخر كان يعمل لحساب المليونير الأمريكى ثيودور داڤيز بشكل متقطع (وعمل أيضًا مع آيرتون، وآرثر ويجال، وشارك فى تسجيل المقتنيات التى عثر عليها بمقبرة يويا وتويا وهما جدى أخناتون لأمه).

كذلك عمل وسيطاً فى الانتيكا، وهى الكلمة العربية الدارجة للقطع الأثرية المسروقة التى تباع وتشترى فى السوق السوداء خفية، والتى كانت تلقى إقبالاً نهماً فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. فعن طريق صلات وعلاقات جيدة وملائمة كان يمكن إتمام صفقات جيدة لقطع فريدة تهرب سراً إلى خارج مصر وتعرض فى مزادات أسواق لندن وباريس ونيويورك وتدر على من يقومون بها أرباحاً تصل إلى عشرات أضعاف قيمة شرائها.

وغنى عن البيان أن كل تلك المقتنيات الأثرية سرقت من المقابر وتخصصت فى سرقتها عائلات بأكملها فى صعيد مصر أغلبهم من منطقة القرنة، وقضوا أعمارهم فى هذا النوع من العمل.

كانت تلك هى المرحلة التى بدأ فيها كارتر فى رصد وادى الملوك بأجمعه حتى انتهى بعد ذلك الرصد من عمل خريطة مفصلة تظهر عليها كل المقابر التى تم اكتشافها، وكل ما تم التوصل إليه نتيجة لأعمال الحفر والتنقيب. سجل أيضا على الخريطة كل المواقع التى عمل بها المنقّبون المحترفون والهواة، والأماكن التى نجح فيها التنقيب، والمواقع التى لم تسفر عن شىء على مدى مائتى عام سابقة. وراح إحساسه يتعمق بأنه مازالت هناك مقبرة ملكية لم تكتشف بعد، وسرعان ما قاده تخمينه إلى أنها لابد أن تكون لتوت عنخ آمون.

أيقن كارتر أن الملك الصبى قد دفن فى مكان ما من وادى الملوك، وأدت مكتشفات داڤيز وآيرتون عام ١٩٠٥ و١٩٠٧ إلى استنتاج أن تلك المقبرة قريبة إن لم تكن فى متناول اليد. كان الكوب الخزفى الأزرق الذى عثر عليه تحت صخرة ويحمل اسم توت عنخ آمون ، وكذلك الرقيقة الذهبية التى تحمل اسمه تشى بأن المقبرة حافلة بالنفائس والكنوز، إلا أن عدم عودة المغيرين على المقابر ليجمعوا ما سقط من غنائمهم جعله يفترض أن هناك ما أثار خوفهم، وأن المقبرة أعيد إغلاقها بحنكة بعد ذلك فخفت عن عيون المتطفلين.

ثم كانت هناك - أيضا - الجرار الفخارية ومحتوياتها التى عثر عليها بالفجوة ٥٤ وكلها بقايا أدوات تحنيط، وباقات الورود الجنائزية الجافة وعصائب الرأس الكتانية، والقناع الجنائزى المطلى وكانت كلها عصية على التفسير حتى ذلك الوقت، بالرغم من أنها كانت جميعاً تشير إلى قرب المقبرة من موقع تلك المخلفات، وزاد كل ذلك من شغفه بالحفر والتنقيب فى وادى الملوك سعيًا وراء مقبرة توت عنخ آمون، وتحول حلمه إلى واقع حين وصل ثيودور داڤيز إلى حالة من اليأس جعلته يغادر مصر مغادرة نهائية.

وفى خريف أول عام بعد رحيل داڤيز، قام كارتر ببعض عمليات الاستكشاف الأولى فى وادى الملوك لحساب لورد كارنر ڤون، إلا أنه لم ينكب على العمل بكل ثقله إلا بعد ١٨ ابريل عام ١٩١٥، بعد أن حصل كارنر ڤون على تصريح التنقيب[٢٢]، الذى يتيح له العمل فى منطقة وادى الملوك بشكل رسمى[٢٣]، وكان الهدف المحدد هو العثور على مكان مقبرة توت عنخ آمون، وبعد أن حصل على ذلك التصريح الثمين أصبح فى جيبه، عزم على إزاحة كل بوصة من الرمال والأتربة من ذلك المكان المهجور حتى يصل إلى تلك المقبرة.

٤ - وبدأ البحث

كلمـا كـان يعلن أحـد البـاحـثين أن وادى الملوك قد باح بكل أسـراره كانت تكتشف مقبرة جديدة، تحى الأمل فى نفس كارتر أن جهوده ستكلل بالنجـاح فى موسم الحفر التالى. لم يقم أى مكتشف من الذين سبقوه بمثل ذلك المسح المنظم الذى قـام هو به. كل مـا كـان يفعله سابقـوه أن يحفروا حيثما يوجههم تخمينهم وحدسهم، وترتب على تلك العشوائية تحول أغلب وادى الملوك عبارة إلى أكوام هائلة من الرمال والأتربة الناجمة عن الحفر العشوائى، والمستخرجة من مداخل المقابر وممراتها، وعن أعمال حفر كللت بنجاح وأخرى لم تسفر عن شىء، وأصبح على من يسعى فى أنحاء الوادى أن يصعد أكوامًا ويهبط منحدرات كأنها سلسلة كثبان رملية متتابعة، وكان لابد من إزالة كل تلك الكميات الهائلة من الرمال والأتربة باستخدام مئات العمال المحليين والصبية بأجور يومية يدفعها متبنى أعمال البحث، الايرل الخامس لكارنر ڤون، كان ما يدفعه يتناسب مع عدد المقاطف المليئة بالأتربة التى تزاح عن الموقع كل يوم.

رحلة مصيرية

أما كارنر فون، فقد دخل كارنر ڤون عالم البحث عن الآثار المصرية القديمة من خلال سلسلة من الأحداث القدرية الغريبة. ولد كارنر ڤون عام ١٨٦٦م، فى شبابه المبكر أولع بسباق الخيل (لذلك أنشأ مضماراً لسباق الخيل بقلعته فى هاى كلير فى هامبشاير)، وأغرم بالإبحار (فقام بجولة حول العالم على يخته الخاص وهو فى الحادية والعشرين من عمره)، والمقامرة؛ (لذلك تبنى البحث عن الآثار الذى نفذه له هوارد كارتر)، كما

أغرم بقيادة السيارات حتى إنه كان يتوجه إلى أوروبا لقيادة السيارات قبل أن تصبح قيادتها من الأعمال المباحة فى إنجلترا. ومثل أمام القضاء عدة مرات لتجاوزه السرعة القانونية، وطبقا لما نشر فى مجلة السيارات عن ذلك التجاوز ذكرت المجلة أنه قاد سيارته فى منطقة يسلكها راكبو الدراجات والمارة بسرعة خطيرة بلغت ٢٠ ميلا فى الساعة[١].

ورأى بعض معاصرى كارنر ڤون أن ولعه بالسيارات السريعة كان ولعاً مرضياً، وثبت صحة رأيهم حين وقعت له حادثة خطيرة عام ١٩٠١ وهو يقود سيارته بجنوب ألمانيا. كان يرافقه سائقه الخاص إدوارد تروتمان والذى كان يشغل فى أغلب الوقت مقعد المرافق لا مقعد السائق. فى ذلك اليوم قاد كارنر ڤون السيارة بسرعة كبيرة على طريق ملىء بالمنعطفات والمنحنيات الحادة، وكان الطريق يمر عبر غابة وهما متجهان إلى مدينة شوالباخ، حيث كان على موعد للقاء زوجته «آلمنيا» هناك، وفجأة واجه كارنر ڤون بعد أحد مرتفعات الطريق انحرافاً مفاجئًا به، كانت بأسفل المنحدر عربتان خشبيتان بأذرعها مشرعة إلى أعلى، حاول بسرعة أن يضغط كوابح السيارة وناور بالمقود حتى لا يصطدم بالعربات الخشبية، إلا أنه فقد السيطرة عليها، واندفعت باتجاه الصخور، وارتطمت بها وانقلبت وأثناء انقلابها أطاحت بسائق كارنر ڤون خارجها وظل هو حبيساً بها بعد انقلابها. لم ينقذ حياته إلا وجود السائق خارج السيارة فقد أسرع السائق باستدعاء طبيب محلى وتعاونا على إخراجه وقام الطبيب بفحصه وإسعافه. وشملت الإصابة ارتجاجًا بالمخ، وتورمًا بالوجه والرأس، وحروقًا بالقدمين وكسر بالمعصم ، وعمى مؤقتًا، وإصابة بسقف الفم والفك[٢]. كان على شفا الموت حين أخرجوه من داخل السيارة المحطمة، ولو كان قد مات لربما ظل العالم بانتظار العثور على مقبرة توت عنخ آمون حتى اليوم.

بعد إعادته إلى إنجلترا، تلقى عناية طبية فائقة، وشفى من إصاباته إلا أن الحادث خلف له ضعفًا بالصدر وضيقًا بالتنفس، خاصة فى شتاء

انجلترا شديد البرودة والرطوبة، وكانت مصر قد حازت شهرة بجوها الدافئ الجاف كمنتجع صحى للمعتلين الأوربيين. ونصحه طبيبه المشرف على علاجه بقضاء الشتاء كل عام فى مصر، وتوجه كارنر ڤون إلى القاهرة لأول مرة فى حياته عام ١٩٠٣، ومع تكرار قضاء الشتاء بالقاهرة كل عام، بدأ الملل ينتابه من رتابة نمط حياة الأوروبيين بمصر، والذين لا يجدون ما يقطعون به الوقت إلا إقامة حفلات لا تنتهى، تكتظ بمروجى الشائعات والنميمة والأحاديث المملة المكررة. كان كارنر ڤون يعلم أن نقاهته قد تستغرق أعواماً طويلة فراح يتطلع إلى القيام بعمل له مغذى وقيمة يملأ به وقت فراغ موسم الشتاء بالقاهرة من كل عام. وجد نفسه محاطاً بكثير من الآثار التى تنم عن حضارة كانت مزدهرة وماتت من آلاف الأعوام، وتزداد مقتنياته منها عاما بعد آخر، حتى قرر أن يعمل بالبحث عن مزيد من تلك الآثار.

وبمعاونة المندوب السامى البريطانى على مصر، اللورد كرومر، حصل كارنر ڤون على أول تصريح بالبحث عن الآثار، وبدأ العمل فى موقع يسمى شيخ عبد بالقرنة على الضفة الغربية للنيل.

كل صباح، كان كارنر ڤون - بهيئته المتميزة وقامته الطويلة ونحافته البادية، وطلعته الارستقراطية التى تشى بالدفء والمودة ، ووجهه المستطيل، بشاربه المميز وسترة رياضية - يتوجه من غرفته بفندق ونتر بالاس بالأقصر، فندق الطبقة الارستقراطية، والأثرياء الأجانب الذين يزورون صعيد مصر، إلى موقع الحفر، وحين يصل الموقع، يدخل إلى غرفة خاصة صنعت من دعائم خشبية، وشباك من السلك؛ لمنع البعوض والذباب، ومن ذلك المقر الآمن يتابع حركة العمال وهم يرفعون أطنانًا بعد أطنان من الرمال والأتربة والحصى. وبعد ستة أسابيع من الحفر كان كل ما حصل عليه قطة محنطة. وبالرغم من ضآلة ما حصل عليه إلا أنه كان سعيداً بالعثور على ما فات الباحثون الذين سبقوه فى هذا الموقع العثور عليه، بل إن ذلك أشعل حماسه للمضى قدماً فى ذلك النشاط الجديد الذى

اختاره. وأدرك كارنرڤون أنه بحاجة ماسة إلى معونة من له خبرة بهذا المجال، وإلى يد محنكة ذات دراية تدعم عمله، وتجعل الوقت والجهد والمال الذى كرسه لهذا العمل مثمراً. وبمجرد أن أفضى بتلك الخواطر إلى مدير عام مصلحة الآثار المصرية ، جاستون ماسبيرو ، قدم إليه الحاذق الماهر هوارد كارتر الذى كان فى ذلك الوقت مفلساً وبلا عمل.

بردية كاموس

بعد أن خطط كارنرڤون أهدافه بإصرار وحماس، ازداد تحفزه. بدأ كارنرڤون بمعاونة كارتر فى البحث بمنطقة مقابر الملوك بالضفة الغربية للنيل، كان ذلك فى عام ١٩٠٩، وفى وقت قياسى توصلا إلى اكتشاف مقبرتين : إحداهما لحاكم مدينة طيبة فى الأسرة ١٨ ويدعى تيتى كى، والثانية (سجلت تحت رقم ٩)، وجد بها لوحتين خشبيتين، عليهما نصوص محفورة. إحدى اللوحتين توجز كيف أن الفرعون كاموس (حوالى ١٥٧٠ ق.م) قاد هجوماً مضاداً على جماعات شبه قبلية من أصل آسيوى يعرفون باسم الهكسوس أو «ملوك الرعاة»[٣] ، وكانوا قد غزوا مصر قادمين من كنعان بسوريا خلال الفترة التى تعرف باسم الحقبة الثانية الوسيطة فى زمن محصور بين ١٧٣٠ و ١٦٥٠ ق.م، وقام أولئك الهكسوس بالسيطرة على البلاد لمدة تتراوح من ٧٥ إلى ١٥٥ عاما، وشن الهكسوس حروباً على فراعنة الأسرة الملكية الحاكمة، وانتصروا عليهم بسهولة، لتفوقهم فى القدرات العسكرية والحربية، واستخدموا نوعاً من الأقواس والسهام أكثر إحكاماً وأشد فتكاً وأبعد مدى من تلك التى يستخدمها الجيش المصرى، الأهم من كل ذلك أن الهكسوس كان لديهم عجلات حربية، لم يعرفها المصريون قبل ذلك، ولم يكن بقدرة المشاة المصريين مواجهة تلك العجلات.

وبعد أن أخضع ملوك الرعاة الوجه البحرى، أنشأوا عاصمة لهم فى حواريس، فى موقع قرية تل الدبا الحالية بشرق دلتا النيل، وتبنوا نمط

الحياة المصرية، إلا أنهم اتخذوا رباً لهم الإله ست أو سوتيخ، إله القوة الشريرة (ارجع إلى الملحق ٢ بنهاية الكتاب - «تحريم الخنزير وعبادة ست»)، وأقاموا علاقات وطيدة بمركز عبادة إله الشمس الأول رع الكائن بعين شمس (هليوبوليس). كان كهنة مركز عين شمس هم المسئولين عن تتويج ملوك الوجه البحرى على مدى يزيد عن ١٥٠٠ عام، وأدرك ملوك الرعاة أنه من الضرورى أن ينصاعوا للطقوس الدينية التى انصاع لها كل فراعنة مصر؛ حتى يضفوا شرعية على اعتلائهم عرش مصر.

فى الوقت نفسه، وفى صعيد مصر، سعى فرع صغير من السلالة الملكية كان يتمركز فى طيبة ويؤمن بالإله آمون، الإله الخفى، إلى الإطاحة بالهكسوس وطردهم من مصر، وعرفوا باسم ملوك الأسرة ١٧، وكانوا يدفنون ملوكهم فى منطقة قريبة من قرية القرنة الواقعة غرب النيل. وأولى قادة تلك الأسرة العسكريون عناية فائقة إلى تعلم استخدام الوسائل الحربية الحديثة التى تفوق بها الهكسوس عليهم، فأدخلوا نظام استخدام الأقواس طويلة المدى وفرق العجلات الحربية مما جعل الجيشين متكافئين فى ميدان المعركة. وتحت قيادة كاموس أولا فى بداية حرب التحرير ثم من بعده شقيقه الأصغر أحمس، تمكنت أسرة طيبة الملكية من طرد الهكسوس وإعادتهم من حيث أتوا حوالى عام ١٥٧٥ ق.م.

وهكذا، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر، ولم تكن فقط بداية الأسرة الثامنة عشرة وعلى رأسها أحمس، بل كانت بداية كل المملكة الحديثة ١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م.

فى تلك المرحلة نمت مصر من جديد وتحولت إلى إمبراطورية امتدت من ليبيا فى الغرب، حتى حدود الإمبراطورية الآشورية فى الشرق، وحدود المملكة الحسينية فى الشمال فى أقصى شمال سوريا، وجنوباً حتى أرض كوش ، إثيوبيا حالياً.

بعثت مكتشفات كارتر الأولية الحماس فى نفسه، خاصة مع تبنى لورد كارنرفون لأعمال البحث، وراح يكمل استكشاف الضفة الغربية لطيبة،

وحقق بعض المكتشفات القيمة، شملت مقابر بعض النبلاء. كما أزاح الأتربة المتراكمة التى كانت تملأ معبد حتشبسوت فى الدير البحرى، وعثر أثناء ذلك على بعض المقابر التى لا تحمل أهمية خاصة، وتم تسجيل تلك المكتشفات في كتاب مشترك حمل اسم «خمسة أعوام من البحث فى طيبة - سجل أعمال الحفر بين ١٩٠٧ - ١٩١١»، ونشر عام ١٩١٢(٤) ولقى الكتاب إقبالاً من علماء المصريات والباحثين، وأدى إلى ترسيخ العلاقة بينهما، وظهرا معا كقوة لها ثقلها فى عالم المصريات القديمة.

بعد ذلك بعامين ألغى ثيودور م. داڤيز ترخيصه بالحفر والبحث فى وادى الملوك، فمنح جاستون ماسبيرو الترخيص لإيرل كارنرڤون. وأصبح حلم كارتر باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أقرب احتمالا، إلا أن تطورات سياسية غير متوقعة خيمت بظلالها السوداء على كل أرجاء مصر.

كارتر والمجهود الحربى

باشتعال الحرب فى أوروبا فى أغسطس من عام ١٩١٤، سادت مشاعر التشكك والخوف، كان يحكم مصر فى ذلك الوقت عباس حلمى بصفته خديوى يخضع لسلطان الدولة العثمانية بتركيا. وفى نوفمبر من العام نفسه أعلن خديوى مصر انضمامه إلى القوة المركزية التى كانت تتزعمها ألمانيا، ونمت المخاوف بين الأجانب من البريطانيين من ثورة أهل مصر العرب على الإدارة البريطانية فى مصر، وعلى رأسها المندوب السامى البريطانى. وسرعان ما تحركت الإدارة البريطانية وضغطت على عباس حلمى حتى تنازل عن الحكم إلى عمه حسين كامل الذى كان ميَّالاً للبريطانيين(٥) ، وتوقع البريطانيون تقدم القوات التركية من شبه جزيرة سيناء عبر الطريق الساحلى لفلسطين؛ لمهاجمة البريطانيين عند قناة السويس والاستيلاء عليها. كان كل شىء يتأرجح على حافة الهاوية.

وعرض كارتر خدماته على المكتب البريطانى فى مصر، واستمر فى أعمال البحث فى وادى الملوك حتى مارس من عام ١٩١٥ قبل أن تسند له

الإدارة البريطانية بمصر مهمة لخدمة التاج البريطاني. حيث كلفه مكتب المندوب السامى، السير هنرى ماكماهون بنقل رسائل سرية، والقيام بالترجمة بين رجال المخابرات البريطانية والوسطاء العرب الذين كانوا يعملون لحساب الشريف حسين بن على حاكم الحجاز فى ذلك الوقت (ارجع إلى الفصل ٢٤)، إلا أن مساهمته فى تلك الأعمال كانت قصيرة العمر، فلسبب ما لم يرتح إليه المندوب السامى وبهدوء لم تسند إليه أى مهام جديدة، ولا يوجد أى سجل رسمى نعرف منه تفاصيل ما حدث. هكذا عاد كارتر إلى وادى الملوك فى أكتوبر من عام ١٩١٥، وسرعان ما وقعت حادثة أظهرت قدرته على التكتيك والسيطرة على المواقف الخطيرة.

اضطرابات القرنة

ذات مساء، كان كارتر بالبيت الذى يقيم به فى قرية القرنة بالضفة الغربية للنيل، جاءه فلاح عجوز من أبناء المنطقة، وأبلغه أنه تم العثور على بئر يضم مقبرة فى الجانب الغربى من الجبل الذى يعلو وادى الملوك. كانت مجموعة من العمال تحاول سرقة ما بها حين ظهرت مجموعة أخرى من العمال، فنشبت بينهما معركة حامية، وانهزمت المجموعة الأولى وفرت، وبعد أن استرد الفارون أنفاسهم، عادوا للثأر، وطلب الفلاح العجوز من كارتر التدخل لمنع نهر الدم المتوقع من تلك المعركة.

وبلا أدنى تردد أو خوف على سلامته الشخصية جمع رهطًا من شباب الفلاحين ممن لم تشملهم الخدمة العسكرية بالجيش فى ذلك الوقت وانطلق بهم إلى منطقة البئر المتنازع عليه، ووصلوا هناك فى منتصف الليل. وجد حبالاً مدلاة من الحافة إلى عمق البئر، ولما تسمَّع وصلته أصوات آتية من قاعه ويتردد صداها إلى الخارج الفسيح الذى يغمره نور القمر، وأسعفه فكره إلى خطة عاجلة، فقطع حبالهم حتى يعدموا أى أمل فى الخروج من البئر، ثم أدلى حبله ونزل عليه فى ظلام البئر حتى وصل إلى فتحة سرداب وجد بداخلها «جماعة من أشر لصوص المقابر»، وكانوا

ثمانية[٦] وإزاء المفاجأة، خيم عليهم صمت وذهول ودهشة للحظات، وقبل أن يفيقوا، خيرهم بين أمرين: إما أن يخرجوا واحداً بعد آخر على حبله، أو يظلوا فى قاع البئر بلا أمل فى نجاة. وبالطبع، اختاروا أن يخرجوا ورحلوا دون مقاومة، وصعد بعد خروجهم وانتظر حتى ضوء الفجر، ثم نزل من جديد لاستكشاف السرداب الممتد من قاع البئر.

وعلى مدى ٢٨ يوما بعد ذلك انهمك كارتر فى رفع الأتربة وتنظيف السرداب الموجود بقاع البئر، كانت مقبرة مخفية بمهارة فائقة ولا يمكن لأحد أن يراها من قمة التل الذى يعلو مكانها بأربعين مترا ولا من الوادى أسفلها الذى ينخفض عن موضعها ٦٧ مترا، كانت فى مكان لا يشك أى امرئ ولا يتخيل وجود مقبرة به. بلغ طول السرداب البادئ من قاع البئر ستة عشر مترا، ويفضى بانحدار حاد مفاجئ إلى غرفة مربعة يبلغ طول كل جانب منها خمسة أمتار ونصف. توقع كارتر أن يجد كنزاً أثريًا رائعًا داخل المقبرة فى غرفة تالية للغرفة الأولى، واكتشف أن لصوص المقابر فى عصور قديمة كانوا قد حفروا نفقًا بلغ طوله سبعة وعشرين مترا، وبالرغم من الافتراض المنطقى أن تلك المقبرة المخفية ببراعة فائقة لابد أن تضم كما افترض كارتر «كنزا رائعا»[٧]، إلا أن أمله خاب بعد أن اكتمل الحفر وأزيلت أتربة المدخل. فلم يجد إلا تابوت دفن مرمرى لم يكتمل إعداده، لم تشغله جثة بالرغم من احتوائه على تابوت من الحجر الرملى المتبلر، لم يكن قد اكتمل هو الآخر بالرغم من وجود نص عليه يذكر أنه كان يعد للملكة الأنثى حتشبسوت[٨]. ولأسباب لن تعرف أبداً، ألغت حتشبسوت كل خططها بشأن تلك المقبرة، واختارت أن تدفن فى وادى الملوك مع من سبقها من ملوك. ويحتمل أن ذلك كان قرارًا غير صائب منها، فكما لاحظ كارتر «كان من الأفضل لها أن تظل على خطتها الأولى، ففى تلك المقبرة المخفية ببراعة كانت تتوفر لها فرصة أفضل للبقاء دون إزعاج، أما فى وادى الملوك فالفرصة أقل، إلا أنها كانت ملكة، وودت أن تدفن بين من سبقها من ملوك»[٩].

البحث الدؤوب المنظم

سجل هوارد كارتر فى مذكراته فى خريف عام ١٩١٧ «بدأنا حملتنا الحقيقية فى الوادى»(١٠) أصبح بمقدوره أخيراً أن ينفذ خطته فى «الحفر المنظم حتى طبقة الصخور القاعدية تحت الرمال والأتربة»، وبالفعل سجل زميله عالم المصريات ذائع الصيت الأمريكى چيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥) :

عمل كارتر بمنهج عمل يجعله على يقين من أنه لم تفلت منه بوصة مربعة واحدة من أرضه (وادى الملوك)، ومنحدراته وسطوحه، ووضع خريطة مكبرة للوادى قسم عليها المساحة إلى مربعات متساوية، ومع انتهاء العمل فى كل مربع كان على يقين من أنه لا يحتوى على شىء ذى قيمة، يضع عليه علامة خروج ذلك القسم من دائرة البحث»(١١).

كان النطاق الذى حدده لإجراء البحث فيه عبارة عن مساحة مثلثة الشكل محصورة بين مقابر رمسيس الثانى وميرنبتاح ورمسيس السادس، وكان يرفع الرمال والأتربة والحصى عن كل مربع بأمل الكشف عن مدخل أو دليل يشى بوجود ممر يفضى إلى مقبرة، وبالرغم من ذلك الأسلوب المنهجى فى العمل إلا أنه لم يعثر على أى جديد فى الموسم الأول من ذلك البحث المنظم، باستثناء بعض الفجوات الخاصة بالعمال المصريين القدماء الذين كانوا يعملون فى إعداد مقابر الدفن، وعثر عليها فى طبقة الصخور القاعدية بعد إزاحة الرمال عنها بالقرب من مقبرة رمسيس السادس، إلا أنه قرر التوقف عن الحفر بامتداد تلك المنطقة؛ لأنه كان يعنى قطع الممر المؤدى إلى مقبرة رمسيس السادس وكانت من أفضل المقابر التى يقبل عليها السائحون الذين يزورون الوادى. ولو كان اتخذ قراراً بمد الحفر إلى تلك المنطقة لكان قد وفر على نفسه وقتاً وجهداً ومالاً.

عاد كارتر إلى وادى الملوك لبدء موسم بحث ١٩١٨ - ١٩١٩، وهو لم يحقق بعد الكشف العظيم الذى يتوق إلى تحقيقه بكل جوارحه، إلا أن

عزيمته لم تفتر فى أى لحظة، واستمر بلا كلل فى تنفيذ خطته. فى الموسم التالى ١٩١٩ - ١٩٢٠ استعاد ألعمل الدؤوب وتيرته، فى منطقة مقبرة رمسيس السادس، ومن جديد راح العمال تحت إشرافه يزيلون أطناناً من الرمال والأتربة حتى الصخور القاعدية، وعثر فى فجوة على ثلاثة عشر وعاءً من المرمر، على بعضها خرطوش يعود إلى رمسيس الثانى وبعضها إلى ميرنبتاح، وسجل فى مذكراته أن السيدة كارنر ڤون التى كانت برفقة زوجها أصرت على استخراج الثلاثة عشر وعاءً - وكانت تلك الأوعية على درجة فريدة من الجمال - من بين الرمال بيديها[١٣].

وبعد أن يأس من تلك المنطقة، حول اهتمامه إلى النهاية البعيدة للوادى أسفل مقبرة تحتمس الثالث. فى تلك المنطقة راح العمال يحفرون بهمة، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى شىء يذكر، عدا مقبرة لم تستعمل لميريت - رع حتشبسوت زوجة تحتمس، واقتنصها لنفسه بعد ذلك أحد كبار موظفى طيبة اسمه سن - نفر؛ ليدفن بها.

وبعد أن انقضت ثلاثة مواسم حفر على مدى ثلاثة أعوام دون التوصل إلى شىء، بدأ كارتر يتعرض لكثير من الضغط من كفيله كارنر ڤون لتحقيق الكشف الذى طال انتظاره. هل كان عليهم الانتقال للبحث خارج الوادى حتى يصلوا إلى مكتشفات تعوض عن المال الذى أنفق والجهد الذى بذل؟ كانت إجابة كارتر عند طرح ذلك الاقتراح حاسمة وواضحة: «طالما ظلت هناك بقعة من أرض الوادى لم أنته من البحث فيها فإن المخاطرة ماتزال مقبولة»[١٤].

إلا أن كارنر ڤون لم يكن بالثقة نفسها ولا الاقتناع ذاته، وبحلول نهاية موسم حفر ١٩٢١ - ١٩٢٢ اتخذ الارستقراطى البريطانى قراراً بالانتهاء من الأمر كله والكف عن الحفر والبحث، وفى محاولة مستميتة من كارتر لإقناع كفيله بالاستمرار سافر إليه فى مقاطعته بإنجلترا فى هاى كلير لإقناعه بالاستمرار لموسم واحد على الأقل واستمع كارنر ڤون فى صبر إلى هوارد كارتر، ثم أخبره عن تقديره الكبير لأعوام الكد والتعب التى قضيت فى البحث، إلا أنه بسبب الضائقة المالية التى ترتبت على الحرب

فإنه يجد من الصعب عليه أن يمول هذا العمل الذى يبدو بكل وضوح أنه غير مثمر. وأصر كارتر على «أن وادى الملك مازال يضم على الأقل مقبرة واحدة لأحد الملوك لم تكتشف بعد، ويحتمل أن تكون مقبرة توت عنخ آمون، وأن هناك شواهد وقرائن كثيرة تدل على وجود تلك المقبرة فى مكان ما بالوادى»(١٦).

فضلا عن ذلك، قال له : «إنه سيعمل الموسم القادم وهو موسم ١٩٢٢ - ١٩٢٣ فى المنطقة التى لم يكملوا فيها الحفر من قبل والواصلة حتى مقبرة رمسيس السادس، وإنه لديه إحساس خفى أن فى تلك المنطقة تحديدا توجد مقبرة لأحد الملوك الذين لم تكتشف مقابرهم، ومن المحتمل أن تكون مقبرة توت عنخ آمون، وأن إزاحة الرمال والأتربة المترسبة فى تلك المنطقة سيظهر المقبرة»(١٧) وحتى يتغلب نهائيًا على تحفظات ومخاوف كارنر ڤون من الاستمرار لموسم آخر، عرض عليه أن يقوم بنفسه بتمويل أعمال الموسم القادم، وأكد أنه جاد فى عرضه، وكان بالفعل قد أصبح لديه من المدخرات ما يسمح له بتمويل أعمال البحث للموسم التالى، وأكد تلك الحقيقة الكاتب توماس هوفنج فى كتابه «توت عنخ آمون - القصة الخافية»(١٨)، وذكر عن ذلك : أن كارتر كان قد كوّن فى تلك الفترة ثروة معقولة من عوائد بيع الآثار للمتاحف، «وهواة اقتناء مجموعات أثرية شخصية، كان يشتريها بدوره من المهربين المصريين، وعدا ذلك، أظهرت سجلات متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك أنه (أى كارتر) كان يناقش مع مسئولى المتحف العمليات الجارية، ويعرض عليهم شراء ما يتوصل إلى اكتشافه فى حالة العثور على مكتشفات»(١٩).

وبعد أن أيقن كارنر ڤون أن إصرار كارتر وتصميمه قد يؤدى إلى شىء، ولطبيعته المقامرة، قرر الإيرل الخامس لكارنر ڤون أن يتيح له الفرصة لموسم واحد وأخير، وابتهج كارتر بذلك القرار ، وبابتسامات ارتياح متبادلة تصافح الرجلان بعد أن توصلا إلى قرار سيجعل من الأعوام التالية أعوامًا غير عادية من بين كل أعوام تاريخ البحث عن الآثار، السابقة واللاحقة.

٥ - موت الطائر الذهبى

«أخيراً، توصلنا إلى اكتشاف رائع بالوادى، عثرنا على مقبرة رائعة مازالت على بابها أختامها القديمة، غطينا المدخل كما كان بانتظار وصولك. تهانئى».

كان ذلك نص البرقية التى أبرقها كارتر المبتهج إلى لورد كارنر ڤون بإنجلترا يعلن إليه اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. تلقى الارستقراطى البريطانى البرقية وهو فى بيته فى هاى كلير يوم الاثنين ٦ نوفمبر عام ١٩٢٢، وبمجرد أن فضها وقرأها استدعى صديقه الحميم سير آلان هـ. جارنرد عالم أصول اللغات القديمة الشهير حتى يخبره بأنباء الاكتشاف الرائع الذى حققوه فى وادى الملوك.

كان كارتر قد عاد إلى الأقصر قبل ذلك بتسعة أيام فقط؛ ليبدأ أعمال الموسم الجديد والأخير له ولكارنر ڤون، فما الذى حدث فى تلك الأيام المعدودة؟ قضى كارتر أربعة أيام منها فى وضع نظام تسيير العمل، وإعداد قوائم العمال المصريين القادمين من القرى المجاورة، كان قد عاد إلى الأقصر يوم الأربعاء، الأول من نوفمبر، وعندما بدأ العمل، أمر بالبدء فى المنطقة الوحيدة التى لم يكمل فيها إزالة الركام والتى كان يشغلها عمال المقابر القدماء الملاصقة لمدخل مقبرة رمسيس السادس. وبحلول مساء الجمعة، الثالث من نوفمبر، كانت هناك مساحة توازى متراً مربعاً واحداً لم تزل عنها الرمال، وقرر أن ينتهى من تلك المساحة الصغيرة فى اليوم التالى. وبحلول الظلام ، حيا كارتر الخفراء وهو ينصرف متمنيا لهم ليلة طيبة، وغادر موقع العمل، وعاد إلى بيته الذى أطلق عليه أهل المنطقة قلعة كارتر، فقد كان بيته يقع على رأس الطريق المفضى إلى وادى الملوك.

أول خطوة

استيقظ كارتر فى الصباح التالى، واتخذ طريقه إلى موقع العمل، ولم يرد إلى ذهنه أن ذلك اليوم سيصبح نقطة تحول خطيرة فى حياته بأجمعها. ولما وصل أحس بالحيرة والارتباك بسبب الصمت غير المعتاد الذى ساد الموقع، وكان ذلك يعنى أن العمال وضعوا أدواتهم جانبًا بانتظار وصوله ولابد أن ذلك لأمر غير معتاد، ولما اقترب من فريق العمل المتوقف، أخبره رئيس العمال أنهم عثروا أسفل حفرة العمال القدماء على بداية درج حجرى. غمره شعور بأن ذلك سيكون رائعًا لو كان حقيقة، وليتأكد من صحته أمرهم بإزالة مزيد من الأتربة، وتبين له بالفعل أن هناك بداية درج بالكاد يقع على مسافة أربعة أمتار أسفل مدخل مقبرة رمسيس السادس. وطبقا لما ذكره كارتر عما راوده فى تلك اللحظة : «تصاعدت آمالى فى لحظة فى أن نكون قد عثرنا أخيراً على المقبرة المنشودة».

والعجيب أن كارتر كان قد وصل فى بحثه إلى بداية هذا الدرج مرتين من قبل فى المواسم السابقة، وكان كل مرة يتوقف بالكاد قبله بأمتار قليلة. وذكر عن ذلك: «كانت أول مرة حين كنت أعمل لحساب المليونير الأمريكى داڤيز، واقترح داڤيز فى ذلك الحين أن نوقف البحث فى ذلك المكان وننتقل إلى مكان آخر، وكانت المرة الثانية من بضع سنين سابقة، حين قررت مع كارنر ڤون أن نؤجل إزالة تلك الكمية المتبقية من الرمال، والأتربة فى ذلك الموضع؛ حتى لا نعيق وصول الزائرين إلى مقبرة رمسيس السادس».

كشف المدخل

استمر العمل المحموم فى إزاحة الركام الرملى والترابى باقى اليوم، وبحلول المساء كان الحماس قد بلغ بالعاملين قمة عالية بعد أن ظهرت الحواف العليا للمدخل، ورفعت الرمال عن الدرج النازل، وعاد كارتر إلى بيته ذاك المساء بعد أن أصبح القمر المكتمل عالياً فى الأفق الشرقى ملقيا

أنواره المثيرة على الحواف العليا لجبل ميريت سيجر الناهض إلى أفق السماء. لا يعرف أحد كنه المشاعر التى سيطرت على كارتر ذلك المساء ولا نوع الأحلام والرؤى التى سيطرت على منامه، إلا أنه مهما كانت طبيعة تلك المشاعر والرؤى والأحلام لابد آنه كان يدرك غريزيًا أن ذلك الدرج سيتمخض عن كشف مدوى، سعى إلى تحقيقه على مدى أعوام طويلة، بالرغم من عدم معرفته بحقيقة مازال خافيًا فى باطن الصخر، ويحتمل - أيضا - أن يكون قد عانى من شكوك ومخاوف تسللت إلى فكره، وأفسدت تلك البهجة الخالصة التى غمرته مع ظهور بداية الدرج المنحدر إلى باطن الأرض، وظهور حواف فتحة المدخل. كانت التساؤلات تجتاح فكره، هل وصل أخيراً إلى مقبرة توت عنخ آمون؟ وإن كانت هى بالفعل، فهل سيجدها كما كانت عليه ولم تسبقه إليها يد بشر من قبله منذ إغلاقها؟ أم اجتاحها من قبله لصوص المقابر على مدى الأحقاب الزمنية السابقة؟ أم سيجدها مقبرة غير مكتملة مثل تلك التى وجدها بأعلى الوادى والتى كانت ستضم رفات تحتمس الثانى؟ وعلى مدى الأسابيع التالية تبددت كل مخاوف كارتر كما يتبدد ضباب الصباح تحت وطأة حرارة شمس مصر الدافئة.

فى يوم الأحد، الخامس من نوفمبر، كان كارتر يشاهد بفرحة طاغية اثنتى عشرة درجة نازلة إلى باطن الصخر تبدو واضحة بعد أن أزيحت عنها كل الرمال والأتربة، وتصل فى انحدارها إلى عمق يربو على الأربعة أمتار، ويبلغ اتساعها متراً واحداً، وعند المغرب ظهرت الحافة العليا لباب صخرى مغلقة حوافه بالجص. وسجل كارتر سعادته الفائقة قائلاً : «مازالت حواف المدخل مغطاة بالجص، من المؤكد أن أعوام الصبر والعمل قد أتت ثمارها، أول ما انتابنى من مشاعر أن آمالى فى وادى الملوك لم تخب، ولم تكن بلا مبرر».

ظهر بأعلى المدخل المغلق صرة حبوب العدس، ومن تحتها ظهر على الجص الأختام الغائرة المميزة التى تحمل شكل الإله أنوبيس الثعلب المقعى فوق تسعة من أسرى الأعداء المكبلين، كان ذلك الخاتم هو خاتم

مقابر طيبة الملكية، وأشاع الطمأنينة فى نفسه أن المقبرة لم تمس من قبل، ولما لم يعد بإمكانه مقاومة فضوله الطاغى أكثر من ذلك، ففتح فتحة فى الجص ليلقى منها نظرة على ما بالداخل، واستعان بمصباح كهربى، وأحس بخيبة أمل حين وجد أن الدهليز الواقع خلف الباب ملىء بالركام والأتربة والصخور، وقال عن تلك اللحظة : «أحسست أن كل الاحتمالات قائمة، وأنه من الممكن أن يكون خلف ذلك الركام أى شىء، حرفيا أى شىء، أو لا شىء على الإطلاق واستجمعت كل إرادتى لأقاوم رغبتى فى تحطيم الباب الجصى لأعرف ماذا يوجد خلف ركام الدهليز».

كانت لحظات عصيبة ومؤلمة لكارتر تطلبت منه قدراً هائلاً من ضبط النفس؛ حتى لا يحطم الباب الجصى. إرادة لم يمارس مثلها بعد ذلك أبداً.

اكتشاف مذهل

بقدر هائل من كبح نوازع الذات قرر كارتر ألا يمضى فى العمل أكثر من ذلك قبل أن يخبر كارنر ڤون بتلك الأخبار الرائعة، ثم قام بتغطية الدرج الحجرى النازل بالأتربة والحجارة، وأرسل برقيته الشهيرة إلى صديقه وراعى عمله، وفى اليوم التالى أكمل طمر المدخل كما كان.

وهكذا، بعد ثمانى وأربعين ساعة فقط من اكتشاف المدخل، اختفى من جديد عن الأنظار بعد دفنه، وكان من العسير عليه وهو يتأمل الموضع المدفون أن يوقن إن كان ما حدث حقيقة أم مجرد حلم من الأحلام.

انتشر الخبر بسرعة فائقة، وفى يوم الثلاثاء السابع من نوفمبر راحت برقيات التهانى تنهال على كارتر مع عروض بتقديم المساندة والمعاونة، وراحت تزداد يوميا على مدى الشهرين التاليين حتى بدت كطوفان من البرقيات والرسائل، وأدرك أن المرحلة التالية ستتطلب مساندة متخصصة، فاتصل يوم الخميس التاسع من نوفمبر بصديقه القديم آرثر ج. بيكى كالندر فوافاه على الفور فى اليوم التالى. كان كالندر مهندساً إنجليزياً عمل طول حياته بهيئة خطوط السكك الحديدية المصرية، وبعد سن التقاعد

استقر فى مزرعته الريفية بقرية أرمنت بجنوب مصر على بعد عدة أميال جنوب الأقصر، ونشأت علاقتهما من بضعة أعوام سابقة حين كان كارتر يطلب معاونته لحل بعض المشاكل الهندسية التى تصادفه فى عمله ولإحساسه بدفء الصداقة التى تجمعهما، كان كالندر هادئ الطباع، لين العريكة، ودوداً، بملامح جادة، وأثبتت الشهور التالية أنه رفيق نشط، ويقوم بكفاءة تامة بدور الرجل الثانى. أما كارنر ڤون فقد رد على برقية كارتر وأخبره أنه سيصل إلى الإسكندرية فى العشرين من نوفمبر ترافقه ابنته الليدى ايڤيلين هربرت، ولم تشأ زوجته آلمينا أن ترافقه فقد كان من الواضح أن كراهتها تزداد؛ لانصراف نشاط زوجها إلى حفر مقابر الموتى.

وبالرغم من أنها لم تدرك أهمية ذلك الكشف فى ذلك الوقت، إلا أنها كانت لها اهتمامات أخرى بعد أن فتنت برجل آخر شغل فكرها واهتمامها، ودفعتها تلك العلاقة الغرامية كما ستظهر تفاصيلها بعد ذلك إلى الزواج بمن فتنت به بعد ثمانية أشهر فقط من موت زوجها.

نذر سوء الحظ

توجه كارتر إلى القاهرة يوم ١٨ نوفمبر لشراء أدوات يحتاجها العمل فى مرحلته التالية مثل ألواح خشب ومسامير وأسلاك ومصابيح كهربية؛ لإضاءة المقبرة مستفيداً بالتيار الكهربائى الذى كان موجوداً بالفعل فى مقبرة رمسيس السادس الملاصقة لمقبرة توت عنخ آمون، ومضى كل شىء كما خطط له، باستثناء حادث تضاربت ردود الأفعال فى تفسيره.

كان قد ترك مسكنه فى عناية صديقه بيكى كالندر كما عهد إليه برعاية طائر الكناريا الذى اشتراه عند بداية موسم الحفر الأخير؛ ليضفى بعض البهجة على المسكن الموحش. وذات مساء سمع كالندر فجأة صوت خفقات أجنحة الطائر على نحو غير معتاد، واتجه إلى الرواق الخارجى ليستطلع الأمر ففوجىء بأفعى هائلة داخل القفص منهمكة فى ابتلاع طائر

الكناريا[٩] . كـان حـادث يشى بسـوء الطالع ونذر الشـؤم ، فـقـد أجـمع الخفـراء ورؤسـاء العمـال حين رأوه أول مـرة أن ذلك الطائر سيجلب لهم الحظ الحسن فى ذلك الموسم[١٠].

وطبقا لما ذكره هربرت وينلوك الأمين المساعد لقسم المصريات بمتحف مترو بولتيان للفنون بنيويورك فى رسالة منه إلى رئيسه ادوارد روبنسون أمين قسم المصريات بالمتحف، ذكر أن خفراء الموقع ورؤسـاء العمـال قالوا لكارتر حين أراهـم الطائر أول مـرة: «مبروك، إنه طائر ذهبى سيجلب لنا حظا حـسنا. إن شـاء الله سنعـثـر هذا الموسم على مـقـبـرة مليـئـة بالذهب».[١١] وتأكـد تفـاؤلـهم بعـد أيام قليلة حين ظهرت أول درجـة من الدرج النازل إلى المقبرة، وأطلقوا على المقبرة تيمناً بالطائر «مقبرة الطائر الذهبى»[١٢] أو «مقبـرة الطائر»[١٣]، وأشـار ونيلوك : بقدر غير قليل من المبالغة إلى أن ذلك الطائر «يبعث بهالة من الضياء حول القفص»[١٤].

حـين انتشـر ذلك الخبـر، وأن أفـعى ابتلعت الطائر وهـالتـه[١٥]، وهو حدث نادر الوقـوع فى الوادى ، وكانت الأفـعى رمز وشـعار الحكم الملكى الفرعونى وتعلو تيجان فراعنة مصـر؛ لذلك نظر كثيرون إلى ذلك الحـادث من جانب الرمز فيه. كان لابتلاع الأفعى لطائر الكناريا فى فكر المصريين المؤمنين بالخرافات دلالة رأوا فيها أنـها نذير شـؤم، وانتـهى التفاؤل الذى كان يستمد من وجود الطائر.

وذكـر ونيلوك فى رسـالته: «كـانت عـاقبـة ذلك وخـيـمة من وجـهـة نظر العاملين المصريين بموقع الكشف، وبالرغم من أنـهم عجزوا عن تبرير وجه الارتبـاط بين ابتـلاع أفعى لطائر ومـا قد يقـع من أحداث سيئـة، إلا أنـهم كـانوا على يقـين أن أحـد المسـئـولين عن الكشف سـيـمـوت فـى ذلك الشتاء»[١٦].

كـان هربرت ونيلوك من علمـاء المصريات الجديرين بالاحتـرام، وسـاهـم بجهد كبير فى كل الأعمـال التى صـاحبت اكتشـاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان عدا ذلك صـديقاً مـخلصـا لكارتر، حتى إن كـارتـر أقـر ذات مـرة أنه

صديقه الحقيقى الوحيد[١٧]؛ لذلك لا يمكننا أن ننظر باستخفاف لما ذكره ونيلوك.

كذلك سجل تشارلز بريستد عن والده جيمس هنرى بريستد عالم المصريات الأمريكى الذائع الصيت، والمختص بحضارات الشرق القديم والذى انضم إلى فريق كارتر بعد اكتشاف المقبرة نسخة من تلك الأحداث مع اختلافات طفيفة، فقد سجل عن أبيه:

(ذات يوم بعد اكتشاف المقبرة أرسل كارتر أحد مساعديه؛ ليجلب له شيئًا من بيته الذى لم يكن به أحد فى ذلك الوقت، بعد أن ذهب الخدم إلى سوق محلى أسبوعى يقام بمدينة الأقصر - ربما كان سوق الأربعاء الموافق ٢٢ نوفمبر - ولما اقترب الرجل من البيت سمع صرخة خافتة تشبه صراخ البشر ثم ساد الصمت، حتى إن صوت تغريد الطائر اختفى هو الآخر، ولما دخل البيت اتجه بصره تلقائيًا إلى قفص الطائر فرأى أفعى ضخمة ملتفة والطائر بين فكيها، ولما انتشر ذلك الخبر بسرعة فائقة بين أهل المنطقة انتابهم الخوف وقالوا : «خسارة كبرى، إنها أفعى ملك المقبرة جاءت تنتقم . لابد أن شرا وبيلا سيحل بأحد ما»[١٨]).

وبغض النظر عن أى الروايتين أصدق، فمما لا شك فيه أن تلك الحادثة قد وقعت، بغض النظر عن التفاصيل الهامشية، مع أن بعض المؤرخين شككوا فى صحة حدوث تلك الواقعة[١٩].

ومع أن كارتر لم يذكر تلك الواقعة فى يومياته (وهى يوميات تفتقر إلى التفاصيل بوجه عام)، إلا أن ما سجله يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر كان يحمل دلالة ما، إذ إنه سجل : «وصلت ليدى إيڤيلين وجلبت معها طائرًا» [٢٠]، ومن المحتمل أنها جلبته بديلاً لطائره الذى ابتلعته الأفعى، وقد أهدى ذلك الطائر فيما بعد إلى مينى بيرتون زوجة المصور الفوتوغرافى هارى بيرتون قبل عودته إلى إنجلترا فى نهاية موسم حفر ١٩٢٣ - ١٩٢٤[٢١].

ما يثير الجدل فعلاً ، أن رسالة ونيلوك كتبت فى ٢٨ مارس ١٩٢٣، أى بالكاد قبل ثمانية أيام من موت كارنر ڤون تلك الميتة المأساوية

الغامضة، ويلحق بتوت عنخ آمون إلى العالم الآخر. ربما كان من غير الطبيعي أن ينظر البعض إلى موت كارنر ڤون على أنه تحقق لنذر الشؤم التى أشاعها موت الطائر الذهبى، وهو ما سنعود إليه فى الفصل العاشر.

وصول اللورد كارنر ڤون

بعد التقاء كارتر بكارنر ڤون وليدى إيڤيلين فى القاهرة يوم الإثنين ٢٠ نوفمبر توجهوا إلى الأقصر فى اليوم التالى، وبعد أن استراحوا فى بيت كارتر ذهبوا إلى موقع المقبرة، ووجدوا كاليندر قد بدأ فى إزاحة الرمال والأتربة عن الدرج الحجرى النازل إلى المقبرة.

وطبقا لما سجله كارتر بلغ عدد الدرجات ست عشرة درجة[٢٢]، وفى قاع باب المدخل لاحظ كارتر وجود خاتم الخرطوش الملكى لتوت عنخ آمون على الملاط، وكان يحمل اسمه الملكى «نب خبرو رع»، مما أكد له أخيراً هوية صاحب المقبرة والعصر الذى ينتمى إليه[٢٣].

إلا أن ما أثار قلقه وجود موضعين فى الجانب العلوى للباب الجصى تعرضا للكسر قبل ذلك وأعيد سد موضعهما بالملاط.

وفسر ذلك باحتمال تعرض المقبرة لدخولها مرتين فى زمن ما، وأدرك أن الجانب العلوى الذى يحمل أختام المقابر الملكية هو الذى تعرض للكسر بينما كان الجانب السفلى الذى يحمل خاتم خرطوش توت عنخ آمون لم يتم كسره ومازال على حاله الأول[٢٤].

وبدأت المخاوف تراود كارتر بأن المقبرة ليست كاملة بشكل مطلق كما كان يأمل[٢٥]، وحيث إن ملاجئ العمال القدماء كانت تعلو المقبرة مباشرة فمن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث قبل إنشاء مقبرة رمسيس السادس التى تعلوها، وقرر بعد ذلك أن إعادة الإغلاق لا يمكن أن تكون قد وقعت إلا فى عصر لا يتجاوز عهد حور محب، أى خلال ثلاثين عاماً من موت توت عنخ آمون.

وظهرت بعد ذلك مخاوف أخرى حين وجد بين الأتربة عند قاعدة المدخل، وعلى آخر درجة من الدرج قطعًا من كسور الفخار، وأجزاء من

صناديق محطمة تحمل أسماء أخناتون وسمنخ كا رع وتوت عنخ آمون، وجعراناً يعود إلى عهد تحتمس الثالث، وكسوراً عليها اسم أبى أخناتون أمو نحتب الثالث، فهل يعنى ذلك أن تلك المقبرة ليست إلا مقبرة جماعية مثل تلك التى كانت لآمو نحتب الثانى عند نهاية الوادى؟

قضى كارتر تلك الليلة فى موقع المقبرة، وفى اليوم التالى، السبت ٢٥ نوفمبر وضع خطة إزالة الجدار الجصى الذى يسد المدخل. كان كاليندر يشرف على صنع باب خشبى سميك ومتين ليحل محل الباب الجصى بعد إزالته؛ لتأمين المقبرة وحمايتها من السطو عليها. وقام كارتر بنسخ أشكال الأختام قبل إزالة الباب الجصى الذى كان مكوناً من صخور جيرية مثبتة معا بملاط من الجص. كان خلف الباب بعد إزالته ممراً له نفس عرض وارتفاع المدخل الذى بلغ مترين، وكان الممر مليئاً بالأتربة، والحجارة والرمال وبدأوا فى إزالة كل ذلك، واكتشف كارتر أنه بامتداد الموضع الذى كان قد كسر وأعيد إغلاقه فى الجدار الجصى كان هناك بداية نفق إلا أنه أعيد إغلاقه - أيضا - بصخور البازلت وكسور الصخر الصوان.

ومع نهاية نهار السبت كانت كميات كبيرة من الأتربة والحجارة والرمال قد أزيلت من الممر، وكان عليهم إكمال ما تبقى فى اليوم التالى، الأحد ٢٥ نوفمبر، وهو اليوم الذى وصفه كارتر بعد ذلك بأنه «يوم يساوى كل أيام عمرى، وأعظم يوم عشته فى حياتى كلها، وبالتأكيد لم أحلم بعده أن أعيش مثله مرة أخرى»[٢٧].

يوم بكل الأيام

قضوا تلك الليلة يغمرهم توتر التوقع، وبعد إفطار السادس والعشرين من نوفمبر، أصبح العاملون على وشك الانتهاء من إخلاء الممر، كان إخلاء الممر يمر بفترات من التوقف حتى يتمكن فريق العمل من حصر، ونسخ ما يعثرون عليه من قطع صغيرة بين الأحجار، والأتربة التى كانوا يزيلونها.

كما عثروا على قرب مياه من جلود حيوانية استخدمت لعجن الملاط الجصى لإعادة غلق الباب بعد أول اقتحام. وبحلول الثانية ظهراً كانوا قد وصلوا إلى نهاية الممر الذى انتهى بباب جصى آخر، مماثل لذلك الذى كان عند نهاية الدرج ويبعد عنه حوالى تسعة أمتار، وبالاستعانة بالمصابيح راح كارتر وكارنرفون يفحصان أختام الباب الثاني، وكانت مماثلة لتلك التى على الباب الخارجى. وراح الأمر يتضح لهم عما حدث بعد الانتهاء من الدفن وإغلاق المقبرة. كان الممر بين البابين خاليًا عند إغلاق المقبرة بعد الدفن، وبعد محاولة الاقتحام قرر موظفو المقابر الملكية وحراسها القدماء ملء ذلك الممر بالحجارة، والأتربة؛ لإعاقة أى محاولة لاقتحام المقبرة، لذا قاموا بنقل بقايا أدوات الدفن، وجمع المخلفات التى تركت بعد تناول وجبة الدفن الطقسية التى تركوها بالممر إلى حفرة من الجبل (الحفرة ٥٤) والتى اكتشفها ادوارد ايرتون، حين كان يعمل لحساب المليونير الأمريكى تيودور م. داڤيز عام ١٩٠٧.

بريق الذهب فى كل مكان

وقف كارتر وكاليندر وكارنرڤون وليدى إيڤيلين يشهدون إزالة آخر كمية من الأتربة أسفل الباب الجصى الثانى حتى ظهر الباب بأجمعه، وتصاعدت مشاعر الترقب والتوقع، حتى وصلت إلى ذروة من التوتر فوق الوصف والتخيل، ثم أتت اللحظة المصيرية التى كانوا ينتظرونها. بيد مرتجفة متوترة قام كارتر بفتح فجوة بأعلى يسار الباب، ومدَّ قضيبًا معدنيًا كمجس للتأكد من عدم وجود أجسام صلبة خلف الفتحة، ثم أدخل مشعلاً للتأكد من عدم وجود غازات ضارة بالداخل، ولما ظل المشعل مضيئًا تأكد من وجود غاز الأكسجين وصلاحية الهواء داخل المقبرة، ومدَّ يده إلى أقصاها لمزيد من التأكد، وبعد ذلك أدخل رأسه داخل الفجوة؛ ليرى ما بالداخل، واستغرق الأمر بضع لحظات حتى اعتادت عيناه الظلام الداخلى، وتدريجيًا بدأت تتضح لبصره أشكال، وهيئات، وأجسام كانت

تملأ كل الفراغ الواقع خلف الباب، وسجل تلك اللحظة الفريدة بعد ذلك قائلاً :

«لأول وهلة لم تميز عيناى أى شىء، وراحت الغازات الساخنة المندفعة من الداخل ترجف لهب الشعلة، وبدأت عيناى تعتادان ضوء المشعل لحظة بعد أخرى، وراحت تفاصيل ما هو موجود تبرز تدريجياً من غياهب العتمة، بدأت تظهر أشكال حيوانية وتماثيل لبشر وبريق ذهب، كان بريق الذهب يضوى فى كل أرجاء الغرفة»[٢٨].

للحظة، تيبس لسان كارتر فى حلقه من الذهول الذى انتابه، بينما كان الآخرون خلفه ينتظرون في لهفة أن يخبرهم بما يراه، وأخيراً، لم يعد كارنر ڤون قادراً على الصبر والانتظار، فسأل بصوت يشى بالقلق : «هل ترى أى شىء؟».

رد كارتر : «بلى، أرى أشياء رائعة»[٢٩]. «الإجابة المدونة فى مذكرات كارتر هى أنه أجاب نعم، إنها رائعة»[٢٩]، ووسعَّ كارتر الفتحة التى أحدثها وجلب مصباحًا كهربائيًا؛ ليتمكن من رؤية أفضل لمحتويات ما وراء الباب الثانى، والذى تبين بعد ذلك أنه فراغ الغرفة الخارجية، كانت المحتويات مكدسة فوق بعضها وبدا بعضها معروفة شكلاً، بينما بدت موجودات أخرى غريبة تماما. لم يدر بخلده أبداً أن الاكتشاف الذى كان يسعى إليه من الممكن أن يكون بتلك الروعة.

تناوب الواقفون خلفه - كارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكاليندر - النظر من الفتحة، وكان كل منهم يعود برأسه مشدوهاً ومذهولاً. كانت المحتويات الموجودة خلف الجدار الجصى تذهل الألباب والرءوس. أول ما كانت تقع عليه أبصارهم ثلاثة أسرَّة من الذهب رائعة الجمال، مصنوعة على هيئة حيوانات عجيبة، وتبرق رءوسها الذهبية حين يسقط عليها ضوء المصباح الكهربى. وإلى اليمين وقف تمثالان بالحجم الطبيعى لحارسين يواجه كل منهما الآخر، أسودى اللون، ويرتدى كل منهما إزاراً ذهبياً وعلى رأس كل منهما تاج على شكل أفعى، وفى اليد اليسرى العصا وفى

اليمنى الطره، واتضح بعد ذلك أنهما يمثلان روح الملك (كا) فى الآخرة.

كانت تلك الموجودات هى أول ما استرعى أنظارهم عند الإطلال من تلك الفتحة التى فتحها كارتر فى الجدار الجصى، وبعد أن اعتادت عيونهم الضوء الخافت رأوا موجودات أخرى كثيرة - كثيرة جدا بالفعل - وقد سجل كارتر بعد ذلك تلك اللحظات المثيرة :

«من الصعب وصف الدهشة والذهول بعد أن أظهرت الإضاءة الكهربية مجموعة الكنوز الرائعة من صناديق مزخرفة للمجوهرات، وآنية مرمرية، وأدوات على شكل زهور البردى واللوتس، وأضرحة لحْدية سوداء، ورأس أفعى ذهبية تخرج منها، وصناديق بيضاء، ومقاعد دقيقة الصنع منحوتة برقة فنية عالية، وكرسى عرش مكفت بالذهب، كوم من صناديق بيضاوية الشكل، ومباشرة تحت الفتحة كان يوجد إناء على شكل زهرة اللوتس من المرمر الشفاف، ومقاعد بلا مساند مختلفة الأشكال والأحجام من مواد معروفة وأخرى غير معروفة، وأخيراً، أجزاء عربة مفككة وكلها تبرق بلون الذهب ويبرز منها شكل تمثال، كان أول انطباع يتبادر إلى ذهن الرائى أنها غرفة ديكور فى دار أوبرا معاصرة، أو مقتنيات من حضارة منقرضة. كانت أخلاط المشاعر العجيبة تجتاحنا مليئة بانفعالات لم نعشها من قبل، ورحنا نسأل بعضنا عن مغزى ما نراه : هل هى مقبرة أم مخزن؟ وأثبت وجود باب جصى مغلق بين التمثالين الحارسين أنه مازال هناك المزيد من المحتويات فى غرفة أخرى خلف ذلك الباب المغلق، وكان خرطوش توت عنخ آمون يزين أغلب القطع التى كانت أمامنا، ولم يعد لدينا شك أن خلف ذلك الباب الجصى الأخير يوجد لحد ذلك الفرعون»[٣١] .

وطبقاً لما رواه كارتر فى الكتاب الذى نشره عن ذلك الاكتشاف المذهل: أنه بعد أن تأملوا ملياً ذلك المشهد الرائع الماثل أمامهم، أعادوا إغلاق الفتحة التى أحدثوها وخرجوا عبر الدهليز، وأغلقوا الباب الخشبى الخارجى الذى أشرف كاليندر على صنعه، وتركوا بالباب خفيراً أميناً،

وغادروا وادى الملوك على ظهور الحمير عائدين إلى بيت كارتر المسمى «قلعة كارتر»، «صامتين فى ذهول وأذهانهم شاردة»[٣٢].

وقيل : إنهم قضوا الليل يتحدثون بشغف عما شاهده كل منهم وما يتمكن من استدعائه من ذاكرته، وقال كارتر: «رأى كل منا شيئًا لفت نظره لم يلاحظه الآخرون، وأدهشتنا فى اليوم التالى كل الأشياء التى لم نرها رغم وضوحها، ومن الطبيعى أن ما استحوذ على أغلب النقاش تخيلنا لما هو خلف الباب الموصد بين تمثالى الحارسين»[٣٣].

وأخيراً، وبعد أن استنفذوا كل ما يمكن أن يقال، آووا إلى مضاجعهم وقال كارتر بعد ذلك : «أعتقد أن النوم لم يتسلل إلى أجفان أى منا فى تلك الليلة»[٣٤].

وبالفعل لم يذق أى منهم طعم النوم، فبالرغم من الحكاية الرسمية المنشورة فى المجلد الأول من كتاب كارتر «توت عنخ آمون» والذى كتبه هو وآرثر ميس الأمين المساعد لمتحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، أصبح من الثابت أن كارتر والثلاثة المتآمرين معه (ارجع إلى الفصل السادس) أكملوا ما بدأوه، وتوجهوا رأساً إلى الباب الجصى، وأزالوا جزءًا منه، ودخلوا الغرفة الخارجية، وغرفة صغيرة أخرى ملحقة بها فى المساء نفسه فضلا عن ذلك، هناك دليل لا يقبل الجدل على أن الأربعة ذاتهم عادوا إلى المقبرة فى الأيام القليلة التالية، ودخلوا بطريقة غير رسمية وغير مشروعة من الباب المغلق بين التمثالين إلى غرفة دفن الملك الشاب ومستقره الأخير. ولابد أن نقيم ذلك الانتهاك الذى لم يعلن كارتر عنه، حتى نضعه فى موضعه الصحيح، فى سياق قصة ذات أبعاد خافية تفوق كثيراً كل ما أعلن عنها ،وسنعرضها فى النصف الثانى من هذا الكتاب.

٦ - فتح المقبرة سراً

«لك أن تتخيل كيف بدت لنا تلك الموجودات ونحن نلقى عليها أول نظرة من تلك الفتحة فى الباب الجصى المغلق، ونحن نسلط عليها ضوء المصباح – أول ضوء يخترق ظلام تلك المقبرة من ثلاثة آلاف عام – وضوء المصباح ينتقل من مجموعة محتويات إلى مجموعة أخرى فى محاولة فاشلة لتقييم الكنز القابع أمامنا»[١].

الفقرة السابقة مما سجله كارتر عن اللحظة التى وقع فيها بصره على محتويات المستقر النهائى لتوت عنخ آمون فى الساعة الثانية من يوم الأحد الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢[٢]. إلا أن ما أحجم خبير المصريات البريطانى عن ذكره فى شهادته المسجلة فى كتابه الذى أصدره أنه راح يوسع الفتحة، حتى أحدث فراغاً كافياً لأن يقفز منه إلى داخل الغرفة الخارجية، دون أن ينتظر تصريحاً رسمياً بذلك أو افتتاحًا رسميًا. وتلك الحقيقة مدونة فى مسودة يوميات كتبها كارنر ڤون عن الأحداث التى أدت فى نهايتها إلى ذلك الكشف العظيم، وقد سجلها يوم الأحد ١٠ ديسمبر عام ١٩٢٢[٣]، وكان المصدر الذى كتب منه تقرير فى اليوم التالى، الاثنين ١١ ديسمبر لصحيفة التايمز اللندنية[٤]. ومن ذلك المقال تتضح الوقائع، كما حدثت فى ذلك اليوم المشهود فى وادى الملوك حين وصلوا إلى الباب الجصى الفاصل بين الدهليز والغرفة الأمامية الواقعة خلفه.

«طلبت من السيد كارتر أن يخلع بعض الأحجار من الباب الجصى حتى نتمكن من إلقاء نظرة على ما خلفه، وقام بذلك فى دقائق، ودفع رأسه من خلال الفتحة واستعان بمصباح، وتمكن جزئيا من رؤية ما بالداخل، واستمر الصمت طويلاً حتى قلت بنبرة مرتجفة: «حسناً، ماذا

هناك؟».

وجاءت إجابة كارتر مرحبة: «توجد بعض الأشياء العظيمة»[٥]، ويستمر كارنروڤون فى وصف ما حدث بعد أن تخلى كارتر عن مكانه أمام الفتحة وتركهم ينظرون منها واحداً بعد آخر من أول لمحة وعلى ضوء غير كاف، كان يمكن للمرء أن يرى ما قد يبدو لأول وهلة كقضبان من ذهب، وبعد لحظات من تعود البصر على عتمة الفراغ الداخلى يبدأ فى تمييز أسرةً كبيرة من الذهب لها رءوس مذهلة، وصناديق فى كل مكان.

وإلى حد كبير لا يوجد فرق حقيقي بين شهادة كارنرڤون لأحداث ذلك اليوم وتلك التى نشرت فى كتاب كارتر وميس، إلا أن الفرق يتضح فى تسجيلات كارنر ڤون عما حدث بعد ذلك، وهو يتضمن أهمية كبرى لنظرية هذا الكتاب، فبدلا عما ذكره كارتر من اكتفائه بالنظر من الفتحة، قال كارنرڤون :

«وسعنا الفتحة وقفز كارتر عبرها إلى الداخل - وكانت الغرفة الخارجية أعمق بحوالى قدمين (٧٠ سنتيمتراً) عن مستوى آخر الدهليز - ثم راح يتجول داخلها وبيده المصباح، وأدركنا جميعا أننا عثرنا على شىء شديد التفرد وغير مسبوق»[٧].

ولا يبدو لنا أن هناك أى سبب يدفع لورد كارنر ڤون إلى التلاعب فى ذكر وقائع بعد ظهيرة الأحد السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٢٢، وبالرغم مما ذكره كارتر وميس فى كتابهما أنهم الأربعة دخلوا الغرفة الخارجية لأول مرة يوم الاثنين ٢٧ نوفمبر :

«بحلول ظهيرة السابع والعشرين من نوفمبر كان كل شىء معداً، ودخل لورد كارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكالندر وأنا بصحبتهم إلى داخل المقبرة، وتفقدنا الموجودات بدقة أكثر فى أول غرفة، بعد ذلك أطلق عليها المدخل أو الغرفة الخارجية»[٨].

لماذا إذن هذا الخداع الواضح؟ ولماذا ادعى كارتر أنه دخل الغرفة الخارجية لأول مرة متأخراً يوماً عن تاريخ دخوله الحقيقى لها؟ وستثبت

لنا إجابة ذلك التساؤل أن ذلك قد حدث لسبب سياسى بحت.

كانت الفقرة الثالثة من تصريح البحث عن الآثار الممنوح لكارنر ڤون عام ١٩١٥ (وكان يجدد سنوياً) تنص بوضوح على وجوب قيام صاحب التصريح، أى هوارد كارتر نيابة عن كارنر ڤون بإبلاغ كبير مفتشى آثار الوجه القبلى بالأقصر بأى كشف فور التوصل إليه[٩] وكان يشغل هذا المنصب فى ذلك الوقت عالم المصريات البريطانى ريجنالد «ركس» إنجلباك، والذى كان يحاط علماً بكل تطورات الحفر والبحث وحتى يومين فقط قبل الكشف، أى يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر، شهد بنفسه إزالة آخر الأتربة من أسفل قاع الباب الخارجى التالى للدرج[١٠].

إلا أن انجلباك كان سبباً فى عدم تحقيق الفقرة الثالثة من شروط التصريح بعد أن أخبر كارتر وكارنرڤون أن بيير لاكو، المفتش العام للآثار المصرية يبلغهم : أنه قبل فتح أى غرفة لابد من حضور انجلباك أو أحد زملائه أثناء الفتح[١١]. هذا بالرغم من أن الفقرة الثالثة من تصريح البحث تنص بدورها على أن : «من حق صاحب التصريح الاحتفاظ بحق فتح المقبرة أو الأثر المكتشف، ويحق له أن يكون أول الداخلين إليه»[١٢].

وبإدراكهما لتبعات ما يطلبه انجلباك من الانصياع لأوامر كبير مفتشى الآثار ، احتجا بقوة على انجلباك وحطا من قدره وشبهاه «بسمكة السالمون المرقطة»[١٣]. كانا يريان أن أوامر بييرلاكو تفتقر إلى الشرعية ، بل رأيا أنها تتجاوز نصوص الترخيص وشروطه.

فضلا عن ذلك، كان كارتر يرى أن تدخل المفتش الفرنسى لم يكن إلا مثالا فظاً وواضحاً لنية مصلحة الآثار التى يهيمن عليها الفرنسيون لعرقلة عمله وإفشاله، وأن إصرار لاكو على وجود أحد المفتشين أثناء فتح المقبرة لم يكن الغرض منه إلا لمراقبتهم حتى لا تقع تجاوزات، هذا عدا الفوز بشهرة المشاركة فى أول دخول.

لذلك، وحين ظهر الباب الذى يلى الدهليز لأول مرة لهما، واجها مشكلة حقيقية، هل يضعان أدوات العمل جانباً، ويستدعيان انجلباك

وينتظران وصوله قبل اتخاذ أى خطوات أخرى؟ أم يمضيان قدماً ويقتحمان المقبرة؟ ولو انتشر الخبر ووصل إلى الجهات المعنية، فإن ذلك سيتبعه أياماً لا يعرفون مداها حتى يسمح لهم بمواصلة العمل، والأسوأ إذا أصر لاكو على القدوم إلى الأقصر؛ ليشرف بنفسه على فتح المقبرة.

وفى النهاية، وكما سنرى لاحقا ضغط كارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكالندر ودخلوا المقبرة. ومع إدراكهم أن هذا العمل يعد خرقًا صريحاً للفقرة الثالثة من تصريح البحث، حرص كارتر وكارنرڤون على الحصول على وعد من كالندر وليدى إيڤيلين ألا يفشيا ذلك السر. وبعد ذلك أبلغ كارتر انجلباك حتى يقوم «بفحص رسمى» فى أسرع وقت ممكن، وطالما أن الأربعة الكبار وبعدهم بالطبع الخفراء الموثوق بهم الذين شاركوهم السر (انظر ما يلى) احتفظوا بألسنتهم داخل أفواههم، لن تكون هناك مشكلة.

هوفنج يكشف الخفايا

بغض النظر عن مسودة مقال كارنرڤون المكتوب بالآلة الكاتبة عن أحداث وظروف وملابسات اكتشاف المقبرة، وكذلك النسخة المكتوبة بخط يده للمقال المنشور فى التايمز، وبعض الهمسات التى تناقلها الوسط الارستقراطى، ظل سر دخول الأربعة الكبار سراً إلى الغرفة الخارجية والداخلية بعد ذلك خافيًا على مدى يزيد على سبعين عاما. لم يذع هذا السر بشكل علنى وعام إلا بعد نشر كتاب مثير بعنوان «توت عنخ آمون – القصة الخفية»، وكتبه توماس هوفنج ، المدير السابق لمتحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، والممثل للجانب الأمريكى فى تنظيم معرض توت عنخ آمون بالولايات المتحدة تحت اسم : كنوز توت عنخ آمون. أتاح وضع هوفنج المتميز كمدير للمتحف الاطلاع على عشرات الوثائق التى لم تنشر وكانت متراكمة بقسم المحفوظات يعلوها غبار الإهمال والنسيان.

كان كثير من تلك الوثائق يتعلق مباشرة أو غير مباشرة بالأحداث

والوقائع التى أحاطت بكشف مقبرة توت عنخ آمون، خاصة الوثائق المتعلقة بعلاقة المتحف بكارنر ڤون وكارتر، ومن بينها تسللهما خفية إلى المقبرة بعد اكتشافها.

استعان هوڤنج بالمادة التى وجدها فى وثائق أرشيف وسجلات المتحف بالإضافة إلى مسودة مقال كارنر ڤون التى كتبها عن تلك الملابسات، بالإضافة إلى ورقتين مختصرتين كتبهما الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس الذى عمل مع كارتر على مدى تسعة مواسم. حاول هوفنج إعادة ترتيب الوقائع الحقيقية كما حدثت يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ (انظر الفصل السابع)[١٥].

وتوصل إلى أن ليدى إيفيلين لا كارتر هى التى دخلت لأول مرة الغرفة الخارجية، ويرجع ذلك ببساطة إلى أنها كانت الأصغر حجما من بين الأربعة[١٦] ، وهو استنتاج معقول ومنطقى، بالرغم من عدم وجود ما يؤيد ذلك الافتراض.

وبعد أن تمكنت من المرور من الفتحة التى أحدثها كارتر بالجدار الجصى، وقفت مذهولة ومشدوهة أمام ما تراه من كنوز مكدسة أمامها، ثم وسَّعوا الفتحة، ولحقوا بها واحداً بعد آخر.

الغرفة الخارجية

داخل الغرفة الخارجية التى كان محورها شماليًا جنوبياً بطول يبلغ ٨و٠٨ مترا، وعرض ١ر٦٨ مترا، كانت تصطف مئات من القطع التى تخلب الألباب، مصفوفة من الأرض حتى السقف. كان يوجد وعاء مملوء إلى منتصفه ببقايا الملاط الذى استخدم لإعادة إغلاق الجدار الجصى، ومصباح زيتى عليه هباب، وسناج، وعلامات أصابع غائرة على الموضع الذى أعيد إغلاقه، وإكليل زهور محفوظ بشكل جيد ملقى أسفل الجدار من الداخل. وأضفت روائح الدهون العطرية الخفيفة وعبق الزيوت العطرية على السكون وسحر المحتويات جواً يدير الرؤوس وهم ينقلون أبصارهم

بينها، يحدقون مشدوهين فى كل ما تقع عليه أعينهم، ودفع كل ذلك السحر بكارتر أن يسجل : «ويتلاشى الزمن مع تأمل التفاصيل الدقيقة الرائعة لتلك الموجودات، حتى يطأك إحساس بأنك دخيل».

الغرفة الملحقة

بعد أن تفقدوا محتويات الغرفة الخارجية، يفترض أنهم اتجهوا إلى غرفة صغيرة ملحقة بها وعلى امتدادها وتبلغ أبعادها ٣٥ر٤ × ٦و٢ مترا وارتفاعها ٥٥ر٢ متراً، وعرفت بعد ذلك باسم «الغرفة الملحقة»، وسجل كارتر عنها: «كان بابها خافيًا خلف أحد المقاعد المذهبة والذى كان ملاصقا للحائط الغربى، كان لصوص المقابر قد تمكنوا من الوصول إلى الغرفة الأمامية عبر نفق انتهى بهم بين أرجل ذلك الكرسى الفرعونى الذهبى والذى كان قطعة فنية مذهلة، وزحف كارتر وكارنرڤون أسفل ذلك الكنز العتيق وأطلوا من خلال الفتحة، ووجدوا بالغرفة الملحقة محتويات كثيرة مكومة فوق بعضها حتى السقف، وتسودها حالة من الفوضى وعدم الترتيب، حتى أن كارتر سجل عن ذلك :

«لم يكن يوجد متسع فى تلك الغرفة لأكثر من فرد واحد، ويبدو أن من اقتحمها دخلها زحفا، ثم راح بسرعة يفتش كل محتوياتها، ويفرغ صناديقها، ويلقى بالمحتويات جانبا مكوماً ما يفرغ من فحصه فى كومة غير منظمة، وأحيانا ما كان يمد يده من خلال الفتحة التى دخل منها بقطعة من القطع لزملائه ليفحصوها، وقام بتلك العملية بسرعة شديدة، وترك خلفه ما يشبه آثار الزلزال، لم تبق بوصة واحدة من أرض الغرفة الملحقة خالية من المحتويات المتناثرة، ولابد أن عملية إعادة الترتيب كانت تشكل صعوبة كبرى، ولا نعرف الترتيب الذى كانت عليه تلك المحتويات قبل نثرها على هذا النحو، ولا نعرف من أين نبدأ»[١٧].

من الممكن أن يتفهم المرء - دون عناء - لماذا اتخذ كارتر قرار دخول الغرفة الأمامية بعد ظهيرة ذلك اليوم؟ يمكننا أن نتخيله بعد أن أثملته

نشوة تدفق هرمون الأدرينالين بكثافة فى عروقه بعد أن وقع بصره لأول مرة على الكنوز الرائعة الموجودة بالمقبرة. كأن هناك قوة خفية طاغية تلغى إرادته وتدفعه كالمسحور والمنوم للتوغل أعمق، لاكتشاف تلك الومضات التى تعكس وهج الذهب المرتعش على ضوء المشعل المرتجف. ويمكننا أن نلتمس العذر لكارتر وجماعته إزاء هذا الاغواء والاغراء القهرى، إلا أن سر تلك المجموعة لم يقتصر على اقتحام الغرفة الخارجية دون تصريح رسمي بذلك، فلدينا الآن دليل قطعى يظهر أنه فى وقت ما بين يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر والخميس ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢، اخترق كل منهم الجدار الجصى الكائن بالحائط الشمالى للغرفة الأمامية والمؤدى إلى غرفة دفن الملك، وقاموا بفحص محتوياتها ومدفن الملك الشاب. ونؤكد أن ذلك وقع قبل ثلاثة أشهر من الفتح الرسمى للمقبرة وغرفة الدفن ، ذلك الفتح الرسمى الذى قام به كارتر وكالندر بإزالة الباب كله فى حضور المدعوين والشخصيات البارزة يوم الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣ (لا الجمعة ١٧ فبراير كما هو مسجل خطأ فى كتاب كارتر وميس[١٨] ، وهو الخطأ الذى راح يتكرر من بعدهما فى كل ما كتب بعد ذلك عن اكتشاف المقبرة).

السر

أول إشارات وشت بتلك المخالفة التى أحيطت بالسرية من جانب كارتر وكارنرڤون بدأت فى الظهور، بعد نشر كتاب عام ١٩٧٢ بعنوان «خلف قناع توت عنخ أمون» كتبه الكاتب المؤرخ بارى واين[٢٠]. كان بارى واين موضع احترام وتقدير وثقة الايرل السادس لكارنر ڤون (١٧٩٨ - ١٩٨٧)، والذى سجل شهادته فى ذلك الكتاب. كان بقدرة واين أن يستل من ذاكرة الارستقراطى - التى راحت تقل مع تقدمه بالعمر - شهادة شخصية عن حياة والده الإيرل الخامس الذى تبنى أعمال البحث والكشف عن مقبرة توت عنخ آمون، عدا ذلك قام واين بمراجعة يوميات الأخ غير الشقيق للإيرل الخامس وهو المبجل : ميرڤين هربرت (١٨٨٢ - ١٩٢٩)،

والذى حضر معهم الافتتاح الرسمى لغرقة دفن توت عنخ آمون. كانت تلك اليوميات قد أصبحت من مقتنيات مركز الشرق الأوسط بجامعة سانت انتونى باكسفورد، ضمن مجموعات المذكرات الشخصية، وقام واين بمراجعتها[٢١].

كان ميرڤن ، الأخ غير الشقيق للإيرل الخامس يعمل دبلوماسيًا بالسفار البريطانية بمدريد فى وقت اكتشاف المقبرة، وكان فى ذلك الوقت يقضى عطلته بمصر ومعه زوجته إليزابيث، وبعد أن زارا معالم القاهرة رحلا إلى الأقصر، وأقاما بفندق ونتر بالاس، وكان أخوه يقيم بالفندق ذاته. كانت علاقتهما حميمة وكان ميرڤن يطلق عليه اسم «بورش» .

وفى صباح يوم الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣، يوم الفتح الرسمى لغرفة دفن الملك، توجه ميرڤن إلى جناح «بورش» ليلقى عليه تحية الصباح كما اعتاد كل صباح، إلا أن الإيرل الخامس سأله إن كان لديه وقت ليحضر معه فتح غرفة الدفن، وأقر له أنه بحاجة إلى دعم معنوى من أخيه وصديقه، وأضاف : «أخشى أننى لن أتمكن من أن أريك كل شىء»[٢٢].

سعد ميرڤن بتلك الدعوة، ولباها على الفور، وسجل عنها بعد ذلك :

«ركبت مع بورش وإيڤيلين سيارته الفورد، وبعد بضع دقائق والسيارة تمضى بنا قال : - كأنه يطمئن نفسه - إن كل شىء سيمضى على ما يرام، وأنه سيجعلنى أدخل المقبرة وهى تفتح لأول مرة، ثم همس بشىء إلى إيڤيلين وطلب منها أن تخبرنى، وقد فعلت بعد أن رجتنى أن أقطع على نفسى عهدا ألا أفشى السر، وبعد أن وعدتها قالت لى : إنهم دخلوا الغرفة الثانية للمقبرة ولم يستطيعوا مقاومة دخولها، وإنهم فتحوا فتحة صغيرة فى الباب (سدوها بعد ذلك)، وزحفوا منها إلى غرفة الدفن الداخلية دون علم أحد. ووصفت لى باختصار بعض النفائس التى سأراها بعد الفتح الرسمى لغرفة الدفن، وكان ذلك الوقت من الأوقات المثيرة جدا حتى إننى لا أتذكر إننى مررت بإثارة مثلها من قبل، وقالت : إن الذين يعرفون بهذا الأمر عداهم رؤساء العمال، وإنهم لن يفشوا ذلك السر».

ووصلت السيارة إلى الوادى ، وحين كانوا يترجلون حياهم الحشد المجتمع فى الموقع بتصفيق طويل حار، وكان كارتر قد وصل قبلهم يقف بين حشد من مراسلى الصحف العالمية وكثير من السائحين، وعند لحظة الفتح الرسمى نزل المدعوون ببطء الست عشرة درجة حتى بداية الدهليز، وكان من أبرز المدعوين عبد الحليم باشا سليمان وزير الأشغال العمومية، وبييرلاكو ، وركس انجلباك، وثلاثة مفتشين من مصلحة الآثار، والسير ويليام جارستان كبير مفتشى الرى بوزارة الأشغال العمومية المصرية، ومشرف بلاط ملك إنجلترا السير تشارلز كاست وكانت تربطه علاقة صداقة وثيقة بلورد كارنر ڤون، وريتشارد بيتال السكرتير الشخصى للورد كارنر ڤون، وأعضاء فريق عمل كارتر ومنهم البروفيسور چيمس هنرى بريستد، ودكتور آلان هـ. جاردنر، والبرت لايثجو، وهربرت ونيلوك أمين متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك ، بالإضافة إلى كارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكارتر وميرڤين هربرت - مما بلغ فى مجموعه عشرون فرداً - نزلوا جميعًا درج المقبرة بتؤدة وتمهل، وفى الغرفة الخارجية التى كانت مرتفعه الحرارة وتدر العرق من الأبدان، جلس المدعوون على مقاعد مصفوفة تواجه الجدار الشمالى للمقبرة الذى يقع به الباب المؤدى إلى غرفة الدفن، والمفترض كما هو فى أذهان الجميع أنه سيفتح لأول مرة من آلاف السنين. كانت توجد أسفل الباب منصة خشبية واطئة وضعها كارتر بين التمثالين الحارسين اللذين تركا وحدهما فى الغرفة الخارجية، وأخليت كل محتويات الغرفة الخارجية، ثم أحيط التمثالان الحارسان بأقفاص من خشب لحمايتهما، وانتظر الضيوف لحظة الافتتاح. لم يكن أى من الحاضرين - باستثناء كارتر وكارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكالندر - يتخيل ما يمكن أن تكون عليه غرفة الدفن، إلا أن ميرڤن هربرت سجل فى يومياته عن تلك اللحظات أن الأمور لم تكن كما كانت بادية للعيون، وننقل هنا ما سجله ميرڤن عن أحداث ذلك اليوم:

«صفت المقاعد فى الغرفة الخارجية للمقبرة بعد إخلاء كل محتوياتها

عدا تمثالى الملك، وكان بينهما مدخل غرفة الدفن الذى كان مازال مغلقاً بالحائط الجصى، وبأسفله وضعت منصة خشبية واطئة؛ لتخفى خلفها أثر الفتحة التى فتحها كارتر فى قاع الباب، وتسللوا منها إلى داخل غرفة الدفن. كان صديقى العزيز بورش فى حالة عصبية بادية، مثل تلميذ المدرسة المشاغب الذى يخشى أن يضبط بجرمه، وبالرغم من علمه المسبق بما سيجدونه بعد إزالة الباب الجصى لغرفة الدفن ومحتوياتها، إلا أنه لم يكبح مشاعر الإثارة المتوقعة والمنتظرة. وبدأ بتوجيه كلمة قصيرة إلى الحضور كانت فى صميم الموضوع، ووجه الشكر لكل من ساهم فى تحقق هذا الكشف العظيم وخاصة للأميريكيين الذين وهبوا خدماتهم بلا مقابل، ثم وجه كارتر للحضور كلمة قصيرة شابتها العصبية، ولم يكن خطابه مترابطًا، وتناول بصفة أساسية علم الآثار والأهمية القصوى لهذا الكشف.

ثم انتقلوا إلى العمل، فأزاح كارتر الملاط وانتزع الأحجار الكبيرة من الحائط الجصى بادئا من أعلى ويناول ما ينتزعه إلى كاليندر، واستمر العمل بطيئا لفترة إلى أن أحدث فتحة تكفى لأن يمد رأسه من خلالها ويتطلع إلى داخل غرفة الدفن، واستعان بمصباح كهربى، وذكر للحضور أنه يرى صندوقاً هائلاً أزرق مموهاً بالذهب، وكان ذلك بالطبع المقصورة الخشبية التى تضم التابوت داخلها، وبعد أن زاد من اتساع الفتحة سمح لكل الحاضرين أن يتطلعوا منها؛ لإلقاء نظرة كافية إلا أنها لم تكن لتشبع العين من تأمل ذلك المثوى الرائع، واستمر العمل فى إزالة الباب الجصى حتى سمحت الفتحة للحاضرين بالمرور إلى داخل الغرفة. كان كارتر أول الداخلين ومن بعده بورش ثم كل الحاضرين بالتتابع».

وطبقا لما ذكره ميرفن هربرت فى يومياته، أخفت المنصة الخشبية الواطئة التى وضعوها بين التمثالين أثر الفتحة التى أحدثوها خفية قبل ذلك، التى دخلوا منها سراً إلى غرفة الدفن. وفى نسخة كارتر عن تلك الوقائع كما سجلها فى كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، نجده يذكر أن أثر

تلك الفتحة كان موجوداً حين دخلوا الغرفة الخارجية أول مرة :

كان أهم هدف لنا ذلك الباب المغلق بين التمثالين، ورأينا ما خيب آمالنا وأصابنا بإحباط، فقد كان الباب يبدو من بعيد كاملاً لم يمس، إلا أن الفحص القريب أظهر أثر فتحة كانت موجودة قرب قاعدة الباب، وكان حجمها يكفى لمرور صبى، أو رجل متوسط الحجم، وتبين لنا أن تلك الفتحة قد أعيد إغلاقها بعد ذلك. كان ذلك يعنى أن هناك من سبقنا إليها»[٢٥].

لذلك ، ونتيجة لما ذكره كارتر فى كتابه ظل أثر موضع تلك الفتحة يتداول فى كتب التاريخ والآثار على أنه من صنع اللصوص. هل يعنى ذلك أنهم فتحوا ثغرة إلى غرفة الدفن فى نفس موضع أثر الفتحة التى ادعى أن اللصوص قد أحدثوها ثم أعادوا إغلاقها بعد ذلك ؟

الدليل على أن جماعة الأربعة أعادوا إغلاق تلك الفتحة محفوظ للأبد بتلك الصور الفوتوغرافية التى قام هنرى (هارى) بيرتون (١٨٧٩ - ١٩٤٠) بتصويرها، وهو مصور بريطانى محترف أعاره متحف متروبوليتان للفنون لكارتر لتصوير اكتشاف المقبرة ومحتوياتها، وهى مجموعة صور محفوظة حاليا بمعهد جريفث باكسفورد، وتظهر صورة منها (رقم GB7-288 انظر الصورة رقم ١١) الفتحة التى أعيد إغلاقها بوضوح مغطاة بأثر ملاط حديث داكن اللون ويحمل خاتم المدافن الملكية.

ومن خلال يوميات ميرڤن هربرت، وما توصل إليه ألفريد لوكاس وعرضناه باختصار نوقن أن كارتر وجماعته قاموا بالفعل بإحداث فتحة فى باب غرفة الدفن دخلوا منها وأعادوا إغلاقها بعد ذلك، وحيث إن بيرتون لم يكن ضمن فريق عمل المقبرة حتى منتصف ديسمبر، فإن تلك الصورة تظهر مهارة كارتر فى تقليد خاتم المقابر الملكية، ولا تعد دليلاً على قدم غلق الفتحة.

بكل تأكيد، يطابق هذا الاستنتاج ما سجله ميرڤن هربرت فى يومياته، وهو يذكر فيها - أيضا - أن كارتر وكارنرڤون، ومن المفترض - أيضا -

كالندر وليدى إيڤيلين خافوا أن يكتشف أحد الحضور أن إعادة اغلاق الفتحة إنما يتكون من ملاط لا يزيد عمره على ثلاثة أشهر، لا ٣٣٠٠ عام كما ادعى كارتر؛ لذلك وضع كارتر وكارنر ڤون تلك المنصة الخشبية عن عمد أمام الربع الأسفل للباب لتخفى أثر تلك الفتحة التى دخلوا منها سراً قبل ذلك . وبعد أن أزالوا الباب الجصى يوم الافتتاح ودخلوا غرفة الدفن مع المدعوين والذى من المفترض أن يكون أول دخول إلى تلك الغرفة من زمن يربو على ثلاثة آلاف عام، وفحصوا مقام جثة الملك الشاب، ظلت المنصة الخشبية فى موضعها، وأظهرت صور بيرتون تلك المنصة، وبعد رحيل كل المدعوين أزيلت المنصة، وما تبقى من الباب فى الجزء الذى يحمل آثار الملاط الحديث، وبذلك تخلص كارتر من أى أثر لها .

من الصعب علينا بالطبع قبول تلك الصورة من الأحداث التى أحاطت بأعظم كشف أثرى على مدى العصور، وهل يمكن تقبل فكرة دخول كارتر وكارنر ڤون وليدى إيڤيلين وكالندر خفية وسرًا إلى غرفة الدفن بعد فترة قصيرة من دخولهم الغرفة الخارجية كما يفعل اللصوص؟ وهل قام كارتر فعلا بتقليد خاتم المدافن الملكية، وختم به الملاط وهو مازال لينا وبذلك أخفى معالم جريمتهم كما ظن؟ الأمر كله يصعب تصديقه ويبدو خياليًا، هذا إن لم يوصف بأنه خيانة للأمانة العلمية.

تساؤلات حول «فتحة اللصوص»

ما حدث بالفعل، يمكن استنتاجه بعد الرجوع إلى مقالين يشوبهما الغموض كتبهما ألفريد لوكاس (١٨٦٧ - ١٩٤٥) ، وهو كيميائى بريطانى ولد بمانشستر، وعمل مع كارتر من بداية موسم حفر ١٩٢٢ - ١٩٢٣ حتى نهاية موسم ١٩٣٠ - ١٩٣١، والذى تولى فحص كثير من القطع الأثرية من بين آلاف القطع التى وجدت بمقبرة توت عنخ آمون، وأشاد كارتر بجهوده منوهاً بخبرته ودرايته التى بدونها لم تكن ليصل من تلك القطع إلى متحف القاهرة إلا ما لا يزيد عن حوالى ١٠٪ فقط فى حالة

جيدة تصلح للعرض، وكان لوكاس - أيضا - قد أشرف مع كارتر عام ١٩٢٦ على نقل القناع الذهبى الشهير لتوت عنخ آمون من الأقصر إلى متحف القاهرة بالقطار تحت حراسة مشددة.

المقالان المعنيان نشرا بجريدة الآثار المصرية، الأول عام ١٩٤٢ تحت عنوان «ملاحظات حول بعض القطع الأثرية من مقبرة توت عنخ آمون»[٢٦] واحتوى مقتطفات مما كتبه خبير الآثار البريطانى آرثر ويجال فى كتابه «توت عنخ آمون وموضوعات أخرى»، ومن مقال عالمة الآثار البلجيكية چان كابارتز تحت عنوان «مقبرة توت عنخ آمون» ونشرا عام ١٩٢٣، وكذلك مقتطفات مما ورد بكتاب كارتر «مقبرة توت عنخ آمون» المنشور فى ثلاثة مجلدات على التتابع أعوام ١٩٢٣ (واشترك فى كتابته معه آرثر ميس)، و١٩٢٧، و١٩٣٣. وبتعبير لوكاس عن تلك المقتطفات «هناك بعض ما ذكر فى تلك الكتب والمقالات يفتقد الدقة ويحتاج إلى إعادة تصحيح»[٢٧].

وبدأ لوكاس عملية التصحيح بالمجلد الأول من ثلاثية كارتر، ولفت الأنظار إلى فتحة اللصوص المزعومة والموجودة بالباب الجصى ما بين الغرفة الخارجية وغرفة الدفن الداخلية، وأشار إلى ما ورد بالمجلد الأول فى صفحتى ١٠١، ١٠٢ وورد فيهما : «أظهر الفحص الدقيق للباب الجصى أن هناك أثر فتحة كانت قد فتحت قرب قاعدته، وأنها سدت بعد ذلك، وأغلقت بالحجارة والملاط»[٢٨]، وذكر لوكاس فى مقاله أن : «هناك قدراً كبيراً من الغموض يحيط بموضوع فتحة اللصوص تلك»، فضلاً عن ذلك، فقد أكد لوكاس حين فحص موضع تلك الفتحة بنفسه لأول مرة يوم الأربعاء ٢٠ ديسمبر عام ١٩٢٢ أن تلك الفتحة:

«أخفيت بمهارة خلف قصعة من قصاع العمل، وبعض القطع من الحصير كومها كارتر أمام موضع الفتحة.. ومن الواضح أن لورد كارنرڤون وابنته والسيد كارتر قد دخلوا غرفة الدفن، كما دخلوا الغرفة الصغيرة الملحقة بالغرفة الخارجية، والتى كانت مخزنا للنفائس ولم يكن لها باب فاصل، وذلك خفية وسراً دون إعلام أحد، أما كاليندر فلا يمكن

القطع بدخوله غرفة الدفن فقد كان هائل الجرم ولا يمكن أن تسع تلك الفتحة جسمه الضخم، وقد سمعت ذات مرة ملحوظة جعلتنى أعتقد أن الفتحة التى أحدثوها كانت صغيرة بالنسبة لحجم كاليندر»[٢٩].

لم يكن لوكاس ممن يستهان بخبراتهم ولا فراستهم. كان بمقدوره كعالم كيمياء أن يميز بين فتحة سدت قديماً فى عهود سحيقة، وبين فتحة سدت فى زمن معاصر حديث؛ لذلك تأتى شهادته كترجيح لا يستهان به، وتثبت أن كارتر وآخرين معه قد دخلوا غرفة الدفن سرًا قبل افتتاحها. ويتفق ما توصل إليه لوكاس مع ما اعترف به ميرڤن هربرت فى مذكراته، ويجعل من المستحيل نفى تلك الواقعة التى أخفاها كارتر.

ونشر لوكاس مقاله الثانى عام ١٩٤٧ حول الموضوع نفسه فى المجلد السنوى لجريدة الآثار المصرية[٣٠]، وكان هدفه تحديث مقاله السابق المنشور عام ١٩٤٢، وبعد أن أضاف إليه من مصادر جديدة مسجلة كتابة عن توت عنخ آمون، ونتائج تحليل كسرة خبز وجدت بالمقبرة، عاد من جديد إلى الموضوع السابق الخاص بالفتحة الغامضة فى باب غرفة الدفن، وذكر:

«أعلنت قبل ذلك (فى بحث سابق) أن لورد كارنرڤون وابنته والسيد كارتر قد دخلوا على وجه اليقين غرفة الدفن سرًا، وتترك تلك الواقعة بتلك الكيفية للحس المنطقى السليم تخمين من الذى أغلق تلك الفتحة والزمن الذى أغلقت فيه. لقد ظل ذلك الأمر غامضًا وأنا أسعى لإزالة ذلك الغموض. لقد أعلن السيد كارتر فى المجلد الأول من ثلاثيته : «بين الفحص الدقيق أن تلك الفتحة قد أحدثت بالقرب من قاعدة الباب، وأنها مُلئت بعد ذلك بالحجارة، وثبتت الحجارة بالملاط وأعيد إغلاق الفتحة»، وهذا ليس إلا تضليلاً من جانب كارتر، فالفتحة لا تماثل ولا تشبه تلك التى كانت بالباب الخارجى، كما أنها لم تغلق من قبل عمال المقابر القدماء بصورة رسمية، بل أغلقها السيد كارتر ذاته، فبعد أن بدأت العمل معه مباشرة، لفت كارتر نظرى إلى أن ذلك الموضع سبق فتحه وإغلاقه ولما

قلت له إن الإغلاق لا يبدو قديما أقر بذلك واعترف لى أنه هو من قام بإغلاقها[٣١]. وهكذا أفشى كارتر سره، إلا أن ذلك يطرح سؤالا: لماذا لم يذكر لوكاس ذلك الأمر فى بحثه الأول الذى نشره عام ١٩٤٢؟ الإجابة الوحيدة المحتملة هى أنه كان يحمى سمعة كارتر الطيبة، ويحفظها له، خاصة أن كارتر كان قد مات قبلها بثلاثة أعوام فقط، أى : عام ١٩٣٩، ولما وجد لوكاس بعد ذلك نفسه فى موضع يلزمه بالكشف عن سر ذلك اللغز خاصة بعد ما ألح إليه من دخول بعض أفراد الجماعة بطريقة سرية وغير مشروعة إلى غرفة الدفن قبل فتحها رسمياً، وجد أنه لزاماً عليه أن يكشف كل ما يعرف.

ماذا كان رد فعل علماء المصريات من معاصرى لوكاس على كشفه لذاك السر؟ الإجابة غير معروفة وليست مسجلة فى أى مصدر. ويبدو أنهم بدلاً من تلقف هذا التوضيح لسر تلك الفتحة وأن تفسير كارتر ليس إلا تضليلا من جانبه وتزييفا للحقائق، لم يتفهموا مغزى إقرار كارتر بإغلاقها أو فضلوا تجاهل الأمر برمته. كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أعظم اكتشاف أثرى على مدى التاريخ بلا أى جدال، وكان تناول أمر ذلك الخداع يلطخ سمعة المكتشف، ويحط من قدره، ويشين مهنة علماء المصريات. وكان الأرجح لديهم تجاهل الأمر برمته وتركه يمضى إلى غياهب النسيان.

ولذلك نقرر طبقاً للشهادة المدونة من الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس، صديق كارتر المقرب وزميله فى العمل؛ أنه لم تكن هناك فتحة فى الباب المؤدى إلى غرفة الدفن وقت اكتشاف المقبرة، لا قديماً ولا حديثاً، وأن كارتر وجماعته هم من فتحوا تلك الفتحة ليدخلوا منها إلى غرفة الدفن يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢، وزحف منها كارتر وكارنرفون وليدى إيفيلين إلى داخل غرفة الدفن، وجاسوا بين كنوزها، واستطلعوا ما بها ما حلا لهم من وقت، وانتقوا منها ما شاءوا، وهو أمر عجز بيكى كاليندر عن المشاركة فيه نظراً لضخامة حجمه، وبعد خروجهم بذات الطريقة التى

دخلوا بها ، قاموا بإغلاق الفتحة باستخدام الأحجار ذاتها التى خلعوها وثبتوها بملاط حديث وختموها بخاتم قام كارتر بتقليده يحمل شعار المقابر الملكية، ووسم به الملاط اللين.

ذلك الاستنتاج الذى توصل إليه لوكاس يعتمد فقط على ملاحظاته لموضع الفتحة التى تم إغلاقها إما أثناء إخلاء محتويات الغرفة الخارجية أو بعد ذلك مباشرة، وكذلك يعتمد على اعتراف كارتر له بأنه هو من قام بإغلاق تلك الفتحة، وبرر ذلك بتجنب فضول المتخصصين الآخرين الذين قد يتساءلون عما يوجد خلفها.

ودليل آخر غير أدلة لوكاس موجود فى نص نسخة لم تنشر عن اكتشاف المقبرة مسجلة بخط يد كارنر ڤون، وموجودة حتى الآن فى قسم المخطوطات اليدوية بالمكتبة البريطانية، وبالرغم من أن تلك النسخة الخطية غير مؤرخة، إلا أنه من المرجح أنه كتبها فى وقت ما بين يومى الاحد ٢٦ نوفمبر والخميس ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢[٣٢].

ومثلما فعل فى مقاله المكتوب على الآلة الكاتبة يوم الاحد ١٠ ديسمبر عام ١٩٢٢، وننقل نصه فيما يلى من الكتاب، فإن النسخة الخطية تبدأ - أيضا - بإبراز تاريخ وادى الملوك، وكبار الباحثين، والمنقبين الذين مروا عليه، وعملوا به بدءاً من الإيطالى بيلزونى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى. بعد ذلك انتقل إلى وصف اكتشاف بداية الدرج الحجرى النازل إلى المقبرة ثم مدخلها ودهليزها، ثم الباب المؤدى إلى الغرف بعد الدهليز والأختام الموجودة عليه ووصفها، حتى قال :

«وبعد أن صورنا الباب قررنا إزالة جانب صغير منه، ولما فعلنا ذلك استعنا بمصباح يدوى شحيح الضوء، ظهر لنا على ضوئه الخافت مناظر رائعة بهرت أبصارنا، أرائك وكراسى ومقاعد من ذهب، وصناديق مختلفة الأشكال والأحجام، وأشياء أخرى كثيرة ظهرت بصعوبة على ذلك الضوء الشحيح، ولحسن حظنا كانت تقع فوقنا مباشرة مقبرة رمسيس السادس وهى من المقابر التى يقبل عليها السائحون والزوار، وكانت مزودة بالتيار

الكهربائى، ومددنا منها أسلاكًا للتيار، ودخلنا تلك الغرفة وفحصنا ما بها واتضح بعد ذلك أن تلك كانت الغرفة الخارجية وبين تمثالين للملك فى تلك الغرفة الخارجية وجدنا بابًا مغلقًا بالحجارة والملاط ومختوماً بالخاتم الملكى على هيئة خرطوش وكذلك خاتم المقابر الملكية لوادى الملوك. فى موضع منه كان اللصوص قد فتحوا فتحة وثبت أنهم قد دخلوا منها، وقد أغلقت تلك الفتحة بعناية وسدت تماماً من قبل المفتشين.

لذلك لا يوجد موضع لجدال حول الحالة التى وجد عليها الباب حين اكتشفت المقبرة. اخترق كارتر ومن معه الفتحة التى فتحها وادعى بعد ذلك أنها من صنع اللصوص دون اهتمام بمبادئ وأخلاقيات علم الآثار ودخلوا إلى غرفة الدفن، وتم تأكيد ذلك والتوثق منه من نص خطاب هام كتبه كارنر ڤون إلى صديقه عالم أصول اللغات البريطانى سير آلان هـ. جاردنر (١٨٧٩ - ١٩٦٣)، والخطاب مؤرخ بتاريخ الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢، أى بعد يومين فقط من دخوله هو وكارتر إلى الغرفة الخارجية. فى تلك الرسالة أقر كارنر ڤون بوضوح :

«غداً (٢٩ نوفمبر) الافتتاح الرسمى، وقبل أن أغادر المقبرة ألقيت نظرة على الغرفة الداخلية..».

والإقرار الأخير على غاية عظمى من الأهمية؛ لأنه إن كانت فتحة اللصوص قد وجدت مفتوحة، لم يكن هناك ما يمنعهم من دخول غرفة الدفن حين دخلوا الغرفة الخارجية.

وتسجل يوميات كارتر أن ليدى إيڤيلين - والتى تبين من يوميات عمها غير الشقيق ميرڤن هربرت أنها دخلت غرفة الدفن قبل فتحها رسميا - قد غادرت الأقصر إلى القاهرة فى ٢ ديسمبر عام ١٩٢٢، وأن أباها كارنر ڤون غادر الأقصر إلى القاهرة يوم ٤ ديسمبر، وبعد أن التقيا بالقاهرة رحلا معاً عائدين إلى إنجلترا، وذلك يعنى أن آخر يوم كان متاحًا لليدى إيڤيلين هو يوم الجمعة ١ ديسمبر. إلا أنها كانت تحتاج يومًا لحزم متاعها وثيابها وحقائبها ووداع من تعرف؛ لذلك من الصعب أن تكون المجموعة

قد اتخذت قرار دخول غرفة الدفن فى آخر يوم يجمعهم معاً بالأقصر.

الأقرب للتصور والمنطق أن كارتر ومن معه تسللوا إلى «الغرفة المغلقة» فى وقت ما بين الثلاثاء ٢٨ نوفمبر وهو اليوم الذى كتب فيه كارنر ڤون إلى جاردنر والخميس ٣٠ نوفمبر.

لم تكن الوقاحة فقط أن ذلك العمل الدنىء تم تحت أنوف مفتشى مصلحة الآثار، الذين فشلوا فى ملاحظة الملاط حديث العهد الذى أغلقت به الفتحة، بل إخفاؤه خلف مقطف أتربة وضعه خصيصاً للتمويه كارتر أو كارنر ڤون أثناء زياراتهم المتكررة للمقبرة فى نهاية نوفمبر ١٩٢٢.

ماذا حدث بعد ذلك ؟

ماذا حدث حين وقعت عيون كارتر وكارنر ڤون وليدى إيڤيلين على مقاصير الدفن الذهبية التى تضم جسد الملك الشاب توت عنخ آمون؟ ذلك هو الجانب الهام من الكشف وسنعيد تركيبه فيما يلى من فصول.

٧- كنز توت عنخ آمون

زحف أحد الأربعة الموجودين بالغرفة الخارجية خلال الفتحة إلى غرفة الدفن، والأقرب إلى الاحتمال أن من بدأ منهم الزحف عبرها كان أصغرهم حجمًا «الليدى إيڤيلين»، ووجدت نفسها فى ممر ضيق عمودى على المحور الشمالى الجنوبى، وهو محور القاعة الخارجية، وكانت تحمل بيدها مصباحاً كهربائياً يستمد التيار من مقبرة رمسيس السادس بعد أن مدوا منها أسلاكاً كهربائية لمقبرة توت عنخ آمون، وأول ما لمحته أمامها كان جداراً مذهباً، وكان ذلك الجدار المذهب أحد جوانب المقصورة المحيطة بتابوت الجثمان، وتبين بعد ذلك أن المقام الضخم يتكون من سلسلة من المقاصير المتداخلة المتدرجة الأحجام والتى يقع فى مركزها الصندوق الصخرى الضخم وبداخله تابوت الجثمان المحنط[١].

لم تكن ليدى إيفيلين وحدها من دخل غرفة الدفن، بل دخلها بعدها وفى أثرها كارتر وكارنر ڤون فى تلك الليلة المصيرية، فى وقت ما بين الثلاثاء ٢٨ نوفمبر، والخميس ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ، وحيث إن كالندر كان أضخم من أن يمر من تلك الفتحة فقد ظل فى الغرفة الخارجية وربما للمراقبة. ولابد أن الثلاثة قاموا بفحص الجوانب المرتفعة للضريح الهائل المغطى بالذهب ومطعم بخزف أزرق. كانت المقصورة من الخشب وشغلت أغلب فرا غ الغرفة ولم يترك إلا ٤٦ سنتيمترا بين حافتها والحائط المقابل، وبلغت أبعادها ٦ر٣٧ متراً طولاً و٤ متراً عرضًا و ٣ر٦٣ متراً ارتفاعاً.

كانت تزين ثلاثة أجناب للمقام نصوص هيروغليفية، وأشكال مخيفة لحماية الجثمان، بينما يشغل الجانب الرابع المواجه للشرق باب مزدوج ضخم بمقابض، ولابد أن كارتر وكارنر ڤون سحبا المزلاج البرونزى الذى

يغلقه[٢]. وتبين بعد فتح ذلك الباب أن هناك مقصورة أصغر مغطاة بنسيج رقيق من الكتان تزين حوافه زهور ذهبية مطرزة به، وخلف النسيج كان هناك باب مزدوج آخر للمقصورة الثانية الداخلية، مغلق بحبل من ألياف القنب، ومختوم بخاتم المقابر الملكية، وكان ذلك دليلا على أن المقبرة لم يمسسها بشر منذ أن أغلقت على جثمان الملك الصبى، وبين جدارى المقصورة الأولى والثانية كانت توجد مصنوعات رائعة الجمال، من صناديق ذهبية صغيرة، وعصى مزخرفة، وآنية من مرمر أغطيتها على شكل أسد رابض بلسان أحمر مدلى من فمه.

وبعد أن أغلقا مزلاج المقصورة الخارجية بعناية كما كانت، تحركوا باتجاه الشمال محاذرين أن يطأوا أى من المحتويات المتناثرة على الأرض من آنية مرمرية وفخارية بأغطية مزينة، ومجموعة من أحد عشر مجدافاً مرصوصاً بعناية فى صف واحد.

مشاهد الدفن

أظهر نور المصباح الكهربائى بعد ذلك الحوائط المزينة برسوم ونقوش جدارية شغلت مساحة الحوائط الأربعة لغرفة الدفن، فعلى الجدار الشرقى، ظهر الفرعون على هيئة أوزوريس، رب العالم الآخر وجسده المحنط مسجى داخل محفة تزينها باقات الزهور، ولها مقابض لحملها تزينها عقود الزهور، وتمثل موكب الدفن يحيط به عشرة من كبار رجال الدولة، ووزراء مصر العليا والدنيا، وعلى الحائط الشمالى كان يوجد مشهدان مصوران : الأول يمثل توت عنخ آمون على هيئة أوزوريس ويقف أمامه خليفته فى الحكم، آى، على هيئة الإله حورس بن أوزوريس وعلى رأسه تاج أزرق، ويرتدى زياً من جلد فهد بصفته كبير الكهنة، وبيد آى أداة تعرف باسم آدز يؤدى بها طقس فتح الفم بعد الموت، حتى يتيقن أن الدفن تم على أكمل وجه لأبيه الروحى أوزوريس (حتى يرث هو العرش)، وحتى تبعث الـ «كا»، وهى روح الميت، والمشهد الثانى يظهر الملك توت عنخ

آمون وهو حى يضع على رأسه رمز إله الانتقام، ويمسك بيده العصا والصولجان وتحييه ربة السماء نوت، وإلى اليسار صورة الملك وهو يحتضن أوزوريس، وكذلك «كا» توت عنخ آمون تحتضن هيئته الحية.

وعلى الجدار الجنوبى، حول الباب المؤدى إلى الغرفة الخارجية، صور الملك وعلى رأسه «خات»، وتحييه فى الحياة الأخرى الربة حتحور وتقدم له الحياة على شكل «عنخ»، أى مفتاح الحياة، موضوع على فمه، ويقف خلفه أنوبيس إله التحنيط، وحارس الموتى المصور على شكل ثعلب، وإيزيس قرينة أوزوريس، أم حورس وحاميته، والحامية أيضا لتوت عنخ آمون أثناء حياته.

وأخيراً، وعلى الحائط الغربى، صورت مشاهد مأخوذة من «أم - دوات»، أى كتاب الموتى، وفيها يظهر الملك الميت على شكل جعران «خيبيرا»، يقف أمام قرص الشمس، يليها خمسة صور لآلهة صغرى من آلهة العالم الآخر. تحتهم اثنا عشر قرداً من قرود البابون، يمثلون اثنتى عشرة ساعة، أو اثنى عشر مدى زمنيًا من الليل، على الميت أن يبحر إلى الغرب خلالها قبل أن يبعث من جديد على هيئة «آخ» أو «الروح العظيمة» فى الحياة الأخرى. ومن أجل النجاح فى خوض تلك الرحلة الخطرة، فإن ذلك كان يستلزم وجود الأحد عشر مجدافاً المصفوفين بعناية على الأرض بين الجانب الجنوبى للمقام والحائط الشمالى للمقبرة.

غرفة التخزين

بعد أن انتهوا من تأمل الجداريات مذهولين، لابد أن الثلاثة قد انتقلوا إلى الجانب الشمالى من الغرفة، وجدوا فتحة باب أدت إلى غرفة أخرى كانت بمثابة مخزن المقبرة. وبالفعل أطلق عليها هذا الاسم وبلغت أبعادها ٤٫٧٥ مترا و ٣٫٨ متراً وارتفاعها ٢٫٣٣ متراً. فى تلك الغرفة وجدت أعظم كنوز الأرض قاطبة، وكما ذكر كارتر فى وصفها بعد فتحها رسميًا: «فى مواجهة فتحة المدخل انتصب أجمل أثر قديم رأيته فى حياتى - ويبلغ

جماله وروعته حداً يجعل من يراه يشهق تعجباً وإعجابًا»[٣].

وكان كارتر يشير بذلك إلى مقام مذهب رائع الجمال، محاط بطبقات من الأفاعي المنحوتة، وفى المنتصف صندوق كانوبى من الصخر بداخله الأوعية الكانوبية الأربعة التى تحتوى على أمعاء وأحشاء توت عنخ آمون، أو ما يسمى الأعضاء المقدسة للملك، وبين الأوعية الأربعة كان يوجد تمثال من الذهب فى كل جانب من الجوانب الأربعة للمقام يقف منتصبا، ويمثل كل تمثال واحدة من الربات الحارسات للموتى : نيت، وسيلكت، وإيزيس، ونفتيس، ووصفهم كارتر قائلا : «كانت أشكالها رائعة ومهيبة، بأذرعها الممتدة كأنها تحمى أحشاء الملك المقدسة وكأنهن أقرب للحياة فى أوضاعهن تلك وعلى وجوههم ترتسم ملامح الرحمة والحنو حتى إن المرء ليشعر أنه يدنسهن بتطلعه إليهن»[٤]. كل تمثالين من تلك التماثيل الرائعة على يسار الداخل ويمينه تستدير رءوسها على الكتف كأنها تحدق فيمن تسول له نفسه الدخول من الباب إلى ذلك المكان المقدس، ويخلق لدى الداخل انطباعا غريباً بذلك الغموض المخيف الذى لا يمكن تخيله الملازم للموتى فى مصر القديمة.

«كان يحرس مدخل غرفة المقام المذهب للأحشاء تمثال مذهب يبعث الخوف والرهبة، وهو تمثال من الخشب بالحجم الطبيعى للإله أنوبيس على هيئة ثعلب رابض أسود اللون عليه رقائق الذهب فى مواضع كثيرة يقعى متألقاً على منصة خشبية مزودة بمقابض لنقلها، وبينه وبين حافة المقام الذهبى للأحشاء رأس بقرة وهى الربة حتحور بعيونها الواسعة المحملقة وقرونها الطويلة السوداء، ويلتف حول عنقها نسيج من الكتان وضعت فى الجانب الجنوبى من الغرفة صناديق كثيرة سوداء، ومقدسات من مختلف الأشكال والأحجام بعضها من خشب وبعضها من عاج، وكانت الصناديق مغلقة عدا واحدا كان يحتوى ضمن أشياء عديدة على تماثيل للفرعون من الذهب ينتصب كل منها على فهد أسود.

وكان فى آخر الغرفة صناديق أخرى كثيرة، بعضها يحتوى أشكالا

صغيرة مكفنة كأنها محنطة وتبين بعد ذلك أنها تماثيل الاشابتى، وهى تماثيل كثيرة صغيرة الغرض من وجودها أن تقوم بخدمة الملك فى الحياة الأخرى. كانت بعض تلك الصناديق مغطاة بطبقات رقيقة من الذهب بتصميمات رائعة مزخرفة بخزف أزرق. ورفع كارتر غطاء واحد من تلك الصناديق فوجد به مروحة رائعة من ريش النعام ومقبضها من العاج وكانت على حال رائعة كأنها خرجت لتوها من بين يدى من صنعها»[٥] واحتوت الصناديق الأخرى على أصناف وأشكال من الحلى والمجوهرات، عقود وخواتم، وصولجانات وملابس وأردية رائعة التطريز والألوان، وصنادل، ونعال ، وأكواب من خزف وملابس داخلية للملك وألعاب طفولته. وعلى امتداد الحوائط كانت هناك أكوام من الكنوز المختلفة، وأعداد كبيرة من نماذج القوارب النهرية، حتى إن أحدها كان بقلاعه وصواريه، وعربة مفككة إلى أجزاء مثل تلك التى وجدت بالغرفة الخارجية.

كما احتوت غرفة الكنوز على جسدى جنينين محنطين كل منهما فى مجموعة توابيت متداخلة، وكانا بلا شك نتاج محاولات توت عنخ آمون وزوجته عنخسن - آمون التى لم تكلل بالنجاح لإنجاب وريث يمد فى سلالة العمارنة.

وفى مجموعة توابيت صغيرة متداخلة أخرى وجد كفن مصغر يحمل اسم توت عنخ آمون، بداخل ذلك الكفن تمثال غير منقوش من الذهب يمثل آمو نحتب الثالث، وإلى جواره كفن مستقل يحمل اسم الملكة تايى ويحتوى على مشبك شعرها، وكانت تلك المحتويات سبباً فى ظهور نظرية فحواها أنه لو كان أمو نحتب الثالث قد سمح لابنه أخناتون أن يحكم معه حكمًا مشتركاً على مدى آخر أحد عشر أو اثنى عشر عاما من حياته، وهو ما يبدو الآن مؤكداً (انظر الفصل ١٧)، فمن المحتمل أن تايى قد أنجبت له ابنا فى أواخر الأربعينيات من عمرها.

وجهة نظر هوفنج

من المستحيل بالطبع التكهن بالوقت الذى قضاه كارتر وكارنر ڤون وليدى إيڤيلين فى فحص المحتويات التى ملأت غرفة الدفن وغرفة التخزين، إلا أنهم بعدما انتهوا من تفقد كل ما كانوا يبغون تفقده زحفوا من جديد عبر الفتحة التى ادعى أنها كانت من صنع اللصوص إلى الغرفة الخارجية، حيث كان كاليندر بانتظارهم، وبعدها، وربما فى اليوم ذاته قام كارتر وكاليندر بملء الفجوة بالحجارة التى انتزعها منها وثبتها بالملاط، ثم باستخدام خاتم منحوت على قطعة خشب أعده كارتر ببراعته المعروفة فى النسخ، قام بختم الملاط اللين بذلك الخاتم المقلد للمقابر الملكية[٦] ، ثم وارى الموضع كله بوضع أدوات عمل وسيقان نباتية وجريد نخيل كانت موجودة بالغرفة الخارجية أمام ذلك الموضع، ولأن دخول غرفة الدفن تم بطريقة غير قانونية وغير مشروعة ، تعاهدوا ألا يفشوا ذلك السر الذى لو ذاع سيكلفهم سمعتهم ومصداقيتهم.

ويفترض توماس هوفنج الذى كشف تلك الجوانب الخفية فى كتابة «توت عنخ آمون - القصة الخفية» أن كارتر وجماعته قد دخلوا غرفة الدفن فى اليوم ذاته الذى دخلوا فيه الغرفة الخارجية لأول مرة يوم الأحد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢. واستنتج هوڤنج ذلك من خلال ما سجله لوكاس فى مقاله المنشور عام ١٩٤٧ فى المجلد السنوى لجريدة الآثار المصرية، والذى سجل فيه اعتراف كارتر له بأنه هو من قام بإغلاق الفتحة والتى ادعى أنها من صنع اللصوص، وأنها كانت موجودة حين اكتشفوا المقبرة.

وبالمقارنة بمقال لورد كارنر ڤون المكتوب بخط يده فى وقت يقع بين يومى ٢٦ و ٣٠ نوفمبر، نجده يقر فى ذلك المقال أنهم وجدوا بابًا مغلقًا بالحجارة بين تمثالين حارسين، وأنه لاحظ وجود فتحة اللصوص بقاع ذلك الباب والتى «قام المفتشون بسدها وإغلاقها بعد ذلك »[٧] ، وأنهم لم يدخلوا إلى غرفة الدفن، ثم يؤكد فى رسالة بعث بها إلى آلان هـ. جاردنر بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ على انتوائه «النظر من خلال تلك الفتحة إلى

داخل غرفة الدفن» وذلك قبل مغادرته إلى إنجلترا فى بداية ديسمبر ١٩٢٢.

لماذا فعلوا ذلك ؟

مهما كانت دوافع كارتر وكارنرقون - وكليهما كانا يعدان من ألمع الشخصيات العالمية بعد اكتشاف المقبرة - فى المخاطرة بسمعتهما التى اكتسباها بعد اكتشاف المقبرة، فإن الإجابة لا تكمن ولا تنحصر فى مجرد الإلحاح النفسى القاهر لمعرفة ما تحويه المقبرة بأجمعها حتى آخر بوصة من الغرفة المحرمة التى دفن بها الملك الصبى بقدر ما تكمن فى الجوانب السياسية. لقد أصر رئيس مصلحة الآثار المصرية الفرنسى بييرلاكو على وجوب تواجد أحد مفتشى مصلحة الآثار المصرية عند فتح كل غرفة من غرف المقبرة، وأثار ذلك الإصرار حفيظة كارتر الذى كان على يقين أنه صاحب الحق فى السيطرة على كل ما يخص المقبرة، ورأى أن الغرض من وجود لاكو أو ريكس انجلباك لا يهدف إلا إلى تكبيل حريته، ونثر العقبات فى طريقه بالتعلل باللوائح، واستعمال السلطة استعمالاً متعسفاً، لذلك مال كارتر وكارنرقون إلى اللجوء لقانونهما الخاص، وأدى ذلك إلى اتخاذهما مزيداً من القرارات الطائشة التى لا يمكن الدفاع عنها أو تبريرها. وقبل أن نمضى فى توضيح ذلك من الضرورى أن نعرض قبلها المشاكل التى واجهت كارتر وفريقه فى حصر محتويات المقبرة وإخلائها بعد ذلك.

العمل المنفرد

بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، تعرض كارتر وكارنر قون لمطاردات وملاحقات محررى الصحف، ومراسليها الساعين إلى سبق صحفى خاص، أو الانفراد بأخبار يسبقون بها غيرهم من وسائل الإعلام (هذا عدا ضغوط آلاف من الشخصيات والأسماء المعروفة الذين كانوا

يأملون السماح لهم بإلقاء نظرة على المقبرة) إلا أنهما لاذا بالصمت تماماً دون الكشف عن أى تفاصيل، فقد كان كارنرڤون قد اتخذ قرارا باستثمار الكشف فى الحصول على مقابل مالى مجزى من إحدى وسائل الإعلام الإنجليزية، أو إحدى الصحف اليومية الكبرى مقابل خصها بنشر أخبار الكشف. وعند عودته إلى إنجلترا فى ١٨ ديسمبر ١٩٢٢، قيل إنه تلقى عروضا من مختلف الصحف بما فيها جريدة «أخبار لندن المصورة»، والديلى ميل، والتايمز، واستقر فى النهاية على التايمز على أن يسرى الاتفاق من يناير ١٩٢٣ . وطبقا لهذا الاتفاق حصلت الصحيفة على حق الانفراد بنشر كل ما يخص الكشف عن طريق مراسلها بالأقصر آرثر ميرتون، وكذلك الانفراد بنشر الصور التى التقطها المصور هارى بيرتون أثناء فتح المقبرة. وكان من بنود ذلك الاتفاق ألا يدلى كارنرڤون ولا كارتر بأى تصريحات أو أحاديث تخص الكشف إلا لجريدة التايمز. وأصبحت باقى وسائل الإعلام مجبرة على النقل عن جريدة التايمز، بمقابل مالى، وكان الاستثناء الوحيد لبنود ذلك الاتفاق للصحافة المصرية بصفتها صحافة الدولة صاحبة المقبرة.

ترتب على ذلك الاتفاق – أيضًا – أن أصبح من حق مراسل التايمز آرثر ميرتون دخول المقبرة مع كارتر وكارنر ڤون. وغنى عن الذكر أن ذلك الاتفاق أثار حفيظة كل وسائل الإعلام العالمية بعد أن أصبح على مراسليهم أن يقفوا فى الزحام مع عامة الناس لساعات طويلة ليلتقطوا كلمة من هنا أو هناك أو فتات المعلومات والشائعات، ولم يكن ذلك ملائما للصحف الكبرى. فى الوقت الذى اعتقد فيه كارتر وكارنر ڤون أن ذلك أفضل حل يتيح لهم العمل بلا ازعاج دائم، وساد الاعتقاد أن الاتفاق مع صحيفة التايمز لم يكتمل إلا مع بداية عام ١٩٢٣، أى بعد شهرين من اكتشاف المقبرة، وكان مصدر ذلك الاعتقاد ما سجله آلان هـ . جاردنر وذكر فيه : أنه حين كان يتناول الغذاء مع كارنر ڤون أثناء وجوده بلندن (ويحتمل أن ذلك كان فى بيت اللورد فى سيمون بليس) بعد بضعة أيام

من عودته من مصر وقبل أعياد كريسماس ١٩٢٢، عرج عليهما چورچ چيفرى داووش، رئيس تحرير صحيفة التايمز، دون سابق اتفاق، وأبلغ كبير الخدم سيده بوجوده فى غرفة الانتظار، وظهر الضيق على كارنر ڤون لقدومه دون سابق موعد.

وطلب كارنرڤون من جاردنر أن يقابل داوش نيابة عنه، ولما فعل جاردنر انهمك رئيس التحرير فى امتداح الكشف عن المقبرة، وأن ذلك الكشف من الأخبار العظمى ويستحق ثمنا عاليا، ومع ذلك الإغراء وافق كارنر ڤون على الالتقاء بدواش، والذى أبلغه أن صحيفة التايمز تتطلع إلى احتكار أخبار الكشف، ثم غادرهما داوش تاركاً لكارنر ڤون أن يفكر فى الأمر(٨) ، إلا أننا اكتشفنا أن ذلك لم يحدث، والصحيح أن كارنر ڤون هو الذى عرض على جريدة التايمز اقتراح انفرادها بنشر أخبار الكشف بمقابل مالى، وذلك بعد أيام قليلة من تلقيه برقية كارتر التى يخبره فيها باكتشاف المقبرة، وقبل أن يرحل إلى مصر لمعاينة الكشف فى منتصف شهر نوفمبر ١٩٢٢. وقد اتضحت تلك الحقيقة من خلال نص مذكرة مصنفة تحت بند «سرى وشخصى» كما هو مسجل فى أعلاها ومرسلة من چيفرى داوش رئيس تحرير صحيفة التايمز إلى ألفريد جودون روبنز (١٨٣٣ - ١٩٤٤)، وكان مساعداً لرئيس تحرير الجريدة، ومؤرخة بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٢٢، ومحفوظة حالياً بقسم محفوظات جريدة التايمز، ونصها كما يلى :

«تلقى لورد كارنر ڤون أنباء من مصر تفيد توصل فريق عمله إلى كشف أثرى، عبارة عن مقبرة لم يتوصل إليها أحد من قبل (يبدو أنها ملكية) فى وادى الملوك، وأبدى كارنر ڤون رغبته الشديدة فى أن ننفرد بنشر أخبار الكشف وما تحويه المقبرة بعد فتحها، وأعطيته خطابا لمراسلنا فى الأقصر ميرتون؛ لترتيب ما يستلزمه ذلك الاتفاق ، سترد الأخبار تباعا بعد أسبوعين من تاريخه»(٩).

وتظهر تلك الوثيقة القرار المبكر الذى اتخذه كارنر ڤون ، حتى قبل

سفره إلى مصر وقبل معرفة ماهية ذلك الكشف، وحسمت صحيفة التايمز ذلك الأمر مع كارنر ڤون حتى قبل الكشف عن الغرفة الخارجية، وما تحتويه، وبالرغم من إيمان كارنر ڤون أنه فعل الصواب، إلا أن ذلك القرار المتعجل زاد من المشاكل التى يتعرض لها كارتر، خاصة بعد الموت غير المتوقع للإيرل الخامس فى ابريل عام ١٩٢٣ (انظر الفصل الثامن)، كانت طبيعة كارنر ڤون وقدراته الدبلوماسية تفوق تلك التى لدى كارتر ، لذلك قام كارنر ڤون بكل الأعباء العملية والاجتماعية المتعلقة بالكشف، والمترتبة عليه، وسرعان ما سيرحل ويترك كارتر بمفرده للتعامل مع كل تلك الجوانب بطبيعته المتعالية المتحذلقة وعصبيته وسرعة اشتعاله ، وكان ذلك كفيلاً بإغراقه فى مزيد من المشاكل مع جهات كثيرة، لم تستثن منها بالطبع الحكومة المصرية ذاتها.

٨ - آخر ستة أسابيع من حياته

من الممكن إعادة عرض الأحداث التى سبقت الموت السريع المؤسف للإيرل الخامس لكارنر ڤون والذى وقع فى الساعات المبكرة من يوم الخميس ٥ أبريل ١٩٢٣، وهى الأحداث التى تلت فتح غرفة دفن توت عنخ آمون رسمياً، واستغرقت ما يقل عن سبعة أسابيع بعد ذلك الفتح.

بعد فتح المقبرة رسمياً، وذيوع أخبار ماتحويه غرفة الدفن من نفائس زادت الضغوط النفسية والعصبية على كارنر ڤون الذى كان يبلغ فى ذلك الوقت السابعة والخمسين من عمره، فحيثما توجه هو أو كارتر كانا يحاصران بالصحفيين والمراسلين الذين يحدوهم الأمل بالحصول على أخبار لم يعرفها الآخرون.

ويظهر أثر ذلك الضغط مما جاء بالمذكرات غير المنشورة لنائب القنصل البريطانى بالقاهرة سير توماس سيسل راب (١٨٩٣ - ١٩٨٤)، الذى أسندت إليه مهمة الإشراف على نقل جثمان كارنر ڤون بعد وفاته بالقاهرة إلى إنجلترا، وذكر فى يومياته :

كانت الشهرة المفاجئة التى حظى بها لورد كارنر ڤون نعمة ونقمة فى آن واحد، وحولت نظام حياته الصارم إلى معاناة يومية قاسية، وأخبرنى طبيب أسنانه بالقاهرة أنه كان يأتى إلى عيادته فى الصباح الباكر، حتى يتجنب إزعاج الصحفيين وغيرهم من الفضوليين[1].

وبدأ كارنر ڤون يخوض مناقشات حامية مع المشاكس الأبدى كارتر حول أمور لم تكن لتعنيه من قبل، وراحت تلك المناقشات تزداد حدة وسوءًا، وفى رسالة مؤرخة الاثنين ١٢ مارس ١٩٢٣ بعث بها عالم الآثار المصرية المعروف جيمس هنرى بريستد إلى ابنه تشارلز بريستد والذى

كان يعمل ضمن فريق الكشف فيما يختص بالنصوص اللغوية، وجاء برسالته ما يلى:

«نتج عن توتر العلاقة المتزايد بين كارتر وكارنر ڤون الاعتقاد بأن الخصام النهائى لا يمكن تجنبه أو تحاشيه، وتمكنا أنا وآلان جاردنر من تلطيف حدة ذلك التوتر المتزايد بينهما إلا أن ذلك لم يرض كارتر، كما تغيرت معاملته الطيبة لنا، ولا يمكن أن نلوم كارتر بأى حال، فالأحداث التى مر بها حطمته»[٢] .

ويضيف تشارلز بريستد إلى ما ذكره أبوه فى رسالته، : «أن كارنر ڤون ذهب إلى كارتر في منزله لتصفية كل الخلافات التى طرأت، وقال إنه أثناء تلك المقابلة تطور النقاش وتصاعد إلى تبادل عبارات مريرة، وفى نوبة غضب، طرد كارتر صديقه القديم من منزله وطلب منه ألا يأتى إلى هذا المنزل بعد ذلك أبدا»[٣].

لا يوجد شك فى أن العلاقة قد ساءت كثيراً بين كارتر وكارنر ڤون أثناء الفترة الحاسمة التى سبقت، وتلت، الفتح الرسمى لغرفة الدفن، إلا أنه لا يوجد أى دليل على أن كارتر طرد كارنر ڤون من بيته، كذلك لم يجد ت. ج. هـ. جيمس أمين قسم المصريات السابق بالمتحف البريطانى والذى قام بتحقيق يوميات مينى بيرتون ولندسلى هال وهو رسام أعاره متحف متروبوليتان إلى فريق كارتر، وقام أيضا بتحقيق رسائل آرثر ميس إلى زوجته، ما يؤيد رواية تشارلز بريستد عن طرد كارتر لكارنر ڤون من بيته، كما لم توجد أى إشارة تدل على ذلك[٤].

وبالرغم من تلك الأقاويل التى لم يدعمها أى دليل، كتب كارنر ڤون رسالة إلى كارتر مؤرخة فقط بـ «مساء الجمعة»، والمؤكد أن ذلك كان يوم الجمعة ٢٣ فبراير، ويظهر من سياق الرسالة أن جفوة كانت قد بدأت تشق طريقها بين الصديقين:

«حلت على تعاسة شديدة طول اليوم، وتشتت فكرى ولم أعرف ماذا أفعل، ثم قابلت ابنتى إيڤ وأخبرتنى عن كل شىء، وأدركت أنى قد

ارتكبت حماقات كثيرة وأنا أشعر بالأسف لذلك. أعتقد أن الظروف التى نمر بها والقلق الذى أعانيه قد أثرا على، إلا أن هناك شيئًا واحدًا أود أن أخبرك به وآمل أن تتذكره على الدوام - مهما كانت مشاعرك الآن أو مستقبلاً نحوى - وهو أن مشاعرى نحوك لن تتغير أبدا. أنا امرؤ محدود الصداقات، ومهما حدث لن تتغير مشاعرى نحوك. أصبح هناك كثير من اللغط وافتقاد الهدوء والخصوصية فى الوادى حتى يأست من رؤيتك مع رغبتى الشديدة فى ذلك لتبادل الأحاديث الصادقة، ولذلك لم أشعر ببعض الارتياح إلا بعد أن كتبت إليك»[٥] . ولجوء كارنر ڤون لكتابة مثل تلك الرسالة يطرح افتراضاً قوياً بأن علاقتهما لم تعد فى أفضل حال، فالهدوء والخصوصية اللذان افتقدهما كارنر ڤون، كان يمكن توفرهما إما بجلوسهما معاً فى بيت كارتر أو فى بيت كارنر ڤون، كما أن هناك بالرسالة ما يشير إلى الندم والأسف مع أننا لا نعرف بالضبط علام كان الندم والأسف وما الذى أخبرته به إيڤيلين.

يذكر توماس هوڤنج أن الخلاف بين الرجلين كان بسبب إعلان ليدى إيڤيلين عن حبها لهوارد كارتر[٦]، بالرغم من عدم وجود ما يؤيد ذلك. الأقرب الى الاحتمال أن الشقاق بين الرجلين نجم عن الضغوط التى تعرض لها كل منهما من المضايقات المستمرة من زوار المقبرة، والضغط الشديد الذى نتج عن اتفاق كارنر ڤون مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار الكشف والذى بدأ يتعمق مع ظهور مقالات يومية تدينهما وتتهمهما بالمتاجرة بتوت عنخ آمون . ومهما كان سبب انهيار الصداقة بينهما وانفصام عراها، كان شبح الموت يقترب حثيثاً من كارنر ڤون.

الأيام الأخيرة

بدأ التدهور الصحى لكارنر ڤون كما هو شائع بلدغة بعوضة لخد كارنر ڤون، أما أين ومتى لدغته تلك البعوضة؟ فلا أحد يعرف على وجه اليقين. ما نعرفه أنه فى الثامن والعشرين من فبراير، بعد بضعة أيام من

كتابة كارنر ڤون رسالة المصالحة لكارتر، كان كارنر ڤون بصحبة ابنته إيڤيلين وآرثر ميس وسير تشارلز كاست من الديوان الملكى للملك چورچ الرابع، وهو من أصدقاء كارنر ڤون المقربين على متن باخرة فى رحلة نيلية إلى أسوان، كانت بمثابة رحلة استجمام حاول استغلالها لتغيير الجو السائد من حوله، وللتخلص من الألم النفسى والإحساس بالذنب الذى نجم عن دخول غرفة الدفن خفية، وكانت فرصة لميس لاستعادة صحته التى عانى من تدهورها السريع فى الأسابيع الأخيرة أثناء وجوده بالأقصر، وافترض كل الباحثين أن البعوضة الشهيرة لدغت كارنر ڤون أثناء تلك الرحلة النيلية(٧)، وافترضت بعض المصادر أن البعوضة لدغته فى وادى الملوك. كتب آرثر ميرتون تقريراً صحفيًا عن موت لورد كارنر ڤون إلى جريدة التايمز ونشر فى اليوم التالى لوفاته، أى فى ٦ أبريل ١٩٢٣ م وذكر فى ذلك التقرير : أن الارستقراطى البريطانى عاد من أسوان يوم الثلاثاء ٦ مارس، وبينما كان فى وادى الملوك بعد عودته من أسوان بيومين لدغت بعوضة خده الأيمن(٨) ، إلا أن البروفيسور بيرسى نيوبيرى يؤكد أنه لا يوجد بعوض فى وادى الملوك(٩)، لذلك فإنه إن لم يكن قد لدغ فى أسوان أو أثناء رحلة العودة النيلية، يحتمل أن تكون اللدغة قد حدثت على الضفة الشرقية للنيل، أى فى فندق ونتر بالاس بمدينة الأقصر.

وما حدث بعد ذلك تتضارب فيه الأقوال بشدة، إلا أنه طبقاً لما سجله ميرتون:

«لم يعر لورد كارنر ڤون اللدغة اهتماماً، وأثناء حلاقة ذقنه قطع الموس الحاد قمة تورم اللدغة، وتلوث الجرح من الأتربة والذباب، وظهر تورم بالغدد الليمفاوية، وسعى كارنر ڤون إلى استشارة طبيب بالأقصر، وحين عاد إلى القاهرة يوم ١٤ مارس كان قد تحسن كثيرا»(١٠).

وأصبح ما ذكره ميرتون فى مقاله لجريدة التايمز بمثابة النص الرسمى للقصة المتداولة، وذكر التفاصيل نفسها تشارلز بريستد فى

تأريخه لحياة أبيه :

«وحين قام كارنر ڤون بحلاقة ذقنه فى اليوم التالى جرح الموسى موضع اللدغة الذى كان متورماً. وعلى مدى أيام تالية ظل يجرح ذلك الموضع كلما حلق ذقنه، ويزيل القشرة التى تكونت، وأهمل استعمال أى مطهر، وذات صباح حطت ذبابة على الجرح وقتًا كان كافيًا لتلويثه»[١١].

وهناك آخرون يعرضون بعض التفاصيل المغايرة. فمثلاً يضفى نيكولاس ريڤز على القصة شكلاً مغايراً فى كتابه «توت عنخ آمون كاملاً» ويذهب إلى أن لدغة البعوضة حدثت فى أسوان :

«ولما كان يحلق ذقنه بموس حاد جداً جرح موضع اللدغة دون قصد، وأحمر الموضع والتهب التهابًا شديدًا، وبالرغم من تطهيره للجرح باليود الذى يحمله معه فى صندوق إسعافه ظهرت عليه أعراض الحمى وبلغت حرارته ٣٨٫٣ درجة، وأسلم نفسه إلى ابنته إيڤيلين التى ألزمته فراشه، ليرتاح حتى يشفى، وتغلب على المرض وبعد يومين غادر الفراش وراح يتجول كما يشاء متطلعًا إلى زيارة المقبرة»[١٢] . هذا عدا التضارب فى الزمان والمكان الذى لدغته فيه البعوضة وما تداول حولهما من أقاويل.

ويذكر ميرتون فى مقاله الذى نشر بالتايمز : أن كارنر ڤون كان قد قرر قراره على مغادرة الأقصر إلى القاهرة يوم الاربعاء ١٤ مارس بصحبة ابنته ليدى إيڤيلين وحجز مقرا لهما بفندق جراند كونتننتال، وكان الهدف المعلن لتلك الزيارة هو مقابلة بييرلاكو بمبنى مصلحة الآثار بالقاهرة للاتفاق على اقتسام محتويات المقبرة.

إلا أنه من الواضح أن تقرير ميرتون تعوزه الدقة، فليدى إيڤيلين لم ترحل مع أبيها إلى القاهرة يوم ١٤ مارس بل رحلت قبله بثلاثة أيام، أى فى ١١ مارس تصحبها خادمتها مارسيل لترتيب موعد عودتها إلى إنجلترا؛ لإجراء جراحة الزائدة الدودية[١٣]. أما رفيق كارنر ڤون فى سفره من الأقصر إلى القاهرة يوم ١٤ مارس فقد كان النبيل ريتشارد بيتيل بن البارون الثالث لويست بيرى الذى كان شغوفاً بالآثار المصرية

القديمة وصحب البعثة قائما بأعمال السكرتير لكارنر ڤون[١٤].

ويلخص آلان هـ . جاردنر الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مع چيمس هنرى بريستد فى ترجمة نصوص وجدت على أحد الأكفان المنتمية للمملكة المتوسطة بالمتحف المصرى ما حدث بعد عودة كارنر ڤون إلى القاهرة:

«ربما كان لورد كارنر ڤون قد شفى من لدغة البعوضة التى أصابته بالأقصر إلا أنه لم يتبع نصائح الأطباء وأتى إلى القاهرة، ودعانى للغذاء معه فى نادى محمد على، وبدا متعباً ومرهقًا إلا أنه أصر على الذهاب لمشاهدة فيلم سينمائى، وهناك أبلغنى أنه يشعر بألم فى وجهه، ونصحته أن يعود إلى الفندق ليستريح، إلا أنه أصر على إكمال مشاهدة الفيلم حتى نهايته، وبعدها لم يخرج إلى أى مكان أبدًا»[١٥].

وبحلول الأسبوع الثالث من مارس، كانت حالته الصحية قد تدهورت إلى حد كبير، وسجل آرثر ميرتون ذلك :

«تدهورت صحة لورد كارنر ڤون بشدة بالقاهرة، وظهرت عليه آثار طفح جلدى، وتلوث الدم بالميكروبات السبحية من الالتهاب الذى أصاب وجهه وعنقه، وبعد التعرف على الميكروب عولج بالحقن التى كانت فعالة إلى حد كبير»[١٦].

وفى رسالة كتبتها ليدى إيڤلين إلى هوارد كارتر يوم ١٨ مارس، حكت له عن اعتلال صحة بيير لاكو قبل أن تحكى له عن حالة أبيها المتردية :

«طلب منى أبى أن أكتب إليك وأعرفك أن لاكو طريح الفراش يعانى من انفلونزا حادة ولا حول له ولا قوة، الأهم من ذلك أن الرجل العجوز (كارنرڤون) معتل الصحة جدا، حتى إنه عاجز عن الحركة ، أنت تعلم أن بعوضة لدغته فى خده الأيمن، وسببت اعتلال صحته بالأقصر، وبالأمس تورمت فجأة كل غدد عنقه، وارتفعت درجة حرارته مساء الأمس وظلت على ارتفاعها حتى الآن، إنه حتى لا يقدر على الكلام. استدعيت الدكتور فليتشر باريت (من سلاح الخدمات الطبية بالجيش الإنجليزى بمصر)

ليباشر حالته المرضية وهو من الأطباء الأكفاء، إلا أننى فى غاية القلق من حالته المتدهورة ولا أحتمل رؤيته على تلك الحالة. هذا ما يحدث وهونت من الأمر لوسائل الإعلام حتى لا تبالغ الصحف فى وصف حالته، فمن الأفضل ألا يعرفوا شيئا على الإطلاق، إلا أنهم منذ أن أصبح شخصية عامة وبهذه الشهرة لم يعد يخفى عليهم ما نفعله، بل حتى ما نفكر فيه، أحببت أن أعلمك بما يحدث لنا. نفتقدك، وكنت أتمنى أن تكون معنا. سأكتب إليك تباعاً عن تطورات حالته».

مع حبى الشديد
إيف».[١٧]

وقبل أن تصله الرسالة أرسلت إليه برقية يوم الاثنين ١٩ مارس، وأكدت فى البرقية اشتداد المرض على أبيها وسألته أن يبعث ببرقية إلى ليدى كارنر ڤون يطلب منها أن تسارع بالحضور إلى مصر، ولذلك قرر كارتر أن يسافر إلى القاهرة، ليكون إلى جوار صديقه وكافل أعماله، لم يدر بخلده أن ابتعاده عن مقبرة توت عنخ آمون سيطول عما انتوى وقدر، فقد ظل بالقاهرة حتى مغادرة جثمان صديقه بعد وفاته بالقاهرة متجهًا إلى إنجلترا يوم السبت ١٤ ابريل.

فى يوم الثلاثاء ٢٠ مارس ، وهو اليوم الذى غادر فيه كارتر الأقصر متجهًا إلى القاهرة، تلقى رسالة من ألبرت لايثجو من متحف مترو بوليتان للفنون الذى كان بالقاهرة فى ذلك الوقت يعلمه فيها بما استجد من أحداث:

«قالت ليدى إيڤلين : إن صحة أبيها قد تحسنت قليلاً اليوم، وهذا ما أسعدنا جميعاً. كان يوم أمس من الأيام الصعبة على الجميع، إلا أن حرارته صارت أفضل قليلاً اليوم، ويعتقد الطبيب المشرف على علاجه أن الالتهاب ينحسر ويتراجع إلى موضع واحد»[١٨].

وبالرغم من توقع الجميع أن كارنرڤون سيتمكن من اجتياز المرض، إلا أن ما حدث كان عكس تلك التوقعات، فعلى مدى الأسبوع التالى بأكمله

ظلت حالته تنحدر كل يوم إلى الأسوأ، وبدأ من حوله يدركون أن نهايته قد دنت. ومما سجله آرثر بيرتون : نجد أن «حرارته ظلت ترتفع باضطراد على مدى الأيام القليلة التالية، وراح يعانى من آلام مبرحة، وامتد الالتهاب إلى أنفه مما أثر على تنفسه وعلى عينيه»[١٩].

ووردت إلى كارتر مزيد من الأنباء السيئة يوم ١٩ من ريتشارد بيتيل :

«يؤسفنى أن أبلغك أن «ك» مريض جداً، ولا تريد إيڤ أن يعلم أحد بمدى خطورة حالته، إلا أن تلك اللدغة المسمومة نشرت السم فى كل جسمه، وسممت دمه مما رفع حرارته إلى ١٠٤ (فهرنهايت). أرسلت إيڤ برقية إلى ليدى ك (ليدى كارنر ڤون) وستصل مصر الأسبوع القادم، آمل أن يشفى فى يوم أو يومين، أخشى أن أخبرك أن مرضه يبدو خطيراً»[٢٠].

ولكن بعد أسبوع ، أى يوم الاثنين ٢٦ مارس، سجل ميرتون «اختفى أثر التسمم تماماً بشكل عملى واضح»[٢١]، ولسوء الحظ ، لم يكن ذلك التحسن إلا تحسناً عارضاً، ففى اليوم التالى «أنشب الالتهاب الرئوى أنيابَه فى الرئة اليمنى» وأثارت حالة المريض القلق من جديد، وراحت حالته الصحية تتراوح بين تدهور شديد وتحسن طفيف ، وحين وصل ابنه لورد بورشستر فى الأول من أبريل كان هناك أمل»[٢٢].

ومن الواضح أنه يوجد تناقض فيما ذكره ميرتون، فطبقاً لما سجله الإيرل السادس ونشر فى مذكراته، لم يصل إلى القاهرة إلا مساء الأربعاء ٤ أبريل [٢٣].

وفى رسالة من آلان جاردنر إلى زوجته بتاريخ الأول من أبريل، أخبرها عن زيارته للرجل المريض، وسجل فى تلك الرسالة إعجابه بتفانى ابنته فى خدمته:

«زرته يوم الثلاثاء (٢٧ مارس) لبضعة دقائق، وانتكس يوم الأربعاء. عدت للتو من لدن إيڤيلين، كان يوماً سيئاً وعانى المريض من أزمة شديدة قبل السادسة مساء اليوم، شعرت بأسى وحزن من جراء حالته... لماذا

أكن له هذه العواطف؟ تلك الفتاة المسكينة مسَّت فؤادى بتفانيها الشديد فى خدمة أبيها»[٢٤].

يوم الاثنين ٢ ابريل ، تدهورت حالة لورد كارنر ڤون إلى الأسوأ بعد أن «امتد الالتهاب الرئوى إلى الرئة اليسرى، وكان لابد من تزويده بالاكسجين للتنفس»[٢٥]، وبدا فى اليوم التالى أنه لن تمر عليه ليلة أخرى، إلا أنه فى صباح الرابع من أبريل أذهل الجميع بإحرازه تحسناً كبيراً. وكما سجل ميرتون : فإن «حرارته انخفضت وظهر عليه تحسن كبير حتى أنه استدعى الحلاق ليحلق له ذقنه»[٢٦]. وتحت تأثير العقاقير التى حقنت فى أوردته، سمح له بالحديث لفترة محدودة مع من كانوا لديه فى ذلك اليوم[٢٧] .

وفى منتصف الليل، انقلب الحال إلى انتكاسة شديدة، وفى الواحدة وأربعين دقيقة من صباح الرابع من أبريل[٢٨] استولت عليه نوبات متلاحقة من السعال الحاد العنيف «سببت له مزيداً من المشقة والإجهاد»[٢٩]، وهرعت الممرضات لإسعافه، إلا أن «قلبه لم يعد يحتمل ذلك الإجهاد العنيف»[٣٠] وكانت ابنته إيڤيلين وزوجته إلى جوار فراشه وهو يلفظ آخر أنفاسه، ووصل ابنه لورد بورشستر الذى أصبح بعد موت أبيه الإيرل السادس لكارنر ڤون إلى فراش أبيه بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة بخمس أو عشر دقائق.

هكذا انتهت حياة إدوارد ستانهوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنر ڤون.

سبب الوفاة

تجمعت صورة وافية من مختلف التقارير عما حدث تفصيلاً آخر ستة أو سبعة أسابيع التى سبقت وفاة الإيرل الخامس لكارنرڤون. فبعد أن لدغته بعوضه فى خده الأيمن فى أسوان أو الأقصر، عانى كارنر ڤون من عدوى، إما بسبب إهماله تطهير موضع اللدغة، أو تلويث الذباب لموضع

اللدغة، ومهما كان السبب، أصبح وجهه وعنقه متورمين مع آلام شديدة، وظهرت عليه أعراض الحمى مع ارتفاع درجة حرارته مما ألزمه الفراش. وتدريجيًا، امتد الالتهاب إلى أنفه وعينيه، وراحت درجة حرارته تتأرجح بشدة بين ارتفاع وانخفاض، وجعله ذلك يبدو وكأنه شفى من مرضه فى يوم، لينتكس فى اليوم التالى.

وطبقا لتلك الأعراض، شخص مرضه بأنه «تسمم بكتيرى دموى بالميكروبات السبحية نتج عن التهاب عنقه ورأسه» وتدهورت حالته إلى الأسوأ بعد أن أصيب بالتهاب رئوى، وفاقت وطأة الأمراض قدرته على الاحتمال. ومرض الحمرة عبارة عن التهاب الأنسجة الرخوة بالبكتريا السبحية، وتظهر كتورم بالوجه وغدد العنق الليمفاوية، وكانت تلك هى حالته، عدا ذلك يسبب ذلك المرض التهابا بالجلد، فتظهر عليه بقع حمراء متورمة ذات حواف مرتفعة، وفى الحالات الشديدة تتقيح تلك البقع، وتسبب تقرحات مثل الحروق، ومع تلك الاعراض تظهر رجفة شديدة، وارتفاع درجة الحرارة، ومن الممكن أن تمتد إلى الجسم كله وتترك المصاب بها معرضًا لاحتمال الإصابة بالالتهاب الرئوى. ومن المعروف أنها تنتشر من جرح أو خدش للجلد ملوث بالميكروب المسبب لذلك المرض مثلما حدث للورد كارنر ڤون.

ولا يوجد شك أن العدوى البكتيرية المترتبة على لدغة البعوضة أثارت كوامن علل كارنر ڤون مما جعله يتردى متدهوراً، ويتعرض لمضاعفات أشد أدت إلى موته المحتم، ولهذا قال ماركوس چونسون طبيب عائلة كارنر ڤون الذى وصل إلى القاهرة بعد موته مباشرة : «إنه أكثر عرضة للتأثر بسهولة بأى سموم ناتجة عن لدغ الحشرات، ففى إنجلترا كان كلما تعرض للدغ حشرة، أقوم بحقنه بعقارات مضادة فى الحال»[٣١].

إلا أن المقربين من الارستقراطى البريطانى أدهشهم تدهوره المفاجئ وموته السريع، وأشار آلان جاردنر إلى ذلك قائلا : «لما علمت بنبأ موته فى الصباح الباكر أصابنى النبأ بصدمة، كنت أظن أن شفاءه من الأمور

المؤكدة»[٣٣].

عدوى دفينة

بالرغم من ذلك، فإن تدهور صحة كارنر ڤون السريع، والمتلاحق لم يبدأ بلدغة البعوضة. لقد كانت حالته الصحية متداعية منذ تعرضه لحادث السيارة في ذلك الصباح الباكر فى ألمانيا عام ١٩٠١، والذى نصحه على أثره طبيبه ماركوس چونسون بقضاء أشهر كل شتاء فى مناخ جاف ودافئ، وكان ذلك السبب الأول لتوجهه إلى مصر كل شتاء. وكان لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون نصيبه - أيضا - من فاتورة صحة لورد كارنر ڤون، وكذلك قراراته المترتبة على الكشف، مثل اتفاقه مع صحيفة التايمز على احتكار كل أخبار ذلك الكشف المذهل. كان يوصف فى ذلك الوقت بـ «الرجل الضعيف»[٣٤] ، فقد كان يعانى معاناة شديدة من حرارة الوادى، وحرارة مقبرة سيتى الثانى التى استعملوها كمعمل فحص ومركز إدارى، ومن الثابت - أيضا - أنه قبل أن يتعرض للدغة البعوضة كان يعانى من علل غير محددة، وأشار إلى ذلك توماس هوفنج قائلاً :

«كان كارنر ڤون يتدهور صحياً ببطء، أما الآن فتدهوره أسرع، كل بضعة أيام تسقط إحدى أسنانه أو تتخلخل. لم يع ذلك فى الوقت الملائم، بالرغم من أن ذلك يدل على وجود عدوى دفينة تسبب اعتلال صحته»[٣٥].

أى أن حالته الصحية كانت متداعية قبل لدغة البعوضة. وكان ذلك يلقى على كاهله أعباء تلك العلة الدفينة بما فيها سقوط أسنانه وتخلخلها ، فهل كانت تختفى داخل بدنه مشكلة صحية أخرى عميقة تضافرت مع ما أصابه بعد ذلك من حمرة وتسمم بكتيرى وأدت إلى موته؟ ما يمكن قوله إن تلك العلة إن كانت موجودة لم تكن تقعده عن كل ما يمارسه من أنشطة، ففى أعياد الكريسماس ورأس السنة الجديدة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ كان يجد من الوقت ما يخرج فيه لممارسة رياضة تتطلب جهداً مثل الصيد فى مقاطعته هايكلير، وصاد فى يوم واحد « ١٧٠٠ أرنب برى»، وفى اليوم

التالى ٥٠٠ أرنب[٣٦]، وهو جهد من الممكن أن ينهك أى رجل فى قمة لياقته الصحية.

فإذا كان لورد كارنر ڤون فى حالة صحية جيدة نسبياً خلال شتاء ٢٢ - ١٩٢٣ ، فكيف تنهار صحته، وتتداعى بهذه السرعة، فى الوقت نفسه الذى فتحت فيه المقبرة رسميًا على وجه التقريب؟ هل كان السبب فعلا تداعيات لدغة بعوضة؟، أم أن هناك سببًا آخر أو عرضًا ما يعود إلى أسباب أخرى؟

مما يجدر ذكره، أنه فى اليوم الذى فتحت فيه غرفة الدفن رسمياً لأول مرة، كان عالم المصريات البريطانى آرثر ويجال يقف بين الصحفيين المستائين المحتشدين خارج المقبرة ينتظرون فى نفاذ صبر، وأدلى بملاحظة ذات علاقة بجوهر حالة كارنر ڤون الصحية، فبينما كان يراقب فريق الكشف وهم يخرجون من المقبرة، ويصعدون الست عشرة درجة فى حوالى الرابعة والنصف من عصر ذلك اليوم، قال :

«بدا لورد كارنر ڤون، وهو رجل هش، شاحباً ومجهداً فى صعوده الدرج، وبدا على وجوه الخارجين علامات الإجهاد والحماس»[٣٧].

ويتعارض ذلك المشهد الذى بدا فيه شاحباً ومجهداً تعارضا كليا مع مظهره الذى كان عليه حين قدم إلى موقع المقبرة، وحيا الحضور فى الساعة الواحدة من ظهر اليوم نفسه. فبعد أن مازح الحاضرين مخبراً إياهم أنه هو وكارتر سيعزفان لهم سيمفونية رائعة من الآثار، استدار آرثر ويجال مخاطباً الضيف المجاور له قائلا : «إذا نزل إلى المقبرة بتلك الحالة فلا أتوقع له أن يحيا أكثر من ستة أسابيع»[٣٨].

وتحققت نبوءة ويجال مهما كانت دوافعه إلى قولها، فبعد ما يزيد قليلا عن ستة أسابيع مات الارستقراطى البريطانى. وبموته أثار - دون قصد - أعظم دراما لظواهر ما وراء الطبيعة فى عالم المصريات القديمة - وهى لعنة توت عنخ آمون (انظر الفصل التاسع).

نقل جثمان كارنر ڤون من مصر إلى هايكلير، وحمل إلى مثواه الأخير

على قمة تل بيكون الذى كان موقعاً عسكرياً قديماً، يشرف على بيت آبائه وأجداده، وورى بدنه فى الحادية عشرة من صباح الأحد ٢٨ أبريل عام ١٩٢٣ فى مراسم خاصة حضرتها العائلة والمقربين وبعض كبار رجال الدولة من أصدقائه.

إلا أن لعنة مقبرة الجثة المحنطة لم تدع ذكرى الإيرل الخامس لكارنر ڤون تمضى فى سلام، كما لم تدع صديقه السابق حاد التصرفات، ومنفذ أعمال البحث والحفر هوارد كارتر، يحيا فى سلام هو الآخر.

الجزء الثانى

اللعــنة

٩- لعنة كارنرڤون

من المؤكد أنه لو طالت الحياة بالإيرل الخامس لكارنر ڤون لكان من أشد المؤمنين بلعنة توت عنخ آمون، فقد كان ذلك الارستقراطى البريطانى من المؤمنين - بعمق - بالروحانيات والغيبيات، وكان عضواً نشطًا متحمسًا فى جمعية لندن الروحية(١)، وعقد فى مناسبات مختلفة جلسات روحية فى قاعة إيست انجليا فى بيته فى هايكلير، وكان يحضر تلك الجلسات، إضافة إليه ابنته ليدى إيڤيلين هربرت، والسياسى المحامى سير إدوارد مارشال هال (٢)، وليدى كنليف أوين، وهوارد كارتر إذا تصادف وجوده بإنجلترا(٣)

وسجل ابنه ، الإيرل السادس فى قصة حياته المنشورة : أن أباه كان يؤمن - بعمق - بالغيبيات ، وأنه كان هو وهوارد كارتر يتطلعان بفارغ صبر إلى إنتهاء العداوات البشرية التى ترتب عليها نشوب الحرب العالمية الأولى(٤)، ويذكر فى قصة حياته أنه حضر إحدى تلك الجلسات الروحية التى رأسها والده حين تصادف وجوده فى إجازة بالوطن من خدمته بالجيش البريطانى بالفيلق السابع المتمركز فى العراق فى نهاية ربيع عام ١٩١٩، تصادف - أيضا - وجود كارتر بإنجلترا ، وتجمع أفراد الجلسة فى قاعة إيست انجليا وهم والده وهوارد كارتر، ولويس ستيل (مصور فوتوغرافى شهير كان يقيم فى بورتس ماوث) (٥)، وهيلين كنليف أوين، واستعدوا لبدء جلسة روحية، وبعد أن تهيأوا جميعاً، بدأ ستيل الهمهمة ببعض التعاويذ جعلت ليدى كنليف - أوين تنتابها غشية راحت خلالها تتحدث باللغة القبطية المصرية القديمة (٦)، وهى اللغة التى كان المصريون يتحدثونها قبل أن يفد إليها المهاجرون الإغريق بعد غزو الإسكندر الأكبر

لمصر عام ٣٣٢ ق. م. كانت القبطية هى لغة أهل مصر المسيحيين الذين تعود أصولهم إلى مرقس الرسول ، وسجل الإيرل السادس فى مذكراته أن هوارد كارتر وحده الذى كان باستطاعته فهم تلك الهمهمة القبطية الغريبة على أسماعهم والصادرة عن ليدى كنليف في غشيتها وبعد أن أفاقت فى نهاية الجلسة لم تتذكر أى لفظ مما همهمت به أثناء غشيتها(٧)

ويمضى الإيرل السادس فى مذكراته قائلا : إن شقيقته ليدى إيڤيلين كانت هى الأخرى فى غشية أثناء تلك الجلسة، إلا أن هاجسًا كان يستحوذ على أفكارها يحثها على الذهاب إلى لندن لقضاء أسبوعين فى دار استشفاء بلندن(٨). ما حدث بعد ذلك يطلق للخيال العنان إلى أقصى مداه، ويذكر الايرل السادس:

ولإنهاء الجلسة قال أبى: إذا جلسنا حول الطاولة متشابكى الأيدى سيمكننا تحقيق حالة إرتقاء روحى، وملت على أختى متسائلاً: «ماذا يقصد؟» فردت فى همس: «أظن أنه سيحاول أن يرفع تلك الزهرية التى على الطاولة بضعة أقدام فى الهواء»، وبالفعل ارتفعت الزهرية فى الهواء.

والنص السابق منقول من مذكرات الإيرل السادس المنشورة ، وهو من طبقة ارستقراطية رفيعة وعريقة وتحظى بتقدير عميق بين الطبقات العليا للمجتمع البريطانى ومات عام ١٩٨٧، ولا يعتريه أى شك فيما رآه بنفسه، وهو ما يردده المرشدون السياحيون المرافقون لزائرى قلعة هايكلير فى تشكك وعدم قبول، ويعكس - أيضًا - رأى الموجودين حاليا من عائلة كارنرڤون، وتحولت قاعة إيست انجليا بعد ذلك لتصبح غرفة ملابس للعرائس من بنات العائلة قبل الزفاف ، وحين رافقنا تونى ليدبيتر، الابن الروحى لليدى آلمينا هربرت زوجة الايرل الخامس ، أخبرنا أنها كانت تكره تلك الجلسات ، فقد كانت تخاف بعمق كل ما هو خفى(١٠). وكما سنتبين لاحقا، لم يؤد الإيمان العميق والراسخ للإيرل الخامس بقوى ما وراء الطبيعة والخوارق والروحانيات إلى دحض ما انتشر بعد ذلك وذاع من أن موته المفاجئ السريع له علاقة وثيقة بفتح غرفة دفن توت عنخ آمون.

البعث فى مصر

لم يكن إيمان لورد كارنرڤون بالغيبيات والروحانيات فريداً فى ذلك العصر، فكثير من الأثرياء وعلية القوم فى المجتمع البريطانى الراقى آمنوا إيمانا راسخًا بالقوة الروحية لمصر القديمة، كانت تلك البلد البعيدة الواقعة فى لهيب الصحارى جنة رائعة فى الماضى البعيد، وآمنوا أن الآلهة مازالت تسكنها فى عالم لا نراه، وأن تلك الآلهة شبيهة البشر لم تتجلى فقط فى المخاوف الخرافية للبشر المنتمين للماضى البعيد، بل تتبدى بوضوح فى بقايا حضارة رائعة تمكنت من بناء الأهرامات العظمى وظلت منتعشة على مدى ثلاثة آلاف عام، قبل اضمحلالها فى بداية عهد الامبراطورية الرومانية. ومع انتشار الايمان الروحى وانتقاله من الولايات المتحدة إلى أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر، أصبح مفهوم التواصل مع حضارات كونية أخرى أكثر قبولا، وأنه مادام بإمكان زعيم هندى أمريكى من الهنود الحمر، أو فيلسوف وروحانى صينى أن يقوم بدور المرشد والوسيط الروحى، فمن الممكن - أيضا - أن تقوم روح مصرى قديم أو إله أو ربة مصرية من ربات تلك البلاد الرائعة قديما بالدور نفسه.

ويرتبط بتلك المعتقدات تبنى عدد مرموق من المهتمين بالغيبيات والقوى الكونية الخفية إحياء القوى الغيبية الغامضة لمصر القديمة، وأحسوا بشكل ما بارتباطهم بذلك العالم الخفى.

والأهم من ذلك، كان لتأثير تلك القوى الغامضة ما أقنع لورد كارنرڤون أن مصيره مرتبط ارتباطاً لا تنفصم عراه، ليس فقط بما سيظهر من أحداث مرتبطة ببعث فكر عصر العمارنة فى الضمير العام والوعى المعاصر، بل أيضا بفتح مقبرة توت عنخ آمون.

وفى هذا الصدد ، لابد أن نتحدث عن الياس كونت لويس لووارنر هامون (١٨٦٦ ـ ١٩٣٦) الذى اشتهر باسم «كيرو» المتنبئ الشهير بالطالع وقارئ الكف، المولود بأيرلندا، واشتهر بقدرته على استقراء

الطالع من خلال الكف في آخر العصر الڤيكتوري، والتنبؤ بطوالع البروج الفلكية ، وكان يقوم بالتنبؤ للمشاهير وعلية المجتمع، ويقال إن من أشهر زبائنه آرثر چيمس بلفور، الذي أصبح رئيس وزراء بريطانيا عن حزب المحافظين، وصاحب ما عرف تاريخيا بوعد بلفور لليهود عام ١٩١٧ (انظر الفصل ٢٣) (١١). ومن عام ١٨٩٠ وما بعده كان صالونه الذي هيأه على النمط الهندي في بوند ستريت ملتقى نخبة المجتمعات، وتشمل قائمة المشاهير الذين سعوا إلى الاستفادة من تنبؤاته أسماء تاريخية لامعة مثل مارك توين وساره برنار ، والسياسي البريطاني الشهير سير أوستن شامبرلين، والكاتب أوسكار وايلد ، والراقصة الشهيرة الجاسوسة ماتاهاري وكانوا جميعا من معارفه المقربين (١٢)، وقصده مرة سير إرنست شاكلتون المكتشف الشهير للقارة القطبية وهو متنكر لاختبار قدرته على قراءة الطالع إلا أن كيرو أخبره أنه لن يعود من رحلته الكشفية القادمة(١٣)، وقد حدث ذلك بالفعل ولقي شاكلتون مصرعه في رحلته الكشفية التالية، ولما عاد الفيلد مارشال هوراشيو لورد كتشنر بطل حملة السودان إلى انجلترا ذهب لمقابلة هامون واستنبأه ، فأخبره أنه سيلقى حتفه في البحر (١٤) وبالفعل لقي مصرعه في البحر حين اصطدمت المدمرة هـ. م . س. هامبشاير التي كان على متنها بلغم بحري، وغرق في بحر الشمال بالقرب من جزر أوركني في يونيو عام ١٩١٦.

ولما ذاع صيت هامون كقارئ طالع، أصبح على علاقة بكثير من المشاهير المعروفين مثل ملك ايطاليا همبرت الأول وقابله في روما عام ١٩٠٠، وتنبأ له أنه سيموت بعد ثلاثة أشهر(١٥) وشاه إيران الذي قابله في باريس في العام نفسه وأخبره هامون أن حياته على حافة الهاوية، وأنه مهدد بخطر عظيم، فاكتشف حرسه مؤامرة لاغتياله دبرها أحد المتطرفين الفوضويين(١٦).

وكان أشهر زبائن هامون على الإطلاق الملك إدوارد السابع، وتنبأ له هامون بموعد تتويجه بدقة في شهر أغسطس عام ١٩٠٢، كما تنبأ له

بموته عام ١٩٠٩ (١٧) ومن خلال علاقته بالملك تم تقديمه إلى أعضاء كثيرين من العائلة البريطانية الحاكمة، وقرأ لهم بروجهم وحظوظهم من الحياة، كما قدمه الملك ادوارد إلى تسارنيكولاس الثانى ملك روسيا وتنبأ له أنه سيفقد كل من يحبهم عام ١٩١٧ ، بعضهم بحد السيف، وبعضهم بالموت جوعاً، أما نيكولاس ذاته فسيلقى مصرعه بطريقة مروعة(١٨)، وظلت هواجس تلك النبوءة تساور نيكولاس، وبينما كان هامون يزوره بقصره الصيفى فى سان بطرسبرج أواخر أيام عام ١٩٠٤، وفى بدايات يناير ١٩٠٥ (١٩) قدم جريجورى راسبوتين ذات مساء إلى القصر، وتنبأ هامون لراسبوتين بمصيره قائلا : «ستنتهى نهاية أليمة بأحد القصور، ستموت بالسم، وبطعنة خنجر، وبطلقة نارية، وأرى مياه نهر النيفا تحمل جثتك(٢٠). ولا نحتاج إلى ذكر أن تسار نيكولاس ملك روسيا وجريجورى راسبوتين لقيا حتفهما بالطريقة التى تنبأ بها هامون .

مارشال هال

ليست هناك حاجة لعرض المزيد من نبوءات كونت لويس هامون، الشهير باسم الياس كيرو ومهما كانت مصداقيتها ، فما يهمنا من أمره فى قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أن الكاتب بارى واين فى كتابه «خلف قناع توت عنخ آمون» الصادر عام ١٩٧٢، ذكر أن لورد كارنر ڤون كان أحد زبائن هامون(٢١) وبالفعل ، طلب هامون عام ١٨٩٩ من صديقه إيرل كارنرڤون والمحامى سير ادوارد مارشال هال أن يقفا إلى جواره بعد أن اتهم فى قضية رفعها زوج سيدة من زبائن هامون فتنت به.(٢٢) وفى النهاية سحب المدعى ادعائه، وتكفل بدفع الاتعاب وتعويض هامون بعد أن ثبتت براءته. فى ذلك الوقت تنبأ هامون لمارشال هال بعلو شأنه وبفوزه فى انتخابات دائرة ساوث بورت بعد ذلك بستة عشر شهراً فى أكتوبر عام ١٩٠١(٢٣).

وحيث إن مارشال هال كان من رواد جلسات قلعة هايكلير الروحية

أصبح من معارف كارنرڤون عن طريق مارشال هال ولابد أن نتذكر ذلك حين نستعرض النذير الغريب الذى ارسله هامون إلى كارنرڤون بعد فترة قصيرة من اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون(٢٤).

تحذير كيرو

ادعى كيرو أن النذير جاءه على شكل مكتوب عن طريق ميكيت آتون إحدى بنات إخناتون، وكانت يدها المحنطة من مقتنياته، وخرجت من مصر عن طريق مرشد مصرى عجوز فى معبد الكرنك فى منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر (٢٥). وبغض النظر عن مصدر التحذير ، فإن محتوى الرسالة المثيرة للذعر لابد أن تكون قد بعثت ارتجافة خوف بارد فى أوصال الارستقراطى البريطانى، وطبقا لما ذكره هامون كان محتوى التحذير : أن على كارنرڤون إذا دخل مقبرة توت عنخ آمون ألا يسمح بمس أو نقل أى من الذخائر المقدسة الموجودة بالمقبرة، وأنه إذا خالف ذلك سيعانى من مرض لن يشفى منه أبداً، وسيخطف الموت روحه وهو بمصر(٢٦).

وسواء، إن كانت ميكيت آتون هى مصدر الرسالة أم لا، فإن هامون بعث بها إلى لورد كارنرڤون فى بيته فى هايكلير، وتلقاها كارنرڤون بعد فترة قصيرة من عودته من مصر فى منتصف ديسمبر عام ١٩٢٢، وقيل إنه أعاد قراءتها على صديقه ريتشارد بيتيل، وصديق آخر هو الادميرال سميث دوريان (٢٧)، وتأثر كارنرڤون بشدة من ذلك النذير، إلا أنه قال : «لو اجتمعت كل مومياوات مصر لتحذيرى سأمضى قدمًا فيما خططت له»(٢٨)

وذكر هامون بعدها : «أن كارنرڤون أقدم على الاستيلاء على كثير من الذخائر المقدسة من المقبرة وأرسلها إلى إنجلترا ، وربما كان قد استولى على أكثر من ذلك لو لم تتدخل الحكومة المصرية لتحد من ذلك النهب»(٢٩).

كان هذا الصريح القوى الذى ذكره هامون فى مذكراته التى حملت اسم «قصص واقعية من الحياة» « المنشورة عام ١٩٣٤ قد سبب حرجًا شديداً لا لأسرة الإيرل الخامس وأصدقائه المقربين فقط، بل لكل العاملين فى مجال البحث الآثارى المصرى، بما فيهم هوارد كارتر الذى كان قد انتهى من إخلاء المقبرة قبل نشر تلك السيرة الذاتية بعامين.

ومهما كان المصدر الذى علم منه هامون تلك المعلومة، إلا أن العجيب أنه ثبت فى حينها كما سنرى فى الفصل الثالث عشر، بالأدلة الجازمة ما يثبت أن كلا من كارنرڤون وكارتر استوليا بالفعل بطريقة غير مشروعة على كنوز فنية ثمينة لا تقدر بثمن من المقبرة.

قصص غريبة

ويؤكد وصول تحذير من هذا النوع إلى لورد كارنرڤون، ابنه الايرل السادس فى مذكراته المنشورة، وذكر عن ذلك:

بعد نشر أخبار اكتشاف المقبرة كتب (هامون) إلى أبى يحذره من التورط فى هذا الأمر، واستحوذ التحذير على فكر أبى ثم قرر أبى استشارة عرافه الخاص «ڤيلما».(٣٠)

ومع إيمان الايرل الخامس العميق بالقوى الخفية، فليس هناك أدنى شك أن التحذير استحوذ على فكره وشغل باله.

ولا يوجد أى مصدر مسجل نعرف منه ما اعتقده كارنرڤون بعد اكتشاف المقبرة، وإن كان قد أحس أن القدر قد أدخره هو بذاته وخصه بالكشف عن المقبرة أم أحس بعكس ذلك أن عواقب وخيمة ستحل عليهم بسبب هذا الكشف، إلا أن هناك ملمحًا يمكن تبينه وورد على لسان آرثر س. ميس وكان معارا لفريق كارتر من متحف مترو بولتيان للفنون بنيويورك إذا قال ميس : إن كارنرڤون أحد أشد المتطيرين الذين عرفتهم فى حياتى(٣١).

على الجانب الآخر، لم يأبه كارتر - بأى قدر - بمفهوم اللعنة الذى

شاع بعد موت كارنرڤون، وأكد على ذلك فى نهاية مقدمته للمجلد الثانى من ثلاثيته «مقبرة توت عنخ آمون» وذكر فيها: لن أتطرق لتلك القصص السخيفة التى ابتدعها خيال البشر عن الذخائر والطلاسم المقدسة التى كانت تترصد أول من يدخل المقبرة»(٣٢)، وأضاف : «وبقدر ما يخص هذا الأمر الأحياء من البشر، فإن اللعنة من ذلك النوع الذى يشيرون إليه لا وجود لها فى الطقوس المصرية»(٣٣). ولم يكن ما ذكره يعكس بصدق ما يؤمن به فعلاً، ففى مقال نشر بصحيفة ديلى اكسبريس فى اليوم التالى لموت كارنرڤون، ورد به أن كارنر ذكر لأحد أصدقائه قبلها بأيام : «لقد جلبت لنا تلك المقبرة كثيراً من سوء الحظ» (٣٤)، ومما له دلاله فى الموضوع ذاته استهلال لمذكرات لم تنشر لنائب القنصل البريطانى بالقاهرة سيرتوماس سيسيل راب(١٨٩٣ ـ ١٩٨٤) ذكر فيه:

«لقد كان (كارتر) يعانى هو الآخر من الاعتقاد بالخرافات والقوى الخفية ، كما اعتقد باحتمال أن موت كارنرڤون كان نتيجة انتهاكه لقدسية الموتى، وأن تبعات ذلك قد تطوله أيضاً، إلا أنه عاش بعدها سبعة عشر عاما»(٣٥).

وهو كشف لحقيقة لم يتم نشر شىء عنها من قبل، وتظهر جانب مختلف من شخصية كارتر أقل صلابة مما عرف عنه؛ ولأنه كان أحد حضور بعض الجلسات الروحية التى كان يعقدها كارنرڤون فى بيته فى هايكلير، كان هو من تعرف على اللغة التى جرت على لسان ليدى كنليف أوين أثناء غشيتها، وهى اللغة القبطية المصرية القديمة، فإن ذلك فى مجمله يشير بقوة إلى أنه كان مثل صديقه وراعى أعمال البحث، أى كان أميل لمعتقدات روحية ترتبط داخلياً بإيمانه بالقوى الخفية لمصر القديمة.

سندمر روحه إلى الأبد

من المؤكد أن الايرل الخامس لم يشعر بأى قدر من الارتياح بعد تلقيه رسالة هامون التحذيرية، خاصة بعد أن تسلل بطريقة غير مشروعة، واقتحم غرفة الدفن، واستولى منها لنفسه على قطع منتقاة. فهل سيدفع

ثمن ما أقدم عليه؟ من الواضح أن هامون كان يوقن بذلك، وكان لدى كارنرڤون كثير من الأسباب الشخصية تجعله يوقن بذلك هو الآخر، كان يعتقد، ويؤمن أن الطلاسم السحرية والتعاويذ توضع بالمقابر مع الموتى قبل إغلاقها لمنع وردع المقتحمين من دخولها. وفى خضم الاهتمام المحموم الذى انتشر عام ١٩٢٣ عبر العالم كله بكل ما هو مصرى أو يمت بصلة لمصر القديمة، نشرت وسائل الإعلام نص لعنة كانت منقوشة على تمثال جنائزى لمهندس مصرى قديم يدعى أورسو، كان مهندس مناجم وعاش قبل عهد توت عنخ آمون بمائة عام ويذكر نص اللعنة:

«كل من يطأ مقبرتى أو يفتحها أو يخرج موميائى منها سيعاقبه رب الشمس، لن يرث أبناؤه ما يملك، لن يعرف الفرح طريقًا إلى قلبه طول حياته، لن يتلقى ماءً (لترتوى روحه) فى مقبرته بعد موته ستدمر روحه إلى الأبد(٣٦)».

ووجدت - أيضا - لعنات مماثلة فى مقابر أخرى كثيرة ، وقدم آرثر ويجال مثالا آخر كان منقوشًا على جدار مقبرة حارخوف فى أسوان، وتعود المقبرة إلى الأسرة السادسة أى حوالى ٢٣٤٠ ق. م:

«كل من يجرؤ على دخول قبرى... سأنقض عليه كما ينقض طائر العقاب على فريسته، ويعاقبه على جرمه الإله الأعظم»(٣٧). ولا يتفق أن نعتقد أن كارنرڤون لم يك ليعى، وجود مثل تلك اللعنات، أو أنه لم يك ليدرك أنه باقتحامه مقبرة مصرية قديمة إنما كان يضع نفسه فى حومة تلك القوى الغامضة، كان فى الظاهر وفى وجود آخرين يتجاهل مثل تلك الأفكار، ولا يظهر لها اهتمامـًا إلا أنه فى داخله كان يشعر باستحواذها على فكره، ولا أدل على ذلك من سعيه إلى تهدئة تلك المخاوف بلجوئه إلى عرافه الشخصى قارئ الكف الشهير المعروف باسم «ڤيلما».

ومثل هامون، اشتهر «ڤيلما» بنبوءاته وتنبآته الصادقة وكان منها اغتيال قيصر روسيا، وابنه اليكسيس نيقوليڤيتش وتنبؤه بموت فرنسيسكو بانشو ڤيللا، رئيس العصابة الميكسيكى الشهير الذى جمع

مقاليد القوة حتى أصبح رئيسًا للمكسيك، وقرأ له ڤيلما كفه حين زار مدينة مكسيكو(٣٨) وكان من أهم ما تنبأ به - أيضا - وتحقق بعدها نبؤته لدوقة يورك، والتى أصبحت الملكة الأم لملكة بريطانيا القادمة (ماتت عام ٢٠٠٢)، كان ڤيلما قد التقى بها في مهرجان ملكى وهى تمثل عائلة سيسيل في هاتفيلد بمقاطعة هيرتفورد شاير وخلال لقائه بها أخبرها أن زواجها سيثمر ثمرة عظيمة:

«ستنجبين طفلة تصبح معبودة الشعوب من مركز الإمبراطورية (البريطانية) حتى أطرافها البعيدة، أراك فى قصر يمثل العصر الاليزابيثى وهذا عيد إليزابيثى ستكون كل الخصال العظيمة، والمزايا الحميدة فى الملكة التى ستحمل اسمك وتخرج من بيتك.... (٣٩).

وكان بالطبع يشير إلى أنها ستنجب ملكة المستقبل لبريطانيا وهى الملكة اليزابيث الثانية التى مازالت ملكة لبريطانيا لما يربو على الخمسين عاماً، إلا أن نصيحة «ڤيلما» للورد كارنرڤون لم تكن على ما يشتهيه اللورد ، فبعد أن شرح كارنرڤون مضمون التحذير الذى جاءه من هامون، تناول «ڤيلما» كف اللورد وأشار إلى خط عمره الممتد نسبيا، وكان رفيعاً فى منتصفه نقاط تنذر بشؤم وتدل على أنه سيلقى حتفه فى ذلك الموضع من خط حياته.(٤٠)

وأدى اقتران مواضع بمواضع أخرى من خطوط كفه بڤيلما أن يقول له: «أرى خطراً كبيراً يعترض حياتك، من المحتمل أن يكون مصدر الخطر تلك القوى الخفية»(٤١).

وطبقًا لما ذكره الكاتب بارى واين فى كتابه « خلف قناع توت عنخ آمون » المنشور عام ١٩٧٢ استجاب كارنرڤون لذلك التحذير الذى كان الثانى من نوعه استجابة مازحة؛ إذ رد عليه قائلاً : «مهما يحدث فسأحرص على أن يظل إيمانى بالقوى الخفية فى الحد الذى لا يؤثر على دوافعى وصحتى»(٤٢)

اللقاء الثانى بڤيلما

لا نعرف بدقة تفاصيل اللقاء الثانى بين كارنرڤون وڤيلما ، إلا أن ما ذكر فى كتاب بارى واين يجعلنا نعتقد أن اللورد «تظاهر بالشجاعة وهو ذاهب إليه، وخرج من عنده متجهماً مهموماً»(٤٣)، ومهما كانت قراراته التى توصل إليها فإنه عاد لمقابلة ڤيلما مرة أخرى قبل سفره إلى مصر للمرة الأخيرة فى حياته فى يناير عام ١٩٢٣، وقيل : إن ڤيلما حين تناول كفه وجد أن نقاط نذر الشؤم التى كانت موجودة بالزيارة السابقة قد اتسعت مساحتها ، وسجل بارى واين فى كتابه المذكورز بأسلوب مثير: «كانت نقاط نذر الشؤم على خط حياته تبدو بشكل خطير فى موضع من الخط يتفق مع عمره الذى وصل إليه فى ذلك الوقت..»(٤٢) أى : كان قد وصل إلى نهاية الطريق.

ولجأ ڤيلما إلى استطلاع كرته البللورية ، وحين حدق فى أعماقها رأى معبداً مصرياً يموج ببشر منقسمين إلى ثلاث فرق، وراحت ملامح الناس تتضح، ووصف له ڤيلما ما يراه، وقال له : من خلال الضباب تبرز كلمات، والكلمات التى رآها هى «إلى آتون... الرب الواحد... خالق الوجود...(٤٥)، ثم ظهر شكل قناع ذهبى على وجه فرعون صغير، وقال ڤيلما «لا أرى ما يحدد أى فرعون هذا، أظن أن هذا مدفن الملك توت عنخ آمون»(٤٦).

بعد ذلك رأى ڤيلما ما ظن أنه مقبرة ، والمفترض أنها مقبرة توت عنخ آمون، وانطلقت منها ومضات من ضوء كانت برهان على وجود قوى خفية بها، ورأى أيضا لورد كارنرڤون وفريقه فى المقبرة، ثم ظهرت أشكال أشباح أرواح تطالب «بالانتقام ممن أقضوا مضاجع الموتى فى قبورهم»(٤٧)، وفى النهاية رأى هيئة كارنرڤون يجلس فى وسط ذلك المشهد من الاضطراب والفوضى والهياج الكبير.

واتضح فى ذهن كارنرڤون الخطر المحدق به الذى تضمنته تلك الرؤيا، إلا أنه حاول التقليل من أهميتها، وقال إنه يدرك جيداً المخاطر المحتمله

المترتبة على دخول المقبرة، إلا أنه سيستمر فى مهمته حتى يتمها . وطبقًا لما ذكره واين، كانت نصيحة ڤيلما : «لو كنت مكانك... لكنت أعلن اعتذاراً عاماً عن إكمال المهمة. لا أرى أمامى إلا كارثة بانتظارك دون مكسب للبشرية يبرر تلك التضحية»(٤٨).

«ويذكر الإيرل السادس لكارنرڤون بعض تفاصيل زيارات أبيه لڤيلما، وأكد أن العراف وقارئ الكف الشهير قد حذر أباه من العودة إلى مصر والا ستحل به كارثة»(٤٩).

إلا أن لورد كارنرڤون عاد إلى مصر تصحبه ابنته ليدى إيڤيلين فى منتصف يناير ١٩٢٣ ووصل إلى وادى الملوك يوم الأربعاء ٣١ يناير، وفحص الكنوز والمحتويات التى نقلت من الغرفة الخارجية للمقبرة إلى مقبرة سيتى الثانى التى اتخذوها مركزاً إدارياً، وفى الأيام التالية كان يتجول فى منطقة المقبرة مستقبلاً المدعوين والزائرين، وبوجه عام كان يتصرف كما لو كان حرم المقبرة الملكية المقدس جزءاً من أملاكه الخاصة.

أصوات مزدرية

بعد إفراغ الغرفة الخارجية من كل محتوياتها فى الشهور الأولى من عام ١٩٢٣، ظلت الصحف العالمية تنشر أخباراً لاتنقطع عن توت عنخ آمون، مما جعله فى ذهن العالم بصفة دائمة . كانت تنشر يومياً مقالات يبعث بها مراسلوا تلك الصحف الذين ازدحمت بهم مدينة الأقصر، واستولت الصحف على اهتمام قرائها بتلك المقالات، وأسرت ألبابهم بعظمة مصر القديمة ، فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه مقالات تنتقد الانتهاكات التى تعرضت لها المقبرة الملكية، وكان من بين المنتقدين : الروائية مارى ماكاى التى اشتهرت باسم مارى كوريللى (١٨٥٥ ـ ١٩٢٤) والتى كانت رواياتها موضع إعجاب الملكة ڤيكتوريا، كانت كوريللى من الشخصيات الشهيرة مثل هامون، وعلى علاقات واسعة بالطبقات العليا من المجتمع الأوروبى حتى أنها دعيت إلى حفل تتويج الملك إدوارد السابع

ملكًا لبريطانيا، وكانت تربطها علاقة طيبة بمارك توين والإمبراطورة فريدريكا امبراطورة ألمانيا(٥٠).

وبعد الفتح الرسمى لمقبرة توت عنخ آمون ببضعة أسابيع كتبت كوريللى رسالة إلى صحيفة نيويورك تايمز أكدت فيها أن بحوزتها بردية فرعونية تحتوى على نص يؤكد أنه «ستحل لعنات قاسية على كل من ينتهك حرمة مقبرة مغلقة» (٥١)، ولا نعرف أى معلومات عن تلك البردية التى أدعت أنها بحوزتها.

وافترض الباحثون المعاصرون أن كوريللى كانت تحت وطأة هاجس مفهوم لعنة الفراعنة المرتبط بالمقابر الملكية والمومياوات الذى كان شائعا فى أدبيات القرن التاسع عشر (٥٢)، وقد استرعت تلك الظاهرة اهتمام الدكتورة دومينيك مونتسرايت من جامعة وارويك فسعت إلى البحث عن جذور وأصل ذلك المفهوم الذى شاع فى أدبيات ومفاهيم القرن التاسع عشر، وما يترتب على انتهاك حرمة المومياوات حتى توصلت إلى أن أول مصدر لتلك المفاهيم كاتبة إنجليزية عام ١٨٢٠ م وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها واسمها چين لندن ويب... كانت ويب قد شاهدت فض أكفان ولفائف مومياء مصرية تم على الملأ فى ميدان بيكاديللى وأحضرها من مصر المصارع والمغامر صاحب البنية البدنية الهائلة الإيطالى چيوڤانى بيلزونى، وتأثرت بمارأته وكتبت تلك القصة واسمتها «المومياء»، ودار موضوعها حول روح فرعونية منتقمة تعود إلى الحياة وتهدد بخنق بطل القصة. بعدها وردت الفكرة نفسها فى رواية أخرى لكاتب إنجليزى مجهول وكان عنوان ذلك العمل «ثمار المشروع» ويرجع تاريخها إلى عام ١٨٢٨ م ، وتدور حول مغامر داخل هرم مصرى يقود من معه داخل ظلمات الهرم باستعمال أطراف وأعضاء المومياوات كمشاعل لتنير لهم الطريق(٥٣).

وبإلهام من تلك الأعمال الأدبية المبكرة كتبت الروائية الأمريكية لويزا ماى ألكوت (١٨٣٢ - ١٨٨٨) قصة قصيرة بعنوان : «تائه فى الهرم»، فى

تلك القصة يلجأ بطلها المكتشف إلى إشعال أعضاء المومياوات الخاصة بكهنة مصريين؛ لإضاءة ممرات الهرم المظلمة، ويقوم بسرقة صندوق ذهبى يحتوى على ثلاث بذرات غريبة الشكل، ثم عاد بالصندوق والبذور إلى الولايات المتحدة، وأهداهم إلى خطيبته التى زرعت تلك البذور فى حديقتها ، ونمت البذور لتصبح نباتات لها زهور رائعة الجمال، واستعملت تلك الزهور كزينة لها يوم زفافها ، إلا أن رائحتها كانت تدفع بمن من يشمها إلى حالة من السبات والغيبوبة فيتحول بذلك إلى مومياء حية.

وظهر التوجه ذاته وشاع لدى مختلف الكتاب البريطانيين والأميريكيين فى أواخر العصر القيكتورى، ومن أبرز تلك الأعمال ما كتبه برام ستوكرز باسم «جوهرة النجوم السبعة» عام ١٩٠٣، كما كتب قصص أفلام مرعبة على مدى عمره(٥٥).

لابد أن تلك التوجهات الفكرية هى ما حدت بمارى كوريللى إلى الاعتقاد بأن العقاب العاجل والسريع لابد أن يحل بكل من ينتهك حرمة قبر فرعون مصرى.

الطائر ينهش وجهى

من غير المعروف إن كان تحذير مارى كوريللى قد وصل إلى علم لورد كارنر ڤون أم لا، إلا أن تحذيرات هامون وڤيلما قد جعلته يشعر بالقلق والتوتر من الموقف بأجمعه عند فتح المقبرة رسمياً يوم الجمعة ١٦ فبراير عام ١٩٢٣، بغض النظر عن التهام الأفعى لطائر الكناريا فى بيت كارتر فى شهر نوفمبر السابق، والذى رأى فيه الجميع نذر شؤم، بمعنى أنه قبل انقضاء ذلك الشتاء لابد أن يموت واحد من أصحاب الكشف(٥٦)، وكما نعرف، أصابت العلل والأمراض كارنرڤون من وقت الفتح الرسمى لغرفة الدفن، وبالضبط ، مثلما علق آرثر ويجال بطريقة عارضة لمن جاوره يوم الفتح الرسمى، مات كارنرڤون بعدها بستة أسابيع بالفعل، إلا أن قصصاً غريبة شاعت وانتشرت حول آخر ليلة له بين الأحياء، ففى غمرة هذيانه

الذى لازمه فى مراحل مرضه الأخيرة قيل : إنه ظل يردد خلال هذيانه «طائر ينهش وجهى. طائر ينهش وجهى» (٥٧).

كان فى ذلك الوقت فى غيبوبة كاملة، وكان كل ما يتفوه به يعد من هذيان الموت. إلا أن ذلك الهذيان أصبح موضوعًا يتناوله علماء المصريات بالنقاش والتحليل، وكان منهم الدكتور على حسن الرئيس السابق للمجلس الأعلى للآثار بمصر، ونقلا مما سجله الكاتب فيليب ڤيندنبرج، ذكر على حسن : «لهذه العبارة أهمية خاصة، فهناك ما يماثلها فى نص احدى اللعنات يعود إلى بداية المملكة المتوسطة حوالى ٢١٤٠ - ٢١٠٠ ق. م. وينص على أنه : نخبت (نسر) سينهش وجه كل من ينتهك حرمة قبر(٥٨). وربما يستدعى ذلك إلى ذاكرتنا النص الذى وجد على جدار مقبرة حارخوف بأسوان: «كل من ينتهك هذه المقبرة سأنقض عليه كما ينقض الطائر على فريسته ، ويحاكمه الرب الاعظم على جرمه»(٥٩).

ويبدو من السهل تخيل أن لورد كارنرڤون كان يحاكم أمام الآلهة القديمة حين كان يهذى؛ لانتهاكه حرمة مقبرة توت عنخ آمون، إلا أننا نحيا فى عالم عقلانى لا مكان فيه لفكر اللعنات كمفاهيم لا تلقى صدى إلا لدى أصحاب العقول البسيطة والأفكار السطحية، ولا موضع لتلك الأفكار فى حياتنا المعاصرة، إلا أن من يتبنى مثل ذلك الموقف العقلانى الرافض لتلك الأفكار الغيبية ليس إلا أحمقًا لا يدرك الطبيعة الدقيقة لآليات العقل البشرى، واحتياجه الشديد للإحساس بالأمان على المستوى النفسى.

وبدرجات متفاوتة تزيد أو تقل. مازالت الغالبية العظمى من البشر تمارس أشكالاً طقسية باعتقاد أن تلك الطقوس الفردية أو الجماعية توفر لهم الحماية وتمنع عنهم الضر والشر فى حياتهم اليومية ، مثل المراجعة المتكررة للتأكد من إغلاق مفاتيح الغاز أو الكهرباء وتجنب المرور أسفل سلم متنقل، ورسم الصليب بإشارة رمزية على الرأس والصدر لضمان حماية الرب، أو اتباع منهج معيشى معين لاجتناب سوء الحظ، الغالبية العظمى منا تفعل ذلك غريزيًا ولا تملك القوة النفسية ولا قوة الإرادة التى

تجعلهم ينبذون تلك العادات القهرية التى تعود إلى بدائية العقل. وبالفعل يعمل الذهن البشرى بطريقة معاكسة تماماً معتقداً أنه إن لم يقم بتلك الممارسات الطقسية الإرادية، واللإرادية فإن شراً ما سيحل به. واللعنات والخرافات والتطير والتشاوم والخوف تندرج بأجمعها فى إطار ذلك الإحساس النفسى بعدم توفر الأمان والسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل.

وبإنتهاك حرمة الموتى ، من الطبيعى أن يتوقع ذهن المنتهك أن شيئًا سيئًا سيقع، وإن هدد صاحب قبر فإن ضراً سيحل بنا، فإن انتهكنا حرمة قبرة، فإن كل الاحتمالات تصبح قائمة، وكلما زاد إيماننا بالغيبيات والخرافة والتطير والتشاؤم ، كلما كان تحققها على المستوى النفسى أكثر احتمالاً، ويبدو أن ذلك كان يشكل ضعفاً خاصًا لدى الإيرل الخامس لكارنرڤون. لقد آمن بقوى ما وراء الطبيعة والقوى الخفية لمصر القديمة، ودفع حياته ثمناً لذلك الاعتقاد، ومثَّل ذلك الاعتقاد – أيضا – سقطة للإيرل السادس هو الآخر، والذى أوضح أثناء حياته أنه لا يمكن أن يقترب من مقبرة توت عنخ أمون ولا مقابل مليون جنيه(٦٠) لماذا؟ إذا كانت اللعنات لا تتحقق ، بل ولا وجود لها، فما الذى يخشاه من المقبرة؟.

لابد أن يستدعى موت الإيرل الخامس فجأة فى ٥ ابريل عام ١٩٢٣ إلى الأذهان حكم الآلهة على أولئك الذين ينتهكون حرمة مقابر الفراعنة، إلا أن الأمر ليس كذلك فحين كان جسد الإيرل مازال دافئاً بعد موته ولم تسر بعد البرودة فى أوصاله، وقعت مصادفات غريبة كان من شأنها أن تراكم وترسخ الاعتقاد أن لعنة توت عنخ أمون لم تذهب سدى.

١٠- حكم بالإعدام

فى الساعات المبكرة من صباح الخامس من أبريل عام ١٩٢٣، قامت ممرضة بإيقاظ من أصبح فى تلك اللحظات الإيرل السادس لكارنرڤون حين راحت تدق باب جناحه فى الفندق؛ لتنعى إليه وفاة والده الإيرل الخامس، وسجل فى مذكراته : «حين أفقت رحت أحدق فى ساعتى لأجد أن الوقت كان الثانية إلا خمس دقائق صباحًا، وبعد أن نقلت إليه المرضة ذلك الخبر السئ(١) لبس فوق منامته عباءة، ورجل شعره، وتناول مصباحًا يدويًا(وهو سلوك غريب فى رأى البعض) قبل أن يخرج من غرفته إلى الممشى، وبينما كان يحث خطاه باتجاه غرفة أبيه ذكر فى يومياته : أن التيار الكهربائى انقطع بطريقة غير معهودة عن الفندق فغرق المكان وكل ما يحيطه فى ظلام دامس(٢)، وأضاء كشافه الكهربائى الذى جلبه معه وناوله إلى الممرضة لتنير له طريقه، وطلب منها إحضار شموع إضاءة بأسرع ما يمكنها».

وفى داخل غرفة أبيه، وجده ممددًا فى فراشه بلا حركة، وأمه وأخته راكعتان بجوار الفراش، لم يكن هناك ما يمكن القيام به إلا الصلاة على روحه.

ظلام دامس

تبين من نافذة الغرفة أن التيار انقطع عن جميع أرجاء القاهرة، وطبقا لما جاء بمذكرات الإيرل السادس لم تنقض خمس دقائق إلا وكان التيار قد عاد (٣)، وذكرت صحيفة الديلى اكسبريس فى اليوم التالى : أنه بعد عودة التيار انقطع مرة أخرى بطريقة مفاجئة(٤)، وبالطبع عاد الإيرل

السادس إلى غرفته محاولاً نيل قسط من النوم، وحين نزل إلى قاعة الطعام فى الصباح وجد هوارد كارتر يجلس وحيداً، بدا عليه أنه لم ينم وراح يتصفح صحف الصباح التى تصدرت صفحاتها الأولى نبأ موت لورد كارنرڤون الذى كان موضع احترام الجهات المصرية، وعلت صفحات الصحف شارات الحداد السوداء، والأغرب أن الصحف ربطت بين موته وانقطاع الكهرباء عن القاهرة بأجمعها، وعزت الصحف ذلك إلى لعنة توت عنخ آمون الذى انتهك الارستقراطى البريطانى حرمة مقبرته، وادعت الصحف أن التيار انقطع عن القاهرة فى اللحظة نفسها التى أسلم فيها الروح، ثم عاد التيار بالطريقة الغامضة نفسها بعد دقائق من انقطاعه بلا سبب واضح لانقطاعه أو عودته. وزاد المندوب السامى البريطانى فى مصر من اشتعال الشائعات وكان فى ذلك الوقت سير ادموند اللنبى، فقد صرح بأنه سأل المهندس المسئول عن الكهرباء عن سبب انقطاع التيار وأن الرجل لم يقدم إليه أى سبب مفهوم لذلك (٥)، لذلك افترض كثيرون أن هناك ارتباطًا ما بين موت لورد كارنرڤون وانقطاع التيار، وأن ذلك الربط «يمكن فهمه من قبل أولئك الراصدين لتلك الحوادث على أنها نوع من نذر السوء، ولم تكن حقائق الأمور تستدعى مثل ذلك الربط ولا ذلك الاهتمام، فقد ادعت كتب كثيرة تدور حول توت عنخ آمون أن التيار الكهربائى انقطع فى تمام الثانية إلا عشر دقائق(٧)، بينما ذكر آخرون ومنهم الإيرل السادس نفسه أن التيار انقطع فى تمام الثانية (٨)، بعكس ما ذكرت صحيفة ديلى اكسبريس أن التيار انقطع قبل موته بلحظات، أى: فى الثانية إلا الثلث(٩).

ومهما كان الوقت الذى انقطع فيه التيار فإن مذكرات الإيرل السادس لكارنرڤون تذكر بوضوح لايقبل الشك أن التيار انقطع بعد موت أبيه بدقائق، وأن أباه قد مات فى الثانية إلا خمس عشرة دقيقة، وذلك محدد بدقة فى شهادة الوفاة(١٠)، ويحتمل أن اللورد السادس قد أخطأ وأن التيار كان منقطعًا حين كانت الممرضة تدق باب غرفته لتبلغه النبأ المحزن،

خاصة أنه سجل أنه تناول كشافه الكهربائي اليدوى قبل أن يغادر غرفته ، وهو سلوك غريب، إلا إذا كان الفندق غارقًا فى الظلام فى ذلك الوقت.

وعلى عكس الاعتقادات التى ربطت ما بين الحدثين، نجد أن كريستين المهدى فى كتابها المدقق «توت عنخ آمون، حياة الملك الصبى وموته» تذكر بوضوح أن انقطاع التيار الكهربائى كان من الأمور الشائعة بالقاهرة فى ذلك الوقت وحتى زمن قريب(١١)، ورأت ان انقطاع التيار لا يحمل أى مغزى خاص على الإطلاق.

موت الكلب

وزاد من الشائعات المتداولة التى انتشرت بسرعة بعد موته ما حدث لكلبه، والذى صحبه فى إحدى أسفاره إلى مصر ، ثم فقد بعد ذلك قدماً أمامية فى حادث عام ١٩١٩(١٢)، فطبقًا لما روته مديرة قصر هايكلير الأسكتلندية السيدة ماكلين، راح الكلب يعوى فى اللحظة التى مات فيها لورد كارنرڤون، وتكور على نفسه كما لو كانت قد ضربته صاعقة، ومات فى موضعه، وحيث إن الإله الحارس للموتى فى عقيدة مصر القديمة هو الإله أنوبيس وله رأس ابن آوى، فقد تناولت مصادر كثيرة موت الكلب وفسرته - أيضاً - بأنه انتقام الآلهة المصرية القديمة من كل كائن دخل المقبرة.

وهكذا، راح الحدثان يُذكران معًا، وهما : انقطاع التيار وموت الكلب وكأن حدوثهما كان كافياً ليوفر كل منهما مصداقية للآخر.

ومثلما حدث بالنسبة للكهرباء فإن حقائق الأمور فى قصة الكلب لا تنطوى على مثل ذلك الإيحاء الذى تذكر به، فالكلب الذى نتحدث عنه كلب صيد من سلالة ثعالب وكانت أنثى، وكانت فى الحقيقة ملكًا للإيرل السادس لا لوالده، وقد وافق الإيرل الخامس على رعايتها حين يكون ابنه لورد بورشستر غائبا أثناء خدمته فى الجيش إبان الحرب العالمية الأولى، ثم حين نقل بعد ذلك إلى الهند، وطبقًا لما يذكره الإيرل السادس، كانت

السيدة ماكلين تعتنى بها حين يكون أبوه مسافراً هو الآخر، وكانت تدعها تنام فى سلة بجوار فراشها، وما حدث هو أن الكلبة سوزى نهضت وأقعت فى سلتها فى الرابعة إلا خمس دقائق من صباح الخامس من أبريل ١٩٢٣ وعوت كما تعوى الذئاب، ثم خرت ميتة(١٤)، وقد قال الإيرل السادس عن ذلك : «هناك بالطبع ساعتان فارق توقيت بين القاهرة ولندن»(١٥).

أى : أن الوقت بالقاهرة كان فى تلك اللحظة التى ماتت فيها الكلبة الخامسة وخمسًا وخمسين دقيقة، أى : أنها ماتت بعد موت الإيرل الخامس بأربع ساعات كاملة ،وذلك يفرغ القصة من أى مضمون أو دلالة.

رعب توت عنخ آمون

بمجرد أن طرحت الصحف المصرية نظرية علاقة روح توت عنخ آمون وموت كارنرڤون، وكأنها كانت إشارة البدء لكل صحف العالم بالحديث عن لعنة مومياء توت عنخ آمون، والتقطت بعض الصحف تحذير الكاتبة الروائية مارى كوريللى عن العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتهاك حرمة مقبرة أى فرعون، واستغلتها لتأكيد فكرة أن الارستقراطى البريطانى كان ضحية لتلك اللعنات القديمة.

وفجأة ، راحت المتاحف تتلقى طروداً ولفائف من الآثار المصرية القديمة يتخلص أصحابها منها خوفًا من تلك اللعنة، وهو ما دعى صحيفة ديلى اكسبريس إلى ذكر ذلك فى عناوين كبيرة على صدر صفحاتها بعد موت لورد كارنرڤون بيومين:

«رعب اقتناء الآثار المصرية: الاندفاع المحموم للتخلص من الكنوز المصرية للمتاحف مخاوف بلا أساس»(١٦)، وقالت الصحيفة : «ترتب على موت لورد كارنرڤون انتشار الرعب بين كل جامعى الآثار المصرية القديمة من كل أنحاء البلاد، راح حائزو تلك الكنوز المصرية يرسلونها كتبرع للمتحف البريطانى بغرض التخلص منها خوفا من كا، وهى روح توت عنخ

آمون التى يعتقدون أنها قتلت لورد كارنرڤون، ومن الواضح أن تلك المخاوف لا أساس لها من الصحة على الإطلاق. ومن بين المقتنيات التى تخلص منها أصحابها أذرع و«سيقان محنطة، وتماثيل من خشب ومن خزف، ومقتنيات أخرى كثيرة، ثم ختمت الصحيفة الخبر معلقة على تلك الظاهرة قائلة:

«كان المتحف بمثابة هبة إلهية لأولئك الذين آمنوا بالخرافة»(١٧)، ولم يقتصر الرعب من توت عنخ آمون على بريطانيا وأمريكا ففى باريس صرح أشهر عرافيها مسيو لابسيلو : أن توت عنخ آمون قد انتقم لنفسه، فى حين ذكرت منافسته مدام فرايا : أن علوم المصريين القدماء كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقى وأنها ترى أن كارنرڤون كان ضحية كا وهى روح الفرعون أو شبحه بعد موته، وهو ما يسمى فى الديانة المصرية والديانات الشرقية القديمة «ناموس التثنية»(١٨) .

عدا ذلك، أكد أحد كتاب الأعمدة فى صحيفة ذى وورلد وهو كلير شريدان بجدية شديدة:

«كان على لورد كارنرڤون أن يدفع الثمن الذى لابد أن يدفعه كل من يجرؤ على مس الموتى الشرقيين القدماء، وهناك غيره من نالوا جزاءهم قبله، ولا توجد مومياء فى أى متحف بأوروبا بلا سجل لمن نالوا جزاءهم بسببها، وفى عائلتى نفسها تكررت الكارثة ذاتها المرتبطة بمومياء جلبها أحد أجدادى من الأقصر» (٢٠).

وكانت تلك المعتقدات سبباً فى إشعال خيال الناس عن القوى الخفية المرتبطة بمصر القديمة، وغذت الجنون المتزايد حول لعنة الفراعنة. أما عالم المصريات البريطانى الشهير سير إدجار والاس بادج فقد رفض الفكرة واصفًا إياها بأنها مجرد وهم ، بينما علق دكتور هال، الأمين المساعد لقسم المصريات والآثار الآشورية بالمتحف البريطانى قائلا: لو كانت هناك مثل تلك اللعنة لم يك ليوجد عالم آثار واحد حى حتى الآن»(٢١).

سينقض الموت فجأة

كانت ردود أفعال الصحافة على مفهوم اللعنة والإيمان بها قد خرجت عن حدود السيطرة، وراحت الصحف تنشر مقالات وتقارير عن وجود نصوص في مقبرة توت عنخ آمون تؤكد وتدعم نظرية اللعنة، وذكرت الصحف أن هناك نصاً على صخرة في مدخل المقبرة يقول:

«فلتقطع اليد التي تمتد إلي، وليحل الدمار على من يهاجم اسمي ومقبرتي، وصوري، وتماثيلي»(٢٢).

والحقيقة أنه لا يوجد مثل ذلك النص.

ومثال آخر للمبالغة : جاء بإحدى الصحف ذكرت فيه أنه يوجد نص على قاعدة طينية لمصباح وجد بجوار تمثال الإله أنوبيس الذي يحمي المقبرة يقول: «أنا من يحمي المقبرة من غمر الرمال ويحمي الغرفة المقدسة، أنا من يحمي الميت.....(٢٣)، وأضاف الصحافي الذي كتب ذلك من عنده : «سأقتل كل من يتجاوزني إلى الغرفة الملكية المقدسة للملك العائش أبد الدهر»(٢٤).

إلا أن أغرب ما تم ابتداعه من نصوص مزيفة عن لعنة المقبرة قيل إنه مسجل على الباب الثاني للمقصورة في غرفة الدفن، وأن النص يقول: «سينقض الموت المفاجئ على جناح السرعة على من يقلق الملك في مثواه»(٢٥). وللأسف خلدت مثل تلك النصوص الزائفة ونقلتها كثير من الكتب على أنها من الحقائق.

الأغرب من ذلك أن الإيمان بلعنة «الموت على جناح السرعة» ظل موجوداً في أدبيات عصرنا، مع إصرار بعض الكتاب على أن ذلك حقيقة تاريخية، فيليب فيند نبرج على سبيل المثال يذكر في كتابه «لعنة الفراعنة» الذي نشر لأول مرة عام ١٩٧٣: أن كارتر عثر على لوح طيني في الغرفة الخارجية نقش عليه نص «الموت على جناح السرعة»(٢٦)، ويمضي قائلاً : إن اللوح الطيني قد نسخ في دليل مصور وإن عالم اللغات القديمة الآن هـ. جاردنر قام بترجمته ، ثم يضيف:

لم يأخذ كارتر ولاجاردنر ولا أى من الباحثين المعاصرين للكشف ذلك النص على محمل الجد، ولم يخافوا من اللعنة، إلا أن ما أزعجهم أن العمال المصريين أخذوا تلك النصوص على محمل الجد، ولاعتمادهم على أولئك العمال لم يذكروا أى شىء عن اللعنة المنقوشة على اللوح الطينى فى سجلات اكتشاف المقبرة، بل إن اللوح نفسه اختفى من بين محتويات المقبرة، إلا أنه لم يمح من ذاكرة أولئك الذين قرأوه(٢٧).

كارتر واللعنة

الجانب الوحيد الذى صدق به ڤيندنبرج هو خوف كارتر من أثر تلك الشائعات على العمال المصريين العاملين معه، والذين كانوا يؤمنون بعمق بتلك الخرافات والأساطير. كان كارتر يدرك كيف فسر العمال المصريون موت طائر الكناريا الذى ابتلعته الأفعى فى شهر نوفمبر السابق، وتنبأوا أنه قبل انقضاء فصل الشتاء لابد أن يلقى أحد مسئولى الكشف مصرعه(٢٨)، ولما أدرك من قبل ردود الفعل المتطرفة للحوادث الغريبة التى تقع احتفظ فى داخله بمخاوفه التى ترتبت على دخوله غرفة دفن الملك توت، وأعلن رأيه الرافض لمفهوم اللعنة. وقد أتى إلى ذكر ذلك فى الفصل التاسع من الجزء الثانى من كتابه «مقبرة توت عنخ أمون»، وسفه المفهوم برمته قائلاً: «رددت مختلف الأوساط أن هناك مخاطر خفية فى مقبرة توت عنخ آمون وراؤها قوى خفية غامضة، وذكر آخرون : أنها قوى مدمرة مهمتها الانتقام من كل من يتجاسر على تجاوز أعتابها، وأعتقد أنه لا يوجد مكان فى العالم أكثر أماناً من مقبرة توت عنخ آمون، وحين فتحت المقبرة أثبت البحث العلمى أنها نظيفة تماماً، وإن وجد بها اليوم أى كائنات عضوية دقيقة فقد جاءت إليها بعد فتح المقبرة، إلا أن بعض العابثين عزوا بعض حالات الموت أو المرض أو الكوارث إلى قوى غامضة ، خفية ومؤذية»(٢٩).

وحتى إن كان رفضه لوجود تلك القوى مجرد حيلة حتى يتمكن من

إفراغ المقبرة من محتوياتها وكنوزها، إلا أن ما يستحق التأكيد ما ذكره أن البحث العلمى أثبت أن المقبرة نظيفة، فهو بذلك ينفى ما شاع من أن موت كارنرڤون كان بسبب عدوى إصابته من ميكروبات كانت كامنة بالمقبرة إما صدفة أو عن عمد ممن شيدوا المقبرة من المصريين القدماء قبل إغلاقها نهائيًا بعد دفن توت عنخ آمون مباشرة.

وكان ذلك مستحيلاً من وجهة نظر كارتر، ففى الصباح التالى لفتح حجرة الدفن رسمياً، قام الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس بأخذ مسحات من مواضع كثيرة من غرفة الدفن حتى أقصى أركانها فيما يلى الضريح الذهبى(٣٠)، وشملت تلك المسحات الجدران، وقاعدة الضريح، وتحت سيقان النباتات الجافة التى كانت على الأرض (٣١)، وأرسلت العينات إلى معمل البحث المركزى التابع للبحريةالملكية بالقرب من ويرهام فى مقاطعة دورسيت بإنجلترا، وقام بفحصها العالم هـ. ج . بنكر وجاءت نتيجة الفحص المعملى كما هى منشورة فى ملحق الجزء الثانى من كتاب هوارد كارتر كالتالى:

من بين خمس مسحات مستزرعة اتضح أن أربعاً منها تخلو من أى نوع من أنواع الكائنات الدقيقة ، وكانت العينة الخامسة تحتوى على بضعة كائنات دقيقة من الأنواع الشائعة فى جونا العادى، ويحتمل أنها دخلت بعد فتح المقبرة ودخول الهواء الخارجى إليها، ومن الواضح أنها لا تنتمى إلى المقبرة، ويمكن القول : إن المقبرة لا يوجد بها أى نوع من أنواع الكائنات الدقيقة، ولا يوجد أى خطر على العاملين بها، بعكس ماتواتر من أقوال(٣٢).

وذكر الكيميائى لوكاس عن ذلك: وجدت بعض الفطريات على حوائط غرفة الدفن وبكميات أقل على حوائط الغرفة الخارجية وعلى السطح الخارجى للتابوت، لكن من الثابت أنها فطريات جافة وميتة(٣٣).

فهل يمكن لفطر ميت أن يكون مصدراً للعنة تسبب عدداً من الوفيات، وكان كثير ممن ماتوا عدا كارنرڤون لم يسبق له أن وضع قدمه فى المقبرة؟

ضحايا الأمراض القاتلة

فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٦٢ عقد طبيب وباحث أحياء بجامعة القاهرة هو الدكتور عز الدين طه مؤتمراً صحفياً ادعى فيه أنه قد توصل أخيراً إلى حل لغز لعنة الفراعنة، وقال إنه قام بفحص العاملين بالآثار، وموظفى المتاحف، وعمال المقابر الفرعونية، وكل من له صلة بالمومياوات على مدى زمنى طويل هو وفريق بحثه، وأن بحثه أظهر أن كثيرين منهم يعانون من أمراض ناتجة عن الإصابة بفطريات مجهولة تسبب حمى والتهابات مزمنة بالجهاز التنفسى، وأن الإصابة كانت نمطية وتماثل تلك التى تصيب من لهم صلة بالبرديات القديمة، والمعروفة باسم « الحكة القبطية»، وتبدو على هيئة طفح جلدى ومشاكل تنفسية(٣٤).

وأظهرت أبحاثه أن تلك الإصابات كانت تنتج عن عدوى فطرية يسببها فطر اسمه اسبراجيللاس نايجر، وطبقاً لرأى دكتور طه، لدى تلك الفطريات القدرة على الكمون لآلاف السنين، مع العلم أن المضادات الحيوية الحديثة بإمكانها القضاء على تلك الفطريات(٣٥)، وختم مؤتمره بقوله:

إن هذا الاكتشاف يقضى للأبد على الخرافات التى شاعت بين العاملين بالآثار والمقابر عن لعنة الفراعنة، من مات منهم لم يمت إلا ضحية لكائنات عضوية دقيقة موجودة بالمقابر، والاعتقاد بالقوى الخفية إنما ينتمى إلى عالم القصص الخرافية والأساطير(٣٦)، وأثار القضية مرة أخرى فى التسعينيات من القرن العشرين عالم الكيمياء الحيوية الألمانى كريستيان هاردكى ولاحظ وجود كثيف لفطر اسبراجيللاس فلافاس على سطح كل المومياوات التى فحصها كما لاحظ وجود رواسب ناتجة عن فطريات فى الأطعمة المتعفنة بالأوانى الفخارية الموجودة بمختلف المقابر الفرعونية. وأكد البروفيسور كنت ديكس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة على صحة تلك النتائج وأن الأطعمة الفاسدة فى الآنية الفخارية تؤدى إلى نمو الفطريات وانتعاشها، وأن هناك أسباباً كثيرة

تجعله يعتقد أن تلك الكائنات يمكن أن تظل فى حالة كمون آلاف الأعوام، حتى تتوفر لها الظروف المواتية؛ لتنشط من جديد(٣٧).

فإن كان أولئك العلماء قد توصلوا إلى مصدر محتمل لعدوى فطرية فى المقابر الفرعونية فإن هذا مما لا يمكن إنكاره أو نفيه.

الضحايا

هناك كثيرون يمكن ذكرهم ممن دارت حول وفاتهم الأقاويل، وربط موتهم بلعنة الفراعنة، فالأخ غير الشقيق للإيرل الخامس، اوبرى هربرت مات فجأة بعد أن خلع إحدى أسنانه فى شهر سبتمبر عام ١٩٢٣، كذلك مات امبراطور السكك الحديدية چاى چولد بالالتهاب الرئوى بعد زيارة لمقبرة توت عنخ آمون، كذلك مات عالم الآثار الفرنسى چورچ بينيديه إثر تعثره بعد أن زار المقبرة ، كما عانى آرثر س. ميس زميل كارتر من اعتلال صحى مزمن بعد اكتشاف المقبرة ومات عام ١٩٢٨، كما مات ريتشارد بيتيل السكرتير الخاص للإيرل الخامس فى ظروف غريبة عام ١٩٢٩ فى نادى صحى بلندن، وفى العام نفسه مات أبوه اللورد الثالث لويستبرى منتحراً، بعد أن ألقى بنفسه من الطابق السابع فى سان چيمس كورت بويست منستر فى مدينة لندن، وفى طريق الجنازة سقط صبى يبلغ الثامنة من عمره تحت سنابك خيل العربة التى تحمل الجثمان فلقى حتفه على الفور، وتمتد القائمة، لتشمل المصرى على كامل فهمى بك الذى أطلقت زوجته عليه النار فى فندق ساڤوى بلندن بعد فترة قصيرة من تفقده كنوز توت عنخ آمون، بينما مات الأخ الثانى غير الشقيق للورد كارنرڤون. ميرڤين هربرت والذى كان بصحبته أثناء فتح المقبرة رسمياً بعدها بسبعة أعوام فى روما.

كل تلك الوفيات وغيرها كثير، كانت تنسب إلى لعنة توت عنخ آمون إلا أنه لكى نقبل أن الأمر يتعلق بلعنة عمرها ٣٠٠٠ عام، لابد أن نفترض بكل سذاجة أن آلهة مصر القديمة تتمتع بقوى خفية لها القدرة على

التأثير، حتى على أولئك المتواجدين بأماكن قصية عن مصر ليس لها أى علاقة بتوت عنخ آمون، فقد كان لورد ويستبرى يبلغ الثامنة والسبعين من عمره وأصيب باكتئاب عميق نتيجة موت ابنه المفاجئ، وأحس أن لا معنى للحياة من بعده فألقى بنفسه من الطابق السابع، وكذلك سقوط الصبى تحت سنابك الخيل ليس إلا حادثاً مأساوياً عارضاً، حتى أولئك الذين ماتوا بعد زيارتهم لمقبرة توت عنخ آمون، أو من تعاملوا مع كنوزه لم يموتوا ضحايا للعنة الفراعنة بل ضحايا لعنة العالم المادى الذى يعيشونه. وبغض النظر عن حالة موت آرثر س. ميس الذى سنتناوله فى الفصل القادم، أما لورد كارنرڤون فقد ظهر كصاحب ميتة فريدة للعنة توت عنخ آمون، وكما رأينا هناك كثيراً من الدلائل تشير إلى أن إيمانه بالقوى الخارقة الخفية جعله يخشى تحذيرات الموت والعقاب التى أفضى بها إليه كاشفوا الطالع مثل كونت لويس هامون وڤيلما، ومثل القاتل الذى يرى على الدوام عظمة من عظام ضحيته تشير إليه بالاتهام . قادته طبيعته المؤمنة بالخرافة إلى الاعتقاد أن تلك القوى أصدرت حكمًا يقضى بموته لانتهاكه حرمة غرفة دفن ملك مصرى .

ولو صح ذلك، فإن المستوى النفسى البحت أثر على إرادة التمسك بالحياة، مما أحال بدنه إلى تلك الحالة الصحية البائسة. وتتطابق الأعراض التى تتابعت عليه فى الأسابيع التالية للدغة البعوضة مع أعراض من يصاب بالحمرة، أو تسمم الدم والتى أدت إلى إضعاف جهاز مناعته إلى درجة أصبح فيها فريسة سهلة للإلتهاب الرئوى.

بالرغم من ذلك، هناك دلائل أخرى تشير إلى أنه كان يعانى من أمراض لم يمكن تفسيرها قبل إقلاعه فى رحلة نيلية إلى مدينة أسوان، فقد ذكر توماس هوڤنج : أن أسنانه إما كانت تسقط أو تتخلخل كل بضعة أيام مما يشى بوجود علة دفينة . إن سقوط الأسنان وهشاشتها يرتبط عادة بوجود سموم بالجسم تتراكم على مدى زمنى طويل فهل عجل بموت لورد كارنرڤون وجود سموم فى بدنه؟

١١ـ السم

ترجع فكرة تأثر لورد كارنرڤون بسموم كانت موجودة بمقبرة توت عنخ أمون إلى الوقت الذى راجت فيه الشائعات عن وجود لعنة توت عنخ آمون بعد موت اللورد، فعلى سبيل المثال : أكد رالف شايرلى رئيس تحرير مجلة «القوى الغامضة» فى مقال له على تلك الفكرة قائلاً: « لا أحب أن أخوض فى أمور غير معروفة فيما يخص لورد كارنرڤون؛ لأنه لا يوجد دليل على وجودها (اللعنة)، إلا أن المحتمل أن أحد الساخطين من المصريين الرافضين فتح المقابر قد وضع له سمًا بالمقبرة»(١).

وأشعل هـ .ڤ. موتون مراسل صحيفة ديلى اكسبريس الجدل الدائر حين ذكر فى النعى الذى نشرته الصحيفة بعد وفاة كارنرڤون :

إن أجواء الغموض التى تحيط بكل ما هو مصرى هى المسئولة عن القصة التى شاعت وانتشرت أن كارنرڤون تعرض لمؤثرات خبيثة نتيجة فتح المقبرة، أو أنه تسمم ببعض المواد التى وضعت بالمقبرة من آلاف السنين(٢).

وهكذا، يتبين أن بعض الكتاب الأذكياء لم يؤمنوا بقوى خفية أو بكتيريا وڤيروسات أدت إلى موت كارنرڤون، بل اعتقدوا أن موته ربما نتج عن سم أدخل إلى المقبرة سواء قديماً أو حديثاً، وبالرغم من أن تلك الوسيلة لم تقف حائلاً أمام لصوص المقابر، الذين إذا مرض أحدهم أو مات كانت عائلته لاتعتبر ذلك انتقاماً إلهياً، إذ كان ذلك كفيلاً بنشر الخوف بين الآخرين المقدمين على سرقة المقابر.

هناك سوابق تدل على وجود سموم منثورة أو مواد ضارة بالمقابر المصرية القديمة، فقد اكتشف دكتور زاهى حواس وكيل الوزارة المسئول

عن آثار الجيزة، مقبرة من المقابر كانت محمية بمثل تلك السموم بالواحات البحرية بالصحراء الغربية فى مصر وهى مقبرة لرجل يدعى زيد - خونسو إف عنخ، وكان وزيراً فى بلاط فرعون يدعى إبريس (٥٨٩ - ٥٧٠ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ووصف حواس دخوله إلى تلك المقبرة لأول مرة قائلاً:

فى تلك اللحظات بعد دخولى المقبرة مباشرة، شعرت أن سهاماً نارية تخترق بدنى، أغلقت عينيى وصعب علىَّ التنفس من جراء رائحة كريهة، استطلعت الغرفة من حولى فاكتشفت وجود طبقة كثيفة من مسحوق أصفر منثور حول التابوت الذى يضم مومياء الميت. لم أتمكن من الحركة ولا من قراءة اسم صاحب المقبرة، تراجعت مسرعاً وخرجت هارباً من تلك الرائحة، وأحضرنا أقنعة واقية للعاملين الذين بدأوا يزيلون ذلك المسحوق، واكتشفنا بعد ذلك انه مسحوق خام الهيماتايت* المنتشر بتلك المنطقة(٣).

ويعتقد حواس أن المسحوق قد نثر فى المقبرة ليحميها من المتلصصين(٤)، وذلك بافتراض أن المقبرة ظلت على حالها، وأن تلك الرائحة قد حالت دون سرقة اللصوص لها.

كذلك كان الميت يغلف فى مناطق المايا بأمريكا الوسطى فى عصر ازدهار حضارة المايا بطبقة سميكة من مسحوق الزنجفر** وخام الزئبق الذى عرف باسم ڤيرمليون، وأدى اللون الأحمر الزاهى المميز للزنجفر إلى ارتباطه فى المفاهيم والأذهان بالعالم الخفى، وكل ما هو سرى وسحرى ومملكة الموتى التى يلجها الأموات بعد مغادرة عالمنا.

وعدا الزنجفر الذى وجد بالمقابر الملكية المنتمية لحضارة المايا القديمة وجد الزئبق فى مدافن قديمة بالصين، فعلى سبيل المثال : قيل إن مقبرة الإمبراطور الصينى هوانج دى الذى يرجع تاريخه إلى العام ٢٠٠ ق.م،

---

* الهيماتايت هو الخام الذى يستخرج منه الحديد ، وليست له رائحة كريهة (المترجم).

** الزنجفر هو كبريتيد الزئبقيك، ويتميز بلون أحمر زاهى، وهو شديد السمية (المترجم).

كانت تحتوى على خريطة لإمبراطوريته، مرسوم بها أنهار من الزئبق والذى وجد بعض منه حول تابوته (٥)، وهناك - أيضًا - لحماية المقابر القديمة حيلة السهام التى تنطلق من تلقاء ذاتها عن طريق حبال مخفية إذا اهتزت تحت أقدام المقتحمين للمقابر تنطلق السهام ذاتيا(٦).

فهل يمكن لنا التوصل إلى أى دليل يثبت أنه قد وضعت بمقبرة توت عنخ آمون أى سموم معدنية أو عضوية قبل إغلاقها، وهل يقدم ذلك إن ثبت وجوده تفسيراً للتدهور السريع للورد كارنرڤون فى نهاية فبراير عام ١٩٢٣؟

انقضت خمسة عشر أسبوعاً فيما بين اليوم الذى اكتشف فيه المقبرة واشتداد العلل على كارنرڤون ، وكان متاحًا له من تلك المدة خمسون يوماً يمكن له أن يتردد خلالها على المقبرة، وقضى باقى المدة فى إنجلترا، فى حين قضى العمال أغلب المدة بأجمعها فى عمل متصل بالمقبرة من إخلاء محتويات وأعمال أخرى غيرها، أى كانوا معرضين أكثر من لورد كارنرڤون لأى مواد سامة إن وجدت بالمقبرة، إلا أن أحداً منهم لم يعان من أى أعراض باستثناء حالة واحدة من بين العاملين، والمنطقى أنه لو وجدت مواد سامة فلابد أن تكون بغرفة الدفن، أو غرفة التخزين التى احتوت على النفائس ، فهل حدث أن أصيب العمال؟ الإجابة بالنفى طبعاً بالرغم من وجود حالة واحدة تستدعى اهتمامًا خاصاً وهى حالة آرثر كروتند س. ميس.

حالة آرثر س. ميس

ولد آرثر ميس فى قرية جلينوركى التابعة لمدينة هوبرت بمقاطعة تسمانيا بنيوزيلاندا عام ١٨٧٤ ورحل إلى مصر عام ١٨٩٧؛ لينضم إلى فريق عالم المصريات البريطانى الشهير ويليام فلندرز بترى وكانت تربطه به صلة قرابة وعمل معه فى ابيدوس ودندرة قبل أن يعمل مع بعثة جامعة كاليفورنيا برئاسة چورچ أ. رايزنس فى الجيزة، ونجد الدار حتى عام

١٩٠٦ بعدها التحق بالعمل لحساب متحف متروبولتيان للفنون بنيويورك، فأعاد تنظيم وتصنيف قسم المصريات بالمتحف، وظل يتدرج في مناصبه حتى أصبح الأمين المساعد للمتحف، وظل لزمن طويل بعيدًا عن ساحة التنقيب عن الآثار المصرية، إلا أنه عاد لأعمال التنقيب من جديد في الفترة ما بين ١٩١٢ ـ ١٩١٤، وعمل تلك الفترة في قرية ليشت بمحافظة الفيوم

وفي عام ١٩١٥، أدرج اسمه في كتيبة الرماة رقم ٢٩ التي كلفت بحماية مدينة لندن، ثم انتقل لفرق الجيش العامل، ثم عاد ليعمل بمنطقة ليشت بالفيوم حتى موسم ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، ثم طلب منه المتحف أن ينضم إلى فريق كارتر كمعار في بداية موسم ١٩٢٢ في بحثه عن مقبرة توت عنخ أمون، وخلال ذلك الشتاء أظهر ميس خبرة ودراية واسعة في معاونته للفريق، واشترك بعد ذلك مع كارتر في كتابة الجزء الأول من كتاب «مقبرة توت عنخ آمون»، ومع بداية عام ١٩٢٣ بدا أن ميس يعاني من تداعي صحته وانهيارها، وكان ذلك سبباً جعله يقبل دعوة كارنرڤون لمصاحبته في رحلة الاستجمام النيلية إلى أسوان، ومعهما ليدى إيڤيلين، وسير تشارلز كاست في نهاية فبراير من عام ١٩٢٣.

وفي أسوان قضوا أوقاتهم في الاسترخاء وزيارة آثار موقع قبة الهوا، والمسلة الناقصة، وخزان أسوان والتسكع بين بازارات المدينة، والتحقوا بمجموعة سياحية لزيارة جزيرة فيله، وبعد عودتهم من أسوان كتب ميس إلى زوجته وينفريد ، ووصف لها في رسالته لورد كارنرڤون وابنته ليدى ايڤيلين قائلاً :

لورد كارنرڤون من الشخصيات غريبة الأطوار، إلا أنه بالرغم من طباعه الغريبة فهو من الشخصيات المحببة جداً، وهو وابنته يتبادلان محبة عميقة وولاء شديداً ، مع أن ليدى ايڤيلين سيدة مدللة إلى حد بعيد وتتصرف بعفوية، إلا أنها تتمتع بصفات جيدة كثيرة، ويتعاملان معي كأحد أفراد الأسرة، كما دعواني لزيارتهما في بيتهما في هايكلير(٧).

وأفادت ميس تلك الرحلة إلى حد كبير، وشعر بتحسن فى حالته الصحية(٨)، وتبين بعد ذلك أن تلك الفائدة كانت مؤقتة، فمع عام ١٩٢٤ تدهورت حالته الصحية تدهوراً شديداً فألغى كل ارتباطات العمل، وسافر إلى إنجلترا حيث قضى الأربعة أعوام الأخيرة من حياته بها، كما قضى الأشهر الأخيرة فى مصحة بويست جيت الساحلية فى مقاطعة كنت، ومات فى هايوردز هيث بمقاطعة سوثكس فى ٦ أبريل عام ١٩٢٨ بعد خمسة أعوام من موت كارنرڤون.

التسمم بالزرنيخ

وانضم ميس إلى قائمة من ماتوا بلعنة توت عنخ آمون، ومن الواضح أنه لم يوجد بين من كتبوا عن ذلك الموضوع المرعب من لفت انتباهه إلى الأحوال الصحية المتردية من زمن طويل لآرثر ميس، وبدأت صحته فى الانهيار على وجه التقريب مع انهيار كارنرڤون، ونشرت سيرة ميس الذاتية تحت عنوان «البيانو الكبير جاء على ظهر جمل آرثر س. ميس .. عالم المصريات المنسى » وكتبه كريستوڤر س. لى ونشر عام ١٩٩٢

ومن الغريب أن ذلك الكتاب حفل بأخطاء كثيرة عن حياة ميس وعصره، بينما احتوى على مادة علمية غزيرة عن حالته الصحية وتفاصيل معاناته الأخيرة، فبعد اعتزال ميس العمل بالبحث الآثارى، وانتقاله للإقامة المستديمة بإنجلترا ظل يراسل صديقه العجوز البرت ليثجو الذى كان يعمل بمتحف متروبولتيان للفنون بنيويورك.

وفى رسالة منه إلى صديقه بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٧ م ذكر له أنه مازال يعانى من «صعوبة التنفس وعسر هضم مزمن»(٩)، وذكر له - أيضا - أنه تحت إشراف طبيب متخصص بأمراض القلب، وأغرب ما فى الرسالة رأيه الشخصى عن حالته الصحية المتداعية، فقد ذكر عن ذلك أن حالته ليست إلا «تداعيات التسمم بالزرنيخ»(١٠).

وأربكت تلك العبارة كاتب سيرة ميس الذاتية، كما أربكت آخرين غيره

من الباحثين، وأدت بكاتب سيرته إلى التعليق على تلك الجملة من رسالته قائلاً:

«من غير الواضح كيفية إصابته بتسمم الزرنيخ، إلا أن الزرنيخ كان يستخدم قبل التوصل إلى المضادات الحيوية بجرعات طفيفة كعقار طبى، كما كان يستخدم فى متاحف الآثار للمحافظة على جلود الجثث المحنطة، وعلى أى حال فالتسمم بالزرنيخ من الأمور الخطيرة التى تفضى إلى الموت»(١١).

ومع أن التسمم بالزرنيخ يفضى فعلاً إلى الموت، إلا أن أخصائى القلب الذى كان يشرف على حالة ميس الصحية ذكر : «أن تصلب الشرايين هو سبب علته، وأن ذلك ربما نجم عن عمله لسنوات طويلة بالتنقيب عن الآثار فى مصر(١٢)»، ووصف ميس حالته لصديقه البرت ليثجو بأنها مماثلة لما يعانى منه عمال المناجم بسبب تنشق الغبار والأتربة والرمال التى تتلف الجهاز التنفسى، وتتسرب أجزاؤها إلى داخل البدن»(١٣). وأضاف:

لقد قضيت أسابيع طويلة تحت الأرض فى آخر موسم عمل لى بالفيوم (١٩٢١ ـ ١٩٢٢)تنشقت فيها كميات كبيرة من أتربة أكفان المومياوات المتحللة، وفى كل أعمال المقابر القديمة لم أكن أتنفس سوى الأتربة العضوية وذرات الغبار(١٤).

وتبين خطأ طبيب آرثر ميس المشرف على حالته، فقد راحت أحواله الصحية تتدهور وتنهار وازداد نحولاً وضعفاً وهزالاً، حتى وصل بدنه إلى حالة لا تتحمل أى مزيد، وباعتراف ميس لم تتدهور حالته بحدة إلا بعد آخر موسم عمل له فى ليشت بالفيوم، ولم تتمكن منه العلل إلا فى الشهور الأولى من عام ١٩٢٣ ، وهذا ما ذكره فى الرسالة التى كتبها إلى زوجته بعد عودته من رحلة أسوان النيلية بصحبة كارنرڤون وابنته ، وإن صح ذلك فإن هذا يشير إلى أن المرض أصابه فى الفترة التى عمل فيها بمقبرة توت عنخ آمون ، إلا أنه فى الوقت ذاته يُطرَح تساؤل: من أين يمكن أن

يصاب بتسمم الزرنيخ؟ وتظل الإجابة لغزاً غامضاً من وجهة نظر كاتب سيرة ميس الذاتية بعد فشله في إلقاء أي ضوء على ذلك اللغز المحير(١٥).

وإن افترضنا أن ميس قد أصيب بالفعل بتسمم الزرنيخ مما أدى إلى تدهور حالته الصحية مع بدايات عام ١٩٢٣، فكيف تعرض لكميات من ذلك السم تكفي لظهور أعراضه، وهل كان ذلك بالفعل نتيجة للوقت الذي قضاه في مقابر ليشت القديمة؟ وهل كانت أتربة الأكفان المتحللة تحتوي على كميات كافية من عنصر الزرنيخ؟ هذا الاحتمال غير مرجح، وإلا كان كثير من العاملين بالمجال ذاته من قبل ميس ومن بعده قد أصيبوا بالأعراض ذاتها، ولأضحت ظاهرة متداولة ومفهومة.

المرض الوحيد المعروف الذي يصيب العاملين بالمصريات القديمة والمقابر الأثرية مرض فطري يصيب الرئتين والشعب الهوائية وينتج عن فصائل فطر.. أسبيريجيللوس فلاقاس و«اسبيريجيللوس نيجر»، وهي فطريات من الممكن أن تظل في حالة كمون لآلاف السنين، ثم تنشط من جديد إذا وجدت العائل الذي تتكاثر داخله، ويعاني من يصاب بذلك الفطر من حمى والتهاب الجهاز التنفسي، إلا أن تلك الأعراض لم تكن ما عاني منه ميس عند بداية تدهور حالته الصحية عام ١٩٢٣؛ لذلك يظل السؤال مطروحًا، وهو كيف تعرض ميس للتسمم بالزرنيخ قبل عام ١٩٢٣؟ هل أصيب به في السنوات التي عملها بمتحف متروبوليتان بنيويورك؟

لقد وجه كاتب سيرته ذلك السؤال لإدارة قسم المصريات بمتحف متروبولتيان، واستفسر منهم إن كانوا يستخدمون الزرنيخ بالقسم لأي سبب من الأسباب الفنية، وأقرت إدارة القسم أن أتربة الأكفان والجثث المحنطة من الممكن أن تسبب مشاكل صحية، إلا أن عمل ميس بالمتحف لا يمكن أن يؤدي إلى إصابته بأي أمراض(١٦)، فهل يمكن أن يكون قد تعاطى الزرنيخ كمكون من مكونات الأدوية المركبة التي يمكن أن يتعاطاها لمرض كان يعاني منه؟

محلول فاولر

بالرغم من تصنيف الزرنيخ ضمن العناصر شديدة السمية، إلا أن من الثابت أن تعاطيه بجرعات ضئيلة من الممكن أن يكون مفيداً للجسم، وكان أول من لاحظ ذلك الجانب المفيد الطبيب البريطانى «توماس فاولر» (١٧٣٦ - ١٨٠١)، وتوصل إلى ذلك الاكتشاف عام ١٧٨٦ ، ونشر مقالات طبية كثيرة عرض فيها فوائد التداوى بجرعات ضئيلة من الزرنيخ لعلاج الملاريا والصداع، وعلى أثر ذلك شاع استخدام محلول فاولر المكون من ١٪ زرنيخ بوتاسيوم المذاب فى ماء، وظل ذلك المحلول متداولاً على طول العصر الڤيكتورى، واكتسب شهرة واسعة ووصف بأنه اكسير سحرى يشفى كل الأمراض والعلل حتى أن الكاتب الشهير تشارلز ديكنز ظل يتعاطاه لفترات طويلة.

وبالرغم من ذلك لا يوجد أى دليل يشير إلى أن ميس قد تعاطى ذلك المحلول فى أى وقت من حياته.

المياه الجوفية

الاحتمال الأخير هو اعتماد ميس فى فترة من حياته على مياه جوفية ملوثة بالزرنيخ بتركيزات عالية، وقد اشتهر ذلك النوع من التسمم الجماعى الناجم عن شرب مياه ملوثة بنسب عالية من الزرنيخ فى كثير من أقطار العالم مثل : الولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك، وشيلى، والصين والأرجنتين، وتايوان، والهند، وغانا، والمجر، والمملكة المتحدة، والفلبين، ونيوزيلندا، ومنغوليا الداخلية، وفى عام ١٩٩٨ وقعت إحدى أكبر الكوارث الناجمة عن تسمم الزرنيخ هز صداها أرجاء العالم، فخلال سبعينيات القرن العشرين تعرضت بنجلاديش، ومقاطعة غرب البنغال الهندية إلى موجة جفاف ونقص بالمياه مما حدا بصندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) التابع لمنظمة الأمم المتحدة بالتعاون مع البنك الدولى إلى تبنى مشروع حفر ٩٠٠٠٠٠ بئر جوفى ، إلا أن المياه الجوفية بتلك المناطق كانت تحتوى

على تركيز عال من عنصر الزرنيخ أدى إلى إصابة عشرة ملايين نسمة بأمراض جلدية، وسرطانية، وفقدان البصر، وأورام جلدية خبيثة، والحقيقة الأغرب التى تبعث على الفزع أن سبعين مليوناً من ساكنى تلك المناطق مازالوا يعتمدون على تلك المياه الجوفية. وطبقاً لما ذكرته منظمة الصحة العالمية، تعد تلك الكارثة أكبر واقعة تسمم جماعى فى التاريخ، ولا توجد طريقة مؤكدة وناجحة لعلاجها علاجًا فعالاً(١٧).

أما فى مصر، فلا توجد أى شواهد على أن مياهها الجوفية تحتوى على الزرنيخ، لذلك يظل التساؤل قائماً، من أين يمكن أن يكون ميس قد تعرض لتسمم زرنيخى؟ ولو كان من مقبرة فرعونية فهل هناك من دليل يثبت أن المصريين القدماء كانوا على دراية بالسموم المعدنية والسموم العضوية؟

السموم فى مصر القديمة

احتوت بردية قديمة جداً بمتحف اللوفر على نص يقول:

« لا تذكر اسم إياو (الاسم السرى المقدس للرب) تحت شجرة خوخ (١٨) أى أن من كتبوا ذلك النص كانوا يعرفون أن شجرة الخوخ تفرز سماً قوياً هو حامض البروسيك وهو سم مميت.

وقد مال بلينى الكبير (٢٣ - ٧٩م)، وهو من كبار مفكرى وعلماء الرومان فى عصره إلى تفنيد ذلك الزعم ونفيه وسجل فى أعماله ما يلى:

«ليس صحيحًا أن أشجار الخوخ التى تنمو ببلاد فارس تفرز سماً يسبب عذاباً شديداً لمن يبتلعه حتى يموت، وليس صحيحًا أن تربة مصر نزعت عنها تلك الخواص حين زرعها ملوكها لاستخلاص سمها»(١٩).

ولم يكن بلينى مصيباً فى ذلك، فأشجار الخوخ التى دخلت إلى مصر من بلاد فارس تفرز حامض البروسيك الذى يسبب آلامًا مبرحة، وعذاباً شديدًا حتى الموت لمن يتسمم به(٢٠).

وتحتوى برديات ونقوش جدارية تنتمى للمملكة الحديثة وما بعدها على

نصوص تعاويذ ورقى مختلفة للشفاء من السموم.

وبالرغم من أن أغلب تلك التعاويذ والرقى تركز على سموم الأفاعى والعقارب فإن هناك نصوصاً أخرى تبدو غامضة، ولها علاقة بالسموم التى يصنعها البشر ولم تحدد ماهية تلك السموم، كل ما نعرفه أنه كانت هناك نباتات عديدة سامة معروفة فى مصر القديمة ، مثل : نبات الخشخاش (باباڤرسومنيفيرام) الذى كان يستخرج منه قلويات الخشخاش ومنه المورفين، وتلك النباتات مذكورة فى البردية اليونانية ـ المصرية الطبية المعروفة باسم بردية أورثينلوس(٢١)، ومن النباتات الأخرى المحتوية على سموم قوية، نبات الداتوره ويستخدم بكميات بسيطة كمهدئ نفسى شديد، ونبات بنج الدجاج وأنواع أخرى مختلفة من فصيلة الهايوسياموس، ونبات بنج الدجاج، ونبات النار السوداء مذكوران فى البردية اليونانية ـ المصرية الطبية(٢٢).

وعدا ما عرفه المصريون القدماء من سموم عضوية نباتية، أجرى مايكل كارمايكل دراسة موسعة عن المركبات الكيميائية فى العصور القديمة، فى تلك الدراسة، تعرف على السمكة المنتفخة فى نقش جدارى يعود إلى المملكة المصرية القديمة(٢٣). وكان ذلك النوع من الأسماك متوطناً فى منطقة دلتا مصر فى العصور القديمة، وأثبت عالم النبات الدكتور ويد داڤيز بجامعة هارفارد أنه يمكن الحصول على سم مميت من مسحوق تلك السمكة بعد تجفيفها(٢٤)، وأثبت أن السحرة القدماء والشامانات كانوا يستخدمون مسحوق تلك السمكة، خاصة سحرة جزر الكاريبى لقتل من يريدون التخلص منه بنثر مسحوق تلك الأسماك فى مسكنه، ويمكن استنتاج أن المصريين القدماء قد استخدموا مسحوق تلك السمكة بنفس الكيفية.

العناصر المعدنية النادرة

يعتقد كارمايكل أنه من المنطقى أن يكون رواد الكيمياء فى مصر

القديمة قد تمكنوا من عزل واستخلاص السموم من العناصر المعدنية النادرة، كانت الكيمياء القديمة خليطًا من السحر، والعلم، وتهدف أساساً إلى تحويل العناصر الرديئة إلى أخرى ثمينة، والكلمة اللاتينية الدالة على ذلك مأخوذة من الكلمة العربية الكيمياء، ومن المرجح أن يكون اللفظ العربى ذاته مشتقا من اللفظ الفرعونى القديم كيمى والذى يعنى التحول، أى فن تحويل المعادن السوداء إلى معادن ثمينة لامعة كالذهب، وتعنى كلمة كيمى المصرية القديمة - أيضًا - الطمى الأسود الذى يجلبه النيل كل عام؛ لتخصيب حوض النيل والدلتا بعد عملية الخلق الأولى ولو لم تكن الكلمة العربية مشتقة من الكلمة المصرية القديمة، فربما تكون مشتقة من الكلمة الإغريقية خيميا أى : «الاندماج»

واحتضن العرب علوم الكيمياء، وانتقلت منهم إلى أوروبا فى العصور الوسطى مما أدى إلى اكتشاف العناصر النادرة مثل الزرنيخ الذى تم عزله لأول مرة فى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الكيميائى البرتوس ماجنوس (١١٩٣ ـ ١٢٨٠)م، والاسم اللاتينى للزرنيخ (أرسينيك) مشتق من اللفظ الاغريقى ارسينيكون وهو عبارة عن حبيبات صفراء باهتة مكونة من كبريتات الزرنيخ، ومن المعروف أن المصريين القدماء استخدموا تلك المادة(٢٥).

والزرنيخ شديد السمية، وهو موجود بشكل طبيعى فى بعض الأطعمة مثل الأحياء البحرية والعظام، وفى بذور التفاح والأهم من ذلك أنه ينتج كناتج ثانوى لصهر خام النحاس، وكان المصريون القدماء يجلبون ذلك الخام من المناجم المكشوفة فى شبه جزيرة سيناء، ومن الطبيعى أن تكون خبراتهم فى استخلاص النحاس قد قادتهم إلى معرفة خواص كبريتات الزرنيخ.

ومن المشاكل التى تثير الخيال والبحث ، احتمال أن تكون مقبرة توت عنخ آمون قد احتوت على مركبات الزرنيخ ولا يوجد حتى الآن أى دليل يثبت ذلك، وفى عام ١٩٣٨ قدم الكيميائى البريطانى بحثاً عن السموم فى

مصر القديمة(٢٦)، لم يرد به أى ذكر عن معرفة المصريين للعناصر النادرة، وكذلك لم يرد بالبحث أى ذكر لمقبرة توت عنخ آمون.

الأعراض المرضية لتسمم الزرنيخ

تبدأ أعراض تسمم الزرنيخ بصداع الرأس وتشتت ذهنى ودوار، ومع زيادة الجرعة تظهر تشنجات الجسم، وبقع لونية بأظافر الأصابع، ثم تدريجياً يظهر الإسهال والقيء، وتشنج العضلات، وتساقط الشعر، ثم يظهر دم بالبول، وتزداد التشنجات حدة وسوءاً، وأكثر أعضاء الجسم تضرراً من تسمم الزرنيخ هى الرئتان والكليتان والكبد، ولأنه من العناصر المسرطنة تظهر البثور على الأيدى والأقدام، تتحول إلى غرغرينا وسرطان الجلد، ثم ينتقل المصاب إلى غيبوبة دائمة تنتهى بالموت.

وليس من المحتم أن يعانى المصاب بتسمم الزرنيخ من الأعراض كلها معا بصورة نمطية، فالأعراض بأجمعها لا تحدث إلا من التراكم المستمر للسم بالجسم، وقد يستغرق الأمر سنوات من تراكمه بكميات ضئيلة، وهناك وسائل لتخليص الجسم منه وذلك بتعاطى الأطعمة المحتوية على نسبة كبيرة من الكبريت مثل : البيض والثوم والفول والبصل وأوراق الخضروات وأقراص الفحم والحقن بمادة رباعى حامض الخليك ايثيلين داى امين.

تساقط الأسنان

مما له أهمية خاصة فى بحثنا عن سر مرض كارنرڤون تداعى أسنانه السريع، وهو أحد أعراض التسمم الزرنيخى، بالإضافة إلى أنه كان فى آخر فبراير متقلب المزاج ويعانى من تغيرات نفسية حادة (٢٧)، هذا عدا مشاكل التنفس، ويشترك - أيضاً - مع تسمم الزرنيخ فى تلك الأعراض التسمم بأحد العناصر المعدنية النادرة الأخرى مثل الزئبق والذى كان يستعمل - أيضاً - فى فنون الكيمياء القديمة.

تسمم الزئبق؟

ويؤدى تسرب الزئبق عن طريق الجلد أو الجهاز التنفسى إلى الإصابة بتسمم الزئبق، وإن حدث تظهر أعراض مثل : القيء، والإسهال، والغثيان، وتلف الكليتين، والتعرض له لزمن طويل يسبب تغير اسفنجي باللثة، وزيادة إفراز اللعاب، وظهور البثور على الجلد، كما يؤدى إلى تساقط الأسنان وتخلخلها، ومن اللافت للنظر أنه يسبب - أيضًا - تغيرات حادة بالحالة المزاجية وتغيرات عقلية تجعل المصاب قلقًا مع الشعور بالخوف والاكتئاب دون أسباب تبرر ذلك، كما يسبب الانتقاد لهم ضيقًا شديداً ويفقدون ثقتهم بأنفسهم، أو يتحولون إلى حالة من البلادة الذهنية ويصعب عليهم التركيز، ومن الممكن أن يعانوا من التهيؤات بل وحتى من فقدان الذاكرة، كما يؤثر على الجهاز العصبى فيؤدى إلى الارتعاش اللاإرادى للأيدى، وارتجاف اللسان والجفون، وعدم القدرة على الوقوف منتصبًا، وفى الحالات الشديدة يتأثر جهاز التنفس مما يسبب السعال وصعوبة التنفس، ومع استمرار تداعى حالة البدن يصاب بالتهاب الرئتين وهى آخر الأطوار الخطيرة.

ولو طبقنا تلك الأعراض على حالة لورد كارنرفون فلن يفوتنا ملاحظة وجود تطابق كبير بين الأعراض التى ظهرت عليه وأعراض تسمم الزئبق إلا أن الزئبق غير موجود ظاهرياً فى مقبرة توت عنخ آمون.

وبالرغم من أن بحث ألفريد لوكاس عن السموم المنشور عام ١٩٣٨ لم يتطرق إلى احتمال وجود أى من السموم المعدنية أو العضوية بالمقبرة إلا أن تأكيد مايكل كارمايكل بأن قدماء المصريين كانوا على دراية ومعرفة بالعناصر المعدنية النادرة، مثل الزرنيخ والزئبق يجبرنا على توخى الحذر قبل أى ترجيح، لقد أضاف ألفريد لوكاس فى بحثه:

سواء كان كارنرفون أوميس قد تعرضا إلى سم معدنى أثناء عملهما بالتنقيب عن الآثار، والتواجد بالمقابر المصرية القديمة أم لم يتعرضا لأى سم فمن المستحيل أن نقرر ذلك لغياب معلومات جوهرية لم تكن تتوفر إلا

بإجراء تشريح دقيق لهما بعد الوفاة، ولم يعد بالإمكان حالياً إلا إجراء فحص لعينات من الشعر للكشف عن وجود أى عناصر معدنية أو أى سموم أخرى(٢٩).

ولابد أن نأخذ فى الحسبان كل تلك الافتراضات فى الفصل الختامى لهذا الكتاب، إلا أنه لابد لنا من العودة إلى التجاوزات التى ارتكبها كارتر فى مقبرة توت عنخ آمون، والمضايقات التى تعرض لها لأسباب سياسية وحاصرته وضيقت عليه الخناق فى كل ما خطط له.

١٢ـ إغلاق المقبرة

سرعان ما بدأ كارتر يعانى من التدخل المتزايد من أعضاء الحكومة المصرية المسئولين عن الآثار فى وطنهم مع بداية موسم عمل ١٩٢٣ - ١٩٢٤، وبعد شكاوى كثيرة تقدم بها أ. هـ براد ستريت مراسل صحيفة نيويورك تايمز بمدينة الأقصر إلى وزير الأشغال العمومية المصرى عبد الحميد سليمان باشا، طلب الوزير من كارتر أن يوزع نشرة يومية ملخصة على مراسلى الصحف الموجودين بالأقصر فى التاسعة من مساء كل يوم، حتى يتمكنوا من إرسالها إلى صحفهم لتظهر فى طبعات الصباح التالى عما يتم إنجازه يومياً بالمقبرة . لم يكن ذلك مجرد طلب أو رجاء من وزير الأشغال المصرى، بل كان بمثابة أمر، كما أبلغه أنه سيدرج هذا الشرط ضمن شروط تجديد التصريح السنوى الصادر عن الوزارة. وكذلك - أيضا - ضمن تصريح إخلاء مقبرة توت عنخ آمون والممنوح بعد موت كارنرڤون إلى اسم زوجته ليدى آلمنيا، كونتيسة كارنرڤون(١) وعدا ذلك كما أبلغه الوزير، سيتابع بنفسه تمكين المراسلين من الوصول إلى المقبرة ليتابعوا الأنشطة التى يقوم بها كارتر وفريقه.

ومن الواضح أن كارتر لم يكن ليفعل شيئًا من ذلك، ولذا قرر أن يسافر إلى القاهرة ليناقش تلك القرارات مع وزير الأشغال وبيير لاكو مدير مصلحة الآثار المصرية، وبعد يومين من النقاش الحاد، لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق، وبدأ كارتر بالتهديد بأنه سيعلن على العالم كله عدم صلاحية الوزير ولارئيس مصلحة الآثار لمنصبيهما إلا إذا استعاد السيطرة بنفسه على ما يخص الإعلام العالمى، وكذلك على دخول المقبرة، وانتظر لمدة اسبوع بالقاهرة ثم عاد إلى الأقصر، إلا أن الأحوال السياسية السائدة جعلت من زيارته للقاهرة انتصاراً يخلو من أى

مضمون.

وفى مناورة غير متوقعة زادت من هواجس كارتر، طلب وزير الأشغال من كارتر تقديم قائمة بأسماء كل من يعملون معه داخل المقبرة، وهم فقط من سيسمح لهم بالتواجد فيها، أما من عداهم فلابد أن يتقدموا بطلب الحصول على تصريح زيارة قبل أن يضعوا قدمهم فيها.

وأيقن كارتر أن الغرض من كل تلك القرارات ليس إلا تحجيمه منذ أن ضم إلى المتواجدين داخل المقبرة مراسل صحيفة التايمز آرثر ميرتون فى بداية ذلك الموسم، وهو ما أدى إلى ثورة مراسلى الصحف الأخرى الذين ظلوا خارج المقبرة تحت حرارة شمس الوادى المحرقة.

ومع التدهور المتزايد فى علاقة كارتر بوزير الأشغال ومدير مصلحة الآثار المصرية، توجه بييرلاكو مدير المصلحة بنفسه إلى الأقصر يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ أملاً التوصل إلى حل، إلا أن كارتر كان متوعكًا فى ذلك اليوم ولم يغادر بيته ، وبسبب غياب كارتر، ظلت المقبرة مغلقة فى ذلك اليوم، واضطر لاكو إلى زيارة المعمل أو ورشة عمل المقبرة فى مقبرة سيتى الأول، والتقى هناك بآرثر ميرتون مراسل صحيفة التايمز، وبادر لاكو بإبلاغ ميرتون أنه كان سبباً فى كل المشاكل التى وقعت، وأنه سيكون سبب مشاكل أخرى قادمة، وهكذا، وجد آرثر ميرتون سيء الحظ نفسه - فجأة - سبب مشاكل سياسية، عدا أن وزير الأشغال أشار إلى اسمه قائلا لكارتر : إن مراسل صحيفة التايمز ليس عالماً فى أى مجال، ولن يسمح له بالتواجد فى المقبرة إلا حين يسمح لكل مراسلى الصحف بالدخول، وبالرغم من أن كارتر لم يبدل موقفه تجاه ميرتون قيد شعره، إلا أنه قبل فى النهاية إرضاء الصحف الأخرى بدعوة مراسليها من آن إلى آخر؛ لتفقد سير العمل بالمقبرة وبناء على ذلك القرار انتهى الاتفاق الذى كان يجعل من صحيفة التايمز اللندنية المحتكر الوحيد لكل أخبار الكشف، وهو الاتفاق الذى كان قد تم تجديده فى بداية ذلك الموسم.

كشف الغطاء

فى الوقت الذى كانت فيه تلك المشاكل تسبب لكارتر أقصى قدر من المضايقات والضغوط، كان العمل يمضى على قدم وساق لفك المقاصير المذهبة المحيطة بتابوت الدفن.... وفى يوم الخميس الثالث من يناير عام ١٩٢٤ تم قطع الاربطة المزدوجة للمقصورة الثانية باستخدام مبضع جراحى، وارتد الباب المزدوج إلى الخلف كاشفًا عن المقصورة الثالثة وحين تم فكها - أيضا -، وجد كارتر باباً مزدوجاً لمقصورة رابعة منقوش عليها أجنحة مشرعة لصقر يحمى الملك، وخلف المقصورة الرابعة وجد كارتر تابوتًا صخرياً مصقولاً بعناية فائقة من الكوارتز الوردى (المرو الوردى) وبداخله التابوت الخشبى الذى يضم رفات الملك.

بعد فك المقاصير واحدة بعد آخرى تم إخراجها من غرفة الدفن . كان كل منها قد صنع ببراعة واتقان لا نظير لهما، إلا أن النجارين الذين جمعوا أجزاءها داخل المقبرة لم يكونوا بدرجة إتقان وبراعة صانعيها، فكل قطعة من قطع المقاصير كانت تحمل علامة هيروغليفية تحدد موضعها الصحيح عند تجميعها داخل المقبرة ، إلا أن بعضها قد وضع فى غير موضعه حتى أن العمال استخدموا مطرقة لتجميعها بالأجزاء الخطأ، وعلى عكس ذلك وجد كارتر محتويات كثيرة بين جدران المقاصير مصنوعة بإتقان ودقة وبراعة فنية مذهلة، ومنها مروحة ذهبية من ريش النعام تحولت إلى تراب بمجرد لمسها، كان على أحد وجهى مقبض المروحة الذهبى شبه الدائرى نقش يمثل الملك فى رحلة صيد النعام الذى صنعت من ريشه المروحة، وعلى الوجه الآخر تبدو الخيول منطلقة خلف النعام، والأتباع يجرون ما تم صيده منها، والملك فى عجلته الحربية يحمل تحت إبطه الريش الذى صنعت منه المروحة.

أكوام من المقتنيات

فى ذلك الوقت، تلقى كارتر رسالة من وزير الأشغال يعلنه فيها بقرار

وقف العمل بالمقبرة لبعض الوقت، حتى يتيح الفرصة لآلاف الزائرين لرؤية المقبرة، كما قرر الوزير أن يكون مسئولاً مباشرةً بنفسه عن كل ما يتم بها من أعمال، وأشار إلى حق مصلحة الآثار المصرية فى المقتنيات المكتشفة ،والتى تعد من الممتلكات العامة المصرية(٢)، ومثل ذلك لكارتر تحولاً جوهريًا فى موقف الحكومة المصرية تجاه محتويات المقبرة المكتشفة بعكس ما تم الاتفاق عليه مع مدير مصلحة الآثار السابق جاستون ماسبيرو، والمنصوص عليه فى أول تصريح بالبحث والتنقيب الممنوح للورد كارنرڤون عام ١٩١٥، والذى كان يجدد سنوياً ببنود الاتفاق ذاتها، وينص البند التاسع من التصريح على أن : «المقابر التى تكتشف كاملة لم تمس من قبل، تسلم كل محتوياتها دون تقسيم إلى المتحف المصرى(٣)، بينما نص البند العاشر على : «عند اكتشاف مقابر تعرضت للسرقة قبل اكتشافها ، تحتفظ مصلحة الآثار بالمومياوات التى توجد بها كما هو منصوص عليه بالبند الثامن، كما تحتفظ بالقطع الآثارية ذات الأهمية التاريخية والعلمية الخاصة، ويمكن تقسيم باقى الموجودات مع صاحب التصريح » .

ولما أعلن كارتر أن اللصوص قد دخلوا المقبرة فى عصور قديمة، توقع هو وليدى آلمينا أن يحظوا بكميات وفيرة من محتوياتها، ورأى كارتر فى القرارات الجديدة لوزير الأشغال تراجعًا عما تم الاتفاق عليه، وأبلغ كارتر تلك القرارات إلى سير چون ماكسويل مدير أملاك لورد كارنرڤون الذى بدأ بدوره يعد العدة لرفع قضية ضد وزير الأشغال العمومية المصرى، كما أدى ذلك الموقف المستجد للحكومة المصرية إلى إثارة قلق متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك الذى أعار كثيراً من فنييه وعلمائه إلى كارتر بلا مقابل بعد الإعلان عن الكشف أملاً فى الحصول على بعض القطع المتميزة من ليدى آلمنيا حين يتم إفراغ محتويات المقبرة، ورأى كل المضارين أن وقت اتخاذ القرارات والمواقف الحاسمة قد حان، فقام أربعة من أشهر علماء المصريات فى العالم بكتابة رسالة مفتوحة نشرت فى

جميع وسائل الإعلام، امتدحت العمل العلمى العظيم الذى يقوم به كارتر فى حين اتهمت الرسالة مصلحة الآثار المصرية بتخريب وإفساد ما يجب عمله فى المقبرة بأوامرها التى تجافى العقل السليم، والقيود غير المنطقية التى تفرضها على كارتر ، ووقع تلك الرسالةج بيرسى إ. نيوبيرى ومعه هيئة العاملين بالمتحف المصرى، وچيمس هنرى بريستد، ومعه معهد الشرقيات فى شيكاغو، وعالم اللغات القديمة الأشهر آلان هـ. جاردنر والبرت م. لايتثجو أمين قسم المصريات بمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك.

كان الغرض من توجيه تلك الرسالة المفتوحة ردع بيرلاكو - مدير مصلحة الآثار المصرية فى ذلك الوقت وإخافته، إلا أنها حققت عكس ما أرادوه منها، وسببت لكارتر مزيداً من المشاكل وفرضت عليه مزيداً من القيود .

المقام الأبدى

وبمجرد أن فككت المقاصير من حول التابوت رآه كارتر لأول مرة فى حياته، كان هائل الحجم، بكل ركن من أركانه نقشت صورة ربة من الربات الحاميات للملك، وأجنحتها مفرودة كأنها تضمه إليها لتحميه وتحتضنه فى رقدته الأبدية، وكانت هناك مفاجآت تنتظر كارتر حين بدأ فى فحص التابوت الصخرى الهائل هو وفريقه، أول المفاجآت أن الغطاء الصخرى لم يكن من حجر المرو الوردى كالتابوت، بل كان من الجرانيت الوردى، وهو جمع غريب بين نوعين من الصخر لتابوت واحد، لم يصادفه إلا فى التابوت الصخرى للملك المرتد إخناتون فى مقبرته الملكية التى عثر عليها فى واد خلف موقع مدينته بتل العمارنه.

المفاجأة الثانية التى واجهت كارتر حين فحص السطح العلوى للغطاء الصخرى أنه كان مكسوراً إلى نصفين، وتم معالجة موضع الشرخ بملاط، ومن أول لحظة اكتشف فيها ذلك خارت قواه، فقد خشى أن يكون لصوص

المقابر هم من قاموا بكسره؛ ليصلوا إلى ما بداخله من كنوز، إلا أن خوفه سرعان ما تلاشى بعد أن تبين أن الغطاء انكسر أثناء إغلاق التابوت، ويمكن للمرء أن يتخيل الفزع والرعب الذى اعترى القائمين على دفن الملك حين انكسر ذلك الغطاء أثناء إغلاق التابوت.

تغيرات سياسية

في الوقت الذى كان فيه كارتر منشغلاً بأمر التابوت والمقبرة، كانت تقع تحولات كبرى فى المناخ السياسى خارج المقبرة، فمنذ ثمانينات القرن التاسع عشر، ظلت مصر خاضعة للإدارة البريطانية ، وبالرغم من تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت ، ويحكمها بالوراثة خديوى من سلالة محمد على، إلا أنها مع ذلك ظلت تحت الوصاية البريطانية، ولم ترفع بريطانيا وصايتها على مصر إلا عام ١٩٢٢، إلا أن رفع الوصاية الفعلى تأخر بعض الوقت بسبب المعارضة المستمرة من حزب الوفد المصرى الوطنى لكل أشكال الهيمنة البريطانية على مصر، ونجح فى فى الإطاحة بالوزارة الموالية لبريطانيا عام ١٩٢٣. ولم تكن وزارة الوفد الوطنية مناوئة فقط للهيمنة السياسية البريطانية، بل تتبنى سياسة وطنية ترفض كل أنواع الهيمنة الأجنبية على الجوانب الثقافية الوطنية، ومع أن وزارة الوفد لم تركز اهتمامها كثيراً على الآثار، ولم تتخذ من كارتر البريطانى هدفاً بعد أن أصبح شخصية عالمية معروفة منذ اكتشافه مقبرة توت عنخ آمون، إلا أنه بذل كل جهده لاحتكار كل سلطة على المقبرة وحرص أن يكون المسئول الأوحد عنها، مع أنها جزء من الميراث الوطنى المصرى، لذلك كان يقاوم أى توجهات مغايرة لما خطط له مهما كانت بسيطة ، وألقت نذر الصراع المقبل على المقبرة بظلالها الكئيبة على الحالة النفسية لمكتشف توت عنخ آمون.

وفى يوم الأربعاء ٦ فبراير ١٩٢٤ ، سافر كارتر إلى القاهرة للاجتماع بمرقص بك حنا، الوزير الجديد لوزارة الأشغال العمومية، وكان الموعد فى

الخامسة من عصر اليوم التالى، وحين دخل مبنى الوزارة قيل له : إن الموعد سيتأجل عشرين دقيقة، وإن عليه أن يقابل خلال ذلك الوقت السيد بيرسى مارمادوك توتنهام وكيل أول وزارة الأشغال العمومية (١٨٧٣ - ١٩٧٥)، وخلال ذلك اللقاء أخرج توتنهام نسخة من التصريح المؤقت الذى كان قد منح لكارتر عام ١٩١٨ للتنقيب فى واد يقع شمال وادى الملوك، وبعكس التصريح الذى وقعه كارتر بالنيابة عن كارنرڤون عام ١٩١٥ للبحث فى وادى الملوك، وجد كارتر أن تلك النسخة التى أخرجها له توتنهام تحتوى على تعديل فى البند التاسع يحرم المكتشف من المشاركة فى محتويات أى مقبرة ملكية، كما تم تعديل تعريف «مقبرة كاملة لم تمس»، ليصبح كالتالى:

كل محتويات المقابر الكاملة التى تكتشف لملوك وملكات وأمراء وكبار كهنة من حق المتحف المصرى، أما محتويات مقابر الأفراد مادون الرتب السابقة، فسوف تهب مصلحة الآثار إلى كارنرڤون بعض القطع الهامة التى توجد بها ، أما فيما يخص المعنى الدقيق لـ «مقبرة كاملة لم تمس» المذكورة فى التصريح السابق اعطائه، وكذلك فى هذا التصريح فإنه من المتفق عليه أنها لا تعنى فقط المقابر التى لم تقتحم على الإطلاق بل تعنى - أيضا - المقابر التى ما تزال تحتوى على محتويات فى حالة جيدة وسليمة، حتى لو كان قد سبق للصوص اقتحامها لنهب مجوهرات منها كما فى حالة مقبرتى والدى الملكة تايا(أى مقبرة يويا وتويا التى عثر عليها عام ١٩٠٥)، وبتقديم تلك الوثيقة المحتوية على الشروط والتعريفات الجديدة، بدا كما لو كان توتنهام قد ذهب بأشواط التحدى إلى أقصى مداها لحصار كارتر، وسلبه أى ميزة، ورأى كارتر المصدوم أن تلك القرارات لم تكن إلا «محاولة خسيسة من جانب مصلحة الآثار للالتفاف حول الشروط والامتيازات التى احتوى عليها تصريح الحفر الأصلى»(٦)، وبالفعل راح يسأل توتنهام ،كيف لتصريح مؤقت بالبحث خارج الوادى، وهو تصريح أصبح باطلاً وملغيًا بانتهاء مدته أن تمتد نصوصه لتطغى

على الشروط المشمولة فى تصريح البحث والتنقيب بوادى الملوك والذى مازال ساريا؟.

دافع كارتر بضراوة عن بنود التصريح وكان على صواب، وأصر على أنه بالرغم من إعادة صياغة البند التاسع للتصريح المؤقت المستخرج عام ١٩١٨ للبحث خارج وادى الملوك إلا أنه لم يتم الاتفاق على إجراء أى تغيرات، أو إضافات على تصريح البحث في وادى الملوك لا فى العام السابق ولا أثناء التجديد السنوى للتصريح(٧).

وفيما يخص تلك الحجة القوية، بدا أن كارتر يتمسك بقيمة أخلاقية، إلا أن وتيرة رياح التغيير كانت تتسارع وفى اتجاه معاكس لمصالح كارتر، وفى الحقيقة، كان العصر الذهبى للأجانب الباحثين عن الآثار المصرية للحصول على القطع الثمينة المنتقاة لاقتنائها أو بيعها يوشك على الانتهاء والأفول.

وجه توت عنخ آمون

حين حل اليوم الذى سيرفع فيه غطاء التابوت الصخرى الثقيل بغرفة الدفن التى تمت اضاءتها، تجمع ٢٤ فرداً لمشاهدة ذلك الحدث، كان ذلك يوم الثلاثاء ١٢ فبراير ١٩٢٤ فى الثالثة عصراً، كان من بين الموجودين محمد باشا زغلول وكيل أول وزارة الأشغال العمومية، وأعضاء من مصلحة الآثار المصرية، وإدوارد هاركنيس مدير متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وكل فريق كارتر بما فيهم آرثر ميرتون مراسل صحيفة التايمز البريطانية.

وبعد أن رفع الغطاء الهائل الذى بلغ وزنه طناً وربع الطن (حوالى ١٢٧٠ كجم) بضعة سنتيمترات باستخدام عتلات ضخمة، وضعت زوايا حديدية بين الغطاء والصندوق، حتى يمكن تمرير حبال الصلب ورفع الغطاء بالبكرات الرافعة، حتى لا ينكسر إلى أكثر من قطعتين كما وجدوه. وتم رفعه ببطء إلى أحد الجوانب بعيداً عن التابوت الصخرى الضخم،

سجل كارتر تلك اللحظات قائلاً:

«حلت اللحظة التى كنت أتطلع إليـها منذ أن أيقنت أن المقبـرة التى اكتشفتـها هـى مقبرة توت عنخ آمون، وليست مـخزناً لأثاث جنائزى. لم يشعر أى من الحاضرين إلا بجلال المناسبة، وهيبتها، وأهمية آفاق وأبعاد مـا نحن موشكون على رؤيتـه، أى الإطلال عبـر ثلاثة وثلاثين قرناً مـضت لرؤية عادات دفن ملك فى مصر القديمة»(٨).

وبعد إزاحة الغطاء الصخرى الهائل سلط كارتر ضوء الكهرباء داخل التابوت الصخرى، وكان أول ما رآه مخيبًا لآماله، فلم ير غير أنسجة كتانية مهترئة، وبعد أن انتهى هارى بيرتون من تصوير ماداخل الصندوق الصـخرى كمـا ظهـر لهم، بدأ كـارتر فى إزاحـة تلك الأنسجـة ، ولابد أن ماشاهده تحتها بعث برجفة اجتاحت كل بدنه، فقد وجد قناعًا لوجه توت عنخ آمون من الذهب الخالص فوق كفن المومياء التى بلغ طولها بأكفانها حوالى مترين، والقناع مطعم بقطع خزفية وزجاج ملون وأحجار كريمة. كـان القناع يتكئ على حـافـة مـصـورة على شكل أسـد، وعلى الجـانـبين تمثالان لربتى الحماية إيزيس ونيث، وذراعا الملك معقودان على صدره، ويمسك بيديه الصولجان والطرة رمزى ألوهيته، وعلى جبينه رمزا، الربتين نخت ودچيت حاميتى الحكم الإلهى فى الأرضين أى مصر العليا والدنيا، وخلاف تلك الرموز الإلهية، كانت هناك لمسة بشرية إلا أنها كانت بسيطة ومؤثرة، كان هناك إكليل دقيق من الورود، لمسة مؤثرة عميقة المغزى كآخر هبة وداع من أرملة شابة لزوجها الذى رحل عنها، ذلك الزوج الشاب الذى كان يمثل المملكتين (٩).

الإضراب

تصافحت الأيدى وتبودلت كلمات التهانى من حول كارتر وهو يخرج من المقبرة صاعداً الست عشرة درجة، المؤدية إلى الخارج تحت شمس ساطعة دافئة فى ذلك اليوم، وبالرغم من أنه كان يوماً حافلاً بالعمل

المضنى ، انتحى كارتر بمحمد باشا زغلول وكيل أول وزارة الأشغال العمومية جانبًا قبل أن يبدأ رحلة عودته إلى القاهرة؛ ليناقش معه بعض النقاط الهامة المتعلقة بالمؤتمر الصحفى الذى كان سيعقد فى اليوم التالى، كان كل شىء يمضى على خير وجه، وبطريقة عابرة أخبره كارتر عن عزمه ترتيب زيارة لزوجات طاقم العمل لمشاهدة الكفن الذهبى، وأنه يأمل أن يكون ذلك الترتيب مقبولاً، ورد زغلول بأنه لا يرى أى غضاضة فى ذلك ، إلا أنه سيبلغ وزير الاشغال كإجراء احترازى ليس إلا.

ومضى كل شىء على ما يرام، وبعد ليلة هادئة ونوم عميق استيقظ كارتر، وتناول فطوره، وفى السادسة وأربعين دقيقة وصل رسول يحمل رسالة من محمد باشا زغلول يبلغه فيها أن وزير الاشغال لم يوافق على زيارة زوجات طاقم العمل للمقبرة(١٠).

والتهبت نيران غيظه وغضبه، وأحرقته بلا حدود تلك الصفعة التى تلقاها من السلطات المصرية ، واندفع كارتر كالعاصفة إلى المقبرة، وهناك التقى بطاقم فريق العمل الذين ثار سخطهم - أيضا - بعد أن أخبرهم بفحوى الرسالة، وراحوا يتداولون الأمر للتوصل إلى الرد الأمثل على تلك الصفعة، وقرروا أن يعقد المؤتمر الصحفى فى موعده، ويعلنوا بعد انتهائه أنهم لن يعملوا بالمقبرة، ويغلقونها وينفضون أيديهم من أى شىء خاص بها حتى يتم التوصل إلى إتفاق مرضى بينهم وبين وزير الأشغال.

وبالفعل، تركوا الغطاء الصخرى للتابوت معلقاً جانباً كما هو، وأغلقوا المقبرة وأضربوا عن العمل، وفوق ذلك أعلنوا تلك القرارات لمراسلى الصحف المتجمعين بفندق ونتربالاس، وترتب على ذلك موقف على غاية الخطورة، موقف لا يمكن أن يتطور إلا إلى الأسوأ، وفى آخر اليوم تم إبلاغ كارتر أن بيير لاكو رئيس مصلحة الآثار أصدر أمراً لحرس المقبرة ألا يسمحوا لكارتر وفريقه بالاقتراب منها مهما كانت الأسباب. وبسرعة البرق تحولت تلك المشكلة لتصبح العناوين الرئيسية لكل صحف العالم، ونشرت التايمز مقالاً مطولاً تعاطفت فيه مع كارتر، وأبدت تأييدها ودعمها

لموقفه، وانهالت بالنقد والاتهامات على وزير الأشغال المصرى: لإعاقته المهمة العلمية الجليلة التى يقوم بها كارتر وزملاؤه، وعلى نقيضها انتقدت الصحف المصرية موقف كارتر بشدة، وأدانته واتهمته أنه يسلك سلوكاً انتهازيًا يجافى أخلاق المهنة وهو سلوك غير مسئول يهدد مستقبل الكنوز الأثرية المصرية.

وبعد مضى يومين على الإضراب، منعت الشرطة المصرية كارتر من دخول المقبرة، وكان كارتر يحمل نسخ المفاتيح الوحيدة لباب المقبرة الصلب الذى وضع بالمدخل لحمايتها.

وتفاقمت المشكلة، وتصاعدت إلى مستويات أعلى أثناء عقد جلسة تقديم الاستفسارات فى البرلمان البريطانى ، بعد أن أعلن رئيس الوزراء البريطانى فى تلك الجلسة، وكان فى ذلك الوقت رامزى ماكدونالد (١٨٦٦ - ١٩٣٧) أن الحكومة البريطانية لن تتدخل فى تلك المشكلة ، ونصح كارتر أن يحل المشكلة مع الجهات المختصة فى مصر.

إلغاء التصريح

أثناء الإضراب ألغت مصلحة الآثار التابعة لوزارة الأشغال التصريح الممنوح لإسم ليدى ألمينا زوجة كارنرڤون الخاص بإخلاء مقبرة توت عنخ آمون من محتوياتها، وبذلك سحب البساط من تحت أقدام كارتر وفريقه، وأقام كارتر دعوتين قضائيتين ضد وزارة الأشغال العمومية المصرية بالمحاكم المختلطة بالقاهرة، وكان قاضى المحكمة المختلطة أمريكى الجنسية يدعى بييركرابيتس، ونصح وزير الأشغال محامى كارتر ب. م. ماكسويل بإبلاغ كارتر أنه لو أراد أن يحصل على التصريح مرة أخرى، فعليه أن يعلن تنازله عن أى ادعاء بالحق فى أى نسبة من كنوز توت عنخ آمون.

كانت جلسات الدعوى تمضى بصورة جيدة، حتى اتهم المحامى ماكسويل الحكومة المصرية بأنها تسلك سلوك العصابات بعد أن وضعت

يدها على المقبرة، ورأت الحكومة المصرية فى ذلك الاتهام إهانة بالغة، حيث تعنى عصابة فى اللغة العربية (حرفياً) لصوصاً، مما دفع وزير الأشغال المصرى إلى إعلان أنه لن يتفاوض - أبداً - مع كارتر مهما كانت الظروف. وبالرغم من محاولات التوسط بين الطرفين والتى قامت بها شخصيات لها وزنها مثل هربرت ونيلوك من متحف متروبوليتان، وجيمس هنرى بريستد؛ لتنقية الأجواء والتوصل إلى صيغة مرضية للطرفين، إلا أن كل المساعى باءت بالفشل وبقى كارتر بلا عمل، وحاولت مصلحة الآثار المصرية إغراء بعض علماء المصريات لتولى مسئولية المقبرة بدلا عن كارتر، إلا أنهم جميعاً رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً، كان منهم ريكس إنجلباك، والبرت لايثجو أمين متحف متروبوليتان.

حكاية صندوق نبيذ شركة فورتنام وماسون

وحين لم يعد أمام كارتر ما يفعله، غادر مصر فى ٢١ مارس ١٩٢٤ عائدا إلى إنجلترا ماراً بڤينيسيا، كان قد قبل دعوة للقيام بجولة يلقى خلالها محاضرات بالولايات المتحدة وكندا عن الكشف العالمى الذى أذهل العالم، وتقرر لتلك الجولة أن تبدأ فى آخر الربيع، فى ذلك الوقت اكتشفت واقعة مريبة، وكانت مسيئة جداً لسمعة كارتر واسمه، ففى ٢٩ مارس وصل بييرلاكو رئيس مصلحة الآثار المصرية إلى وادى الملوك بأمر من وزير الأشغال؛ لتفقد كل المقابر التى استعملها كارتر وفريقه كمخازن، ومعامل وأماكن لجرد وتصنيف ما يخلى من مقبرة توت عنخ امون، ولإجراء حصر لمحتوياتها، وبمعاونة أربعة من علماء المصريات كان منهم ريكس انجلباك حطم لاكو الباب الخاص بالمقبرة رقم ٤ (والمعروف رسمياً أنها مقبرة رمسيس الحادى عشر)، وكان كارتر يستخدمها كمخزن لمحتويات مقبرة توت عنخ آمون.

وكانت المحتويات التى أخليت من مقبرة توت عنخ آمون قد حصرت وفرزت، وصنفت، ورقمت، وأعدت فى صناديق وحاويات، لشحنها إلى

المتحف المصرى، وعلى كل صندوق رقمه وما يحتويه، وانتقل بييرلاكو ومن معه إلى عمق المقبرة المتربة، ووجدوا صناديق فارغة من صناديق شركة فورتنم وماسون، وهى صناديق متجر شهير بلندن تستعمل للتعبئة ونقل البضائع، كان على أحد تلك الصناديق ملصق كتب عليه «نبيذ أحمر» ويبدو أنه كان يحتوى على شيء ما، ولما فتحه لاكو، وجد جسماً صلباً ملفوفا بلفافات من القطن وأربطة الشاش، ولما فك الأربطة وجد داخلها تمثالا جميلا من الخشب الملون لرأس صبى، كان الرأس كما يبدو من الملامح لصبى فى الثامنة أو التاسعة من عمره تخرج من قاعدة على شكل زهرة لوتس زرقاء متفتحة، كان عملاً فنياً رائع الجمال ويخلب الألباب بدقته وبراعة صنعته ، وكان من الواضح أنها للملك الطفل توت عنخ آمون، فضلا عن ذلك كانت تنتمى لنمط فنى يمكن تمييزه بسهولة على أنه فن مرحلة العمارنة، وكانت تمثيلاً دقيقًا ورائعاً لرأس توت عنخ آمون، أو بدقة أكثر توت عنخ آتون، حين كان مازال يحيا بين أفراد عائلته فى مدينة أخيتاتون.

وكانت هناك جوانب كثيرة مريبة فيما يخص تلك القطعة الفنية الفريدة، فقد كانت بلا أى علامات ترقيم أو حصر أو تصنيف، ولم تدرج نهائياً فى أى قوائم تصنيفية، أو قوائم مصورة من التى أعدت لكل ما نقل من المقبرة، والتى يذكر فيها اسم القطعة، ورقمها التصنيفى، ومكان العثور عليها، ووصف كامل لها والوقت الذى عثر عليها فيه. فما الذى كانت تفعله تلك القطعة غير المصنفة وغير المحصورة ولا المدرجة فى القوائم، والملفوفة بلفافات تخفيها، وموضوعة فى صندوق قديم من صناديق فورتنم وماسون الإنجليزية، ومكتوب عليه نبيذ أحمر؟.

لم يكن بييرلاكو يميل كثيراً إلى كارتر ، إلا أنه بحسن نيه توقع أن يكون هناك تفسير مقبول لوجود تلك القطعة الفنية الفريدة فى ذلك المكان وعلى تلك الحال التى وجدها عليها، وبالرغم من أن زملاءه المصريين كانوا فى حالة ثورة وغضب وغيظ، وأصروا على إرسال برقية عاجلة إلى رئيس الوزراء المصرى لإعلامه بتلك الواقعة المريبة. هدأ لاكو من ثورتهم،

ونصحهم بالتريث، إلا أنهم لم يستجيبوا لنصحه وأسرعوا بإرسال البرقية.

ولم يكتفوا بذلك، بل أعدوا عدتهم لإرسال الرأس إلى القاهرة كجسم للجريمة ودليل على السلوك المشين الذى يتصف به كارتر، وكانوا على يقين أن كارتر أو أحد رفاقه كان يعد العدة لتهريب تلك القطعة إلى خارج مصر، إلا أن الأحداث التى جرت أوقفت العمل بالمقبرة فلم يتمكن الفاعل من إتمام ما انتوى.

فما هى حقيقة ذلك الأمر؟ وهل كانت تلك القطعة الفريدة من مقبرة توت عنخ آمون، أم أنها كانت تنتمى إلى مكان آخر، هل كان كارتر ينوى الاحتفاظ بها مستغلاً التسهيلات التى كان يتمتع بها والمتاحة له فى موقع المقبرة؟ وهل سهى عن تسجيلها وتصنيفها ضمن باقى محتويات المقبرة؟ وهل هو الذى خبأها فى ذلك المكان أم واحد غيره من العاملين معه؟ كل تلك التساؤلات ظلت شكوك قائمة تنتظر من يبدد بعضها؛ لذلك قام هربرت ونيلوك بناء على طلب من بيير لاكو وركس انجلباك بإرسال برقية إلى كارتر الذى كان فى إنجلترا فى ذلك الوقت يعلمه فيها بتفاصيل الواقعة، وينتظر رداً منه يجلى حقيقة الأمر، وجاء رد كارتر ليثير مزيداً من الشكوك لا مبددا ما كان موجود منها، فقد ادعى أنه عثر على تلك الرأس مدفونة بين أكوام الرمال التى كانت تسد دهليز المقبرة، وأنهم عثروا عليها أثناء إخلاء تلك الرمال فى نوفمبر ١٩٢٢، أما فيما يختص بعدم تسجيلها وتصنيفها فقد رد على ذلك بأن كل ما عثر عليه كان يجرى تصنيفه أولا فى مجموعات قبل أن يتم تسجيله، وأن تلك القطعة كانت بانتظار التقييم النهائى، ثم كانت ستسجل بعد ذلك.

ولم تشف إجابات كارتر غليل التساؤلات المليئة بالريب والظنون، فحتى لو صح ما قاله إلا أنه لا يفسر سبب إخفائها داخل أربطة شاش وبين لفائف القطن، ووضعها فى صندوق فارغ كتب عليه «نبيذ أحمر»، هذا عدا أن كل القطع المتناثرة التى عثر عليها بين أكوام رمال المدخل كانت قد صنفت وسجلت، فلماذا استثنيت تلك القطعة؟ عدا ذلك نشر

كارتر فى الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، والذى اشترك معه ميس فى كتابته ، قائمة بالقطع التى عثر عليها بين الرمال ، فلماذا خلت تلك القائمة من أى ذكر لذلك التمثال مادام قد عثر عليه بين رمال المدخل؟

وعدا كل ذلك، أنكر كل أفراد الفريق الذى كان يعمل معه أى علم لهم بتلك القطعة أو رؤيتهم لها قبل ذلك.

وما أغلق أمامه أى فرصة للتبرير أنه كان يزود جريدة التايمز بأنباء كل صغيرة وكبيرة من القطع المكتشفة، ولم يثبت أنه أتى على ذكر تلك القطعة فى أى وقت قبل اكتشاف وجودها مخبأة بالصندوق على تلك الحال.

إن حقيقة انتماء تلك القطعة الفنية الفريدة إلى مرحلة العمارنة، وربطها الوثيق بين طفولة توت عنخ آمون وإخناتون من الحقائق التى لا يمكن إغفالها لمغزاها الهام، فالأدلة على ترعرع توت عنخ آمون بتل العمارنه ليست كثيرة، وكانت تلك القطعة أحد المفاتيح الهامة التى تثبت ذلك.

فضلا عن ذلك، فإن الرأس التى تبزغ من بين أوراق زهرة اللوتس الزرقاء إنما تحاكي بزوغ شمس الإله آتون من الأفق، كما بزغت لأول مرة من الركام الأول عند الخلق الأول للوجود، وهى ترمز أيضًا إلى أن توت عنخ آمون كرس ليكون ملكاً حتى قبل موت أخناتون مما يؤكد انحداره من سلالة ملكية.

وأخيراً، هناك حقيقة بسيطة أخرى، وهى أن مثل تلك القطعة الفنية لا يمكن أن توجد بين أكوام الرمال، والأتربة التى كانت تسد مدخل المقبرة الداخلى، فكل ما عثر عليه فى تلك الرمال إما مخلفات لصوص كانوا يحاولون دخول المقبرة، أو آنية محطمة اختلطت أجزاؤها المكسورة بالرمال وتفرقت، كان ما يسعى إليه لصوص المقابر هو الذهب والمجوهرات والعطور، أو كل ماله قيمة، ويمكن وضعه فى طيات الملابس؛ ليتمكنوا من الخروج به من خلال أنفاق وفتحات ضيقة تتسع بالكاد

لأبدانهم التى يدفعونها من خلالها دفعاً، ولا يوجد لديهم أى دافع لسرقة رأس خشبية ملونة ليس لها قيمة مالية من وجهة نظرهم، بالإضافة إلى ذلك، سجل توماس رأيه فى تلك الواقعة قائلا:

«من الصعب تصديق أن الكهنة المصريين القدماء الذين رجعوا مرتين إلى المقبرة؛ لضبط محتوياتها على النسق المطلوب والمرغوب، بعد محاولة اللصوص الأولى لسرقة المقبرة، قد تركوا تلك الرأس الطقسية التى ترمز للملك على أنه إله الشمس ملقاة بين الرمال فى المدخل، ثم يهيلون عليها مزيدا من الرمال والأتربة لإغلاق المدخل بلا أى مبالاة بها»(١١)

ولم يمنع الرد الرسمى لكارتر الخالى من أى منطق بييرلاكو من قبوله على ما هو عليه. ربما كان يتحاشى بكل السبل تصديق أن أحد أشهر وأكبر باحثى الآثار المصرية كان يحيك المؤامرات والحيل؛ للاستيلاء على رأس زهرة اللوتس...؛ وبشكل ما ، راح بييرلاكو يقنع وزارة الأشغال العمومية أن كارتر كان صادقًا فيما ذكره، وبعدها تم التغاضى عن تلك المشكلة، إلا أنها تركت أسوأ الأثر فى نفس فريق كارتر الذى عمل معه، فقد صدمهم كما صدم غيرهم أن صديقهم وزميلهم الذى يثقون بأمانته، قد أقدم على هذا السلوك لصالحه الشخصى.

وكان كل من يعلم بتلك الواقعة يتساءل عما تفعله رأس الملك الطفل الملونة البازغة من زهرة اللوتس كما تبزغ الشمس من الأفق فى صندوق قديم من صناديق متجر فورتن وماسون، فهل كان كارتر ينتوى شحنها إلى إنجلترا ليضمها إلى مجموعته الخاصة، أم كان ينوى بيعها إلى أحد جامعى المقتنيات الخاصة؟، ومن جهة أخرى، هل كان صادقًا فيما ادعاه أن تلك القطعة التى لاتقدر بثمن كانت بانتظار تصنيفها وتسجيلها؟. للتوصل إلى إجابة شافية تجلى جوانب تلك الواقعة الملغزة والفضيحة المخجلة لابد من الرجوع إلى المقال الذى كتبه الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس عام ١٩٤٢ عن محتويات المقبرة، التى كان على دراية كاملة بها من أول مبتدئها حتى آخر قطعة منها.

١٣ـ لصوص المقابر

لم يعرف الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس على وجه اليقين إن كانت الفتحة المؤدية إلى غرفة الدفن مفتوحة أم مغلقة حين دخل هوارد كارتر ولورد كارنرفون الغرفة الخارجية لأول مرة، واعتقد أن إغلاقهما تلك الفتحة كما أخبراه، كان لصالح المقبرة وماتحتويه من نفائس ، وكانت تلك المسألة فى حد ذاتها كما ذكر فى أول مقالين بحثيين كتبهما لسجلات مصلحة الآثار، والمنشورين عام ١٩٤٢ أنه أمر «لا يستحق الذكر»، إلا أن ماله مغزى آثارى وأخلاقى يرتكز على أصل تلك الفتحة وعلى مغزى إغلاقها أيضا(١).

و«تلك الحقيقة» تشكل أهمية عظمى فى تقييم لوكاس لأعمال كارتر وكارنرفون فى مقبرة توت عنخ آمون، خاصة فيما يتعلق بظهور بعض صناديق العطور التى كانت موجودة بين الحوامل التى كان القناع الذهبى يرتكز عليها فوق جثة الملك فى التابوت الجرانيتى الوردى(٢)، والمسألة موضع التساؤل المهذب تتعلق بصندوق من الذهب والفضة رائع الصنع دقيق الصياغة مخصص لحفظ الدهون العطرية، ويصل ارتفاعه إلى ١٥ سم، وصنفه كارتر فى القائمة على أنه أخرج من المقبرة فى موسم عمل ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦(٨).

وطبقا لما ذكره لوكاس لا يمكن أن يكون صندوق العطور ذاك قد وجد داخل التابوت كما ذكر كارتر، وسجل عن ذلك:

رأيت ذلك الصندوق فى بيت كارتر (القريب من وادى الملوك) قبل فتح غرفة الدفن رسمياً (الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣)، ومن الثابت أنه أخذه حين دخل هو وكارنرفون إلى غرفة الدفن خلسة قبل فتحها رسمياً(٤).

ويرى لوكاس أن ذلك الصندوق إما كان خارج أو داخل المقصورة الخشبية الأولى الخارجية، ويرجح أنه كان داخلها(٥)، أى : أنه استولى عليه قبل أن يعيد إغلاق باب المقصورة الخشبية الأولى وهو يفتح الباب المزدوج للمقصورة الثانية، وأضاف الكيميائى البريطانى:

ذلك الصندوق وقطع أخرى غيره، بما فيها كوب من المرمر (مصور فى اللوحة رقم ١٤ فى الجزء الأول من الثلاثية التى أصدرها كارتر) وبعض القطع من الحلى المكسورة والتى عثر عليها فى أرض غرفة الدفن، نقلت إلى بيت كارتر بدافع المحافظة عليها وتأمينها حتى الانتهاء من تصنيع باب من الصلب على مدخل المقبرة، وقد أراها لبييرلاكو مدير مصلحة الآثار المصرية، وتم نقلها بعد ذلك إلى المقبرة ، وظلت بها حتى نقلت إلى القاهرة (٦)، ومن الواضح – طبقاً لهذه الشهادة – أن كارتر وكارنرفون ، بحضور ليدى إيفيلين وبيكى كاليندر، قررا نقل بعض القطع من المقبرة بعد دخولهما خلسة إلى غرفة الدفن، وغرفة الكنوز (المخزن) فى نهاية نوفمبر ١٩٢٢.

وحيث إنه كان من المستحيل معرفة أى معلومات عن أى من المحتويات الموجودة داخل غرفة الدفن المغلقة، والتى لم تكن قد افتتحت بعد، ولم تفتح إلا فى ١٦ فبراير ١٩٢٣، ظل كارتر مجبراً على الاحتفاظ بتلك القطع فى بيته إلى ما بعد الافتتاح الرسمى قبل أن يعلن أى شىء عنها، وهو إما أعاد بعض القطع ووضعها بعناية ليتيح الفرصة «لاكتشافها»، أو أنه ادعى ببساطة بعد ذلك فى وقت لاحق أنه عثر على كل منها فى الموضع الذى يرى أنه من الملائم ادعاء وجودها به، وهذا ما حدث فيما يخص الصندوق الذهبى الذى ادعى أنه عثر عليه داخل التابوت الجرانيتى.

وحتى إن لم يكن هناك غير ذلك من قطع ، فإن هذا السلوك من كارتر ليس قويماً، إن لم يكن غير أمين، خاصة فى وقت كان يبذل فيه علماء المصريات قصارى جهدهم لإعادة تقويم معلوماتهم عن طقوس الدفن من كل الأدلة التى يمكنهم الحصول عليها من مقبرة توت عنخ آمون كمقبرة

ملكية وجدت مكتملة لم تمس، إلا أن كارتر اعترف بشكل علنى لبعض الشخصيات مثل بييرلاكو أنه نقل بعض قطع من المقبرة ليحتفظ بها لنفسه.

كانت الفرصة متاحة قبل تركيب البوابة الحديدية للصوص المعاصرين ممن يفترض أنهم حماة، للإغارة على المقبرة ونهب بعض ما يمكنهم نهبه من محتوياتها.

وإن كانت تلك القطع هى ما هم كارتر وكارنرفون المحافظة عليها من السرقة فلماذا تركا بالمقبرة الكثير من القطع الأخرى التى لا تقل قيمة أو أهمية، بل تزيد فى الأهمية والقيمة؟

لماذا اختارا بعض المشغولات المعينة وتركا غيرها بالمقبرة؟ الإجابة الوحيدة المقبولة هو افتراض أن تلك القطع التى نقلت من المقبرة إلى بيت كارتر القريب لاقت قبولاً وإعجاباً شخصياً منه، أى راقت لعينه، وكانت سهلة الحمل والنقل، ومهما كانت دوافعهما فقد أعيدت تلك القطع ، مما أشاع الراحة فى نفوس أعضاء الفريق ومنهم الفريد لوكاس، وربما كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد بعد إرجاع القطع، لو لم تكن هناك قطع أخرى تم الاستيلاء عليها، ويعتقد أنها تنتمى إلى محتويات مقبرة توت عنخ آمون.

الكنوز الضائعة

كان من المعروف من زمن بعيد أن هوارد كارتر وكارنرفون قد نقلا بعض القطع من المقبرة، وأن تلك القطع لم تصل أبداً إلى المتحف المصرى، ولم تعرف طريقها إليه ضمن القطع التى نقلت ويصل عددها إلى ٣٧٠٠ قطعة موجودة به حتى اليوم.

على سبيل المثال : يصف كارتر فى ملاحظاته مجموعة من المحتويات تم حجزها لأغراض علمية، وتضم تلك المجموعة ١٧ قطعة، وانتهى بها المطاف آخر الأمر فى متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وكانت ضمن

المقتنيات الخاصة لكل من هوارد كارتر ولوردكارنرڤون التى كوناها أثناء حياتهما (انظر ما يلى)(٧).

لم تكن هناك قطع ذات قيمة فنية علمية من بين تلك القطع التى احتجزت لأغراض علمية، قبل كانت قطعاً بسيطة مثل : «كأس ملىء بسائل تحنيطى جفت بقاياه»، قطعتان من الخشب المكسور المذهب من المقصورة الداخلية الرابعة، قطعة من القماش المهترئ بقيت من طقوس الدفن الملكى، نسيج كتانى من جوال كان موجوداً بين جدارى المقصورة الأولى الخارجية، والثانية مزق من بساط كان يغطى أرض غرفة الدفن، وقطعة من حجر المرو الوردى من التابوت الصخرى(٨)، وكانت أغلب تلك القطع - إن لم تكن جميعها - معروضة ومعلناً عنها منذ أن أخرجت من المقبرة بالرغم من معارضة متحف متروبوليتان الإفصاح عن مصدرها الذى تنتمى إليه.

وقد قام عالم المصريات الأمريكى توماس هوڤينج بتقديم دراسة وافية عن تلك القطع وغيرها فى كتابه «توت عنخ آمون - القصة الخفية»، الموجودة بالمتاحف خارج مصر، وأثبتت أنها تنتمى إلى مقبرة توت عنخ آمون، وسجل قوائم طويلة منها لا يتسع لها العقل، إلا أن ذكر بعضها على سبيل الاستدلال هام وضرورى لموضوع هذا الكتاب مثلاً، هناك إظفران من الفضة مسجل عنهما فى بطاقات حفظ متحف مترو بوليتان أنهما كانا فى الطبقة الثانية للكفن داخل التابوت الحجرى ، وكان مصدر أحدهما للمتحف المجموعة الخاصة لكارنرڤون بينما كان هوارد كارتر مصدر الثانى(٩).

وعدا الإظفران الفضيان موجود أيضا بالمتحف إظفران ذهبيان كانا بالكفن فى الطبقة الثالثة، والمحتمل أن مصدرهما للمتحف كان هوارد كارتر، بينما نجد زهرة برونزية مذهبة كانت على المقصورة الثانية وتم شراؤها من كارتر مباشرة عام ١٩٢٥(١٠). عدا ذلك، يوجد بالمتحف عقد من الخزف الثقيل يعتقد أنه كان موجوداً بالغرفة الخارجية(١١)، وكذلك

تمثـال برونزى لجرو صـغيـر دقيق الصنع فائق الجمـال يدل على مـهارة وإتقان الصانع ، ورأس الكلب تستدير فى رقة للخلف(١٢). ويعتقد أنه - أيضاً - كان من محتويات الغرفة الخارجية، إلا أنه كما يذكر هوڤنج: «لو أخذنا فى الاعتبار آلاف القطع الفنية الرائعة من مقبرة توت عنخ آمون، والتى بقيت فى مصر بالمتحف المصرى فإن القطع التى خرجت بطرق غير مشروعة لاتشكل إلا حماقة»(١٣).

مجموعة كارنرڤون

لسوء الحظ لا تنتهى القائمة بما ذكرناه سابقاً، فبعد ثلاثة أعوام من موت لورد كارنرڤون عام ١٩٢٣ قام مدير أعماله نيابة عن زوجته ألمينا كونتيسة كارنرڤون ببيع مجموعته الفريدة من الآثار المصرية، والتى قام بجمعها على مدى زمنى يصل إلى عشرين عاماً، وبالرغم من أن فنيى متحف متروبوليتان للفنون كانوا العمود الفقرى لفريق كارتر إلا أنه لأسباب معينة أوصى كارنرڤون فى وصيته أن تعرض مجموعة مقتنياته على المتحف البريطانى أولا، فإن رفضها تباع لغيره، ولم يكن بقدرة أحد التكهن بتلك الأسباب فقد كانت رغبته واضحة أن تنتقل تلك المجموعة بعد موته إلى زملائه الأمريكيين، لذلك تفتق ذهن مدير أملاكه ومحاميه عن خطة أريبة، وهى أن يذهب محاموه دون سابق موعد فى العاشرة صباحاً إلى المتحف البريطانى، ويطلب من أمين المتحف أن يقدم عرضه لشراء المجموعة، وأن المهلة المتاحة له حتى الرابعة من مساء اليوم نفسه والدفع نقداً، ومن الواضح أن الهدف كان تعجيز المتحف حتى يتمكن متحف متروبوليتان من شراء المجموعة التى دفع مقابلها ١٤٥٠٠٠ دولار أمريكى، وكان المبلغ يعد فى ذلك الحين مبلغاً باهظاً (مايساوى حاليا ١٤مليون دولار) بالرغم من يقين المتحف أن من بين تلك القطع المصنفة فى قوائم مصورة قطعاً منتقاة بعناية من مقبرة توت عنخ آمون.

إحدى تلك القطع والتى ترد بسهولة إلى الذهن تمثال من العاج

لحصان واثب له معرفة سوداء منحوتة بدقة مبهرة، والحصان بنى اللون مشرأب، والعينان من عقيق أحمر، لم يبق منهما إلا عيناً واحدة، وهناك - أيضا - تمثال لغزال من العاج فائق الجمال يقف على قاعدة مزينة وملونة، وكلا التمثالين مصنفين فى الدليل المصور الذى أعده كارنرفون بعناية قبل موته وصنفهما على أنهما مثال لفن الأسرة الثامنة عشرة من الأعمال الملكية الفنية فى طيبة، وهى الأسرة التى ينتمى إليها منها توت عنخ آمون(١٤)، وهذا التصنيف تدعمه حقيقة فنية مؤكدة، وهى أن الحصان قد صنع وهو فى وضع فنى يطلق عليه الوثب الطائر، وهو أحد أشكال الحركة التى لم تظهر فى الفن المصرى إلا فى عصر العمارنة، فهل كانت تلك هى الوسيلة التى يلمح بها كارنرفون أنها قطع من مقبرة توت عنخ آمون دون أن يذكر ذلك صراحة، حتى لا يكون اعترافاً منه بسرقتها ؟ هناك إشارة سابقة وردت فى رسالة من كارنرفون إلى كارتر بعد سفرالأول من مصر إلى إنجلترا ومؤرخة ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢، أى بعد دخولهما غير المشروع إلى غرفة الدفن، فى بداية الرسالة ، حدثه عن صفوة المجتمع الذين جاءوا لزيارته فى هايكلير لتهنئته على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وبعد ذلك انتقل إلى ذكر أنه وضع الغزال الأفريقى والحصان - اللذين اشتراهما من القاهرة - فى خزانة زجاجية، وأنهما يبدوان رائعين و«يبدو لى بعد فحصهما بدقة أنهما من العصر المبكر للأسرة الثامنة عشرة من منطقة سقارة»(١٥).

وبمعرفة أن كارنرفون أعد الدليل المصور لتلك الكنوز الفنية كمثال على فنون الأسرة الثامنة عشرة الطيبية والمتفق على أنها فنون العمارنة، فمن الواضح أن إشارته إلى أن مصدر تلك القطع ربما يكون سقارة ليس إلا مزحة، لا يفهم مغزاها إلا هو وكارتر، أما عبارة اللذين اشتريتهما من القاهرة فالغرض منه التضليل على مصدرهما الذى يعرفانه سويا، فالعلاقة منعدمة تماماً بين الأسرة الثامنة عشرة، ومنطقة سقارة التى تقع جنوب القاهرة، فقد هجرت الأسر الحاكمة سقارة من بداية الأسرة

الثامنة عشرة. والأرجح أن تمثالى الغزال والحصان قد أخذا من غرفة دفن توت عنخ آمون قبل عودة كارنرڤون إلى إنجلترا فى بداية ديسمبر عام ١٩٢٢.

وضمن مجموعة كارنرڤون التى اشتراها متحف مترولوليتان لوحة تلوين ولوح عاجى يستخدم للكتابة، به فرشتان من البوص، والسطح الداخلى للوح الكتابة يحمل نصاً محفوراً يذكر: «ابنة الملك من بدنه، محبوبته ميريت آتون، ولدتها أمها الزوجة الملكية العظيمة نفرن فراتون نفرتيتى، التى تحيا دائماً وأبداً » (١٦)، وكانت ميريت آتون الابنة الكبرى لأخناتون ونفرتيتى وزوجة سمنخ كارع والأخت غير الشقيقة لتوت عنخ آمون.

وقد سأل ألبرت لايثجو من متحف متروبوليتان كارتر عن مصدر رقعة التلوين ولوح الكتابة فأجابه «من مقبرة أمونحتب» (١٧)، ويقصد أمونحتب الثالث إلا أن كارتر كان قد أشرف على إخلاء تلك المقبرة الشهيرة، والتى لم يتبق بها إلا منتجات فنية قليلة جدا، وكان ذلك على أى حال عام ١٩١٥، وحيث إن لورد كارنرڤون كان قد حصل على القطعتين المذكورتين قبل موته عام ١٩٢٣ مباشرة، فمن الأرجح أنهما كانتا من مقبرة توت عنخ آمون، كذلك تشمل المجموعة - التى اشتراها متحف متروبوليتان من مقتنيات كارنرڤون عام ١٩٢٦، والمشكوك أن مصدرها مقبرة توت عنخ آمون - خاتمين من الخزف يحملان الاسم الملكى لتوت عنخ آمون وهو نب خبر ورع، وكانا موجودين بالغرفة الخارجية (١٨)، طبقا لما سجله كارتر بنفسه.

مجموعة كارتر

هناك مجموعة أخرى تنتمى إلى مقبرة توت عنخ آمون، وأصبحت ملكاً لمتحف متروبوليتان بعد أن ظلت فى حوزة كارتر ضمن مقتنياته الخاصة حتى مات عام ١٩٣٩. من بين تلك القطع صندوقان من العاج لأدوات

التجميل منحوته على شكل بط وأعناقها مستديرة إلى الخلف، وتمس رؤوسها أجنحتها اليسرى، وهى كلها من سمات فن العمارنة، وهناك أيضا زهرية لحفظ العطور من المرمر يصل ارتفاعها إلى ٧.٥ سم مزخرفة بزجاج أزرق وأرجواني، وأوراق مذهبة، وشجر مزهر، ومزينة بزجاج بركاني أسود، ورسوم لفتيات على أزهار اللوتس وهى تماثيل فنون ما بعد العمارنه، والزهرية مسجلة بالمتحف على احتمال أنها من مقبرة توت عنخ آمون (١٩)، وهناك قطعة أخرى اشتراها المتحف وكانت ضمن مجموعة هوارد كارتر عام ١٩٤٠، وهى لكلب صيد يركض مصنوع من العاج له فك سفلى متحرك وطوق حول رقبته، ويبدو أنه صنع كلعبة، وهناك يقين أنه هو الآخر من مقبرة توت عنخ آمون (٢٠).

ويوجد - أيضاً - فى قسم المصريات بمتحف متروبوليتان خاتم ذهبى محفور عليه خرطوش توت عنخ آمون اشتراه أمين المتحف إدوارد هاركنس عام ١٩٢٢، ولما فحص توماس هوفنج بطاقة بيانات الخاتم تبين له أن الخاتم كان قد انتقل ما بين أكثر من بائع ومشتر فى سوق آثار القاهرة من عام ١٩٥١(٢١)، إلا أن الحقيقة أن ذلك الخاتم ظهر فجأة بعد أيام من دخول كارتر وكارنرفون الغرفة الخارجية، وغرفة الدفن الداخلية خلسة مما دفع بهوفنج إلى القول: «لا يوجد أدنى شك أن ذلك الخاتم قد وصل إلى هاركنس إما من لورد كارنرفون أو من هوارد كارتر كأحد القطع الرائعة التى اكتشفوها»(٢٢). كل قطع مجموعة كارتر التى يعتقد أنها من مقبرة توت عنخ آمون شقت طريقها بعد موته إلى متاحف أخرى غير متحف متروبوليتان بنيويورك، على سبيل المثال : يوجد تمثال برونزى رائع لنمر، له عينان من الصخر البلورى بمتحف مدينة سينسيناتى للفنون، وتمثال آخر لقط أسود من الهيماتايت بمتحف كليفلاند للفنون(٢٣)، بالإضافة إلى تلك القطع، هناك ثلاث قطع من رقائق الذهب مزينة بالترتر الملون عليها خرطوش مزدوج يحمل اسم عنخ خبرو رع ونفرن فرو آتون أى سمنخ كارع معروضة بمتحف نلسن - آتكن للفنون

بجامعة ميسورى بمدينة كانساس، ودار خلاف أكاديمى حول تلك القطع انتهى بقبول الجامعة لها على أنها من مقبرة توت عنخ آمون بعد أن ثبت أنها كانت بين سبع وأربعين قطعة مماثلة، كانت مثبتة على رداء من الكتان اكتشف بالغرفة الخارجية للمقبرة(٢٤)، وعليها اسم نفرن فرو آتون، بالرغم من وجودها بشكل مغاير قليلا، وهناك قطع أخرى غيرها تشبهها أو تختلف عنها قليلا بالمتحف الملكى الاسكتلندى بأدنبره(٢٥).

وتوجد بمتحف بروكلين قطع فريدة أخرى، منها عقد حباته من الخزف يماثل ذلك العقد الذى اشتراه متحف متروبوليتان من هوارد كارتر مباشرة عام ١٩٣٥، وزهرية صغيرة مطعمة بالزجاج الأزرق، وتمثال لفتاة عارية من العاج، وملعقة من العاج - أيضاً - كذلك نموذج الجرادة المصنوع من العاج، والمعار لمتحف بروكلين من عام ١٩٤٧ يعتقد أنه ينتمى - أيضاً - لمقبرة توت عنخ آمون وكان من مقتنيات جونيول، وكان قد اشتراه من مقتنيات كارتر الخاصة بعد وفاته (٢٦)، كل تلك القطع التى عرضناها تتوافق، وتحمل صفات وسمات الطرز الفنية التى سادت نهاية مرحلة تل العمارنة، ولا يوجد أى شك حول مصدرها ، وهو ما وافق عليه چون كونى(٢٧)، الأمين السابق لقسم المصريات بمتحف بروكلين.

أيدى اللصوص

حين راجع هوارد كارتر الكنوز الموجودة بصناديق المجوهرات وقارنها بقائمة محتويات المقبرة، التى سجلت أثناء دفن توت عنخ آمون، وجد أن ٦٠٪ من المجوهرات والأوانى المصنوعة من معادن ثمينة لم يظهر بالمقبرة(٢٨)، إلا أنه من غير المعروف إن كان لصوص المقابر فى العصور القديمة قد نهبوها أم أن كارنرڤون وكارتر وليدى إيڤيلين قد استولوا على الأقل على نسبة منها حين دخلوا بطريقة غير مشروعة إلى غرفتى الدفن ومخزن الكنوز فى أواخر شهر نوفمبر عام ١٩٢٢، وقد نجد مفتاحا لإجابة ذلك التساؤل عند مقارنة حالة الفوضى التى وجدت عليها الغرفة

الخارجية والغرفة الملحقة بها، بحالة النظام النسبى التى كانت عليه غرفة الدفن وغرفة الكنوز الملحقة بها، وهو ما يدل على أن اللصوص لم يمكثوا فيهما إلا وقتا قصيراً.

فى الجزء الأول من كتاب كارتر «مقبرة توت عنخ آمون» الذى اشترك معه ميس فى كتابته، ذكر أن الغرفة الخارجية والصغرى الملحقة بها قد تعرضتا لعبث شديد على أيدى اللصوص القدماء، فكلا الغرفتين وعلى الأخص الغرفة الملحقة وجدتا على حالة من الفوضى الشديدة، نتجت عن البحث المتعجل عن المعادن الثمينة والمجوهرات على ضوء مصباح شحيح النور، كانت الصناديق قد فتحت وبعثرت محتوياتها على الأرض لإلتقاط الثمين منها، وبعدها أسرع كهنة مدينة الموتى بإغلاق الغرفة الخارجية فى تعجل دون أن يهتموا بإعادة ترتيب محتوياتها، ولا بوضع الأشياء الهامة فى مواضعها التى كانت عليها، بينما تركوا الغرفة الملحقة على فوضاها الشديدة وصناديقها مقلوبة ومفتوحة، والأثاث مبعثر، والآنية متناثرة فى كل أنحائها، وكما يلاحظ أى منا حين يرجع إلى بيته ليجده قد تعرض لاقتحام اللصوص ، فإن أول ما يسترعى نظره حالة الفوضى واللانظام الذى يتركه اللصوص خلفهم، ولكن، لماذا لم تتعرض الغرفتان الأخريتان ، أى : غرفة الدفن وغرفة الكنوز الملحقة بها إلى ما تعرضت له الغرفة الخارجية والغرفة الملحقة بها؟ بالرغم من ذلك نجد كارتر مصمماً على أن اللصوص القدماء دخلوا المقبرة حتى غرفة الكنوز الملحقة بغرفة الدفن، وسجل فى كتابه:

لقد دخل اللصوص تلك الغرفة الصغيرة دون أدنى شك، إلا أنهم لم يقوموا بأكثر من فتح الصناديق، والسلال المحتوية على مجوهرات ومشغولات ثمينة، وتناثرت بعض القطع الصغيرة وحبات الخرز نتيجة لذلك، كذلك تحطمت بعض الأغطية التى أزيحت عن أماكنها ، وتدلت لفائف كتان من فوهات الأوعية والصناديق المفتوحة، وقلبت آنية وصناديق، وكان المشهد كافيا من النظرة الأولى لأن تدرك منه أن

اللصوص كانوا هنا(٢٩).

وعلى ضوء حقيقة أن كارتر وكارنرفون قد استحوذا على قطع مجهولة العدد من المقبرة قبل فتحها رسمياً، لا يستغرق الأمر لحظة لاستنتاج أنهما من قاما بفتح السلال والصناديق، واستوليا منها على القطع المنتقاة، وتركا خلفهما - عن قصد - من الشواهد ما يتيح لهما الادعاء بأن لصوص المقابر هم من قاموا بذلك، وبالرغم من كل ذلك، من أين أتت ابنة أخ كارتر بكل تلك المشغولات الذهبية والخزفية الخاصة بتوت عنخ آمون والتى ورثتها عن كارتر بعد موته ؟ وبافتراض أن لصوص الآثار القدماء قد فتحوا فتحة إلى غرفة الدفن من خلال الغرفة الخارجية كما ادعى كارتر، فهل كانوا سيتعاملون باحترام زائد مع محتويات تلك الغرف مع أن ذلك ليس من شيم لصوص المقابر القدماء والمحدثين على السواء؟ فوق ذلك هناك أدلة أخرى تنفى مزاعم كارتر، فعلى أرض غرفة الدفن وفى المسافة الضيقة المحصورة ما بين المقصورة الخارجية وحائط غرفة الدفن، صف الكهنة المصريون قطعا كثيرة مختلفة من الأثاث الجنائزى من آنية فخارية وخزفية وأعمدة رمزية لأنوبيس وضعت جميعها قائمة منتصبة مع أدوات طقسية أخرى، كما وضعوا بمحاذاة الحائط الشمالى على الأرض أحد عشر مجدافاً مقدساً؛ ليستعملها الفرعون فى رحلته إلى الحياة الأخرى، وأمام الحائط الشرقى وجد مصباحان دقيقا الصنع من المرمر الجيرى الرقيق، وسلتان من خوص النخيل الجاف ومن نبات البردى، وأوزة خشبية، ووعاء للنبيذ (انظر الشكل ٩).

وأى لصوص يقتحمون غرفة الدفن لابد أن يشقوا طريقهم إلى داخلها عبر تلك المسافة الضيقة المحصورة بين المقصورة الخارجية والحائط المقابل؛ ليصلوا إلى غرفة الكنوز، ذلك الممر الضيق المحتوى على المصابيح المرمرية الدقيقة والسلال إلا أنه لم يظهر على أى من تلك القطع بعد فتح المقبرة رسميا فى فبراير عام ١٩٢٣ أى أثر لدهسها أو انقلابها لم تخدش ولم يتحطم أى منها، وينطبق الأمر نفسه على ما فى القطع الموجودة

أسفل الجدار الغربى والشمالى.

كأن كارتر وكارنرڤون كانا يريدان أن نصدق أن لصوص المقابر فى تعجلهم للاستيلاء على النفائس، راحوا بكل صبر وإناة يحكمون مواضع أقدامهم وخطوهم ويتخطون فى حذر شديد كل القطع المصفوفة على أرض غرفة الدفن دون أن يحطموا، أو يقلبوا ما هو قائم على ضوء المصباح شحيح الضوء الذى كان بحوذتهم. وهل تمكنوا بذلك الحذر الشديد من الوصول إلى غرفة الكنوز الملحقة بغرفة الدفن وقاموا بفتح صناديق وسلال منتقاة، اختاروا منها قطعا بعينها قبل أن يعودوا أدراجهم بنفس الحذر والحرص على المقتنيات الموجودة على الأرض، حتى لا يقلبوا شيئا منها؟

لا يبدو ذلك منطقيا ولا معقولا بأى شكل كان .

لقد كان كارتر وكارنرڤون وربما ليدى يڤيلين أيضا ، لا اللصوص القدماء، من قام بسرقة الجانب الأكبر من نسبة الستين بالمائة من المجوهرات، والقطع النفيسة المفقودة، ومازالت هناك خارج الأطر الرسمية قطعًا صغيرة دقيقة تحتاج إلى تحديد هويتها، ومازالت قطعًا أخرى بحوزة عائلات وأفراد حصلوا عليها من عقود مضت، ذلك الإرث الباطل الذى لم يظهر إلى الوجود إلا بعد أن لحق هوارد كارتر بتوت عنخ آمون إلى العالم الآخر.

موضوع فيليس ووكر

بموت كارتر عام ١٩٣٩ وجد من بين ما أصبح إرثاً لابنة شقيقه فيليس ووكر خمسة خواتم من الذهب والخزف، ولما تأكد لها أن تلك الخواتم تحمل خرطوش توت عنخ آمون، أصابها الفزع وقررت إعادتها إلى فاروق ملك مصر فى ذلك الوقت(٣٠)، وضمت تلك القطع إلى مجموعة فاروق الخاصة والتى كانت تضم زنارًا ذهبيًا عليه نقش للملك الصغير فى عربته، وكان كارنرڤون قد أعطاه للملك فؤاد أبى الملك فاروق، وقد أعيدت

كل تلك الكنوز إلى المتحف المصرى قبل نفى الملك فاروق من مصر عام ١٩٥٢(٣١).

إن حقيقة احتواء مجموعة كارتر من المصريات القديمة على مقتنيات كثيرة من مقبرة توت عنخ آمون لم تك خافية، وتبدى صداها فيما كتبه كريستوفر سى لى كاتب قصة حياة آرثر س. ميس مساعد كارتر والكاتب المشارك له فى الجزء الأول من كتاب مقبرة توت عنخ آمون، والذى مات عام ١٩٢٩، وفى قصة حياة ميس التى كتبها لى عام ١٩٩٢. ذكر تلك الزيارة التى قامت بها أرملة ميس بصحبة ابنتها مارجريت أور لزيارة كارتر فى بيته بلندن. وطبقا لما ذكره لى، كانت مارجريت ماتزال تتذكر أن أمها غادرت بيت كارتر فى حالة نفسية سيئة، وغضب شديد، وهى تكرر فى استياء: ليس من حقه أن يستولى على تلك الأشياء(٣٢). ولم يساور لى أى شك فى أن ما كانت تعنيه بـ «تلك الأشياء» ليس إلا الآثار النفيسة التى استولى عليها من مقبرة توت عنخ آمون .

حالة ريتشارد بيتيل

وأخيراً، نصل إلى ما ذكره الكونت لويس هامون، قارئ الطالع، وقارئ الكف الذى اشتهر باسم كيرو، ففى سيرته الذاتية التى نشرها تحت عنوان قصص واقعية والمنشورة عام ١٩٣٤، يذكر أنه بعد أن بعث برسالته التحذيرية إلى لورد كارنرفون ألا يخرج أى شىء من مقبرة توت عنخ آمون، تجاهل لورد كارنر ڤون نصيحته واستولى على كثير من الذخائر المقدسة من المقبرة، ونقلها إلى إنجلترا، وربما كان استولى على أكثر من ذلك لو لم تتدخل الحكومة المصرية(٣٣).

لو صدق هامون فإن ما ذكره يعد أول ما ذكر عن عدم أمانة كارنرڤون، بالرغم من أن ذلك الكتاب قد نشر فى الوقت الذى كان فيه كارتر مازال حياً، وكان بمقدوره الرد ودحض كل تلك الاتهامات على أنها تهيؤات شخص مختل يخدع الناس، ويغشهم، ويدعى أنه يمتلك اليد

المحنطة للأميرة ميكيت آتون. إلا أن كارتر لم يعلق على ذلك.

إلا أن هامون لم يك مختلاً، بل كان أبعد ما يكون عن ذلك، لقد كان داهية أريبا يتمتع بـ « كارزيما » شديدة، وله اهتمام عميق بالروحانيات والغيب، فضلاً عن ذلك كان يتمتع بعلاقات اجتماعية قوية، ولم يكن على علاقة بكارنرڤون فقط، بل بسكرتيره الخاص النبيل ريتشارد بيتيل، وبأبيه اللورد الثالث لويستبرى اللذين لقيا حتفهما فى ظروف غير طبيعية، ويخبرنا هامون على صفحات كتابه أنه بعد فترة قصيرة من الافتتاح الرسمى لمقبرة توت عنخ آمون فى فبراير ١٩٢٣ أعرب لورد ويستبرى عن قلقه من سلوكيات ابنه فى الآونة الأخيرة، وطبقا لما ذكره هامون، سأله الأب: لقد جلب ابنى ريتشارد إلى بيته مقدسات قديمة كثيرة وآثاراً من مقبرة توت عنخ آمون، وهى مازالت موجودة بمنزله هل تعتقد أنها قد تجلب له شراً؟

وهو تساؤل يظهر قلق الأب على ابنه الذى كان قد عاد لتوه من مصر ومعه «مقدسات وآثار من المقبرة» فما الذى كان يعنيه بالضبط بـ «مقدسات وآثار»؟ ويمكننا أن نخمن أن ذلك اللقاء بين لورد ويستبرى وهامون قد حدث بعد موت لورد كارنرڤون فى أبريل ١٩٢٣، والذى أثار موته كثيرا من الخرافات والشائعات عن لعنة توت عنخ آمون، مما أشاع الخوف فى نفس لورد ويستبرى على ابنه أكثر من تخوفه من عدم مشروعية حيازة تلك الآثار، لم يكن لاعتقاد لورد ويستبرى بلعنة توت موضع شك، فقد مات ابنه بالفعل وكان فى السادسة والأربعين من عمره وعثر عليه ميتًا فى ناد للاستحمام فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٢٩(٣٥).

قيل إن أباه لورد ويستبرى الذى كان قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره كان يتمتم «إنها لعنة الفراعنة» عند الحديث عن الموت الغريب الذى وقع لابنه(٣٦).

وحين التقى لورد ويستبرى بهامون عام ١٩٢٣ لم تدر بخلده تلك الكوارث التى ستحل بعائلته ،بالرغم من ذلك لم يقدم قارئ الطالع العالمى

الشهير إلا قليلا من السلوى إلى لورد ويستبرى بعد أن وافقه على أنه من الخطورة الشديدة ترك تلك الأشياء الفرعونية فى بيت سكنى، واقترح عليه نقلها إلى قسم المصريات والآثار الآشورية بالمتحف البريطانى.

إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد ذكر هامون : أنه دعى إلى منزل بيتيل بعد ذلك بسنوات وكان المنزل بميدان مانشستر بالحى الراقى غرب لندن، وقال إنه رأى على كل حائط - تقريباً - مقدسات فرعونية وآثاراً من مقبرة توت عنخ آمون تماما كما أخبرنى لورد ويستبرى قبل ذلك(٣٧).

كان صديقا مقربا لهامون قد استأجر بيت بيتيل الذى كان يعد أحد أفضل البيوت الراقية بغرب لندن، إلا أن الشهور التى تلت استئجاره للبيت جعلته يشعر بالرعب بسبب كثير من الحوادث المفزعة، والتى أرجعها هامون بكل وضوح إلى وجود تلك المقدسات الفرعونية الغامضة بالمنزل مما دفع المستأجر إلى تركه، وبعد رجوع بيتيل وزوجته إلى البيت قيل إن أشياءً عجيبة كانت تحدث - أيضا - مثل حرائق تشب فجأة دون سبب فى أماكن متباينة من البيت، ثم تبين بعد ذلك أن المتسبب فى تلك الحرائق كان أحد الخدم المخلصين، وقرر فى سياق دفاعه عن نفسه: أن تلك الأشياء من المقبرة كانت تثير أعصابه، وكان يشعر أنه لابد من حرق البيت للتخلص منها(٣٨)، ونشرت جريدة الديلى ميل تفاصيل تلك الأشياء فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٩ بمناسبة موت بيتيل(٣٩)

ولا يهمنا فى سياق موضوع هذا الكتاب تفاصيل أو طبيعة تلك الحوادث الغامضة بقدر ما يهمنا ما ذكره هامون عن المقدسات التى جلبت من مقبرة توت عنخ آمون وكما ذكرنا من قبل، فإنه على الرغم من جهل قارئ الطالع بالجوانب التاريخية، إلا أنه كان مولعا بكل ما يخص مرحلة العمارنة المصرية، وكانت لديه قدرة فائقة على تمييز ما ينتمى إلى تلك المرحلة وتمييز ما ينتمى إلى مقبرة توت عنخ آمون.

لذلك يتضح أنه لم يكن كارنرفون وحده، بل سكرتيره الخاص - أيضاً

– من ثبت أنهم من بين أفراد الطبقة العليا فى مجتمع لندن استوليا على كنوز فنية رفيعة من مقبرة الملك الصبى توت عنخ آمون.

وكما ذكرنا – سابقاً – لم يصمد لورد ويستبرى بعد موت ابنه الغامض والمفاجئ، وسقط الأب من شرفة الدور السابع الذى كان يقيم به فى شارع سانت چيمس كورت بغرب لندن على شرفة من زجاج قطعت عنقه ولقى مصرعه على أسفلت الطريق(٤٠)، وترك رسالة أوضح فيها أنه انتحر عامداً قال فيها: «لا أستطيع أن احتمل مزيدا من الرعب»، ونشرت جريدة ديلى اكسبريس بأنه يقصد لعنة الفراعنة التى استحوذت عليه منذ موت ابنه فى شهر نوفمبر السابق(٤١)، ولا يوجد أى شك أن الرعب الذى يعنيه خاص بالكوارث المتلاحقة التى حلت بالعائلة منذ الافتتاح الرسمى لمقبرة توت عنخ آمون. لا يوجد شك أن موت لورد ويستبرى منتحرا له صله بلعنة الفراعنة، إلا أن تلك اللعنة فى حالته كانت من صنعه .

مصير رأس زهرة اللوتس

نعود مرة أخرى إلى مصير رأس الملك الصغير التى اكتشف بييرلاكو وجودها فى صندوق قديم من صناديق متجر فورتنم وماسون، بعد أن توقف كارتر عن العمل بالمقبرة فى بدايات عام ١٩٢٤ فما الذى يمكننا قوله على ضوء الأدلة الدافعة التى تدين كلا من كارتر وكارنرڤون ؟

ادعى كارنر أنه عثر على الرأس بين الأتربة التى كانت تسد دهليز المقبرة، وأنها كانت بانتظار التصنيف، بالرغم من أنه أورد تصنيفاً كاملاً بكل ما عثر عليه فى أتربة المدخل ونشرها فى الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، وأوردنا كذلك موضوع صندوق العطور الذهبى الذى رآه ألفريد لوكاس على مكتب كارتر فى بيته قبل الافتتاح الرسمى لغرفة الدفن، مما يظهر بوضوح أن كارتر ضلل عامداً وعن قصد كلاً من عمل معه من علماء المصريات، فيما ابتدعه عن الظروف والمكان الذى عثر فيه على ذلك الصندوق، ولابد لنا أن نفترض أن ذلك كان حال كثير من

القطع الأخرى أيضا.

فضلا عن ذلك، فإن حقيقة أن قطعاً منتقاة بعناية من المقبرة، وينتهى بها الحال أن تصبح من المقتنيات الخاصة لكل من كارتر وكارنرڤون تفرض بقوة أن تمثال رأس الملك الصبى البازغ من زهرة لوتس زرقاء كان مقرراً له أن يلقى المصير نفسه ويصبح من المقتنيات الخاصة.

تعويض ملائم

ذكرنا فى الصفحات السابقة أمثلة عديدة لافتقاد الأمانة العلمية والمهنية من لدن كل من هوارد كارتر ولورد كارنرڤون، وهما متهمان بالاستيلاء - دون وجه حق - على عدد كبير من الكنوز الفنية من مقبرة توت عنخ أمون، وتهريبها إلى خارج مصر لحسابهما الشخصى، فما هى دوافع ارتكاب تلك الأفعال المجرمة التى غلبت عليها الأنانية والذاتية؟

لا تكمن الإجابة ببساطة فى رغبتهما فى الاستحواذ على ما نال إعجابهما، وما لم يستطيعا مقاومة إغرائه، بل تكمن فى المناخ الذى ساد عالم المصريات القديمة فى ذلك الوقت فى مصر، كان لصوص الآثار من المصريين يستولون على ما يجدونه من قطع أثرية بالمقابر المصرية القديمة فى جميع أرجاء مصر، ثم يبيعونها لجامعى الآثار الأثرياء وللمتاحف فى أوروبا وأمريكا، وكان ذلك يتم فى الغالب عبر وسطاء من الآثاريين العارفين بقيمة المعروض للبيع، ويعملون كوسطاء بين البائع والمشترى، ولا يوجد شك أن كارتر وكارنرڤون كانا قد أصبحا جزءا من تلك التجارة المربحة قبل اكتشاف المقبرة(٤٢).

بالإضافة إلى اعتياد الاتجار بالآثار، هناك دافع آخر نجم عن إحساسهما بالمرارة والامتعاض من مصلحة الآثار المصرية، والحكومة المصرية، كان هناك تنافس وصراع بين الإنجليز والفرنسيين دام لسنوات طويلة، وأدى ذلك بكارتر إلى الاعتقاد بأن كل أعضاء مصلحة الآثار المصرية وأغلبهم من الفرنسيين يعمدون إلى وضع العراقيل فى طريقه

وتحويل عمله إلى جحيم، ورأى أن أعضاء الحكومة المصرية بالذات كانوا يتصفون بالأنانية والفساد ولا يختلفون كثيراً عن مزارعى منطقة القرنه الذين يسرقون الآثار لبيعها.

إضافة إلى كل ذلك رأى أن شروط وبنود تصريح البحث، جعلته غير متيقن إن كان لورد كارنرفون سيحصل على حصته من كنوز المقبرة أم لا، (وهو ما تأكد له عام ١٩٢٤)، وسواء إن كان ذلك صحيحاً أم غير صحيح، كانت تلك هى وسيلته لتأمين حصولهم على مقابل ملائم وفورى عن سنوان الكد، ومصاريف البحث فى سعيهم لاكتشاف المقبرة المصرية الوحيدة التى لم تمس من قبل، وبعبارة أخرى شعرا أنهما لابد أن يحصلا على قطع منتقاة من المقبرة مقابل الخدمات التى قدماها لمصر وللعالم كله، وأخيراً، من نحن لنحكم على أفعال رجلين قدما الكثير لعالم الآثار التاريخية القديمة عندما توصلا إلى أعظم الكنوز الأثرية التى عرفها العالم قاطبة؟

تحذير آرثر ويجال

من المثير أن نعرف أن الشائعات والأقاويل التى أحاطت بكارتر وكارنرفون عن أنشطتهما المشبوهة داخل المقبرة قد تسربت إلى جهات كثيرة، فقد وصل إلى مسامع الآثارى البريطانى آرثر ويجال (١٨٨٠ - ١٩٣٤) دخولهما غير المشروع إلى الغرفة الخارجية للمقبرة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢، وأنهما كانا فى وضع يسمح لهما بالاستيلاء على قطع كثيرة بطريقة غير مشروعة. كان ويجال قد عمل فيما سبق مع كارتر إلا أنه فى بداية عام ١٩٢٣ تعاقد مع صحيفة ديلى ميل الإنجليزية ليعمل مراسلاً لها من مدينة الأقصر؛ ليمد الصحيفة بأخبار العمل اليومى الذى يتم فى المقبرة، وبعد أن أحس بالأسى لتعاقد لورد كارنرفون مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار الكشف العالمى الفريد، كتب ويجال رسالة إلى كارتر من مقر إقامته بفندق ونتر بالاس بالأقصر يوم الخميس ٢٥ يناير

١٩٢٣ محاولاً دفعه إلى تبديد مشاعر الضيق، وعدم الرضا الذى تراكم لدى كل المراسلين للصحافة العالمية، وفى موضع من الرسالة المطولة التى كتبها كمهتم أصيل بالآثار المصرية إلى زميل له، قال ويجال بدماء باردة:

الموقف كما يلى، ارتكبت أنت ولورد كارنرڤون الخطأ المبدئى بعد أن اكتشفتم المقبرة باعتقادكم أن النفوذ البريطانى فى مصر مازال كما كان فى السابق، وأن بإمكانكما أن تفعلا كما تهويان، وكما اعتاد الإنجليز أن يفعلوا فيما سبق من عقود.

لقد عثرتم على تلك المقبرة فى وقت تكفى فيه أصغر شرارة لتفجير مخزن الذخيرة كله إلى عنان السماء، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أقصى حدود الدبلوماسية فى التصرف، وفى الوقت الذى نحتاج فيه أنا وأنت ألا تنظر إلينا الحكومة المصرية على كوننا متهمين أو موضع ظنون وريب، وفى وقت من الممكن أن يسىء فيه أتفه إجراء خاطئ إلى بلدنا. لقد فتحت المقبرة دون أن تبلغ ممثلى الحكومة المصرية، وكل الوطنيين المصريين يرددون أنك بذلك امتلكت الفرصة للاستيلاء على ما يساوى ملايين الجنيهات الذهبية ودون قصد أو تعمد دق ويجال رأس المسمار، لم يعد بإمكان كارتر وكارنرڤون أن يفعلا ببساطة كل ما يستهويهم كما كان الإنجليز يفعلون فيما سبق من عقود فى مصر. كان المشهد السياسى قد تغير واختلف فى مصر، وكان عليهما أن يدركا تلك الحقيقة مثلهما مثل أى أجنبى، وحيث إن عمل ويجال كان يتعلق - أيضاً - بالآثار المصرية لسنين طويلة، فقد أدرك بسهولة اتجاهات الريح، كانت رسالته إلى كارتر تتسم بالدبلوماسية، إلا أن قراءة ما بين سطورها يظهر بوضوح أن تجاوزات كارتر وكارنرڤون داخل المقبرة كانت تنتشر بين المصريين الذين كانوا يسمعون حكايات كثيرة من حراس المقبرة، الذين عملوا مع كارتر ووصلت الحكايات والشائعات إلى ويجال، وأراد أن ينبه كارتر وكارنرڤون إلى ذلك على ضوء أنه إذا اتسع نطاق ما يتردد من أقاويل سيؤدى إلى أزمة غير مسبوقة يترتب عليها إغلاق المقبرة. إلا أن رسالة ويجال حققت

نتيجة معاكسة لما اشتهى، فقد زادت من اتساع الفجوة التى تفصل ما بين ويجال ومعسكر كارتر كارنرفون(٤٤).

لقد شابت مشاعرنا ونحن نجمع مادة هذا الكتاب بعض الأسى والأسف فى سعينا لإلقاء الضوء على الجوانب المظلمة والمعتمة التى أحاطت باكتشاف المقبرة، ووجدنا أن إماطة اللسان عن تلك الجوانب المزعجة، والتنقيب فى ثناياها لن يؤدى إلا إلى مزيد من التلطيخ لسمعة كل من هوارد كارتر وكارنرفون التى كانت هشة من الأساس، إلا أننا آمنا أن مزيداً من البحث حول الأنشطة والأفعال الخفية المتعلقة بالمقبرة وكنوزها هام وضرورى، إذا كان للقارئ أن يعرف كنه تلك العلاقة بينهما، وبين ما يذكره بيرى ماسون عن قضية البردية المفقودة.

١٤ـ الفضيحة

فى ربيع عام ١٩٢٤، بدا لكارتر أنه قد فقد كل شيء، كان قد أمر كل العاملين معه بالتوقف عن العمل احتجاجاً على المعاملة الفظة التى يلقونها من وزارة الأشغال العمومية ومصلحة الآثار المصرية، ورفض الوزير زيارة زوجات العاملين مع كارتر للمقبرة ، ثم ألغت وزارة الأشغال العمومية التصريح الذى أصدرته ذلك العام باسم آلمنيا كونتيسة كارنرڤون، وانتهت المعركة الحامية التى نشبت فى ساحات المحاكم المختلطة ضد قرار وزير الأشغال بإلغاء التصريح بإفساد العلاقة بين الطرفين إفساداً لا رجاء في إصلاح بعده. في الأقصر تزاحمت حشود من ذوى الحيثية وعائلاتهم وأبنائهم وأصدقائهم وكل من له علاقة أو معرفة بأى شخص فى مركز مرموق لزيارة المقبرة، وكان كارتر يسمح لهم بالزيارة دون أدنى اهتمام بمئات القطع الأثرية التى كانت ما تزال بموضعها بالمقبرة، أما القطع التى نقلت للمعمل البحثى الميدانى بمقبرة رمسيس فقد ظلت بموضعها دون مباشرة ولا حراسة، ودون أى إجراء بحفظها ومن التلف، وبنفس القدر الذى انحصرت فيه اهتمامات كارتر فى توجهات بعينها، لم يعط باقي الفريق أى قدر من الاهتمام لتلك العملية التى شابتها الدناءة.

وتوصل كارتر إلى إيمان عميق أنه لم يعد أمامه إلا سبيلاً واحداً لإنهاء ذلك المأزق: وهو طلب دعم القنصلية البريطانية بالقاهرة لموقفه فى مواجهة الحكومة المصرية. اعتقد كارتر أن نفوذ القنصل العام البريطانى يكفى لإجبار سعد زغلول على دفع مصلحة الآثار لاستخراج التصريح من جديد باسم ليدى كارنرڤون وبذلك يستكمل العمل بالمقبرة. كان قد مر

بتجربة مماثلة من قبل، وأظهر المندوب السامى البريطانى على مصر الجنرال اللمبى ما يوحى بأنه يدعم كارتر بكل ما يملك من سلطة ضد تدخل الحكومة المصرية فيما يفعله كارتر.

إلا أن اللنبى لم يكن متيسراً فى ذلك الوقت الوصول إليه، وهكذا قبل رحيله من مصر إلى إنجلترا عن طريق فينيسيا فى ٢١ مارس رأى كارتر أن يتوجه إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة، ويرى ماذا سيفعلون إزاء ما يراه من إلغاء مجحف، وغير مبرر لتصريح العمل بالمقبرة؟!.

كان يبتغى الحصول على الدعم المطلق من القنصلية لقضيته، ورأى أنه لم يتبق أى مسلك آخر يسلكه غير ذلك.

ولما وصل القنصلية ، أدخلوه إلى مكتب أحد المسئولين (١)، وعرض كارتر متاعبه والمشاكل التى عاناها ومازال يعانيها من الحكومة المصرية، كان على يقين بأنه سيلقى تعاطفاً مطلقاً، وتقدم له كل التسهيلات المطلوبة وبالرغم من أن المسئول البريطانى تعاطف تمامًا مع كارتر، إلا أنه أوضح له بجلاء أن القنصلية لا تملك ما تفعله ضد قرارات الحكومة المصرية، أو ضد مصلحة الآثار، كانت المشكلة ببساطة فوق قدرة القنصلية وصلاحياتها ونفوذها.

وكان كارتر من ذلك الصنف الذى يتعكر مزاجه بسهوله، وأحس أن ذلك الموقف إهانة له فثار ثورة عنيفة، وتبادل مع المسئول عبارات حادة، اتهمه كارتر على أثرها بالفشل المطلق وعدم وفائه للقسم الذى أقسمه، وانعدام الكفاءة وبلادة موظفيه، ثم ختم ذلك السيل بأن أنذر نائب القنصل قائلا:

إن لم أحصل على ترضية تامة، وحقوق كاملة سأنشر على العالم كله نص البردية التى وجدتها بالمقبرة والتى تظهر الوقائع الحقيقية لخروج أبناء إسرائيل كما سجلتها الحكومة المصرية القديمة(٥) عن الخروج من مصر(٢).

وهنا، فقد نائب القنصل صوابه بعد أن أدرك حجم الكارثة السياسية

التى قد تنجم عن نشر أى وقائع قديمة موثقة، على الموقف الهش والمتردى بين بريطانيا ومصر، وكذلك أثرها المرعب على تنامى العداوة العربية بسبب تعاطف بريطانيا مع تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ودون وعى منه، تناسى كل سلوك دبلوماسى، وتناول المحبرة التى كانت أمامه وقذفها بكل قوته باتجاه كارتر الذى تفاداها فى آخر لحظة، فارتطمت بالحائط من ورائه، وتحطم زجاج المحبرة، وتناثر فى كل مكان، ولطَّخ الحبر الحائط فى بقع كبيرة، ثم هدأ الرجلان وتوصلان إلى اتفاق نتج عنه سكوت كارتر عن هذا الموضوع إلى الأبد، ولم ينفذ تهديده بعد ذلك أبدا(٤).

مكتب كيديك لتنظيم المحاضرات

لم نعلم بأمر تلك المشادة العنيفة التى وقعت بين كارتر والمسئول البريطانى فى القاهرة إلا من مذكرات لى كيديك، صاحب مكتب كيديك لتنظيم المحاضرات والندوات عبر الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مكتبه قد أشرف على تنظيم محاضرات كارتر فى ولايات أمريكا وكندا، وكانت أولها بالقاعة الشهيرة ذائعة الصيت، قاعة بول كارنيچى فى ٢٣ أبريل ١٩٢٤، ولاقت محاضرات كارتر - المدعومة بـ ٣٥٨ شريحة مصورة قام بالتقاطها المصور المحترف هارى بيرتون - نجاحاً وإقبالاً كبيرين من جانب الجماهير والمتخصصين على حد سواء.

وبعيداً عن المحاضرات الرسمية، توثقت عرى الصداقة بين كارتر ولى كيديك، وخلال إحدى الرحلات الطويلة بالقطار والتى كانا يقطعان فيها الوقت بالمناقشات وتبادل الحديث لساعات متصلة حكى كارترعن ذلك الصدام الذى وقع بالقنصلية البريطانية بالقاهرة، ومن خلال كيديك عرفت الحكاية وانتشرت، أما دافع كارتر لإفشاء ذلك السر إلى كيديك مع أنه رجل أعمال ولا يأبه بالسياسة ولا بالمصريات القديمة فإنه غير معروف ومن الصعب إدراكه. كانت واقعة القنصلية مازالت حية وقريبة العهد فى

ذهن كارتر، فقد مضت عليها بالكاد بضعة أسابيع(٥)، ربما أعوزه الحديث في وقت ما فحكى إلى لى كيديك عن تلك الواقعة، أما ماله دلالة خطيرة فى الأمر كله فهو ما ذكره للقنصل: «سأنشر على العالم كله نص البردية التى وجدتها بالمقبرة، والتى تظهر الوقائع الحقيقية للخروج كما سجلتها الحكومة المصرية القديمة عن الخروج اليهودى من مصر».

فما الذى يعنيه ذلك؟ ولماذا أيقن كارتر أن تهديد المسئولين البريطانيين بذلك الأمر سيدفعهم إلى دعمه فى موقفه أمام الحكومة المصرية؟ التفسير السهل لمن يريد أن يريح ذهنه أن الأمر كله ليس إلا تهويشا أجوف، ومناورة ساذجة من كارتر لدفع المسئولين البريطانيين بالقاهرة لدعمه دعما ملموسا، وهو الاستنتاج الذى توصل إليه توماس هوفنج فى كتابه «توت عنخ آمون ـ القصة الخفية » وذكر فيه: لم يعثر كارتر بالطبع على برديات ولا أى وثائق قديمة من أى نوع فى المقبرة ولا على أى وثائق لها صبغة سياسية، التفسير الوحيد لتهديده الغريب هو أنه تحت تأثير الغضب الشديد الذى لم يعد يحتمله مع كل ما يواجهه من قيود، أراد أن يهوش ويخيف نائب القنصل البريطانى ليدفعه إلى دعمه(٦).

ويبدو استنتاج هوفنج معقولاً، إلا أنه ليس الاستنتاج الوحيد الممكن قبوله للتيقن من وجود برديات من عدم وجودها بالمقبرة، إلا أن من الثابت أن كلاً من كارنرفون وكارتر أقرا فى أكثر من مناسبة أنهما عثرا على وثائق بردية بالمقبرة.

البردية المفقودة

ظل موضوع بردية توت عنخ آمون المفقودة هو الشغل الشاغل لمراسلى الصحف والمؤرخين والباحثين منذ فتح المقبرة فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٢. وفى يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ أرسل كارنرفون رسالة من الأقصر إلى صديقه وزميله عالم اللغات القديمة آلان هـ. جاردنر بإنجلترا يصف له فيها ما عثروا عليه بالمقبرة، وبمراجعة تلك الرسالة نجده يشير فيها على

وجه الخصوص إلى العثور على برديات بالمقبرة، وقال فى نص رسالته:

«ما وجدناه يفوق القدرة على الوصف، فالمقبرة مكتملة المحتويات وتعرضت لسطو بسيط في عصور قديمة، إلا أنه لم يتلف منها شيئاً، فقد اكتشف المسئولون القدماء الأمر وأعادوا إغلاقها بإحكام، وبقدر ما أتيح لى من مشاهدة سريعة فإنها تحتوى على أثاث توت عنخ آمون من سرير وصناديق وكل ما يمكن تخيله، ويوجد صندوق يحتوى على بضع برديات، أما عرش الملك فهو كرسى من أعظم ما عرف من عروش ذهبية».

وأشار كارنرڤون فى رسالة أخرى كتبها إلى سير إدجار أ. والاس بادچ إلى اكتشاف برديات، وكان بادچ وقتها يشغل منصب أمين قسم المصريات والآثار الآشورية بالمتحف البريطانى، وكتب الرسالة فى الأول من ديسمبر عام ١٩٢٢، وقال فى تلك الرسالة:

أقول لك باختصار: إننا عثرنا على «لقية» من أعظم ماعثر عليه من لقايا في مصر أو فى أى مكان آخر بالعالم ، لم أدخل حتى الآن سوى غرفتين (ربما لم يذكر الحقيقة فى هذا الشأن)، إلا أنهما تحتويان على ما يكفى لملء كل قاعاتك فى الطابق العلوى بالمتحف، وهناك باب مازال مغلقًا يعلم الله وحده مايوجد خلفه، إلا أننى وجدت بعض لفائف البردى ومشغولات خزفية، ومجوهرات، وباقات زهور، وشمعدانات عليها شعار توت عنخ آمون، كل ذلك فى الغرفة الخارجية، هذا عدا محتويات أخرى كثيرة لم تحصر بعد ومازالت متراكمة.

والنص الكامل للرسالة منقول كله في الكتاب الذى نشره بادچ عام ١٩٢٣ بعنوان: توت عنخ آمون : الآمونية، الآتونيه، والتوحيد فى مصر، ولا يوجد ذكر فى نص الرسالة لطبيعة تلك «البرديات».

تقارير

لم تكن معرفة وجود برديات بالمقبرة قاصرة فقط على ماورد بالرسائل الخاصة، كان آرثر ميرتون يعد تقريره الصحفى اليومى من الأقصر، وفى

أحد تلك التقارير ورد ذكر العثور على برديات بالمقبرة. كانت أول أخبار تنشر بالعثور على المقبرة قد أذيعت يوم الأربعاء ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ تلتها بعد يوم آخر نشرة أكثر تفصيلاً عن محتويات الغرفة الخارجية، ووردت بالنشرة أسماء قطع كثيرة بما فيها : فازات مرمرية رائعة الصنع، قطع من المشغولات الخزفية الزرقاء ومؤن وأدوات شخصية تدفن مع الميت، وباقات زهور تبدو أوراقها كأنها مازالت خضراء يانعة، وبعد تلك المقدمة مباشرة، جاء بالتقرير أن أحد الصناديق يحتوى على لفائف من البردى، ومن المتوقع أن تمدنا تلك اللفائف بمعلومات غزيرة(٩).

كان المصدر الوحيد لتلك المعلومات كارنرڤون، الذى كان مسئولاً عن المعلومات التى تنقل إلى رجال الصحافة والمراسلين، وقد نظن أن كارنرڤون ربما أخطأ فى تقييمه الأول للموجودات بالمقبرة إلا أن كارتر وهو الخبير بالمصريات القديمة والذى كان على دراية كبيرة بالبرديات لم يصحح تلك المعلومة إن كانت غير صحيحة ، بل إنه بحلول يوم ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ كان كارنرڤون مازال يدلى بتصريحات يذكر فيها العثور على برديات بالمقبرة، ففى طريق عودته إلى إنجلترا التقى بميناء مرسيليا الفرنسى بالمراسل الخاص لجريدة التايمز اللندنية، وأدلى إليه بتصريح جاء فيه: يحتوى أحد الصناديق على لفائف بردى من المتوقع أن تلقى الضوء على تاريخ تلك المرحلة، وربما نعثر على لفائف أخرى فى الصناديق التى لم تفتح بعد (١٠).

كان على يقين هو وكارتر من عثورهم على بردية أو برديات بالمقبرة وناقش ذلك الأمر مع صديقه آلان هـ. جاردنر عالم اللغات القديمة بعد عودته إلى إنجلترا، وبالفعل هناك دليل على إرسال كارتر برقية إلى جاردنر يطلب موافقته على (: قراءة وترجمة البرديات التى وجدوها بالغرفة الخارجية للمقبرة)(١١).

وهكذا، من بداية الأمر، لم يكن هناك اختلاف بين مايذكره كارنرڤون ومالا ينفيه كارتر عن وجود برديات، وظل الأمر كذلك، ولم يبدأ فى التبدل

إلا بعد موت كارنرڤون، حيث ذكر كارتر فى كتابه مقبرة توت عنخ آمون إنه شبه لهم وجود برديات .

آلان جاردنر

استجاب جاردنر بطريقة إيجابية لطلب كارتر معاونتهم فى قراءة نصوص البرديات، وكان قد عرف بشكل مبدئى محتويات المقبرة من الرسالة التي بعث بها إليه صديقه كارنرڤون بتاريخ الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢، وكذلك اطلع على التقرير المذكور به وجود برديات، والمنشور بجريدة التايمز يوم الجمعة الأول من ديسمبر، ولم يكن لديه أدنى شك فى وجود تلك البرديات، وعلى ضوء تلك المعلومات طلب منه مندوبو الصحف أن يدلى لهم برأيه عن مغزى تلك المحتويات ومنها البرديات، وكانت وجهة نظره التى نشرت بجريدة التايمز يوم الاثنين ٤ ديسمبر ذات دلالة معينة:

مايهمنى شخصياً هو صندوق لفائف البردى الموجود بالمقبرة، ويحتمل - بل من الممكن - أن نكتشف أن تلك البرديات ليست إلا نسخا من كتاب الموتى الذى يدفن مع كل ملك أو شخصية مرموقة، وهو يضم رقى وتعاويذ تضمن للميت حياة منعمة فى الحياة الأخرى والعالم الآخر، من جهة أخرى، قد تلقى تلك الوثائق بعض الضوء على الديانة الجديدة (فى عهد ملوك العمارنة)، وكذلك العودة من بعدها إلى الديانة الأولى، وهو ما قد يشكل أهمية عظمى. لقد وصلتنا بردية مطولة، وهى الأطول من نوعها وجدت فى مقبرة رمسيس الثالث، واشتهرت باسم بردية هاريس، وهى الآن من مقتنيات المتحف البريطانى، تتحدث عن كل ما قام به رمسيس الثالث لتعظيم كل الآلهة المصرية، ومن المحتمل أن نجد فى مقبرة توت عنخ آمون شيئاً من هذا القبيل يلقى الضوء على عصر الاضطراب الدينى الذى كان قد وصل بالكاد إلى نهايته(١٢).

بعد تلك التوقعات الكبرى لمغزى العثور على برديات بالمقبرة، لم يذكر شىء بعد ذلك عن هذا الأمر، وبالرغم من أن جاردنر كان قد التحق

بالفريق لتولى أعمال ترجمة البرديات، إلا أن عمله بعد ذلك اقتصر على ترجمة النصوص الجدارية فى غرفة الدفن، والنصوص الموجودة على بعض القطع، مثل : المقاصير المحيطة بالتابوت والتابوت نفسه.

الصندوق رقم ١٠١

من الواضح أن الشائعات راحت تنتشر عن البرديات المفقودة، حتى وجد كارتر أنه لزاما عليه أن يوضح الأمر، وفى مقدمة الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون والذى اشترك معه فى كتابته آرثر س. ميس ونشر أواخر عام ١٩٢٣، أشار إلى أول دخول لهم للغرفة الخارجية، وما أشيع عن وجود برديات بها قائلا: تفقدنا لأول مرة محتويات الغرفة الخارجية على ضوء المصباح الواهن الضوء، واعتقدنا أن إحدى السلال - صنفت تحت رقم ١٠١ بعد ذلك - تحتوى على لفائف بردى، وبعد ذلك وعلى ضوء مصباح كهربائى قوى تبين لنا أنها لفائف من أنسجة الكتان (ويبدو أنها كانت ملابس تحتية كانت تشبه إلي حد كبير لفائف البردى)(١٣).

هكذا تخلص كارتر من ذلك المأزق، وزاد من مخاوف فريقه من ضيا ع فرصة اكتمال الجانب المعرفى:

كان ما ذكره كارتر مخيبًا للآمال ويبعث على الإحباط، بعد أن أيقنا من ضيا ع الجانب المعرفى الذى كانت ستوفره البرديات والتى تنقص من القيمة الفنية للاكتشاف؛ لعدم وجود نصوص مكتوبة عن الملك توت عنخ آمون تلقى الضوء على الفوضى الدينية والسياسية التى كانت فى عهده والعهود التى سبقته(١٤).

قد يقبل كثير من الناس اشتباه الأمر على كارتر وكارنرفون حين فحصا الغرفة الخارجية لأول مرة، ويمكن أن نتخيلهما على ضوء المصباح الشحيح يحاولان التعرف على كل ما يمكن التعرف عليه دون أن يمسا شيئًا، أو يحركاه من مكانه ، كما يمكن أن نتفهم خيبة أملهما فى الفترة

المحصورة بين ديسمبر ١٩٢٢ ويناير ١٩٢٣ وهما يخليان محتويات الغرفة الخارجية، ويتبين لهما أن ما اعتقدا فيما سبق أنها لفائف بردى لم تكن إلا ملابس توت عنخ آمون الداخلية. لابد أن خيبة الأمل غمرت كل أفراد طاقم العمل، خاصة بعد تصريحات جاردنر التى نشرت بصحيفة التايمز عن توقعاته لمحتوى البرديات.

ولكن، هل نصدق مزاعم كارتر؟ من المفترض أن تكون إجابة السؤال بالإيجاب: لابد لنا أن نصدقه، إلا أننا نوقن أنه سبق له تضليل العالم كله متعمداً وبدم بارد فيما يخص دخوله هو وكارنرقون إلى المقبرة بطريقة غير مشروعة، ونعلم علم اليقين أنهما استوليا سراً على كنوز فنية ثمينة من المقبرة.

بالإضافة إلى ذلك، يعد تفسير كارتر فى التباس الأمر عليهم، وخلطهم بين المنسوجات الكتانية ولفائف البردى غريبًا، وهو الخبير فى هذا وذاك، وبحجة الضوء الشحيح الذى كان متوفرا لهم فى ذلك الوقت إلا أننا نعرف أنهم دخلوا الغرفة الخارجية يوم الأحد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ بعد أن حصلوا على تيار كهربائى من مقبرة رمسيس السادس التى تعلوها، وهذا مؤكد مما سجله كارنرقون بنفسه فى مذكراته التى لم تنشر والمحفوظة بالمكتبة البريطانية حتى الآن، ويذكر منها:

«من الحظ الحسن، أن مقبرة رمسيس السادس التى تلقى إقبالاً كبيراً من السائحين كانت فوقنا مباشرة وبها إضاءة كهربائية، ومددنا الأسلاك من فتحة مما أتاح لنا أن ندخل مرة أخرى، ونفحص محتويات ما أطلقنا عليها فى ذلك الوقت الغرفة الأولى»(١٥).

وبذلك يسقط التعلل بالخلط بين المنسوجات الكتانية ولفائف البردى بسبب النور الشحيح الذى كان متيسراً لهم، وأن ما اعتقدوا أنه لفائف بردى لم يكن إلا لفائف منسوجات كتانية لستر العانة، فضلا عن ذلك، لم يكن من السهل على كثير من الكتاب المتخصصين لأن يقبلوا باستسلام فكرة عدم وجود برديات فى مقبرة توت عنخ آمون، وكتب عالم المصريات

البريطانى نيكولاس ريڤز بحثا عن هذا الموضوع(١٦)، وأشار فى بحثه إلى أنه بعد الإعلان عن اكتشاف المقبرة: سادت التوقعات بالعثور على عدد كبير من البرديات، وأنه يحتمل جداً وجودها فى أوانٍ خاصة مغلقة داخل التابوت، إلا أنه خاب أمله بعد فتح التابوت، وذكر أنه لم توجد داخل التابوت إلا تلك المنسوجات المهترئة التى كانت فوق المومياء المحنطة، كذلك لم يعثر على برديات فى أى مكان آخر وهو مما لا يمكن قبوله(١٧)، فغياب البرديات من الأمور اللافتة للنظر، ولو أخذنا فى الاعتبار كثرة النصوص والنقوش والرسوم فى أماكن كثيرة من حوائط المقبرة، يجعلنا ذلك نرجح أن كارتر ومن كانوا معه أداروا عملية البحث بطريقة سيئة(١٨).

ولفت ريڤز الانتباه فى ذلك البحث إلى أن لفائف البردى كثيراً ما كانت تخبأ داخل تماثيل خشبية جنائزية مثل تلك التى وجدت بمقبرة سيتى الأول، والتى عثر عليها المغامر الإيطالى چيوڤانى بيلزونى فى عام ١٨١٧، وهى تماثيل من الخشب كانت توضع منتصبة، ويبلغ طولها أربعة أقدام (١٢٢ سنتيمترا) مفرغة من الداخل لوضع البرديات بها(١٩). وذكر ريڤز حالة مماثلة ليدعم بها رؤيته حين عثر الرحالة وعالم الآثار هنرى سولت (١٧٩٧ ـ ١٨٧٣) فى المقبرة التى كانت بمدخل وادى الملوك – ويحتمل أنها كانت لرمسيس التاسع – على تمثال صنع لذلك الغرض، وكان التمثال على هيئة رب العالم الآخر يمسك لحيته بكلتا يديه، وله جذع يميل بزاوية قائمة على الساقين، وفراغ داخلى يسمح بإخفاء لفافة بردى(٢١)، كما يوجد تمثال بالحجم الطبيعى لإله حارس موجود بالمتحف البريطانى وبه تجويف تحت موضع ساتر العانة، صمم لحفظ لفائف البردى(٢٢)

وتأكد الهدف من وجود تلك التجاويف بالتماثيل الخشبية حين اكتُشِف بمقبرة أمو نحتب الثانى عام ١٨٩٨ تمثال خشبي احتوى على فراغ عثر بداخله على لفافة بردى عبارة عن نسخة من كتاب الموتى الشهير، وبذلك تأكدت فكرة تفضيل إخفاء البرديات داخل التماثيل الخشبية(٢٤) .

بردية أمهرست

ومن أشـهر البـرديات التى عثـر عليـها داخل تماثيل تلك البـردية التى اشتهرت فى عصورنا الحديثة باسم بردية أمهرست، والتى كتبت فى العام ١٦ من حكم رمسيس التاسع الذى حكم فى الفترة من ١١٣٤ إلى ١١١٧ قبل الميلاد، والبردية تحتوى على نصوص محاكمة لصوص المقابر الذين نهبوا محتويات مقبرة تعود إلى الأسرة ١٧، أى يعود تاريخها تقريبا إلى ١٦٠٠ ق.م، وكان نصف تلك البردية بحوزة أشهر عائلة جامعة للآثار المصرية القديمة وهى عائلة أمهرست من ديدلنجتون هول فى نورفوك بشمال إنجلترا، ولم يعثر على نصف البردية الآخر إلا عام ١٩٣٥ داخل تمثال خشبى صغير، من مقتنيات المتحف الملكى للفنون التاريخية فى مدينة بروكس(٢٥).

ولا يستلزم الأمر كثيراً من الخيال لإدراك ما كان يهدف إليه ريڤز من بحثه ذاك، فقد كان هناك تمثالا حارسين بالحجم الطبيعى، أسودا اللون، ومموهان بالذهب، ويمسكان فى كل يد بالصولجان والطرة، ونتيجة لإصرار كارتر على تركهما بموضعهما حتى بعد إخلاء محتويات كل الغرفة الخارجية دون سبب معروف لذلك، واعتقد ريڤز أنه فعل ذلك حتى لا يقوم باقى أعضاء فريقه بفحصهما، وفحص الأماكن الخافية تحت ساتر العانة. وختم ريڤز مقاله البحثى المنشور عام ١٩٨٥م باستنتاجه الذى توصل إليه: «على أقل التقديرات توضع البرديات الجنائزية فى قطعة أو أكثر من القطع الملكية، أو تلك الممثلة للآلهة فى المقابر الملكية، ويتم إخفاء كل ما يشير إلى موضع تلك البرديات وتمويهه بلفائف التحنيط، أو بملاط ممزوج بالغراء، لذلك من المنطقى أن نستنتج أن وثائق توت عنخ آمون الدينية مخبأة بالطريقة ذاتها، وربما مازالت موجودة داخل قطعة من القطع التى عثر عليها بالمقبرة، بانتظار التوصل إلى مكانها الخفى»(٢٦).

وبعد ذلك المقال البحثى أثبت فحص تمثالى «كا» لتوت عنخ أمون بالأشعة السينية أنهما لا يحتويان على أية فراغات(٢٧)، وبالرغم من ذلك

فإن الشائعات التى تواترت بأن كارنرڤون وكارتر قد استوليا على الوثائق التى كانت بالمقبرة أدت بمتابعى وباحثى عصر توت عنخ آمون إلى إبداء آراء وثيقة الصلة بذلك اللغز.

دودج وبراكمان

ويعد ما كتبه سير إدجار أ. والس بدج فى كتابه «توت عنخ آمون» : الآمونية والآتونية والتوحيد المصرى المنشور عام ١٩٢٣ مثالا على ذلك: ففى مقدمة الكتاب علق قائلا:

«ربما حصل لورد كارنرڤون على معلومات كان من الممكن أن تثرى معارفنا عن فترة حكم توت عنخ آمون، وإن كان قد حصل على تلك المعلومات فإنه لم ينشرها. والواقع الحالى أننا لا نعرف الكثير عن حكم ذلك الملك الصغير أكثر مما كنا نعرفه قبل توصل كارنرڤون إلى ذلك الكشف المشهود لموضع المقبرة»(٢٨).

والتقط الكاتب الأمريكى أرنولد س. براكمان ذلك الخيط فى كتابه المنشور عام ١٩٧٦ باسم «البحث عن ذهب توت عنخ آمون» قائلا: هل عثر كارتر وكارنرڤون على برديات بالمقبرة؟ وإن كانا قد عثرا على برديات فهل أخفياها؟ ويبدو من الصعب أن يكون الأمر كذلك إذا وضعنا فى الاعتبار هاجس كارتر الشخصى نحو الكمال ، أى أن إخفاء كارتر لمكتشف يتعارض مع شخصيته الساعية للكشف، وقد يذكر الشىء ذاته عن كارنرڤون، وعلى ذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه فى غمرة الفرحة الطاغية بالكشف بدت أشياء فى هيئة برديات مع أنها لم تكن برديات.

ولكن، لمجرد المناقشة فقط، لو كان هناك ما تم اخفاؤه فماذا يمكن أن يكون؟ إن طبيعة الأمر الحساسة والملتهبة تدفعنا إلى الظن أن ما تم إخفاؤه كان يحتوى على دليل وبرهان عن حقيقة العلاقة بين أعظم داعيين للتوحيد فى تلك الألفية أى : أخناتون (والد توت عنخ آمون أو أبو زوجته) وموسى(٢٩)، وأثار براكمان بذلك أكثر من قضية كبرى فى استنتاج

واحد سنعى للكشف عنها فى الفصول القادمة .

ومن المثير فعلاً أن نلاحظ أن كتاب براكمان قد نشر قبل عامين من نشر كتاب توماس هوفنج «توت عنخ آمون» القصة المخفية، والذى نشر فيه هوفنج على العالم لأول مرة ما سجله «لى كيديك» عن المناقشة الحادة التى دارت بين كارتر ونائب القنصل البريطانى بالقاهرة فى ربيع عام ١٩٢٤، وهى حقائق لم تكن قد نشرت على العالم من قبل، مما يعنى أن براكمان حين نشر كتابه وتوصلْ إلى ذلك الاستنتاج الخطير لم يكن ليعرف شيئا بعد عما أشار إليه هوفنج من وجود:

«وثائق لم يكشف عنها وجدت بالمقبرة، تقدم الحقائق وتكشف حقيقة مسألة الخروج اليهودى من مصر»(٣٠).

ومن المؤكد أن براكمان قد أصابه الذهول بعد أن وجد فى كتاب هوفنج ما يثبت صحة استنتاجاته التى توصل إليها، ولابد أنه دارت رأسه بعد أن تبين أن هواجس كارتر عن الكمال تآكلت بشكل خطير، وانهارت بعد ثبوت حدوث الغزوات السرية للمقبرة التى استوليا خلالها بطريقة غير مشروعة على كثير من المحتويات. لو كان براكمان على دراية بتلك الحقائق حين كان يجمع مادة كتابه المشار إليه، لكانت استنتاجاته قد تبلورت إلى أكثر مما توصل إليه.

لقد توصل براكمان إلى استنتاجات صحيحة على أسس من المناقشات الافتراضية فقط، وهو أن أى بردية يحتمل أن تكون قد وجدت بالمقبرة وأخفاها كارتر وكارنرفون، لابد وأن تكون قد احتوت على معلومات فى غاية الخطورة والحساسية، وفى رأيه لا يوجد إلا موضوع واحد يمكن أن يكون مصدر رعب وخوف فى عصر اكتشاف المقبرة، وأن ذلك الموضوع يظهر العلاقة المحتملة بين أخناتون أبى زوجة توت عنخ آمون وأخيه غير الشقيق، وأول داعية للتوحيد، وموسى صاحب الشريعة اليهودية والذى قاد الخروج اليهودى من مصر كما تذكر التوراة.

ولم يصرح كارتر بتلك الحقيقة إلا أثناء المشادة الحامية مع نائب

القنصل فى ربيع عام ١٩٢٤، حين احتاج إلى التصريح بها كوسيلة ضغط، لدفع السلطات البريطانية إلى دعمه، حتى لا يفجر الموقف بين العرب وبريطانيا واليهود فى جميع أنحاء الشرق الأوسط.

لم يكن كارتر ليهدد المسئولين البريطانيين تهديداً أجوف، فى الوقت الذى كانت فيه المسألة الفلسطينية اليهودية تتصاعد حدتها، وتسبب لهم أرقاً، وقد سجل كيديك : «أن كارتر ونائب القنصل قد سيطرا على غضبهما وحدَّتهما المتبادلة، وتوصلا إلى تسوية ظل كارتر بمقتضاها صامتاً عن تلك المسألة، ولم يصل بتهديده إلى مرحلة التنفيذ بعد ذلك حتى موته»(٣١).

ويدل سير الأحداث على أن المسئول البريطانى قد تعامل مع ذلك التهديد بجدية مطلقة، ثم توصل مع كارتر إلى اتفاق غير معروف التفاصيل إلا أنه كان على كارتر أن يغلق فمه نهائياً عن هذا الأمر، كان كارتر يملك معلومات لا يعرفها إلا هو وربما كارنرڤون عن العلاقة بين فترة العمارنة المضطربة التى اتسمت بالغموض وانتشار الفتن، وبين الأحداث التى أحاطت بحياة موسى وعصره، تلك المعلومات غير متوفرة من خلال التاريخ التوراتى، وغير معروفة حتى الآن من خلال صفحات التاريخ المصرى التقليدى المتعارف عليه حالياً.

تلك المسألة الشائكة والخطيرة هى موضوع النصف التالى من هذا الكتاب، ومما لا مفر منه تحدى وجهات النظر التقليدية الراسخة عن الخروج التوراتى ومساره، ليس ذلك فقط، بل كشف أصول الجنس الإسرائيلى وتأسيس عبادة يهوه، وحقيقة جبل سيناء والغزو الإسرائيلى لكنعان، وكل ذلك سيغلف المعتقدات التقليدية عن أصل الديانة اليهودية، والحق الإسرائيلى الإلهى فى أرض فلسطين بالشكوك، وبعد ذلك نثبت أن كارتر وكارنرڤون أخفيا وثائق البردى التى عثرا عليها فى مقبرة توت عنخ آمون، التى لو كانت قد ظهرت وأعلنت لكانت قد غيرت وجه الشرق الأوسط إلى الأبد.

الجزء الثالث

مـوســـــى

١٥- عصر الخروج

يذكر العهد القديم أن العبريين جاءوا إلى مصر فى عصر مجاعة شديدة وجفاف حلا بأرض كنعان، وبرز من بينهم يوسف بن يعقوب الذى باعه إخوته إلى تجار رقيق، إلا أنه حاز شهرة بعد ذلك فى البلاط الملكى فى مصر بسبب قدرته على تفسير أحلام فرعون (وهو الاسم الذى تشير به التوراة لحاكم مصر)، ومكنت نصائح يوسف الحكيمة فرعون مصر من تفادى كارثة اقتصادية وإنسانية عظمى، وكافأه الفرعون بأن سمح لأبيه وإخوته وعائلته بالاستقرار فى مصر، بعد ذلك اكتسب يعقوب اسم إسرائيل، وتكاثر نسله ـ أبناء إسرائيل ـ وأصبحوا كثرة كبيرة،و مما جعل فرعون يكرههم، وهكذا بدأ عهد «تعاستهم » وبلواهم، وبعد عهود غير محددة حكم مصر فرعون «لم يكن يعرف يوسف»(١)، وراعه المدى الذى تكاثر إليه العبريون، وتنامى عددهم وقوتهم، كما لاحظ فرعون أنهم ينحازون إلى جانب أعداء مصر حين تكون مصر فى حالة حرب؛ لذلك عين عليهم فرعون « رؤساء تسخير كى يذلوهم بأثقالهم»، فأجبروهم على بناء مخازن فرعون، ومدن بيتون ورمسيس(٢)، إلا أن المصريين كلما زادوا فى تسخيرهم كلما ازدادوا تناسلا وكثرة(٣)، وهكذا مرر (المصريون) حياتهم بعبودية قاسية(٤).

وعمد الفرعون بمساعدة القابلات إلى قتل كل ذكر يولد للعبريين، إلا أن القابلات خشين رب اليهود، ورفضن تنفيذ أوامر الملك، ولما علم الملك أن أوامره لم تنفذ أمر بإلقاء أى ذكر يولد لهم فى النهر، ومرة أخرى لم تنفذ أوامره بشكل مطلق.

سفط بين البوص والبردى

من العائلات العبرية التى أمرت بالتخلص من مواليدها الذكور عائلة عمرام وهو من نسل لاوى، أحد أبناء يعقوب الاثنى عشر(٥)، كان عمرام يعيش مع امرأته، واثنين من أبنائهما هما هارون البالغ من العمر ثلاث سنوات، وميريام التى بلغت الرابعة عشرة من عمرها، ولما أنجبا طفلاً ذكراً أخفياه لثلاثة أشهر، إلا أن الاستمرار فى إخفائه أصبح أمراً عسيراً فوضع عمرام وامرأته الطفل فى «سفط من البردى»(٦)، وأطلقاه على سطح ماء النهر بين سيقان البوص والبردى. وسرعان ما لمحت ابنة فرعون سفط البردى والطفل الذى به، وكانت قد أتت النهر لتستحم وراق فى عينها الطفل الذى أدركت أنه من أبناء العبريين، ورأت ميريام الأميرة تأخذ شقيقها الطفل من الماء، وسألت الأميرة إن كانت تريد مرضعة للطفل فوافقت ابنة الفرعون، وهكذا جاءت أمه لإرضاعه، وأسمت الأميرة الطفل موسى؛ لأنها عثرت عليه فى الماء (٧). والاسم بالمصرية القديمة يعنى «جليب الماء» أو الذى عثر عليه فى الماء. ونشأ موسى فى البلاط الملكى المصرى كابن للأميرة ابنة فرعون، وهكذا لقن كل صنوف الحكمة والمعرفة من كهنة مصر(٨). وطبقا لما يذكره المؤرخ اليهودى چوز يفوس ڤلاڤيوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : قاد موسى جيش مصر ضد جيش أثيوبيا الذى جاء لغزو مصر من الجنوب واستولى على عدة مدن مصرية فى أقصى الجنوب(٩)، وأصبح موسى قائدا عظيما من قادة الجيش المصرى.

هكذا نشأ موسى ودرج على نمط الحياة المصرية، إلا أنه ضاق بها بعد ذلك، وذهب لتفقد أحوال أهله، فصدمه ما يتعرضون له من هوان وتسخير، وذات يوم رأى موسى الذى كان قد بلغ الأربعين من عمره رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرياً وغاظه ظلم المصرى للعبرى فضرب المصرى وقتله، ووارى جثته فى الرمال إلا أن الأمر عرف فى اليوم التالى، وسرعان ما وصل إلى مسامع الفرعون الذى فكر فى قتل موسى، وأيقن موسى أنه

لا يستطيع البقاء فى مصر، ففر إلى أرض ميديان، بلاد الميديانيين.

وبقى موسى فى أرض ميديان أربعين عاماً يعمل برعى الغنم، كان يرعى قطعان يثرون بعد أن تزوج ابنته زيورا، وذات يوم توغل وراء الكلأ فى البرية حتى وجد نفسه فى أعماقها عند جبل الرب، جبل حوريب(١٠)، وهنا ظهر له الرب على هيئة نار فى عليقة عشب، إلا أن النار لا تحرق العليقة(١١)، وأمره أن يخلع نعليه؛ لأن ذلك المكان مقدس، ثم كلفه بتحرير شعبه من نير عبودية مصر وإخراجهم منها وقيادتهم إلى أرض الرب... أرض تفيض باللبن والعسل(١٢)، وبعد أن ساق الرب له إمارات كثيرة اقتنع موسى بقوة الرب وقدرته مما دفعه لسؤال الرب عن اسمه، ورد عليه الرب فى بساطة «أنا من هو أنا»(١٣)، وأخبر موسى أبناء إسرائيل أن «أنا» أو «يهوه» قد أرسلنى إليكم»(١٤).

الخروج

بعد عودة موسى من ميديان إلى مصر، التقى بأخيه هارون، وتوجها معا إلى شيوخ بنى إسرائيل قبل أن يذهبا إلى فرعون؛ ليطلبا منه إطلاق شعبهم، وبعد أن أظهر موسى أمام الفرعون معجزات دلت على أن ربه يهوه أقوى من آلهة المصريين، رفض فرعون إطلاق شعبه، وهكذا أنزل رب موسى عشر ضربات كبرى على مصر واحدة بعد أخرى مما أضعف فرعون مصر ونظام حكمه، حتى استسلم فى النهاية، وسمح للإسرائيليين ونسائهم وأطفالهم وماشيتهم بالخروج من مصر، وبعد أن بدأ موسى فى قيادة شعبه للخروج بهم، غيَّر فرعون مصر رأيه، وأمر خيالة الجيش وعجلاته الحربية ومشاته بالخروج فى أثرهم وإعادتهم، وقاد الحملة بنفسه ليضمن إعادتهم.

ووصل أبناء إسرائيل الذين كانوا ٦٠٠٠٠٠ رجل، وأسرهم إلى البحر الأحمر (فى العبرية بحر سوف وتعنى حرفيا بحر البوص ونبات البردى) ولما أصبح الجيش المصرى فى مرمى بصر أبناء إسرائيل استغاث موسى

بيهوه لانقاذهم، وهكذا أجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء(١٥)، وخلق انشقاق البحر ممرا آمنا لأبناء إسرائيل فعبروا إلى الجانب الآخر، ولما حاول جيش مصر اللحاق بهم انطبق عليهم الماء وأغرق فرسان الجيش المصرى وعجلاتهم الحربية.

بعد ذلك، دخل أبناء إسرائيل إلى«برية سيناء» (١٦)، حيث صعد موسى جبل سيناء(١٧)، أو جبل حوريب(١٨)، وأنزل عليه يهوه القوانين المقدسة (الوصايا العشر) إلا أن الاسرائيليين طلبوا من هارون أثناء غياب موسى على الجبل أن يصنع لهم آلهة فجمعوا خواتم زوجاتهم وحليهن الذهبية وصهروها وصاغوا منها عجلا ذهبيا (١٩)، وكان هارون قد صنع مذبحا تحرق عليه التقدمات المقدمة إلى الرب لاسترضائه، وفى الصباح التالى استيقظ القوم مبكرين، لتناول طعامهم وشرابهم ويبدأون لهوهم، وعاد موسى، ورأى ما يفعلون فغضب غضباً شديداً، وثار، وحطم لوحى الشهادة المكتوب عليهما وصايا الرب، ونسخ منها نسخة أخرى بعد أن دفع سبط لاوى لقتل ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ممن ضلوا عن طريق الرب.

بعد مغامرات كثيرة، وصل أبناء اسرائيل إلى مشارف أرض موآب، الأردن حاليا، واستعدوا لعبور نهر الاردن؛ ليدخلوا الأرض الموعودة، وهنا سلم موسى قيادة أبناء إسرائيل إلى الأكبر سناً من أبناء الأسباط الاثنى عشر، ثم صعد إلى جل نبو، إلى قمة الفسجة قبالة مدينة أريحا(٢٠)، من تلك القمة راح يتطلع إلى أرض كنعان أرض ميراثهم، ثم مات موسى فى موضعه بعد أن بلغ مائة وعشرين عاماً من العمر، ودفن فى وادى أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم (٢١) وبكاه أبناء إسرائيل ثلاثين يوما.

هذى هى قصة موسى كما ذكرت فى التوراة الذى نزلت عليه شريعة الرب ونبى أبناء إسرائيل، وذكرت قصته فى الأسفار الخمسة الأولى للعهد القديم وهى أسفار: التكوين، الخروج، اللاويين والعدد والتثنية، ولكن، ما

هى الحقيقة التاريخية لا الدينية لموسى والخروج؟وما الذى نعرفه عن العالم الذى عاش فيه مما يربو على ثلاثة آلاف عام مضت؟ فى ربيع عام ١٩٢٤ مضى كارتر إلى مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة وهدد مسئوليها بنشر نصوص برديات وجدها بمقبرة توت عنخ أمون على العالم كافة، تظهر الوقائع الحقيقية التى سجلتها الحكومة المصرية القديمة المعاصرة للخروج اليهودى« من مصر»(٢٢).

وإن كانت تلك الواقعة قد سجلها «لى كيديك» صاحب مكتب كيديك لتنظيم المحاضرات بأمانة، فإن ذلك يدفعنا للتساؤل : لماذا اعتقد كارتر أن بإمكانه دفع الإدارة البريطانية فى القاهرة إلى اتخاذ خطوات عملية لدعمه، وذلك بتهديدهم أن بحوزته وثائق بردية تحتوى على حقيقة واقعة الخروج؟ لا نجد إجابة منطقية لذلك التساؤل إلا بافتراض أن المادة المسجلة على تلك البرديات كانت تمس أموراً سياسية ذات حساسية خاصة مما يحتم إخفاءها لا نشرها، فما الذى كان كارتر يعرفه ويساوم به؟ وما الذى أمله وتمناه من جراء تلك المساومة؟ التفسير الوحيد هو أن تلك الوثائق البردية كانت تحتوى على وقائع وشكل لقصة الخروج تتناقض مع الوقائع والشكل المذكورة به فى التوراة.

ولو صح ذلك، فلابد لنا أن نفهم أولاً ما كان معروفاً وسائداً ومقبولاً عن الخروج فى ذلك الوقت الذى توجه فيه كارتر إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة، وبعدها يمكننا أن نمضى فى بحثنا قدماً، لمحاولة التعرف على ما كان مسجلا على تلك البرديات، ولماذا اعتقد كارتر أن بإمكانه مساومة السلطات البريطانية؛ لتحقيق أهدافه بالتلويح بمحتوى تلك البرديات؟!.

رمسيس الأكبر ـ فرعون مصر

لا توجد بأسفار العهد القديم إلا فقرات متفرقة يغلب عليها التعميم، ولا تحتوى على قيمة تاريخية محددة عن عصر موسى والأحداث التاريخية التى أحاطت بالخروج، وتلك المادة التاريخية الشحيحة يمكن

استخدامها على النقيضين، أى : إثبات أو نقض النظريات المتضاربة حول حقيقة شخصيته والطبيعة التاريخية المحددة للعصر الذى عاش فيه.

وفى زمن كارتر، كانت المفاهيم السائدة والشائعة تدرج عصر موسى فى عهد فرعون بعينه هو رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)، وهو من عرف واشتهر بأنه رمسيس الأكبر، ورجحت المفاهيم السائدة فى عصر كارتر أن رمسيس الأكبر هو الفرعون الذى طغى على أبناء إسرائيل واستعبدهم، وسخرهم فى البناء والتشييد؛ لأنه لم يكن يعرف يوسف، ومثالا لذلك يذكر م. ج ايستون فى كتابه «قاموس التوراة المصور» الذى نشر لأول مرة عام ١٨٩٤:

رمسيس الثانى، ابن سيتى الأول يحتمل أنه فرعون اضطهاد العبريين، وعرف موسى ذلك العاهل معرفة جيدة خلال الأربعين عاماً التى عاشها فى رحاب البلاط الملكى، وأثناء هروب موسى بأرض ميديان مات رمسيس بعد أن حكم سبعة وستين عاماً، وحنط ودفن بمقبرته الملكية فى وادى المقابر الملكية بجوار آبائه(٢٣)، ولاحظ باحثو التوراة أن رمسيس الثانى تبنى خلال عهده الطويل مشاريعاً إنشائية معمارية هائلة وضخمة مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم، منها معبد أبى سمبل الهائل بتماثيله الضخمة التى تمثله على واجهة المعبد، وشيده نحتاً فى جبل صخرى هائل، على مشارف حدود مصر مع السودان؛ لتحذير الغزاة النوبيين من التقدم إلى ما هو أبعد من ذلك، ومن بقايا أعماله - أيضا - ذلك التمثال الهائل الذى يبلغ وزنه ألف طن وارتفاعه عشرين متراً، وعثر عليه بالرامسيوم على الضفة الغربية لمدينة طيبة، وهو التمثال الذى ألهم الشاعر الشهير شيللى قصيدته المعروفة «أوزماندیا» عن فناء أعظم الحضارات، فهل كان رمسيس الأكبر هو فعلا من استعبد أبناء إسرائيل وسخرهم فى بناء مدينتى رع رمسيس وبيتوم؟

يتحدث سفر التكوين عن يوسف وأبيه يعقوب وعن إخوة يوسف الأحد عشر، الذين سمح لهم فرعون بالاستقرار فى أرض جوشن المعروفة

- أيضا - باسم رع - أمسيس (٢٥) تكريما ليوسف. وفى سعى باحثى التوراة إلى معرفة مكان أرض جوشن اعتقدوا أن مدينة المخازن الفرعونية رع رمسيس هى موضع أرض رع رمسيس، ومن تقارب الأسماء صوتيا مالوا إلى أن المدينة قد شيدت فى عهد رمسيس الأكبر، فضلا عن ذلك ، أشارت بعض المخطوطات المصرية القديمة إلى مدينة زال أثرها تدعى بى رع ميس وتعنى بيت رمسيس عرف عنها أنها كانت تقع شرق دلتا مصر بالقرب من مدينة سيلا الحدودية، وليس غريبا أن يعتقد الباحثون أن بى رع ميس هى ذات المدينة التى ذكرتها التوراة باسم رع أمسيس..

وفى عصر كارتر مال الباحثون إلى الاعتقاد أن مدينة بى راميس هى بقايا مدينة تانيس الواقعة على الفرع التانيسى القديم للنيل فى دلتا مصر، إلا أن باحثين آخرين عارضوا ذلك الاعتقاد، ورأوا أن تانيس هى المدينة المذكورة فى التوراة باسم مدينة زوان، وذكرت التوراة أنها شيدت قبل مدينة الخليل بفلسطين بسبعة أعوام (٢٦)، وتذكر التوراة مدينة زوان فى المزامير على أنها المدينة التى عاش بها يعقوب فى مصر ومن بعده نسله من الأسباط الاثنى عشر(٢٧)، وكان الدليل الوحيد لذلك الاعتقاد وجود المدينتين فى شرق الدلتا، وكان كل ما تبقى فى عصر كارتر من تلك المدينة المفقودة مساحة شاسعة مليئة ببقايا حوائط منهارة، وبلاطات تذكارية (ستيلا)، ومسلات، وتماثيل يحمل كثير منها اسم رمسيس الثانى.

وافترض كثيرون أن مدينة تانيس كانت العاصمة الشمالية لرمسيس وأن العبيد الإسرائيليين هم من قاموا بتشييدها أثناء عصر موسى.

وطبقا لما يذكره ايستون فى القاموس التوراتى المصور: «زوان أو تانيس كانت مدينة الحدود بأرض جوشن، وواجه موسى وهارون رمسيس فى قصر تلك المدينة »(٢٨)، وعدا ميل الباحثين إلى التعرف على مدينة تانيس على أنها مدينة زوان التوراتية، اعتبروا - أيضاً - أنها كانت مدينة «حواريس» عاصمة (الهكسوس وهم الملوك الآسيويين الذين غزوا مصر)،

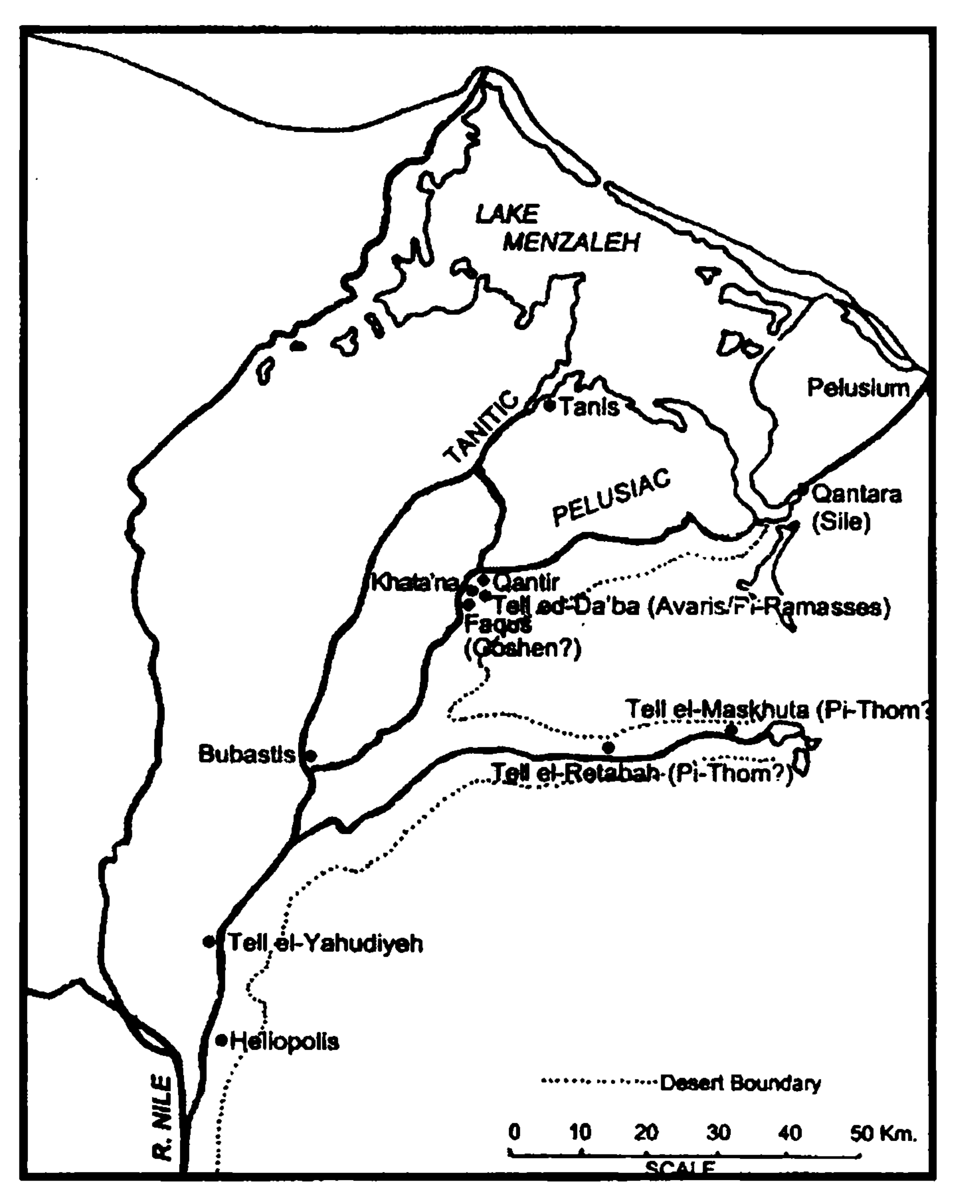
وحكموها من عاصمة بشرق الدلتا لمدة تقدر من ٧٥ إلى ١٥٥ عاما فى الفترة المعروفة باسم الفترة الوسيطة الثانية، الواقعة بين نهاية حكم أسرات المملكة المتوسطة، وبداية حكم أسرات المملكة الحديثة فى الفترة من ١٧٨٦ حتى ١٥٧٥ قبل الميلاد على وجه التقريب، ويعتقد بعض باحثى التوراة أن يوسف وأباه وإخوته قدموا إلى مصر خلال عهد الهكسوس حيث كانوا ينتمون مثلهم مثل الهكسوس إلى أصل سامى، ولذلك استقروا بشرق الدلتا فى حماية الهكسوس.

موقع تل الدبا

خلال المائة عام الأخيرة تراوحت النظريات حول مدينتى بى رع أميس وحواريس ومكانهما الحقيقى مما ركز الأبحاث على تلك المواضع الجغرافية المثيرة للجدل. وفى صيف عام ١٨٨٢ م بدأ الآثارى السويسرى وعالم اللغات القديمة إدوارد ناڤيل أعمال البحث والتنقيب فى موقع اسمه تل الدبا بمحافظة الشرقية بشرق دلتا مصر .

واكتشف «ناڤيل» منطقة يزيد قطرها على خمسمائة متر كانت منطقة حضرية قديمة، تبين له بعد ذلك أنها كانت تمتد على مساحة شاسعة إلى الغرب ما يزيد على كيلو متر طولا، حتى تخوم قرية قريبة منها تدعى حاليا قرية ختنا وعزبة حلمى، وتقع على الفرع البالوزى القديم للنيل الذى جف بعد ذلك.

وسرعان مازود موقع البحث الذى تبين أنه يمتد - أيضا - إلى الشمال لمسافة تصل إلى كيلو مترين حتى قرية قنطير، الباحثين بأدلة تثبت أن تلك المدينة كانت قائمة ومزدهرة فى عهد الهكسوس، ثم هجرت المدينة لمدة ٢٥٠ عاما قبل أن يعاود حور محب إحياءها، واستمرت بعد ذلك كمدينة مأهولة وعامرة بالأنشطة حتى عهد رمسيس الأكبر(٢٩)، على سبيل المثال : وجد فى قنطير بقايا قصر هائل تبين أن العمل فى تشييده بدأ فى عهد الملك سيتى الأول، أبى رمسيس الأكبر، وكان من بقاياه بوابة



خريطة لشرق الدلتا، تظهر المواقع التى ورد ذكرها في قصة الخروج

رائعة الجمال موجودة حاليا بمتحف اللوفر بفرنسا، كما عثر على موضع بئر وبقايا منازل أمراء وكبار موظفى الدولة تعود إلى عصر رمسيس الثانى وعدا ذلك ، وجدت قاعدة صخرية صلبة أعدت لتمثال هائل للملك يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار، واكتشفت عام ١٩٥٣م على يد الآثارى المصرى شحاته آدم فى قرية قنطير(٣٠) ، واستنتج شحاته آدم أن رمسيس شيد

معبدا ذا أهمية كبيرة في ذلك الموقع(٣٠).

وأصبح من الواضح أن ذلك الموقع هائل الاتساع كان موضع مدينة كبيرة من مدن الرعامسة، ويحتمل إلى حد كبير أنها كانت العاصمة الشمالية لرمسيس، وأن تلك المدينة أعيد بناؤها على أنقاض مدينة أقدم تعود جذورها إلى المملكة المصرية القديمة(٣٢). الأهم من ذلك، أن تلك المدينة قد تم احتلالها خلال الفترة الوسيطة الثانية على أيدى «أقوام آسيويين قدموا من سوريا وفلسطين خلال الفترة الوسيطة الثانية، وأن ذلك يفرض بقوة أنها كانت مدينة بى رع ميس أى : المدينة المذكورة فى التوراة على أنها مدينة مخازن رمسيس وهو ما يعتقده - أيضاً- الآثارى المصرى محمود حمزة الذى أعلن رأيه ذاك فى منتصف خمسينيات القرن العشرين(٣٣)، وتلاه فى تأييد ذلك الإفتراض الآثارى المصرى لبيب حبشى الذى أضاف أن ذلك الموقع هو - أيضا - موقع مدينة حواريس(٣٤)، عاصمة الهكسوس، وهى نظرية طورها بعد ذلك عالم المصريات الكندى چون ڤان سيتزر(٣٥).

إضافة إلى ذلك ، أشار إدوارد ناڤل إلى ملحوظة هامة مسجلة بالنسخة السبعينية للتوراة، وهى النسخة الإغريقية التى ترجمت لليهود المتحدثين بالإغريقية فى العصر الإغريقى ـ الرومانى ـ والتى ترجمت عن نسخة عبرية بالإسكندرية فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد، وقد وجد أن تلك النسخة السعبينية تشير إلى أرض جوشن التى عاش فيها العبرانيون بمصر باسمها العربى القديم لتلك المدينة فى شرق الدلتا، وأن المدينة الرئيسية لتلك المنطقة كان اسمها فاقوسا، يقرأ ويكتب بالمصرية القديمة ج ـ س ـ م أو ج ـ س م ـ ت، ورأى ناڤيل - وربما كان على صواب - أن اسم جوشن مشتق منه، واليوم أصبحت فاقوسا مدينة فاقوس الحالية وتقع على بعد ستة كيلومترات من موقع تل الدبا(٣٦).

وهناك تسجيل قديم قد يدعم ما ذهب إليه ناڤيل من أن أرض جوشن كانت بمنطقة فاقوس فى تسجيلات راهبة كانت ترحل للحج إلى القدس

عبر تلك المنطقة فى الفترة بين ٥٣٣ ـ ٥٤٠ م، وسجلت فيما سجلته: تبعد مدينة رمسيس عن المدينة العربية (فاقوسا) أربعة أميال، ولكى نصل إلى المدينة العربية لنتوقف بها فترة للراحة، لابد أن نمر عبر مدينة رمسيس التى أصبح مكانها حقولا مزروعة، ولا يوجد بموضع المدينة القديمة إنسان واحد وهى حقيقة يمكن رؤيتها بوضوح، وهى ذات محيط واسع، ومازالت بعض مبانيها قائمة. أما أنقاض ما انهار منها فلايزال يشغل مساحة كبيرة حتى يومنا هذا(٣٧).

وظلت تلك المفاهيم سائدة حتى بدأ د. مانفريد بايتاك من معهد المصريات بجامعة ڤينيا بالتنقيب والبحث فى موقع تل الدبا، وقام بمسح واسع لكل المنطقة، وكشف عن موقع مدينة كبيرة سكنها الآسيويون بدأت فى آخر عصر المملكة المتوسطة، واستمرت مأهولة حتى نهاية المرحلة الوسيطة الثانية، عندما طرد القائد المصرى أحمس الهكسوس من مصر، ومن بين ما كشف عنه بايتاك فى تل الدبا معبدين آسيويين كبيرين متماثلين تمام التماثل مع المعابد الآسيوية التى كشف عنها فى مجدو وحازور بفلسطين (٣٨)، واكتشف باتياك أن موقع تل الدبا يشغل مساحة تصل من أربعة إلى خمسة كيلومترات مربعة(٣٩)، ووصل من خلال أبحاثه المستمرة حتى اليوم (٢٠٠٢ ميلادية) إلى ما يلى:

أخذا بالبراهين التى توصلت إليها ـ البراهين الثقافية ومستويات طبقات الحفر ـ فإنها تدل جميعاً على أن هذا الموقع هو موقع عاصمة الهكسوس مدينة حواريس، وأنه كان – أيضا –.موقع مركز إدارة الرعامسة للدلتا، أى مدينة بى رع ميس(٤٠).

وأزال بايتاك اللبس المحيط بمدينة تانيس التى ساد الاعتقاد لعهود طويلة أنها المدينة المذكورة باسم زوان فى التوراة ورع اميس، وسيطر الاعتقاد لسنوات أن أغلب المنشآت التى تعود إلى الرعامسة والمسلات والتماثيل المتناثرة فى موقع تانيس وحوله قد سرقت فى عهود قديمة من موقع تل الدبا وأعيد استخدامها فى موقع تانيس، وأثبت بايتاك صحة

ذلك الافتراض وافترض أن إعادة نقل تلك المنشآت والتماثيل والمسلات لم يبدأ إلا بعد أن بدأ الفرع البيلوزى للنيل فى الجفاف نتيجة ترسب الطمى به بغزارة، وكان موقع تل الدبا على ضفة ذلك الفرع قبل جفافه، وقد جف إبان عهدى الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، أى : فى الفترة ما بين ١٠٨٧ إلى ٧٣٠ ق.م. وقد ظلت المدينة قائمة حتى التاريخ الأخير ثم بدأت تفقد أهميتها تدريجياً، وزوت واضمحلت بجفاف فرع النهر، وبدأ الحكام فى نقل ما بها من منشآت حتى الصخرية منها واحدة بعد أخرى إلى تانيس ، التى ما تزال على الفرع التانيسى للنيل (فرع دمياط) وابتلعت الصحراء الزاحفة بعد جفاف الفرع مدينة بى رع ميس فى حين ازدهرت تانيس فى الحجم والنفوذ والأهمية.

وأدى انتقال الأهمية هذا من مدينة ـ عاصمة إلى مدينة أخرى كما يرى بايتاك إلى خلط الباحثين اليهود عند بحثهم عن موضع أرض جوشن، أرض رمسيس، ومدينة مخازن رمسيس واعتقدوا مخطئين أنها تانيس (٤١)، وبالرغم من اكتشاف ألفريد بايتاك لمدينة بى رع ميس، واعتقاده (وربما كان على صواب) أنها المدينة المذكورة فى التوراة باسم رع آميس، إلا أن أبحاثه وماتوصل إليه من نتائج لا تلقى أى قدر من الضوء على شخصية فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، ولا على العصر الذى عاش فيه موسى.

وكما بيَّنا، لم يكن رمسيس الثانى من شيد مدينة بى رع ميس فهو وأبوه سيتى الأول أعادا إعمارها فقط، وحولاها إلى عاصمة شمالية لهما ولمن تلاهما من الرعامسة، وتم تغيير اسمها إلى بى رع ميس، أى : بيت رع ميس، ويظهر ذلك أنه لا يوجد أى سبب يدفع لافتراض أنه هو فرعون الخروج أو فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل.

كان أول من بدأ إعادة إعمارموقع تل الدبا – بعد طرد الملوك – الرعاة الآسيويين (الهكسوس) الملك حور محب، فهل يمكن أن يكون حور محب هو فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، افترضوا – أيضاً – (فى عصر

كارتر) أن موسى عاد إلى مصر بعد أربعين عاماً قضاها فى أرض ميديان، وعاد فى عهد ابن رمسيس الثانى، الملك ميرنبتاح الذى حكم على وجه التقريب فى الفترة من ١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق. م. (٤٢).

ولو صح ذلك الافتراض ، فإنه يجعل ميرنبتاح فرعون الخروج وأنه كان عاهلا لمصر حين أنزل يهوه ضرباته العشر على مصر ليتمكن أبناء إسرائيل من نيل حريتهم.

إلا أنه لم يظهر من الحقائق من خلال المكتشفات الآثارية بكل من مصر وفلسطين ما يدعم تلك النظرية بأى قدر، بل أثبتت المكتشفات الآثارية عكس ذلك الاعتقاد، فمثلا: اكتشف عالم المصريات البريطانى ويليام م. فلندرز بترى عام ١٨٩٦ لوحة تذكارية (ستيلا) من الجرانيت الأسود وهو يزيح الركام عن معبد ميرنبتاح الجنائزى فى طيبة (الأقصر)، ووجدت نسخة أخرى مهشمة فى معبد الكرنك (١٣) غيرت تماما من خلال النص المسجل عليها كل المفاهيم حول حقيقة وجود إسرائيل القديمة.

نصب النصر التذكارى

اشتهرت تلك اللوحة التذكارية (ستيلا) بين علماء المصريات باسم نصب النصر التذكارى، (وأحيانا نصب إسرائيل). هذا النصب الإعلانى موجود حاليا بالمتحف المصرى (مسجل : رقم قاهرة ٣٤٠٢٥)، ويعود تاريخه إلى العام الخامس من حكم ميرنبتاح الذى دام لعشرة أعوام كانت عامرة بالأحداث، وتسجل تلك اللوحة هزيمة الليبيين، وهم شعوب قبلية كانت فى شمال إفريقية إلى الغرب من مصر، وبعد أن سجلت اللوحة ذلك النصر العظيم ذكرت بعدها أن الآلهة عقدت جلسة تداول أقروا بعدها بانتصار ميرنتباح وأن السلام عم الأرض بعد ذلك الانتصار، ثم تسجل اللوحة قصائد مديح تشيد بانتصار الملك على كل أعداء مصر الموجودين قرب الحدود الشمالية للإمبراطورية المصرية ، يقول النص:

كل الأمراء ساجدون أمامه

لايرفع أحد منهم رأسه بين أقواسه التسعة.

أرض تحنو مهجورة ومدمرة ومالت أرض الحثينيين للسلام .

غنم كل أرض كنعان.

قضى على عسقلان واستولى على چيزار.

ومحى يانو عام من الوجود.

أفنى إسرائيل ، قضى على بذرته.

وأصبحت حارو أرملة.

كل البلاد قاطبة مالت للخضوع.

كل من أثار قلاقل أصبح مقيدا .

كل تلك البلاد خضعت واستسلمت لميرنبتاح، وكان مصطلح «الأقواس التسعة» هو المصطلح الذى يصف الأعداء التقليديين لمصر(وهم مصورون رمزيا على أختام المقابر الملكية على هيئة تسعة أسرى مكبلين بالقيود) والتحنو هم الليبيون ، أما الحثينيون فهم الشعوب - الهند - الأوروبية التى كانت بجنوب تركيا الحالية، واحتلوا مناطق من شمال سوريا ، وخاضوا معركة كبرى ضد الجيش المصرى فى قادش بشمال سوريا فى عهد الملك رمسيس الثانى(٤٥) أبى الملك ميرنبتاح، وقد يبدو من النص الذى يذكر: مالت أرض الحثينيين للسلام أن الابن يخلد عظمة أبيه الحربية، بالرغم أن تلك المعركة الشهيرة، معركة قادش لم تتمخض عن هازم ولامهزوم، ويظهر النص - أيضا - أن كنعان كانت من المناطق التابعة لمصر، بمنطقة فلسطين الكبرى القديمة، بالرغم من أن الاسم كان يستعمل - أيضا - للإشارة إلى غزة عاصمة أرض كنعان، أما عسقلان وچيزار فقد كانتا موانئ بحرية على الساحل الجنوبى لكنعان، أما حورو وخورو والحورانيون فقد كانوا من الشعوب التى تقطن فلسطين الكبرى(٤٦).

وذكر اسم إسرائيل على ذلك النصب التذكارى من الأشياء التى تلفت النظر بقوة، ويعود ذلك إلى سببين : الأول : لأنه يعد أقدم إشارة مدونة

تشير إلى نسل يعقوب، الثانى : أن ذكر الاسم يقدم دليلاً واضحاً أن أبناء إسرائيل كانوا قوة بلغت درجة معينة تجعل منهم تهديداً لحدود مصر الشمالية، الحقيقة اللافتة للنظر أن كلمة إسرائيل سجلت بصيغة اسم شخص لا دولة مما يعنى أنها كانت تشير إلى قبيلة أو عشيرة ويبدو أنها كانت من القبائل المرتحلة بلا موطن ثابت تستقر به.

ويتضمن معنى «أفنى إسرائيل ، قضى على بذرته» المذكور فى النصب التذكارى لميرنبتاح (وفى ترجمات أخرى ، حرب إسرائيل ، ولم يعد له بذرة)(٤٧) أنه بالرغم من هزيمتهم فى الحرب، شكل زعماؤها تهديداً على مصر حين كانت مصر تهيمن على مناطق عظمى من كنعان من منطقتها الساحلية جنوبا حتى حدود الإمبراطورية الحثينية فى الشمال، وعلى ضوء التغيرات الطفيفة فى تسجيل أحداث التاريخ القديم للحثينيين لا يمكننا تحديد إن كان أبناء إسرائيل «قد فنوا» على يدى ميرنبتاح، ولا إن كانوا قد بدأوا فى الاستقرار فى كنعان فى ذلك الوقت، إلا أن المعروف والثابت أنهم لم يشكلوا تهديداً لمصر، حتى بعد أن وصلوا إلى أقصى قوتهم، ولم يتمكنوا إلا من هز الاستقرار الهش الذى أقامه فى كنعان أبو مبرنبتاح الملك رمسيس الثانى، وإدراك هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية؛ لأن التوراة تذكر أن أبناء إسرائيل قضوا أربعين عاماً فى التيه فى برية سيناء قبل أن يدخلوا أرض كنعان، الأرض الموعودة، وعلى ذلك لو كان العبريون قد عبروا نهر الأردن حين نقش النصب التذكارى لميرنبتاح فى العام الخامس من حكمه، فإن ذلك يعنى حرفياً طبقا للنص التوراتى أن الخروج من مصر قد حدث على أقل الافتراضات قبل ذلك بأربعين عاماً، مما يعنى بيقين أن ميرنبتاح لا يمكن أن يكون فرعون الخروج، ويعنى احتمال أن يكون الخروج قد حدث فى عهد أبيه رمسيس الثانى بينما يصبح فرعون الاضطهاد ملكا آخر تماما سابقًا على رمسيس الثانى، ومن الثابت أن أبا رمسيس الثانى هو الملك سيتى الأول الذى حكم تقريبا من ١٣٠٧ إلى ١٢٩١ ق. م. ، وأن أبا سيتى الأول، وهو الملك رمسيس الأول كان رجلا

طاعناً فى السن حين اعتلى العرش عام ١٣٠٨، ولم يحكم إلا عاماً واحداً قبل موته.

وبكل تلك الحقائق في أذهاننا ، يتضح أن أى مفهوم آخر يفترض أن العبريين المضطهدين قد بنوا مدينة رمسيس أو بى - رع ميس فى عهد رمسيس الثانى، المعروف باسم رمسيس الأكبر لابد من إغفاله، ومن الممكن أن يكونوا قد سخروا لبناء مدن قبل ذلك بزمن طويل، إما في عهد أبى رمسيس الثانى أى : سيتى الأول، أو قبله أى : فى عصر حور محب. وفى هذا الصدد، لا يمكن أن تكون تلك المدن قد عرفت قبل عهد رمسيس باسمه، ولا أن تكون المنطقة التى سكنها أبناء إسرائيل في أرض مصر تحمل اسم «أرض رمسيس»، وتثبت تلك الحقائق أن الاسماء المذكورة في التوراة ليست إلا مغالطات تاريخية، وبعبارة أدق أضيفت أسماء المناطق إلى قصة الخروج بعد وقوع الأحداث بزمن طويل يصل إلى عدة قرون حين بدأ تسجيل الأسفار الخمسة الأولى من التوراة كتابة لأول مرة .

البحث عن بى ـ توم

وماذا عن بى - توم، مدينة المخازن الثانية التى تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل قد شيدوها – أيضا – فى زمن تسخيرهم؟ هل يكشف لنا البحث عن موضعها الحقيقى ببعض الإشارات التى يمكن أن تشى بالعصر الذى حدث به الخروج؟

ولسوء الحظ ، لن يكشف لنا البحث عن موضعها عن المفاتيح والإشارات التى نأملها فالتعرف على موقع تلك المدينة لم يكن أقل إشكالا من التوصل إلى موقع مدينة رمسيس فى عصر كارتر، واتفق علماء الآثار وباحثوا التوراة أن مدينة بى توم مثل مدينة رمسيس لابد أن تكون على الحافة الشرقية للدلتا على تخوم الصحراء، ويحتمل جدا أنها كانت حصن بير ـ أتوم (بر ـ إتم) أى بيت الإله آتوم والمذكور فى عدد من المصادر القديمة، ونجده مذكوراً، مثلا: فى رسالة بعث بها مسئول

مصرى عن تلك المنطقة فى عهد الملك ميرنبتاح :

.. هذه الرسالة لإحاطتكم علما.... والتصرف...

قمنا بإدخال قبائل ساشو القادمين من أرض أيدوم (عبر) حصن ميرنبتاح حتب - حى - ماعت ، الموجود فى منطقة تچيكو إلى منطقة آبار (بر إتم) بت آتوم التابعة لميرنبتاح حتب - حى - ماعت الموجودة فى تچيكو من أجل أن يظلوا أحياء هم وقطعانهم(٤٨).

ويشير نصب ميرنتباح التذكارى لكيفية السماح لقبائل الساشو - وهو اسم كان يطلق على بعض قبائل الرعى من قدماء البدو - فى أوقات الشدة والجفاف بدخول الأراضى المصرية لترعى قطعانهم فى أرضها المعشبة، لذلك كانوا يقطعون المسافة من أرض أيدوم وهى منطقة جبلية شمال خليج العقبة، وبشرق البحر الميت فى منطقة عبر الأردن فى المملكة الأردنية حاليا (انظر الفصل ١٨) ، حتى مصر....

وفى عام ١٨٨٣ اعتقد إدوارد ناڤيل أنه عثر على بير - آتوم، أى مدينة بى - توم حين بدأ البحث والتنقيب فى تل مأهول بالسكان يدعى تل المسخوطة، يقع فى النهاية الشرقية لوادى طميلات على بحيرة التمساح فى القطاع الجنوبى من قناة السويس الحالية(٤٩)، وعثر على نقش على الحطام المتناثر، وهو نص يعود إلى رمسيس الثانى، والنص يذكر مكاناً اسمه توكو المذكور باسم «تجوكو» فى نص ميرنتباح التذكارى(٥٠) والذى كان جزءا من بيرآتوم، بالإضافة إلى ذلك، عثر على تمثال من الجرانيت الأحمر لرجل جالس القرفصاء يعود إلى عهد أوزركون الثانى حوالى ٨٨١ - ٨٥٢ ق. م منقوش عليه عنخ شير نفر، مسجل مدينة بيتوم المخلص (أى، بير آتوم) (٥١)، وهناك نقوش أخرى ذكرت اسم برآتوم، واستنتج ناڤل أنه اكتشف بى - توم، واستنتج أيضا أن هذا الموقع هو أول مكان توقف فيه أبناء إسرائيل، وكان يدعى سوكوث بعد أن فروا من أرض رمسيس فى قصة الخروج التوراتية(٥٢).

وبين بقايا المدينة التى عثر عليها ناڤيل فى تل المسخوطة، تعرف على

بقايا عدد كبير من الغرف المستطيلة وصفها بأنها غرف تخرين (٥٣) ورأى أنها مخازن القمح التى تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل قد بنوها لفرعون، ولاحظ أن بعض مواضع جدران تلك الغرف كانت من الطوب اللبن غير المخلوط بالقش، وهى صفة فريدة من وجهة نظره وتذكر بالمفهوم الشائع رغم زيفه أن العبريين قد أجبروا على صناعة قوالب الطوب اللبن غير المخلوط بالقش لبناء المخازن والمدن التى تذكرها التوراة.

بعد ذلك، أظهر بحثاً آخر بالموقع ذاته قام به چون هولاداى من المركز الأمريكى للبحث فى مصر، نتائج تتعارض تماما مع ما توصل إليه ناڤيل دون تفسير ولا شرح مقنع.

قرر چون هولاداى أن الموقع يعود إلى عصر برونزى آسيوى وكان مستعمرة أقيمت عام ١٦٠٠ ق. م، ثم هجرها من كانوا بها ولم يشغلها أحد حتى بداية عصر الغزو الفارسى حوالى ٦١٠ ـ ٤٨٦ ق.م(٥٦).

ومن الغريب والمثير للدهشة ، أنه لم يجد أى أثر يدل على إنشاء مدينة فى هذا المكان فى عصر الرعامسة.

وما توصل إليه هولاداى يجعل من الصعب على علماء المصريات وباحثى التوراة أن يقبلوا أن تل المسخوطة هو المكان الذى كانت به مدينة بى ـ توم.

وبالرغم من تلك النكسة البحثية، فإن عدم التوصل إلى أدلة أخرى تشير إلى موقع بى توم ، يجعل من تل المسخوطة المرشح الوحيد الأقوى لأن تكون هى موقع بى ـ توم القديمة، وحالياً هناك محاولات لإثبات أن بى ـ توم كانت موجودة فى موقع تل الرطبة، وهو موقع عثر به على آثار قديمة غرب وادى الطميلات، كما عثر به على منشآت تحمل خرطوش رمسيس الثانى(٥٧)، ومهما كان موقع مدينة المخازن الثانية التى بناها أبناء إسرائيل، فإنها لا تقدم لنا عونا فى التوصل إلى العصر الذى حدث فيه الخروج.

الترتيب الزمنى المذكور فى التوراة

هناك نظام آخر استخدم مرارا فى الماضى للتعرف على الترتيب الزمنى للأحداث التاريخية، وهو الترتيب الزمنى التوراتى ولا يمكننا ذكر ذلك الترتيب دون أن نشير إلى چيمس أوشر (١٥٨٠ ـ ١٦٥٦ ميلادية) أسقف أرماچ وأستاذ علم الأديان ، والذى ظل تأريخه الدينى المتزمت الذى نشر بعد وفاته عام ١٦٦٠م ضمن رسالته «التأريخ المقدس» مؤثرا على الأبحاث الخاصة بالخلق حتى اليوم. وابتدع چيمس أوشر نظاما معقدا لتوافق التزمين الشمسى والتزمين القمرى خلص منه إلى أن خلق العالم والبشر قد حدث عام ٤٠٠٤ ق. م، وبذلك التاريخ الذى اعتبره نقطة بداية فى التأريخ الدينى التوراتى راح يحسب تواريخ وقوع الأحداث العظمى المذكورة فى التوراة.

وعلى ضوء نظريته التى سادت، تم الاستناد إلى بعض فقرات التوراة لحساب عصر الخروج، على سبيل المثال : يذكر سفر الملوك الأول ٦: ١ ما يلى:

«وكان فى سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو، وهو الشهر الثانى أنه بنى بيت للرب»

ويتضمن التأريخ التوراتى أن سليمان بنى الهيكل عام ١٠١٢ ق. م (٥٨)، ويعنى هذا أن الخروج قد حدث عام ١٤٩٢ ق. م، أى : قبل عصر رمسيس الثانى وابنه ميرنبتاح بثلاثمائة عام.

وتذكر آية أخرى من سفر الخروج : أنه عند مغادرة أبناء إسرائيل أرض مصر، كانت إقامتهم بها قد بلغت أربعمائة وثلاثين عاماً (٥٩)، وذهب باحثوا التوراة إلى أن العبريين الأوائل الذين استقروا بمصر كانوا من قبائل الرعى الرحل الذين أجبرتهم المجاعة على مغادرة أرض سوريا وكنعان، أثناء حكم ملوك الأسرات المتوسطة فى عهد سنوسرت الثالث، أى: فى الفترة من ١٨٧٨ إلى ١٨٤٣ ق.م(٦٠) .

وحيث إن وجهة النظر تلك غير موضوعية ولا سند على صحتها إلا أنها تتفق مع الطريقة التى رحل بها يعقوب وأبناؤه إلى مصر، واعتبروها بداية إقامة إسرائيل فى مصر(٦١)، وإن صح ذلك، فإن هذا يعنى أن الخروج قد حدث بعدها بأربعمائة وثلاثين عاما، أى فى وقت ما بين ١٤٤٨ و١٤١٣ق.م. أى قبل عهد رمسيس الأكبر بمائتى عام، فهل توصلنا على الأقل إلى الإطار التاريخى للخروج من خلال تلك الحسابات؟

رمزية الأعداد

من الواضح أن الأرقام الدالة على الأزمان والعصور فى كل من العهدين، القديم والجديد من الكتاب المقدس ذات دلالة رمزية.

على سبيل المثال : قيل إن موسى هرب من مصر وهو فى الأربعين من عمره، بعد أن قتل مصريا كان يهين عبداً عبرانيًا، ثم قضى أربعين عاما فى أرض ميديان، قبل أن يعود إلى مصر ويدعو فرعونها إلى إطلاق شعبه، ثم قضى أربعين عامًا فى برية سيناء مع أبناء إسرائيل، ثم صعد إلى جبل نبو، وتطلع إلى الأرض الموعودة لأول مرة، قبل أن يسقط ميتاً فى موضعه.

فضلا عن ذلك نجد أن موسى حين نزلت عليه الوصايا على اللوحين على جبل سيناء، ظل فوق الجبل لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، ومن الواضح أن رقم أربعين يحمل دلالة خاصة لكاتب التوراة، وأن تلك الدلالة انعكست على أحداث حياة وعمر نبيهم الأول الرئيسى، ويبدو أن ذات الدلالة الرمزية للأرقام تكمن خلف مايوجد فى العهد الجديد من أن عيسى قبل أن يبدأ التبشير قضى أربعين يوماً وأربعين ليلة فى البرية.

وافترض المؤرخ التوراتى إيان ويلسون أن العدد ١٢٠ الذى ذكرت التوراة أنه العمر الذى بلغه موسى عند موته يعكس حالة من الكمال الرقمى؛ لأنه مضاعفات ١٢ و ٤٠ (٦٢)، وحين نضع ذلك فى أذهاننا ونعود مرة أخرى إلى سفر الملوك الأول ٦: ١، وأن هيكل سليمان قد بنى

فى العام ٤٨٠ بعد خروج أبناء إسرائيل من مصر، ويذكر ويلسون أن ٤٨٠ حاصل ضرب ١٥× ٤٠ كاشفا بوضوح عن رمزية الأرقام فى التوراة، ويؤكد أنه من الكوارث أن نفترض أن تلك الأعداد التوراتية تشير بالفعل إلى أعوام زمنية حقيقة(٦٣)، والأكثر تضليلا أن النسخة السبعينية للتوراة أوالتوراة الإغريقية مسجل بها : أن هيكل سليمان قد بنى بعد ٤٤٠ عاما من خروج أبناء إسرائيل من مصر، لا بعد ٤٨٠ عاما التى تذكرها النسخة التقليدية للتوراة.

وهذه الحقيقة بمفردها تجعل من فكرة استخدام التزمين التوراتى فى التأريخ للأحداث التاريخية لا جدوى منها ولا يمكن أن يركن إليها.

وباستبعاد التوراة، كيف يمكننا أن نتوصل إلى الإطار الزمنى التاريخى الحقيقى للخروج؟

وهل توجد أى وسيلة أخرى تساعد على تحديد العهد الذى حدث فيه الخروج بشكل دقيق؟

من الواضح أن هوارد كارتر توصل إلى التحديد الدقيق للعهد الذى حدث فيه الخروج حين كان يتجه بثقة إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة عام ١٩٢٤، ويهدد المسئولين البريطانيين بالقنصلية بنشر محتويات برديات الخروج المفترض عثوره عليها، إلا أن منافسه العتيد آرثر ويجال كان قد افترض قبل ذلك بشهور حلاً لمعرفة عصر الخروج، ويلقى الضوء على ما كان يلوح به كارتر، ويهدد بإفشائه.

١٦ - موسى المصرى

فى الوقت الذى كانت تفتتح فيه غرفة دفن توت عنخ آمون رسمياً فى فبراير عام ١٩٢٤، وقف عالم الآثار المصرية البريطانى آرثر ويجال تحت الشمس المحرقة، خارج مدخل المقبرة المزدحم ، كان يحيط به حشد من السائحين الذين أثارهم الاكتشاف، وكثير من محررى ومراسلى الصحف، ويحول بينهم وبين مدخل المقبرة صف من الحرس من الشرطة المصرية، وكان الكل متلهفا إلى معرفة ما يدور داخل المقبرة الصغيرة بعيداً عن أعينهم المستطلعة، أما ويجال الذى كان حاضراً بصفته الرسمية كعالم مصريات مراسل لصحيفة ديلى ميل، فإنه لم يتم اختياره ضمن المدعوين المنتقين لمشاهدة ذلك الحدث من داخل المقبرة.

إلا أن ويجال كان لديه إنجازاته الخاصة، وقائمة عمل مستقلة متعلقة باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وفى تلك المرحلة المبكرة من الكشف كان يعد مقالات مطولة عن الأحداث التى أحاطت بالكشف، ليجمعها بعد ذلك فى كتاب اتفق عليه مع ناشره ثورنتون بتروورث فى لندن، وظهر ذلك الكتاب بالفعل فى خريف ذلك العام بعنوان «توت عنخ آمون ومقالات أخرى»، وفى الوقت نفسه على وجه التقريب نشر كتاب كارتر الذى كتبه بالمشاركة مع آرثر ميس، وهو ما غاظ كارتر وأحنقه ، فقد كان يرى أن ويجال خصم لا يستحق إلا الازدراء ولايمكن التعامل معه على أى مستوى ويرجع سبب العداء بين الرجلين إلى اعتراض ويجال على اتفاق كارنرفون وكارتر مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار المقبرة، كان ويجال يرى أن ذلك الإتفاق مجحف للصحف المصرية والشعب المصرى ويحرمهم من حقهم فى معرفة أخبار أعظم اكتشاف أثرى فى بلدهم، وهو الرأى الذى اتضح

من الرسالة التى كتبها ويجال إلى كارتر فى ربيع ذلك العام (انظر الفصل١٣)

وكما هو متوقع، كان الوصف المبهر الذى قدمه كارتر فى كتابه لما رآه هو وكارنرڤون فى الغرفة الخارجية أول مرة ودخولهما المبهر لغرفة الدفن ما أسر ألباب القراء واستحوذ على خيال الناس وضمن لكتابه أن يصبح من الكتب الهامة . من جهة أخرى حقق كتاب ويجال مبيعات معقولة قبل أن تتضاءل أهميته ويطويه النسيان، وبالرغم من هدفه الواضح من التربح من وراء حدث اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى كل من بريطانيا وخارجها إلا أن كتابه «توت عنخ آمون ومقالات أخرى، تجاوز كونه عرضاً مقدما ممن كانوا فى الصف الثانى من الاكتشاف، كان ويجال قد سبق له نشر كتاب بعنوان «حياة وعصر اخناتون» عام ١٩١٠م (١) وحقق الكتاب انتشاراً واهتماماً واسعين، حتى إنه أعيد تنقيحه ونشره ثلاث مرات على مدى اثنى عشر عاما، ثم أعيد طبعه أربع مرات أخرى بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، وكان ويجال من الباحثين المرموقين المتعمقين فى دراسة مرحلة تل العمارنة، وقد سبق له العمل مع أحد الرواد المشهورين فى علم المصريات وهو العالم البريطانى فلندرز بترى أثناء أعوامه الأولى فى مصر، وعدا ذلك عمل ويجال لفترة فى منصب كبير مفتشى آثار الوجه القبلى فى مصر عام ١٩٠٥ وأشرف على إخلاء المقبرتين شبه المكتملتين لـ «يويا» و«تويا»، وهما جدى أخناتون لأمه، وكان معه فى ذلك العمل مواطنه الأمريكى چيمس كيبل، وعمل لديه هوارد كارتر كرسام وناسخ، وقام برسم ونسخ المحتويات الرائعة التى عثر عليها بمقبرتى يويا وتويا، وكانت من الخبرات الهامة فى حياة كارتر أعانته بعد ذلك بسبعة عشر عامًا على اكتشاف موضع الرقود الأبدى لتوت عنخ آمون، وتناول كتاب ويجال «توت عنخ آمون ومقالات أخرى» مواضيع هامة متفرقة إلا أنها جميعا تطرح قضايا وتدعو للبحث والتأمل والتفكير بالإضافة إلى عرض مفصل لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون من المعلومات

المباشرة التى استمدها من كارنرڤون وباقى أعضاء فريق البحث، إلا أن الكتاب اشتمل - أيضاً - على موضوعات غير تقليدية، فمثلا : بعد الموت المبكر والمفاجئ للارستقراطى البريطانى فى ابريل عام ١٩٢٣ خصص ويجال فصلا لعرض حالات خارقة للطبيعة نجمت عن انتهاك قدسية الموتى، وعرض مختلف صيغ اللعنات القديمة التى عثر عليها بالمقابر المصرية والتى يمكن أن تحل بمنتهك حرمة وقدسية المقبرة.

إضافة إلى ذلك ، قدم ويجال عرضا وافيا لحياة وعصر توت عنخ آمون بافتراض أن الملك الصبى كان يحكم فى قمة الفترة التى سادتها الاضطرابات وغلبت عليها الأنواء التى ترتبت على مرحلة ديانة تل العمارنة، إلا أنه مضى إلى ما هو أبعد من ذلك، فبعد أن عرض كيفية ارتقاء اخناتون إلى سدة الحكم عرض بداية عبادته للإله الذى لا تدركه الأبصار الإله آتون والذى يدرك وجوده من آثاره الدالة عليه، وهو ما يماثل إدراكنا للإله كما نعرفه اليوم(٢)، ولفت ويجال الانتباه إلى التطابق المذهل بين المزمور ١٠٤ من مزامير داوود، وترانيم لابتهالات لآتون التى سجلها اخناتون، وهى ترانيم تشيد بالقدرة الإلهية لآتون الممثل بضوء الشمس، ويرجح أنها من وضع أخناتون ذاته، وأكد ويجال أن ابتهالات أخناتون هى الأصل دون أدنى شك، وأن المزمور ١٠٤ من مزامير داود منقول عنها فقرة بفقرة (٣).

ويجال ومانيتو

واحتوى كتاب ويجال «توت عنخ آمون ومقالات أخرى» عدا ما ذكرناه على وجهات نظر ويجال عن حياة موسى وعصر وعهد الخروج، واستمد ويجال كثيراً من تلك المعلومات من مانيتو السبينى، وهو كاتب وكاهن مصرى من مركز هليوبوليس الدينى فى الوجه البحرى، وكان مانيتو السبينى قد وضع باللغة الإغريقية ما لا يقل عن ثمانية كتب فى الفترة من ٢٨٠ ـ ٢٥٠ ق. م (٤)، ومن ضمن تلك الكتب وضع كتابا عن تاريخ مصر

وملوكها والأحداث التي وقعت في عهودهم، حتى انتهى بعهد بطليموس الثاني فيلادلفيوس منشئ مكتبة الإسكندرية الشهيرة، كان عنوان ذلك الكتاب «تاريخ مصر»، وقد فقد ولم يعد له وجود، إلا أن فقرات مطولة ومقتطفات كثيرة منه نقلت في كتاب آخر كتبه «چوزيفوس فلاڤيوس (٣٧ - ٩٧م) وعرف ذلك الكتاب باسم چوزيفوس ضد آبيون» وكان چوزيفوس كاتباً يهودياً شهد بعض الأحداث الهامة في التاريخ اليهودي، وأرَّخها، وله عملان آخران هما «تاريخ الحروب اليهودية» وكتبه عام ٧٥ م، وكتاب آثار اليهود وكتبه عام ٩٣م.

أما كتابه: «ضد آبيون» فقد كان هجوماً صرفاً على الكتَّاب الإغريق المصريين، والإغريق الرومان الذين كتبوا عن اليهود، ما رأى فيه چوزيفوس أنه يحط من شأن اليهود، ويحقرهم ويزرى بهم، ورأى أن ما كتبوه صارخ الادعاء والكذب، وأنهم تجاهلوا عن عمد أحداث التاريخ اليهودي، وكما يبدو من عنوان الكتاب ، صب چوزيفوس هجومه الأكبر على آبيون، وهو نحوى إغريقي عاش بالإسكندرية حوالي ٣٨م إلا أن من نال أوفر قدر من الهجوم في ذلك الكتاب فهو مانيتو؛ لأنه ذكر في تأريخه أن اليهود هم نسل المجذومين الذين عزلهم الشعب المصري في أماكن نائية، ورأى ويجال أن تلك المقتطفات طال تجاهلها، ونظر إليها زملاؤه الآثاريون على أنها «أقوال أسطورية طريفة»، إلا أن توجهاته البحثية جعلته يتناول ما سجله مانيتو على أنه صحيح ودقيق، ويشير بشكل خاص إلى أزمة العمارنة، كما رآها من كانوا ضدها في عصرها(٥). فما الذي ذكره مانيتو عن حياة موسى مما لم تذكره التوراة؟

شهادة مانيتو

بدأعرض مانيتو لهذا الأمر بتقديمه لفرعون ذكر : أن اسمه «آمونوفيس» الذي اجتاحته رغبة شديدة في رؤية الآلهة (كما فعل أحد أسلافه القدماء وكان يدعى أوروس)(٦)، وسعى الفرعون أمينوفيس

لاستشارة سميه أمينوفيس بن بابيس، وهو حكيم أوتى علما وقدرة على معرفة المستقبل»(٧). وبعد أن استمع الحكيم إلى رغبة الملك، أصر على أنه لا توجد إلاوسيلة وحيدة لتحقيق ذلك وهى طرد المجذومين والأنجاس (٨)، وهكذا، تم إبعاد وطرد ٨٠٠٠٠ من الملوثين إلى المحاجر التى كانت على الضفة الشرقية للنيل، حيث سخروا للعمل معزولين عن العمال المصريين(٩)، ومن بين المبعدين بعض المكهنة العارفين الذين أصيبوا بالجزام(١٠).

إلا أن الحكيم أمينوفيس بابيس لم يشعر بالارتياح أثناء تنفيذ الفرعون لمشورته فكما سجل مانيتو:

خشى أمينوفيس النبى والحكيم من غضب الآلهة عليه، وعلى الملك من نقمة قد تحل عليهم(١١)، وببصيرته أدرك ماسيترتب على مشورته، وأن بعض الشعوب ستأتى لمعاونة الأشرار الملوثين، وسيقومون بثورة وينحون الملك، ويستولون على الحكم لمدة ثلاثة عشر عامًا(١٢)، ولخوفه من مواجهة الملك بتلك العواقب سجل الحكيم أمينوفيس نبوءته كتابة قبل أن يتخلص من حياته.

وبعد أن علم الملك بموت سميه والنبوءة التى تركها مكتوبة حاول أن يصحح قراره الخاطئ الذى اتخذه ضد المجذومين والملوثين وكانوا قد توسلوا إليه أن يمنحهم مدينة حواريس المهجورة ليقيموا بها مدينة الهكسوس التى هجرت بعد طردهم ومكان عبادة تيفون (ست) (١٣) فوافق على تحقيق رغبتهم، وكما نعرف مما سبق فإن تلك المدينة كانت - أيضاً - مدينة بى رع ميس أو مخازن رمسيس المذكورة فى التوراة والتى اكتشفها بايتاك وآخرون فى منطقة تل الدبا بشرق الدلتا.

وبعد أن أقاموا بالمدينة، استعملها المجذومون والملوثون كقاعدة للثورة، وانتخبوا رئيساً لهم «أحد كهنة هليوبوليس وكان معهم من المطرودين(١٤) وكان اسمه أوسرسيف»(١٥) وأقسم له الجميع يمين الولاء والطاعة، وبعد ذلك، سن لهم قوانين وتشريعات جديدة كانت فى مجملها «ضد كل

العادات المصرية»، وأمرهم ألا يعبدوا الآلهة المصرية وأنه محلل لهم «كل الحيوانات التي يقدسها المصريون، بل يقتلونها ويفنونها جميعًا، وأمرهم ألا يتحالفوا ولايتآلفوا مع أى أغيار إلا من يؤمنون بما يؤمنون به»(١٦).

بعد ذلك، خطب أوسر سريف كاهن هليوبوليس في «الملوثين» وقال لهم: إنهم لن يعملوا مسخرين في المناجم بعد اليوم، وأمرهم ببناء أسوار منيعة حول المدينة؛ ليحتموا بها من الملك امينوميس، ثم أرسى أوسرسيف أواصر الأخوة بين الكهنة المجذومين وبين باقى الملوثين، وبعث بالرسل إلى أورشليم آملاً أن يحرض الرعاة (الهكسوس) للانضمام إليهم ودعم ثورتهم وتمردهم.

وفي بدايات كتاب چوزيفوس «ضد أبيون» (١٧) نقل عن مانيتو وقصة طرد الهكسوس على يد الملك أحمس الذى حكم فى الفترة من ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م، وذكر أن الهكسوس بعد خروجهم من مصر إلى سوريا أى كنعان شيدوا مدينة أورشليم، بالرغم مما تذكره التوراة أن أورشليم لم تكتسب أى أهمية إلا فى عصر اتحاد الأسباط وملوك المدن تحت قيادة داوود وسليمان من بعده، أى بعد موسى بمئات السنين...، وحتى يستميل أوسرسيف الرعاة إليه وعدهم بمنحهم مدينة حواريس التى أجبروا على إخلائها عند طردهم من مصر قبل ذلك بأجيال، وبعد أن قبلوا عرضه جاء منهم ما يصل عدده إلى ٢٠٠٠٠٠؛ لنصرة أوسرسيف وتمكنوا من الاستيلاء على حكم البلاد، وكان أمينوفيس قد جمع فى مدينة ممفيس كل الحيوانات المقدسة، ثم فر منها ومعه ابنه سيثوس البالغ عمره خمسة أعوام ومعه ٣٠٠٠٠٠ من رجال الحرب المصريين إلى أثيوبيا جنوب مصر، وكان ملك إثيوبيا يدين له بالولاء(١٩)، وبناء على الاتفاق المبرم بين أوسرسيف والرعاة أخذوا مدينة حواريس إلاأن شعب أورشليم الذى تحالف مع الملوثين من المصريين بدأ يعاملهم بقسوة ووحشية، وكما سجل مانيتو: «وبعد أن استولوا على البلد المذكورة (مصر) ارتكبوا من الفظائع والشرور ما لا حصر له، فلم يكتفوا بإحراق المدن والقرى، بل حطموا كل

تماثيل ورموز الآلهة المصرية وشووا على نارها الحيوانات المقدسة التى اعتاد المصريون تقديسها، وأجبروا الكهنة ورجال الدين على ذبحها بأيديهم، ثم طردوهم عراة خارج البلاد »، وسجل - أيضاً - أن الكاهن الذى قاد تلك الثورة وأصدر تلك التشريعات الجديدة، كان أحد الكهنة المولودين فى هليوبوليس، وأن اسمه أوسرسيف المشتق من اسم أوزوريس رب منطقة هليوبوليس وبعد رحيله ونفيه من هليوبوليس مع المجذومين والملوثين تبدل اسمه وأصبح ينادى باسم موسى(٢٠).

وبعد ثلاثة عشر عاماً قضاها الملك أمينو فيس فى المنفى أعاد تنظيم وتدريب جيشه، وبمعونة جيش ثان كونه ابنه «رامبسيس» الذى كان اسمه فيما سبق سيثوس، وسمى - أيضا - رامسيس (٢١) عاد إلى مصر والتحم فى معركة ضد الرعاة والملوثين وهزمهم وذبح كثيرا منهم وطارد من فر منهم حتى سوريا(٢٢).

تلك هى القصة التى ذكرها مانيتو فى كتابه «تاريخ مصر»، ونقلها ويجال فى كتابه وفى رأى ويجال أن الثلاثة عشر عاماً التى حكمها أوسرسيف ـ موسى تطابق الثلاثة عشر عاما التى استغرقتها عبادة آتون فى تل العمارنة (٢٣) وأن:

عدد الـ ٨٠٠٠٠ الملوثين هو عدد من آمنوا بآتون، وكان إبعادهم إلى المحاجر على الضفة الشرقية للنيل يماثل بشكل مذهل النقل التاريخى للعاصمة المصرية كلها فى عهد إخناتون من طيبة إلى تل العمارنة(٢٤).

وأيقن ويجال - وكان محقاً - أن مد الفرعون حور محب تاريخ بداية حكمه إلى نهاية عهد أمونحتب الثالث يفسر ما اعتقده مانيتو أن كل تلك الأحداث وقعت جميعا خلال عهد ملك واحد مذكور باسم أمينوفيس، والتى ركزها كلها فى عهد أبى أخناتون الملك أمونحتب الثالث، وبعبارة أخرى فإن بعض تلك الأحداث على الأقل من التى ذكرها مانيتو وقعت بالفعل فى الفترة الممتدة من أواخر حكم أمونحتب، ووصلت إلى ذروتها فى عهد حورمحب، ورأى ويجال أن حور محب هو من قام فى نهاية الأمر بطرد

المجذومين والملوثين والرعاة من أرض مصر(٢٢).

وعلى ضوء أن قائد «الملوثين» والآسيويين كان كاهنًا مصرياً من هليوبوليس اسمه موسى افترض ويجال أنه لابد أن يكون قد ولد فى عهد أمونحتب الثالث (٢٦)، وهكذا رأى : أن توت عنخ آمون هو الفرعون الذى عاد موسى فى عهده إلى مصر؛ ليقود عملية خروج مواطنيه المستعبدين(٢٧)، وبالرغم من أن استنتاجاته تتعارض مع القصة التقليدية المذكورة فى التوراة، والتى تقدم صورة مغايرة كليا لحياة موسى وعصره إلا أن تلك الاستنتاجات لابد أن تقيم في حدود المضمار الذى كتبت فيه فكما يقر ويجال. كان الآثاريون وباحثوا التوراة علىٰ حد سواء يرون أن فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثانى، وأن فرعون الخروج هو ابنه ميرنتباح وحتى يزحزح هذا المفهوم الخاطئ، الذى طال الاعتقاد بصحته، بين ويجال معقولية وجهة نظره بإظهار عوار وضعف التزمين المذكور فى القصة التوراتية، فعلى سبيل المثال : بين أن رقم ٤٨٠ عاما التى تذكر التوراة أنها مرت ما بين الخروج وبناء الهيكل كما جاء فى سفر الملوك الأول ٦ : ١ يظهر خطأ التزمين التوراتى(٢٨) وبين أن عدد الأجيال، كما جاء في سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح السادس، من الخروج حتى عهد داوود (وهم أحد عشر أو اثنا عشر جيلاً) يثبت أن الخروج قد وقع ما بين ١٣٦٠ ـ ١٣٣٠ ق. م. وهو ما يتفق مع المرحلة الزمنية نفسها التى حكم فيها توت عنخ آمون (٢٩).

صد الغزو

وطبقا لما توصل إليه ويجال من استنتاجات فإن رسائل تل العمارنه (وهى نصوص وثائقية وجدت على ألواح طينية عثر عليها الفلاحون المصريون أثناء حرث أرضهم فى منطقة تل العمارنة عام ١٨٨٧) تظهر كيف أنه عند نهاية عهد أخناتون ، كان هناك تمرد عام على كل حكام المدن التابعة للهيمنة المصرية فى سوريا وكنعان ، خاصة ممن كان يطلق

عليـهم اسـم حـابيـرو (عـبـيـرو فى النصـوص المصـرية) وكـانوا من قـبـائل الشـرق الأدنى ينتـمـون فى الأغلب إلى الجنس السـامى الـغـربى، ويرتـحلون من مكان إلى آخــر حين تسـوء الظروف المناخــيــة أو يحل الجـفــاف، ويعـرضـون خدمـاتهم على من يريدها من أثرياء المدن الولايات، ويرحلون أحـيـانا آلاف الكيلومتـرات لأداء مـهـمـة مقـابل ما لايزيد عن ثمن الطعـام والمأوى وبعض المزايا البـسـيطة، إلا أنه كـانت هناك جـمـاعـة أخـرى من الحـابيـرو ـ العـابيـرو من نسل سـامى مـقـاتل ، وكـانوا كـمـقـاتلين أشـداء يعرضـون خـدمـاتهم كجيش جاهز مدرب تحت طلب من يريد من الأمـراء ولمن يدفع أكبـر مقـابل، ولذلك لم يكن لهم ولاء ثابت، وعرف عنهم احـتمـال تغييرهم للجانب الذى يقاتلون فى صفه فى ذروة احتدام المعارك.

وبيَّن ويجال أنهم فى عهد أخناتون وملوك العمارنة من بعده، قاتلوا فى صفوف أمراء كنعان ولحسابهم، وكان من أولئك الأمراء عبدى عشيرتا ولابايا ، وأنهم اجتاحوا حصوناً كثيرة ونهبوها، ثم أحرقوها، وأشاعوا الدمار والخراب فى أرجاء سوريا وكنعان، فضلا عن ذلك، هناك أسباب كثيرة تدفع إلى الاعتقاد أن الحابيرو - العابيرو - كان اسماً مرادفاً للعبـرانيين، وهو الاسم الذى أطلقه المصـريون والفلسطينيـون على أبناء إسـرائيل (يعـقـوب) كـمـا جـاء فى العـهـد القديم، وكـان يحـتـوى فى نظر المصريين، والفلسطينيين على قدر كبير من الضعة والدونية.

أمـا اليوم (بدايات القـرن الحـادى والعـشـرين) فـقـد تبـددت تمامـاً النظريات التى كانت تربط ما بين الحابيرو ـ العابيرو، وغزو أرض كنعان بأصل العبـرانيين ، فـقـد اتضح على ضـوء مـعطيات كـثـيرة أن الأصـول العرقية والمكونات الثقافية المعرفيـة لتلك الشـعوب القديمة أكثـر تعقيدا بمراحل عما كان يعتقده أى باحث عام ١٩٢٣(٣٠)، وبدا أن المحـاولات المتسرعة لتحديد عصر الغزو بمصطلحات تاريخية ليست إلا محاولات متهورة لا تستند إلى ما يدعمها، وأدرك ويجال إدراكا عميقا أن عرضه وفهمه المغاير كليا لقصة الخروج التوراتية لابد أن تترتب عليها تبعات

وتداعيات خطيرة على مصداقية الأحداث التوراتية وسجل عن ذلك:

«لا أحتاج إلى إبراز مدى الاتساع الهائل فى مساحات التفكير التى يفتحها هذا الافتراض الذى يثبت أن موسى عاش فى فترة الدعوة لعبادة آتون، وبمجرد طرح الافتراض نجده يطرح على الفور بدوره تساؤلاً عن الارتباط الحقيقى بين التوحيد العبرى، وأول دعوة توحيد معروفة فى التاريخ البشرى، أى التوحيد المصرى، وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة متأنية متعمقة»(٣١).

ولم يسبق ويجال أى باحث آخر فى هذا الاقتراب الحثيث لوجه ومدى الارتباط بين عهد أخناتون والقصة التوراتية المعروفة للجميع(٣٢)، إلا أنه لم يكن الوحيد الذى تناول تلك الإشكالية فى ذلك العام، فقد شهد عام ١٩٢٣ - أيضاً - نشر كتاب سير إيرنس أ. والس بدج «توت عنخ آمون الآمونية الآتونية والتوحيد المصرى» .

دفوع بدج

كان بدج فى عام افتتاح مقبرة توت عنخ آمون يشغل منصب أمين قسم المصريات والحضارة الآشورية بالمتحف البريطاني، وقد طلب منه كارنرڤون إبان اكتشاف المقبرة أن يكتبا معا كل ما عرف عن توت عنخ آمون وعهده فى كتاب مشترك، يتناول هذا الموضوع بما فيه رأيه الخاص عن العلاقة المحتملة بين مرحلة العمارنة وقصة موسى والخروج، إلا أن بدج على عكس ويجال لم يكن ليعتقد بوجود أى علاقة من أى نوع بين مرحلة العمارنة وموسى والخروج، وأنهى رأيه الذى سجله قائلاً، وكأنه ينفض يديه من الأمر نهائياً، ويقصيه من مجال أى تفكير أو احتمال:

لقد حاول كتاب آخرون (لم يذكر أسماء) من جديد إثبات أن توت عنخ آمون هو فرعون الخروج وأن زوجته عنخ - س إن با - آتن (أو آمون) هى التى التقطت موسى وهو طفل من طوف القش، وأنها هى التى ربته إلا أن هناك أكثر من خروج واحد، ولم يكن توت عنخ آمون ملكاً على مصر عند

وقوع أى منها(٣٣) .

لم يجهد بدچ فكره فى مواجهة تلك الأقوال المزلزلة ومال بصورة آلية إلى رفض أى مفهوم من أن هناك علاقة محتملة بين الآتونية وعبادة إله واحد كما تعرضها التوراة؛ ولأن بدچ كان ذو مكانة مرموقة وفى منصب أكثر تأثيراً من ويجال، حظيت وجهات نظره بثقل أكبر مما جعل التوجه العام يتجاهل أى محاولات تالية للتوصل إلى أوجه الارتباط بين موسى وأخناتون، حتى أعلن عالم علم النفس الشهير سيجموند فرويد عن توصله إلى الاستنتاجات ذاتها فى ثلاثينيات القرن العشرين، فى مقالين مطولين نشرتهما مجلة «إيماچ » الألمانية، وظهر الموضوع بأجمعه أكثر شرحاً وتفصيلا فى كتاب «موسى والتوحيد» الذى نشره لأول مرة عام ١٩٤٠.

فى ذلك الكتاب افترض رائد التحليل النفسى الحديث أن موسى كان مصريا وكان أحد أفراد بلاط أخناتون (٣٤) ، وعرض فرويد بعض البراهين والأدلة المثيرة؛ ليدعم صحة افتراضه ومنها أن الكلمة العبرية الدالة على الرب هى «أدوناى» أو «أدون» هى فى الأصل آتون ، اسم قرص الشمس الفرعونى (٣٥)، وأن ذلك الافتراض يظهر بوضوح فى الآية ١٢ : ١٢ من سفر الخروج، التى تتحدث عن ذبح كل ابن بكر للمصريين فى ليلة نزول ملاك الرب: ستنفذ أحكامى على كل آلهة مصر (لأن) أنا أدوناى (٣٦) فإذا استبدلت الرب «أدوناى» بكلمة آتون ستقرأ الآية: ستنفذ أحكامى على كل آلهة مصر (لأن) أنا آتون».

مصادر كارتر

عرضنا فى الفصل ١٤ تهديد كارتر بإفشاء محتويات وثائق بردية عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون ، وهى برديات احتوت على الأحداث الحقيقية للخروج اليهودى من مصر وتاريخ تلك المواجهة بين كارتر والمسئولين البريطانيين فى مصر له دلالة ومغزى لا يمكن إغفالهما ، ففى ذلك الوقت كان قد مر وقت كاف على صدور كتاب ويجال «توت عنخ آمون

ومقالات أخرى»، والذى نشر فى الخريف السابق ، وبغض النظر إن كانت افتراضات ويجال صحيحة أم لا، إلا أنها احتوت على برهان جديد يربط بين موسى وعصر العمارنة، وهوافتراض أن موسى عاد إلى مصر فى عهد توت عنخ آمون وقاد خروج مواطنيه المستعبدين فى عهده أيضا »(٣٧).

فهل مرت تلك الاستنتاجات التى تنطوى على وجود توت عنخ آمون فى قصة الخروج دون أن يلاحظها كارتر؟ الإجابة المؤكدة ستكون بنفى ذلك الافتراض ، وبافتراض أن صدور كتاب ويجال قد ضايقه فلابد أنه قد تصفح نسخة منه على أقل التقديرات، ولو لم يكن لديه أى دافع آخر لقرائته، فلابد أنه كان قد قرأه ليتأكد من خلوه من أى مادة مكتوبة أو مصورة مما هو خاضع لحقوقه ككاتب.

تأثير ويجال

بإمكاننا أن نتخيل كارتر وهو يتصفح كتاب ويجال الشهير ويتوقف عند الجزء الذى يتناول علاقة أوسر سيف موسى ومرحلة تل العمارنة، فهل شرد ذهنه مفكرا فى العلاقة المحتملة بين قصة الخروج وعهد توت عنخ آمون، وأوحت إليه بتلك الخدعة التى انتوى أن يساوم بها الإدارة البريطانية بالقاهرة لدفعها إلى دعمه بقوة؟ وإن كان ذلك ما حدث، فهل يعنى ذلك أنه لم يكن هناك وجود لأى برديات، وأن الأمر كله كان حيلة من كارتر استلهمها بعد قراءته لكتاب ويجال؟ قد تكون الإجابة بالإيجاب، إلا أن حجم الأدلة وثقلها يدل على العكس تماما.

هل كان كارتر يتناول بجدية وموضوعية ما يصدر عن ويجال؟

كان كارتر يكره ويجال بعمق، ولا يمكن أن يكون قد تقبل استنتاجاته مما سجله مانيتو عن أوسرسيف ـ موسى، وكان كارتر أكثر ميلا بالطبع إلى آراء بدج، وكمارأينا سفه بدج من أى مفهوم يشير مجرد إشارة إلى أن توت عنخ آمون هو فرعون الخروج نظرياً. كان كارتر سيتبنى الأفكار

ذاتها التى تبناها بدچ خاصة أنها كانت الأفكار التى يتبناها أغلب مجتمع الآثاريين وعلوم المصريات، وبالرغم من وظيفة ويجال كمراسل لصحيفة ديلى ميل اللندنية، إلا أنه كان يبدو فى نظر الجميع على أنه مارق بلا قيود، ومتحرر من أى ميول، ومندفع لا ضابط ولا سيطرة عليه، وعومل كتابه عن توت عنخ آمون على أنه كتاب طريف لا على أنه من متخصص أو باحث متمكن من موضوعه ومادته، عدا أنه كان يحتوى على فصل خطير عن اللعنات فى مصر القديمة وهو جانب لم يلق استحسانا فى ذلك الوقت.

إلا أن الثابت أن كارتر كان مقتنعا إن الخروج من مصر كان قد حدث قبل إغلاق مقبرة توت عنخ آمون عليه بعد موته، وإلا كيف كان له أن يدعى أن الوثائق البردية التى عثر عليها بالمقبرة تكشف عن الوقائع الحقيقية لذلك الحدث القديم والذى يشكل حجر الزاوية فى الديانة اليهودية؟

إن أى وثائق تكتشف بالمقبرة لابد أن تتناول أحداثا وقعت فى عهد توت عنخ آمون، أو أثناء عهود من سبقوه من ملوك، أى : عهدى سمنخ كارع وأخناتون، وإن كان الأمر كذلك فإن إعلانه عن قصة الخروج التى عثر عليها بالمقبرة لابد وأنها كانت موازية ومطابقة تماما على وجه التقريب للنظرية التى توصل إليها ويجال عن الأمر نفسه.

وكما سنرى لاحقا، هناك دليل لا يمكن نقضه يربط ما بين ما سجله مانيتو عن أوسرسيف - موسى ومرحلة العمارنة، ولكن، هل يظهر ذلك الدليل صورة أوضح عن الخروج التوراتى الغامض؟ بالقطع: نعم، فقد سجل الكتاب القدماء الأحداث نفسها الخاصة بطرد الكهنة المصريين الملوثين، مع حشود كبيرة من الشعوب الآسيوية التى كانت تعيش بمصر، فضلا عن ذلك، فإن تلك الأحداث مرتبطة ضمنياً بأحداث قصة الخروج المسجلة فى الكتب اليهودية المقدسة .

هيكتايوس الابديرى

فى كل الأحوال ، نجد أن مصادر مانيتو عن موسى مستمدة من قاعات كتب مدينة هليوبوليس القديمة إلا أن هناك مصدراً آخر سجل عنه بعض ما كتبه، وهو عمل كتب قبل عصره بجيل أو جيلين، وكتبه المؤرخ الإغريقى هيكتايوس الأبديرى.

ففى عام ٣٢٠ق. م بعد غزو الإسكندر الأكبر لمصر باثنى عشر عاما، كان هيكتايوس أحد أفراد البلاط لأول ملك هيلينى على مصر، بطليموس الأول، وقد كتب هيكتايوس كتابه «تاريخ مصر» فى ذلك الوقت، وبالرغم من أن النص الكامل لذلك الكتاب لم يعد موجودا إلا أن ديودورس الصقلى كان قد نقل كثيرا منه فى كتابه المعروف باسم مكتبة التاريخ (حوالى ٨ ق.م) وبالرغم من أن مانيتو لم يذكر شيئا عن كتاب هيكتايوس إلا أن المؤكد أن كلاهما استمدا معلوماتهما من مصدر واحد. وطبقا لما سجله ديودورس الصقلى فى كتابه كان تقديم هيكتايوس لقصة الخروج كما يلى:

انتشر وباء كبير فى العصور القديمة بمصر،.واعتقد الشعب أنه غضب من الآلهة؛ لأن كثيرا من الأغراب من كل الأجناس سكنوا بينهم وآمنوا بعبادات غريبة وأضحيات مختلفة، وطوى النسيان والتجاهل الآلهة المصرية(٣٩).

وهكذا، ساد الاعتقاد بين الشعب المصرى أن طرد الأغراب سينجيهم من الوباء وغادر بعض الأجانب مصر تحت قيادة دانايوس وكادميوس وأقاموا مستوطنات لهم فى أرض الإغريق، بينما سكنت مجموعة أخرى أرض يهودا، أى بفلسطين والتى قيل إنها لم تكن مأهولة فى ذلك الوقت، وبعد ذلك تقدموا أكثر وأنشأوا مدينة أورشليم(٤٠).

وبالرغم من أن قصة هيكتايوس قد تبدو متأثرة بالرؤية التوراتية(ربما عن طريق ديودورس عندما نقلها عنه)؛ لأنها تحتوى على عناصر القصة التوراتية عن الخروج، إلا أنها تظل أقدم مصدر ثقافى معرفى لا دينى عن

تلك الأحداث، فضلا عن ذلك، سنعرض فى الفصل ١٧ نظرية الطاعون الذى يحتمل أنه كان السبب الرئيسى وراء الخروج.

موسى فى كتابات آبيون

بالرغم من أنه لا توجد مصادر أخرى سابقة زمنياً عما سجله ما نيتو عن أوسرسيف ـ موسى، إلا أن هناك نسخاً أخرى للقصة تالية لمانيتو، ومن تلك التنويعات ما سجله النحوى الإغريقى آبيون السكندرى فى القرن الأول الميلادى، وترك بعد موته كتابات هامة حول شخصية موسى المصرى فى كتابه الذى وضعه بعنوان تاريخ مصر، والذى حفظ نصه لحسن الحظ من خلال ما نقله منه چوزيفوس فى كتابه ضد آبيون وطبقا لما سجله آبيون عن موسى ذكر:

سمعت عن رجال مصر القدماء، وأن موسى كان من أبناء هليوبوليس وكان مجبرا فى البداية على اتباع عادات آبائه، وكان يؤدى الصلاة فى الأماكن المفتوحة باتجاه أسوار المدينة، ثم غير ذلك بتوجيه صلاته إلى قرص الشمس، وكان ذلك لا يتناقض مع ديانة هليوبوليس، وأقام – أيضا – أنصبة من الصوارى بدلا عن المسلات(٤١).

ومثلما كتب مانيتو من قبله، سجل آبيون أن ذلك الرجل الحكيم وحد المجذومين والملوثين، لمواجهة جبروت الفرعون الجالس على عرش مصر، وأنهم لهذا السبب طردوا من مصر، ومرة أخرى نجد مصدراً آخر يذكر أن موسى لم يكن من أبناء إسرائيل، بل كان كاهنا مصريا يشغل مرتبة عالية من مراتب الكهانة فى هليوبوليس، فضلا عن ذلك، نعلم أنه تبنى شكلاً جديداً من أشكال عبادة الشمس يتفق مع ديانة هليوبوليس التى كانت المركز الرئيسى لعبادة إله الشمس رع، وخفض أسوار المدينة حتى يحتفوا ببزوغ شمس كل يوم.

ديانة هليوبوليس

هناك بعض الظن أن آبيون وهو يتحدث عن موسى إنما كان يعرض الثورة الدينية التى حدثت فى عهد أخناتون، فحين اعتلى أخناتون عرش مصر كان يحمل اسم أمونحتب الرابع، وأعلن أنه النبى الأول للإله آتون، ولم يكن الرب القادر آتون قد عرف بعد ذلك الاسم حتى العام التاسع من حكم أخناتون فقد كان يعرف قبلها باسم رع حور اختى، أى حورس فى الأفق، الذى يمثل بصقر يعلو رأسه قرص الشمس رع ممثلا للأفقين، أى قرص الشمس عند اختفائه فى الغرب وعند بزوغه فى الأفق فى الصباح التالى.

كانت هليوبوليس هى المركز القديم لديانة رع، وهليوبوليس الاسم الإغريقى للمدينة المصرية التى عرفت باسم مدينة أون، وهو من الأسماء المصرية القديمة للمدينة الذى كان ينطق أونو أى مدينة الأعمدة، أما فى اللغة العربية فقد أصبح اسم تلك المدينة عين شمس ويعنى حرفياً عين الشمس، وكذلك - أيضا - نبع الشمس واليوم ذهبت عظمتها وروعتها وأصبحت الآن حيا من الأحياء الشعبية المزدحمة فى شمال القاهرة الشرقى بالقرب من مطارها الدولى.

آمن أخناتون بديانة هليوبوليس المؤمنة بالإله رع، وتبنى فى بداية حكمه مبادئها الدينية ومنظومة كهنتها وأشكال عبادتها التى شملت كما ذكر آبيون إقامة معابد مكشوفة لعبادة الشمس عند بزوغها كل صباح، وتتحدث النصوص المسجلة فى عهد أخناتون عن عبادة رع بصفته الضوء الخفى لآتون، ونجد فى معبد آتون بالكرنك رع حور اختى مصورا كإله مذكر برأس صقر يعلو رأسه قرص الشمس، وكانت مرتبة الكاهن الأعظم من المراتب الكهنوتية الرئيسية فى هليوبوليس، وشغله ميرى - رع الثانى وكان وزيراً لأخناتون، ثم أصبح بعد ذلك كاهن آتون الأعظم فى تل العمارنة(٤٢).

وكما سجل مانيتو عن أوسرسيف موسى نهى أخناتون - أيضاً - عن

عبادة التماثيل، وحرم تقديس الحيوانات، ولم يدفن أى عجل من عجول أبيس المقدسة فى السرابيوم بممفيس طول عهد أخناتون، ولم يمارس ذلك الطقس من جديد إلا فى عهد توت عنخ آمون الذى دفن عجل فى عهده بطقوس دينية تظهر التقديس الكامل للعجل (٤٣)، إلا أنه من المؤكد أن أخناتون وقر عجل هليوبوليس الذى كان ينظر إليه على أنه قرين«زور - مير» والذى تذكر النصوص أنه القرين الحى لرع(٤٤)، كان كل عجل يعتنى به عناية فائقة طول حياته، وبعد موته يحنط جسده، ويدفن فى مقابر خاصة أعدت لذلك بهليوبوليس، وبعد انتقال أخناتون للعمارنة كان أخناتون قد أعد مقبرة كبيرة في الوادى الملكى لأسرته، وأعد مقبرة لدفن عجل منڤيس بعد موته (٤٥)، ومن غير المعروف إن كان أى عجل فيها قد دفن في مقبرة العجول المقدسة فى عهده، بالرغم من أن وجود المقبرة فى حد ذاته يدل على توقير أخناتون لممارسات هليوبوليس الدينية.

وأخيرا، هناك ولع أخناتون بحجر بن بن وربما كان ذلك الحجر من أهم أدوات ممارسة الطقوس الدينية فى العبادة الهليوبوليسية كان حجر بن بن يعد حجراً مقدساً على شكل قمع يوضع على عامود فى قاعة فسيحة مفتوحة السقف فى معابد هليوبوليس تعرف باسم بيت بن بن ، أو بيت الفينيكس، وفى العام الرابع من حكمه بدأ أخناتون فى تشييد معبد بالكرنك عرف - أيضا - باسم بيت بن بن، وكان له حجر بن بن الخاص به، وفى العام السادس من حكمه وبعد انتقاله إلى العمارنة بدأ فى تشييد معبد مكشوف اسمه بيت آتون الأكبر، وعند سوره الشرقى أقيم بيت بن بن. كان ذلك الحجر على شكل قمع له قمة مستديرة من الكوارتز يوضع على قمة صارية صخرية (٤٦)، وعرف عن أخناتون أنه أقام نصبا حجرية تماثل حجر بن بن فى هليوبوليس، حيث كان أبوه قد شيد معبداً بحجر بن الذى كان يمثل فى الجماليات الشكلية الرمزية فى مصر القديمة رمز نقطة بداية الخلق الأول، أو سب تبى أى : زمان ومكان اللحظة الأولى للخلق ، ويبدو أن ذلك يفسر ما ذكره آبيون أن موسى أقام أعمدة صوارى

بدلا من المسلات، وكان يعنى المسلات الجرانيتية التى كانت تحيط بهليوبوليس والمراكز الدينية الكبرى مثل الكرنك وتانيس (٤٨)، ويبدو أنه بعد مئات السنين من انهيار ديانة تل العمارنة ظلت بعض ذكريات طقوسها الدينية والتى نسبت إلى نبيها الأول الذى كان من المحرم ذكر اسمه يتردد صداها فى مركز هليوبوليس الدينى الذى كان المركز الرئيسى لعبادة آتون.

كان أخناتون مازال ينظر إليه كمصلح دينى شهير، إلا أن منجزاته نسبت كليا إلى أوسرسيف ـ موسى وربما لآخرين غيره.

لو كانت هناك أى مرحلة تاريخية فى التاريخ المصرى يمكن أن يقال إنها عكست الأحداث التى أحاطت بالخروج التوراتى، فإنها مرحلة تل العمارنة لا عهد رمسيس الثانى، ولا عهد ابنه ميرنبتاح، مثل ذلك الاستنتاج يبدو منطقيا على ضوء الحقائق التى فى متناول اليد حتى لو أضافت أى مكتشفات جديدة، أى إضافات للحكايات المذكورة فى سفر الخروج(٤٩).

كانت تلك المعلومات ما كان متوفراً لكارتر حين دخل مكتب القنصلية البريطانية بالقاهرة فى ربيع عام ١٩٢٤، وأعلن طلباته فى حنق وسخط وغضب فهل كان مصدر تلك المعرفة وثائق بردية اكتشفها بالمقبرة؟ وهل كشفت تلك البرديات أن موسى كان مصرياً من أتباع أخناتون ويدين بدينه التوحيدى المؤمن بآتون كإله واحد؟ ولو كان الأمر كذلك، ما هو الدور الذى لعبته الأسرة الملكية فى تلك القصة العجيبة؟ وإذا التقطنا طرف الخيط من ويجال لابد لنا أن نفحص بدقة شديدة نصوص مانيتو ونصوص الكتاب القدماء، حتى نحيط بشكل أكثر دقة بالعلاقة بين أحداث عصر أخناتون والخروج التوراتى .

١٧ ـ العقاب الإلهى

من المؤكد أن مانيتو، كاهن هليوبوليس ومؤرخ بطليموس الثانى، حفظ فى كتاباته بعض صور الاضطرابات التى اجتاحت مصر أثناء عهد العمارنة، وبعده مباشرة وطبقاً للفقرات التى نجت من الضياع من كتابه «تاريخ مصر» ذكر أن أوسرسيف ـ موسى، القائد الذى انتخبه المجذومون والملوثون قائداً عليهم، شرَّع قوانين وشرائع جديدة مخالفة للقوانين والشرائع المصرية التى كانت سائدة، وأمر أتباعه ألا يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمتنعوا عن تقديس الحيوانات التى يقدسها المصريون بل أمرهم أن يقتلوها ويبيدوها (١) .

عبادة قرص الشمس

ولا توجد أى شكوك أن تلك الأوامر والشرائع تماثل أوامر وشرائع أخناتون، والتى منع بمقتضاها عبادة أى آلهة غير الإله الواحد آتون المرموز له بقرص الشمس، وكما سجل مانيتو أمر هو الآخر بتدمير صور الآلهة الأخرى وتماثيلها ورموزها(٢).

أما إن كان أتباعه قد كفوا عن تبجيل تلك الحيوانات المقدسة، أو أنه أجبر الكهنة على ذبح الحيوانات المقدسة بأنفسهم، ثم طردهم بعد ذلك عراة خارج البلاد فهذا أمر آخر.

إلا أن المؤكد أن الانتقال من تعددية الآلهة إلى عبادة إله واحد لم يكن بالأمر الهين من وجوه كثيرة.

وسجل مانيتو – أيضاً – أن أوسرسيف موسى أمر أتباعه ألا يتبعوا أحداً إلا من آمن فهل يعكس ذلك الوسيلة التى أدخل بها أخناتون عبادة

الرب الواحد، ثم نقل كرسى القوة والعرش من طيبة إلى مدينة إخناتون (أفق آتون) المنشأة حديثاً على الضفة الشرقية للنيل، وعلى بعد ٢٧٧ كيلومترا شمال طيبة؟

كان أخناتون قد جذب إلى مدينة أحلامه عشرات الآلاف من الأتباع الموالين له، بمن فيهم من إداريين ومعماريين وحرفيين مهرة وفنانين وبنائيين ونحاتين ورسامين من مختلف أرجاء الإمبراطورية، وكانت الهيئة الدينية وحدها مؤلفة من عدة مئات من الكهنة فى مختلف درجات الكهنوت ومارسوا دورهم بإيمان حقيقى من عبادة الظهور الشمسى كل صباح من الأفق الشرقى .

وحث أخناتون أتباعه على المشاركة فى الاحتفالات الدينية التى كان يترأسها بنفسه بصحبة نفرتيتى على رأس الموكب الدينى فى عربة مكشوفة تجرها الجياد. كان آلاف المؤمنين بالدين الجديد ينتظرون الأحاديث المنتظمة التى يلقيها عليهم الزوجان الملكيان من شرفة اسمها «شرفة الظهور» تشرف على الساحة الكبرى للمدينة الجديدة.

فإلى أى مدى تخلى أتباع أخناتون عن معتقداتهم الدينية السابقة، وبأى درجة من درجات الإيمان اعتنقوا الآتونية؟ ذلك أمر غير معروف على وجه الدقة، خاصة بعد اكتشاف عدد من التماثيل الصغيرة للآلهة المصرية وللربات فى أنحاء متفرقة من مدينة أخناتون.

إلا أن عددا كبيرا من الناس، خاصة أولئك الذين ارتبطوا بالكهانة الآتونية رأوا فى آتون أنه الإله المخلص الذى سينشر الرفاهية والرخاء والسلام فى مصر إلى الأبد، وثبت بالطبع أنهم كانوا مخطئين تماما فى هذا الشأن.

سقوط أخناتون

كل ذلك محى واختفى فجأة فى نهاية عهد أخناتون، ونقل سمنخ كارع ومن بعده توت عنخ آمون البلاط الملكى إلى ممفيس أولاً، وأعادوا اعتبار

طيبة المركز الدينى الرئيسى فى جنوب مصر بكل آلهتها التقليدية، أما من كانوا قد أتوا إلى مدينة أخيتاتون لأسباب عملية بحتة فقد عادوا من حيث أتوا، أما المؤمنون برسالة أخناتون فقد كانوا مجبرين على الابتعاد عن مدينة أخيتاتون تاركين خلفهم كل ما آمنوا به بحب طوال ثلاثة عشر عاما، إلا أن الأتباع المخلصين المباشرين وهيئة كهنة آتون ظلوا بالمدينة محاولين الصمود والمحافظة على طقوس العبادة اليومية لقرص الشمس البازغ من الأفق، حتى وصلوا إلى درجة الانهيار المحتم لأسس النظام الاجتماعى الدينى الجديد، مما أجبرهم على ترك المدينة للأبد، وسرعان ما تحولت أخيتاتون إلى مدينة أشباح لا يسكنها إلا بعض البدو الذين استباحوا منشآتها العظيمة، حتى قام حور محب بتدميرها وهدمها حتى سواها بالأرض.

أما من ظلوا على إيمانهم بديانة آتون الخارجة عن كل أطر الدين السائد فقد نظر الشعب إليهم كمارقين وكفار ومهرطقين، ولفظهم المجتمع لكفرهم بتعدد الآلهة، وبشكل ما، يمكن مقارنتهم بالمسيحيين الأوائل فى أورشليم ومن بعدها فى روما فقد تجنبهم المجتمع اليهودى فى أورشليم، ورفضهم كذلك مجتمع روما، لذلك عوملوا كـ «مجذومين» اجتماعيا أو ملوثين وهى الصفات التى استخدمها مانيتو لوصف أتباع أوسرسيف ـ موسى، بالرغم من أنهم لم يكونوا مرضى ولا فاسدين بل كانوا ببساطة ملفوظين من المجتمع. ولتقرأ مرة أخرى نصوص الكتاب المصريين القدماء فيما يخص موقف أمينوفيس بن بابيس تجاه أتباع أوسرسيف ـ موسى:

كان من بينهم بعض الكهنة العارفين عداهم الجذام، إلا أن أمينوفيس الحكيم والنبى خشى من غضب الآلهة عليه، إذا تعرض أولئك القوم لأى عقاب عنيف....(٤).

فمن كانوا أولئك الكهنة الذين عداهم الجذام؟ وهل كانت عدواهم نوعًا من إسقاط الذاكرة البشرية على الكهنة الذين تحولوا للإيمان بآتون وظلوا على إيمانهم بعد موت إخناتون؟ ويبدو أن ذلك هو التفسير الصحيح

أوسرسيف موسى كأخناتون

لنراجع مرة أخرى تلك الثلاثة عشر عاما التى قيل أن أوسرسيف ـ موسى وأتباعه وبمعاونة الرعاة من أورشليم استولوا فيها على حكم مصر.

لقد تخلى أخناتون فى العام الخامس من حكمه الذى دام سبعة عشر عاما عن اسم آمونحتب الرابع، وبعد شهر واحد وصل إلى موقع مدينة المستقبل، وفى ذلك الموضع صلى الملك المارق وقدم قرابينه فى مكان مكشوف كتدشين للمدينة وإعلان بداية تأسيسها، واتخذ لأسرته سكنا خيمة كبيرة، حتى ينتهى بناء القصر الملكى الذى تم فى العام السادس من حكمه، وكان ذلك بداية رسمية لنشر الدين الجديد الذى استمر اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاماً، وانتهى بالموت المفترض لأخناتون فى العام السابع عشر من بداية حكمه وهى ذات الثلاثة عشر عاما للدعوة التى تتوافق مع الثلاثة عشر عاما، التى قيل أن تمرد أوسرسيف موسى قد استغرقها وأدرك ويجال أن ذلك لم يكن مجرد توافق بالمصادفة، وبدأ كثير من علماء المصريات يدركون ذلك - أيضا - فى الأعوام الأخيرة، فعلى سبيل المثال: نجد أن خبير مرحلة العمارنة الكندى دونالد ردفورد بالرغم من ربطه بين طرد الهكسوس من مصر والخروج اليهودى، إلا أنه يرى فى قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى انعكاسا مباشراً لثورة الإصلاح الدينى التى قام بها أخناتون وفى رأيه:

بدا انتقال أخناتون إلى منطقة مهجورة (حلت حواريس المهجورة فى القصة المتحورة محل المنطقة المهجورة التى انتقل إليها أخناتون) وكأنه هجرة إلى تل العمارنة، وتبدو الثلاثة عشر عاماً من الاضطراب الذى سببه المجذومون والملوثون والرعاة كانعكاس لإقامة أخناتون بالمدينة الجديدة التى أقامها فى الصحراء المهجورة على مدى ثلاثة عشر عاما أيضا، ويبدو أن شخصية أوسرسيف موسى قد تم تحويرها فى الذاكرة التاريخية عن شخصية أخناتون ولابد لنا من قراءة السطر الأخير، «إن

شخصية أوسرسيف موسى قد تم تحويرها فى الذاكرة التاريخية عن شخصية أخناتون » ودونالد ردفورد من المفكرين المرموقين وهو أستاذ علم المصريات بجامعة تورنتو، ومؤلف لكتب عديدة وكاتب مقالات كثيرة عن مرحلة العمارنة وعلاقات مصر القديمة بغرب آسيا ولابد أن تؤخذ نتائج دراساته بالجدية الواجبة . الأفكار نفسها يتردد صداها حاليا عند چان أزمان أستاذ المصريات القديمة بجامعة هايدلبرج، ولخص قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى فى الفقرة التالية:

يمكن تفسير قصة المجذومين كحالة واضحة لذاكرة تاريخية شائهة ظلت الذاكرة المصرية عن ثورة أخناتون التوحيدية حية إلا أنه بسبب تحريم ذكر اسم أخناتون بعد موته ومحو كل أثر له من الذاكرة الثقافية والمعرفية أصبحت تلك الذاكرة شائهة وعرضة للتبديل والتحوير الدائم، والانتشار بأشكال متباينة(٦).

وبالرغم من إقرار بعض علماء تاريخ مصر القديمة بذلك الارتباط ، هناك توجه تتسع دائرته بين علماء آخرين يرون أن شخصية موسى التوراتية ترتبط بشكل ما بطرد الهكسوس على يد الملك أحمس حوالى ١٥٧٥ ـ ١٥٥٠ ق.م(٧)، فإن كان لذلك الحدث الحيوى من تاريخ مصر ذلك الأثر فإننا نرى أنه أقل شأناً، وأن صلب قصة موسى والخروج انبثق من الفوضى التى نجمت عن مرحلة تل العمارنة.

الحكم المشترك

ذكر مانيتو أن الفرعون الذى عادى «المجذومين» و«الملوثين»، واضطر للفرارمن مصر، ثم عاد ليطردهم هم وأنصارهم من آلاسيويين كان يدعى أمينوفيس، وللوهلة الأولى يمكن التعرف عليه على أنه أبو اخناتون، آمونحتب الثالث، وكان له وزير مرموق اسمه امينوفيس بن حابو، ومن الواضح أنه الشخصية التاريخية الحقيقية للحكيم الذى ذكر مانيتو أن اسمه كان امينوفيس بن بابيس.

ويبدو أن آمونحتب فى أعوامه الأخيرة أشرك ابنه أخناتون معه فى حكم البلاد لمدة ربما وصلت إلى أحد عشر أو اثنى عشر عاما من الحكم المشترك، ودل على ذلك مكتشفات كثيرة عثر عليها بموقع مدينة أخناتون بتل العمارنة من قطع فخارية لآنية نبيذ منقوش عليها العام ٢٨ والعام ٣٠ (٨)، وحيث إن حكم أخناتون منفرداً لم يتجاوز سبعة عشر عاما فإنه يبدو أن المدة الزائدة عن ذلك كانت حكما مشتركا مع أبيه فى آخر حياته.

كذلك وجدت نقوش جدارية فى أنقاض بيت بتل العمارنة لأحد كبار موظفى الدولة كان يدعى بنحيسى تظهر أمونحتب الثالث وزوجته تايى يتعبدان لقرص آتون، والاسم مكتوب بنمط لم يعرف إلا من بداية العام التاسع لحكم أخناتون، مما يدل على أن الملك الأب كان مازال حياً فى ذلك الوقت(٩)، وتظهر نقوش واجهة مقبرة هويا فى العمارنة على أحد جانبيها آمونحتب الثالث وزوجته تايى، وعلى الجانب الآخر أخناتون وزوجته نفرتيتى والشكل الجديد المتبنى لاسم آتون(١٠)، وبداخل المقبرة جدارية تظهر تايى وحدها فى العام ١٢ من حكم ابنها وفسر بندلبرى ذلك قائلا:

لقد مات آمو نحتب فى الفترة ما بين الانتهاء من نقش واجهة المقبرة وبداية العمل داخلها، مما يشير إلى أن زيارة تايى لابنها كانت لتفقد سير الأمور بعد موت زوجها (١١).

كل ذلك، بالإضافة إلى نقوش أخرى وجدت بين حطام المدينة(١٢) يشير إلى أن الملك الأب أمونحتب الثالث قد عاش لفترة فى العمارنة فى آخر حياته وربما كان له بها سكنا مستديما(١٣)

فضلا عن ذلك، يشير كل ما قدمناه إلى أن أبا توت عنخ آمون ليس أخناتون كما اعتقد كثير من الباحثين، بل إن أباه هو أمونحتب الثالث وكان بندلبرى أول من افترض ذلك عام ١٩٣٦

وتناول - أيضا - موضوع الحكم المشترك بين أخناتون وأبيه خبير مرحلة العمارنة، المعروف سيريل الدريد فى كتابه الرصين «أخناتون ملك مصر»، وبالرغم أن المجال لا يتسع لعرض كل الأدلة التى استنتج منها

ذلك، إلا أنه أجمل ما توصل إليه قائلاً:

يستنتج الاشتراك فى الحكم بين آمونحتب الثالث وابنه أخناتون من أدلة كثيرة متوفرة لمدة اثنى عشر عاما، ومهما كانت النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك، فإنه لا يوجد أى اختيار أمام أى باحث إلا قبول ذلك لتوفر الأدلة عليه(١٥).

وفرضت فكرة «طول زمن المشاركة فى الحكم بين أمونحتب الثالث وابنه أخناتون لمدة تصل إلى أحدى عشر أو اثنى عشر عاما نفسها بقوة فى الأعوام الأخيرة، وترتكز على التزامن الفنى للعهدين ، وبالرغم من ذلك ينفى بعض الباحثين مثل دونالد ردفورد تلك الفكرة ، وقبلها باحثون آخرون، إلا أنهم قصروا فترة الحكم المشترك على فترة لاتزيد عن عامين(١٦)، إلا أن الأدلة المتوفرة تدحض الفرضين الأخيرين.

وإذا ما قبلنا بطول فترة الحكم المشترك، فإن ذلك يعنى أن أمونحتب الثالث كان مازال حيا حين كان أخناتون ينشر ديانة التوحيد، ويعمد إلى تهميش كل بطاركة وكهنة الآلهة الأخرى، وعلى رأسهم كهنة آمون أقوى الآلهة المصرية فى كل أرجاء الإمبراطورية . ولابد أن توجهات أخناتون الجديدة، اشاعت الرعب والذعر بين الكهنة حتى إننا يمكننا أن نتخيلهم يتضرعون إلى الفرعون الأكبر الأب آمونحتب الثالث حتى لا تسقط البلاد فريسة للفوضى والانهيار، وبالفعل نجد أثر ذلك فى مقبرة بايرى فى طيبة التى شيدت فى عهد سمنخ كارع خليفة أخناتون، والتى تظهر حالة اليأس والقنوط التى انتابت الشعب نتيجة تخليهم عن آلهتهم، فالمقبرة تحتوى على نص خطى للكاتب بارواح ينوح فيها على غياب الإله آمون بادئا النص قائلا: قلبى يتلهف إليه(١٧). وقد يكون ذلك انعكاسا لما سجله مانيتو فى نسخته عن قصة الخروج من أن الملك أمينوفيس كان يتلهف لرؤية الآلهة وكأنهم كانو قد هجروا البلاد وأسر برغبته لكاهنه الحكيم «أمينوفيس بن بابيس» الذى كان فى صورته الحقيقية امينو فيس بن حابو المستشار الأول لأمونحتب الثالث.

أمينو فيس بن حابو

من الأدلة التى توفـرت من خـلال النصـوص القـديمة يتـضح أن أمينوفيس بن حـابو كان أثيرا ومفضلاً ومقرباً من العاهل الأب أمونحتب الثالث، وفي بداية حياته العملية عين كاتبا لفرقة القوات الخاصة (النخبة) مما جعله مسئولا عن اختيار أفراد الجيش ، وبعد ذلك أصبح مشرفا عاما على الأعمال والشئون الملكية، وأسند إليه الإشراف على صنع ونقل تماثيل الكوارتز الضخمة التى بلغ ارتفاع كل منها ٢١ مترا والتى كانت تصطف أمـام واجـهـة مـعبد امـونحـتب الجنائزى بالضـفـة الغربيـة لطيبـة، وعـرف التمثالان الشماليان منها على سبيل الخطأ باسم تمثالى ممنون وظلت تلك التسمية هى الشـائعة حتى الآن، وكان ممنون أحد أبطال حرب طروادة الشجعان(١٨)، وقيل إن التمثالين الهائلين كانا يصدران أصواتًا تشبه الهمهمة حين تسقط عليهما أول أشعة شمس فى الصباح كأنهما يحييان أمـهمـا إيوس (أورورا) ربة الفجر بتلك الهمهمة، وظل ذلك الصوت يصدر عنهمـا حتى وقع زلزال عنيف فى عـهد الإمبراطور الرومـانى سبتيموس سيرڤيوس (١٤٦ ـ ٢١١م) أسكتهما للأبد.

كان أمينوفيس بن حـابو مسئولاً أيضـاً عن تنظيم أول عيد احتفالى بذكـرى جلوس الملك العـجـوز على عـرش البـلاد، وأصـبح ذلك المهـرجـان الاحتفالى يقام كل بضعة أعوام فى أواخر حياة الملك الفرعون؛ لتأكيد حقه الإلهى فى حكم البلاد، ولإعـادة روح الشبـاب إلى بدنه وروحـه(١٩)، وبدأ إحياء ذلك الاحتفال القومى الكبير، والذى كانت تشهده حشود الشعب وكـبـار مـوظفى الدولة من كل المراتب من جـمـيع ولايات الإمـبـراطورية وبحضور عشرات من الشخصيات الهامة من الأشراف الأجانب فى العام الثلاثين من حكم آمونحتب، وكان مركز الاحتفال معبداً أنشىء خصيصا لذلك، ملاصقا لقصر الملك وملحقاته فى منطقة الملقاطة بالقرب من مدينة هابو على الضفة الغربية لمدينة طيبة.

كذلك كان أمينوفيس بن حابو المسئول الأول عن إدارة أملاك ستيامون

الزوجة الملكية الأولى فى العام ٢٧ من حكم امونحتب (٢٠). وتقديرا لإخلاصه وجهوده المتفانية فى خدمة الملك وعائلته سمح له الفرعون بإقامة تماثيل شخصية له عند مدخل البوابة العاشرة في مجمع معابد الكرنك. ويعتقد أن أمينوفيس بن حابو قد مات بعد فترة قصيرة من الاحتفالية الثانية بعيد جلوس الملك على العرش التى أقيمت فى العام الرابع والثلاثين من حكم أمونحتب الثالث (أقيم الاحتفال الثالث والأخير فى العام ٣٧ من حكمه) لذلك، إذا كانت هناك فترة طويلة من الحكم المشترك بين امونحتب الثالث ووريثه أخناتون ، فإن أمينوفيس بن حابو لابد وكان مازال حيا حين بدأ أخناتون فى تشييد مدينته فى العمارنة فى العام الخامس من حكم أخناتون ومات أمينوفيس فى العام السابع أو الثامن من حكم أخناتون، كذلك نجد أن الأدوار والمهام التى أسندت إلى أمينوفيس بن حابو تسمح بافتراض ما ذكره مانيتو بأنه بناء على أوامر الملك، جمع أمينوفيس بن بابيس حوالى ٨٠٠٠٠ مجذوم وملوث، وأبعدهم للعمل فى المحاجر الملكية التى على الضفة الشرقية للنيل (٢١)، وكرئيس ومشرف عام على كل أعمال الملك كان من ضمن واجباته تأمين منطقة الدلتا من هجمات المغيرين ، وكذلك كان فى نطاق مسئوليته القوى العاملة بالمحاجر وأعمال النقل والبناء(٢٢)، ومن الواضح أن أمينوفيس بن حابو لم يكن على قيد الحياة حين انهار حكم أخناتون ولذلك فمن غير الممكن أن يكون مسئولا عن اعتقال الأتباع المخلصين للديانة الجديدة بعد موت أخناتون ومن غير المعروف الكيفية التى مات بها أخناتون، إن كان قد انتحر أو مات ميتة الأنبياء والحكماء كما يفترض مانيتو.

إلا أنه لكى نفهم بشكل أفضل الأحداث التاريخية المذكورة فى قصة مانيتو لابد لنا أن نحدد الزمن المنسوب للملوك الذين لعبوا أدوارا فى تلك الأحداث من بعد سمنخ كارع وتوت عنخ آمون على عرش البلاد شمالها وجنوبها على سبيل المثال : فى بداية قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى نقرأ :

رغب هذا الملك (أمينوفيس) أن يرى الآلهة كما فعل أوروس ، أحد أسلافه فى تلك المملكة، والذى تاق لتحقيق الرغبة نفسها من قبله(٢٣).

فمن كان «أوروس» أو «أور» ؟(٢٤).

لو عدنا إلى قوائم الأسر التى حكمت مصر والموجودة فى كتابات مانيتو «تاريخ مصر» نجد اسمه مسجلا بين أسماء حكام الأسرة ١٨. فعلى سبيل المثال : فى النسخة التى نقلها چوزيفوس وبعض المؤرخين المسيحيين المبكريين نجد فرعونا يسمى أوروس قيل إنه حكم لمدة تتراوح بين ٢٨ و٣٨ عاما، وإنه حكم على الأرجح ٣٦ عاما وخمسة أشهر(٢٥)، إلا أن اسمه يأتى فى الترتيب بعد ملك اسمه أمينوفيس الذى ذكر عنه أنه حكم ٣١ عاما، ومن الواضح أن أمينوفيس المذكور هو أمونحتب الثالث لورود اسمه ضمن قائمة مكونة من أربعة عشر أو ستة عشر أو ثمانية عشر ملكا على اختلاف المصادر (٢٧)، وتأكد ذلك الاستنتاج من وجود تلك الفقرة مع اسم أمينوفيس : «ذلك هو الملك الذى عرف بالخطأ على أنه ممنون صاحب التماثيل المتحدثة»(٢٨)

وفى الحقيقة، حكم أمونحتب الثالث لمدة ٣٨ عاما لا ٣٠ ولا ٣١ كما ذكر مانيتو بالرغم من أن ذلك خطأ طفيف إذا قورن بما ذكره مانيتو عن باقى حكام الأسرة ١٨.

ويذكر مانيتو فى قوائمه عن ملوك مصر أن ملك يدعى أوروس حكم بعد امونحتب الثالث ولكن قبل قائمة الملوك المنسوبين إلى مرحلة العمارنة. وبدأ قائمة العمارنة بملك قال إن اسمه اسنشيريس والذى هو بلا أدنى شك أخناتون، بالرغم من أن الاثنى عشر أو الستة عشر عاما التى نسبها إلى حكمه أقل من الحقيقة لأنه حكم سبعة عشر عاما(٢٩).

لذلك لابد أن نتذكر أن الفوضى المحيطة بتلك القائمة عن ملوك العمارنة إنما مرجعها حقيقة أن كل ما كان مدونا قد تم محوه من سجلات الدولة الرسمية، ونتج عن ذلك التضارب والخلط فى تسجيل ملوك تلك المرحلة حتى أن نسختين منسوبتين لمانيتو عن تلك المرحلة ذكرت

إحداهما أن اسنخيريس كانت انثى وابنة للملك أوروس(٣٠)، وسواء كان لذلك الخطأ علاقة بالأنماط الفنية التى تبناها أخناتون، وكانت تظهره كأنثى، أو نتج عن التشوش المترتب على إشراكه لنفرتيتى فى الحكم معه، فإن ذلك غير معروف.

وتلى اسنشيرس فى القائمة «أخوها» راثوتيس(٣١) أو (راتوس)(٣٢)، والذى نسب إليه أنه حكم من ستة إلى تسعة أعوام، وفى نسخة أخرى من قوائم أسماء الملوك نجد أن من تلى اسنشيرس الملك أشيرس ونسبت إليه فترة حكم إلى ثمانية أعوام (٣٣)، ومن الأسماء والأعوام المنسوبة إلى ذلك الملك لا يمكن أن يكون إلا توت عنخ آمون، الذى وصل حكمه إلى تسعة أعوام.

هذا كل ما يمكن استنتاجه بتيقين من ذلك الجزء، إلا أن النسخ المختلفة من قوائم مانيتو عن الملوك تذكر بعد اسم راتوتيس سلسلة من الملوك تتناقض فى الترتيب وفى مدد حكم كل منهم، بعضها يذكر أخناتون بالاسم أو بتحريف بسيط، وغيرها يذكر نفرتيتى وسمنخ كارع، وآى وأخيرا تذكر القوائم اسماً معروفًا هو رمسيس(٣٤)، إلا أنه من الواضح أنها ذكرى شائعة لرمسيس الأول الذى حكم بالكاد ما لايربو عن عام واحد بعد موت حور محب حوالى عام ١٣٠٨ ق.م، وحفيده رمسيس الثانى الذى حكم لمدة٦٧ عاما فى الفترة من ١٢٩٠ حتى ١٢٢٤ ق.م، فضلا عن ذلك فكليهما ينتميان إلى الأسرة ١٩ لا إلى الأسرة ١٨ كما وضعهم مانيتو.

وعلى ذلك نعود إلى التساؤل، من كان أورس الذى قيل إنه حكم بين أمونحتب الثالث وأخناتون؟ والإجابة هى أنه حور محب الذى كان مسئولا عن، وسبب كل ذلك الاضطراب فى القوائم فى المقام الأول؛ لأنه مد فترة بداية حكمه فى السجلات الرسمية للدولة بزيادة تصل إلى سبعة وعشرين عاما ابتلع فى طياتها حكم أربعة ملوك سبقوه، ولقد نسب إلى نفسه أنه حكم مصر العليا والدنيا لمدة تصل إلى ٥٩ عاما، لم يكن حور محب

أورس فقط الذى ذكره مانيتو فى قوائمه، بل يبدو - أيضا - باسم حارمايس (وعرف أيضا باسم آرميسيس وأرمايس) الذى حكم ٤٥ عاما مباشرة قبل فترة الرعامسة المذكورين(٣٥).

اسنشيرس والخروج

هناك استدلال ايجابى واحد على أن الخروج يمكن ربطه بتلك الحقبة المضطربة من تاريخ مصر نستمدها من ملاحظة مختصرة بعد ذكر اسم اسنشيرس الذى هو أخناتون فى قائمة مانيتو والتى تذكر: «فى ذلك الوقت قاد موسى العبرانيين إلى خارج مصر» (٣٦) وفى نسخة أخرى، نجد الملحوظة مختلفة قليلا: فى عصره أصبح موسى رئيسا للعبرانيين فى خروجهم من مصر(٣٧)، والملحوظة بشكليها المختلفين قليلا منقولة عن مانيتو فى كتاب «التواريخ الزمنية» كتبه فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ايزيبيوس من قيصرية (٢٦٤ - ٣٤٠م)، وهو راهب مسيحى اغريقى، وبعد أن ذكر تلك الفقرة المثيرة عن أن الخروج حدث أثناء عهد اسنشيرس ، وذكر آنه نقلها عن مانيتو إلا أنها لم تظهر فى أى نسخة أخرى من نسخ قوائم مانيتو عن ملوك مصر(٣٩).

ولن يمكننا بالطبع التأكد بيقين إن كان ما سجله ايزيبيوس أن الخروج حدث فى عهد اسنشيرس نقلا عن مانيتو مباشرة أم لا ، أم استمده من مصدر آخر لم يعد له وجود، ومهما كان الأمر فإن تلك الفقرة تظهر أنه فى العصور المبكرة للمسيحية كانت تلك الفترة المضطربة من تاريخ مصر المعروفة باسم عصر العمارنة لا ترتبط فقط بحياة موسى، بل ترتبط أيضا بما عرف بالخروج التوراتى.

الملوثين

هناك أعمال أخرى لكتاب المرحلة الهيلينية المتأخرة تحتوى على صور متباينة ومتنوعة عن الرؤية المصرية لحياة موسى، كما سجلها مانيتو(٤٠) فى تلك المصادر نجد صاحب الوصايا الإسرائيلية قائدا لحشود مصابة بمرض معد، أو ملوثين أجبروا على الخروج من مصر، وحدث ذلك بوجه

عام، فى عصر انتشر فيه الطاعون الذى استشرى فى الوجهين ، البحرى والقبلى. وتذكر التسجيلات الهيلينية المتأخرة اسم الفرعون المسئول عن طردهم أحيانا على أنه أمينوفيس، وأحيانًا أخرى على أنه بوكوريس (٤١) وفى قوائم مانيتو نجد اسم بوكوريس اسمًا لملك واحد ينتمى إلى الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ ـ ٧١٥ ق.م)، وقيل إنه أحرق حيا على يد ساباكون ، الملك الثالث من ملوك الأسرة ٢٥ التى كانت متداخلة زمنيا مع الأسرة ٢٤، أما الملك بوكوريس الذى له علاقة بالخروج فغير معروف؛ لأنه لم يبق مسجلا عن تلك المرحلة إلا ماندر، وارتباط ذلك الاسم بقصة موسى أشد غموضا.

إحدى تلك المقولات وردت عن «ليزيماكوس» وهو مؤرخ سكندرى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد، وفى نسخته التى حفظت فى كتاب جوزيفوس «ضد أبيون»، وجاء بها أن بوكوريس أو الفرعون الذى تسمى بهذا الاسم أرسل كاهنا إلى معبد آمون؛ لاستلهام وحيه، ومايراه بعد أن تجمعت حشود المجذومين والمصابين بالقمل من اليهود والمرضى فى المعابد يتسولون الطعام ويلتمسونه، وأدى ذلك إلى شح الطعام فى كل أرجاء مصر، وجاءت النبوءة أن يقوم بوكوريس بطرد أولئك الملوثين غير المؤمنين وغير الأتقياء من المعابد إلى الصحراء، وإغراق المجذومين والمقملين فى بحيرات المعابد؛ لتطهيرهم ، وبعد ذلك ستؤتى البلاد أكلها وتعم ثمارها ويسود الرخاء، إلا أن أولئك اليهود الذين طردوا إلى الصحراء أحسوا بالظلم فانتخبوا من بينهم قائدا يدعى موسى، وأمرهم أن يستمروا فى مسيرتهم حتى يصلوا مكانا ملائما للحياة، فضلا عن ذلك، أمرهم ألا يتحلوا بأى رحمة أو شفقة على أى إنسان، ولا ينصحوا أى امرئ بأمانة وإخلاص بل يضللونه ، وأن يهدموا كل المعابد ومذابح الآلهة التى يجدونها فى طريقهم(٤٥)، واتفق المطرودون على أن ذلك ما يجب أن يتبعوه جميعا، وهكذا استمروا فى انتقالهم حتى وصلوا أرضا يسكنها شعب آخر فقتلوا رجالهم، ونهبوا معابدهم، وكانت تلك أرض يهودا وأسسوا بها

مدينة اسمها هايروسيلا أو هايرسلايما، أي : أورشليم مستعينين بالثروات التى نهبوها من المعابد(٤٣)

وأدان چوزيفوس ذلك العمل الذى كتبه «لايزيماكوس»، كما أدان ما كتبه مانيتو؛ لأن الاثنين ذكرا أن المجذومين والمقملين والملوثين كانوا الشعب اليهودى، وأن قائد تلك الحشود المطرودة كان موسى صاحب وصايا التوراة.(٤٤).

أما شيرمون ، وهو مصرى من الإسكندرية وكان كاهنا، وأصبح مستشارا لنيرون (٣٧ ـ ٦٨م) إمبراطور روما، فله رؤية مختلفة عن القصة التقليدية، فقد ذكر: « رأى الملك امينوفيس الربة إيزيس فى منامه تلومه على ترك معبدها يتعرض للدمار، ولنيل رضاها اقترح كاهن عليه أن يطهر أرض مصر من الملوثين فطرد ٢٥٠٠٠٠ منهم، عينوا من بينهم موسى قائدا عليهم، ومعه يوسف، أو كما أطلق عليهما بالمصرية تيسيثين وبيتيسيف، وجمع المطرودين فى مدينة بيلوزيوم بالدلتا حيث انضموا إلى ٣٨٠٠٠٠ آخرين، كان أمينوفيس قد تركهم بها وقاموا معا بغزو مصر وهرب الملك أمينو فيس إلى إثيوبيا إلا أن رمسيس ابن امينوفيس وخليفته - وكان قد ولد فى كهف بعد موت أبيه - عاد على رأس جيش إلى مصر، وهزم اليهود، وهرب ٢٠٠٠٠٠ ممن نجوا منهم إلى سوريا(٤٥). ومن الواضح أن تلك القصة لم تمض هى الأخرى على هوى چوزيفوس كما ظهر من تعليقاته، ورده على رؤية شيرمون السكندرى التى سجلها فى كتابه «ضد آبيون»(٤٦).

أما النحوى اللاتينى بومبيوس تروجوس فى كتابه «التأريخ الفيليبى» فقد كتب أن موسى لم يكن مصريا، بل كان ابنا ليوسف، بالرغم من أن الديانة التى نشرها فى أورشليم بدت كأنها الديانة المصرية المقدسة، وأنهم سرقوا كنوز المعابد المصرية، ثم غادروا مصر ووراؤهم جيش الفرعون يطاردهم، إلا أن الجيش المصرى اضطر للعودة بسبب هبوب عواصف شديدة، وكان سبب الخروج من مصر انتشار وباء بها وقد

وصفه بومبيوس بتفصيل أكثر:

«بعد أن انتشر القمل والأمراض الجلدية، وحذرت النبوءة الإلهية الفرعون، طردوا (موسى) مع باقى المرضى إلى خارج حدود مصر، حتى لا ينتشر المرض بين المصريين؛ ولأنهم لم ينسوا أنهم طردوا خوفا من العدوى حرصوا ألا يعيشوا مع شعوب أخرى حتى لا تكرههم الشعوب الأخرى ، وتحولت العادات والنظم إلى عادات ثابتة ودين جديد(٤٧)»

ومرة أخرى نجد ما يشير إلى وباء فى مصر جعلت الملك يتخذ إجراءات قاسية وحازمة لاستعادة النظام والاستقرار، وحماية شعب مصر الذى رأى أن سبب الوباء هو وجود عدد كبير من الملوثين فى بلادهم ، من المصريين واليهود. تجمع المطرودون فى شرق الدلتا، وهى المنطقة المذكورة فى التوراة باسم أرض جوشن، والتى قيل إن مدينتى مخازن رمسيس وبى ثوم كانتا بها، وطردوا بالقوة من مصر، وأكملوا مسيرتهم بعد طردهم حتى وصلوا أرض فلسطين ـ كنعان القديمة ـ فنزلوا بها، وبنوا مدينة أورشليم، ورسخوا عاداتهم وديانتهم الخاصة.

كل باحثى التوراة بدءًا من چوزيفوس إلى الباحثين المعاصرين استبعدوا كل ما ورد عن غير اليهود فى أحداث الخروج، ووصفوها بأنها قصص من الخيال ، ولكن، كيف يكون الحال إن لم يكن الأمر كذلك، وأن القصة التوراتية هى المحرفة تحريفا شديدا للأحداث الحقيقية للخروج؟ وكيف يكون الحال حين يتأكد أن روايات المؤرخين والكتاب المصريين والإغريق الهيلينيين كانت كلها مستمدة من مصادر أقدم من الأشكال الأولية للأسفار الخمسة الأولى من التوراة، والتى من المرجح أنها اتخذت شكلها الحالى فقط فى القرن السابع قبل الميلاد (انظر الفصل ٢٢) ؟

وما الذى يكون عليه الحال اذا كانت الروايات المصرية والهيلينية عن الخروج تحتوى على جوهر معلومات يعود تاريخها إلى مرحلة العمارنة؟ وأنها تعكس الأحداث الحقيقية التى أثرت على بنية الأسفار الخمسة، وأثرت بدورها على الشكل النهائى للروايات الإغريقية المصرية والإغريقية

الرومانية؟ وقد يبدو ذلك النحو من التفكير هرطقة وكفرا حتى فى عصورنا الحالية، ولكن، كيف يكون الحال لو ثبتت صحته؟ وماذا يكون الحال إذا عرفنا حقيقة الأحداث التى أحاطت بصعود موسى وخروجه من مصر؟

سكوتا، ابنة الفرعون

هناك مصدر آخر لابد من ذكره قبل أن نترك هذا الجانب، وهو مصدر قد يبدو غريبا بعض الشيء. إنه التأريخ الاسكتلندى وهو تاريخ شعب سكوتلاندا وكتبه فى أربعينيات القرن الخامس عشر والترباور (١٣٨٥ - ١٤٤٩م)، وكان أسقف دير إنكولم بشمال شرق سكوتلندا، واستمد باور معلوماته من مصادر قديمة بما فيها التأريخ لايزيبيوس والتأريخ البريطانى لنينيوس الذى كتبه عام ٨٠٠ م، وأعاد والتر باور ترتيب تاريخ سكوتلاندا، إلا أن القصة لم تبدأ فى سكوتلاندا ولا حتى فى أيرلندا، بل فى إحدى الممالك الإغريقية حيث نتعرف على أمير اسمه جايثيلوس (أو جايل)، وكان ابناً لملك أسطورى يدعى نيولوس أوإيولوس، وكان جايل جميل الشكل وشاذ الطباع(٤٨)، ولفشله فى الحصول على مركز مرموق فى مملكة أبيه، راح يرتكب بمعاونة رفاق له من بطانة السوء أفعالاً بربرية وحشية، وتسبب فى كوارث كثيرة، وفى غيظ الملك والحاشية منه أمر الملك بطرده إلى خارج البلاد، فأبحر إلى مصر حيث لقى قبولا طيبا من فرعونها، وعاونه على طرد جيش جاء من إثيوبيا لغزو مصر، وعرفانا بجميله زوجه بابنته الوحيدة وكانت تدعى سكوتا، وقبل جايل ذلك بسعادة غامرة(٤٩).

فى ذلك الوقت حدث الخروج، وطارد الملك وجيشه الإسرائيليين إلى خارج مصر، وغرق فى البحر الأحمر كما هو مروى فى سفر الخروج، وحيث إن سكوتا كانت الابنة الوحيدة للفرعون فإن ذلك كان يعنى أن من حق جايثيلوس أن يعتلى عرش مصر، إلا أن المصريين كانوا يدركون مدى وحشيته وقسوته، فأجبروه هو وزجته على مغادرة البلاد، ولإدراكه

باستحالة عودته إلى بلاد أبيه بسبب الفظائع التى ارتكبها هناك، قرر جايثيلوس الاستيلاء على بلاد جديدة، فقام بإعداد أسطول من السفن أبحر به ومعه زوجته سكوتا وكل من تبعوه (٥٠)، وطبقا لما نقله روبرت جروستست (١١٧٥ ـ ١٢٥٣م) فإن والتر باور استمد تلك القصة حرفياً من مصادر أقدم:

«فى عصور قديمة غادرت سكوتا ابنة فرعون مصر بلادها مع زوجها جايل وعدد كبير من الأتباع؛ لأنهم سمعوا عن الكوارث التى ستحل على مصر، واتبعوا التعليمات التى وردت بنبوؤة الآلهة، وركبوا السفن تاركين مشيئة الآلهة توجههم، وبعد أن أبحروا لبضعة أيام، رسوا على شاطئ بسبب طقس عاصف»(٥١)

وكان ذلك الشاطئ أرض إسبانيا، حيث بنى جاثليوس وسكوتا مدينة حصينة أسموها برجانتيا على نهر إبرو، وبنو بها برجا حصينا يحيط به خندق مائى(٥٢)، واستقروا فى ذلك المكان، وقضوا به باقى حياتهم، وبعد جيل أو نحو ذلك، غادر اثنان من أبناء سكوتا هما هايبرو وهايمك إلى هايبرنيا أى أيرلندا(٥٣)، وقتلوا سكانها، واستعبدوا من ظل حيا، ثم أسموا تلك المنطقة سكوتا تخليدا لذكرى أمهما(٥٤).

وهناك نسخة أيرلندية للحكاية محفوظة فى «كتاب الاستيلاء على أيرلندا»، وفيه يطلق على عائلة زوجها اسم عائلة أبناء ميل الذين قاموا مع أبيهم ميل بن بايل بالإبحار إلى مصر، وفى مصر تزوج سكوتا وأبحرا معا عبر المتوسط حتى وصلوا منطقة ديل راياتا فى أيرلندا، حيث اشتبكوا مع السكان المتوحشين «التواثا دى دانان» فى معركة شديدة، وبالرغم من انتصارهم إلا أن سكوتا ذبحت فى تلك المعركة، ودفنت فى مرتفع أطلق عليه قبر سكوتا(٥٥)، وهناك نسخ أخرى مختلفة للقصة يذهب بعضها إلى أن سكوتا أبحرت بنفسها من إسبانيا إلى سكوتلندا، إما مباشرة فى إحدى القصص (٥٦)، أو عن طريق أيرلندا فى قصص أخرى(٥٧)، وبمجرد أن وطأت أرض سكوتلندا، اتجهت إلى إرجاديا

أرچيل والتى سميت هكذا باسم ابنها إرك واسم زوجها جايثيلوس (٥٨)، ومن المثير أن تلك القصص تذكر أن سكوتا جلبت معها من مصر الحجر المستخدم فى التتويج الملكى، وأن ذلك الحجر نقل بعد ذلك من سكوتلندا إلى لندن على يد إدوارد الأول، أو نقل بعد ذلك فى عام ١٩٩٦ إلى قلعة ادنبرة ومازال موجودا بها حتى اليوم (٥٩). وبالرغم من أن قصة والترباور عن سكوتا المصرية لم تصل إلى شكلها النهائى إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى إلا أنها وردت بشكل مغاير عام ٨٠٠ ميلادية فيما سجله الراهب والمؤرخ البريطانى نينيوس : أن الجيش المصرى عندما غرق فى البحر الأحمر وهو يطارد أبناء إسرائيل كان مع الجيش المصرى رجل قوى ونبيل من سيثيا أى جايثيلوس، ونجا مع من نجوا من المصريين من الغرق وخاف المصريون أن يستولى على حكم بلادهم فقاموا بطرده فأخذ زوجته الأميرة المصرية التى كانت تدعى سكوتيا، وقيل إن اسم سكوتلندا مستمد من اسمها، وأنه تاه لمدة ٤٢ عاما حتى رسى بسفينته آخر الأمر على سواحل إسبانيا(٦٠). ومن ذلك المصدر القديم يتأكد لنا أن القصة ليست من نسج خيال القرون الوسطى، بل أسطورة تمتد أعمق كثيرا فى الزمن، وتعتمد على ذكريات تاريخية، شائهة كصدى لأحداث حقيقية فمن هى..سكوتا؟ وكيف يمكن لها أن تعيننا على تحديد عصر الخروج بدقة؟!

ابنة فرعون

قيل إن سكوتا كانت ابنة فرعون مصرى غرق فى البحر وهو يطارد أبناء إسرائيل فى زمن الخروج، وحين يذكر اسم ذلك الفرعون فى تلك الأساطير يقال : إن اسمه كان «شنيكريس» ويخبرنا باور الذى رجع إلى نسخة مجهولة من قوائم مانيتو: أن ذلك الملك حكم لثمانية عشر عاما، بعد أن تلى ملكا حكم لمدة سبعة أعوام، اسمه اكوريسيس الذى كان اعتلى العرش بدوره بعد موت ملك يدعى اسنيكريس(٦١).

ومن أسماه باور اسنيكريس هو من أسماه مانيتو اسنيشيريس أى أخناتون، أما آكوريسيس الذى حكم لسبعة أعوام فمن الواضح أنه توت عنخ آمون، أما الاسم الغريب شينكريس الذى تذكر الأساطير أنه أبو الأميرة سكوتا فإنه يبدو ببساطة اسما آخر لأخناتون ولا يعنى ذلك أنه حكم مرتين، بل يعنى أن مانيتو استمد ماكتبه من مصدر آخر سجل مختلف ملوك الأسرة ١٨، وأن أسماءهم كانت متقاربة إلى حد كبير فى النطق أو الكتابة ولذلك اعتقد أن الأسماء المختلفة للملك الواحد قد تكون لأكثر من ملك. وهكذا نجد أن ملكا مثل أخناتون وكذلك حور محب مسجل فى قوائم مانيتو تحت أكثر من اسم واحد، وهكذا ، تشير كل الاحتمالات إلى أن الأميرة سكوتا كانت ابنة لأخناتون مما يفترض معه أن الوباء لم يقتصر فقط على أسطورة جايثيلوس وسكوتا، بل ظهر - أيضا - فى الحكايات الاغريقية المصرية والإغريقية الرومانية الخاصة بموسى بدءا من هيكتايوس الأبديرى إلى من تلوه، وتبدو كلها مرتبطة بعهد أخناتون هل يتفق ذلك مع مانعرفه عن الأحداث التى أحاطت بمرحلة العمارنة؟ والإجابة قد تكون مفاجأة إلا أنها تتأتى بالإيجاب.

فأولا: فكرة أن إحدى بنات أخناتون استقر بها المطاف فى نهاية حياتها فى بريطانيا ليست فكرة غريبة كما قد تبدو لأول وهلة(٦٢)، وثانيا: هناك دليل لا يمكن دحضه على أن وباءً لا نظير له تفشى فى مصر، واجتاح الشرق القديم قرب أواخر مرحلة العمارنة.

يد نيرجال

يمكننا أن نتتبع انتشار الوباء، ونرصد تطوره، فمثلا تذكر إحدى رسائل تل العمارنة القادمة من ملك الاساياً (قبرص) لأخناتون انتشار الوباء فى أرجاء قبرص ، فهو يتحدث فى تلك الرسالة عن يد نيرجال وهو أحد أرباب عالم الموتى السفلى، ومختص بالأوبئة والأمراض، وذكر عنه الملك : أنه الآن فى بلادى، وأنه قتل كل الرجال حتى إنه لم يعد يوجد

عامل نحاس واحد لينتج سبائك النحاس للملك(٦٣)، والفقرة السابقة تظهر ضمنيا أن الوباء كان قد تفشى فى كل أرجاء الشرق القديم قبل وصوله إلى قبرص التى كانت مركزاً هاماً للتجارة البحرية عبرأرجاء البحر المتوسط .

فما الذى كان يجرى بالضبط على اليابسة فى ذلك الوقت؟

كانت الدمدمة والرعب يتصاعدان أيضا فى فترة العمارنة من سومورو (٦٤)، وهى مدينة على الساحل السورى، وكذلك من ميناء بيبلوس (طرابلس)، وانتشر الرعب بين كل سكان المدينة، وكذلك بين كبار المسئولين المصريين بالمدينة(٦٥).

نكبة مورسيليس

بعد موت توت عنخ آمون وصل الوباء إلى بلاد الحسينيين (تركيا حاليا) عن طريق أسرى مصريين أسروا فى لبنان، وهذا معروف من نص مسمارى وجد على لوح طينى وجد مع ألواح أخرى كثيرة فى منطقة حاتوساس (بوغازكوى حاليا) عاصمة الحسينيين فى الأناضول بالقرب من أنقرة الحالية،وكتب النص ملك يدعى مورسيليس الثانى، وعرف النص باسم «صلوات الطاعون لمورسيليس، وهى تضرعات لآلهة الحسينيين لإعادة الحياة والنظام والاستقرار إلى بلادهم، وتخليص شعبهم من الوباء الذى حل بالبلاد من عهد أبيه سبيلوليوماس(٦٦) ويبدأ النص بالتضرعات ذاكرا:

«ما هذا الذى فعلته بنا؟ وباء أرسلته على البلاد؟ أرض الحسينيين ضربها الوباء بقسوة يحصد الرجال من عشرين سنة من عهد أبى وعهد أخى، والآن فى عهدى منذ أن أصبحت كاهناً، يموت الرجال ولا ينتهى الوباء، أما أنا فلا أحتمل الحزن الذى يملؤ قلبى أكثر من ذلك، ولا الكرب الذى يمزق روحى(٦٧)».

حاول مورسيليس أن يجد سببا لذلك العقاب الإلهى الذى حل ببلاده

ويسأل الآلهة إن كان هو أو أبوه قد أغفلا شأناً من شئون الآلهة، أو لم يقدما الترضيات والأضاحى الكافية، ولكى يقوم بواجبه لجأ إلى طلب النبوءة، وقيل له : إن أباه توانى فى الوفاء بوعوده التى قطعها على نفسه وأسرته لإله العواصف، وإن ذلك هو سبب البلاء، ولعدم وفاء أبيه للآلهة حل البؤس والدمار على بلاد الحسينيين، وراح موسيليس ينوح في ذلك النص قائلا: أرسل أبى المشاة وراكبى العجلات الحربية، وهاجم «أمكا» عند حدود المصريين (فى لبنان)، ومرة أخرى أرسل الجيوش وهاجمها، ولما عادوا بالأسرى المصابين بالوباء انتشر بين الأسرى وبدأوا يموتون من ذلك اليوم والشعب يموت فى أرض الحسينيين(٦٨).

كان الوباء يحصد الشعب حصدا، وهناك نص تكميلى عن الوباء كتبه مورسيليس يتحدث عن موت كل الفلاحين: لايوجد من يحرث ولا من يزرع أرض الإله، ثم ينوح قائلا: «النساء اللائى كن يطحن الحبوب لخبز أرغفة القرابين متن أيضا»، وعدا ذلك يضيف «الرعاة ماتوا أيضا »(٦٩). كانت كارثة طبيعية مروعة، ويمكننا أن نتخيل الصورة مكررة فى الزمن نفسه عبر كل أرجاء الشرق القديم.

وطبقا للحسابات التى أجراها عالم المصريات البريطانى كينيث كتشن فإن الحرب السورية الثانية التى وقعت بين مصر والحسينيين تحت قيادة أبا مور سيليس الثانى سبيلوليوماس وقعت فى العام الذى مات فيه توت عنخ آمون أى عام ١٣٣٩ق.م(٧٠). أى أن الوباء كان مازال متفشيا فى أرجاء الشرق الأدنى فى ذلك الوقت، وحيث إن الأسرى المصريين هم الذين نقلوه إلى بلاد الحسينيين فإنه من الواضح أنه كان مازال فاشيا بين الحاميات والحصون المصرية فى شمال الإمبراطورية، ولابد أن نفترض أنه كان متفشيا - أيضا - فى مصر قبل ذلك.

ولكن، إلى أى حد أثر ذلك الوباء على الشعب الذى كان يعيش على ضفاف النيل؟

من المحتمل ألا نعرف إجابة ذلك التساؤل تفصيلا، حيث إن كل

السجلات الرسمية التى تعود إلى تلك المرحلة تم تدميرها بناء على أوامر من حور محب .

أمة ملعونة

هناك دليل خطير على انتشار الوباء بمصر عثر عليه بين مئات الرسائل التى عثر عليها بتل العمارنة واردة من الأمراء والملوك المحليين الخاضعين للهيمنة المصرية، وكانت مرسلة إلى أمونحتب الثالث وأخناتون وسمنخ كارع أثناء توليهم حكم مصر، إحدى الرسائل تتضمن أن الملكة تايى، أم أخناتون كانت من ضحايا ذلك الوباء، كانت الرسالة موجهة إلى نفروريا، وهو الاسم الاكادى لأخناتون، وكتبها إليه بورنا ـ بورياس ملك بابل، وبعد تقديم التحيات القلبية الحارة لأخناتون والأسرة الملكية المصرية، يبدأ رسالته كما يلى، وهو ما تبقى من كلمات بها:

(بعد زوجة) ..أربيك....موت، أرسلت هو وا(رس) ولى، و.... (مت) رجم (إليك) (أنا) كتبت (كما يلى) قائلا:... ابنة الملك التى (كانت (مرة) أخـ)ذات (إلى أبيك) فلتجعلهم (يأخذون) أخرى (إليك)

(وأنت نفسك) أرسلت (حماسـ) سى رسولك، وأنا (ميهونى، المترجم) (قائلا ، ....زوجة) أبى ماتت (...) تلك المرأة (...) مات ـ (ت) فى (وباء)

فإذا كان الوباء قد نال من أم أخناتون ، تايى أرملة أمونحتب الثالث فكم من أرواح أبناء الشعب كان قد حصدها ذلك الوباء؟ كان الإقليم الشمالى للإمبراطورية المصرية (سوريا) هو الآخر فى قبضة وباء لم يسبق له مثيل، كان يحصد أرواح الشعب فى ضراوة ويفنيهم إفناءً جماعيا، فماتت أعداد لا تحصى، ولم يدر بخلد أحد أن الوباء سيستمر بنفس القوة لعشرين أو ثلاثين عاما.

فما أثر ذلك الوباء على الملك الذى كان ينظر إليه كأول نبى ومبشر بالإله آتون، والذى كان يعد التجسيد الحى على الأرض لواهب الحياة إله النور؟ ألا يمكن أن يكون الشعب قد رأى أن الوباء غضب من الآلهة التى

هجروها بسبب إخناتون الذى دعاهم للإيمان بإله واحد؟

ويلخص المؤرخ جراهام فيليب فى كتابه أفعال الرب المنشور عام ١٩٩٨م ذلك الموقف تلخيصا وافيا:

مثل ذلك الوباء كان كافيا للتخلى عن ديانة العمارنة، وبالرغم من أن القدماء لم يكونوا ليعرفوا السبب الحقيقى لذلك المرض إلا أنهم كانوا يدركون أنه ينتقل من مصاب إلى آخر غير مصاب، أما نوع ذلك الوباء فمن الصعب التكهن به، إلا أنه كان وباء طويل الأمد، حل بشعب كان يرى أن ملكه تجسيد للرب الأكبر على الأرض يلتف من حوله كل المجتمع، لابد أن الأمر بدا لهم كأنهم بالفعل أمة ملعونة(٧٢).

وبتلك الرؤية يمكننا أن نرى تلك الإشارة المذكورة فى سفر الخروج عن إبادة كل بكر من أبكار المصريين فى ليلة نزول ملاك الرب الذى سبق الخروج مباشرة على ضوء ذلك الوباء، وأن من كتب تلك الفقرة تأثر بذلك الوباء الذى كان يفنى شعب مصر والشرق القديم فى ذلك الوقت ولنقرأ ماتذكره التوراة عن ذلك الحدث:

فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن، وكل بكر بهيمة، فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى مصر؛ لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت(٧٤). فهل ذلك القص التوراتى مازال يحفظ ذكرى ذلك الوباء الذى اجتاح مصر خلال مرحلة العمارنة؟

لقد افترض جراهام فيليب أن الإشارة إلى قتل الرب العبرى لكل بكر مصرى ليس إلا إشارة لذكرى ذلك الوباء (٧٥)، ونعتقد أنه على صواب فى رؤيته، ومثلما حدث للملك الحسينى مورسيليس الثانى، هل وصل الشعب المصرى فى مرحلة العمارنة إلى الاعتقاد أن الوباء كان عقابا إلهيا؟ وأن سبب ذلك العقاب أن آلهة المجمع الإلهى المقدس القديمة قد أهملت، وهجرت عبادتها، ولم تعد تقدم إليها التقدمات والأضحيات

الملائمة لنيل رضاها؟

هل انتشر الاعتقاد أنه لإرضاء الآلهة الغاضبة لابد من جمع وسجن أو طرد كل الكهنة الملوثين دينيًا من أتباع آتون، وكذلك كل الآسيويين المقيمين بمصر، أو الأجانب الذين كانوا سببًا فى انتشار الوباء؟

وحين ترامى إلى مسامع أولئك الكهنة الملوثين دينياً والأجانب ما يحاك لهم، هل قرروا أن يسبقوهم بالرحيل والخروج من مصر وهربوا إلى فلسطين سوريا واختلطوا بعد ذلك بشعوب تلك البلاد؟

هل التحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى تمكنت من الفرار والمرور عبر سايل (مدينة القنطرة حالياً)، وكانت حصناً أمامياً على الحدود ما بين شرق الدلتا وبيداء سيناء، حيث كان المجرمون أعداء الملك يسخرون للقيام بالأعمال الشاقة فى عهد حورمحب؟(٧٦).

وكما علمنا فإن حورمحب يمكن التعرف عليه بأنه أوروس أو أور فى قصة مانيتو أوسرسيف موسى، ويحتمل جدا أنه كان مسئولا على الأقل عن بعض القرارات والأفعال التى تنسب إلى أمينوفيس فى حكايات الخروج(٧٧). أى نسبة من الأحداث التى وصفها مانيتو قد وقعت فى عهد حورمحب لا فى عهد سابقه الرسمى طبقا للسجلات (بعد محو ما تم محوه) أمونحتب الثالث، ويجعل ذلك منه أنسب شخصية كفرعون للخروج (مع احتمال أنه كان أيضًا فرعون الاضطهاد)، وبدأ كل ذلك على أكثر الاحتمالات حين أصبح قبل ذلك بسنوات قائدًا عاما للجيش المصرى عند بداية عهد توت عنخ آمون

هل هذه هى الجذور الحقيقية للخروج، وموضوع وثيقة البردى التى عثر عليها هوارد كارتر فى مقبرة توت عنخ آمون؟ الوثيقة التى حاول استغلالها لمصلحته فى ربيع عام ١٩٢٤.

كل ما توفر من أدلة يشير إلى صحة ذلك الاستنتاج المثير، ولإلقاء مزيد من الضوء لإجلاء وقائع الفترة الملغزة لابد أن نغامر بالكشف عما هو أبعد من أكفان الموتى وقبورهم، وننتقل إلى برية سيناء بحثاً عن مسار

الخروج وجذور الإله يهوه، إله أبناء إسرائيل، عن طريق التوصل إلى نقطة تأسيس الديانة اليهودية، ونمضى لندرك الحقائق التاريخية لغزو أرض كنعان، وما انطوت عليها الأحداث الحقيقية من وقائع، وعلاقة ذلك بالموقف السياسى، والعلاقات السياسية التى كانت سائدة وقت اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون.

الجزء الرابع

يهــــوه

١٨ - البحث عن يهوه

فى جنوب مصر، فى أعماق أرض السودان داخل مملكة النوبة القديمة، شيد أمونحتب الثالث أبو أخناتون، وتوت عنخ آمون معبداً مزدوجًا فى مدينة صوليب، الأول له، والثانى لزوجته الملكة العظمية تايى، وفى معبده المهدى لاسم الإله آمون توجد سلسلة من الأعمدة، منقوش عليها قوائم بأسماء المدن الآسيوية والإفريقية، أو أسماء المناطق الجغرافية كما يطلق عليها الباحثون(١)، من بين أسماء تلك القوائم توجد أسماء ثلاثة أماكن فى أرض ساشو(٢)، أحدها يقرأ يهوه فى أرض ساشو(٣)، ويهوه بالطبع هو الاسم السرى المقدس للإله الإسرائيلى، إلا أنه فى قوائم أمونحتب كان يشير إلى قوم رحل يطلق عليهم اسم شعب الساشو، وينتقلون عبر منطقة تقع جنوب عبر الأردن تسمى - أيضا- باسم منطقة سعير(٤)، أو إيدوم(٥) وهى منطقة مرتفعات تمتد ما بين خليج العقبة جنوبا والبحر الميت شمالا، ويشار إليها فى النصوص المصرية القديمة باسم أرض الساشو(٦).

والإشارة السابقة لاسم يهوه تعد أقدم ذكرًا مسجلاً لهذا الاسم، ولذلك فإن فهم العلاقة بين قبائل الساشو والرب الإسرائيلى تكتسب أهمية قصوى فى سعينا للكشف عن أصل الجنس الإسرائيلى، وكما رأينا فى الفصل ١٥ فإن الساشو (اسم مشتق من جذر لغوى مصرى قديم يعنى المتجول أو المرتحل)(٧)، مذكورون فى نصب ميرنتباح التذكارى الذى يرجع تاريخه إلى عام ١٢٢٠ق.م، وفى نص ذلك النصب نقرأ أن الساشو من إيدوم قد مروا عبر حصن ميرنتباح إلى آبار الماء فى بيت آمون فى المدينة الحدودية تچيكو، والمعروفة باسم سكوث فى التوراة، والواقعة على

الحافة الشرقية لدلتا النيل، حتى يظلوا أحياء هم وقطعانهم(٨).

كانت التحركات الموسمية للساشو تعتمد على توقعاتهم للتغيرات الحولية للطقس فخلال فصل الشتاء المطر يقيمون مخيماتهم على الأراضى التى نمى فيها الكلأ بعد سقوط الأمطار على المدارج والسهول الخصبة لمنطقة عبر الأردن، وحين تأتى فصول صيف جافة قاحلة يندر العشب، ويجف الكلأ يسوقون قطعانهم إلى الأراضى الساحلية الواطئة بفلسطين، وكما رأينا كانوا يضطرون إلى الانتقال إلى شرق الدلتا، حيث يبقون بها تحت مراقبة ورصد القوات المصرية(٩).

إلا أن الساشو كانوا أكثر من مجرد رعاة يسوقون قطعان مواشيهم وأغنامهم عبر آلاف الكيلومترات من أراضى صحراوية قاحلة كل عام، فبشكل ما نموا، وأصبحوا يشكلون تهديدا للملوك الذين تتابعوا على عرش مصر فى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

مصر فى كنعان

وحتى خلال عهد أمونحتب الثالث وابنه أخناتون فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت السلطات المصرية تخشى من إقدام بعض العناصر فى مرتفعات فلسطين على التمرد المسلح ضد مصر؛ لذلك جعلوا على تلك المناطق ملوكاً وأمراء تابعين لمصر، فى أورشليم جنوب فلسطين وعلى شكيم فى شمالها، حتى يسيطروا على تلك المناطق، وبالفعل تظهر رسائل تل العمارنة أن السلطات المصرية وضعت حاكما على أورشليم اسمه عبدى حيبا، وكان قد تلقى تدريباً وتنشئة عسكرية فى مصر(١٠)، وهكذا، أصبحت أورشليم مدينة تمثل أهمية استراتيجية للأمن المصرى وتحت هيمنتها الكاملة، ومن دلائل تلك الهيمنة إقامة معبد دينى مصرى كان يحتل الموقع الذى تشغله الآن إرسالية الدومينيكان الفرنسية التابعة لكاتدرائية سانت ايتين (القديس ستيفن)، وأظهرت أعمال الحفر بقايا أعمدة المعبد المتوجة بقمم على شكل زهرة اللوتس، كما عثر على وعائين

من المرمر، وأجزاء من بقايا منصة التقدمات والقرابين، وتمثال أفعى، ولوحة تذكارية لميرنتباح (١٢٤٢ ـ ١٢١٤ق.م)(١١).

أما الشوكة التى كانت تخز خاصرة الإمبراطورية المصرية فهم قوم كان يطلق عليهم اسم حابيرو أو عابيرو فى رسائل تل العمارنة، وكان العابيرو كما رأينا فى الفصل (١٦) شعوباً تتحدث بلغات سامية ولا تنتمى إلى موطن جغرافى محدد، وتنتقل بين المدن والولايات والدول المجاورة عارضين خدماتهم الحربية على ذوى النفوذ وأصحاب الاقطاعيات وحكام الولايات. كانوا يتجمعون معًا مكونين جيشًا من المرتزقة يحارب فى صف أى أمير يدفع أعلى مقابل . كانت لهم نظمهم وقوانينهم الخاصة، ونشروا الرعب والفزع بين حكام المدن والولايات فى أنحاء أرض كنعان، بمن فيهم أولئك الحكام الخاضعون للهيمنة المصرية. وامتلأت رسائل تل العمارنة بأخبار الهجمات التى يشنها الحابيرو ـ العابيرو، وفى واحدة من تلك الرسائل سجل عبدى ـ حيبا من أورشليم غضبه؛ لأن مدن أشكيلون (عسقلان) وجازار ولاخيش تستقبل الحابيرو/ العابيرو، وتقدم لهم المؤن(١٢).

أعداء الساشو

وعدا الحابيرو / العابيرو الذين كانوا يجوبون مناطق شمال فلسطين، كان الاهتمام المصرى موجها أيضًا إلى تنامى قوة الساشو الجنوبيين خاصة فى عهد حورمحب الذى تصدى لهم بقوة عام ١٣٢٠ق.م(١٣). كانوا قد أصبحوا مصدر قلق فى منطقة عبر الأردن، وبدأوا يندفعون غربًا عبر وادى عربة باتجاه صحراء النقب شمال سيناء الشرقى، ومن ذلك المكان أصبحوا على مشارف المدن الساحلية والطريق الساحلى مما جعل منهم خطرا محتملاً على شرق دلتا مصر(١٤)، وعدا تلك المناطق هناك ما يشير إلى تواجدهم بالمرتفعات الوسطى من فلسطين، مثل : مجدو ووادى جيزريل وبيت شين(١٥).

ويمكن إجلاء الوضع الحقيقى للساشو فى تلك المرحلة من نصوص السجلات المصرية القديمة التى تشير إليهم دائمًا بمفاهيم عسكرية وأمنية، ومن تلك السجلات نجدهم إما يحاربون الجيش المصرى فى سوريا ـ فلسطين، أو يظهرون كعصابات تسعى للنهب. ويتحدث نص بردية عن تفشى وجودهم فى الممرات الجبلية الهامة والمسالك الحيوية فى أرض كنعان مختفين فى حناياها. وكانوا خشنى الهيئة متوحشى الصورة قساة القلوب لا يستجيبون لإغراء أو نصيحة(١٦)، وطبقًا لما ذكره الباحث ويليام إدوارد عن ذلك:

كان المصريون يعتبرون الساشو جماعات لا انتماء لها، ولا ولاء، يتمركزون فى منطقة عبر الأردن، ويتأرجحون فى ازدواجية ما بين العمل كمرتزقة، وبين العمل كعصابات سطو على المدن وطرق التجارة فى كنعان(١٧).

وعدا ذلك يجب ألا ننسى أنهم كانوا رعاة، وكانوا يسلكون السلوك ذاته فى الارتحال من إيدوم حين يحل الجفاف، ويتجهون إلى مصر لترعى قطعانهم على عشبها. الأهم من ذلك، أن هناك دلائل قوية تثبت أنهم كان لهم مدنهم أيضاً(١٨)، وكانوا يعملون أحيانًا فى أشغال استخراج الخامات من المناجم، مثل : منطقة مناجم تيمنا لخام النحاس والتى كانت تقع على بعد ٢٧ كيلومترا شمال خليج العقبة على الامتداد الشرقى للبحر الأحمر(١٩)، إلا أنهم مع تنامى قوتهم، بدأوا يسببون الاضطرابات، وهناك نص منقوش يعود تاريخه إلى العام الأول من حكم سيتى الأول (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق.م) عن تمرد تلك القبائل:

الأعداء الساشو يتآمرون للقيام بتمرد وثورة، واجتمع قادة قبائلهم عند سفح خور، وبدأوا فى إثارة الشغب والاضطراب، وراحوا يقتلون بعضهم بعضًا، لم يراعوا قوانين القصر(٢٠). أما تفاصيل ما كان يحدث عند كتابة ذلك النص فسيظل مجهولا، إلا أن ذلك التمرد دفع الملك سيتى الأول لإعداد حملة عسكرية بدأها بالاستيلاء على مدينة با – كنعان، وهى مدينة

غزة الحالية، ثم تقدم عن طريق السهل الساحلى حتى وصل الجيش إلى بحر الجليل مطاردين الساشو والحابيرو/ العابيرو، والذى كان كل منهم مرادفاً للآخر، وسقطت فى يده مدن يانوعام (مذكورة فى لوحة النصر التذكارية لميرنتباح) وبيت شين وحامات، حتى وصل الجيش إلى حصون الحسينيين فى شمال سوريا، كانت حملة عسكرية مشهودة كللت بانتصارات متتالية، واحتفى بالنصر وسجله بنقوش نصبه على الجدار الخارجى لمعبد آمون بالكرنك.

وبالرغم من هزيمتهم العسكرية على يد سيتى الأول، إلا أن الساشو ازداودا قوة وعدداً، وبدأوا يظهرون من جديد فى مناطق تلال الشمال حول شكيم، ثم راحوا يتدفقورن إلى مناطق أخرى من كنعان حتى سواحل سوريا.

وخلال عهد رمسيس الثانى ابن سيتى الأول (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م) وجَّه عدة حملات عسكرية إلى فلسطين وسوريا، وكان من أشهر المعارك التى خاضها معركة قادش فى شمال سوريا ضد الحسينيين، إلا أنه اقتحم منطقة جنوب عبر الأردن أرض إيدوم، وهزم المتمردين بمن فيهم قبائل الساشو، وخلدت ذكرى تلك الحملة نقوش معبد الكرنك التى سجلت إخضاع رمسيس الثانى لمدينة عسقلان، وصورت الساشو وهم أسرى حرب.

ومن بعده ، فى بدايات القرن الثانى عشر قبل الميلاد، شن رمسيس الثالث (١١٨٢ ـ ١١٥١) غارات على «مخيمات المعسكرات» التى تجمع بها الساشو فى جنوب كنعان، ومرة أخرى كانت قوتهم قد تنامت من جديد وأصبحوا مصدر متاعب لمصر، وخرجوا عن السيطرة مما تطلب تسيير حملة عسكرية لتأديبهم(٢١). كل تلك التسجيلات تظهر أنه بدءاً من ١٣٢٠ ق.م حتى نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر قبل الميلاد نمت قوة الساشو حتى أصبحوا مصدر متاعب وأرق للحكومات المصرية المتتابعة، وكذلك مجموعات الساشو التى تحالفت وامتزجت مع مجموعة

قبلية سميت إسرائيل، وورد اسمها على لوحة ميرنتباح التى تخلد انتصاراته، والتى ذكر فيها أنه أفنى بذرة إسرائيل.

يهوه فى أرض الساشو

يتضمن الاسم الجغرافى لمنطقة الساشو الذى ذكر على حوائط معبد صوليب واسم يهوه أن تلك المجموعة من القبائل كانت تؤمن بالرب الإسرائيلى عدا ذلك فإن الإشارة إلى اسم يهوه تعنى أنه مرتبط بمدينة أو موقع معين يوجد فيه مقام أو مذبح لذلك الإله، وهى نظرية طرحها لأول مرة رافائيل چيفيون الخبير الأول فى شئون الساشو(٢٢) وشعوبها، وخمن أن يهوه فى أرض الساشو المذكورة على حوائط معبد صوليب قد تكون هى أصل التعبير التوراتى بيت يهوه أو بيت إيل أى بيت الرب(٢٣).

فضلاً عن ذلك، افترض چيفيون تأسيسًا على ماتقدم أن موطن الساشو كان له أهمية كبرى فى تطور عقيدة أبناء إسرائيل ، وعلى وجه الخصوص صلة تلك العقيدة بالجبال المقدسة (٢٤). وكان عالم المصريات برنارد جرد سيلوف(٢٥) قد طرح افتراضات مماثلة فى بدايات عام ١٩٤٧، والذى أدرك أن العلاقة التبادلية بين يهوه ـ ساشو الجغرافية كانت أول إشارة مبكرة قبل التوراة بقرون كثيرة إلى كل من إله أبناء إسرائيل ومن اتبعوا تلك العقيدة(٢٦).

وبالفعل، رأى عالم المصريات دونالد ردفورد أن مغزى يهوه ساشو إنما يدل على ارتباط مكانى جغرافى:

على مدى نصف قرن ظل السائد أن اسم يهوه المذكور على جدران المعبد ليس إلا الإله الإسرائيلى، وإذا كان الأمر كذلك – ولاشك أنه كذلك – فإن تلك الفقرة تقدم أثمن دليلاً على موضع جغرافى فى نهايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى منطقة معزولة يوقر ويبجل من كانوا فيه ذلك الإله(٢٧).

فضلاً عن ذلك، فإن معبد صوليب الذى يعود تاريخ إقامته إلى أمونحتب الثالث ليس المكان الوحيد الذى ذكرت نقوشه تعبير «يهوه فى

أرض الساشو»، فالفقرة نفسها مذكورة ضمن قائمة تضم أسماء ١٠٤ موقع جغرافي أفريقي وآسيوى، تعرض بعضها للتلف على جدران معبد يعود تاريخ إنشائه إلى عهد رمسيس الثانى وأقامه فى مدينة نوبية تسمى أمارا الغربية.

من بين الأسماء المذكورة بتلك القائمة توجد أسماء ستة مواقع فى أرض الساشو من بينها «يهوه» فى أرض الساشو(٢٨)، لذلك لا يمكننا أن نتشكك فى أن تكون نصوص معبد صوليب قد ترجمت بطريقة خاطئة، والفقرة مسجلة فى معبدين آخرين من المعابد التى شيدت فى بلاد النوبة بعد ذلك بـ١٥٠ عاما (ومن الممكن أن تكون نقوش العمارنة النصية قد نقلت عن تلك النصوص المسجلة فى معبد صوليب).

وعلى ذلك بافتراض أن الساشو قدّسوا يهوه، كيف يمكن أن يكون لذلك علاقة بأبناء إسرائيل التوراتيين؟ وكيف نفسر تلك الحقيقة عن أصل الإله العبرى على ضوء أن أقدم إشارة إلى يهوه يعود تاريخها إلى حكم أمونحتب الثالث(١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق.م)؟

إن إسرائيل كما هو شائع كان الاسم الذى وهبه الرب ليعقوب (٢٩) ثم أطلق بعد ذلك على أبنائه ونسلهم، فعرفوا بعد ذلك باسم أبناء إسرائيل أو الإسرائيليين، وكما تبينا فى الفصل ١٥ فإن ذكر اسم إسرائيل على لوحة النصر التذكارية لميرنبتاح لا يشير إلى موضع جغرافى أو إلى اسم مكان بل إلى قوم وجماعة بشرية من القبائل الرحل أو شبه بدوية، ولذلك لابد أن نتساءل لماذا يظهر اسمهم فى قائمة تضم الشعوب الآسيوية وأسماء أماكن خلال عهد ميرنتباح بالرغم من أن اسم إسرائيل لا يظهر فى سجل أسماء الأماكن الجغرافية الموجودة فى معبد أمارا الغربية، والذى يعود إلى عهد أبيه رمسيس الثانى؟ وإن كانت كثير من تلك الأسماء قد تلفت بفعل الزمن، ولم تعد واضحة إلا أن الاسم غائب – أيضًا – من سجل صوليب الذى يعود تاريخه إلى عهد أمونحتب الثالث. لم يوجد أى ذكر فى أى سجل يذكر أرض إسرائيل.

وما يتضح من قائمتى صوليب وامارا إشارتهما إلى الساشو رغم عدم ذكرهم فى لوحة نصر ميرنتباح، ونعلم علم اليقين أن رمسيس الثانى دمرهم خلال حملته العسكرية التى قام بها على منطقة ساير ايدوم، وحيث ظهر على الأقل أن بعض عناصر الساشو ظهروا كمؤمنين بيهوه فمن الممكن أن يكون اسم إسرائيل دالا على قبيلة أو عشيرة من عشائر الساشو، وأن إسرائيل ببساطة كانت من عشائر الساشو أو فى صدارة تلك العشائر حتى إنها حازت شهرة بين باقى عشائر الساشو تكفى لأن يذكرها ميرنتباح فى قائمة الأعداء الآسيويين على لوحته التذكارية.

فضلا عن ذلك، بالرغم من تعرضهم للدمار على يدى ميرنتباح الذى أفنى بذرتهم فإن ذلك يعنى أنهم كانوا يشكلون تهديدا على شمال الإمبراطورية المصرية، وهو ما حدث إجمالا من الساشو وبعد موت ميرنتباح عام ١٢٠٤ ق.م، استجمعوا قواهم من جديد مما استلزم حملة عسكرية جديدة على «معسكرات الخيام» فى عهد رمسيس الثالث، بعد حملة ميرنتباح بثلاثين أو أربعين عاماً.

لقد فشلت كل محاولات الباحثين للربط ما بين العبريين والجماعات الآسيوية الأخرى المذكورة فى النقوش المصرية، وكانت العلاقة ما بين الحابيرو/ العابيرو والعبريين موضع شك دائم مع عدم وجود علاقة عرقية أواجتماعية أو جغرافية واضحة بين تلك الأقوام المتحدثة بلغات سامية، فضلاً عن ذلك لو كان لفظ عبرى مشتق من حابيرو/ عابيرو لأصبح مجالا للخلط بين أعداء متباينين فى آسيا من جانب المصريين والفلسطينيين مع انعدام أى علاقة بين الاسمين من جهة الأصول العرقية(٣٠).

أنا يهوه

ظهر يهوه، وهو الاسم السرى المقدس الذى لا يجوز التفوه به لموسى أول مرة حين كان بأرض الميديانيين، والتى تعد حتى الآن المنطقة الواقعة شمال غرب الجزيرة العربية، فذات يوم، حين كان موسى يرعى أغنام

يثـرون أبى زوجـتـه وصل إلى أعـمـاق البـرية وعلى جـبل الرب فى حوريب(٣١)، حيث تعنى حوريب جبل فى وسط صحراء (٣٢)، رأى ملاك الرب على شكل عليقة عشب تحترق ولا تفنى، وأثناء المقابلة ، سأل موسى الرب عن اسـمـه فـأجـابـه: «أنا من هـو أنا» وقـال هذا مـا تقـوله لأبناء إسرائيل: أنا جئت إليك (٣٣)، ثم أمر الرب موسى أن عليه أن يبلغ أبناء إسرائيل أن يهوه إله آبائكم، ظهر لى رب إبراهيم وإسحق ويعقوب(٣٤).

بتلك الآيات من سفر الخروج ظهر الرب لأول مرة لموسى وكشف عن ذاته وعن اسمه الذى هو يهوه(٣٥) رابطًا الاسم مباشرة بجبل الرب.

وأثناء المقابلة طلب الرب من موسى أن يعود إلى مصر ويطلب من فرعون أن يطلق شعبه أبناء إسرائيل، إلا أن ذلك دفع الملك المصرى إلى أن يزيد من معاناة العبريين بتكليفهم بأعمال أشق، فأرسل له يهوه رسالة أخرى: أنا يهوڤاه (أي يهوه) وظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب باسم القادر (الشداى بالعبرية)، ولكنهم لم يعرفونى باسم يهوه.

وهى إشارة هامة تظهر أنه قبل وصول موسى لأول مرة إلى«جبل الرب» جبل حوريب كان الاسم الحقيقى للرب غيرمعروف له، كان إله الإسرائيليين يشار إليه قبل ذلك بصفات تدل على القدرة بلا أسماء مثل الشداى بمعنى القادر، أو إل إلوه إسرائيل أى إله إسرائيل (٣٧)، وكانت عبادة الإسرائيليين ليهوه ترتبط ارتباطا عضويا بجبل الرب، ويظهر ذلك الارتباط الشرطى من ترنيمة البحر وهى ترنيمة من سفر الخروج تتغنى بخلاص أبناء إسرائيل من جيش الفرعون ويذكر نص الترنيمة :

تجىء بهم وتغرسهم فى أرض ميراثك
المكان الذى صنعته يارب لسكنك
الذى هيأته يداك يارب (٣٨).

ويظهر من النص أنهم كانوا يؤمنون أن يهوه يسكن ذلك الجبل، أو على الأقل فى ضريح مقدس به، وظهرت قداسة الجبل - أيضاً - حين أمر الرب موسى قائلاً: لاتقترب إلى ههنا، واخلع حذاءك من رجليك؛ لأن

الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة(٤٠)، بالإضافة إلى ذلك، اعتبر كاتب ترنيمة البحر أنه كان حقا من حقوق أبناء إسرائيل من خلال موسى كوسيط أن يسمح له الرب بالاقتراب من مسكنه وموضع إقامته، وكان الرب يبدو وكأنه روح المكان.

جبل سيناء

بعد الخروج من مصر، يخبرنا سفر الخروج أن موسى عاد إلى جبل يهوه على رأس أبناء إسرائيل، أما فى هذه المرة فقد قدمت التوراة الجبل مبدئيا على أنه جبل سيناء(٤١)، بالرغم من أن اسم جبل حوريب قد استخدم بعد ذلك للدلالة على المكان مما يدل على أن الاسمين لمكان واحد(٤٢)، وعلى ذلك الجبل أنزل الرب على موسى الشريعة المقدسة منقوشة على لوحى الشهادة(٤٣).

فأين يمكن أن يكون ذلك الحدث المشهود قد وقع فعلا؟

إن البحث عن جبل حوريب أو جبل سيناء ظل على الدوام من الأمور الملغزة. فبعد الإقامة فى ذلك الموضع لعام كامل فى بداية الأربعين عاما التى قضاها الإسرائيليون تائهين فى برية سيناء، نجد أن التوراة تصمت بعد ذلك عن ذكر جبل يهوه، وأصبح بعد ذلك أبناء إسرائيل ومن بعدهم اليهود بوجه عام يجهلون موضع ذلك المكان كلياً، وهو ما يبدو غريبًا إذا أخذنا فى الاعتبار أن ذلك الموضع هو المكان الذى نزلت فيه الشريعة على موسى من الرب مباشرة. والإنسان الوحيد الذى سجل عنه أنه ذهب إلى «حوريب» جبل الرب (٤٤) بعد عصر موسى هو النبى اليشع، الذى فر إلى البرية بعد أن هددته إيزابيل زوجة آحاب ملك إسرائيل الذى حكم من ٩١٢ إلى ٩٠٠ ق.م بالقتل، لقيامه بقتل كهنة الرب الوثنى بعل، وعن تلك الواقعة ذكرت التوراة أنه بقى مختبئًا بكهف لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة حتى ظهر له فى آخرها يهوه أمامه وسأله: ماذا تفعل هنا يا إليشع؟

ولسوء الحظ لاتعطى التوراة أى دلالة عن الموضع الذى كان إليشع به

أكثر من أنه مر ببئر سبع قبل ولوجه مباشرة إلى البرية والتى كان يقع داخلها افتراضا جبل الرب(٤٥)، وهكذا تاه الموضع الحقيقى لذلك الجبل فعليا حتى بداية العهد المسيحى المبكر حين حظى بالاهتمام والبحث عن مكانه من جديد(٤٦).

احتمالات جبل موسى

سجل ديونيسيوس السكندرى الذى لجأ إلى سيناء عام ٢٥٠م أن شبه جزيرة سيناء تحولت إلى ملاذ ومنفى للمسيحيين الهاربين من التعذيب والعقاب على أيدى الرومان بمصر(٤٧)، وقيل إن القديسة كاترين السكندرية فرت فى البداية إلى سيناء إلا أنها عادت بعد ذلك إلى مصر، وطبقا للرواية الشائعة تم صلبها عام ٣٠٧م على عجلة، ثم قطعت رأسها وحملت الملائكة جسدها وطارت به لتدفنه فى إحدى قمم جبل سيناء، وقيل إنه جبل موسى (٢٢٨٦مترا)، أو فيما يبدو فى قمة أعلى قليلاً من الأولى وتقع جنوبها (٢٦٣٧ مترا) وتسمى جبل كاترين، مع أن القمتين لكتلة جبلية واحدة ولا يفصلهما إلا قمماً خلفية على شكل حدوة، وأول كنيسة على تلك القمة شيدتها الإمبراطورة هيلينا أو القديسة هيلينا بعد ذلك (٢٥٥ - ٣٣٠م)، وهى أم الإمبراطور قسطنطين الأكبر إمبراطور روما، والذى اختار أن يكون جبل موسى هو جبل سيناء، بالرغم من عدم وجود تقاليد يهودية فى ذلك الحين تدل على موضع الجبل الذى تذكر التوراة أن موسى صعد إليه (٤٨)، وبعد أن اعتنق ابنها قسطنطين المسيحية بعد معركة ميلڤيان بريدچ عام ٣١٢م تم انتخابه إمبراطوراً لروما عام ٣٢٤م، خصصت الإمبراطورة هيلينا الأم كل وقتها للترحال إلى الأماكن المقدسة لتقيم بها الكنائس والكاتدرائيات وتجمع المقدسات، أما سبب اختيارها لجبل سيناء؛ لتقرر أنه هو جبل موسى، فغير معروف ولا يمكن معرفته بأى حال، وتذهب التخمينات إلى احتمال أنها توصلت إلى ذلك التحديد عن طريق الرؤى التى كان يراها ابنها قسطنطين.

وفى عام ٣٧٣م قام راهب مصرى من قنا يدعى امونيوس بزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين، وعاد سالكًا طريق جبل سيناء المفترض أنه جبل موسى بصحبة مجموعة من الحجاج(٤٩)، وفى عام ٤٢٠م قيل إن حوالى ٤٠ راهبًا ذبحوا حين هاجمهم الأعراب وهم فى «دير العليقة المشتعلة » الذى شيد على منحدرات جبل سيناء (٥٠)، وبعد ذلك بفترة طويلة قام الإمبراطور جوستانيان (٤٨٣ ـ ٥٦٥م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية بإنشاء دير جديد فى موضع كنيسة هيلينا وسمى باسم القديسة كاترين فى القرن التاسع الميلادى ، فى ذلك الوقت كان يوجد ما يتراوح بين ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ راهب وناسك فى منطقة جنوب سيناء يقيمون تحت التهديد المستمر لهجمات الأعراب والبدو(٥١).

ولم تصبح زيارة جبل موسى آمنة للحجاج المسيحيين إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد الحروب الصليبية، وكان قد أصبح فى ذلك الوقت بلا تفكير ولا بحث هو جبل سيناء، وظل كذلك حتى الآن على مدى زمنى يزيد عن ألف عام.

وإلى حد ما وبتشوش فكرى اعتبر الجبل القريب منه المسمى جبل سربال (٢٠٥٧مترا) أنه جبل حوريب جبل الرب، بالرغم مما ذكرته التوراة أن جبل موسى هو جبل حوريب وجبل الرب، فضلاً عن ذلك، هناك تقليد قديم يربط ما بين جبل سربال وجبل سيناء، ويبدو أنه أقدم من التقليد الذى حدد موضع جبل موسى.

على أى حال، تعود كل تلك المعتقدات إلى المرحلة المتأخرة للإمبراطورية الرومانية(٥٢)، وفى كل الأحوال يوجد سبب قوى يجعلنا نفترض أن بعض الأساطير المتعلقة بجبل موسى كانت من الأصل مرتبطة بجبل سربال والذى يبدو أنه كان الموضع الأصلى للحج خلال العصر المسيحى المبكر(٥٣)، وأصبح المسيحيون والمسلمون يفدون من جميع أنحاء العالم للصلاة فى الموضع المفترض أن موسى تلقى فيه ألواح الشريعة، والموضع المفترض أن البراق صعد بمحمد إلى السماء منه.

وحاليًا يرشد الرهبان الأرثوذكس الجريك المقيمين في دير سانت كاترين الزائرين إلى موضع مصلى صغير مضاء على الدوام بمصباح، ويذكرون أن ذلك كان موضع العليقة المشتعلة التى لا تحترق ولا تبلى التى رآها موسى، وفى موضع آخر يشيرون إلى مقام القديسة كاترين التى يحمل الدير اسمها، ويذكرون أن عظامها داخل المقام، وعدا ذلك، هناك مكتبة الدير التى تحتوى على خمسمائة مخطوطة يدوية نفيسة مكتوبة باليونانية القديمة والعربية والسيريانية والإثيوبية القديمة (الأمهرية)، ومن أثمن تلك المخطوطات كودكس سيناتيكوس وهى مخطوطة للكتاب المقدس يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى..

وبالرغم من كل ما هو قائم الآن وجرت العادات على قبوله كحقائق لا يمكن أن يكون جبل سيناء الحقيقى موجوداً فى جنوب سيناء لأسباب عديدة، ولو تعين علينا تحديد الموقع الحقيقى لابد لنا أن نرجع إلى الأسس التاريخية لما ذكر عن موضع الخروج ومكان تيه أبناء إسرائيل، حتى لو كان من خرجوا فى الأصل جماعة صغيرة من المصريين المرتدين عن الإيمان بالتعددية الدينية المصرية التقليدية، ومعهم أجانب من غير المصريين أجبروا على مغادرة مصر، وهنا تصبح التوراة هى دليلنا الوحيد خلال التيه فى مفازات برية سيناء .

الرحيل من مصر

لذلك لابد أن نفترض أن بداية الخروج كانت كما يفترض العهد القديم من مدينة رمسيس أوبيثوم القديمة، والتى كانت فى منطقة تل الدبا الحالية وما جاورها، وكانت المقر الثانى للرعامسة فى شرق الدلتا ، وفى المنطقة ذاتها كانت توجد أرض جوشن وبالتأكيد مدينة زوان القديمة، التى تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل استقروا بها فى عهد يعقوب ويوسف، بالإضافة إلى ذلك نعلم أن تل الدبا كانت عاصمة الهكسوس أى : مدينة حواريس القديمة والمفترض أنها أصبحت بعد ذلك مكان تجمُّع المجذومين والملوثين

تحت قيادة أوسرسيف موسى والرعاة قبل طردهم من مصر.

ويذكر سفر الخروج أن أول محطة نزل بها الإسرائيليون بعد بدء الخروج كانت بمدينة سكوت، وهى مدينة تچيكو المصرية والمسماة حاليًا تل المسخوطة، وتقع أمام بحيرة التمساح فى النهاية الشرقية لوادى الطميلات، وهو واد يمتد من الشرق إلى الغرب، وكان فيما سبق فرعا من فروع النيل وجف بعد ذلك، وكان على الخارجين أن يعبروه ليصلوا إلى سكوت، ويتوافق هذا الاستنتاج مع ما تذكره التوراة، إذ تذكر أن الفرعون بعد أن وافق على إطلاق الشعب، وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة؛ لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر.

- وبالرغم من أن عبارة «الطريق إلى أرض فلسطين» ليست إلا مغالطة تاريخية ؛ لأن الفلسطينيين لم يدخلوا فلسطين إلا بعد الخروج، إلا أن الطريق المعنى كان يمر عبر مدن شرق الدلتا وهى مدن تيل (تل أبو صفيح حاليا) وسايل (القنطرة حاليا) متجهًا بعد ذلك إلى العريش ورفح ثم غزة، وأصبح السهل الساحلى الواطئ يحتوى على مناطق حصينة للفلسطينين بعد عام ١٢٥٠ ق.م، وما الذى كان يمكن أن يشكل رعبًا لإسرائيليين هاربين (وسوف نطلق عليهم هذا الاسم طالما كنا نتناول على وجه التحديد القص التوراتى) أكثر من وجود حاميات عسكرية مصرية على طول الطريق؟ كانت تلك الحصون والحاميات متواجدة على مسافات متساوية من ذلك الطريق الذى كان يعرف فى النصوص المصرية القديمة باسم طريق حورس، وذلك ما دعا الهاربين إلى اتخاذ مسار بديل حتى لا يندم الشعب حين يواجهون الحرب، ويعودون إلى مصر، أى أن قائدهم كان يخشى أن يترتب على أول مواجهة للهاربين بحامية مصرية سيعودون فزعين إلى مصر، ومثل ذلك المسار يفسر كيف أن قائدهم بعد أن أثناهم عن السير فى طريق أرض فلسطين قادهم ليسلكوا طريق البرية بجوار البحر الأحمر(٥٥).

مسار الخروج

بعد أن اتجهوا جنوبًا انطلاقاً من منطقة بحيرة التمساح كانت تليها البحيرات المرة، وربما وصلوا إلى رأس خليج السويس واستمروا سائرين على ساحله الشرقى حتى ولجوا برية سيناء، إلا أن المصريين كانوا يستخرجون النحاس من تلك المنطقة كما كانت توجد بها مناجم التركواز، لذلك كانت تلك المنطقة تعج بالجنود المصريين الذين يخشى الخارجون مواجهتهم، أما الأقرب إلى الاحتمال أن مسار الخروج كان من بحيرة التمساح ثم جنوباً إلى البحيرات المرة المسماة بحيرات المراح فى التوراة حيث تعنى كلمة المراح المرة وهى البحيرات ذاتها التى تذكرها التوراة باسم يام سوف(٥٦) أى بحر البوص، واتجهوا إليها حتى يعيقوا الجيش المصرى عن اللحاق بهم، وكان الفرعون بنفسه على رأس الجيش وبمجرد أن أصبحوا على الضفاف الشرقية لتلك البحيرات اتجهوا شرقا إلى برية شور (٥٧)، والذى مازال يعرف حتى اليوم بطريق شور(والذى يمكن الوصول إليه - أيضاً - من بئر سبع والخليل، ويبدأ من بحيرة التمساح وهو الطريق الأقل احتمالاً فى سلوكه انظر الشكل ٢٢، وباتجاه جنوب تلك المنطقة اتجهوا إلى طريق قديم مهجور كانت تسلكه القوافل فى أزمان سابقة، كما كانت تسلكه القبائل الرعوية مثل الساشو الذين كانوا يتحركون ما بين مصر وشمال الجزيرة العربية (٥٨)، وبسلوك ذلك الطريق المتجه إلى الجنوب الشرقى كان بإمكانهم أن يتقدموا بلا عوائق إلى ما يعرف اليوم باسم مدينة نخل ومدينة التمد، حتى تخبرنا التوراة أنهم وصلوا إلى إيليم التى وجدوا بها اثنتى عشرة عيناً من عيون الماء ، وثلاثة أضعافها وعشراً من النخيل، ونزلوا هناك إلى جوار الماء (٥٩).

وبالرغم من أن الباحثين التوراتيين رجحوا أن إيليم كانت على ساحل خليج السويس، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أنها كانت على خليج العقبة فى موقع مدينة إيلات الحالية، فكلمة إيليم ليست إلا جمعا لـ«إيل» ويمكن كتابتها أيضا «إيلات وإيلوث»(٦٠)، وهو موضع ذكر سفر الملوك الأول أنه

كان إلى جوار ميناء عصيون جابر حيث كان أسطول سليمان البحرى يرسو على شاطئ البحر الأحمر فى أرض ايدوم(٦١)، وبذلك يتبين أن إيلوت وإيليم هما اسمان لمكان واحد، هذا هو المسار الذى سلكه موسى وأتباعه، وكان هو الطريق ذاته الذى سلكه قبل ذلك فى ذهابه وعودته إلى ميديان الواقعة خلف السواحل الشرقية لخليج العقبة، والتى كان جبل يهوه يقع على تخومها.

بعد أن أقام الفارون بجوار عيون الماء فى إيليم، يذكر سفر الخروج أنهم واصلوا رحيلهم وفى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد مغادرتهم مصر، دخلوا برية سين التى بين إيليم وسيناء (٦٢)، وبعد أن حطوا رحالهم فى منطقة تسمى رافيديم، بدأ الإسرائيليون يتذمرون من نقص الماء، ونتيجة لتذمرهم قيل إن موسى ضرب بعصاه «صخرة حوريب» فتدفق منها الماء على الفور (٦٣)، وهكذا نجد أنهم وصلوا إلى جبل حوريب ، جبل يهوه ويؤكد ذلك النص الذى يذكر أنهم بعد أن رحلوا عن رافيديم دخلوا برية سيناء حيث نزل الاسرائيليون أمام الجبل (٦٤) فى الشهر الثالث من مغادرتهم مصر.

ويدفعنا ذلك إلى التساؤل ، هل برية سين هى ذاتها برية سيناء؟ وإن كان الأمر كذلك، لماذا يبدو من السياق أنهم وصلوا إلى حوريب التى فجر موسى منها الماء بعصاه ثم يرحلون عنها، وبعد ذلك يصلون إلى الجبل ذاته للمرة الثانية؟ الإجابات الجغرافية ستلقى الضوء على ذلك، ولكن من المهم جدا ألا ننسى وجود قدر كبير من التضارب والتناقض التاريخى والتناقض الموضوعى فى الأسفار الخمسة الأولى للتوراة، والتى تدل على أن تلك الأسفار كتبت على أيدى كثيرين ينتمون لثقافات وبيئات مختلفة وعلى مدى عصور متباينة، وبسهولة يمكن اكتشاف أن كثيرا من الأحداث، المذكورة فى سفرى الخروج والعدد، (وهما السفرين الرئيسيين اللذين يتناولان قصة تيه الإسرائيليين بالتفصيل)، تعتمد بلا أدنى شك على تراث منقول شفاهة عبر الأجيال، وظلت تلك الحكايات تنتقل عبر الذاكرة والرواية الشفاهية على مدى مئات السنين قبل أن يتم تدوينها ، لذلك نجد

أن هناك ازدواجًا فى الوقائع المختلطة بالقصص الشعبية المحلية فى سيناء، ولابد أولاً من فض الاشتباك والالتباس بينها وبين جوهر القصة التى تتضمنها تلك الروايات حتى نستخلص إطاراً عملياً نتوصل من خلاله إلى الموضع الحقيقى لجبل يهوه.

لا يتضح من سفرى الخروج والعدد مكان برية سين، أو سيناء ولا أين كانت.

وكما ذكرنا سالفاً، فإن العلاقة بين سيناء التوراة وما نعرفها اليوم باسم شبه جزيرة سيناء تم تقريره فقط دون أسباب موضوعية فى العصور المسيحية الأولى.

الاحتمال الأقرب إلى الصواب والصحة أن جبل سيناء أو حوريب كان موجوداً فى مكان ما بعد إيلات وخارج حدود مصر، على رأس خليج العقبة، حيث يقع جبل سعير، فى أرض الساشو، ويمتد ذلك الجبل باتجاه البحر الميت. فهل هناك أى دليل يؤيد هذى الحقيقة المتحدية؟

مسألة جبل سعير

فلنرجع أولاً إلى فقرة غريبة فى الاصحاح ٣٣ من سفر التثنية وهو السفر الأخير من الأسفار الخمسة الأولى والذى يرجح كل الباحثين أنه كتب فى عصور متأخرة حوالى القرن السابع قبل الميلاد (٦٥) وفيها يهب موسى بركته قبل موته إلى أبناء إسرائيل قائلا:

جاء الرب من سيناء

وأشرق لهم من سعير (٦٦).

وتتضمن تلك الآية عدا ارتباط الرب بسيناء، أن يهوه يشرق من سعير، وهناك إقرار آخر مثير يبدو من خلال ترنيمة الحرب المعروفة باسم أنشودة ديبورا وموجودة فى سفر القضاة ويقول نصها :

أنا أنا للرب أترنم، أزمر للرب إله إسرائيل.

يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء إدوم الأرض ارتعدت السموات أيضًا فطرت كذلك السحب قطرت ماء.

تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إله

إسرائيل(٦٧)، ولو لم تكن تلك الفقرة تشير إلى انقضاض الإسرائيليين على كنعان منطلقين من سعير، فإن سعير تصبح أكثر الأماكن اقترانا بالرب يهوه، أكثر من ذلك يوحى النص أن سيناء ليست إلا إسما آخر لجبل سعير، فما الذى نعرفه بدقة عن سعير أو إيدوم أرض الساشو؟

النصوص المصرية القديمة تربط الساشو على وجه التحديد بمنطقة جبل سعير (٦٨)، وبالقمة الرئيسية فى سلسلة قمم جبل سعير، وبأرض إيدوم(٦٩).

وتذكر التوراة أن سعير كانت في الأصل : «أرض شعب اسمه إميم الإيميين، سكنوا فيها قبل شعب كبير وكثير وطويل(٧٠) كالعناقيين»(٧١) وعرفوا - أيضاً - باسم زفائيين كالعناقيين، وهم جنس عملاق يقال إنه كان من نسل نيفيليم، وكان موجوداً قبل الطوفان(٧٢)، وبعد ذلك أصبحت سعير موطن الحوريين (٧٣) وهم قوم بدائيون عاشوا فى جبل سعير(٧٤)، وطردهم منها جيش الأدوميين (٧٥) والذين سكنوا بعد ذلك مكانهم فى جبل سعير (٧٦)، واستمدت منطقة سعير اسمها من جد الجنس الحورى الذى يذكر سفر التكوين أن اسمه كان سعير الحورى وأطلق على نسله أبناء سعير(٧٧). وظن باحثوا التوراة أن الحوريين هم الشعب الذى تذكر النصوص المصرية أن اسمهم شعب حورو، أو حورانيين(٧٨) سكان فلسطين الكبرى (٧٩). هذا بالرغم من أن التوراة تحدد المكان الذى سكنه الحوريون بمنطقة سلاسل جبال سعير ، ولذلك لا يحتمل أبدا أن يكونوا هم الحورو أو الحورانيين المذكورين فى النصوص المصرية القديمة.

كبش فداء عزازيل

تعنى «سارعير» العبرية خشن أو مشعر، أى : ذو شعر كثيف مثل شعر الشاه الجبلية (٨٠)، كانت سعير - أيضاً - موطن عيسو شقيق يعقوب البكر وأبو الأدوميين فى أرض سعير(٨١)، وكان التوأم الأكبر من أبناء إسحق، وكان إسحق ابنا للبطريارك الأكبر ابراهيم، وكان عيسو

ووايدوم(٨٢) مـرادفين لمعنى واحـد وهو الرجل المشـعـر، مما يدل على أنه مظهـر آخـر أوشكل من أشكال رب سـعـيـر(٨٣)، ويدل الاسم أيضـًا على معنى «هو ـ الشاه(٨٤)أوبدقة أكبر كبش الفداء.

ويذكـر سـفـر اللاويين أن كـبش الفـداء كـان يذبح كـقـربـان ، أويرسـل حرفياً ليلقى حتفه موتًا، ومـارس الإسرائيليون هذا الطقس تحت إشراف مـوسى «كـتكفـيـر عن الخطايا »حـتى يتطهـر الإسـرائيليـون من إثم خطاياهم(٨٥) «**ويقرب هارون التيس الذى خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطية، وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيًا أمام الرب، ليكفر عنه ليرسله إلى عـزازيل فى البرية»**(٨٦) وعـزازيل اسم لملاك الشـر، والذى ارتبط اسمه بـ «كبش الفداء» فـى ترجمات التوراة، إلا أنه يحتمل أنه مشتق من الكلمـة الأكـادية أوز (uz) ، وتعنـى عنزه أو كـبش(٨٧)، ومـصـادر أخـرى تقرر بوضـوح أن كبش الفداء كان لفداء إسماعيل، ويرى التراث اليهودى أنه من رؤساء الشياطين والمغضوب عليهم والذى يعنى اسمه حرفيًا فى تراثهم: سم الرب(٨٨)، إلا أن عزازيل هو الذى ارتبط وحده بسعير، وقيل عنه: نصيبه بين شعب أبناء عيسو الذين يعيشون بالسيف ، ونصيبه من الحيوانات الشاه، الشياطين (شيديم) جزء من مملكته ويسمون فى التوراة سيريم، وهو وشعبه يسمون سـعير(٨٩). وبالطبع ليست سيريم المذكورة هنا هى الشياطين ، بل شعوب سعير الأصلية نسل عيسو، أو إيدوم .

ويبـدو أن جـبل سـعـيـر كان هو الموضـع الأصلى لطقس كـبش الفـداء الذى قام به هارون ، ويحتفى به اليهود كل عـام فى العيد اليهودى المسمى يوم كـيـبـور، أى : عـيـد التكفـيـر. فـضـلاً عن ذلك، هناك دليل واضح أن الحـاخـامـات ودارسى التوراة عمدوا فـى القرون الوسطى إلى فـصل تلك العادة القديمة التى يقدم فيـها كل يهودى أى نوع من الأضـحـية الحـيوانـية إلى رب سـعير، ويؤكد ذلك تصريح أحد الحـاخـامات اليهود بأن : «سـعير ليست إلا معصية للرب»(٩٠) فمن كان رب سعير على وجه الدقة؟

إنه مرتبط بعيسو وإيدوم ، والتى تعنى ببساطة «أحمر»، ويقال إن تلك التسمية أو الكنية اللونية يمكن إدراك سببها من خلال القصة التوراتية

الشهيرة : التى تقص كيف حرم عيسو بالخديعة من ميراثه على يد شقيقه الأصغر يعقوب الذى قدم إليه طعامًا من العدس الأحمر مقابل تنازله عن حق بكورته، أو استحقاقات كونه الابن البكر ليعقوب حين عاد مرهقًا وجائعًا من الصيد(٩١)، بما كان الهدف الحقيقى من تلك الحكاية الرمزية تبرير العداوة التى ترسخت بين فرعى أبناء اسحق، والتى تظهر التوراة أنها كانت عداوة مريرة، على سبيل المثال : تذكر التوراة أنه بينما كان أبناء إسرائيل فى تيه البرية هاجمهم العماليق، وهم من نسل عماليق حفيد عيسو وزعيم ايدوم(٩٢)، وكان من المفترض أن يسكن العماليق الأراضى الواقعة غرب إيدوم(٩٣)، كما تبدو العداوة - أيضًا- فيما تقصه التوراة حين رغب أبناء إسرائيل أخيرًا بعد سنوات التيه فى دخول أرض كنعان ، فرفض ملك إيدوم السماح لموسى والإسرائيليين المرور من أرضه ليصلوا إلى شمال أريحا ، مما أجبرهم على سلوك مسار طويل حول أرض إيدوم ليتمكنوا من دخول أرض فلسطين (انظر الفصل ٥٢) ،(٩٤) .

لقد ضحى هارون شقيق موسى والجد الأكبر لقبيلة لاوى بكبش الفداء على جبل سعير فى أرض إيدوم، فى الوقت الذى تذكر فيه السجلات المصرية اسم منطقة ذكرت عنها: يهوه فى أرض الساشو ، وهو موضوع مثير بالفعل، هنا فقط يمكننا العثور على جذر منشأ عبادة يهوه، إلا أننا نتساءل من جديد، أين كان موقع جبل سعير؟ وهل كان جبلاً واحداً حمل ذلك الاسم؟ وقبل الإجابة على هذه الاسئلة، لابد أن نسأل أنفسنا أولا: كيف يمكن لجبل يهوه أن يكون كرسيًا أو عرشًا للرب الإسرائيلى، وكيف يمكن من جهة أخرى للرب الوثنى لسعير أن يكون مقيمًا فى جبل سعير؟

ذلك اللغز المحير والمخجل لابد من تناوله بالبحث قبل أن نتمكن من رفع الأستار عن حقيقة جبل سيناء.

١٩ - جبل القمر

بعد غزو يشوع لكنعان، قسمت الأرض الواقعه بين جبل حرمون شمال غزة، ومنطقة جنوب وادى الأردن فى الشرق بين الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل، وبعد ذلك خضع الإسرائيليون لحكم سلسلة من الحكام الدينيين عرفوا باسم القضاة والذين دام حكمهم ٣٠٠ عام. كان أول ملك لإسرائيل بعد حكم القضاة هو الملك شاول وهو من سبط بنيامين، واعتلى العرش حوالى ١٠٩١ ق.م، ثم تلاه داوود الذى مسح ملكاً على سبط يهودا فى الخليل عام ١٠٨٤ ق. م، وأصبح ملكاً على كل إسرائيل بعد ذلك بسبعه أعوام ونصف، واختار أن يكون حكمه من أورشليم.

وفى عهد ابنه سليمان بنى أول معبد أو هيكل فى أورشليم مما حولها إلى مقر للحكم ومكان لعبادة الإله الإسرائيلى. وفى أورشليم أيضًا استقر قدس الأقداس أو أقدس المقدسات، وهو تابوت العهد، وهو التابوت الذى كانوا ينقلون فيه الرب معهم من مكان إلى مكان. كان ملوك إسرائيل يمسحون أولاً حتى يكون لهم حق إلهي فى الحكم وكان ذلك الطقس الدينى يخلق علاقه خاصة بالرب مما يجعل الملوك المسوحين «ممسوحى يهوه»(١)، وأثناء عمليه المسح بالزيت المقدس تحل روح يهوه على الممسوح. وتحميه من أى أخطار أو محن.

وبعد أن دام حكم سليمان أربعين عاماً بدأت الصراعات بعد موته تشتعل بين قادة الأسباط أدى ذلك إلى انقسامهم؛ حيث تضافر زعماء عشرة أسباط معاً وأعلنوا استقلالهم عن ابن سليمان، رحبعام ملك يهودا الذى حكم من أورشليم، بينما حكم باقى المنطقة يربعام الملك الذى مسح على إسرائيل (والتى أصبحت تعرف بالسامرة) فى المناطق التى يقطنها

الأسباط العشرة التى تمردت على ابن سليمان، سبط بنيامين وحده ومعه الكهنة المعروفون باسم اللاويين، وهم الذين دعموا سبط يهوذا، وانحازوا إليه بعد التقسيم، وسارت كل مملكه منهما فى طريقها المستقل، ثم تعرضت إسرائيل للغزو من جيش الإمبراطورية الآشورية عام ٧٢١ ق. م، وساق الجيش الآشورى الأسباط العشر إلى المنفى فى بابل، وهو الحدث الذى أنهى تحالف الأسباط العشر لإسرائيل. وفى عام ٦٤٠ ق. م مسح رجل يدعى يوشع ملكاً على يهودا، وبخلاف الملوك الذين سبقوه لم يسقط فى شرك الوثنية، وكان مؤمناً متعصباً ليهوه، وقيل عنه إنه : «سار فى طريق داوود، لم يحد عنه قيد شعرة لا يمينا ولا يساراً»(٢) وأعاد يوشع عبادة يهوه كدين قومي، وقضى على كل شكل من أشكال العبادات الوثنيه التى سادت وانتشرت على مدى أجيال كثيرة سابقة عليه.

كل ممارسة دينية أو طقس دينى فى العهد القديم كان يشير إلى رب إسرائيل أنه كان ذات يوم مرتبطاً بأرض إيدوم وهم أعداء إسرائيل الألداء، كان يشطب ويحذف ويمحى أثره من النصوص المقدسة، كان يوشع من خلال تلك الافعال يسيطر على ذهنه الهوس الدينى لأسلافه ومنهم عمسيا ملك يهودا الذى خرج بالجيش ضد «أبناء سعير» قبل عهد يوشع بمائتى عام (حكم عمسيا من ٨٣٨ – ٨٠٩ ق. م)(٣)، وبعد أن ذبح كثيراً منهم وأصاب كثيرين إصابات مميتة (انظر الفصل ٢٠)، قيل إنه أعاد إلى يهودا :

آلهة بنى سعير، وأقامهم له آلهة، وسجد أمامهم، وأوقد لهم (٤).

دفع يوشع إلى تلك الأفعال بغضبه الشديد لكل ماهو ضد اسم يهوه، خاصه أن «آلهة أبناء سعير» كانت تعبد داخل هيكل سليمان، وهو مازاد من بغضه وكراهيته لإيدوم. وأوصى يوشع ناسخى التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) بشطب كل عبادة ليهوه لها علاقة بعبادة آلهة سعير الوثنية، والتى تحولت إلى شيطان أطلقوا عليه اسم عزازيل أو إيدوم، فضلا عن ذلك، كأن من المنطقى أن يتلف يوشع كل صلة جغرافيه بين

سعير وجبل يهوه، على أمل أن يمحى ذلك من الأذهان - أيضا - كل صلة أو ذكرى بارتباط وقع بين موسى ويهوه على جبل سيناء / حوريب، ويفسر ذلك ماقاله النبى حزقيال، الذى كان يعد «كلمة الرب» عن جبل سعير بمرارة شديدة :

هأنذا عليك يا جبل سعير وأمد يدى عليك، وأجعلك خراباً مقفراً، أجعل مدنك خربة، وتكون أنت مقفراً، وتعلم أنى أنا الرب.

هل يمكن أن يكون مرجع تلك الكراهية إلى رفض ملك إيدوم السماح لموسى والإسرائيليين بالمرور عبر مملكته قبل غزوهم لكنعان ؟

كلا بالطبع، الصحيح والثابت أن الأجيال التالية من اليهود كانوا يتباعدون عامدين عن شكل العبادة الدينية التى كان الأدوميون يمارسونها وهم نسل عيسو، وازدياد الكراهية لم يكن يعود إلى اعتناق الإدوميين ديانة وثنية بقدر ما كان بسبب تحول الإسرائيليين إلى مفاهيم خاصة بهم فى عباده يهوه. وبعباره أخرى، لم تكن عبادة رب سعير عبادة وثنية على الإطلاق، كانوا ببساطه يعبدون شكلاً من أشكال يهوه، إلا أنه إله واحد، مما رآه الإسرائيليون الأول بوجه خاص ومن بعدهم اليهود بوجه عام أن عبادة الإدوميين ليست إلا كفراً وتجديفاً. فما الذى أثار مقتهم واشمئزازهم من ذلك الشكل من العبادات العبرية ؟

تكمن الإجابة الحقيقية فى تلازم يهوه قبل ذلك مع القمر واقترانه به.

البحث عن سن

كان القمر يعد فى العصور القديمة أقدم كوكب سماوى ويسبق الشمس فى الترتيب على اعتبار أن النهار يلى الليل، وكان ينظر إليه على أنه منظم دورات الطبيعة، وهو الذى يجعل النبات والكلأ والشجر والمحاصيل تنمو وتربو، وهو أيضا واهب الخصب للحيوانات ويسبب توالدها، وهو المسئول - أيضاً - عن ولادة الأطفال(٦). وفى بلاد ما بين النهرين القديمة (العراق حالياً)، كان القمر يعبد باسم سن، والاسم مشتق

من الأصل السومرى إن - سو أو سو- إن، وتعنى «رب المعرفة»(٧)، وكان معبد سن الرئيس فى مدينة أور، وهى مدينة عظمى من المدن القديمة على مصب نهر الفرات وكان معبده الأكبر الثانى فى حران وهى مدينة قديمة على حدود سوريا الشمالية وجنوب شرق تركيا. وأقدم من عبدوا القمر لم يكونوا الزراع بل الرعاة، خاصة رعاة أرمينيا وما جاورها من مناطق رعى ويتحدثون باللغات السامية ويجوبون برية سوريا والجزيرة العربية، وهم أصل أسلاف المديانيين وعرب الجزيرة قبل الإسلام. وتذكر التوراة أن الأرمن من نسل آرام، ابن شيم العم الاكبر لإبراهيم(٨) وكان أخوته ناحور وحران (٩) أما ميديان، جد المديانيين، فقد كان الابن الرابع لإبراهيم من جاريته قطورة (١٠)، وأصبح إبراهيم من خلال نسل ميديان أباً لأمم كثيرة.

ويعتقد أن إبراهيم عاش فى الفترة من ٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق. م، ويقال إنه ولد فى «أور الكلدانية» (١١) التى كانت موجودة كما تذكر التوراه فى أرض شنعار(١٢)، أى سومر القديمه. وفى عام ١٨٥٤م أعلن الآثارى ج. إ. تايلور من المتحف البريطانى أنه اكتشف موقع مدينه أور فى تل زيجورات الذى يقع فى منطقة تل المقير(١٣) بجنوب منطقة ما بين النهرين وطور الحفر والكشف عام ١٩٢٠م الاثارى البريطانى ليونارد وولى، وكتب بضعه كتب عن ذلك الموقع ومنها كتابه «أور الكلدانية» الذى نشر عام ١٩٢٩(١٤). إلا أن الأصح أن مدينة أور التوراتية هى مدينة أورفا الحالية، وإديسا القديمة الواقعة جنوب شرق تركيا. ومن الواضح أن مدينة أور كانت تشغل مكان مدينه أقدم تسمى فى النصوص الأكادية والسومرية والحسينية القديمة باسم مدينة أورسو(١٥).

فضلاً عن ذلك، تؤكد الثقافة المحلية فى تلك المنطقة أن إبراهيم قد ولد فى أورفا فى كهف أسفل الجبل المشيدة عليه قلعة أورفا، وأصبح ذلك الكهف مكاناً له قداسة ويزوره المسلمون من أنحاء الشرق الأدنى(١٦)

وكان لمدينه أورفا معبد خاص بعبادة إله القمر «سن»(١٧) بينما كان

اسما كالديا والكلدانيه اشتقاقات مستمده من عبادة القمر فى حران وأورفا، وعرف أهلها من القرن الثامن الميلادى حتى الآن باسم الصابئة (انظر مايلى)(١٨)

ومن مدينة «أور الكلدانيين» ارتحل إبراهيم تصحبه زوجته ساراى (ثم تحول الاسم إلى سارة) وأبوه تارح وابن أخيه لوط إلى مدينة حران التى كانت تبعد ٣٥ كيلو متراً عن أور، وبعد أن مكثوا بها لفترة، أمره الرب أن يترك بيت أبيه (كان أبوه قد مات)، وأن يرحل هو وأسرته وأقاربه الذين معه(١٩). فغادر حران وانحدر إلى أرض كنعان واستقر فى بداية الأمر فى شكيم الواقعة بالتلال الشمالية من كنعان(٢٠)، ثم انتقل إلى وسط فلسطين؛ حيث أقام خيمته بالقرب من بيت إيل التى تعنى «بيت الرب»(٢١)، والمعتقد أنها كانت تقع على الطريق بين أورشليم وشكيم (٢٢)، ثم واصل ترحاله باتجاه جنوب فلسطين، ولما عم القحط وانتشر الجوع اضطر هو وعائلته إلى النزوح إلى مصر.

ورزق بابنه الأول إسماعيل من جارية مصرية اسمها هاجر، ويقال إن إسماعيل هو أبو الإسماعيليين أو شعوب العرب. أما ابنه الثانى إسحق، فقد رزق به من زوجته ساره، وقدِّر لإسحق أن يكون أباً ليعقوب أبى الإسرائيليين، وعيسو أبى قبائل الإدوميين بالأردن.

وكان مولد إبراهيم فى «أور الكلدانية»، وقضاؤه باكورة حياته فى حران، وكانت المدينتان مركزين رئيسيين لعبادة رب القمر سن، من الأمور التى أثارت كثيراً من الجدل بين الباحثين التوراتيين، ولأن إبراهيم هو البطريارك الأول والأكبر، فقد أثار الجدل احتمال وجود علاقة بين رب إبراهيم ورب القمر سن الذى كان يعبد فى موطن ميلاده ونشأته.

والتوصل إلى حقيقة تلك العلاقة له أهميه قصوى، حيث إن جبل يهوه الذى تلقى عليه موسى ألواح الشريعة كان اسمه جبل سناى (سيناء)، أى أن الاسم منسوب حرفياً إلى سن، أى إلى القمر.(٢٣).

كان أسلاف الإسرائيليين من القبائل المرتحلة وشبه المرتحلة تعمل

بالرعى وكانوا مثل أبناء عمومتهم الآراميين يحطون رحالهم بصفة مؤقته فى صحارى سوريا - فلسطين واضطروا مرتين إلى اللجوء لمصر بسبب الجفاف والقحط والجوع، مرة فى حياة إبراهيم، والثانية فى عهد يعقوب وابنه يوسف.

والسؤال المطروح هو، هل يحتمل أنهما كانا من عبدة القمر أو رب القمر، الذى كان يعد أقدم وأول الكواكب، وهل كانت تلك الديانة هى ديانة عيسو، الابن الأكبر لإسحق ؟

وللإجابه على ذلك التساؤل لابد لنا من العودة بالزمن إلى موطن إبراهيم الأول.

مدينة سن

كما أسلفنا، كان سكان مدينتى حران وأورفا القريبة منها من عبدة الكواكب والنجوم، وعلى الوجه الأخص من عبدة القمر سن، الذى كان رباً للأرباب، أو «سيد كل الآلهة»(٢٤). وبالفعل، كانت مدينة حران تكنى بـ «مدينة سن» (٢٥).

والأساطير الدينية للحرانيين المعروفين - أيضًا - باسم الكلدانيين أو الصابئة ليست إلا خليطاً عجيباً من القصص التوراتية والعادات الوثنية الدينية إلا أن بعض تلك الأساطير يظهر العلاقة الحقيقية بين عبادة رب القمر وجذور العقيدة الدينية اليهودية، على سبيل المثال : آمن الحرانيون أن آدم، أول البشر، كان نبياً مرسلاً من رب القمر، ودعا أبناءه إلى عبادة القمر(٢٦)، إلا أن ابنه «ست» عصاه (٢٧).

كذلك تظهر تلك الأساطير الدينية أن لديهم الكثير عن إبراهيم الذى يذكرونه بكل ازدراء، وطبقا لما سجله المفكر العربى «أبو محمد بن أحمد بن حازم القرطبى (٩٩٤ - ١٠٦٣م) : يعتقد الحرانيون أن إبراهيم ولد ونشأ بين عقيدتين دينيتين، هما عبادة الأوثان، وعبادة النجوم والكواكب، إلا أنه تحول إلى الحنيفية، أى خرج عن العقائد السائدة لقومه(٢٨).

وسجل القرطبى أيضاً أنه كان مازال بعصره صابئة آمنوا بعقيدة إبراهيم الحنيفية(٢٩).

عبدة القمر

ويثير الاهتمام أيضاً المعتقدات الدينية الأسطورية التى آمن بها المندانيون، وهم أيضاً من شعوب حران، وانتشروا بعد ذلك على مدى الألف وخمسمائة عام الأخيرةه فى بقاع غرب آسيا وتعيش تجمعاتهم الحالية فى جنوب إيران، وجنوب العراق ومازالوا يعيشون فى جماعات شبه قبلية ونسلهم يسمون اليوم «العرب الراحلة» ويعيشون فى جيوب منعزلة، وقام صدام حسين حاكم العراق بإبادتهم إبادة جماعية.

وطبقاً للمفاهيم المندانية السائدة حتى الآن، كان بهرام (اسم إبراهيم لديهم) مندانيا مثلهم من حران، إلا أنه ختن، مما جعله طبقاً لأعرافهم ملوثًا، ثم آمن بهرام بعبادة يوربا، وهو روح الشمس التى أطلق عليها العبرانيون اسم «أدوناى» (أى السيد) وكان تحت سيطرة «روحا»، ملكة الظلام(٣٠)، وبعد أن آمن بالعقيدة المغايرة لعقيدة قومه حطم كل أصنامهم الوثنية الموجودة بالمعبد الكبير ثم فر إلى الصحراء، وخرج معه كل الملوثين و «المجذومين وكل عبدة الكواكب والنجوم، ومنهم بسران سيرا (عبدة القمر)، وظل نسلهم ملوثاً حتى سبعة أجيال بعدهم» (٣١)

«وتنامت قوة قبيلة بهرام وتضاعفت ووهبهم يوربا القوة على الأرض، كما وهبهم «تلك القوة السحرية التى تجعل من النار برداً وسلاماً عليهم ولا تحرقهم أو تصيبهم بسوء» (٣٢)، وانحاز الى ملكة الظلام، وحارب المندانيين، وكان يأسرهم ويختنهم بالقوة حتى يحولهم الى ملوثين مثله. إلا أنه قرر بعد ذلك أن يتوب ولكن زحل أمره أن يضحى بابنه (إسحق) إلا أنه بسبب توبته الصادقة سمح له بالتضحيه بكبش بديلاً عن ابنه (٣٣)»

تلك هى القصة الدينية الأسطورية التى يؤمن المندانيون بصحتها، وتماثل بعض جوانبها قصة الخروج لمانيتو والكتاب القدماء.

الدلالة الأهم فى تلك القصة الدينية الأسطورية أن أتباع إبراهيم كانوا يعرفون باسم «بسزام سيرا» أى «القمريون» حيث تعنى سيرا القمر فى لغة المندانيين(٣٤). ولو تجاهلنا الادعاء بأن أولئك الناس كانوا «ملوثين» أو «مجذومين»، فإن ذلك يعنى أنهم وصفوا بذلك لخروجهم عن ديانة مجتمعهم واعتناقهم معتقدا دينيا آخر يؤمن برب القمر، وكان المندانيون الوثنيون يرون على العكس من ذلك أن للقمر تأثيرا «ملوثاً» و «جالب العجز»(٣٥)، ومع أن يوربا - ومن الواضح أنه يهوه - يعرف على أنه روح الشمس، إلا أنه لا يقلل من قيمة ذلك الاستنتاج، فقد كان يدرك على هذا النحو فى أفهام المندانيين حتى فى عصور لاحقة على عصر إبراهيم، ولا يعكس حقيقة ما آمن به إبراهيم.

الاحتفالات القمرية

ومازلنا نتساءل ونبحث عن دليل إن كانت عبادة يهوه بين الإسرائيليين قد تأثرت بأى شكل بعبادة القمر.

وبالرغم من أن عبادة القمر كانت تشكل أهميه كبرى فى ثقافات كثيرة قديمة لشعوب الشرق الأوسط، إلا أنها انتشرت بوجه خاص بين القبائل السامية الرعوية: ومع أنه كان من الواضح لهم أن الشمس تلعب دوراً كبيراً فى دورات الزراعة، لكن، بالنسبة لأولئك الذين يعيشون على الرعى، كان القمر أكثر أهمية لهم فقد كانوا ينتقلون بقطعانهم ليلاً على ضوئه؛ ليتجنبوا حرارة الشمس اللافحة الضارة بقطعانهم.

وكما ذكرنا سالفاً، أصبح رب القمر «سن» المعبود الرئيس لعرب ما قبل الإسلام فى سوريا والجزيرة العربية، وكانت كثير من تلك القبائل تتسمى بأسماء قمرية مثل : «بنو هلال» و«بنو بدر» واعتنقوا جميعاً الديانة القمرية(٣٦). كان القمر كلما ظهر بعد ليلة مظلمة يحيونه بأصوات الفرح وظل ذلك الأثر حياً فى اللغة العربية فى كلمة «هلال» والتى تتضمن معنيين، «القمر الوليد» و«التهلل فرحاً»(٣٧).

من عصور قديمة مبكرة كان العرب يحتفون ببزوغ القمر الجديد. وكانت أهم أعياده واحتفالاته تقام فى شهر رجب، وهو الشهر المقابل للشهر العبرى القديم «أبيب»، والذى يتفق مع الموعد السنوى لمولد نسل المواشى والأغنام(٣٨).

عيد الفصح

لو وضعنا فى أذهاننا أصل وطبيعة الاحتفالات العربية القديمة التى ذكرناها، نجد أن العبريين الذين كانوا فى أصلهم قبائل رعوية، قد اعتمدوا أيضا فى تقويمهم المكون من اثنى عشر شهراً فى العام (وثلاثة عشر شهراً كل ثلاثة أعوام) على أول ظهور للقمر الجديد، وكانوا يحتفلون بظهوره بكل مظاهر الاحتفاء والفرح والبهجة طبقاً للتقويم القمرى، ومثل العرب، كانوا يبدأون فى الشهر الأول وهو أبيب، شهر نيسان حالياً، بالاحتفال بالقمر الربيعى الموافق لولادة نسل حيوانات الرعى. وظل من آثار تلك المعتقدات القديمة الاحتفال بعيد الفصح الذى مازال أحد أهم ثلاثة أعياد فى التقويم اليهودى.

ويبدأ عيد الفصح فى الرابع عشر من نيسان بذبح ذبيحة «البيساح» ويستمر الاحتفال إلى الليلة التالية؛ حيث تكون كل أسرة قد انتهت من أكل ذبيحتها وطبقاً لما ورد فى سفر الخروج، فإن الـ «بيساح» أو عيد الفصح هو ذكرى الليلة التى مر فيها يهوه ببيوت العبريين، وتجاوزها ، وقتل كل أبكار المصريين، وكان الرب قد أمرهم برش دم البيساح على أبوابهم وعلى جوانبها حتى يعرف بيوتهم ويتجاوزها (٣٩).

ويقال : إن ذلك الحدث التوراتى وقع فى ليلة ١٤ أبيب، إلا أن المعتقد الدينى اليهودى الحالى أن ذلك الحدث وقع بعد ذلك التاريخ بليلة أى فى ١٥ أبيب (نيسان حالياً)، والذى كان يحتفى به أصلاً لتوافقه مع ظهور أول قمر فى الانتقال الربيعى السنوى(٤٠)، وحالياً، أصبح العيد يستمر لمدة أسبوع ليشمل عيد خبز الخلاص فى ١٦ نيسان.

ومن وصف عيد الـ «بيساح» كما جاء فى سفر الخروج، يتضح أن جذوره البعيدة تمتد إلى تقاليد ومعتقدات سامية أقدم من الخروج، والحيوان الذى يضحي به حاليا لابد أن يكون حملاً فى عامه الأول، أما فى العادات القديمة فقد كان يمكن ذبح حمل صغير بغض النظر عن شرط العام الأول(٤١). ينتقى من بين القطيع.

ويورد سفر الخروج تعليمات إعداد الضحية : «لا تأكلوا منه نيئاً أو طبخاً مطبوخاً بالماء بل شوياً بالنار رأسه مع أكارعه وجوفه»(٤٢) و «عظماً لا تكسروا منه»(٤٣)

وهى تعليمات تثير الاهتمام، أوحت لبعض الباحثين العبريين أن الذبيحة المضحى بها كانت قبل ذلك تؤكل نيئة، وأن عظامها أيضاً كانت تكسر وتطحن وتؤكل (٤٤)؛ ذلك لأن المعتقدات السامية المبكرة كانت تؤمن أن قوة الحياة تكمن فى دم الحيوان وعظامه.

ولما كان عيد اليساح عيداً ليلياً يبدأ الاحتفال به من غروب الشمس ويصل إلى ذروته عند الفجر ،وتجرى طقوسه فى حضرة الإله فإن ذلك كان يستلزم أن يكون القمر مكتملاً. ومن المثير للاهتمام أيضاً أن نعرف أن «وجه الرب يهوه، وتألق يهوه» كلها صفات كانت تنسب إلى القمر عند تمامه واكتماله فى اليوم الخامس عشر من الشهر القمرى كعلامة واضحة ومرئية لحضور المعبود(٤٥). ومن الحقائق المعروفة أن الاحتفالات الدينية العربية واليهودية والسامرية القديمة، كانت لا تبدأ إلا بعد غروب الشمس وظهور القمر الجديد»(٤٦) عدا ذلك، ما الذى تعنيه كلمة «بيساح»، وهى اسم العيد الذى يترجم إلى الإنجليزية منطوقاً «باسكال» وحمل ضحية الفصح «باسكال لام» الذى يعد رمزاً فى عيد الفصح المسيحى للآلام ويتوافق زمنياً مع عيد الخلاص اليهودى؟(٤٧)

بالرغم من أن الكلمة العبرية باساح تعنى المرور فوق/ من شيء، بينما تعنى بيساح «حماية»، إلا أن الأرجح أنهما ليسا مصدر اسم العيد. الأقرب للاحتمال أن اسم العيد مشتق من الجذر اللغوى باساحو

(pasahu) والتى تعنى فى اللغة السامية الشرقية الأكادية «القبول والرضى» (والصفة فيها باسحو pshu أى راض»(٤٨)، أو من الجذر اللغوى السريالى بسح psh، ويعنى «ابتهاج»، ومن الواضح أن تلك المفردات اللغوية هى الأكثر ملائمة لعيد تقدم فيه الترضيات والقرابين لرب القمر.

كان الثور هو الحيوان الرئيس الذى يضحى به عرب ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية لإرضاء رب القمر، وكان ينظر للثور على أنه حيوان له علاقة خاصة بالرب سن لتماثل شكل قرنيه مع شكل الهلال القمرى وانعكست تلك الصلة بين القمر وعبادة الثور على العبادات العبرية والمعتقدات الدينية، وسفر العدد ينص على وجوب التضحية بثلاثة عشر ثوراً فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع من العام اليهودى، (وهو أول اكتمال قمرى يوافق التحول الخريفى) وتقدم مشوية قرباناً ليهوه(٤٩)، ثم اثنى عشر ثوراً فى اليوم التالى(٥٠)، ثم أحد عشر ثوراً فى الثالث(٥١).. إلخ، حتى اليوم السابع، الذى يضحى فيه بسبعة ثيران(٥٢).

وهكذا، نتبين أن أكبر عدداً من الثيران المضحى بها يتوافق مع الاكتمال القمرى، وهو دليل واضح على منشأ تلك الطقوس الدينية.

إضافة إلى ذلك، فإن الرقم ١٣ هو عدد الأشهر القمرية فى العام، والرقم ٧ أو أسبوع هو العدد الذى يشكل ربع الدورة القمرية ويصل العدد الإجمالى للثيران المضحى بها فى الطقس كله إلى سبعين ثوراً، وهو عدد يتوافق مع عدد شيوخ القبائل من كبار أسباط أبناء إسرائيل الذين سمح لهم موسى بارتقاء جبل يهوه (انظر الفصل ٢٠).

من تلك الأمثلة المختلفة، يتضح أنه كان للقمر تأثير كبير على الممارسات العبرية القديمة وعكست الطقوس التى تمارس باسم رب القمر «سن» والتى مارسها عرب ما قبل الإسلام وأبناء عمومة الساميين الإسرائيليين. وتوصلت نتائج دراسات باحثى المعتقدات

العبريه و. إ. أوسترلى وتيودور هـ. روبنسن إلى مايلى :

قياساً على عرب ما قبل الإسلام، توجد أسباب كثيرة تبعث على الاعتقاد بأن الاحتفاء بظهور القمر الجديد والأضحيات التى تقدم فى تلك المناسبات والسائدة بين العبريين تعود إلى عصور البداوة المبكرة (أى عصر إبراهيم) وجدير بالذكر أن تلك الاحتفالات والأعياد غير مذكورة فى التعاليم الدينية المذكورة فى سفر التثنية، ويرجع ذلك دون أى شك الى علاقة تلك الاعياد والممارسات بالعبادة القمرية، إلا أنها عادات متأصلة وراسخة، حتى إنها استمرت إلى العصور المسيحية (٥٣)

وبذلك يتضح أنه إلى وقت متأخر حتى عصر الخروج كانت العادات والممارسات الدينية العبرية تحتوى على عناصر كثيرة من العبادة القمرية والتى كانت سابقة على أول مواجهة بين موسى ويهوه على جبل الرب. ونعلم أن عبادة ذلك الرب القمرى بأسماء مختلفة ترجع إلى عصور قديمة تمتد إلى أعماق التاريخ حتى عصر إبراهيم وما قبله، وأن تلك العقيدة كانت أيضاً عقيدة إسحق وابنيه يعقوب، وعيسو.

من الجدير بالذكر أيضاً التأكيد على أن العبريين القدماء ظلوا على تواصل دائم بـ «حران» حتى عصر يعقوب، والتوراة تذكر أنه سكن بها لبعض الوقت مع لابان (وتعنى لابان «أبيض» وربما كان ذلك الاسم كناية عن القمر أيضاً)، وهو حفيد ناحور شقيق إبراهيم، وكانت حران تعرف أيضاً باسم «مدينة ناحور»، إلا أن فرار يعقوب من حران قطع كل الراوبط بين فرعى العائلة وعمد يوشع كما ذكرنا إلى تنقية النصوص واستبعاد كل العناصر والممارسات غير المرغوبة فى الإيمان بيهوه، والتى كان الإدوميون يمارسونها، وهم سكان جبل سعير كما حذفها من الأسفار الخمسة.

وكان كلما وجد نصاً لا يمكن استبعاده أو محوه يعلن أن من يتناولهم ذلك الحدث ليسوا إلا كفرة وعبدة أوثان وأتباع الشيطان وأعداء لإسرائيل. إلا أننا سنتبين، أن الإدوميين الأوائل كانوا يمارسون العبادات العبرية القديمة والتى عكست بشكل وثيق جداً الأفكار والتوجهات الدينية

المثالية لإبراهيم ومن انحدروا من صلبه، مثل : عيسو ويعقوب.

جبل القمر

يتماثل الاسم المانداني للقمر وهو سيرا، تماثلا صوتيا كبيراً مع اسم جبل سعير، وهو اسم رب المنطقة وأطلق اسمه على الوادى والجبل الموجودين شمال خليج العقبة ولا يمكن أن يكون ذلك مجرد مصادفة. ويدعم هذا الافتراض أن اسم جبل يهوه وكذلك بيداء التيه التى ضل فيها أبناء إسرائيل يحملان أيضاً اسم رب القمر سن، وتعنى سيناء فى أصلها ببساطة «السينية»، أى القمرية، وتثبت أن برية سيناء وبرية سن ليسا إلا مكاناً واحداً (وسنتناول عنصرا ثالثا يحمل اسم برية سين عاجلاً).

ومما يدعم الصلة بين سيرا، وسن، وسعير حقيقة أن الحرانيين والماندانيين تربطهم علاقة جذرية بالنبطيين، وهم من الشعوب السامية من أصل آرامى الذين سكنوا منطقة جبال سعير من القرن السادس قبل الميلاد وخلال عهود الإمبراطورية الرومانية(٥٤). فضلا عن ذلك، يعتقد أن النص المانداني المقدس منقول عن أصل نبطى(٥٥)، مما يظهر أن اسم سعير ليس إلا شكلاً متحوراً للاسم المانداني سيرا أو العكس، وهذا يجعل من جبل سعير، مثله مثل جبل سيناء، «جبل القمر».

فى البرية

يذكر سفر الخروج أن موسى قاد أبناء إسرائيل إلى برية سين، وحطوا رحالهم عند سفح جبل سيناء لمدة عام كامل، ولم تذكر المزيد عن ارتحالهم ليكمل سفر العدد قصة تحركاتهم بعد ذلك. وفى الإصحاح الأول نجدهم مازالوا يراوحون مكانهم فى «برية سيناء»(٥٦) كما كانوا فى بداية الإصحاح التاسع(٥٧) إلا أنهم واصلوا تجوالهم بعد ذلك فى برية سيناء، واستقرت الغيمة التى كانوا يتبعونها فى برية باران(٥٨). واستنتج باحثو التوراة من ذلك أنهم دخلوا إلى مكان آخر مع أن الاسمين للمنطقة ذاتها، فضلاً عن ذلك يبدو من نص «الغيمة استقرت فى برية باران»

وكأنه يشير إلى منطقة جبلية، والتى لا يمكن أن تكون مرة أخرى إلا جبال سعير. ويؤكد الاستنتاج ما ذكره الإصحاح بعد ذلك من أن الاسرائيليين تقدموا إلى الجبل، مسلحين بتابوت العهد فى سير دام ثلاثة أيام بحثاً عن مكان جديد يستقرون به(٥٩)، ويظهر لنا بعد ذلك أنهم كانوا مازالوا فى الأجوار القريبة من جبل يهوه، وذلك يثبت أن برية سيناء وبرية باران كانتا اسمين للمنطقة ذاتها. وينظر عادة إلى برية باران على أنها المنطقة الواقعة بين وادى عربة فى الشرق وبرية شور فى الغرب، وتعرف اليوم باسم بادية التيه، مع أن ذلك لا يشكل دليلاً على ما نسعى لإثباته فى هذا الكتاب(٦٠) .

بعد ذلك وصل أبناء إسرائيل إلى حاذ بروت(٦١) واستقروا بها لفترة، ثم أرسل موسى اثنى عشر جاسوسا إلى أرض كنعان؛ لـ «يستطلعوا البلاد من برية سن حتى راحوب بالمدخل الذى بحمث(٦٢) فى شمال كنعان، مما يعنى أن برية سن كانت ملاصقة أو امتداداً لبرية سيناء، وأنها ربما كانت - أيضاً - مرادفًا لباران وسيناء، وبعد ذلك، عاد المستطلعون إلى موسى وهارون وإلى كل أبناء إسرائيل المجتمعين» فى منطقة «برية باران حتى قادش»(٦٣).

ومع مايثيره كل ماهو مذكور فى التوراة عن تلك المناطق من فوضى وتشوش، إلا أنه بالرغم من ذلك يمدنا بدليل إضافى على أن أبناء إسرائيل فى العامين الأولين لهم فى التيه، كانوا يتجولون فى منطقة محدودة جداً قريبة من جبل يهوه. بالإضافة إلى ذلك، نجد أن الأسماء المختلفة التى أطلقت على بريه التيه، وهى : سين - سيناء - باران، و، زن، تبدو كلها دالة على منطقة واحدة. فوق ذلك، يبدو أن انتقالهم كان محدوداً بمنطقة جبال والتى لا يمكن أن تكون إلا سلسلة جبال سعير، وإثبات ذلك سهل ويسير؛ لأن قادش، وهى آخر ما ذكره الراوى التوراتى عن المنطقة، تمدنا بما يمكن أن يصبح أهم مفتاح حيوى دال على موقع جبل الرب.

٢٠ - المكان العالى

كانت قادش فى برية باران هى الهدف الذى أرسل موسى الاثنى عشر جاسوساً لاستطلاعه بعد تسللهم سراً إلى أرض كنعان، إلا أنهم عادوا بتقارير تبعث على الإحباط واليأس حتى إن الإسرائيليين تخلوا عن أمل دخول الأرض الموعودة.

وكعقاب لهم، تخبرنا التوراة أن يهوه حكم عليهم بالتيه على مدى ٣٨ عاماً بعد ذلك، حتى فنى كل الجيل الأول ماعدا موسى وهارون وقائد الجنود يشوع بن نون، وكان أبوه نون واحداً من الاثنى عشر جاسوساً الذين أرسلهم موسى للاستطلاع. وبعد فترة، نجد أن أبناء إسرائيل حطوا رحالهم مرة أخرى فى قادش، والتى قيل عنها «مدينة على الحدود الخارجية»(١)، وهى إشارة تلميح إلى ملك إيدوم الذى لم تحدد التوراة هويته، والذى رفض السماح لهم بالمرور عبر الطريق المار بمملكته. وكانت منطقة قادش هى المنطقة التى ذكرت التوراة أن ماريام أخت موسى ماتت ودفنت بها، وقام صاحب الشريعة بعمل مشهود جداً بها.

فتحت وطأه تذمر وتضجر وتمتمات الاستياء من أبناء إسرائيل الذين كانوا يشتكون على الدوام من العطش، «ضرب موسى الصخر بعصاه مرتين»(٢) «بدلاً من توجيه الأمر إلى الصخرة بصوته على مرأى منهم»(٣) كما أمره يهوه» وبالرغم من أن الماء انبثق من الصخر وتدفق «بغزارة وشرب الجميع وارتووا هم وماشيتهم»(٤)، إلا أن الرب لعن، ليس موسى وحده، بل أخاه هارون أيضاً، وحكم على الاثنين ألا تطأ أقدامهما الأرض الموعودة(٥) ، وأطلق على تلك المنطقة التى تفجر الماء من صخرها

منطقة «مريبة»(٦) وتعنى شجار ونزاع، أو «مريبة قادش كما تدون باسمها المطول (٨).

عيون موسى

وبالرغم من أننا غير مجبرين على قبول وقوع تلك المعجزة كحقيقة تاريخية، إلا أنها كأسطورة تتوافق مع ما يذكر عن الآبار والعيون المقدسة التى تذكر كل الأساطير لدى مختلف الشعوب أنها ظهرت بطرق إعجازيه. لذلك لابد أن نتساءل: هل تشير تلك القصة إلى مكان حقيقى توجد به تلك العيون ؟

لو بحثنا فى ثنايا الفولكلور وأساطير أرض التوراة، نجد ثلاثة أماكن تنسب إليها جميعها أنها عيون موسى التى ضرب موسى صخرها بعصاه فتفجرت منها تلك العيون، أول تلك الأماكن : على الساحل الشرقى لخليج السويس، بالقرب مما يطلق عليه جبل موسى جنوب سيناء(٩).

والموقع الثانى : موجود بالقرب من جبل نبو، وهو الجبل الذى مات عليه موسى، فى الشمال الشرقى للبحر الميت، والثالث : موجود على سفح تل فى مدخل وادى موسى، وهى منطقة بشمال شرق خليج العقبة بنحو مائة كيلو متر؛ وحيث إننا أثبتنا أن جبل موسى ليس جبل سيناء، ولا توجد علاقة مباشرة بين جبل الرب وجبل نبو الذى مات عليه موسى، فلا يتبقى إلا عيون موسى الموجودة بوادى موسى وهى التى يمكن أن تكون لها علاقة بتلك العيون المذكورة فى التوراة.

وفى تلك المنطقة، تؤكد الأساطير والحكايات الشعبية المتداولة أن تلك العين كانت واحدة من اثنتى عشرة عيناً مقدسة فجرها موسى بضرب الصخر بعصاه، وهى مستمدة من قصة الخروج التوراتية ومذكورة بالقرآن، كتاب المسلمين المقدس. وكلها تحكى كيف ضرب موسى الصخر بعصاه، فتفجرت من الصخر اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط أبناء إسرائيل عين خاصة بهم (١٠).

وطبقاً لما يذكره التاريخ العربى، مر أحد سلاطين المماليك وهو الظاهر بيبرس بعيون موسى التى بوادى موسى عام ١٢٧٦م. وهو فى طريقه من القاهرة إلى قلعة الكرك الواقعة على طريق الملوك جنوب عمان عاصمة الأردن الحالية لقمع تمرد كان قد وقع بها، ويذكر التاريخ أنه عرج فى طريقة على قرية تسمى الأودمة (وهو تحريف لإسم إيدوم) تقع بين البتراء القديمة ووادى المدراح؛ حيث توجد العيون المقدسة. ويذكر التاريخ العربى: وعن ذلك المكان، قيل : إن «موسى بن عمران عليه السلام ضرب بعصاه الصخر فتدفق منها دم فنادى وأمرها أن تتغير بإذن الله إلى ماء عذب، فتحول الدم إلى ماء عذب صاف كالبللور، حلو وبارد»(١١) . ويعد ذلك أقدم ما دون تاريخياً عن تلك العين التى تحمل اسم عين موسى، بالرغم من أن الأسطورة أقدم كثيراً من تاريخ ذلك المدون، أما ما ذكر عن تدفق الدم منها فهو رواية مثيرة بالرغم من أن ذلك غير مذكور لا فى التوراة ولا فى القرآن، ولكن حيث إن إيدوم تعنى «أحمر»، فمن المحتمل جداً أن يخرج الماء قانى الحمرة عند بداية انبثاقه نتيجة للتكوين الچيولوچى لتلك المنطقة المكون من رمال حمراء مشبعة بالأكاسيد المعدنية، فضلاً عن ذلك، فإن اسم أودمه وهو اسم القرية يمكن ترجمته أيضاً بمعنى «التحول إلى ماء»، مما يظهر ارتباط اسم القرية بتلك العين(١٢).

ويبدو أن موقع وادى عيون موسى قد تطور عبر القرون؛ ليصبح اليوم نبع ماء يتدفق من أسفل صخرة على شكل قبة تقع على بعد سبعة كيلو مترات شرق مدينة البتراء الأسطورية ومازال مكاناً مقدساً بالنسبة لأهل المنطقة ويزعمون أن ماء تلك العين تشفى كل الأمراض، وفى الأعوام الأخيرة بنى حول النبع والصخرة بناء أبيض ناصع، وهناك عين أخرى تنافسها إلا أنها أقل شهرة على بعد ثلاثة كيلو مترات من البتراء وتعرف باسم عين الأودمال، أو الأودما، وبالرغم من قلة شهرتها إلا أنها مرشحة بقوة لأن تكون هى تلك العين الإعجازية التى زارها السلطان بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى(١٣).

وبغض النظر عن الهوية الحقيقية لعين موسى الواقعة بوادى موسى، إلا أن العينين ينقلاننا إلى منطقة عبر الأردن والتى تمدنا بمفاتيح معرفة الموضع الحقيقى ليس فقط لقادش التوراتية، بل أيضاً للموقع الحقيقى لجبل يهوه.

خزانة الفرعون

كان ماء عيون موسى فى العصور القديمة يتدفق عبر الوادى؛ ليشكل مصدراً حيوياً للماء لسكان مدينة البتراء القريبة منها. وكلمة بتراء كلمة يونانية قديمة تعنى الصخرة. والموقع فى مجمله مدفن كبير يغطى أغلب الوادى، ومحاط من كل جانب بحلقات من قمم جبلية صخرية تشكل فى مجموعها جانباً من سلاسل جبال سعير. وتحتوى تلك المنطقة على ثمانمائة أثر قديم، أغلبها مقابر بواجهات صخرية منقوشة ومزينة على الطراز الأشورى وبعضها على الطراز التقليدى، ويرجع أغلبها إلى القرن الثانى قبل الميلاد وتنتمى إلى الحضارة النبطية، وكان النبطيون من سلالة الحرانيين والماندانيين، ويعتقد أنهم استقروا فى تلك المنطقة من جنوب شرق الأردن بعد أن انتقل الإدوميون الذين كانوا يقيمون بها إلى الغرب فى المواقع التى تركها الفلسطينيون غير مأهولة بعد نفى اليهود إلى بابل حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وتحدث المؤرخ اليهودى چوزيفوس فلاڤيوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى فى كتابه «آثار اليهود» عن سكان «ناباطين» فى الموقع الممتد من البحر الأحمر حتى الفرات، وذكر أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم من هاجر جارية زوجته سارة(١٤).

ويعتقد أن النبطيين بدأوا إقامتهم فى تلك المنطقة فى القرن الرابع قبل الميلاد حول مدينة البتراء، وفى تلك المنطقة ازدهرت حضارتهم وانتعشت تجارتهم، خاصة تجارة النباتات العطرية واللبان والعطور والتوابل والذهب والفضة؛ لاستفادتهم من وقوع مدينة البتراء على طريق القوافل

التجارية التى كانت تتفرع من تلك المنطقة إلى جميع أرجاء العالم القديم، مثل أفغانستان ومصر والهند والصين، واستطاعوا التصدى فى البداية للغزو الرومانى بنجاح بتنظيم قبلى جيد ودفع هبات ثمينة مقابل السلام. إلا أن البتراء سقطت فى النهاية تحت الهيمنة الرومانية بعد موت آخر ملك نبطى عام ١٠٦ ميلادية، وبالرغم من ذلك ظلت مركزاً تجارياً هاماً حتى عام ٣٦٣ ميلادية، حين دمرت هزات أرضية قوية كل المنطقة التى تقع بها البتراء، حاضرة النبطيين وأدت إلى أفول نجم تلك الحضارة. بعد ذلك فقدت البتراء أهميتها، ثم اجتاحتها جيوش المسلمين فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، وكان آخر من رأى المدينة المهدمة قبل العصور الحديثة الظاهر بيبرس، والذى شاهد «كهوفها العجيبة، والنقوش والواجهات المنحوتة فى صدور الجبال» فى رحلته من القاهرة إلى الكرك عام ١٢٧٦م (١٥)، ومن ذلك الوقت فصاعداً حتى زيارة الرحالة السويسرى المغامر چوهان لودڤيج بوركارد عام ١٨١٢م ظلت بقايا الحضارة النبطية والرومانية صيداً ثميناً للقبائل البدوية المحيطة بها والتى حرصت كل الحرص أن تبقى أماكن ومخلفات تلك الحضارة سراً لا يعلم به أحد من خارج تلك القبائل.

ومن أشهر المقابر العظيمة فى منطقة البتراء واحدة يطلق عليها خزانة الفرعون، وصورت فى مشاهد فيلم «أنديانا چونز وآخر حملة صليبية» (١٩٨٩م) ، ويصل ارتفاع واجهتها الى ٣٩٫٦ متراً، وتقع تلك الواجهة مباشرة فى مواجهة الممر الرائع الذى يؤدى إليها وهو ممر ضيق طويل يصل طوله إلى ١٧٥٠ متراً ويعرف ذلك الممر باسم باب السيق، ذلك الممر الطويل الضيق هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى تلك المدينة الصخرية من جهة الشرق؛ حيث تقع المدينة الحديثة التى تحمل اسم وادى موسى. واكتسبت الخزنه ذلك الاسم الغريب؛ لأن البدو المحليين يعتقدون أنها كانت مخزناً لكنز خاص بابنة الفرعون، وهو ملك مصرى مجهول الاسم، والمذكور فى التوراة والقرآن أنه طارد موسى وأبناء إسرائيل بعد

خروجهم من مصر. وطبقاً للموروث المعرفى السائد فى المنطقة، فإن الصخرة التى يصل ارتفاعها إلى ٣ر٣ متراً والموجودة فوق العقد الأوسط للطابق الثانى تحتوى على مخزون كبير من العملات والقطع الذهبية، وظل ذلك الاعتقاد على مدى مئات السنين عذراً ملائماً للرماة من العرب والترك ليملئوها ثقوباً بقذائفهم على أمل أن يحدثوا بها ثقباً تنهال منه قطع الذهب.

وبالرغم من أن قصة ابنة الفرعون وذهبها ليست إلا نتاج خيال جاهل لا يعرف أصل المقبرة، إلا أنها تمدنا بارتباط مثير بين قصة موسى ومدينة النبطيين، البتراء.

وطبقا للأسطورة، قيل : إن الفرعون حين أودع تلك الكنوز «انتحل هيئة أضخم ساحر أسود على مدى العصور»، بينما كان موسى يظهر كـ «ساحر عظيم أبيض البشرة»(١٦) فضلاً عن ذلك، هناك آثار كثيرة بالبتراء وحولها ترتبط بقصة فرعون الخروج، على سبيل المثال : يوجد عامود يسمى عمود فرعون وهو عامود كبير يقف وحده، وكان عاموداً من اثنين كان لهما وظيفة ما (سقط الثانى من زمن طويل مضى فى عصر غير معروف)، وهو يقف أمام معبد نبطى إلى غرب «طريق الواجهات المنحوتة الرئيسى» فى وادى المقابر. وأطلق البدو على ذلك العامود اسم «زب فرعون»، بالرغم من أنه ليس له أى علاقة بمصر، وهناك أيضاً قصر بنت الفرعون ويختصر الاسم إلى «قصر البنت»، وهو معبد نبطى كبير يقع إلى غرب طريق الواجهات.

فمن أين أتى ذلك الربط بين تلك الآثار وفرعون الخروج؟ هل جاء الارتباط من وجود عين موسى القريبة من البتراء بوادى موسى؟ أم لوجود جبل هارون والموجود على بعد خمسة كيلو مترات جنوب شرق البتراء؟

لقد عرف ذلك الجبل ذو القمتين فى نصوص التوراة باسم جبل حور وتذكر التوراة أن هارون شقيق موسى مات ودفن فوقه، وأن لحده ومقامه موجودان بذلك الجبل حتى اليوم (انظر الفصل ٢١). وهناك بالرغم من

ذلك أسباب مؤكدة تثبت أن البتراء منطقة محورية فى التاريخ المبكر لأبناء إسرائيل، على سبيل المثال : يعرف الممر الضيق أو السيق الذى يشكل الممر والمدخل الرئيس لمدينة البتراء القديمة باسم «شق موسى»(١٧)، ويقال إنه اكتسب ذلك الاسم؛ لأن الماء المتدفق من عيون موسى جرى ذات يوم فى ذلك السيق، وطبقا للموروث المعرفى المحلى أن ذلك حدث حين ضرب موسى الصخر بعصاه فتدفق الماء عبر السيق حتى ملأ الوادى الذى خلفه»(١٨).

ويذكر النويرى (١٢٨٩ - ١٣٣٢) وهو مؤرخ عظيم عاصر رحلة السلطان بيبرس من القاهرة إلى الكرك أن البتراء «مدينة أبناء إسماعيل» تلك الحقائق تظهر أن البتراء لها تاريخ طويل مرتبط بالاحداث الخاصة بالخروج التوراتى والتيه الإسرائيلى الذى دام أربعين عاماً فى البرية.

الصخرة

فضلاً عن ذلك، تبدو البتراء كمرادف لموقع يسمى فى التوراة حا - سيلا ويعنى «الصخرة» فى اللغة العبرية. وطبقاً للمعروف المتواتر والموروث، فإن سيلا تقع على الحافة الجنوبية لأرض إيدوم، وفى القرن التاسع قبل الميلاد قاد عمسيا ملك يهودا حمله عسكرية ضد «أبناء سعير» فى إيدوم، وقيل إنه استولى على سيلا بالقوة العسكرية وإنه ذبح عشرة آلاف من أبناء سعير فى «وادى الملح» الواقع على الحافة الجنوبية للبحر الميت، وقتل عدداً مماثلاً بإلقائهم من «فوق قمة الصخرة» التى أطلق عليها عمسيا اسم چوكثيل تخليداً لذكرى انتصاره(٢٠)، وبالتأكيد كان ذلك الموضوع ماذكرت عنه التوراة أن عمسيا نقل منه «آلهة أبناء سعير وجعلها فى هيكل سليمان ليتعبد إليها» وبالرغم من أن ذبح عميسا لسكان سيلا يبدو مبالغاً فيه إلى حد بعيد؛ لأن كلمة آلاف فى العبرية وهى «آلاف» يمكن أيضا أن تترجم «أسر»، و «عشائر»، و «خيام»، إلا أن الشائع أن الجبل المقصود يطل على البتراء من حافتها الغربية ويعرف

حالياً باسم «أم البيارة»، وكان موضعاً لمستوطنة إدومية فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وهجرت بسبب احتراقها.

وقامت عالمة الآثار البريطانية كريستال م. بوينت قبل وفاتها عام ١٩٨٧م بالبحث المكثف في ذلك الموقع تحت رعاية المدرسة البريطانية للآثار فى أورشليم، ولما فشلت فى العثور على أى دليل على وجود الإدوميين على ذلك الجبل قبل القرن السابع قبل الميلاد، فإن ذلك يدفع إلى الشك أن يكون ذلك الموضع هو الذى تذكره التوراة باسم حا - سيلا(٢١). وكل الدلائل تشير إلى أن المكان المسمى سيلا فى التوراة ليس إلا مدينة البتراء، وأن القمه الجبلية التى ألقى منها عميسا أبناء سعير ليست إلا إحدى القمم المحيطة بالبتراء، هذا بالرغم من أن أغلب الباحثين المعاصرين يميلون إلى اعتبار أن سيلا التوراة هى السيلا، وهى حصن صخرى طبيعى شمال البصيرة على طريق تفليح بالأردن.

ما يمكن أن نذكره بيقين أن البيارة كانت مستوطنة إدومية هامة تنتج السدادات والأغطية الطينية المجففة التى تحمل اسم وعلامات ملك إيدومى يدعى قايوش - جابر، وحكم فى الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد(٢٢)، ووجدت بقايا تلك المنتجات فى أم البيارة. أما العلاقة بين أولئك الإدوميين المنتمين للعصر الحديدى والساشو الذين يسبقونهم بعصور طويلة فغير معروفة بأى قدر من اليقين ويكتنفها الغموض، إلا أن المؤكد أن الادوميين ورثوا عن الساشو بعض الجوانب الثقافية والدينية العقائدية من أولئك الذين سبقوهم فى سكن المنطقة ذاتها فى العصر البرونزى أى ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م، وهو الوقت الذى يعتقد أن الخروج قد حدث خلاله.

مياه مريبة

لأن الاسمين، الإغريقى القديم والعبرى للبتراء يعنيان «الصخرة»؛ فإن ذلك يربط البتراء مباشرة بقصة موسى وهو يضرب الصخرة بعصاه

ليتفجر منها الماء فى مريبة فى قادش. وبوجه عام تعرف قادش بأنها عين القديرات، وهى قرية فى صحراء النقب على مسافة أقل من مائة كيلو متر إلى الشمال الغربى من البتراء، ولم يبق من قادش إلا الاسم الذى يطلق على عين الماء وهو «عين قادش»، وتوجد بها رابية دفاعية تنتمى إلى العصر الحديدى المتأخر، أى ما بين ٩٠٠ - ٥٠٠ ق.م، أى بعد الخروج بمئات الأعوام، إلا أن الباحث التوراتى «إسرائيل فرنكلينشتان» وكذلك «نيل سيلبرمان» يؤكدان : «لم يظهر من البحث المتكرر ولا مسح المنطقة بأكملها أى دليل على وجود سكان بتلك المنطقة طوال العصر البرونزى المتأخر «١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، بل إنه لم يعثر على أى موجودات مهما تفه شأنها تكون قد سقطت حتى من مجموعة أو عصابة محدودة العدد فارة فى خوف وذعر من جيش يطاردهم»(٢٣).

والاحتمال الأكبر أنهما كانا يبحثان وينقبان فى المكان الخطأ؛ لأن مدينة قادش التوراتية يمكن إثبات أنها مدينة البتراء وهو ما أمكن التوصل إليه فى وقت مبكر عام ١٨٨١م وأثبته الكاتب والرحالة البريطانى آرثر ستانلى(٢٤).

وفى التلمود العبرى عرفت قادش التقليدية أو قادش - بارنيا كما كانت تسمى، باسم ريكيم - چيا(٢٥)، ويذكر الترجوم العبرى وسفر التثنيه أنها المكان الذى حل به الإسرائيليون فى تيههم فى البرية(٢٦). وأن ريكيم، وتتهجى أيضاً أرك وأرس، هى البتراء، وهى حقيقة لا تؤكدها فقط النصوص القديمة التى تنتمى إلى أصول يهودية ومسيحية مبكرة(٢٧)، بل تؤكدها أيضاً النصوص النبطية التى اكتشفت مؤخراً فى مدخل السيق(٢٨).

فضلاً عن ذلك، فإن ريكيم - چيا أو ريكيم - چى تترجم فعلياً بمعنى «الممر المنحدر»، وهى إشارة محددة للسيق ذاته(٢٩)، الذى لعب دوراً بارزاً فى المعتقدات الدينية لأنباط البتراء.

وكذلك يشير چوزيفوس فلاڤيوس فى كتابه «آثار اليهود» إلى أن

موسى قاد أبناء إسرائيل إلى حدود إيدوميا، وكان اسم سعير - إيدوم متداولاً فى أيامه(٣٠)، وسجل أن مارياm أخت موسى ماتت فى العام الأربعين من مغادرة أبناء إسرائيل لمصر (٣١)، وأنه بعد إقامه الشعائر الجنائزية «دفنت فى جبل يسمى جبل سين»(٣٢)، وهى أقوى إشارة مؤكدة على أن جبل سيناء كان بتلك المنطقة، بالرغم من أن چوزيفوس ذاته اعتقد اعتقاداً خاطئاً أن الجبل المسمى «جبل سين» مكان آخر أو شىء مختلف.

إلا أن چوزيفوس يذكر بعد ذلك فى موضع آخر أن الجيش الإسرائيلى تحرك من مركز تجمعه ، وسار عبر «البرية العربية» حتى وصل إلى «الحاضرة التى يبجلها العرب، والتى كانت تسمى أرس فيما سبق، إلا أن اسمها الحالى بترا ..(و) تحيطها جبال عالية»(٣٣).

وزار القديس چيروم (٣٣٣ - ٤٢٠م) البتراء وأكد أنها هى قادش - بارنيا، وذكر أنه رأى بها قبر ماريام، أخت موسى(٣٤)، وعلى ضوء ما تذكره التوراة أنها ماتت ودفنت بقادش(٣٥)، يتضح أن قادش المعنية هى البتراء، أو ريكيم بالعبرية القديمة، أهم من ذلك؛ حيث إن چوزيفوس حدد أن ماريام ماتت على جبل اسمه «سين»، فإن ذلك يعنى أن «جبل سيناء» موجود فى محيط البتراء، والتحقق من ذلك يجعل من السهل استنتاج أن الأساطير البدوية المحلية التى تربط بين مدينة الصخرة وابنة فرعون الخروج مستمدة من معارف ومعلومات أقدم، وتتعلق بوجود قبر ماريام بها، ولا ننسى أن ماريام هى التى اقترحت على ابنة الفرعون أن الطفل العبرى الذى التقطته من الماء يحتاج إلى من يرعاه ويرضعه من بنى جنسه، مما مكن أم الطفل - موسى - أن ترعاه بنفسها.

فلو كانت البتراء هى قادش القديمة، إحدى المحطات الرئيسية التى حل بها أبناء إسرائيل، فإننا لابد أن نستنتج أيضاً أن المدينة والمكان نفسه كان موضع ومكان قصة ضرب موسى للصخرة بعصاه؛ ليتفجر منها الماء كما تذكر أسطورة عيون موسى، وربما انبثقت القصة أصلاً؛

لتفسر الطبيعة الچيولوچية العجيبة للسيق والذى يعد بحق أحد العجائب الطبيعية الباقية من العالم القديم. وبتأسيس تلك الحقيقة، يمكننا أن نمضى لمعرفة الصلة الحقيقية بين البتراء وجبل حوريب، وهو الاسم البديل لجبل سيناء.

صخرة حوريب

كما رأينا فى الفصل ١٨، بعد أن دخل أبناء إسرائيل برية سين، يذكر سفر الخروج أنهم أقاموا خيامهم فى رافيديم، فى موضع لم تكن توجد فيه مياه للشرب(٣٦)، ودفعه اللغط وكثرة التضجر والتشكى من أبناء إسرائيل بموسى إلى التضرع ليهوه ليظهر معجزة، فقد كان أبناء قومه على حافة التمرد الذى قد يدفعهم إلى رجم موسى إذا لم يرووا عطشهم فى الحال، ورداً على تضرعه أجابه الرب قائلاً :

ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب، فتضرب الصخرة، فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل ودعا اسم الموضع مسة ومريبة من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين : أفى وسطنا الرب أم لا؟!(٣٧).

وافترض باحثو التوراة على الدوام أن ذكر الاسمين مسة ومريبة، يعنى أن موسى قد أخرج الماء من الصخر مرتين من موقعين مختلفين لا صلة بينهما، أحدهما وقع فى حوريب فى برية سين، والثانى فى قادش فى برية باران متعللين أن اسم الصخرة كان فى مرة «تزور tzur»، بينما فى المرة الثانية كان اسمها سيلا sela(٣٨).

والواضح تماماً أن القصتين لحدث واحد، وحكى مرتين فى موضعين مختلفين من الأسفار الخمسة الأولى، مرة فى سفر الخروج والثانيه فى سفر العدد.

ويثبت ذلك مرة أخرى أن حوريب وقادش هما نفس المكان والموضع، وأنهما معاً ليسا إلا البتراء. وبالبحث بين كل الجبال المرشحة لأن تكون

جبل يهوه فى المنطقة المحيطة بمدينة الصخرة، توصلنا إلى أن هناك جبلين فقط يحتمل أن أحدهما جبل الرب، وهما جبل هارون الذى يقع إلى الجنوب الشرقى من سلسلة القمم المحيطة بالبتراء، وجبل المدهبة، إلى الغرب مباشرة من مدينة الصخرة.

جبل المدهبة

ترتفع قمة جبل المدهبة إلى ١٠٣٥ متراً، ويمكن الوصول إليها من طريق الواجهات الصخرية، أو من السيق الخارجى، والذى يقع أسفل قمته بـ ١٩٠ قدماً. وهو بلا أدنى شك المكان الذى يحتوى على أروع المقدسات القديمة فى البتراء، ومعروف باسم شائع هو المكان العالى (المدهبة فى العربية) وللوصول إلى ذلك المكان العالى؛ فإن على الزائر ارتقاء سلسله من الدرج المنحوت فى الصخر تقع إلى الجهة الغربية من القمة وملاصقة للمدارج النبطية المكشوفة المنحوتة فى الصخر أيضاً. ويؤدى الدرج إلى ممر ضيق صاعد ينتهى إلى سطح متسع على القمة عليه مسلتان صخريتان كبيرتان تقعان إلى الشرق والغرب من بعضهما البعض، وتفصل بينهما مسافة تصل إلى ثلاثين متراً. المسلة الغربية تقع بالكاد على الحافة الغربية وتصل أبعادها إلى ٥ر٣ × ٢ر٢ متراً، بينما تصل أبعاد نظيرتها الشرقية إلى ٢ر٢ × ٩٥ر١ متراً عند القاعدة وكلتاهما تستدق كلما ارتفعت، وبالرغم من أن ارتفاعهما اليوم يربو على الستة أمتار، إلا أن التقديرات تذهب إلى أن ارتفاعهما الأصلى كان نحو تسعه أمتار.

أعجب ما يخص المسلتين أنهما منحوتتان من كتل صخرية كانت جزءاً من الجبل ذاته، مما يعنى أنه لصنعهما كان لابد من إزاله كل الجوانب المحيطة بهما من الجبل. تلك الهندسة العجيبة تم إنجازها بقطع مكعبات هائلة من صخور الجبل بطريقة مماثلة لقطع الصخور الرملية فى محاجر مصر القديمة فى منطقة هضبة الجيزة، وذلك بعمل شقوق رأسيه متعامدة

ثم إزالة الكتلة بفصل قاعدتها عن الصخرة الأم مما صنع تلك المساحة على القمة التى تصل أبعادها إلى ٤٠ × ٣٠ متراً تبدو كرقعه شطرنج هائلة(٣٩). ولابد أن المسلتين كانتا تخلبان الألباب، وفريدتين من نوعهما فى العالم القديم. ونظراً لتماثل طريقة قطعهما مع طريقة نحت واجهات المقابر فى طريق الواجهات الصخرية الواقع أسفلهما تعد المسلتان أو العامودان من الطراز والنتاج النبطى، أى لا يعود تاريخهما إلى أبعد من القرن الثالث قبل الميلاد. إلا أن ذلك الاستنتاج غير مؤكد بصورة قطعية؛ لأن هناك احتمالاً أن الأنباط ورثوا مهاراتهم فى قطع وتشكيل الصخور ممن سبقوهم من الإدوميين الذين عرف عنهم أنهم شقوا فى الصخور خزانين مائيين هائلين على قمة جبل أم البيارة(٤٠)، فضلاً عن ذلك، يقر المؤرخ البريطانى إيان بروننج فى كتابه الموثق عن البتراء : أن المسلتين الموجودتين فوق القمة لا يشبههان أى أثر نبطى آخر، مما حدا به إلى التعليق قائلاً : «لابد أن يتساءل المرء عن مغزى وسبب ذلك الجهد الخارق لصنعهما بتلك الطريقة»(٤١).

وفى العادات والثقافات البدوية المحلية يطلق على مسلة الحافة اسم «زب عطوف»، أى زب العطف والرحمة. وهو اسم مثير للانتباه، مما حدا ببروننخ أن يعلق أنه : «اسم غير مألوف مما يدل على أنه موروث من ماض قديم»(٤٢). وهكذا، يجعلنا ذلك «نعتقد أن تلكما المسلتين كانتا تشخيص لآلهة الخصب»(٤٣).

إلا أن هناك تفسيراً آخر مختلفاً لاسم «زب عطوف»، ففى القرآن نجد نصوصاً كثيرة تشير إلى الله مرات كثيرة بصفته «الغفور» مما يتضمن أن الاسم الذى يذكره البدو عن العمودين مستمد من القرآن، وله علاقة بالإله بطريقة ما(٤٤).

إضافة إلى ذلك، يبدو أقرب للاحتمال أن المسلتين التوأم كانتا بمثابة بوابة هائلة فى أعلى مستوى لملكه الجبل ويتم الوصول إليها بسهولة عبر درج منحوت فى صدر الجبل يقع إلى الشمال الغربى من زب عطوف.

وبارتقاء الدرج يمر الزائر بجدران متهدمة لحصن قديم يعود إلى العصور الصليبية(٤٥)، ومن بعده توجد قمة الجبل المستوية المكشوفة والتى يبدو المشهد من فوقها رائعاً يأخذ الألباب.

المكان العالى للقرابين

المدهبة، أو المكان العالى، عبارة عن سطح مستو بيضاوى الشكل تصل أبعادة إلى نحو ٦٤×٢٠ مترا، يوجد على حافته الغربية مذبح صخرى منحوت من كتله صخرية، وتصل أبعاد سطح ذلك المذبح إلى ٧٢ر٢×٨٧ر١ متراً، بينما يصل إرتفاعه إلى ٩٨ سنتيمتراً، ويمكن الوصول إليه من القمة بارتقاء ثلاث درجات صخرية، وعلى يسار المذبح حوض صخرى دائرى منحوت فى السطح العلوى للصخرة، والحوض به شق منحوت لتصريف ما يتجمع به إلى بركة صخرية أوطأ منه، ويصل إلى الحوض أيضاً ثلاث درجات منحوتة فى الصخر. ولايوجد شك أن الغرض من ذلك الحوض الدائرى تجميع دم الحيوانات المضحى بها كقربان يقدم فى المكان العالى، بالرغم من أن مصادر عديدة مكتوبة تتبنى وجهه نظر أكثر تحفظاً، وترى أنه حوض للماء(٤٦).

فلو كان الغرض من ذلك الحوض الصخرى الدائري تجميع دماء القرابين، فإن ذلك يثير فى الذهن قصة موسى حين تلقى الوصايا المقدسة على جبل سيناء حين أرسل «شباباً من أبناء إسرائيل» الذين «قدموا قرابين مشوية وقدموا قرابين سلام من لحم ثور إلى الرب»(٤٧). بعد ذلك «أخذ موسى نصف الدم وجعله فى الحوض وأخذ نصف الدم الآخر ونثره على المذبح» الذى كان قد تم تصميمه فى الصباح «تحت جبل الربش(٤٨).

فهل يمكن أن يكون ذلك الحوض قد أدى دوراً مماثلاً ؟

خلف المذبح مباشرة توجد مساحة واطئة مستطيلة، «على شكل فناء صغير»(٤٩)، تصل أبعاده إلى ٦ر١٤×٤ر٦ متراً، بالقرب من مركز تلك

المساحة توجد منصة مستطيلة أبعادها ١٥٠×٨١ سنتيمتراً وتتجه بطولها إلى المذبح. ويصف بروننج تلك المنصة «بأنها مقدس مماثل بالضبط لمائدة تقدمات الخبز التى توجد بالمعابد اليهودية للتقدمات غير الدموية»(٥٠).

وإلى الجنوب من تلك المنطقة الواطئة بعشرة أمتار توجد بركة منحوتة فى الصخر طولها ثلاثة أمتار وعرضها ٣ر٢ متراً وعمقها ٩٠ سنتيمتراً ويبدو أن الغرض منها تطهر الكهنة قبل أن يمارسوا الطقوس الدينية أو لأغراض تطهرية عامة، وهو ما يقابل التعميد بالغمر فى الماء الذى كان يمارسه المندانيون الذين عاشوا فى تلك المنطقة قبل ذلك.

أما التساؤل عمن صمم وأنشأ ذلك المكان العالى، فإنه يماثل التساؤل عمن شيد المسلتين الموجودتين على مستوى أوطأ قليلاً، وهو أمر خاضع حتى الآن للتخمين المجرد مع ميل أغلب الباحثين إلى أنه نبطى المنشأ، إلا أن قرب ذلك المكان العالى من مخازن المياه الصخرية الصناعية فى أم البيارة غرب الموقع والذى كان موقع استيطانى كبير، يدفع للاعتقاد بعكس ذلك، خاصة على ضوء أن الانباط ربما ورثوا مهاراتهم فى التعامل مع الصخور من الإدوميين، وهو رأى قدمه بروننخ الذى كتب عن المكان العالى قائلاً: لا يوجد تاريخ يمكن أن ينسب إليه ذلك المقدس، والاعتقاد الشائع أن الأنباط هم من صنعه ولا يعتمد ذلك الاعتقاد إلا على قوة وكفاءة تشكيل تلك الصخور. إلا أن منشأ ذلك المقدس يكمن فى الحقيقة أن يكون أقدم مما يعتقد كمكان للعبادة بالرغم مما يبدو عليه فى مظهره الخارجى من حداثة عهده نسبياً(٥١).

ومما لا يقل ،أهميه فى دلالته التوجهات الجغرافية لمكونات المكان العالى، فمذبحه الصخرى والدرج يتخذان زاوية مقدارها ٢٥٥ درجة على اتجاه الشمال، وهو اتجاه مباشر نحو أقصى قمة شمالية لجبل هارون والذى يمكن رؤيته خلف حافة جبل يطلق عليه اسم جبل البرا الذى يكون آخر قمة جنوبية لأم البيارة. وواتى الحظ أحد مؤلفى هذا الكتاب، وهو أندرو كولينز، وتمكن من زيارة المكان العالى أثناء إعداد مادة هذا الكتاب

ولاحظ أنه فى غروب الشمس أثناء التحول الربيعى لعام ٢٠٠٢ انحدرت الشمس خلف القمة الشمالية جنوب أم البيارة، وقبل اختفاء الشمس اختفاء كلياً من مجال البصر، يظهر القمر الذى يكمل تربيعه الأول فى اليوم التالى ويبدو كأنه معلق مباشرة على القمة العالية، وهو مشهد يسحر الألباب ويبعث فى النفس الخشوع والذهول. ويبدو أن من عمّروا المكان العالى راعوا فى تصميم مكوناته علاقتها بجبل هارون القريب واتجاه الشمس والقمر.

وفى عام ١٩٢٧، زار أستاذ تاريخ الأديان الهولندى الدكتور دايتليف نايلسن مدينة البتراء وقضى وقتاً على جبل المذهبة فى محاولة للتوصل إلى تواريخ محددة؛ لتوافق الظواهر الطبيعية التى اتضحت من خلال ذلك الرصد، ففى يوم ٨ ابريل من ذلك العام لاحظ أن القمر فى تربيعه الأول يظهر فى موضع من القمة يشبه سرج الحصان كتشكيل صخرى لقمة تحوطها صدور جبلية أخرى، فى مستوى البصر الأفقى، فى حافة بالقرب من أم البيارة. ومما جعل ذلك المشهد مذهلا أن حافة القمر العليا بدت وكأنها تملأ الفراغ بالكاد وكأن القمر يملأ الفراغ السرجى الصخرى بحيث يبدو كأنه كرسيه ومستقره، وهو مشهد لا يمكن رؤيته بهذا التكوين إلا من القمة العالية.

برية القمر

والتاريخ الذى يتخذ فيه التربيع الأول ذلك الوضع الذى يمكن مشاهدته فقط من القمة العالية له دلالة مثيره أيضا، فذلك التكوين لا يحدث إلا فى الدورة القمرية التى تلى الاعتدال الربيعى، وتلك الدلالة الخاصة بذلك التاريخ الدورى لها علاقة بالتقاليد والعادات الإسرائيلية؛ حيث يتوافق عيد الخلاص مع أول اكتمال قمرى بعد الاعتدال الربيعى، مما يدل على أن ذلك العيد مستمد من طقوس سامية أقدم، كانت تقدم فيها بعض الحيوانات الوليدة فى عامها الأول قرباناً وأضحيات إلى رب

القمر. هل كانت القمة العالية مذبحاً سحيقًا فى القدم يعود إلى عصور ماقبل التاريخ المدون، وكان سكان تلك المنطقة يمارسون فى تلك العصور القديمة نوعاً من الطقوس في شكل بدائى كان أصل وبذرة عيد الخلاص ؟

وهل كانت الحيوانات تذبح بممارسات طقسية على المذبح العالى وتنسال دماؤها على جوانبه؟ وهل كانت الذبائح توضع على المذبح العالى لإرضاء رب القمر، فى حين توضع التقدمات غير الدموية على المائدة المقدسة الأوطأ الواقعة فى الساحة التى خلف المذبح ؟ والسؤال الأخير ليس فجاً كما قد يبدو من ظاهره، فقد لاحظ أيان برونتج التماثل الواضح بين مكونات القمة العالية ومكونات المعابد الإسرائيلية، والتى تواجه على الدوام اتجاه الغرب.

وهناك أدلة إضافية توصل إليها نايلسن تؤكد وتثبت ممارسة العبادة القمرية على القمة العالية، فقد عثر على بيت - إيل، أو مقامه، منحوتًا فى صدر الجبل فى تجويف فى مستوى الرأس للواقف بذلك التجويف. كان مقدس ذلك المقام عبارة عن كتلة صخرية مقدسة، وعلى جانبيه نصفا عامود يعلو كلاً منهما هلال، تتجه حوافه المقرنة إلى أعلى(٥٢)، وبفحص ذلك المقام فى مارس عام ٢٠٠٢ م، توصل أندرو كولينز إلى أنه نبطى الأصل مثله مثل القمة العالية(٥٣)، وأن على قمة جبل هارون البعيدة توجد - أيضاً - أدلة أخرى تظهر المغزى والأهمية التى لعبها ذلك الجبل فى صياغة وتكوين المفاهيم الدينية النبطية .

فى اليوم التالى لمشاهدة نايلسن الهلال الجالس في تجويف صخرى يشبه سرج الحصان بالقرب من أم البيارة، قام باستكشاف المنطقة المحيطة، وتسلق ممراً صاعداً وجد عند نهايته ساحة مدرجة طبيعية مكشوفة، ومنبرا طبيعيا مرتفعا فوق كتلة صخرية مكعبة(٥٤)

ومثل مذبح القمة العالية، كان بذلك الموضع - أيضاً - مذبح يتجه إلى الموضع الذى يبزغ منه القمر الجديد إلى صفحة السماء وإلى الهلال الصخرى الموجود أعلى المذبح» (٥٥)، ومثل جبل المدهبة احتوى على

«حوض صخرى للماء»، وبالرغم ما يبدو ظاهرياً من انعدام أهميته ومغزاه، إلا أن ذلك الموضع الذى كانت تقدم فيه القرابين استخدم فى عصور قديمة فى تلك الأغراض الطقسية (٥٦).

رب جبل شارا

خلف المدرج الطبيعى المكشوف والمنبر الموجود على منحدرات جبل أم البيارة، اكتشف نايلسن نقوشًا خطية محفورة على واجهة الصخور، أغلبها غير مفهوم مغزاه، وماهو مفهوم منها عبارة عن «رأس ثور مثلثة يعلوها هلال قمرى»(٥٧)، وتبين أنها تماثل النماذج الأثرية التى كانت موجودة قديماً فى الجزيرة العربية (٥٨)، فما دلالة ذلك النقش ؟ وهل ينتمى إلى الإدوميين أم إلى الأنباط ؟

كان الإله الأعظم فى ديانة الأنباط يدعى «دهوشارا»، ويعنى الاسم «رب جبال شارا»، وشارا هو الاسم الأرامى لسلسلة جبال سعير. كان ذلك الإله يمثل فى البداية فى شكل مجرد عبارة عن «كتله صخرية مكعبة غير منحوتة من الصخر الأسود»(٥٩)، والأشيع على شكل متوازى مستطيلات، أو قالب صخرى أسود غير منحوت، وله موضع عينين وأنف، ويطلق على تلك الكتل الصخرية فى عصرنا الحالى اسم «كتل الرب» ولم يكن ليظهر بأى منها فتحة للفم، فقد كان من المفهوم أنه يستحيل التواصل مباشرة مع الرب عن طريق الكلام، وكان التواصل لا يتحقق إلا عبر وسيط، والوسيط إما كاهن، أو رفيقة الرب المسماة «العزى»(٦٠). وفى العصر الرومانى تحول شكل دهوشارا المجرد إلى أشكال بشرية يمكن مشاهدتها فى بعض المقامات المنحوتة فى البتراء وما حولها.

ووجد الرب النبطى فى شكله المجرد ككتل ربوبية فى كوى عديدة فى بيت إيل، وهى مقامات تقليدية منحوتة فى الصخور الجبلية (مثل تلك الموجودة فى القمة العالية). وكلمه بيت - إيل (وهى أيضاً بيت إيل فى العبرية) تعنى «بيت الرب»، وهى فى الأصل مقامات تحتوى أيضاً على

صخور منتصبة حرة على هيئة أعمدة أو سوارى تسمى ماسابوت(٦١).

كانت تلك النصب بالنسبة للشعوب السامية والمتحدثة بلغات سامية فى الشرق الأدنى بما فيهم أبناء إسرائيل الأوائل تعد تمثيلا ذاتياً للروح، أو الروح الأسمى للقمم العالية مثل قمة المدهبة.

الوجه الآخر لفكرة الكتل الربوبية موجود فى السيق، وهو الممر الصخرى الضيق المؤدى لمدينة البتراء الصخرية، والتى كان ينظر إليها فى الماضى البعيد كتمثيل طبيعى لرحم الأنثى، فى حين تعد المدينة الصخرية ذاتها التى تحيطها الجبال السامقة من كل الجوانب على أنها جنين داخل الرحم(٦٢).

وبين تلك الكوى التى كانت تحتوى إما على كتل ربوبية أو بعد ذلك على الأشكال التى اكتسبت هيئة بشرية للإله النبطي، وجدت كوة احتوت على شبه كرة صخرية كبيرة ترمز للرب وتماثل الصخرة السُّرية الإغريقية (نسبة الى السرة)، وترمز إلى حد كبير إلى ركام الخلق الأول والذى يمثل فى أغلب الحضارات الأولى بداية الخلق الذى انبثق من المياه الأولى البدائية، إلا أن المقابل لها فى العالم المادى الجبل المقدس للرب السامق، ورأى ذلك المفهوم فى الصخرة شبه الدائرية، صخرة ربوبية تمثل دهوشارا.

إلا أن إيان بروننج يعتقد أن من أشكال دهوشارا الأخرى شكل المسلة، مثل تلك الموجودة على الحافة فوق القمة العالية، وفى اعتقاده أن ذلك الشكل لم يكن إلا تطوراً طبيعياً لفكرة الكتل الصخرية الربوبية الموجودة فى كوى المقامات المقدسة، ويمكن التحقق من ذلك من خلال المسلات الاربع المنحوتة بارتفاع ستة أمتار وتنتصب أمام المستوى الأعلى من طريق الواجهات فيما يعرف باسم مقبرة المسلة، والموجودة فى كوى المقامات المقدسة، ويمكن التحقق من ذلك من خلال المسلات الأربع المنحوتة بارتفاع ستة أمتار، وتنتصب أمام المستوى الأعلى من طريق الواجهات فيما يعرف باسم مقبرة المسلة، والموجودة على الطريق الهابط

إلى السيق ويعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادى (٦٣)

إلا أن بعض الباحثين يذكرون أن الغرض من تلك المسلات ليس إلا الزينة، متأثرين بالتوجهات الفنية الإغريق - رومانية فى الفنون المعمارية التى ترجع فى أصلها إلى مصر؛ ولأن تلك المسلات بوجه خاص المعروفة باسم أهرامات نيفيش، لا تحمل أية علاقة واضحة بمسلة الحافة الموجودة فى القمة العالية.

ومما اكتشف أيضاً - ويحمل دلالة ومغزى أكبر - أشكال منقوشة نقشاً أولياً غير مصقول ولا متقن تتخذ شكل مثلثات متساوية الأضلاع، تتجه قممها إلى أعلى، ويعلو كل منها نماذج ورقية نباتية ثلاثية الأوراق، أو كرة ناقصة، أو شكل هلال، بعض المثلثات تحيطها خيوط إشعاعية مما يوحى أنها ترمز للضوء واللافت للنظر أن كل شكل منها محفور بأعلاه ثقبان ومن الواضح أنهما يمثلان العينين. وليس هناك شك أن تلك الأشكال المثلثة تمثل دهوشارا كتجسيد للجبال، بينما ترمز الأهلة فوق قمة المثلث إلى أن الإله والجبال معاً تتمازج فى كل واحد مع القمر.

واعتبر بعض الدارسين من دراسة تلك الأشكال أن دهوشارا كان إلهاً للشمس دون أى دليل قطعى يؤيدون به افتراضهم.

ومثل يهوه، وسين، والآلهة السامية الأخرى للقمر، كان دهوشارا أيضاً مقترنًا بثور السماء، الذى جسده الجبل المقدس وقرناه طرفا الهلال القمرى. وجرد ذلك الاعتقاد برسم رأس الثور على شكل مثلث يعلوه الهلال وهو تعبير عن روح جبال دهوشارا الخفية، أو تعبيراً عن دهوشارا ذاته.

وبذلك يتضح أن الرب النبطى للجبال كان يشترك فى صفات كثيرة مع يهوه، الرب الإسرائيلى الأول، الذى - كان كما رأينا - يبدو وكأنه الروح الأسمى لجبل حوريب، أو جبل سيناء الذى هو فى أصله جبل القمر.

هل كان دهوشارا ببساطة شكلاً ليهوه عبدة الأنباط بعد ألف عام من الخروج ؟

ولإجابه ذلك السؤال لابد من العودة إلى إعادة بحث المعلومات القليلة التى وصلت إلى عصرنا عن ديانه الإدوميين فى العصر الحديدى، والتأثير المتوارث من الساشو الإدوميين على الأنباط.

النجوم والأهلة

كان رب الإدوميين الرئيس هو الإله كاوس أو كاوش، وبدا اسمه كمقطع أول فى أسماء الملوك الإدوميين، ومنهم «كاوش - ملك»، الذى حكم الإدوميين فى عصر تيجلر بيلسر الرابع، امبراطور الإمبراطورية الآشورية حوالى ٧٤٧ ق.م، و «كاوش - جابر» ووجد اسمه منقوشاً على قطع أثرية أثناء الحفر الاستكشافى فى موضع مستوطنة إدومية فى منطقة أم البيارة، وكان ملكاً على الإدوميين فى الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد متزامنا مع حكم إزرحدون للإمبراطورية الآشورية، كذلك يظهر اسم الرب كاوش مقترنا بأسماء أفراد عاديين وجدت أسماؤهم على المكان (ويعنى مقدس) قد اشتق من اسم كاوس.

فضلاً عن ذلك، وجد نص على لوحة تذكارية إدومية مقرنة الشكل عثر عليها بالقرب من البتراء يتضمن اسم «كاوس - الله»، بينما وجد على صخرة نقشاً فى منطقة إدومية اسمها طوايلان، تقع على تل موجود فوق عيون موسى مباشرة، الموجودة بوادى موسى، يعتقد أنه تشخيص تجريدى لكاوش كرب قمرى (أنظر الصورة ٣٧ فيد القسم المصور)(٦٤) ويظهر النقش نجما داخل هلال فوق قمة عامود، والعامود فوق كتلة مستطيلة مظللة بخطوط متقاطعة والتى يمكن أن ترمز لسطح مذبح وإلى يساره شكل متوازى الأضلاع فوق خط أفقى وسهم يتجه لأعلى، ويمكن أن تكون تمثيلا لمائدة تقدمات لحوم مشوية، بينما يوجد إلى يمين الهلال والنجمة مثلث متساوى الأضلاع تتجه قمته إلى أعلى فوق خطين متوازيين، وسهم آخر أكبر قليلا من الأول، ويرجح أن المثلث يمثل الجبل المقدس.

لو كان ذلك النقش التجريدى يعد شكلاً لكاوش كما يعتقد الباحثون، فلابد أنه كانت تعزى إليه قدرات قمرية، وكان يمثل بالنجمة والهلال، وساد ذلك الاعتقاد وانتشر فى الثقافات العربية حتى أصبح الهلال والنجمة رمزاً مباشراً للدين الإسلامى ويمكن إدراك ذلك من خلال العادات المحلية في البتراء وماحولها، وتظهر أن كاوش كان رب القمر الوليد، أو الهلال(٦٥)، وحيث تعلو الأعمدة أهلة فى المقام الواقع مباشرة أسفل القمة العالية، فإن ذلك يربط دهوشارا، الاله النبطى، مباشرة بالقمر، ومن المؤكد أنه استمد صفاته من الإله الإدومى «كاوش»، بما فيها اقتران الثور والقمر، وتوصل إيان بروننج إلى أن كاوش الإله الإدومى، أصبح إلهاً للأنباط اسمه دهوشارا بشكله وصفاته(٦٦).

بذلك يتبين لنا أن هناك خطاً ممتداً بشكل مباشر بين يهوه، إله شعوب الساشو والإسرائيليين الأوائل، وكاوش، إله الإدوميين فى العصر الحديدى، ودهوشارا، الإله العلى للأنباط، وكل منهم يرتبط بالقمر والثور والأعمدة والصوارى (أو الأرباب الكتلية) والجبال المقدسة.

إضافة إلى ذلك، يمكننا أن نذكر أن شارا، وهى الجبال المقدسة المرتبطة بالإله دهوشارا النبطى، ليست إلا الاسم النبطى لسلسة جبال سعير، أو الإله الأول لأبناء سعير. ويمكن إدراك ذلك من معرفة أن الاسم الآرامى «شارا» ينتمى إلى الأصل الصوتى للكلمة المندانية سيرا التى تعنى القمر، ولابد أن نتذكر النص الماندانى المستمد من أصل نبطى(٦٧) والذى يظهر منه أن «شارا» و «سار» كما ذكرنا من قبل هى سعير وسيناء، وكلها تعنى مباشرة قمر أو قمرى.

عبادة الزهرة

عرفت رفيقة دهوشارا فى البتراء باسمها العربى الذى كانت تعرف به قبل الإسلام وهو «العزى»، وكانت تمثل بكتلة مقدسة فى بيت إيل إلا أن لكتلتها عينين وأنف وفم؛ (لأن التواصل المباشر مع البشر كان يعزى لها، كما هو متيسر مع تماثيل العذراء مريم فى المفاهيم الرومانية الكاثوليكية

الدينية).

كانت العزى تمثيلاً لكوكب الزهرة، وهو الاسم الذى أطلق على ذلك الكوكب فى المعتقدات القديمة. ويفسر بعض الباحثين اسم العزى على أنه يعنى «القوية»، وربما استمدوا ذلك التفسير من الجذر الأكادى «عز» والتى تعنى عنزة، وكانت العنزة هى الشائعة فى تقديمها كقربان لكل أشكال ورموز كوكب الزهرة فى الشرق الأدنى القديم، وعرفت أيضاً باسم اللات وعشتارت وعشتروت وأتراجاتيس وعشتار، و «ربات الـ - ثيل أى سيدة أو ربة قطعان الرعى(٦٨).

كان الرمز الدال على عشتار - الزهرة نجمة سباعية داخل دائرة، ووجد ذلك الرمز على نصبين اكتشفا بين أنقاض مدينة حران القديمة(٦٩)، أما لدى الإغريق فنجد الزهرة وتمثلها «أفروديت» وهى تركب عنزة(٧٠)، مما يظهر علاقة الزهرة بالخصب والرغبة والقدرة الجنسية.

وتحولت عشتار - الزهرة فى المفاهيم المسيحية المبكرة إلى رمز لعاهرة بابل، والمصورة فى سفر التجلى كصورة تخيلية لها تمسك كأس المقت والبغضاء، وتمتطى وحشاً بسبعة رؤوس، ووردت بالوصف ذاته فى سفر الرؤيا(٧١)، ومازالت التماثيل النحاسية للعزى أو اللات التى تمسك بيدها كأساً تباع للسائحين فى مدينة البتراء حتى اليوم.

ويبدو أن هناك علاقة مباشرة بين عبادة العزى وشاه الفداء التى أرسلها هارون إلى عزازيل على جبل سعير تكفيراً عن ذنوب أبناء إسرائيل. وكما ذكرنا فى الفصل ١٨ ، فإن اسم عزازيل مستمد أيضاً من الأصل الأكادى «عوز» الذى يعنى شاه أو عنزة، وحيث إن إشكال اسمها الأخرى عزى، وعوزى، فإن طقس كبش أو عنزة الفداء ربما كان تحريفاً لعادات قديمة لأضحيات تقدم للعزى، ويرتبط فى اعتقاد الباحثين بأن يهوه كان له رفيقة تدعى عشيرة كانت شكلاً من أشكال اللات أو عشتارت.

ويحتفل اليهود فى عصورنا الحالية بيوم كيبور، أو عيد التكفير، فى

الليلة العاشرة لشهر تسرى (إيثانيم قديماً)، وهو الشهر السابع الذى يتوافق مع الانقلاب الخريفى حين يكون القمر فى تربيعه الأول.

لقد لاحظ داتيليف نايلسن فى كتابه المنشور عام ١٩٢٨ تحت اسم «مكان جبل سيناء التوراتى : البتراء»، أنه يوجد إلى الغرب من البتراء، خلف وادى عربة الذى يفصل عبر الأردن عن فلسطين، جبل اسمه جبل هلال. ورأى فى تلك التسمية مغزى آخر يدل على الارتباط القمرى للبتراء، والهلال فى اللغة العربية هو القمر الجديد الوليد(٧٢).

وافترض نايلسن أن السهوب الواقعة بين البتراء وجبل هلال هى المكان الحقيقى التى أطلقت عليه التوراة اسم برية سيناء، بينما اعتبر أن جبل المدهبة الموجود على تخوم البتراء هو جبل القمر، وأن ذلك الجبل هو جبل سيناء الحقيقى(٧٣).

والواضح أن الباحثين التوراتيين الحاليين لم يأخذوا نظرياته بالجدية الواجبة بالرغم من الأدلة الدامغة التى تثبت أن البتراء هى قادش القديمة التى قضى أبناء إسرائيل حولها وقتاً طويلاً فى تيههم الذى تذكره التوراة. هل كان نايلسن مصيباً فيما توصل إليه ؟

وهل توصل فعلاً إلى تحديد الموضع الذى تلقى فيه موسى الوصايا العشر، وتحدث منه مباشرة إلى الرب ؟

إن افتراض أن ذلك الموضع هو جبل المدهبة افتراض قوى، ولكن ماذا عن جبل هارون، الموضع الذى تذكره التوراة باسم جبل حور، وموضع تقديس المسيحيين والمسلمين على مدى يصل إلى ألفى عام ؟

هل يمكن أن يتحول جبل هارون أو حور ليصبح المرشح الأقوى والصحيح، ويتضح أنه هو جبل الرب المذكور فى التوراة، لا غيره ؟

٢١ - بيت الرب

بعد خمسة أعوام من اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، زار أستاذ علم الأديان الشهير داتيليف نايلسن مدينة البتراء، وبعد أبحاث جادة استنتج أن جبل المدهبة والقمة العالية التى تشكل هامته هو جبل سيناء المذكور فى التوراة، وهى نظرية عكف على بحثها بكل تفان من عام ١٩٠٤(١).

ومال إلى ترجيح جبل المدهبة على جبل هارون (١٣٥٠ متراً)، وهو الجبل الذى كان يعرف من قبل هارون باسم جبل حور، وذكرت التوراة أن أبناء إسرائيل وصلوا اليه بعد رحيلهم عن قادش، ولأن موسى وأخاه عصيا كلمة الرب «عند ماء مريبة»(٢)، أمر يهوه موسى أن يأخذ هارون إلى قمة جبل حور، وعلى قمة الجبل جرد موسى هارون من ملابس رئيس الكهنة، وألبسها اليعازر بن هارون عوضاً عنه، وبعد أن نفذ موسى أوامر الرب، وبمجرد أن انتهى من ذلك، سقط هارون ميتاً فى موضعه(٣)، فهل كان جبل هارون المعروف حالياً بهذا الاسم هو جبل حور التوراتى؟ وهل كان نايلسن محقاً فى تجاهله لهذا الجبل كأقوى مرشح لأن يكون جبل سيناء الحقيقى أو جبل الرب الذى صعده موسى ؟

جبل القديس هارون

كما ذكرنا من قبل، فإن القمه العالية فى البتراء وبيت إيل القريب منها كانا مخصصين لعبادة دهوشارا، وكان كلاهما ييمم وجهه باتجاه جبل هارون، أقدس جبل فى منطقة مدينة الأنباط الصخرية.

وبالرغم من عدم وجود آثار آدومية فى المناطق المذكورة، فإن المعتقد

أن منطقة جبل هارون كانت مسكونة فى عصر الأنباط، فقد وجد خزانان للماء مصنوعين فى الصخر وينسبان للإدوميين.

أما الزمن الذى اكتسب فيه الجبل اسم النبى هارون كما يطلق عليه العرف الإسلامى فهو غير محدد ولا معروف.

وكما أوردنا فى الفصل ٢٠، ذكر المؤرخ اليهودى جوزيفوس فلافيوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : أن موسى قاد جيش الإسرائيليين إلى حدود ايدوميا (إيدوم)؛ حيث ماتت أخته ماريام بذلك الموضع، ثم وصلوا إلى مدينة البتراء، أو آرس القديمة، ويعتقد أنها سميت بذلك الاسم تكريما لملك ميديانى اسمه ريكيم، وهى مدنية «تحيطها جبال عالية»(٤).

ويخبرنا جوزيفوس أن هارون صعد جبلاً منها، وخلع عنه رداء الكهنوت، وسلمه لابنه اليعازر الذى أصبح الكاهن الأكبر بدلا من أبيه، ثم مات هارون فى مكانه(٥). وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فإن ذلك الجبل المسمى فى التوراة جبل هور (وتعنى هور فى العبرية جبل)، وأطلق الناس عليه بعد ذلك جبل هارون ويقع على بعد خمسة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى للبتراء، وهارون هو الاسم العربى لـ «أهارون» العبرى (وهارون أيضاً بالآرامية) ، ويترجم إلى «هار - أون» وتعنى «المتعال» أو «جبل القوة» مما يوحى أن أخا موسى استمد اسمه من الجبل لا العكس. ومن المثير للتأمل أن اسم أهارون فى اللغة اليديشية، وهى لغة يهود شمال غرب أوروبا هو «آرك» وهو الاسم القديم لمدينة البتراء، وهو أمر لا يمكن تجاهله أو نسبه إلى مجرد المصادفة.

وطبقاً لسفر التثنية، انتهت حياة هارون على جبل هور بعد أن أظهر هو وموسى نفاد صبر مع أبناء إسرائيل قبل أن يأمره الرب بضرب الصخرة بعصاه ليتفجر منها الماء حين حلوا بمدينة قادش. وبسبب تلك المعصية قدر لهما الرب أن يشهدا عن بعد الأرض التى وعدهم بها دون أن تطأها أقدامهما هو وأخوه(٦)، وقبل أن يموت موسى أراه الرب أرض ميراث إسرائيل من فوق قمة جبل نبو من على قمة الفسجة فى أرض

موآب، ثم مات فى مكانه(٧). وقبل ذلك، لقى هارون المصير ذاته بعد أن تطلع إلى الأرض الموعودة من فوق قمة جبل هور(٨). وعلى ضوء أنه من فوق قمة جبل هارون يبدو المشهد مكشوفا بلا عائق عبر وادى عربة حتى إسرائيل الحالية وفلسطين، فإن استنتاج أن جبل هارون هو جبل هور يبدو منطقياً.

والارتباط بين هارون وجبل هارون معروف على الأقل من القرن الخامس الميلادى منذ أن أقام البيزنطيون عليه ديراً ومقاماً، ووجدت شذرات من نصوص أثناء أعمال التنقيب المعاصرة فى موضع الدير التى تقوم بها البعثة الفنلندية فى منطقة البتراء تحت إشراف چاكوفروسن الأستاذ بجامعة هلسنكى مذكور بها اسم هارون، بالإضافة إلى ذلك، عثر على بقايا بردية متفحمة تعود إلى عام ٥١٣ ميلادية فى بقايا كنيسة فى منطقة البتراء تشير إلى دير فى «جبل القديس هارون»، وهى إشارة إلى الدير الذى أقيم على ذلك الجبل وفى التوقيت ذاته أصبح ذلك الجبل مزاراً للحجيج، وتتناثر فوق قمة الجبل بقايا الآنية الفخارية المهشمة والتى ترجع إلى العصر البيزنطى، ولم توجد أى بقايا أخرى أقدم من ذلك العصر.

واختفى الدير البيزنطى دون أن يترك أثراً، بالرغم من أن موقع مقبرة هارون لم يضع، ففى القرن الثالث عشر الميلادى أقيم بموضع قبر هارون مقام شيده المسلمون ويطلقون عليه لقب «الولى»، وقام ببنائه الشيمانى محمد بن قلاوون بأمر من السلطان بيبرس بعد زيارته لمدينة البتراء.

وبين حوائط المقام توجد كتل صخرية من أعمده قديمة كانت جزءًا من مبنى قديم لا يعرف انتماؤه ويمكن رؤيتها فى المواضع التى سقطت عنها طبقات البلاط الكاسية للجدران، ومنذ ذلك الوقت أصبح قبر هارون من المزارات الهامة للمسلمين، وقام الرحالة السويسرى چوهان بوركهارد متخفياً فى زى بدوى بزيارة البتراء وآثارها لأول مرة عام ١٨١٢ ميلادية، وفى عام ١٩٢٧ حين زار ديتليف نايلسن البتراء، كان قبر هارون مازال يحمل منزلة خاصة للبدو، وذكر عن ذلك :

فى أيام محددة، يحتفل المسلمون من بدو المنطقة بمقام النبى هارون بتقديم أضحيات من الماعز، والمكان شديد القداسة حتى إنهم يمنعون زيارة الأجانب له ولم يوافق أى مرشد محلى على اصطحابى لزيارة المقام، ونصحنى قائد القوات البريطانية بفلسطين بعدم الذهاب إلى هناك(٩).

وحتى وقت قريب، لم يكن يسمح للأجانب بالصعود إلى قمة جبل هارون، أما اليوم، فيمكن الوصول إلى الجبل بعد ثلاث ساعات على ظهور الجمال عبر برية باران.

وتمكن أندرو كولينز أحد مؤلفى هذا الكتاب من الوصول إلى جبل هارون أثناء زيارته للبتراء فى شهر مارس عام ٢٠٠٢م. وسمح له الحارس البدوى المسن ومعه قرينته بزيارة المقام المقدس. وبعد أن نزعوا أحذيتهم، نزلوا إلى كهف تحت الأرض به فجوة يوجد داخلها القبر خلف باب من القضبان الحديدية الصدئة. ولما تفحصا المقام على ضوء شحيح لشمعة وجدا أنه قبة حجرية مطلية بطلاء أبيض لم يكن هناك ما يظهر أن كانت مجوفة من داخلها أم مصمته، وظهرت أصغر وأضيق من أن تحتوى على جسد آدمى، وهناك أقوال أن القبر الحقيقى فى ثنايا أعمق فى باطن الكهف أسفل المقام الحالى، ويحتمل أن تلك الأقوال مجرد عذر: لتبرير ضيق المقام الموجود والذى لا يمكن أن يتسع لبدن نبى عظيم مثله، كما استمع آندروكولينز إلى الأسطورة التى يرددها سكان المنطقة من أن النبى هارون جاء من مصر على ظهر حصان طائر أخضر، وكلما حاول الحصان أن يحط بقوائمه على قمة أى جبل تنهار القمة تحت وطأته، وتكرر ذلك ست مرات حتى وصل الحصان براكبه إلى قمة جبل هارون وتمكن من الهبوط على قمته(١٠)، ومن بعدها أصبح ذلك الجبل جبلاً مقدساً.

ومن الواضح أن القصة بأجمعها محض خيال، إلا أنها تحريف عجيب لقصة موسى وهارون المذكورة فى التوراة والقرآن مما يوحى بوجود

مصدر مستقل للأسطورة.

فالحصان الأخضر الطائر، ومحاولته الهبوط على قمم الجبال، ونجاحه فى الهبوط على الجبل السابع (رقم سبعة رقم هام فى المعارف الكونية فى الشرق الأدنى القديم، وهو يرتبط بكوكب الزهرة وباللون الأخضر) مما يوحى أن الأسورة لم تكن خاصة أصلاً بهارون على الإطلاق، وأنها كانت خاصة بإله وثنى قديم تم الخلط بينه وبين هارون فى عصور متأخرة عن منشأ الأسطورة.

ومرة أخرى نجد أن جبل هارون لعب دوراً هاماً فى المعتقدات الدينية الخاصة بالانباط ويحتمل الإدوميين أيضاً.

على أية حال؛ حيث تم التعرف على جبل هارون على أنه جبل هور التوراتى، فإنه لا يوجد أى سبب منطقى يكفى لنفى أنه أيضاً جبل سيناء أو جبل حوريب. ومن جهه أخرى، فإن علاقته بالقمة العالية للبتراء (جبل المذهبة) يظهر منظومة القداسة التبادلية بين الموضعين، والتى تظهر أهميتها فى تبلور عبادة يهوه، رب «إسرائيل فى أرض الساشو» ويبدو أن دايتليف نايلسن قد توصل إلى الحقيقة، وأن جبل سيناء أو حوريب هو جبل يهوه، وهو جبل المذهبة الذى كان يعد أقدس مكان فى البتراء ذاتها.

من جهة أخرى، يشكل التعرف على الموقع الحقيقى لجبل سعير أو جبل شارا، المقدس من خلال الإله دهوشارا صعوبه أكبر.

من الواضح أن سلسلة الجبال المحيطة بالبتراء كالحلقة كان ينظر إليها على أنها تشخيص للرب السامى. ولو كان لأحد منها أن يتقدم ليكون مرشحاً أكثر من غيره كجبل سعير المقدس فهو جبل هارون، وهو جبل حور التوراتى، وكان هو الآخر موضع قداسة أولئك الذين صمموا القمة العالية على جبل المذهبة فى شكلها النهائى.

إلا أنه لا يمكننا معرفة أن كان جبل هارون هو أيضاً جبل شارا أم لا، فالمعبد النبطى فى البتراء المعروف باسم قصر البنت والذى أنشئ تكريماً للإله دهوشارا يتجه فى تصميمه إلى الشمال باتجاه جبل الشارا الحالى،

وهو «الجبل الذى كان إلهاً»(١١). فهل يمكن أن يكون جبل الشارا الحالى هو جبل شارا القديم، أم أنه اسم قد استحدث للجبل الحالى فى العصور التالية؟ كل الكتاب والباحثين يرون أن جبل الرب الذى تلقى عليه موسى وصاياه العشر، والتقى عليه بالرب وجها لوجه ينطبق على القمة العالية لجبل المدهبة، بينما جبل هور أو جبل سعير الذى كانت تقام على سفوحه طقوس الذبح للآلهة لابد أن يكون جبل هارون.

أرجل الرب

طبقاً لما يذكره سفر الخروج، سمح موسى لأخيه هارون وأكبر اثنين من أبنائه وهما ناداب وأبيهو، وسبعين من شيوخ أبناء إسرائيل بصعود «جبل يهوه»(١٢)، ويذكر سفر الخروج أنه عند مستوى معين من الجبل، رأوا «رب إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة»(١٣)، وتذكر التوراه أن ذلك الحدث وقع على جبل سينا، وأكدته بعد ذلك حين ذكرت أن موسى صعد الجبل ذاته عند تلقيه ألواح الشهادة من الرب(١٤).

واحتار باحثوا التوراة من إشارة التوراة إلى أرجل رب إسرائيل، واعتقدوا أن هناك معنى ضاع منهم أو تشوش عليهم من تلك الصياغة اللغوية، إلا أن المعلومات الموجودة فى الفولكلور البدوى تلقى من الضوء ما يكفى على تلك الصياغة، فحتى وقت قريب نسبياً كانت الحكايات المحلية المتداولة تؤكد أن دهوشارا وقف برجليه على أعلى قمة جبلية(١٥)

وربما كانت تلك الأسطورة المثيرة قد ابتدعت لتفسر وجود الغيوم والسحب المنخفضة التى تغلف فجأة القمم الواهنة لجبل شارا والتى مازالت تحدث حتى اليوم قبل العواصف المطرة.

ولا يوجد شك أن تلك الأسطورة الخاصة بأرجل دهوشارا على قمم الجبال المحلية قد نشأت فى عهود أقدم كثيراً من العصر الذى ساد فيه الأنباط تلك المنطقة ؛ لينسبوا الأسطورة إلى ربهم هم، أى دهوشارا،

وتوجد فى البتراء الصغرى المسماة بالوادى السرى الذى يحتوى على كثير من الآثار النبطية، آثار على الصخور لأزواج من الاقدام خاصة على سفوح الجبال، وكان لكبر حجم آثار تلك الأرجل واتجاهها الصاعد ما يوحى أنها أرجل آلهة، أو إله واحد يسكن قمة الجبل(١٦)، واعتبر بدو المنطقة أن أثر تلك الأقدام دليل على قداسه الجبل، وأن عليهم أن يخلعوا نعالهم قبل أن يتقدموا إلى ماهو أبعد من آثار تلك الأقدام مثلما يفعلون عند عتبات المساجد (وكانت آثار الأرجل الغائرة فى الصخر تدلهم على وجود مصدر مائى وكانوا يعتبرون أنها من الطالع الحسن حين يجدونها)(١٧)، ويذكرنا ذلك بما ذكرته التوراة عن صعود موسى إلى جبل حوريب لأول مرة؛ إذ يذكر سفر الخروج أن الرب أمره قائلاً :

«لا تقترب إلى هاهنا. اخلع حذاءك من رجليك؛ لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة» (١٨)

إن آثار الاقدام العملاقة على الصخور أقدم لاشك من الحضارة النبطية فى المنطقة المحيطة بالبتراء، وهناك أثر قدمين غائرتين فى الصخر فى منطقة وادى روم، شمال العقبة، وتصنف تلك الصخور بأنها تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث وهو عصر يسبق عهد الساشو والإدوميين بآلاف السنين.

ونعود إلى ما ذكره سفر الخروج : « وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق»، التى شاهدها هارون وولداه وشيوخ أبناء إسرائيل تحت أقدام رب إسرائيل، فهل تشير تلك الآيات إلى آثار تلك الأقدام الغائرة فى الصخر والتى كانت تميز المدخل إلى القمه العالية أو قدس الرب بأعلى قمة الجبل ؟

لسوء الحظ، لا توجد آثار لأرجل على الممرين إلى قمة البتراء العالية ولا على سفح جبل هارون.

وافترض المؤرخ جراهام فيليب مؤلف كتاب «تراث موسى» أن عمد «رب عطوف» قد شيدت على أيدى أبناء إسرائيل الأوائل كأقدام للرب

الذى يستريح على جبل سيناء، جبل الرب(١٩). ومهما كانت دلالة تلك الأرجل، فهناك دليل قوى لا يمكن دحضه على أن المسلتين التوأم لزب عطوف لعبا دوراً هاماً فى وجود الديانة الإسرائيلية.

چاكين وبوعاز

قام إيان براوننج، عالم تاريخ البتراء المرموق، بإجراء مقارنة بين مكونات القمة العالية على جبل المذهبة وتصميم المعابد الإسرائيلية الأولى المبكرة، خاصة الـ «مينا ساكرا» أو المائدة المقدسة التى يوضع عليها خبز التناول المقدس أو قرابين اللحوم المشوية.

وكان وجود المسلتين فى مستوى أوطأ من المستوى الذى توجد به طاولة القرابين ما جعله يتساءل إن كان لذلك علاقة بـ «چاكين وبوعاز»، وهما عامودان برونزيان كانا يوضعان عن يمين ويسار درج هيكل سليمان وكما يذكر براوننج فى مقارنته تلك : «لابد أن تلك الأعمدة والمسلات كانت من المكونات الطقسية الدينية للإدوميين مما يطرح السؤال الهام عن تأثير ذلك على الديانة النبطية؟ وللأسف لا توجد فى الوقت الحالى إجابة حاسمة»(٢٠).

ولفت براوننج الأنظار إلى عمود فرعون فى البتراء المذكور في الفصل ٢٠، والذى كان أحد اثنين ينتصبان أمام المعبد على أرض مرتفعة عما حولها خلف معبد قصر البنت، وهما أكبر كثيراً من باقى الأعمدة الموجودة بين الحطام ويبدوان غير مرتبطين بالهندسة المعمارية للمعبد وتماثل في أماكن وضعها تلك التى كانت موجودة بهيكل سليمان، ورأى أنها تقوم بالوظيفة نفسها التى تقوم بها الأعمدة الإسرائيلية التى كانت تدعى چاكين وبوعاز (٢١).

ويشير براوننج إلى النموذج الموجود بمتحف اللوفر لهيكل سليمان ويظهر فيه العامودان كمسلتين مستقلتين، وأن وضعهما لا يتماثل فقط مع ذلك العمود الباقي من اثنين فى معبد الأنباط، بل أيضاً مع المسلتين

الحجريتين المسميتين بزب عطوف.

ولم يكن برونـنج أول باحث يربط ما بين تصميم هيكل سليمان وجبل المذهبة في البتراء، ففي عام ١٩٢٨ أشار نايلسن إلى أن القمة العالية تضاهى تصميم هيكل سليمان فى أن كلاً منهما يواجه الغرب، ولكل منهما مدخل على شكل عامودين فى الجهة الشرقية (٢٢). وهكذا حين تقدم القرابين إلى يهوه، يواجه الكاهن الغرب وهو اتجاه القمر والشمس الغاربة.

لذلك افترض أن هيكل سليمان - ولا ننسى أنه كان بمثابه مسكن للرب الإسرائيلي - كان فى حقيقته مقدساً مخصصاً لرب القمر، وأنه مأخوذ عن هيئة القمة العالية للبتراء (٢٣).

هل يمكن أن يكون جبل المذهبة بمسلتيه الاثنتين فى الجنوب الغربى بشكل ما صدى لتصميم هيكل سليمان، بيت يهوه، والذى كان سكناً ومستقراً للإله ؟

الإجابة الحاسمة على ذلك التساؤل لا يمكن التوصل إليها إلا إذا أمكن التوصل إلى الزمن الحقيقى لإنشاء وإقامة كل من القمة العالية فى شكلها النهائى وكذلك أعمدة زب عطوف، إلا أنه فى حال ثبوت تشييدها قبل الحضارة النبطية، وهو الأكثر احتمالا، فإن جبل المذهبة يصبح هو المكان الحقيقى الذى أطلق عليه فى التوراة اسم جبل سيناء، وجبل حوريب، المسكن الحقيقى لرب إسرائيل، وبيت إيل الأصلى أو بيت الرب السابق على هيكل سليمان، لو ثبت ذلك فإنه يصبح المقام والمقعد والعرش ليهوه، المشار إليه فى ترنيمة البحر الواردة فى سفر الخروج، والتى تذكر:

«حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته تجىء بهم، وتغرسهم فى جبل ميراثك. المكان الذى صنعته يارب لسكنك، المقدس الذى هيأته يداك يارب»(٢٤).

ويبدو أن القمة العالية كانت قدساً أو مقاماً ليهوه كما فسر ذلك باحث الشرقيات رافائيل چيڤيون، وأن ذلك يفسر الاسم المصرى الجغرافى المذكور فى النصب التذكارية المصرية لتخليد انتصارات ملوكها والمسجل:

«يهوه فى أرض الساشو» (٢٥)، وافترض أيضاً أن اسم المكان يشير إلى أن سعير موطن الساشو أو الإدوميين كان هاماً جداً؛ لتطور الدين الإسرائيلى وخاصة علاقته بالجبال المقدسة(٢٦). ويبدو أن ڤيڤيون قد دق رأس المسمار الصحيح بقوة.

كراهة تيمان

هناك دليل إضافى أخير يربط بين البتراء وجبل يهوه ويساعد على فهم وإدراك سر العداوة الشديدة التى كان الإسرائيليون يكنونها للإدوميين، نسل عيسو، ففى سفر حبقوق من العهد القديم نجد نصاً يذكر: «جاء الرب من تيمان، وجاء المقدس من جبل باران»(٢٧). والنسخة المنقحة من التوراة تتحدث عن باران على أنها سيلا، بينما قيل : إن تيمان كان حفيد عيسو، وأحد نبلاء عيسو أو إيدوم(٢٨)، وكان تيمان يقيم فى أجوار البتراء، وهو ما يؤكده سفر عاموس حيث يذكر : «فأرسل ناراً على تيمان فتأكل قصور بصره»(٢٩)، وتعنى بصره حصون، ويعتقد أنها المدينة الحالية التى تحمل اسم البصيرة وتقع فى الأحياء الجبلية المحيطة بالبتراء على بعد ٣٢ كيلو متراً جنوب البحر الميت(٣٠)، ولا يوجد شك فى أن تيمان كانت تقع فى أرض إيدوم، وبشبه يقين أنها كانت البتراء ذاتها(٣١). فضلاً عن ذلك، نجد أن تيمان لم ترتبط فقط بـ «جبل باران»، بل أيضاً بجبل عيسو :

إلا أبيد فى ذلك اليوم، يقول الرب : الحكماء من إدوم، والفهم من جبل عيسو، فيرتاع أبطالك يا تيمان لكى ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتل(٣٢).

وتفتقد العداوة الشديدة التى صبها أنبياء بنى إسرائيل، المبكرون على شعب إيدوم، أى منطق عقلى، كما أنها تستعصى على التفسير والتبرير. وكما افترضنا من قبل لا يمكن أن نبررها بتلقى موسى للشريعه على جبل مقدس فى أرض إيدوم والذى كان يعرف بجبل باران - أيضاً - أو جبل

عيسو.

لذلك لابد أن نتساءل، من كان عيسو على وجه الدقة ؟

أصول عيسو

بعد غزو كنعان تصمت التوراة تماماً وتسكت عن جبل يهوه. ويعود الاحتمال الأكبر في تفسير ذلك إلى أن التشريعات الدينية المتزمته التي تبناها ملوك إسرائيل ويهودا المتأخرون لم تجد صدى لها في الممارسات الدينية القديمة التي يمارسها أبناء عمومتهم الإدوميين، نسل إيدوم، أي عيسو. وكما رأينا في الفصل ١٨، فإن إيدوم تعني «أحمر» وهي ليست مشتقه من العدس الأحمر الذي خدع به عيسو وتنازل بوجبة منه عن حقه في بكورته لصالح أخيه يعقوب، بل لانتشار وشيوع التلال ذات الرمال الحمراء في البتراء وما حولها.

وهكذا، نجد أن اسم عيسو أو إيدوم كان اسماً آخر لمدينة «روح المكان»، وأن جبل باران أو جبل عيسو لم تكن إلا أسماء بديلة لجبل سيناء، أو بتعبير أدق، لجبل المدهبة.

ويبدو أن عيسو كان مرادفاً لاسم معبود قديم يدعى عوسوس(٣٣)، ورد ذكره في تأريخ فيلو وهو مؤرخ من طرابلس وعاش في عصر الإمبراطور الروماني هادريان حولي ١٢٠ - ١٤٠م، ونقل فيلو عن كتاب «ديانات الفينيقيين» الذي كتبه مؤرح فينيقي يدعى سانكونياثو والذي يعتقد أنه عاش قبل حرب طرواده، أي في ١٢٠٠ ق.م، وطبقاً لما نقله فيلو، ذكر سانكونياثو أن عوسوس هو «مخترع الملابس التي تستر البدن وكان يصنعها من جلود الحيوانات البريه التي كان يصطادها»(٣٤). وبهذا الصدد لابد أن نتذكر أن عيسو في العبرية تعني «المشعر»، وذكر عنه أنه ولد «ولون جلده أحمر من رأسه إلى قدميه، مثل : من يرتدي ملابس حمراء»(٣٥)، وكبر بعد ذلك ليصبح صائداً في غاية المهارة (٣٦).

وبالرغم من أن المؤرخ فيلو يذكر أن سانكونياثو سجل أن عوسوس

من صيدا على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، كان أول إله يصنع قارباً «يخوض به مغامرات بحرية»(٣٧)، (وبهذا يكون مرادفاً للرب الفينيقى مولكارت، أو الإغريقى هرقل) وقيل عنه أيضاً :

.. وأقام صاريتين للنار والريح وعبدهما، وسكب عليهما من دماء الحيوانات البرية التى كان يصطادها، وحين مات الرجلان (عوسوس وشقيقه هيبورا نيتوس) أقام لهما من عاشوا بعدهما النصب والصوارى، وعبدوا تلك النصب، وأقاموا الأعياد السنوية للاحتفال بذكراهم(٣٨).

وعلى ضوء العلاقة الارتباطية بين عيسو والبتراء و «جبل باران» أو جبل عيسو، هل يمكن أن نتبين مما ذكره فيلو عن الصاريتين التوأم «النار والريح» صدى وأصلاً للمسلتين الكبيرتين «زب عطوف» ؟ وهل إشارته إلى «دماء الحيوانات البرية» التى «تراق على الصاريتين» ذكرى للقرابين الحيوانية التى كانت تقدم فى تلك الأماكن ؟

من مصر إلى البتراء

فى رأينا أن البتراء تحمل مفاتيح الهوية الحقيقية لجبل يهوه، وبالتالى أصل شعوب إسرائيل، والتسجيلات الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية من بعدها، وكذلك التسجيلات النصية الغزيرة الأخرى عن الخروج تثبت أن وباءً انتشر بمصر واجتاح منطقة الشرق الأدنى خلال عهد توت عنخ آمون ومن خلفوه فى الحكم، ورأى فيه المصريون أنه انتقام إلهى من الشعب الذى أدار ظهره للآلهة الأصلية خلال عهد أخناتون، الأخ غير الشقيق لتوت عنخ آمون، وكان قد أجبر المصريين على عبادة إله واحد فقط، هو الإله آتون أو قرص الشمس. ونتيجة لذلك، قام الشعب بطرد كهنة الإله الجديد وكل من آمنوا به، ومعهم حشود الآسيويين الذين آمنوا معهم بالرب الجديد من مصر فى محاولة لإرضاء الآلهة التى غضبت عليهم وحتى يخلصوا البلاد من ذلك البلاء، ونظروا إلى المطرودين على أنهم سبب ذلك البلاء.

وظل «الكهنة الملوثون وأتباعهم من عبدة آتون على إيمانهم الراسخ برب واحد هو أتون، وهو الإيمان الذى حاولوا فرضه ونشره بين الساشو والأجانب الآسيويين الذين طردوا من شرق دلتا مصر، والذين كانوا ينتمون إلى منطقة جبال سعير فى أرض إيدوم، وسبَّب ذلك ذعراً بين القبائل المتحالفة والمتآلفة فى أرض إيدوم، والذين كانوا يتمسكون بتعدد الآلهة والأشكال الوثنية من الدين. وربما تفسر قصة العجل الذهبى الذى صنعوه عند غياب موسى على الجبل بعد أن حطوا رحالهم تحت جبل سيناء الكراهية والعداوة تجاه المتحولين عن التعددية إلى الإيمان بإله واحد هو آتون.

إلا أن هناك شيئاً فريدًا حدث حين حل الإسرائيليون بمنطقة البتراء على سفح جبل يهوه، فقد اختلطت مبادئ الإيمان بآتون بمبادئ العبادة المحلية (التى تؤمن برب الجبل) التى يؤمن بها الساشو من أبناء المنطقة، وهم أسلاف الإدوميين، وكانت القبيلة الكبرى بين الساشو تعرف باسم «إسرائيل»، وكان ذلك هو السبب فى أنه : بدلاً من قيادة الإسرائيلين مباشرة إلى فلسطين، قادهم موسى إلى البتراء، أى قادش القديمة؛ ربما لأن كثيراً من الآسيويين العرب الذين صحبوه فى رحلة هروبهم بعد طردهم من مصر، كانوا من شعوب الساشو من أبناء أرض إيدوم. ولا ننسى أن موسى كان يعرف جبل يهوه على مدى الأربعين عاماً التى قضاها هارباً من مصر فى أرض ميديان، وربما نقل إليه تلك المعارف أبو زوجته يثرون الميديانى والذى تذكر التوراة أنه كان كاهن ميديان(٣٩)، وذلك يفسر كيفية ظهور تلك الديانه المختلطة إلى الوجود فى وقت ما بين ١٣٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.

كان الأمر كله تلاقح أفكار ومعتقدات بين شعوب تنتمى إلى ثقافات متباينه وأعراق مختلفة، وقد حدث ذلك الأمر وخلقت تلك الديانه الجديدة فى تخوم مدينة البتراء الصخرية القديمة، على سفوح جبل المدهبة، وعلى القمة العالية التى كانت أوضح وأنسب مكان لـ «يهوه فى أرض الساشو»،

وجبل هارون القريب من جبل المدهبة والمسمى فى التوراة جبل هور. ما الذى حدث بعد ذلك ؟ ما الذى حدث بعد أن ارتحل الجمع المطرود عن قادش القديمة وتقدموا باتجاه أرض ميراثهم ؟

لابد لنا فى هذا الموضع من الرجوع إلى ما تذكره التوراة عن غزو كنعان فى محاولة للتوصل إلى العلاقة بين أصول الجنس الإسرائيلى القديم وتأسيس الدولة اليهودية المعاصرة، إسرائيل.

٢٢ - غزو كنعان

طبقاً للتفاصيل المذكورة فى سفرى العدد ويشوع من التوراة، بدأت الحملة الإسرائيلية ضد شعوب كنعان ومنطقة عبر الأردن بعد موت هارون، وفى محاولة لجمع أجزاء الصورة الحقيقية لما حدث فى غزو كنعان بقيادة يشوع الذى اختاره موسى لخلافته، فإن علينا إسقاط أى اعتقاد فى الصحة التاريخية لتلك الأحداث مؤقتاً أو إلى حين.

قيل إن أول الخصوم فى الطريق إلى الأرض الموعودة كان جيش ملكى حرمه(١)، وأراد(٢)، وهما مملكتا مدن صغيرتان فى منطقة النقب فى شمال سيناء(٣)، وقيل عن تلك المرحلة إن موسى والإسرائيليين رحلوا على طريق ساحل البحر الأحمر (يام سوف)، بالرغم من أنها ليست البحيرات المرة المذكورة فى سفر الخروج للإلتفاف حول أرض إيدوم(٤).

وأقاموا خيامهم فى منطقة اسمها أوبوث قبل وصولهم إلى لاى آباريم التى كانت «فى البرية .. قبل موآب فى اتجاه مشرق الشمس»(٥) وكانت موآب مملكة - مدينة فى عبر الأردن وراء الحدود الشمالية لأرض إيدوم شرق البحر الميت، وبرغم ذكرها فى قصة غزو كنعان فإن المعتقد أنها لم يكن لها وجود حتى القرن العاشر قبل الميلاد(٦)، وقيل إن هضبة عبر الأردن كانت نادرة السكان قبل ذلك الوقت والتى تضع فى موضع التساؤل من أصحاب نظرية الحد الأدنى التوراتية (انظر ما يلى) لا مجرد وجود موآب، بل - أيضاً - وجود ممالك إيدوم وعمون(٧).

فى أرض موآب

المسار الذى اتخذه الإسرائيليون يظهر بوضوح أنهم غادروا قادش، مدينة البتراء الحالية على حدود إيدوم، واتجهوا جنوباً عبر جبل حور متجهين إلى إيليم، وهى مدينة إيلات المعاصرة على خليج العقبة وهو ما أطلق عليه سفر العدد البحر الأحمر(٨)، ومن الواضح أنهم اتجهوا من إيليم شمالاً عبر وادى عربة «باتجاه مشرق الشمس»(٩) على أن يكون المشرق عن يمينهم، وأخيراً وصلوا إلى الحافة الجنوبية للبحر الميت عند وادى الملح.

وهنا نستدعى إلى الذاكرة أن عمسيا ملك يهودا قام بذبح أبناء عسير من حاسيلا. وطبقاً لسفر العدد، قاد موسى الإسرائيليين على التخوم الحدودية للمناطق التى يسيطر عليها ملك موآب، مما يعنى أنهم داروا شرقاً حول الحافة الجنوبية للبحر الميت ثم توجهوا شمالاً على حافته الشرقية.

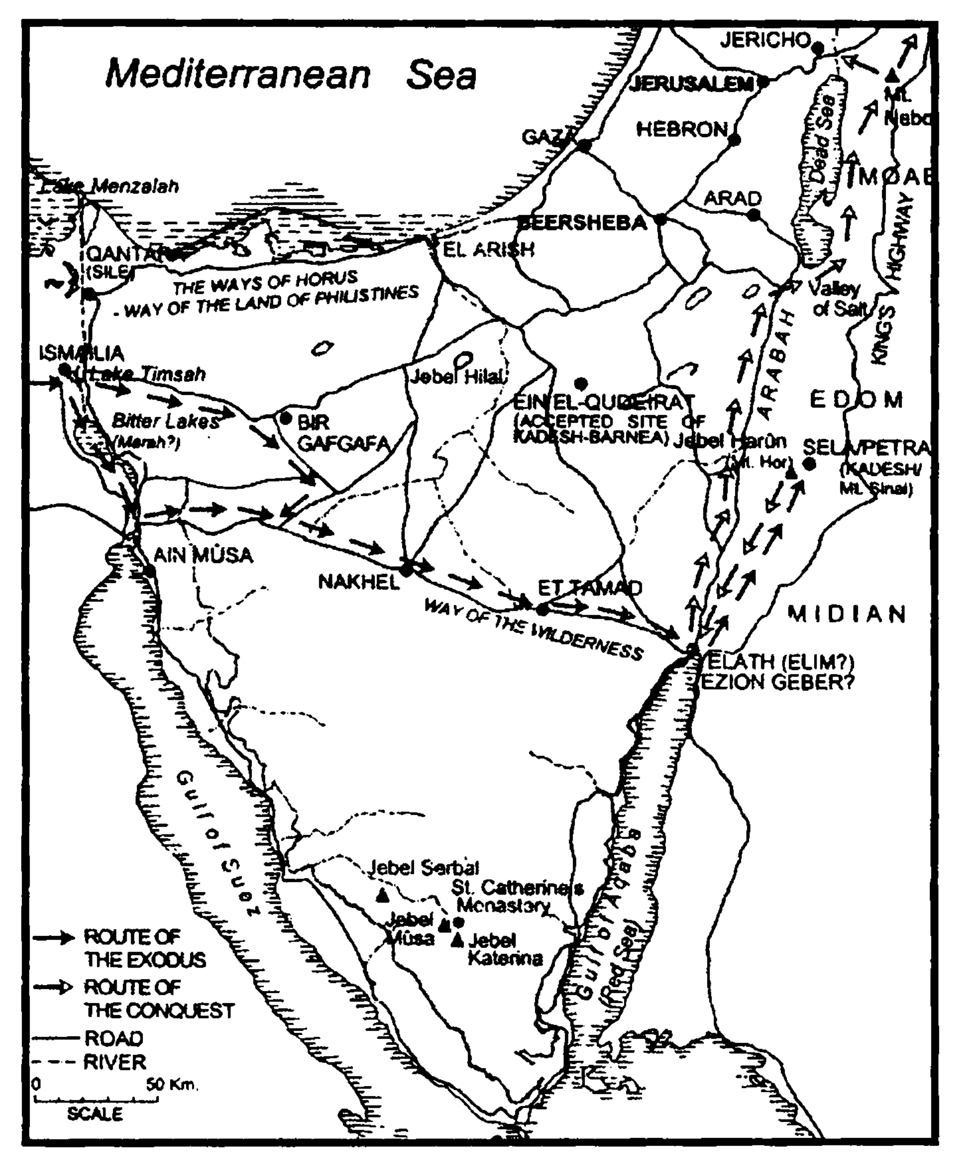
وخاف بعلك ملك الموآبين أن يدخل الإسرائيليون أرضه فشيد سبعة مذابح على قمة جبل الفسجة ضحى عليها بسبعة ثيران، وسبعة خراف كتقدمات مشوية، ودفع بلعام كاهن موآب ليلعن الإسرائيليين(١٠).

إلا أن بلعام بعد أن سمع صوت يهوه بدل ما انتواه، وبدلاً من أن يلعن الإسرائيليين، باركهم. ويلاحظ أن المقطع الأول من اسمى ملك موآب وكاهنهم، بعلك وبعلعام هو اسم رب الخصب والنماء الكنعانى الإله بعل، ويعنى اسمه حرفياً «السيد»، وكان الثور يرمز إليه، ويصور مثل رب العواصف حدد الذى يضع خوذة على رأسه يخرج منها قرنيه.

بالإضافة إلى ذلك، كان مثله مثل يهوه، وكاوش، ودهوشارا، وسين يرتبط بالجبال، بينما كان الثور الحى هو القربان الأمثل لإرضائه.

ونشأت علاقة بين منظومة الآلهة الرئيسية السامية التى كانت تعبد فى سوريا - فلسطين، وعبر الأردن وهى علاقة تفاعلية مؤكدة.

وبعد أن دخل الإسرائيليون أرض موآب شرق البحر الميت، وصلوا



خريطة تظهر المسارات المحتملة للخروج من مصر إلى قادش، مدينة البتراء حالياً، عبر خليج العقبة ومنها إلى جبل نبو

أخيرا إلى جبل الفسجة الذى قيل عنه إنه كان يشرف على الأرض الموعودة.

وبمجرد أن حطوا رحالهم وأقاموا خيامهم، يذكر سفر التثنيه : أن موسى صعد «جبل نبو، إلى قمة الفسجة التى مقابل أريحا»، وأراه يهوه من على قمة الفسجة الأرض الموعودة(١١) كان هارون قد مات قبل ذلك،

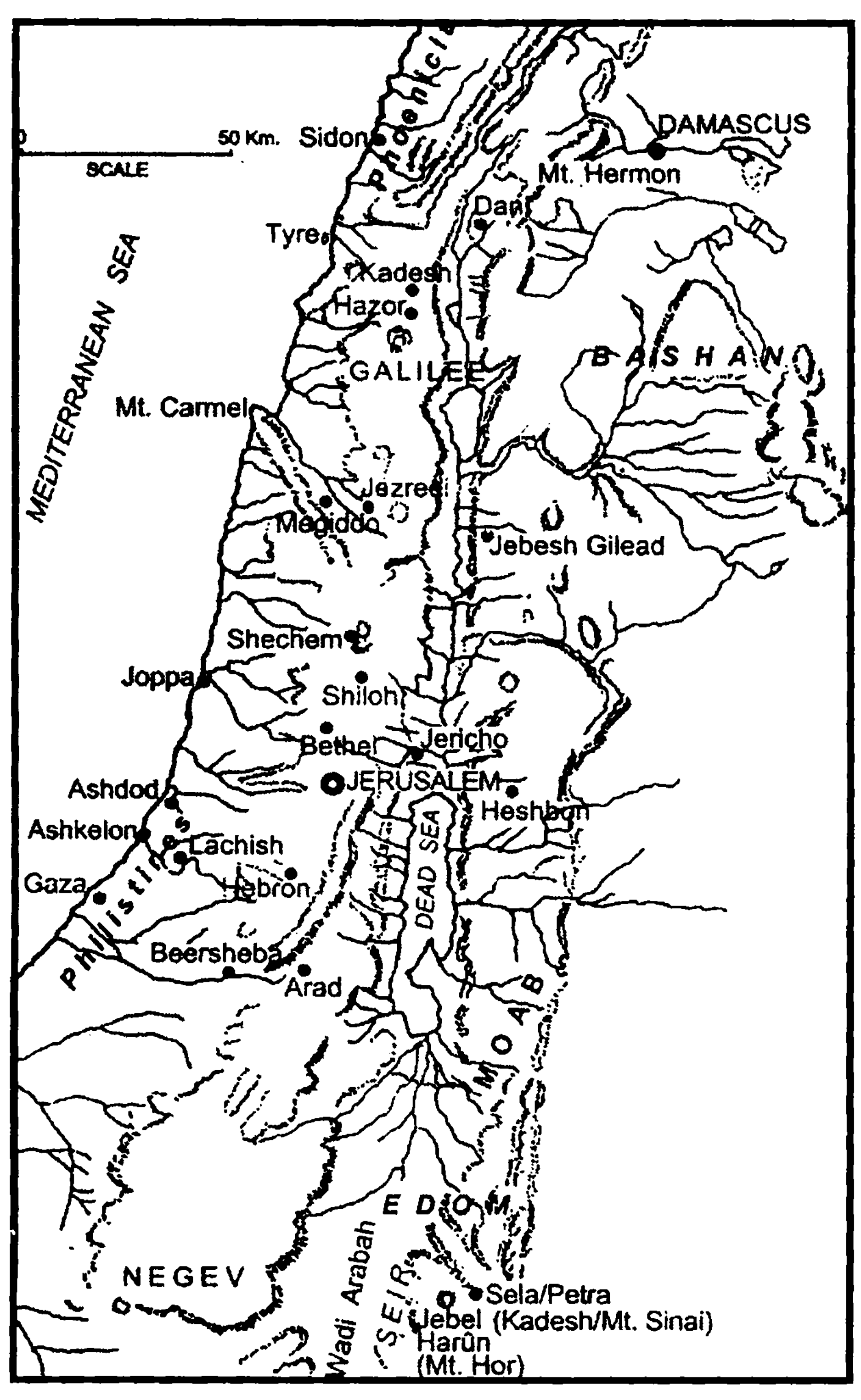
وجاء دور موسى، فمات من فوره فى موضعه(١٢) ودفن فى أرض موآب «مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره الى هذا اليوم»(١٣).

وبيت فغور اختيار غريب كمكان ملائم لدفن صاحب الشريعة الأكبر لبنى إسرائيل، فبيت فغور تعنى «بيت» أو «مقدس» فغور أو بعل فغور «رب الفاتحة». كان فغور من آلهة المؤابين ويعبدونه فى طقوس داعرة فاحشة حسية وممارسات شهوانيه (١٤)، حتى إن اسرائيل ذاته (يعقوب) أغرى لعبادته عن طريق إغوائه ببنات موآب، وللسبب ذاته، «شنقوا رؤساء القبائل في ضوء الشمس» حتى يحتووا غضب يهوه، وبسبب ذلك أيضاً حلت اللعنة على أبناء إسرائيل فماتت أعداد كبيرة صرعى الوباء مثلما حدث مع أبكار المصريين، ولكنه كان وباء العقل، واعتبروه نوعاً من الجنون والتخريف.

سقوط كنعان

وانقسم جيش الإسرائيليين إلى نصفين، اتجه نصف منه شمالاً إلى جلعاد(١٧) وباشان(١٨)، وهاجم الميديانيين الذين كونوا تحالفاً مع بعلك، ملك موآب(١٩)، وعبر نصف الجيش الثانى نهر الأردن، وتقدم فى المرتفعات الوسطى شمال أورشليم إلى جبعون، حيث قيل إن الشمس لبثت فى مكانها أكثر من يوم فى وسط السماء(٢٠) واتجهت فرقة منهم جنوباً إلى المرتفعات الجنوبية والأراضى الساحلية الواطئة(٢١)، واتجه الثانى شمالاً واستولى على المرتفعات الشمالية، وراح ملوك القبائل ينهزمون، وتسقط قراهم ومدنهم فى يد أبناء إسرائيل. ومن بين الأماكن التى قيل إنها قراهم ومدنهم فى يد أبناء إسرائيل. ومن بين الأماكن التى قيل إنها سقطت أرض ميديان (٢٢) وحشبون (٢٣)، وادرى (٢٤)، وأريحا(٢٥)، وعى(٢٦)، وأخيراً حاذور (٢٧)؛ لأنهم :

ضربوا كل نفس بحد السيف حرموهم ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها، وضربهم بحد



خريطة لإسرائيل تظهر المواقع الرئيسية للإسرائيليين بعد غزو كنعان، وبعد اتحاد العشائر.

السيف. حرمهم كما أمر موسى عبد الرب. غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها إسرائيل ماعدا حاصور وحدها أحرقها يشوع(٢٨).

وبلمحة سريعة نجد من الصعب قبول أو تبرير كل تلك الانتصارات السريعة التى نسبت إلى يشوع بأى مقياس تاريخى، على ضوء ما تذكره التوراة أن أبناء إسرائيل كانوا قبائل مرتحلة ظهروا بالكاد فى تلك المناطق بعد أربعين عاماً فى تيه البرية، وكانت حاصور مدينة كنعانية وحصناً حصيناً على الجبال، فى حين يعنى اسم لاخيش العبرى المدينة الحصينة أو المنيعة(٢٩) وقيل عنها هى الأخرى إنها سقطت فى يدى يشوع فى يومين(٣٠).

هل يمكن أن نصدق أن سكان كنعان قد هزموا وحل محلهم جنس آخر من ثقافة أخرى مغايرة تماماً، وانتماء عرقى مختلف ؟

وما الدليل الذى يثبت أن كل تلك الأحداث قد وقعت حقاً ؟

علم الآثار والتوراة

لم يكن الدارسون والباحثون فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين يتشككون - بأى قدر - فى أن جيش إسرائيل قام فعلاً بغزو كنعان، وبافتراضهم أن رمسيس الثانى كان فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، و/ أو، فرعون الخروج، نجد أن الترتيب الزمنى للأحداث كما تقدمه التوراة يضع حملة يشوع فى وقت ما بين ١٢٥٠ - ١٢٠٠ق.م، أى فى نهاية العصر البرونزى المتأخر. وفى محاولات إثبات مصداقية الأحداث المذكورة فى التوراة، توجه الآثارى الأمريكى ويليام فوكسويل أولبرايت الى فلسطين، وبدأ بحثه عن مخلفات العصر البرونزى المتأخر فى مرتفعات التلال التى كانت تشغلها القرى والمدن القديمة، التى ذكرت التوراة أن يشوع استولى عليها(٣١)، وخلال الأعوام من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٩م قام فيها بالتنقيب فى بعض تلك المرتفعات بما فيها من موقعى حاصور. ولا خيش، توصل إلى أن تلك الأماكن تم احتلالها خلال الفترة

الزمنية المذكورة، والأهم من ذلك أنها عانت من حرائق مدمرة في تلك الفترة. من الواضح أن تلك الحصون الكنعانيه كان يحكمها ملوك محليون وأمراء أدنى من مراتب الملوك، وقد دمرت مدنهم وحصونهم أثناء صراع عسكرى ما، وكان من الطبيعي أن ينظر إلى ذلك على أنه دليل على صدق أحداث الغزو التوراتي، هذا بالرغم من أن التوراة تذكر صراحة أن حاصور فقط هى التى أحرقت بالنار، أما باقى المدن فقد احتلت وذبح سكانها.

شعوب البحر

الا أن استنتاجات أولبرايت كانت استنتاجات متعجلة، فلقد أصبح من المعروف أن الإسرائيليين لم يغزوا تلك المدن، وأن من غزاها وأحرقها هم شعوب البحر(٣٢).

كانت شعوب البحر أجناساً كثيرة مختلطة، واتحاداً من قبائل متعددة يعتقد أنها تنتمى إلى بحر إيجه والأناضول، ويرى الباحثون أنهم الفلسطينيون الأوائل والأعداء التقليديون للإسرائيليين، والذين يقال عنهم إنهم احتلوا سهول كنعان الساحلية، وأسسوا قواعد فى أشدود وغزه وعسقلان، ومن تلك القواعد شنوا غارات متكررة على حدود مصر الشمالية، حتى قام ميرنبتاح بطردهم عام ١٢١٩ ق.م، ثم من بعده هزمهم رمسيس الثالث هزيمة قاسية، وطردهم من تخوم مصر عام ١١٧٠ ق.م، وعلى ذلك، إن لم يكن جيش إسرائيل قد أباد مدناً مثل حاصور ولا خيش، كيف للغزوات التوراتية لمدن كنعان أن تكتسب مصداقية تاريخية، وكيف يمكن إثبات صحتها ؟

والإجابة الصحيحة أنها لا مصداقية لها، بالرغم من لجوء الباحثين التوراتيين إلى طرح الافتراضات النظرية الجديدة لتفسير بعض جوانب القص التوراتى.

نظرية التسلل الودى المسالم

تقدم عالم الدراسات التوراتية الألمانى والأستاذ بجامعة ليبزج، ألبرخت آلت عام ١٩٢٠، وزميله مارتن نوت بنظرية مختلفة تماماً عن أصل الجنس الإسرائيلى(٣٣)، وافترضا أن غزو كنعان ليس إلا أسطورة ذات طابع دينى تم ابتداعها بعد الفتره المذكورة بمئات السنين، وقام آلت ونوت بفحص الأدلة المتوفرة وتوصلا إلى أن عمليات الاحتلال التى وقعت فى آخر العصر البرونزى فى مرتفعات أرض كنعان وقعت بعد أن هجرها سكانها، وأن من احتلوها بعد هجرها شعوب شبه قبلية أنشأوا مستوطنات مؤقته في وقت ما حوالى ١٢٠٠ ق.م.

فضلاً عن ذلك، يمكن تمييزهم عن السكان الكنعانيين الذين سبقوهم والذين كانوا يعيشون فى مستويات أكثر تحضراً، ويبدو ذلك من درجة جودة الآنية الفخارية التى استعملها كل منهم.

ويعتقد آلت ونوت أن أولئك القادمين الأجانب عاشوا مسالمين إلى جوار السكان الكنعانيين كمزارعين بسطاء ومربى حيوانات، ويزيلون بعض مناطق الغابات ليزرعوا المحاصيل، إلا أن أعداد القادمين الجدد راحت تزداد تدريجياً حتى أدت إلى نشوب نزاع على الأرض بين السكان الأصليين والقادمين الجدد، ودار النزاع حول حق استغلال الأرض ومصادر المياه، ووصلت تلك الصراعات فى بعض الأحيان إلى صدامات وحروب بين القادمين الإسرائيليين وشعوب كنعان، كما جاء فى سفر القضاة دون حدوث الغزو العنيف الذى ورد بسفرى العدد ويشوع.

وهكذا يقدم آلت ونوت نظريتهما عن «التسلل المسالم» بعد أن أصبحت النظرية تعرف باسميهما، وقدما الإسرائيليين فى تلك النظرية كرعاة تسللوا ببطء أو تسربوا إلى بلاد مستقرة قادمين من الصحراء، وبعد أن أمضوا فترة طويلة من عدم الاستقرار مع السكان الأصليين، قاموا بغزو وتدمير الولايات - المدن الكنعانية(٣٤). وهكذا، شكلت تلك الأحداث بداية الظهور التدريجى للجنس الإسرائيلى عند نهاية العصر البرونزى المتأخر

حتى اتحدت تلك القبائل تحت حكم داوود وسليمان، ولكن هل تختلف رؤية آلت ونوت جذرياً عماً قدمه آثاريون آخرون مشهورون قبل أولبرايت عام ١٩٢٠؟

نظرية ثورة الفلاحين

بعد انتقادات كثيرة لنظرية آلت ونوت عن التسلل المسالم وتكوين المستوطنات الإسرائيلية فى كنعان، نشر الباحث التوراتى چورج ماندنهال من جامعة ميتشجان عام ١٩٦٢ كتاباً تضمن نظرية أطلق عليها اسم «ثورة المزارعين» يفسر من خلالها أصل شعب إسرائيل، وافترض فى نظريته أنهم كانوا رعاة شبه قبليين يعيشون خارج أطر أى أنظمة قائمة فى المدن فى الأراضى الساحلية الواطئة، ثم تمردوا على النظام الذى فرضه عليهم النظام الاقطاعى والسلطات المصرية المهيمنة عليهم، وبعد تمردهم رحلوا إلى المرتفعات الوسطى حيث أسسوا مجتمعات مستقلة تحكم نفسها ذاتياً، وفى تلك المنطقة تمكنوا من تطوير أنفسهم كعرق وجنس متفرد (٣٥)، وبتنظيم أنفسهم واتحادهم نجحوا فى «تحدى الولايات – المدن وهزيمتها فى آخر العصر البرونزى»(٣٦).

وهكذا، نجد أن رأيه : لم يكن هناك غزو لفلسطين بالمعنى المعروف، فى بدايه نظام الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل، ولم تكن هناك إزاحة جذرية للسكان الأصليين، كما لم تقع معارك إبادة كما تذكر التوراة، ولا طرد جماعى للسكان بل طرد وإزاحة للإدارة الملكية (عند الضرورة).

وباختصار، لم يكن هناك غزو حقيقى لفلسطين على الإطلاق، وأن ماحدث يمكن تصنيفه من وجهه نظر أى مؤرخ علمانى يعمل بعلم الاجتماع السياسى أنه تمرد فلاحين على شبكة السلطة المؤلفة من نظام (الولايات – المدن) الكنعانى(٣٧).

وبدت نظرية ماندنهال عن أصل القبائل الإسرائيلية وغزو كنعان التى دعمها وزاد من انتشارها البروفيسور نورمان ك. جوتوالد(٣٨) فى

سبعينيات القرن العشرين، كنظرية ثورية فى حينها.

بالإضافة إلى ذلك، فسرت النظرية بطريقة مثيرة للإعجاب غياب أى مخلفات آثارية تدعم المصداقية التاريخية لكل من الخروج، وأعوام التية الأربعين، ومما له دلالة خاصة فى تلك النظرية، ما استنتجه ماندنهال من أن المحرضين وقادة ذلك التمرد الذى قام به الفلاحون ضم «مجموعة من العمال العبيد الأسرى» الذين «نجحوا فى الفرار من أحوال لا تحتمل فى مصر»(٣٩).

وبتفكير متعمق من ماندنهال توصل إلى :

ودون وجود أى شعب آخر يمكنهم أن يلجأوا إليه لحمايتهم ودعمهم، أسسوا علاقة بالإله يهوه والذى لم يكن له أى ماض ولا ذكر إلا من خلال الوسائل التى يظهر بها الرب نفسه للبشر(٤٠).

وهكذا، وبكونهم كرسوا ولاءهم لـ «سيد كلى واحد»، وأصبحوا طبقة عامة واحدة، أضفى ذلك على مجتمعهم صفة التفرد فى ذلك الوقت، بينما ظل الآخرون «تحت وطأة هيمنه القوى الكبرى ولم يكن لهم دور فى خلق ذلك المجتمع»، وبدأوا يزيدون من حجم ذلك المجتمع بالانضمام إلى صفوفه(٤١)، وانتهى الأمر بانضمام كل المجموعات المنتمية إلى عشائر أو أنساق قبلية إلى ذلك المجتمع حديث التكوين والذى كان صلبه من المضطهدين فى مصر وتخلصوا من نير العبودية، وغلبت على ذلك المجتمع الصفات التى أضفتها عليه الأحداث التاريخية التى أدت إلى تكونه، وكان لها السبق والأولية على العادات التاريخية لكل الجماعات الخاصة التى انضمت إليهم بعد ذلك (٤٢).

وتضمن ما توصل إليه ماندنهال أن المجتمعات الإسرائيلية المبكرة بمن فيهم المنفيين المصريين الذين تغلبت تجربتهم عن عبوديتهم ونضالهم للتخلص منها فى وطنهم، ثم فرارهم لنيل حريتهم على تجارب الجماعات المحلية التى انضمت إليهم، وكانت أقوى من محتوى تجارب الجماعات الأخرى، ونتج عن قوة تجربة خروجهم أنها احتوت وابتلعت كل المعتقدات

المحلية الأخرى حتى توحدت فى مجتمع واحد تحت قيادة عامة واحدة أسست ذلك المجتمع الجديد، وأصبحت تلك القيادة نواة وبؤرة تطلعاتهم الدينية، بغض النظر عن الانتماءات العرقية والثقافية للعناصر الأخرى المكونة لذلك الاتحاد التجمعى. فمن كان أولئك المصريون المنفيون أو المطرودون ؟

باستنتاج بالغ الروعة، رأى ماندنهال أن أولئك المطرودين كانوا عبدة آتون، وتوصل إلى الاستنتاج ذاته أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل إسرائيل فرافكلنشتاين ونيل آشر سليبرمان، وصاغاها ببراعة فائقة فى عملهما الرائع «كشف التوراة» الصادر عام ٢٠٠١، وذكرا فيه :

تلك المجموعة (التى يفترض ماندنهال أنها اعتنقت أفكاراً دينية غير تلك الراسخة فى مصر) مثل أولئك الذين قاموا بانقلاب توحيدى دينى دعا إليه أخناتون فى القرن الرابع عشر قبل التأريخ الحالى. وكانت تلك الجماعة الجديدة النواة التى التف حولها الساكنون الجدد فى المرتفعات الوسطى وألفوا جماعة واحدة. وكانت نشأة إسرائيل المبكرة ثورة اجتماعية للمهمشين ضد سادتهم الاقطاعيين، وأمدتهم بالطاقة اللازمة لخلق نظرية دينية جديدة وفكر دينى جديد(٤٣).

لقد سادت نظرية ثورة الفلاحين عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وقدمت بديلاً نظرياً مقبولاً لغزو الإسرائيليين لكنعان إلا أن عقدى الثمانينيات والتسعينيات للقرن العشرين شهدا ظهور نظرية الحد الأدنى التى تفسر كيفية تخلق وظهور وتكون المجتمع الإسرائيلى الأول .وبالاستعانة بآخر وأحدث المكتشفات الآثارية، توصلت النظرية إلى أن الخروج التوراتى لم يحدث، وأن أرض كنعان لم تتعرض لأى غزو فى نهايات العصر البرونزى المتأخر.

ويرى أصحاب نظرية الحد الأدنى أن المجتمع الإسرائيلى المبكر تكوَّن تدريجياً بمعزل عن سكان كنعان المستقرين فى مرتفعاتها الجنوبية والوسطى عند بداية عصر يعرف بالعصر الحديدى الأول، أى من ١٢٠٠

إلى ٩٠٠ ق.م. ودلت المكتشفات الآثارية التى جمعت من ٢٥٠ موقعاً مختلفاً أن أسلاف داوود وسليمان كانوا رعاة رحل، ثم مالوا إلى الاستقرار فى أماكن ثابتة، مما أدى إلى ظهور مستوطنات ثابتة ومستديمة مارسوا فيها تربية الماشية والماعز والأغنام.

إضافة إلى ذلك، اكتشفت فى تلك المواقع المختلفة أشكالاً متباينة للمناجل، وبذور محاصيل تنتمى إلى الحقبة الزمنية نفسها، مما يثبت أن «أسلاف ما قبل التكوين»، وهو الاسم الذى أصبحوا يعرفون به، تحولوا إلى مزارعين يعملون فى إنتاج محاصيل حقلية مثل القمح والشعير.

أسلاف ما قبل التكوين

والسؤال الذى يطرح ذاته فى هذا الموضع هو، هل كانت تلك الجماعات فى بداية العصر الحديدى الذين عاشوا فى تلك المنطقة من الأرض هم الذين تذكر التوراة أنهم استقروا بها بعد غزوهم لكنعان، وأنهم هم - فعلاً - الإسرائيليون الأوائل ؟

للاسف، لم يعرف إلا القليل عن انتمائهم الثقافى والعرقى، والأمر كله مجرد تخمينات حتى من قبل الخبراء والعلماء. لقد أشار فرانكلنشتاين إلى عجل برونزى اكتشف فى مقام مقدس بقمة تل فى تلفيت فى منطقة المرتفعات، وينسب إلى أسلاف ما قبل التكوين(٤٤). وكما رأينا مما سبق، فإن العجل من الحيوانات التى ارتبطت بقوة لا بعبادة يهوه فقط، بل - أيضاً - برب القمر الإله سين والرب الكنعانى حدد أو بعل، واكتشفت لوحة جصية فى موقع مدينة مارى، وكانت المدينة للعموريين الساميين، وتقع على الحدود العراقية السورية على الضفة الغربية لنهر الفرات، تظهر بعل على هيئة ثور «يقف على قمة جبل»، مما يظهر الارتباط القوى بين الثور السماوى والجبال المقدسة(٤٥)، واستشهد فرانكلنشتاين وسيلبرمان «بتركيبات حجرية عجيبة» عثر عليها على تل عيبال فسرت على أنها «مذبح إسرائيلى مبكر»(٤٦). وسواء إن كان كذلك التفسير صحيحا

أم لا فهو مجرد تخمين لا يمكن تأكيده، خاصة أن المقامات المقدسة من هذا النوع كانت منتشرة فى جميع أرجاء فلسطين.

العنصر الوحيد الذى يمكن تمييزه فى مستوطنات العصر الحديدى المبكر فى المرتفعات الجنوبية والوسطى لفلسطين - كعنصر لافت للنظر ويدعو للتساؤل - هو غياب عظام الخنازير بين عظام الحيوانات الأخرى فى حفر نفايات العظام التى تعود إلى تلك المرحلة، بالرغم من وجود عظام الخنازير فى حفر نفايات العظام فى السهول الساحلية فى نفس المرحلة وهى المنطقة التى كان يقطنها الفلسطينيون، الأعداء التقليديون للإسرائيليين، وكذلك وجدت فى مناطق عبر الأردن، موطن القبائل «غير الإسرائيلية» مثل المؤابين والعمونيين(٤٧). وبطبيعة الحال تناول أصحاب نظرية الحد الأدنى تلك الظاهرة ليستنتجوا منها أن تحريم أكل الخنزير بين اليهود والمسلمين تأسس فى مجتمعات ذلك العصر الحديدى المبكر، وهى المجتمعات التى نسب إليها أنها مجتمعات أسلاف الإسرائيليين الاوائل(٤٨) . إلا أننا نعتقد أن غياب عظام الخنازير من تلك المناطق يرجع إلى توحد وانصهار العادات الدينية بين الآسيويين والمصريين الفارين من مصر، وكان المصريون يحرمون أكل الخنزير (إرجع إلى الملحق رقم ٢ - «تحريم الخنزير وعبادة ست»).

وطبقاً لفرنكلنشتاين وسيلبرمان، فإن أغلب ما أصبح تاريخاً مقدساً كما تقدمه الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وما يليها من أسفار العهد القديم لم يكتب لأول مرة إلا فى القرن السابع قبل الميلاد(٤٩) أثناء حكم الملك هوشع أو يوشع ملك يهودا.

لذلك فإن أى أساطير أو حكايات تتعلق بالأحداث التى يطلق عليها الآن «الخروج»، وغزو يشوع لكنعان لابد أن نوقن أنها تأثرت بعمق - إن لم تكن قد اختلقت على ضوء التوجهات السياسية لتلك المرحلة المحددة من التاريخ اليهودى - عند بداية تدوينها كتابة.

ذلك هو أصل الإسرائيليين، لم يكن هناك خروج جماعى من مصر تلاه

تيه لمدة أربعين عاماً فى البرية، ثم هجوم عسكرى على شعب كنعان فى فلسطين، ومثل تلك القصص لابد أن ترى - فقط - أنها محرضة للخيال الشعبى، وكان الهدف منها خلق هوية عرقية لشعوب يهودا. والأهم من ذلك من الممكن اكتشاف أن العهد الذى قطعه يهوه ليعقوب ليرث أبناؤه أرض فلسطين على أنه محاولة لإضفاء شرعية دينية لاحتلال أرض كنعان ابتدعها أولئك الذين اشتركوا فى التأليف الأول للعهد القديم.

تلك هى خلاصة آراء أصحاب نظرية الحد الأدنى، والتى تمثل أكثر المناهج اقتراباً من حقيقة الأصل العرقى والثقافى للإسرائيليين الأوائل.

إسرائيل الحقيقى

تدل البراهين التى قدمناها على أن السكان الأصليين لمنطقة سعير - إيدوم، وهم شعوب الساشو، أسلاف الإدوميين المذكورين فى التوراة، قد يكونون هم المفتاح الذى يفسر ويفصح عن تطور الجنس الإسرائيلى فى العصر البرونزى المتأخر. لقد كان الساشو أول من آمن بيهوه، وكان يهوه فى البداية رباً جبلياً له قدرات الثور والقمر، وتقدسه مجموعة قبائل متآلفة وكان سبب تآلفها مجموعة من المصريين المتميزين، والاحتمال الأقوى أنهم كانوا كهنة الإله الواحد آتون، ومن آمن بذلك الإله من المصريين والآسيويين.

واسم إسرائيل المذكور فى اللوحة الفرعونية التذكارية لتخليد انتصارات ميرينتاح، هو اسم العشيرة الكبرى من شعوب الساشو، وربما سميت بهذا الاسم على اسم الأب الأول الذى يحتمل أنه كان يعقوب، حفيد إبراهيم.

وإن ثبتت صحة ذلك، فإن الانتشار التدريجى للإسرائيليين فى المرتفعات الفلسطينية خلال تلك المرحلة تحديداً من الممكن أن يكون صدى لذكريات هجرة قبائل الساشو إلى تلك المناطق، والذى سجلته نصوص ونقوش الأسرة التاسعة عشرة المصرية، أى : فى الفترة من ١٣٠٨ إلى

١١٩٤ ق.م . ويؤكد الباحثون من أصحاب نظرية الحد الأدنى أنه لا يوجد أى دليل تاريخى يثبت حدوث الخروج ولا غزو كنعان. إلا أن إعادة البحث فيما ذكر عن الخروج فى المصادر الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية يظهر عكس ما تذكره التوراة، وتقدم تلك المصادر قصة مختلفة ومغايرة كلياً، وتفترض أن عدد من شملهم الخروج يقل كثيراً عن عدد الـ ٦٠٠٠٠٠ الذى يذكره سفر الخروج(٥٠)، وتؤكد تلك المصادر التاريخية أنه تضمن آلافاً قليلة إن لم يكن بضعة مئات، وكانوا خليطاً من المصريين والآسيويين، ويفسر ذلك عدم عثور الآثاريين على أى دليل لسنوات التية، ويتمثل السبب الثانى فى أن الباحثين بذلوا جهوداً خارقة فى البحث فى المواقع التى تذكرها التوراة والأعراف اليهودية الشائعة مثل : الجبل الذى يفترض أنه جبل موسى، ومثل : عين القديرات وهى المكان الذى يعتقد الآثاريون أنه موضع قادش القديمة فى النقب، وأظهر فشل تلك الأبحاث فى العثور على أى دليل أن الارتكان إلى الفولكلور والقصص الشعبى كقاعدة انطلاق من الممكن أن يكون مضللاً إلى أبعد حد.

وفى سعينا لاستجلاء الحقائق، فإن ما تذكره التوراة عن تيه الإسرائيليين يقودنا بشكل مباشر إلى مدينة البتراء عن طريق إيليم (إيلات الحالية) على خليج العقبة.

فضلاً عن ذلك، تبدو مسيرة الإسرائيليين من قادش ثم اجتيازهم سلسلة جبال سعير، ووصولهم إلى مشارف طريق الملوك فى إيدوم، ومرورهم عبر وادى عربة للوصول إلى البحر الميت وأرض المؤابيين، تبدو تلك المسيرة، منطقية من الناحية الجغرافية، فإن لم يكن هناك خروج قد حدث ولا فترة تيه فى البرية مهما كانت مدتها، لماذا ابتدعت تلك الصورة التفصيلية عن تيه الإسرائيليين ؟

نحن لا نفترض أن القصة التوراتية صحيحة فى جوهرها، ومن الواضح أنها ليست كذلك، ولكن، هناك كل الأسباب التى تدعو لافتراض أن هناك أساساً تاريخياً ارتكز عليه ذلك البناء القصصى الذى استخدم

لشرح وتفسير أصل الجنس الإسرائيلى. حتى وقت قريب، كان الباحثون يفترضون وجود علاقة خاصة للإسرائيليين بالرب أمدتهم بنظرة فريدة للحياة. وأدى ذلك بدوره إلى مفاهيم خاطئة ومغلوطة فى التعرف على الوجود الإسرائيلى القديم من خلال البحث عن آثارهم فى فلسطين.

وفى رأينا، فإن الأجدى البحث عن دليل على انتشار أقوام شبه رعاة فى منطقة سلاسل جبال سعير. والدليل بالفعل موجود، فمواقع أسلاف الإسرائيلين أو من كانوا قبلهم والتى توصل إليها أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل فرانكنشتاين وسيلبرمان تنتمى إلى شعب رعوى تحول بعد ذلك إلى نمط الحياة المستقرة، وذلك واضح من شكل بقايا مستوطناتهم ذات الشكل البيضاوى التى يترك وسطها خالياً؛ لتتحرك فيه حيوانات الرعى، بينما تحيط بالمساحة الداخلية خيام الإقامة(٥١).

وحيث إن الساشو كانوا هم الشعوب الرعوية الرئيسية التى كانت تحيا فى منطقة إيدوم ومساحات من فلسطين وسيناء، فإنهم بكل تأكيد هم أسلاف سكان المستوطنات التى تعود إلى آخر مراحل العصر الحديدى فى المناطق التى ينسبها الباحثون المعاصرون إلى أسلاف الإسرائيليين. ولا ننسى أن الساشو لم يكونوا رعاة جائلين ولا عصابات تنتقل بين مغازات الصحراء ودروبها لنصب الكمائن، كثير منهم أستقر بصفة مؤقتة، بل شيدوا مدناً فى أرض الساشو؛ لذلك يبدو استقرارهم التدريجى منطقياً.

أرض ميراثهم

من الواضح تماماً أنه لا يوجد أى دليل على غزو كنعان بعكس ما يذكر سفرى العدد ويشوع، ويرى أصحاب نظرية الحد الأدنى أن تلك القصص مستمدة من ذكريات معارك خاضها الساشو لتدبير مفهوم الحق المقدس فى فلسطين.

فضلاً عن ذلك، لا يوجد أدنى شك أنه فى عصور متأخرة تم إغفال

وتهميش الدور المتميز الذى قام به الاتحاد القبائلى الآسيوى والذى شمل الساشو فى تأسيس إسرائيل وديانة يهوه.

وهكذا، تم حذف حقيقة وجود جبل يهوه فى منطقة البتراء، والتعتيم عليها فى الذاكرة الجماعية لليهود، خاصة بعد انقسام الدولة إلى يهودا وإسرائيل بعد موت سليمان حوالى ٩٧٦ ق.م. ويجب ألا ننسى أن العهد القديم يشكل التاريخ من منظور مملكة يهودا فقط وليس من منظور الأسباط العشرة، التى انفصلت واستقلت بدولة إسرائيل الشمالية، ثم نفى شعب إسرائيل بأجمعة إلى الإمبراطورية الآشورية عام ٧٢١ ق.م، ولم يعد بعدها - أبداً - لرواية الأحداث التى وقعت.

كانت أكبر الإنجازات الإسرائيلية (فى عصرى داوود وسليمان فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد) تأسيس مملكة إسرائيلية متحدة تحت قيادة واحدة، إلا أنهما غير مذكورين فى أى مصدر غير التوراة، ولا يوجد أى مصدر يتحدث عن آل داوود الذين انحدر منهم الملوك المتأخرون ليهودا وإسرائيل(٥٢).

وأقدم مصدر تاريخى يشير إلى سلالة داوود عثر عليه فى سطور نص تذكارى منقوش لتخليد انتصار ملك آرام - دمشق، وهو حزائيل على يهورام ملك إسرائيل، ويرجع تاريخ النقش إلى عام ٨٩٧ - ٨٨٣ ق.م، وهو مسجل على صخرة تذكارية عثر عليها عام ١٩٩٣م فى موقع مدينة دان التوراتية فى شمال فلسطين، وترجمة النص كما يلى :

قتلت آحاب ملك إسرائيل، وقتلت أحاذياهو بن يهورام ابن بيت آل داوود، وأحلت مدنهم إلى خرائب وأرضهم إلى قفار مهجورة(٥٣).

وبعد سقوط المملكة الشمالية - إسرائيل - فى يد الآشوريين فى القرن الثامن قبل الميلاد، عمد يوشع ملك يهودا إلى إعادة تأسيس شكل دينى أكثر تشدداً من العناصر الفسيفسائية المكونة للدين كتوجه سلفى عن تصوراته لعصر داوود، ومن تلك الأصولية المتشددة ولدت اليهودية، وكما تشهد أسفار العهد القديم، ظلت تلك الأصولية المتشددة قائمة حتى

دمرت القدس والمعبد عام ٧٠ ميلادية على يدى تيتوس (٤٠ - ٨١م)، قائد الفيلق الرومانى الذى أصبح إمبراطوراً على روما بعد ذلك.

وسجل المؤرخ اليهودى چوزيفوس فلاڤيوس أن خلال الحرب الطويلة التى خاضها اليهود ضد روما، لم يزد من أسروا من اليهود على ٩٧٠٠٠ يهودى نقلوا إلى روما، بينما مات ١١٠٠٠٠٠ يهودى إما جوعاً أو سقطوا بالسيف(٥٤)، فضلاً عن ذلك، لم يكن سكان أورشليم فقط من تمت إبادتهم، بل اليهود فى جميع أرجاء يهودا، الذين توجهوا إلى أورشليم، المدينة المقدسة للاحتفال على مدى أسبوع بعيد الفصح.

بعد ذلك أصبح اليهود من نسل قبيلة يهودا بلا مأوى ولا مقدس قومى، وبذلك بدأ عصر الشتات الذى تفرقوا فيه بين أنحاء أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. وعلى مدى ١٨٠٠ عام ظل تقديس الأسلاف عاملاً جوهرياً فى المحافظة على عاداتهم المتفردة وعلى معتقداتهم الدينية، ونذروا أنفسهم للرجوع ذات يوم إلى أورشليم، وجاءت الفرصة وتحققت عام ١٩١٧، وبتأمل قمة الكفاح اليهودى الطويل للعودة إلى صهيون، الاسم القديم لأورشليم، يمكننا أن نفهم خطورة بردية الخروج التى استولى عليها كارتر وكارنرفون من مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢م.

الجزء الخامس

صهيـــون

٢٣ - العودة إلى صهيون

«تنظر حكومة جلالة ملك بريطانيا بعطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود بفلسطين، وستبذل حكومة جلالة الملك أقصى مساعيها، لتسهيل إقامة هذا الوطن، وتوضح حكومة جلالة الملك أنها لن تمس الحقوق المدنية ولا الدينية لغير اليهود فى فلسطين، ولا الحقوق والأوضاع السياسية التى يتمتع بها اليهود فى الدول الأخرى».

كان ذلك نص الوثيقة التاريخية الموجهة إلى البارون ليونيل والتر دى روتشيلد «أهم شخصية يهودية فى إنجلترا»(١)، ووقعها عن الحكومة البريطانية وزير خارجيتها آرثر چيمس لورد بلفور (١٨٤٨ - ١٩٣٠)، فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م.

كان وعد بلفور تتويجاً لمفاوضات فى غاية الحساسية بين اليهود البارزين المؤيدين لما سمى بالقضية الصهيونية وشخصيات هامة من رجال الدولة البريطانية.

كان هدفهم المشترك أن يحققوا عودة اليهود إلى أرضهم المقدسة حتى يتمكنوا بعد ١٨٠٠ عام قضوها فى الشتات من إعادة بناء دولتهم، فكيف، ولماذا أقدمت الحكومة البريطانية على إصدار ذلك الوعد فى قمة اشتعال الحرب العالمية الأولى؟ وقبل شهر واحد من سقوط القدس تحت هيمنة قائد قوات التحالف، الچنرال البريطانى إدموند اللنبى؛ ولهذا الأمر أهمية حيوية لفهم سبب توجه هوارد كارتر إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة فى ربيع عام ١٩٢٤، وتهديده بإفشاء محتويات وثيقة بردية عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون، تظهر «وقائع القصة الحقيقية لما أطلق عليه الخروج اليهودى من مصر».

ويجب أن نتذكر أن ذلك حدث فى الوقت الذى كان الترقب والتوتر فى مصر فى قمته بسبب قرار عصبة الأمم التصديق على فرض الحماية البريطانية على فلسطين، ووافق الأعضاء على مسئولية الحكومة البريطانية على تأسيس وطن قومى لليهود بفلسطين، ولما كان الانتماء المصرى عربياً، فقد أصبح المسئولون البريطانيون فى مصر وكأنهم على برميل من البارود قد ينفجر فى أى لحظة.

يوم القيامة

يعود الاهتمام البريطانى بالمسألة التى عرفت بعد ذلك، باسم المسألة الصهيونية إلى ما يزيد على ثلاثمائة عام مضت منذ بداية العصر التطهرى (البيوريتانى).

كان على كل مسيحى مخلص أن يعد نفسه لليوم الآخر حين تصعد أرواح الأخيار إلى مملكة الرب السماوية، وأن ذلك اليوم الآخر سيأتى حين ينزل المسيح للمرة الثانية، ليكمل رسالته على الأرض. تلك الرؤى التى يقدمها سفر الرؤيا أثرت فى المفاهيم والتعاليم المسيحية خاصة فى الكنائس الايفانجيلية فى القرن الثامن عشر مثل : الكنيسة المشيخية والميثودية. كانت تلك الكنائس ترى أن يوم القيامة قريب، وأنها فريضة على كل مسيحى أن يعد نفسه لذلك اليوم العظيم، مثل تلك الرؤى غذتها مواعظ مليئة بالتهديد بالنار، والجحيم، والكبريت المنصهر، وضعف البشر وخطاياهم، وكان لتلك المواعظ أثر كبير على من لهم طبيعة قابلة للتأثر.

واشترطت النصوص الدينية لتحقق يوم الدينونة، وتحقق عودة المسيح أن يتم قبلها عودة اليهود إلى صهيون، وهى رؤية تنبؤية وردت بإنجيل لوقا ٢١:٢٤، يقول نصها :

«ويقعون (اليهود) بفم السيف، ويسبون إلى جميع الأمم وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمنه الأمم». وتمضى النبوءة لتذكر أن علامات ذلك ستظهر على الشمس والقمر والنجوم، أما على الأرض :

«كرب أمم بحيرة(٢)، والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة؛ لأن قوات السماء تتزعزع، وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا فى سحابة بقوة ومجد كثير»(٣) .

ومع أن اليهود سقطوا فعلاً بفم السيف حين دمر الرومان القدس عام ٧٠ ميلادية، وتم اقتيادهم أسرى إلى كل الأمم وذاقوا العذاب على أيدي باقى الأمم فى شتاتهم، ثم أصبحت أورشليم «مدوسة من الأمم» على أيدى الرومان والعرب والصليبيين. إلا أن تحقق يوم الدينوية فى المفاهيم المسيحية الأصولية المتعصبة لن يحدث إلا حين «تكمل أزمنة الأمم»، ويعود اليهود إلى صهيون، حينها فقط «يبصرون ابن الإنسان آتيًا فى سحابة»، وهكذا يمكننا أن نتفهم لماذا عمل كثير من المتدينين المسيحيين من أبناء الطبقة الارستقراطية ومن السياسيين ورجال الأعمال فى القرن التاسع عشر على تحقيق عودة اليهود إلى فلسطين.

الجمعية اليهودية

غذت تلك الأفكار الأصولية جماعة مسيحية قوية أطلقت على نفسها جماعة لندن لنشر المسيحية بين اليهود، أو اختصارًا «الجمعية اليهودية»(٤)، كان هدفها الأساسى تحويل اليهود إلى المسيحية قبل إعادتهم إلى الأرض المقدسة، وكانوا لا يكنون احترامًا للمعتقدات اليهودية ولا طقوسها الشعائرية ويرون أنها فجة بالية.

واحتوت قائمة أعضاء الجمعية على أسماء شخصيات لامعة ورفيعة من زبدة المجتمع مثل : كبير أساقفه كانتربرى ويورك، وعدد كبير آخر من الأساقفة، ووصلت تلك الجمعية إلى أعلى قمة نفوذها حين رأسها انتونى آشلى كوبر، الإيرل السابع لشافتسبرى (١٨٠١ - ١٨٨٥م)، وكان مصلحًا كبيرًا من مصلحى العصر الڤيكتورى، ورجل دولة عظيم ومرموق، وتبنى قضايا إصلاحية كثيرة مثل : إلغاء الرق، وإصلاح أحوال عمالة الاطفال، وإصدار قوانين معالجة المختلين عقليًا والمساجين، ورأس

جمعيات عديدة منها الجمعية البريطانية للكتاب المقدس وجمعية مساعدة رعاة الكنائس، وكذلك، جمعية تحويل اليهود إلى المسيحية.

أما أعظم وأهم شواغله فقد كان رؤيه اليهود يعودون إلى صهيون، وهى قضية لم يغفل عنها لحظة واحدة طول حياته، ومن خلال صداقته الوطيدة برئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الحين سير بالمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٩م) تمكن من إقامة قنصلية بريطانيه فى القدس مهمتها حماية اليهود القادمين للاستيطان فى الأرض المقدسة مهما كانت جنسياتهم. وبالرغم من أن دوافع لورد شافتسبرى كانت دينية بحتة، إلا أنه لم يكن يتوانى عن إعلان تأييده إنشاء وطن لليهود برعاية بريطانية لباقى الوزراء المتعاطفين مع تلك القضية، أو كما ذكر الكاتب چون ميشيل :

أوضح لهم أن ذلك التوجه يحقق الاستقرار لمنطقة استراتيچية هامة على طريق التجارة بين أوروبا وآسيا، وإضافة إقليم جديد للإمبراطورية البريطانية ينتعش بمهارة اليهود وصناعاتهم، وكان بذلك يحقق هدفًا أعمق وهو تعميق الإحساس بين الإنجليز بعلاقتهم الخاصة باليهود وإسرائيل، وظلت الحكومات البريطانية المتعاقبة بعد شافتسبرى تعاون اليهود على استعادة وطنهم الأول (٥) .

وانتشرت إرساليات الجمعية فى جميع أرجاء العالم الذى يوجد به يهود لتحويلهم الى المسيحية، واستجاب بعض اليهود للإغراءات، وفى عام ١٨٤٢ تمكن لورد شافتسبرى من تعيين مايكل سولومون اليكساندر أسقفًا للكنيسة الإنجيلية فى القدس، وكان سولومون أستاذًا يهوديًا للغتين: العبرية والعربية.

كان اليهود يستجيبون لأغلب مراحل تحويلهم إلى المسيحية، ويحضرون قراءة الإنجيل، ويستمعون إلى مواعظ المبشرين بالمسيحية؛ ليحصلوا على امتيازات التعليم المجانى لأبنائهم، وفى اللحظة الحاسمة «يفرون ويهربون»(٦)، بالرغم من المخصصات المالية التى أعلنت لمن يتحولون إلى المسيحية، وهو ما كان يرفضه لورد شافتسبرى بشدة.

لم تحقق الجمعية نجاحًا يذكر فى تحويل اليهود إلى المسيحية واضمحلت أنشطة الجمعية، وطواها النسيان، إلا أن المؤكد أن استحواذ الرؤى المسيحية عن يوم الدينونة وشروط تحققه من عصر التطهر حتى نهاية العصر الڤيكتورى كان له التأثير الغالب على سياسات الحكومات البريطانية المتتابعة وتوجهاتها ومنها إعادة اليهود إلى أرضهم المقدسة.

أرض إسرائيل

خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تدفق آلاف اليهود - خاصة يهود روسيا الفقراء والمهمشين - على فلسطين للاستقرار النهائى بها، وكانوا يؤمنون أنها أرض إسرائيل، أرض أسلافهم، وراحوا يزدادون كل عام أكثر من سابقة، قليل منهم من كانوا يعتبرون أن عودتهم، من قبيل تحقق الرؤى المسيحانية، أما الأغلبية، فقد كانوا مجبرين على الرحيل عن الدول التى كانوا يعيشون بها، فقرروا الانتقال الى أرض الأجداد ما دامت الفرصة متاحة.

وبدأت الصهيونية العالمية فى الظهور عام ١٨٩٦.م بعد نشر كتاب هام باسم «الدولة اليهودية»(٧)، كتبه تيودور (بنيامين زائيف) هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) وكان صحافيًا وكاتبًا مسرحيًا من بودابست، ومؤسس التنظيم الصهيونى العالمى. حدد ذلك الكتاب أهداف اليهود، وطبيعة معاداة السامية، ورؤيته حول إقامة دولة يهودية فى المستقبل، وراح يحث أغنياء اليهود على التبرع بالمال لسلطان تركيا؛ ليسمح لفقراء اليهود بالإقامة فى فلسطين، وألهم ذلك الكتاب جيلاً بأكمله، خاصة يهود روسيا الذين كانوا يعيشون فى ظروف قاسية هم ويهود شرق أوروبا. ولا يوجد شك فى أن كتاب هرتزل كان له الأثر الأكبر فى بث الأهداف الصهيونية بين يهود العالم الذين كان كثير من أغنيائهم يحجمون قبل ذلك عن دعم تلك القضية.

إلا أن المستوطنين اليهود فى فلسطين كانوا يناضلون من أجل البقاء

أحياء، كانت المستوطنات التى تبنت نظام العمل الزراعى الجماعى على حافة الانهيار من نقص التمويل، وتدنت وسائل الإعاشة مما هدد برامج التوسع بالانهيار هى الأخرى، ونوقشت تلك المصاعب فى أول مؤتمر صهيونى عالمى عام ١٨٩٧م عقد فى بازل بسويسرا، وفى ذلك المؤتمر، قرر البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٤م)، وكان عميد آل روتشيلد بفرنسا أن يتبنى تلك المستوطنات، وأسس مع شخصيات يهودية بارزة من أصحاب البنوك «صندوق المستعمرات اليهودية» كنواة لأول بنك صهيونى للتمويل، وعن طريق ذلك البنك بدأ فى شراء مساحات واسعة من أرض فلسطين، وتسليمها للمستوطنين الجدد الذين يفدون إلى أرض الميعاد.

ومع ذلك، وبحلول القرن العشرين، لم يكن الإقليم الجغرافى لإقامة وطن قومى لليهود عليه قد تم الاستقرار والاتفاق عليه بشكل نهائى، ففى عام ١٩٠٢ عرض وزير المستعمرات البريطانى نيڤيل شمبرلين على يهود بريطانيا إقامه وطن لهم فى أوغندا، ثم عرض عليهم بعدها جزءاً من شرق أفريقيا الخاضع للهيمنة البريطانية. ونوقشت تلك الخيارات فى المؤتمر الصهيونى العالمى السادس ورفضت جميعها. أصر الصهاينه فى ذلك المؤتمر على أن وطنهم فى صهيون فلسطين، خاصة القدس؛ حيث أسس الملك داوود عرشاً لمملكة إسرائيل، والتى شيد فيها ابنه سليمان الهيكل الأول من ثلاثة آلاف عام، واستندوا إلى القول المأثور المستمد من المزمور ١٣٧ من مزامير داوود :

«إن نسيتك يا أورشليم تنسانى يمينى» (٨)، وإنهم لن يقبلوا أى بديل عن العودة الى ميراثهم الشرعى فى فلسطين، فمن فلسطين تشتت أجدادهم فى أرجاء المعمورة بعد تدمير أورشليم وتدمير الهيكل الثانى على أيدى الرومان عام ٧٠ م.

الاجتماع الأول

ومع تأثر رئيس الوزراء البريطانى لورد بلفور بالرفض الصهيونى لأوغندا كوطن بديل، قرر أن يعرف المزيد عن تطلعات اليهود وآمالهم، وبالرغم من أنه لم تكن تربطه أى صلات رسمية بالمجتمع اليهودى فى بريطانيا، إلا أن تشارلز دريفوس رئيس فرع حزب المحافظين لمانشستر وكان - أيضًا - رئيسًا للجمعية الصهيونية بها أوصاه بمناقشة تلك الأمور مع حاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢)، وكان من كبار صهاينة روسيا، واستقر بوظيفة أستاذ الكيمياء العضوية بجامعة مانشستر، وعقدا أول لقاء لهما عام ١٩٠٦ بعد سقوط حكومة بلفور، وأصبحا بعد ذلك اللقاء أهم شخصيتين محوريتين فى مشروع تأسيس وطن قومى لليهود بفلسطين. فى اللقاء الأول راح وايزمان يحكى بلغة إنجليزية ركيكة لبلفور رجل الدولة البريطانى عن الأحوال المرعبة والمفزعة التى يعانى منها يهود روسيا على أيدى القوات القيصرية الروسية، ومما دفع قادة يهود روسيا إلى التطلع لاستعادة وطنهم القديم، وعبر عن قناعته التامة بأن كل اليهود سيرجعون فى يوم ما إلى فلسطين، وأنهم يرفضون أى وطن آخر بديل.

واستمر وايزمان فى التعبير عن عمق قضيتهم لبلفور بأوضح ما يمكنه، وسأله «هل لو عرضت عليك باريس يا مستر بلفور بديلاً للندن، تقبل ذلك ؟ هل تقبل باريس بديلاً بلندن ؟ «وفى دهشته البالغة وعدم قدرته على إدراك ما يرمى إليه وايزمان رد بلفور قائلاً: «ولكن لندن مدينتنا»، ولم يتوان وايزمان عن انتهاز الفرصة فرد قائلاً: «والقدس كانت مدينتنا حين كانت لندن مازالت أرض مستنقعات»(٩).

وبهذه الإجابة أصبح لورد بلفور مقتنعًا بالقضية الصهيونية، وبالرغم من أنه لم يلتق بوايزمان بعد ذلك إلا عام ١٩١٦ م، إلا أن أثر اللقاء الأول ظل عالقًا بذهنه، وكان له أبلغ الأثر فى الأحداث التى تمخضت عن توقيع بيان بلفور، وإصدار ذلك الوعد الشهير.

المستوطنات اليهودية

اندهش وايزمان من حرارة وحميمية استقبال لورد بلفور له عام ١٩١٦، مع يقينه أن الحكومة البريطانيه لا يسعها عمل شيء؛ لأن فلسطين كانت تحت الهيمنة التركية من أربعة قرون سابقة، وبالرغم من ذلك لم تتوقف الهجرة التدريجية وإقامة المستوطنات، وكذلك التجمعات السكنية في القدس والخليل وطبريا وصفد ويافا وحيفا.

وبحلول عام ١٩٠٧، بلغ عدد المستوطنين اليهود ٨٠٠٠٠ مستوطن، زادوا إلى ١٠٠٠٠٠ مع بداية الحرب العالمية الاولى(١٠)، وكان وراء تلك الزيادة العمل الدؤوب للبارون إدموند دي روتشيلد الذى أخذ على عاتقه تمويل المستوطنات اليهودية بصفة دائمة، وفى مؤتمر عام ١٩١٤ ذكر روتشيلد وايزمان بالدور الخطير الذى يقوم به قائلاً : «بدونى لم تكن الحركة الصهيونية لتحقق أى شيء، وبدون الحركة الصهيونية كان عملى يموت»(١١).

وتعرف حاييم وايزمان فى العام الذى نشبت فيه الحرب العالمية الأولى بوساطة هربرت صامويل وهو من غلاة الصهاينة فى الحكومة البريطانية، على داڤيد لويد چورچ (١٨٦٣ - ١٩٤٥)، وكان مستشاراً لوزارة الخزانة البريطانية فى ذلك الوقت، واتسم اللقاء - أيضًا - بالحرارة والود، ولكن المسئول البريطانى أكد لوايزمان من جديد أنه ليس بوسع بريطانيا تقديم المزيد للتطلعات الصهيونية، فقد كانت تركيا حتى ذلك الوقت على الحياد. ولم يدم ذلك الحال إلا لشهر نوفمبر عام ١٩١٤، حين أعلن السلطان التركى الانضمام إلى الدول المركزية (ألمانيا والنمسا والمجر) فى حربها ضد الحلفاء وطبقاً لما ذكره وايزمان، كان تعاطف لويد چورچ مع إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين يسبق كثيراً تبوأه لمنصب رئيس وزراء بريطانيا فى شهر ديسمبر عام ١٩١٦، وهو ما أدى إلى عقد اجتماعات عديدة بينهما فى السنوات السابقة؛ لتحقيق ذلك الهدف(١٢).

خلفية مسيحية

كان انغماس رجال الدولة البريطانية البارزين فى القضية الصهيونية يدعو إلى التساؤل، إلا أن الإجابة تكمن فى عمق الإيمان الدينى لأولئك الرجال وإيمانهم الجوهرى بالصدق التاريخى والمسيحانى للتوراة، ويفسر ذلك سبب الاهتمام الشديد من كبار صانعى القرار ورجال الدولة البريطانية أمثال لويد چورچ ولورد بلفور، والضغط بكل ثقلهم خلال الحرب العالمية الأولى لتحقيق هذا الهدف. كان كلا الرجلين قد نشأ فى بيئة دينية متطرفة. وطبقاً لما ذكرته كاتبة سيرة لورد بلفور، ابنة اخته بلانش دوجدال، قالت : «يمتد اهتمام بلفور باليهود وتاريخهم الى مراحل مبكره من حياته، ويرجع فى الأغلب الى ما علمته له أمه عن العهد القديم»(١٣) فضلاً عن ذلك، تأثر فى طفولته بوجهة النظر التى تذكر أن «الديانة المسيحية، والحضارة البشرية تدين بالكثير لليهودية، التى لم تلق للأسف إلا الجحود»(١٤) ،وكانت تلك المعتقدات الدينية العميقة هى التى دفعت بلفور إلى دفع الحلم الصهيونى من مرحلة الحلم إلى مرحلة التحقق. وبكلمات حاييم وايزمان عن بلفور وأمثاله : «أصبحت عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين حقيقة وواقع، ولقد قدمنا لهم إرثا عظيمًا أظهروا له كل تبجيل واحترام»(١٥).

أزمة الأسيتون

بحلول نهاية عام ١٩١٥، أصبح من الواضح أن آله الحرب العسكرية للحلفاء فى أوروبا والبحر المتوسط تحتاج إلى زخم وقوة دفع جديدة.

وأكد ذلك بجلاء مصرع ٢٥٠٠٠٠ من جنود الحلفاء على سواحل تركيا وهم يحاولون الاستيلاء على مدينة القسطنطينية فى صيف عام ١٩١٥. كانت آلة الحرب فى أوروبا قد استنفذت قواها، وانهكت، وأوشكت على التوقف الإجبارى، وكان الاحتياج البريطانى لمادة الأسيتون، (وهى المادة الضرورية المذيبة، والتى تستخدم فى صنع المتفجرات وقذائف المدافع

والذخائر) قد أصبح احتياجًا ماسًا وحرجًا، وكانت الوسائل التقليدية المتبعة فى إنتاجه بطيئة، وتنتج كميات أقل مما هو مطلوب، واحتاجت الأدميرالية البريطانية إلى وسائل غير تقليدية تتيح إنتاج كميات كبيرة فى أسرع وقت من تلك المادة وإلا فالنتائج ستكون وخيمة، وحين تتوقف مدافع الأساطيل البريطانية عن العمل وهو ما سبب خوفًا طاغيًا، ولم يجرؤ مسئول بريطانى على تخيل ما سيترتب على ذلك.

وكان لويد چورچ وزيراً للذخائر وتموين الجيوش فى مايو ١٩١٥ (واستمر بالوزارة حتى عين وزيراً للحربية بعد موت لورد كتشنر فى يونيو ١٩١٦)، واستدعى لويد چورچ حاييم وايزمان بصفته عالم فى مجال الكيمياء الحيوية، ولما أدرك وايزمان حجم الكارثة، أعلن أنه يستطيع أن يجد لها حلاً، وصمم وايزمان وسائل جديدة لإنتاج الأسيتون بكميات تكفى لإنتاج عشرات الآلاف من الأطنان من المتفجرات.

وأدى ذلك إلى خلق علاقة حميمة بين وايزيمان وأعضاء الأدميرالية البريطانية التى رأسها بعد ذلك ونستون ل. تشرشل (١٨٧٤ - ١٩٦٥)، مما زاد من دعم الحكومة البريطانية للقضية الصهيونية.

وبالفعل، بدا إعلان وعد بفلور بمثابة مكافأة لوايزمان على خدماته الجليلة خاصة بعد ما أصبح لويد ورچ رئيسًا للوزارة(١٦)، وكرد على ذلك الادعاء، قال وايزمان فى سيرته الذاتيه : «كنت أتمنى أن يكون الأمر على ذلك التبسيط، كما كنت آمل - أيضًا - ألا أمر بالمعاناه والأحزان التى تحطم القلوب، وألا أعانى من ذلك الكد والكدح فى أمور وضيعة ومكابدة انعدام اليقين والتأرجح بين اليأس والأمل الذى عانيته قبل صدور وعد بلفور»(١٧).

إلا أن الحقيقة، أن أزمة الأسيتون لعبت دورها فى توثيق العلاقة والارتباط بين حاييم وايزمان وكل من لويد چورچ ولورد بلفور وونستون تشرشل، وعملت تلك العلاقة عملها كغلالة من دخان الإخفاء والتمويه لإخفاء الأسباب الحقيقية لصياغة وعد بلفور وإعلانه، فهناك أدلة تظهر أن

مصلحة بريطانيا فى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ارتبطت ارتباطًا كاملًا وكليًا بالدور الذى لعبه اليهود الصهاينة فى دفع وإكراه الرئيس الأميركى وودرو ويلسون (١٨٥٦ - ١٩٢٤) على دخول الحرب فى صف الحلفاء.

الصلة الأميريكية

أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية الحرب العالمية الأولى أنها ستظل على الحياد. وفى ٧ مايو ١٩١٥ أغرق زورق حربى ألمانى سفينة ركاب أمريكية كانت فى طريقها من إنجلترا إلى نيويورك. كانت السفينة فى مرمى البصر من الساحل الأيرلندى حين أصابها الطوربيد الألمانى، وغرقت السفينة ولقى ١١٩٨ من ركابها مصرعهم وكان من بينهم ١٢٤ مواطنًا أمريكيًا، وأصدرت ألمانيا إعلانًا بأسفها على ذلك الحدث الذى أجج مشاعر كراهية ألمانيا لدى الشعب الأميركى، وبدت تلك الكراهية على صفحات الصحف الأميريكية، وبالرغم من ذلك أصر الرئيس الأميركى ويلسون على البقاء على الحياد.

وفى شهر مارس عام ١٩١٦ أصابت زوارق الطوربيد الألمانية سفينة ركاب فرنسية فلقى خمسون شخصًا مصرعهم وكان منهم عدد من المواطنين الأميريكيين، ولم يدفع ذلك الحادث الجديد الرئيس الأميركى إلا للتمسك بالحياد، مع إصداره تحذيراً للألمان بالتوقف عن مهاجمة سفن الركاب التى تحمل مواطنين أميريكيين، أو تتوقع الرد بالمثل، واستجاب الألمان للإنذار، وأعلنوا أنهم لن يهاجموا إلا سفن الحلفاء المدنية التى تستعمل فى نقل الذخائر.

وفى نوفمبر ١٩١٦ انتهت فترة رئاسة ويلسون الأولى ورشح اسمه لفترة حكم ثانية وخاض الحملة الانتخابية متبنيًا أهدافاً داخلية، ورفع شعار «لقد تجنبنا الحرب»؛ حتى يكسب أصوات المعارضين للحرب، وفاز بفارق ضئيل من الأصوات بفترة رئاسة ثانية.

وفى ١٨ ديسمبر أصدر إعلان سلام داعيًا الأمم المتحاربة لتوضيح مواقفهم كتمهيد لوقف كلى لإطلاق النار، ولم يكن لذلك الإعلان أى تأثير على المشهد العالمى ولا على مسارح العمليات العسكرية، وكان الألمان قد أعلنوا قبل ذلك بستة أيام عرضًا للسلام. وفى بداية عام ١٩١٧، ألقى ويلسون خطابًا اتسم بالتفاؤل عن العداء الأوربى الذى وصل إلى نهايته فى شكل «سلام بلا منتصر»(١٨) .

كانت المعنويات على الجبهة الفرنسية البلچيكية منخفضة للغاية، وكان إحراز نجاح فى الهيمنة على البحار والمحيطات مستعصيًا للغاية على الأطراف المتناحرة، وأيقنت بريطانيا أن دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى صفها سيمثل ضربة معنوية ساحقة للدول المركزية، كما سترفع من معنويات جيوش الحلفاء، وكانت المشكلة فى كيفية دفع الولايات المتحدة لإعلان الحرب على الدول المركزية خاصة مع موقف ويلسون المصرٍّ على التمسك بالحياد ؟

مبادرة چيمس مالكولم

فى ذلك الوقت - فقط - ظهرت شخصية لم تكن معروفة على المسرح السياسى البريطانى، وعرضت حلاً لتلك المشكلة، تلك الشخصية كانت چيمس إ. مالكولم خريج جامعة أوكسفورد وأرمينى روسى عيَّنه العاهل الأرمينى فى بدايات عام ١٩١٦ عضواً فى البعثة الدبلوماسية الأرمينية فى إنجلترا، ثم أصبح مستشاراً للشئون الشرقية لأرمينيا لدى بريطانيا، فأصبح على تواصل مستمر بأعضاء مجلس الحرب البريطانى، ووزارة الخارجية، والسفارة الفرنسية بلندن، وكان يؤمن بقوة بموقف الدول المتحالفة وأهدافها من الحرب؛ لأن أبناء جنسه من الأرمن كانوا يبادون إبادة منظمة على أيدى الأتراك، وآمن أن تلك الإبادة لن تتوقف إلا بهزيمة الدول المركزية، ومنها تركيا، هزيمة ساحقة.

وفى أواخر خريف عام ١٩١٦، التقى مالكولم بالكولونيل سير مارك

سايكس (١٨٨٠ - ١٩١٩) من وزارة الخارجية البريطانية، وأحد طرفى إتفاقية سايكس - بيكو، التى أعلنت فى مايو السابق بعد أن وقعها مع الطرف الثانى الفرنسى فرانسوا چورچ بيكو الدبلوماسى بالسفارة الفرنسية بلندن، ونصت تلك الإتفاقية على تقسيم المناطق التى كانت تسيطر عليها الإمبراطورية التركية العثمانية بين قوى الحلفاء بعد انتهاء الحرب، وبمقتضى ذلك الاتفاق تسيطر فرنسا على المشرق من جزيرة صقلية فى جنوب شرق آسيا الصغرى حتى بحيرة الجليل فى شمال فلسطين، بالإضافة إلى سوريا ولبنان، وتسيطر بريطانيا على بلاد ما بين النهرين (العراق)، وتهيمن اقتصاديًا على فلسطين مع سيطرة كاملة على منطقة حيفا - عكا الساحلية بشمال فلسطين. أما باقى فلسطين بما فيها المناطق المقدسة فى مدينة القدس القديمة فتخضع لإدارة دولية. أما روسيا فتفوز بأرمينيا وكردستان (وهى منطقة تجمع بين شرق تركيا وشمال سوريا وشمال غرب إيران).

ولم يستثن من التقسيم إلا مناطق محدودة من الجزيرة العربية تخضع لحكم ذاتى (ما عرف فى حينه بجنوب الجزيرة)

بعد شهور من ذلك الإتفاق أظهر سايكس يأسه من سير المعارك وقنوطه من مستقبل الحرب، ولم ير أى سبيل لحسم المعارك، بينما أظهر مالكولم تفاؤله بكسب الحرب، ورأى أن انضمام الولايات المتحدة للحرب سيقلب كل موازين الصرا ع الحربى، ووافقه سايكس على رأيه، إلا أنه أكد له أن مجلس الحرب البريطانى بذل كل جهد ممكن وبكل الوسائل لدفع الأميريكيين للمشاركة فى الحرب بلا أى طائل، ورد عليه مالكولم قائلاً : إن الحكومة البريطانية سلكت فى هذا الشأن المسار الخطأ، وأن المسار الصحيح هو اكتساب صف اليهود ذوى النفوذ والثقل فى المجتمع الأمريكى من أصحاب البنوك وبيوت التمويل، والذين كانوا يمولون الحلفاء ماليًا، وبثقة كبيرة نصحه قائلاً : «بإمكانك اكتساب تعاطف وتأييد السياسيين اليهود فى كل مكان وخاصة الولايات المتحدة بطريقة واحدة

فقط وهى تقديم فلسطين لهم»(١٩) .

وأوضح له سايكس أن أى تفاوض أو معاملات تخص فلسطين مستحيل فى إطار إتفاقية سايكس - بيكو، وأصر مالكولم على أنه بإمكان سايكس إيجاد الوسيلة للإلتفاف حول نصوص تلك الإتفاقية، وربما يمكنه تحقيق ذلك من خلال إعادة التفاوض مع چورچ بيكو فى السفارة الفرنسية.

ثم أضاف مالكولم نصيحة نهائية بأن أقصر طريق إلى الرئيس الأميركى ويلسون هو لويس د. برانديز زعيم صهاينة أمريكا الذى عين رئيساً للمحكمة العليا فى العام نفسه (٢٠)، وكان يشغل قبل ذلك منصب المستشار الأول للرئيس الأمريكى للشئون اليهودية، وكان من المعروف أن ويلسون يظهر تعاطفه مع القضية الصهيونية من عام ١٩١١ (٢١) وعدا ذلك، كان لبرانديز تأثيره الخاص على الرئيس ويلسون من خلال إلمامه ببعض خطايا ويلسون، وأمسك عليه بعض زلاته حين كان عمدة لمدينة برينستون، بل إنه ابتزه ببضعة رسائل كان ويلسون قد كتبها لزوجة أحد جيرانه يبثها فيها غرامه وولعه بها، ولم يكن ويلسون يملك ما يكفى من المال لدفع المبلغ الذى طلبه براندير ليغلق فمه عن تلك الزلات، وعرض صامويل انترماير من شركة جوجنهايم للمحاماة أن الشركة ستضمن ويلسون وتعيد له الخطابات مقابل أن يعين من يرويدونه للمحكمة العليا، ووافق الرئيس ويلسون، وكان من اختاروه رئيساً للمحكمة العليا هو لويس د. برانديز(٢٢).

اتفاق شرف

وهكذا، خاض مارك سايكس مفاوضات سرية مع حاييم وايزمان وشخصية قيادية صهيونية أخرى، هو صامويل لاندمان وهو صحافى لندنى، وكان قبل ذلك سكرتيراً للتنظيم الصهيونى بإنجلترا، ومحامياً له(٢٣)، وتمت تلك المفاوضات السرية بمنزل وايزمان بلندن بموافقة غير

مشروطة من سكرتير مجلس الحرب البريطانى سير موريس هانكى(٢٤). كانت الخطة التى اتفقوا عليها هى دفع أصحاب النفوذ من اليهود الصهاينة بأمريكا للضغط على الرئيس الأميركى وودورو ويلسون لدخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وبالمقابل يحصل اليهود على «اتفاق شرف»، ويمثلون حاييم وايزمان فى تحديد مستقبل فلسطين، وشمل الإتفاق عمل برنامج يتضمن تعيين إدارة بريطانية جديدة لفلسطين تتفهم تطلعات الحركة الصهيونية»(٢٥) .

وقدم البرنامج لوزارة الخارجية البريطانية لمناقشته وإقراره، ثم تقديمه لمجلس الوزراء لإقراره بشكل نهائى، إلا أن ذلك البرنامج لم يقدر له أن يناقش فى مجلس الوزراء؛ لأن رئيس وزراء بريطانيا هربرت اسكويت (١٨٥٢ - ١٩٢٨) لم يكن لديه أى تعاطف مع القضية الصهيونية، وكان ينظر إلى أى اتفاق بين سايكس ومكتب الشئون الخارجية وأعضاء المجلس الصهيونى على أنها إتفاقات خارج إطار العمل الرسمى، وكان ذلك لا يثير فقط غضب المتعاطفين مع القضية الصهيونية من أمثال لويد چورچ ولورد بلفور وونستون تشرشل ومارك سايكس، بل كان يثير غضب كل صهاينة إنجلترا، ولم يوضع إتفاق الشرف موضع التنفيذ إلا بعد الإطاحة بـ «اسكويت» من رئاسة وزارة بريطانيا.

الانقلاب

بحلول ديسمبر من عام ١٩١٦، ظهر عجز وزارة الحرب التى يرأسها اسكويت فى انتهاج سياسة اجتماعية اقتصادية داخلية تتلائم مع ظروف الحرب، بينما كان فى الوقت ذاته يفرض سياسته على رئيس الهيئة الامبريالية البريطانية، الجنرال سير ويليام روبرتسون (١٨٦٠ - ١٩٣٣)، وأدى ذلك إلى سقوط الوزارة، وبتنظيم جماعى متقن تم دفع اسكويت إلى تقديم استقالته، وتحالف المحافظون مع الأحرار فى ائتلاف وزارى رأسه لويد چورچ، بينما قبل لورد بلفور منصب وزير الخارجية، وعينوا وزراء من

بين رجال الأعمال البارزين بأمل إقناع الرأى العام والصحافة والإعلام بسياستهم التى تبنت شعار «الحرب حتى النهاية»، وبذلك لم يعد هناك أى عائق أمام الحكومة البريطانية الجديدة لتنفيذ الإتفاق مع اليهود الصهاينة بشأن فلسطين.

وفى اجتماع خاص مع اللجنة الصهيونية فى ٧ فبراير عام ١٩١٧، عدد سايكس المشاكل التى عليه اجتيازها حتى تتمكن بريطانيا نيابة عن الأمة اليهودية من السيطرة على فلسطين بعد انتهاء الحرب(٢٦)، وشملت تلك المشاكل الاعتراض العربى المتوقع، وادعاء فرنسا بحقها فى الهيمنة على شمال فلسطين وسوريا ولبنان، ولم يكن هناك حل لمشكله الاعتراض العربى إلا بالتأكيد على المحافظة على حقوق الفلسطينين العرب فى الأماكن التى يعيشون فيها. أما المشكلة الثانية فقد كان من الممكن التعامل معها فى حينها. كان چيمس روتشيلد حاضراً ذلك الاجتماع كما حضره - ايضاً - ناحوم سولوكوف وهم من قادة الصهيونية الدولية، وفى نهاية اللقاء وضعت القائمة التالية من الأهداف الصهيونية :

١ - الحصول على اعتراف دولى بحق اليهود فى فلسطين.

٢ - الاعتراف القانونى بالجنسية اليهودية فى فلسطين وحق المواطنة.

٣ - تكوين هيئة قانونية يهودية فى فلسطين لها حق إصدار تشريع ملكية الأراضى وشرائها وحيازتها.

٤ - إدارة واحدة لإدارة شئون فلسطين.

٥ - الإشراف الدولى على الأماكن المقدسة الخارجة عن إطار الأراضى التى يسيطر عليها اليهود.

ويذكر صامويل لاندمان أن «إتفاق الشرف» الذى تم الإتفاق عليه بين سايكس واللجنه الصهيونية كان بهدف ضمان الولاء الكامل لليهود الصهاينة فى كل من بريطانيا وأمريكا. وبمجرد التوصل إلى ذلك الإتفاق صدَّق عليه مجلس الحرب البريطانى ووزارة الخارجية، وتم إبلاغ القيادات الصهيونية العالمية ببنوده، وشجعهم ذلك كما يذكر لاندمان على :

«إبلاغ تلك الأخبار السعيدة لأصدقائهم من اليهود والهيئات العاملة بأمريكا والبلاد الأخرى، وإلى العمل على تغيير الرأى العام من خلال الصحافة الأمريكية فى تحبيذ والحث على مشاركة أميركا فى الحرب الدائرة، وراح ذلك الاتجاه يتعاظم ويتضاعف ويكتسب بسرعة مدهشة قوة دفع لم تكن متوقعة» (٢٨).

وأصبح قرار مشاركة أميركا فى الحرب فى يد وزير العدل براندیز والكولونيل إدوارد ماندیل هاوس أقرب مستشارى الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون إليه، وراحا يضغطان على الرئيس بعرض المزايا العظمى التى ستجنيها أمريكا من دخولها الحرب(٢٩)، وسجل لاندمان عن ذلك :

«نتيجة لإلحاح قادة الصهاينة، وبموافقة فرنسا، عدلت إتفاقية سايكس - بيكو، ليشمل الوطن القومى اليهودى المزمع إنشاؤه كل أرض فلسطين، وأن يكف الفرنسيون عن الادعاء بأى حق لهم فى شمال فلسطين» (٣٠).

وركز لاندمان على التأكيد بأن دعم بريطانيا وتأييدها للقضية الصهيونية مشروط بنجاح اليهود الصهاينة فى دفع الرئيس ويلسون إلى دخول الحرب.

أمريكا تدخل الحرب

وكما سجل التاريخ، قررت برلين معاودة الهجوم بزوارق الطوربيد البحرية على أى هدف بحرى فى يناير عام ١٩١٧، وكان ذلك دافعًا لأمريكا لقطع علاقتها بألمانيا فى ٤ فبراير، وظل الأمر كذلك حتى شهر مارس حين طلب الرئيس وودرو ويلسون من الكونجرس الموافقة على اعتماد مائة مليون دولار لتسليح السفن التجارية الأمريكية، وفى ٢ أبريل وافق مجلس الشيوخ على دخول الحرب بأغلبية ٨٢ صوتًا ضد ٦ أصوات معارضة، وبعد ذلك بيومين وافق مجلس النواب على دخول الحرب بأغلبية ٣٧٣ صوتاً مقابل خمسين معارضاً.

وهكذا، فى خلال ستة أشهر من مبادرة مالكولم واقتراحاته والتى

نصح فيها أن تضمن بريطانيا دعم قادة صهاينة أمريكا لدفع الرئيس الأمريكى لدخول الحرب مقابل وعد اليهود بإعطائهم فلسطين، دخلت أمريكا الحرب فعلاً وانضمت للحلفاء.

الآثار المترتبة على وعد بلفور

حين أصبح من الواضح فى مارس ١٩١٧ أن عصبة الأمم (السابقة على منظمة الأمم المتحدة) قد تصوت لصالح فرنسا لا لصالح بريطانيا فى إدارة فلسطين بعد الحرب، بدأت سلسلة محادثات عاجله بين وايزمان ولورد بلفور. وفى ٢٥ ابريل أبرق چيمس دى روتشيلد إلى برانديز فى الولايات المتحدة يبلغه أن لورد بلفور سيصل إلى الولايات المتحدة، وحثه أن يعمل على أن يدعم كل التجمع اليهودى بالولايات المتحدة قضية «فلسطين يهودية تحت الحمايه البريطانية»(٣٢)، وبعد انتهاء زيارة بلفور، أبرق برانديز إلى أحد أفراد عائلة روتشيلد من الفرع البريطانى قائلاً: «أجريت محادثات مرضية جداً مع لورد بلفور ومع رئيسنا، وهذا ليس للنشر»(٣٣).

وعلى مدى شهرين أو ثلاثة أشهر بعد ذلك، عكف أكبر المحامين اليهود الصهاينة فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة على صياغة المسودة الأولية لوعد بلفور، وكان البارون ليونيد والتر دى روتشيلد المتحدث الرسمى باسم المصالح اليهودية هو الذى قدمه بعد صياغته النهائية إلى الحكومة البريطانية فى ١٨ يوليو عام ١٩١٧(٣٤)، وبعد تعديلات طفيفة أصبح الإعلان جاهزاً لتوقيعه بعد أن يتأكد قادة الصهاينة من دعم الولايات المتحدة لبنود الإعلان، وحصلوا على ذلك الدعم فعلاً بمعاونة برانديز، وزير العدل الأميركى، وأعلنت الولايات المتحدة تأييدها فى ١٦ أكتوبر ١٩١٧ وتلى إعلان التأييد الكولونيل هاوس نيابة عن الرئيس الأمريكى، وحسم هذا الإعلان الأمريكى معارضة بعض أعضاء مجلس الحرب البريطانى لفكرة إقامة دولة يهودية قبل ضمان مستقبل

الفلسطينيين العرب أولاً(٣٥). وكان هناك عامل حاسم آخر يتعلق بإعلان بلفور فى ذلك الوقت، وهو اعتقاد بريطانى سائد بأن ألمانيا بمساعدة تركيا سيبادران قبلهم لدعم إقامة دولة يهودية بفلسطين، وهو ما دفع بريطانيا للتحرك السريع حتى لا يتوجه الولاء الصهيونى اليهودى إلى جهات أخرى معادية لبريطانيا والولايات المتحدة. وتم توقيع إعلان بلفور بوعده الشهير لليهود فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ مؤكداً لجميع دول العالم عزم بريطانيا على إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين.

الأهم من ذلك، أن بريطانيا رأت فى تلك الوثيقة أساساً لوصايتها المستقبلية على فلسطين والسيطرة عليها، وكان مازال أمامهم موافقة عصبة الأمم على ذلك الإعلان، إلا أن ذلك الأمر بدا هامشياً.

واحتفاءً بتوقيع الإعلان، أقيم احتفال كبير بدار أوبرا كوفنت جاردن فى ٢ ديسمبر، وتبارى المسؤولون البريطانيون وكبار الصهاينة فى عرض رؤاهم للدولة اليهودية المستقبلية وكأن الاحتفال كان بمثابة إشارة البدء، فبعد أسبوع واحد سقطت القدس فى أيدى القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال اللنبى، مما أشاع الارتياح العميق لدى كل قادة الصهاينة فى أرجاء العالم، وراحوا يتطلعون إلى حاييم وايزمان كقائد صهيونى أوحد بلا منازع، وإلى بريطانيا كحام رئيسى لهم.

وكانت مشاعر الوطنيين العرب على العكس من ذلك تماماً، فقد راح غضبهم يتزايد من توجهات الحكومة البريطانية، خاصة بعد ما ذاعت وانتشرت بنود إتفاقية سايكس - بيكو بعد عام من توقيعها.

كانت بريطانيا قد وعدت العرب إن أعانوها على الانتصار فى الحرب بدعمهم فى إقامة دولة عربية مستقلة عن تركيا تشمل فلسطين وعبر الأردن، وبعد إعلان وعد بلفور ظهر للعرب أن بريطانيا نكثت بوعودها لهم. ومن الواضح أن عرب فلسطين كانوا أشد غضباً لمجرد التفكير فى فقدهم لبلدهم، وكان الأمر مجرد وقت قبل أن ينفجر غضبهم المتراكم ويظهر فى شوارع مدن فلسطين .

٢٤ - سيف ديموقليس

حاول حاييم وايزمان أن يظهر صداقته ووده لعرب فلسطين، وسافر إلى عمان فى منطقة عبر الأردن لمقابلة فيصل بن حسين (١٨٥٥ – ١٩٣٣)، الأمير الهاشمى لمنطقة الحجاز، وقائد ثوار الجزيرة العربية ضد الحكم التركى العثمانى، وكان وايزمان قد التقى قبل ذلك بالمسئولين البريطانيين فى مصر وفلسطين، والتقى بالجنرال اللنبى قائد القوات البريطانية فى فلسطين، الذى شكل إدارة عسكرية لفلسطين أسماها «إدارة أراضى العدو المحتلة» (OETA)، وأبطلت تلك الإدارة العمل بالقانون العثمانى الذى كان سائدًا قبلها.

وحضر لقاء وايزمان وفيصل توماس إدوارد لوزانس (١٨٨٨ – ١٩٣٥)، الضابط البريطانى الذى كان مستشارًا للثورة العربية ضد تركيا فى أرض الجزيرة (١٩١٦ – ١٩١٨)(١) الذى اشتهر باسم «لورانس العرب»، وقيل عنه : إنه كان يؤازر إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين.

وحاول وايزمان أن يبدد أى مخاوف لدى فيصل من قيام دولة يهودية فى المستقبل، والتى كانت تشمل فى مخططها منطقة عبر الأردن.

وعلى مدى ساعتين، ومع احتساء أقداح الشاى التى قدمها الأمير فيصل إلى أكبر قائد صهيونى مؤثر، بدا أن فيصل متعاطف مع القضية الصهيونية، وصرح بشكل علنى أنه يتطلع بشغف لرؤية العرب واليهود يعملان معًا فى تناغم فى مؤتمر السلام الذى سيعقد بمجرد أن تضع الحرب أوزارها.

وطبقًا لما سجله وايزمان بعد ذلك عن ذلك اللقاء فإن فيصل اعتبر أن «مصير شعبين يرتبط بمنطقة الشرق الأوسط، ويتوقف على الإرادة

الحسنة للقوى العظمى»(٢). كان لقاء مشهود بين رجلين مرموقين فى عصرهما، اعتقد طرفاه اعتقاداً صادقًا أنه سيترتب عليه سلام دائم بين العرب واليهود، وثبت بعد ذلك أن اعتقادهما كان خاطئًا .

لقيت الثورة العربية ضد الاحتلال التركى فى منطقتى الشرق الأدنى والأوسط من عام ١٩١٦ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وكانت مكونة من تحالف قبائل الجزيرة تحت قيادة أبى فيصل، الحسين بن على أمير مكة (١٨٥٤ - ١٩٣١) وهو الشريف الأكبر للهاشميين، تأييد دول الحلفاء ودعمهم لتقويض الدولة العثمانية إلا أن الدول المتحالفة بدت فى ذلك الوقت وكأنها تتراجع عن وعودها بدعم إقامة دولة عربية مستقلة، والتى كان الإتفاق قد تم بشأنها فى وقت مبكر بين المندوب السامى البريطانى على مصر سير هنرى ما كما هون (١٨٦٢ - ١٩٤٩)، وبتصديق رسمى من مكتب الشئون الخارجية البريطانية تتعهد فيه بدعم بريطانيا للقضية العربية عند اندلاع ثورة الجزيرة ضد الدولة العثمانية التركية، وبدعم استقلال الجزيرة بمجرد أن تنتهى الحرب(٣) .

ولسوء الحظ، كانت الإتفاقية غامضة، وتجاهلتها الحكومة البريطانية على الأقل عند توقيعها إتفاقية سايكس - بيكو عام ١٩١٦، كما تجاهلتها مرة أخرى عند إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧.

وبالرغم من إدراك الحكومة البريطانية لحنثها بوعودها لوالد فيصل، إلا أن المصافحات وابتسامات الود سادت اللقاء حين وقع أمير الحجاز على موافقته على إقامه دولة يهودية فى المستقبل على أرض فلسطين. وكان من الواضح أن فيصل كان مازال يؤمن فى تلك المرحلة أن الجهود التى بذلوها فى دعم الحلفاء سيكافأون عليها فى مؤتمر السلام المتوقع عقده بعد انتهاء الحرب بما يرضيهم من نيل استقلال بلادهم.

مؤتمر السلام بباريس

وشهد شهر نوفمبر عام ١٩١٨ انهيار تحالف الدول المركزية بعد أربعة

أعـوام من الصـراع في وسط أوروبا والشـرق الأوسط، وقبـول ألمانيـا والنمسا والمجر إلقاء السلاح بلا قيد ولا شرط، واحتلت القوات البحرية للحلفاء مدينة اسطنبول، مما وصل بالسيطرة التركية على إمبراطوريتها السابقة إلى نهايتها، وانعكس انتصار الحلفاء على إعادة انتخاب الحكومة الائتلافية للمحافظين والأحرار بقيادة لويد چورچ في الشهر نفسه. وأخيراً، عقد مؤتمر السلام بباريس في ١٢ يناير عام ١٩١٩، وكان على رأس قضاياه المطروحة إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين، ومثَّل العالم العربي في المؤتمر فيصل بن الحسين الذي توجه إلى العاصمة الفرنسية يصحبه ت. إ. لورانس . كان ما يأمله فيصل التوصل إلى إتفاق بشأن القضية العربية في الشرقين الأدنى والأوسط، إلا أنه لم يدر بخلده أن النتائج ستأتي على عكس ما يشتهي، وحين انتهت جلسات المؤتمر في يناير ١٩٢٠، وجد فيصل أنه فشل في اكتساب دعم مندوبي المؤتمر. ومع ازدياد مخاوف فيصل أن تضع فرنسا يدها على فلسطين بعكس ما نصت عليه اتفاقية سايكس - بيكو عاد فيصل إلى عمان، وفي مارس أعلن نفسه ملكاً على سوريا وفلسطين إلا أنه كان إعلانا قصير العمر للغاية، فبعد الإعلان بثلاثة أشهر فقط تحركت القوات الفرنسية لتسحق نظامه الجديد.

وعلى ضوء التأييد المعلن والواضح من الحكومة البريطانيه للقضية الصهيونية، والطريقة التي تخلوا بها عن الشريف حسين، بدت توجهات الحكومة البريطانية مخجلة، وفي محاولة للتخفيف من الصورة المخزية عرضوا على فيصل عرش العراق وكانت في ذلك الوقت تحت الهيمنة البريطانية وقبل فيصل تلك المملكة بعد الإطاحة به عن عرش سوريا وفلسطين، وبدأ يحكم العراق من عام ١٩٢١ باسم الملك فيصل الأول ملك العراق، وفي عام ١٩٢٣ أصبحت منطقة عبر الأردن إمارة مستقلة توج ملكاً لها عبد الله بن الحسين شقيق فيصل، وظلت تحت الحماية البريطانية حتى عام ١٩٤٦، بعد أن عاونت الحلفاء في الحرب العالمية الثانية حتى الانتصار النهائي، وبعد رفع الحماية اتخذ عبد الله لنفسه لقب الملك عبد

الله ملك المملكة الأردنية الهاشمية.

مذبحة القدس

فى الوقت الذى كانت فيه شمس الأمل تسطع لبرهة، ماتلبث السحب السوداء الأشد وطأة وقسوة أن تتجمع فى أفق مدينة القدس، ففى مارس عام ١٩٢٠ انتشرت الأقوال بأن حالة الغليان المكبوت فى نفوس الفلسطينيين العرب قد وصلت الى أقصى مدى، وأنها تنذر بالانفجار الوشيك فى المدينة المقدسة، وكان مقدر لذلك الانفجار أن يقع فى عيد الفصح اليهودى والذى تصادف مع عيد الفصح المسيحى والاحتفال السنوى بالنبى موسى لدى العرب المسلمين ويزورون فيه المكان الذى اشتهر بأنه قبر النبى موسى على قمة جبل بالقرب من البحر الميت.

كان الغضب والسخط يزداد فى نفوس الفلسطينيين العرب مع زيادة قوة ونفوذ المستوطنين اليهود، والوجود السافر للقوات البريطانية فى شوارع القدس، فى الوقت الذى كانت تتزايد فيه الاحتكاكات اليومية بين فرنسا وبريطانيا بسبب الوجود الفرنسى على الحدود فى سوريا ولبنان، وكان غياب القانون يسبب تفجر المشاكل فى شمال فلسطين على الحدود مع سوريا ولبنان، وبدا أن ذلك كله سيزيد من غليان وتفجر المشاعر فى شوارع القدس وباقى أنحاء فلسطين خلال أيام معدودة.

وأدرك حاييم وايزمان أبعاد الموقف بكل وضوح، وفى محاولة منه لتخفيف التوتر المتصاعد لدى عرب فلسطين الذى يسببه اليهود، توجه لزيارة اللورد اللنبى الذى كان يقيم فى مقر كان فيما سبق بيت ضيافة ألمانى على جبل الزيتون. كان وايزمان قد أتى لفلسطين ليقضى عيد الفصح مع أمه التى تقيم بمدينة حيفا، وحين ناقش الأمر مع اللنبى قال له اللنبى : إنه لا يملك ما يفعله حيال ذلك، وأن القوات البريطانية لديها أوامر لقمع أى اضطرابات تقع فى شوارع القدس، وبعدما أدرك أنه يضيع وقته بلا جدوى مع اللنبى، غادر القدس القديمة إلى حيفا بإحساس مؤكد أن

مذبحة ستقع نتيجة للمظاهرات التى كان حدوثها محتمًا .

ومر عيد الفصح، ولم ترد أى أنباء إلى حيفا عما يحدث فى القدس، لم يكن هناك إلا الصمت الذى أقلق وايزمان بعمق، كان على يقين أن أحداثا مفزعة قد وقعت بالقدس، وعاد بعد انتهاء العيد إلى المدينة المقدسة، ولم ير إلا شوارع مهجورة خالية من البشر مما زاد من قلقه، وحين استفسر عن سبب ذلك، علم أن حظر التجول قد فرض على المدينة بعد إعلان العصيان المدنى من جانب الفلسطينيين، وعلم أن العرب كانوا قد تجمعوا بجامع عمر واستمعوا إلى خطب تحثهم على استعمال العنف والقوة، وأدى ذلك إلى اشتعال المظاهرات بشوارع القدس، ولما ازداد حماسهم راحوا يهاجمون كل من يصادفهم من اليهود، فخرجت جماعة من الحى اليهودى لحماية ذويهم وممتلكاتهم، وكان يقودهم الكابتن اليهودى جابوتنسكى وألقت القوات البريطانية القبض عليه، وفى المحاكمة العسكرية التى أقيمت له، حكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا من الأعمال الشاقة، وأطلق سراحه بعد استئنافه للحكم(٤).

ومع مصرع ستة من اليهود فى ذلك الصدام وجرح وإصابة كثيرين، طرحت أسئلة خطيرة بسبب ما أطلق عليه مذبحة القدس، وأولها كيف وقعت ؟ ومن الذى يلام، وما الذى سيحدث بعد ذلك ؟

لم تكن هناك إجابات واضحة أو سهلة، بالرغم من أنه كان من الواضح أن الجنود البريطانيين الذين كانوا فى الخدمة فى ذلك اليوم كانوا يحرضون العرب ضد اليهود(٥)، وبالفعل، وجهت التهم للمسئولين البريطانيين فى القدس أنهم أغمضوا عيونهم أثناء أعمال العنف التى وقعت، وهى حقيقة أثبتتها عدم رغبة الجنود البريطانيين فى «اتخاذ موقف واضح وإيجابى لصالح الصهاينة»(٦) .

وكانت أعمال العنف والتمرد فى فلسطين تحت الإدارة البريطانية بعد عامين ونصف من توقيع إعلان بلفور موضع اهتمام شديد من اليهود الموجودين بفلسطين، ومن الصهاينة المنتشرين فى أنحاء العالم، فكيف

اكتفى البريطانيون بالوقوف والمشاهدة وتركوا تلك الأحداث تقع تحت بصرهم ؟

اتفاقية سان ريمو

بعد أسابيع قليلة من مذبحة القدس، التقت وفود الحلفاء فى سان ريمو بشمال إيطاليا؛ ليقرروا مصير البلاد التى كانت تحت هيمنة الإمبراطورية العثمانية التركية. ولا يوجد أى جدال أن وعد بلفور لعب الدور الحيوى فى الخريطة الأولية التى أعدتها عصبة الأمم لتوزيع وصايا الدول المنتصرة فى الحرب، وروعى فيها دعم المملكة البريطانية لإقامة وطن قومى لليهود بديلاً عن دولة فلسطين على عكس بنود إتفاقية سايكس - بيكو التى تم التوقيع عليها عام ١٩١٦، وهكذا، قررت عصبة الأمم وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية مع تكوين إدارة مدنية لإدارة شئون البلاد، وتصبح بريطانيا المسئولة عن تحقيق إعلان بلفور من خلال التفاوض مع المنظمات والوكالات اليهودية ذات الصلة بهذا الأمر، وتشجيع وتنظيم توطين اليهود وإقامة المستوطنات لهم.

ومن يوليو ١٩٢٠ إلى مايو ١٩٤٨، خضعت فلسطين لحكم سبعة مندوبين ساميين بريطانيين، كان أولهم سير هربرت صامويل (١٨٧٠ - ١٩٦٣)، وهو بريطانى يهودى وصهيونى صميم، وهو الذى قدم وايزمان إلى لويد چورچ فى عام ١٩١٤ لأول مرة. وكان الأخطر من كل ذلك اعتراف سلطة الوصاية البريطانية بالصلة التاريخية للشعب اليهودى بأرض فلسطين وهو ماكان ضرورياً فى تلك المرحلة لإضفاء شرعية على إقامة وطن قومى لليهود بها، وساعد ذلك عل إزاحة المخاوف من نفوس الصهاينة من أن تؤثر الصدامات التى وقعت بالقدس وتؤدى إلى تغيير السياسة البريطانية حول مستقبل فلسطين. كان قرار الوصاية على فلسطين سيعاد طرحه على عصبة الأمم مرة أخرى بعد عامين تاليين، وحتى يحين ذلك الوقت كان من الممكن أن يؤدى أى تغير فى موقف

بريطانيا إلى استقلال فلسطين، وهو ما يمكن أن يترتب عليه أوخم العواقب على القضية الصهيونية.

إضراب يافا

حين استعدت المنظمة الصهيونية العالمية تحت قيادة حاييم وايزمان لتهجير آلاف اليهود الذين تقدموا بطلبات للاستيطان بفلسطين، حلت كارثة أخرى هددت المشروع الجديد، ففي مايو عام ١٩٢١، اندلعت في يافا اضطرابات وعصيان مدنى أسوأ وأوسع نطاقًا من ذلك الذى وقع بالقدس فى العام السابق، مما حدا بسير هربرت صامويل إلى وقف تلك الهجرات فى الحال، وبالرغم من أن ذلك الإجراء كان مؤقتًا، إلا أنه كان صادمًا لوايزمان وزملائه من قادة الصهيونية العالمية. كان وايزمان يعلم أن بعض العناصر بالإدارة البريطانية لا تؤيد تبنى بريطانيا إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين، ولم تكن اضطرابات يافا تتوافق مع ما يريده الصهاينه فى ذلك الوقت، وكانت تلوح فى الأفق مشاكل أكبر وأكثر تعقيداً.

وشهد صيف ذلك العام وصول وفد من عرب فلسطين إلى لندن لشرح معاناة شعبهم تحت وطأة الإدارة البريطانية بفلسطين المنحازة للصهاينة، وتزايد التهديد بإقامة وطن لليهود ببلدهم يبتلع وطنهم، ورأس الوفد الفلسطينى موسى كاظم باشا واجتمع أعضاء الوفد بأعضاء البرلمان الإنجليزى وبدأوا حمله إعلامية فى الصحف البريطانية، وراحوا ينشرون ما أطلق عليه وايزمان «قصص الإثارة»(٧). وبالرغم من أن الوفد الفلسطينى لم يؤثر تأثيرا ملحوظاً فى التوجهات البريطانية، إلا أنه أثار وحرك القوى المعادية للحركة الصهيونية الذين طالبوا بتقليص النفوذ والهيمنة البريطانية على دول ماوراء البحار، وذهب بعضهم الى القول: إن فلسطين أصبحت «على وشك التحول إلى مشكلة خطيرة، وإنها أصبحت البلد الذى ينخس فيه اليهود العرب المساكين بمهاميز حادة، ويعتصرون

دافعي الضرائب البريطانية، ليفعلوا ذلك بفلسطين»(٨).

مزيد من المشاكل

كان المندوب السامي البريطاني على فلسطين سير هربرت صامويل قد بدأ تحقيقًا خاصًا حول أسباب اضطرابات يافا، وأعلن نتائج ذلك التحقيق في نوفمبر ١٩٢١، وجاء فيها أن السكان العرب هم المسئولون عن تلك الاضطرابات التي قادوها في يافا، مع أنه من الثابت أن مصدر وسبب الاضطرابات الموقف البريطاني الداعم والموالي للصهاينة، إلا أنه أورد فقرة في نتائج التحقيق ذكر فيها : «إن الرغبة الصهيونية في السيادة على فلسطين قد تكون السبب الرئيسي للغضب العربي» (٩) .

وسجل وايزمان في سيرته الذاتية : «احتوى التقرير على بذور كثير من الصعاب التي ستواجهنا»(١٠).

وزاد المشكلة تعقيداً ما توصل إليه لورد نورث كليف الذي زار فلسطين في قمة أحداث يافا، وعاد إلى لندن ورأيه أن «المستوطنين اليهود في فلسطين هم في الأغلب شيوعيون أو بلاشفة، وهم في أغلبهم من المتغطرسين العدوانيين، وخطر على الإمبراطورية البريطانية»(١١)، وأكد مجدداً على أنه «من الجنون إغضاب خمسين مليون مسلم من أجل خمسمائه ألف يهودي في فلسطين»، وكان رأيه سبباً في بداية حمله صحافية بريطانية مناهضة لأي زيادة في الاستيطان الصهيوني (١٢) وأدى ذلك بدوره إلى إعادة المناداة بإلغاء وعد بلفور ومراجعة السياسة البريطانية في فلسطين(١٣)، وفي ذلك الوقت رفع محام عربي يدعى وديع بستاني دعوى قضائية باسم القبائل البدوية مالكة أرض منطقة بيسان بفلسطين، وحكمت المحكمة بحقهم في أربعمائة ألف دونم (١٠٠ ألف فدان) من أرض بيسان، وكان ذلك بمثابة ضربة أخرى للمستوطنين، مما حدا بوايزمان إلى التعليق على ذلك قائلاً : «خرجت واحدة من أهم المناطق وأخصبها في فلسطين من حسابات الاستيطان مما أدخله في

حالة ركود وعقم»(١٤)

المعارضة الخارجية

وتصاعد الاعتراض على إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين من خارج بريطانيا أيضاً، فقد قام الوفد الفلسطيني الذى زار لندن بالتوقف فى روما وباريس لشرح قضيتهم للحكومتين، الإيطالية والفرنسية، وفى القدس عبر بطريرك اللاتين عن عدم رضائه وقلقه على مستقبل الأماكن المقدسة من جراء السياسة البريطانية، بالرغم من إعلان الصهاينة اليهود أنه ليست لديهم أطماع تجاه الأماكن المسيحية المقدسة مدعين أنها أمور تتم تسويتها بمعرفة الدول المسيحية والفاتيكان(١٥)، وأعلن وايزمان أن المكان المقدس الوحيد الذى يدعى اليهود أحقيتهم به هو قبر راحيل، وكان حائط المبكى فى ذلك الوقت (وهو الجدار الباقى من الهيكل الذى أعاد هيرود الأكبر - الرومانى حاكم منطقة يهودا - بناءه حوالى عام ٦.م) خارج نطاق المناطق التى سيطر عليها المستوطنون الصهاينة(١٦).

الانتداب على فلسطين

بدأ مشروع وايزمان لإقامة دولة يهودية يهتز، ومع الحملة التى تصاعدت فى بريطانيا ضد الانتداب البريطانى على فلسطين قضى وايزمان أغلب وقته مرتحلاً بين لندن وباريس وروما وچنيف محاولاً تبديد المخاوف الدولية، وكسب تأييد الحلفاء المهمين. وكمناورة مرحلية قبل إعادة تقييم عصبة الأمم للانتداب البريطانى على فلسطين وإعادة التصويت عليه نهائيًا فى يوليو ١٩٢٢، وطرحت مسودات مشروعات نوقشت ورفضها لورد كيرزون الذى حل محل لورد بلفور فى مقعد وزير الخارجية بعد سقوط حكومة لويد چورچ فى بداية ذلك العام، وراح الوقت يمر شهراً بعد آخر فى مناقشات ومداولات، وكل فقرة من مشروعات القرارات المطروحة تصبح أموراً شائكة، على سبيل المثال : أقرت الصياغة النهائية للمشروع

المطروح على عصبة الأمم الاعتراف «بالارتباط التاريخى لليهود بفلسطين»، إلا أن الصهاينة أصروا أن تعدل تلك الفقرة لتصبح «إن عصبة الأمم تعترف بالحق اليهودى التاريخى فى فلسطين»(١٧)، وهى فقرة تتضمن مفهوم أمغايراً تماماً للأول، حيث يتضمن التعديل القبول بحق اليهود فى وراثة الأرض المقدسة بموجب حق إلهى، وهى صياغة عاطفية إلى حد بعيد.

وأضيفت إلى تلك المشاكل مطالبة فرنسا بحقها فى الهيمنة على الحدود الشمالية لفلسطين المتنازع عليها بموجب اتفاقية سايكس - بيكو، وكان الفرنسيون ينظرون إلى شمال فلسطين على أنه جزء من سوريا، ورأت الحكومة الفرنسية أن الاستيطان الصهيونى «ليس إلا وجهاً تختفى وراءه الامبريالية البريطانية»(١٨).

ثم واجهت وايزمان وجماعته مشكلة خطيرة أخرى وهى هجوم مجلس اللوردات على السياسة البريطانية المنحازة للصهاينة فى فلسطين وكان منهم اللوردات : إسلنجتون، وراجلان، وسيدنهام، مما خلق تياراً ينادى بالإلغاء الكلى لوعد بلفور، وعند التصويت على ذلك فى مجلس اللوردات حصل قرار الإلغاء على أغلبية، إلا أن التصويت فى مجلس العموم جاء لصالح الصهاينة. وقاد الحملة الممالئة للصهاينة سير ونستون تشرشل والميچور أورسبى - جور (لورد هيرلش). وبالرغم من ذلك الانتصار الذى اعتبره الصهاينة بمثابة دق قواعد أساس إنشاء الكيان الصهيونى، إلا أنهم شعروا أن مشروع الدولة اليهودية معلق فى الميزان، وأن مصيره معلق بأيدى حفنة من السياسيين البريطانيين والارستقراطيين الذين يعرفون أقل القليل عن الموقف الحقيقى فى فلسطين، وحبس وايزمان ومعاونوه أنفاسهم فى الوقت الذى كانت تنشر فيه ما أطلق عليها الوثيقة البيضاء لتشرشل.

الوثيقة البيضاء لتشرشل

أخذت وثيقة تشرشل البيضاء كما أطلق عليها فى حينها فى اعتبارها كل مخاوف وهموم السكان العرب فى فلسطين، كما بحثت الاحتمالات التى ستنجم عن الاستيطان اليهودى المكثف بفلسطين، وتوصل البحث - الذى بالرغم من صدوره باسم ونستون تشرشل إلا أن من قام بإعداده المندوب السامى البريطانى على فلسطين السير هربرت صامويل - إلى أن المشكلة الرئيسية التى تؤرق عرب فلسطين هى وجود اليهود الوافدين وإصرارهم على البقاء فى فلسطين، وتنبأت الوثيقة بمزيد من المشاكل التى ستترتب على اضطراد هجرة اليهود إلى فلسطين ومنحهم الجنسية اليهودية الفلسطينية، وسواء كانوا بضعة مئات أو عشرات الآلاف، فإن الأمر سيان.

وكانت خيبة الأمل الكبرى للصهاينة من تلك الوثيقة البيضاء الصادرة عام ١٩٢٢ استثناءها لأراضى عبر الأردن، وإخراجها من إطار مشروع إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين، فحتى ذلك الوقت لم يكن الصهاينة يخططون للهيمنة على فلسطين فقط، بل على سيناء وعبر الأردن ولبنان، وكانوا يرون أن تلك المناطق كانت خاضعة لسيطرة الملك داوود، وبموجب الوثيقة البيضاء حرموا من منطقة عبر الأردن التى كانت تشكل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع الأراضى التى كانت خاضعة للانتداب البريطانى فى ذلك الوقت، بالرغم من ذلك أقرت الوثيقة البيضاء بحق المستوطنين اليهود، إلا أن ذلك الحق يجب ألا يتجاوز قدرة البلاد على استيعابهم.

ورأى الصهاينة أن وثيقة تشرشل انتقاص كبير لإعلان بلفور، وبالرغم من تلك التراجعات الثانوية المخيبة لطموحاتهم، كانت هناك ماتزال المراجعة النهائية من عصبة الأمم للانتداب البريطانى على فلسطين والمقررة فى يوليو ١٩٢٢. ودفع انتظار ذلك الموعد بالعرق الغزير من مسام الصهيونية، إذ إن الأمر ظل معلقاً حتى الساعة الأخيرة من اليوم الاخير لانعقاد الجلسات، أى يوم ٢٤ يوليو دون عرضه ومناقشته، وفى

آخر ساعة سمح للورد بلفور بنفسه بتقديم مشروع طرح التصديق على الانتداب البريطانى على فلسطين، وعلق وايزمان على ذلك اليوم العصيب قائلاً : «مضى كل شىء بسلاسة، وبالتصويت بالموافقة على الانتداب البريطانى على فلسطين انتهى الفصل الأول من نضالنا السياسى الطويل»(١٩).

اللجنة الصهيونية

إلا أن الأمر برمته لم يكن إبحارًا سهلاً لليهود الصهاينة فى فلسطين، حتى بعد إقرار الانتداب البريطانى على فلسطين. كان الصهاينة قد كونوا فى مارس عام ١٩١٨ هيئة حاكمة أطلقوا عليها «اللجنة الصهيونية للإشراف على المستعمرات التعاونية الصهيونية» تحت هيمنة رجال الدين والحاخامات، وكان كثير منهم لا يؤيدون القضية الصهيونية لاختلاف تفسيراتهم الدينية، ولما أحسوا بنية إقصائهم، شكلوا مجلسًا خاصًا بهم، وقدموا التماسات كثيرة للإدارة البريطانية بفلسطين للموافقة على اعتبارهم هيئة مستقلة عن الهيئات الصهيونية الأخرى.

ولم تحل مشكلة من تلك المشاكل، وعبر مجلس رجال الدين اليهودى المعارض للصهيونية من خلال الصحافة البريطانية عن موقفه، وهاجم كل التوجهات الصهيونية، وكان ذلك المجلس يضم كثيرًا من رجال الدين البارزين، منهم يعقوب دى هان، وكان محاميًا ألمانيًا، واشتراكيًا سابقًا، وصهيونيًا سابقًا، ووصفه الصهاينة بعد تحوله بأنه «ولد من جديد كيهودى تقليدى وشاذ جنسياً»(٢٠)، وأصبح فى نظر الصهاينة عدوهم الأول بسبب هجومه المتكرر على الصهاينة الذين لا رب لهم، وبدأ هجومه على صفحات ديلى تليجراف عام ١٩١٩، ثم عام ١٩٢٠ على صفحات التايمز، إلا أن اتهاماته مضت إلى ماهو أبعد من ذلك، وفى عام ١٩٢٤ اغتاله اثنان من الميليشيات اليهودية، وكان من الواضح أن الاغتيال تم بأوامر من الحركة العمالية الصهيونية(٢١).

وطبقًا لما ذكره المؤرخ اليهودى ناعومى شيبرد عام ١٩٩٩م : «لم تتضح أبدًا الخلفيات الكامنة وراء ذلك الاغتيال، ولكن حيال الأهمية الفائقة التى كانت الحركة الصهيونية توليها لصورتها فى نظر الرأى العام البريطانى، أصبح إسكات هان ضرورة مطلقة»(٢٢).

فى ذلك الوقت اكتشفت المقبرة

كان كل ما ذكرناه فيما سبق يمثل المشهد السياسى فى فلسطين حين كان العمال المصريون يزيحون الرمال والأتربة عن ذلك الموضع تحت مدخل مقبرة رمسيس السادس يوم السبت ٤ نوفمبر ١٩٢٢، والذى كشف عن الدرج المؤدى إلى مقبرة لم تكن معروفة من قبل لفرعون مصرى قديم منسى.

وخلال بضعة أشهر من الكشف عن مقبرة الملك الصبى توت عنخ آمون أصبحت أخباره من الأهم الاخبار التى استحوذت على اهتمام العالم بأجمعه منذ انتهاء الحرب، فقد كان أهم كشف أثرى فى ذلك القرن، وحبس العالم أنفاسه وهو يتابع الأخبار اليومية للكشف، أما مكتشف المقبرة هوارد كارتر وراعى الكشف لورد كارنرڤون فقد أصبحا يستقبلان استقبال الأبطال أينما توجهوا.

كانت غرفة المقبرة الخارجية قد اقتحمت خلسه فى نوفمبر ١٩٢٢، وتم دخول غرفة الدفن فى أدنى الافتراضات لأول مرة بعد ذلك بثلاثة أشهر، ثم رفعت المقاصير الخشبية المذهبة التى كانت تحيط بالتابوت الصخرى الضخم واحدًا بعد آخر خلال شتاء عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤.

وبمجرد أن وصلوا إلى مرحلة رفع غطاء التابوت الصخرى الضخم، كانت مشاكل كارتر مع مصلحة الآثار المصرية ووزارة الاشغال العمومية المسئولة عن مصلحة الآثار قد وصلت إلى ذروتها، ووصل التصادم والتعارض إلى قمته، ولجأ كارتر إلى الإضراب عن العمل ودفع العمال إلى التوقف عن استكماله، وسرعان ما ألغت مصلحة الآثار الترخيص

المنوح لليدى كارنرڤون ويعمل كارتر بمقتضاه، مما جعل كارتر عاطلاً بلا عمل، ولاحق له فى الاقتراب من المقبرة التى اكتشفها، ووصل إلى حالة من اليأس المطلق.

وفى صدمته وحيرته من الموقف السلبى الذى اتخذته السلطات البريطانية فى مصر وتقاعسها عن دعمه قرر كارتر أن يبادر هو باتخاذ خطوة حاسمة؛ لذلك اندفع إلى مبنى القنصل البريطانى بالقاهرة وأصر على أنه «إن لم يتلق ترضية كافية وعادلة، سينشر على العالم كافة، تفاصيل نصوص الوثائق البردية التى عثر عليها بالمقبرة، والتى تحتوى على القصة الحقيقية لما يسمى بالخروج اليهودى من مصر(٢٣) من وجهة نظر الحكومة المصرية التى عاصرتها قديمًا» (٢٤) .

هل يمكننا الآن بعد ماقدمنا من أحداث كانت تعيشها المنطقة فى عصر كارتر أن نفهم بشكل أفضل ماذا كان يدور بذهن كارتر حين ألقى بذلك التهديد ؟

من الدلائل والبراهين المقدمة فى هذا الكتاب يمكن أن نوقن أن تهديد كارتر لم يكن تهديداً أجوف بل كان من الواضح أنه كان واثقًا أن بحوزته وثيقة تحتوى على معلومات خطيرة تتعلق بالقصة التى تسميها التوراة قصة الخروج اليهودى من مصر، معلومات تصل خطورتها إلى درجة تضع قصة الخروج التوراتى فى حرج بالغ، مما يؤكد عدم شرعية إقامة وطن قومى معاصر لليهود فى فلسطين .

أدرك كارتر إدراك اليقين أن بإمكانه بعد الشهرة العالمية التى حازها، وبعد الثقل الذى حظى به فى الأوساط الإعلامية العالمية، إيصال ما يعرف من معلومات خطيرة إلى أوسع الدوائر فى جميع أنحاء العالم.

محتويات بردية الخروج

كيف لنا أن نتأكد أن ذلك كان هدف كارتر ؟.

أولاً : يمكننا أن نذكر الآن بكل يقين أن الخروج وقع إما أثناء أو

مباشرة بعد عهد العمارنة، والاحتمال الأغلب أن ذلك الحدث وقع فى عهد حور محب، وفى كل الأحوال كانت بداية الأحداث فى فترة الحكم المشترك بين آمونحتب الثالث وأخناتون، حين ساد الخوف، وسيطر على أذهان كهنة آمون المطرودين، وأفراد الشعب نتيجة لإبطال عبادة الآلهة القديمة، واعتقادهم أن هناك ثمنًا باهظًا وعقاباً شديداً سيحل بالشعب والبلاد. كانوا يؤمنون أن الارباب التى عرفوها لابد من ترضيتها بانتظام، وتقديم القرابين إليها دون انقطاع، وعبادتها باستمرار، وهو نفس ما آمن به ملك الحسينيين مورسيليس الثانى، وأن التقاعس عن إرضاء الآلهة سيترتب عليه انتقام الآلهة من الشعب.

ولمابدأ الطاعون يجتاج الأطراف الشمالية للإمبراطورية المصرية بالقرب من نهاية عهد أخناتون، ساد الاعتقاد بأن الوباء عقاب إلهى وقع على مصر وشعبها لإهمالهم آلهتهم وعدم إرضائها لمدة ثلاثة عشر عاماً، إلا أن السلطات لم تتخذ أى إجراءات حتى بعد أن انتقل مركز إدارة الإمبراطورية المصرية من مدينة أخناتون بالعمارنه إلى كلٍ من ممفيس وطيبة فى عهد الملك الصبى توت عنخ آمون، فى ذلك الوقت كان الوباء قد انتزع روح الملكة تايى الأم، وكان مازال يجتاح الممالك التابعة للتاج المصرى فى الشرق الأدنى، وفى عهد توت عنخ آمون تركزت خيوط السلطة فى يد «آى» كاهن البلاط الأعظم ووزير الملك الأول، وكذلك فى يد حور محب نائب الملك وولى العهد وقائد الجيوش، ومن خلال نفوذ الأخير، بذل مجهودات كبيرة لإقناع الملك أن الوسيلة الوحيدة لتخليص البلاد من الوباء هى طرد المسئولين عن جلب ذلك البلاء الى خارج البلاد. وكان المعنيين بذلك الكهنة «الملوثون»، ومن آمنوا بآتون، والآسيويون ساكنو مناطق الحدود الشرقية للدلتا. وعلى كل الاحتمالات، كان قرار تخليص البلاد من تلك العناصر غير المرغوب فيها قد اتخذه توت عنخ آمون بنصيحة كل من حورمحب وهيئة كهنة آمون التى أعيد تكوينها، إلا أن تنفيذ القرار بشكله الجذرى والموسع والنهائى لم يتم إلا فى عهد حور

محب، فى الوقت الذى كان الوباء مازال يجتاح بلاد الحسنيين فى شمال سوريا وجنوب تركيا. تلك الرؤية عن الخروج هى أيضًا الرؤية ذاتها التى وردت فى المصادر الاغريقية المصرية والإغريقية الرومانية القديمة التى تحدثت عن شخصية موسى والخروج من مصر.

ويبدو أن المراحل الأولى لتلك الأحداث سجلت فى البردية التى استولى عليها كارتر من مقبرة توت عنخ آمون.

وعلى ذلك، ولأنه أخفى البردية ونصوصها إبان عثوره عليها، ترك كارتر لبراكين غضبه العنان حين اكتشف أن الحكومة المصرية لم تكن وحدها التى تخلت عنه، بل - أيضًا - السلطات البريطانية فى مصر التى اعتقد أن بيدها أن تعيده بكل سهولة لاستئناف عمله بالمقبرة، إلا أنها فضلت تجاهله، ولأنه أعد نفسه لمواجهة مثل ذلك الموقف، قام بالتلويح بإفشاء ما ورد بالبردية، وهو على يقين أن تهديده سيدفع كل المسئولين البريطانيين للقفز من مقاعدهم والإسراع بتلبية مطالبه.

كان كارتر على وعى كامل بما يفعله، وذلك واضح مما سجله «لى كيديك» عن أحداث تلك المواجهة المثيرة فى القاهرة، فبعد أن ذكر نص تهديد كارتر، أورد بعده :

«ومع يقين كارتر بتبعيات مثل ذلك التهديد وما قد يترتب عليه، والاضطرابات التى ستواجهها بريطانيا بعد إعلانها وعد بلفور من كل من اليهود والعرب، فقد ممثل الإمبراطورية اتزانه كليًا، وقذف كارتر بالمحبرة التى كانت أمامه والتى كانت نصف ممتلئة، إلا أن الاثنين استعادا صوابهما وبرودة أعصابهما، وتوصلا بعد ذلك إلى تسوية يصمت كارتر بمقتضاها عن أى ذكر لهذا الموضوع للأبد، وبالفعل لم يتفوه به كارتر بعد ذلك أبدًا»(٢٥) .

خرج التهديد من كارتر مثل طلقة صوبها إلى المسئول البريطانى، ولو كان ذلك الآثارى الساخط السريع الاشتعال محقًا فيما ادعاه، فإن إعلانه على الرأى العام العالمى بنص البردية كان سيتحول إلى سلاح لا راد له

فى يد عرب فلسطين لدحض إدعاء اليهود الصهاينة بحقهم التاريخى فى أرض فلسطين، وينسف دعواهم من جذورها، كما يفتح الباب على مصراعيه لعرب فلسطين للمطالبة بالغاء إعلان بلفور، وإلغاء الحماية البريطانية على كامل فلسطين.

كان المسئولون البريطانيون يدركون أن المعارضة المتزايدة لمشروع إقامة وطن قومى لليهود ليست قاصرة على مواطنى فلسطين العرب، بل كانت - أيضًا - من شعب مصر العربى الذين يخلق لهم هذا المشروع مشكلة خطيرة، ولذلك كانت مصر - أيضًا - مثل قنبلة على وشك الانفجار فى أى لحظة. وجاءت اضطرابات يافا التى وقعت عام ١٩٢١ بمثابة صدمة مفاجئة للإدارة البريطانية، وخشت أن تستغل حكومة سعد زغلول الوطنية والمعادية للاحتلال ذلك الموقف لتحريك وإشعال مشاعر العداء ضد الوجود البريطانى بمصر.

لو كان قد سمح لكارتر بإعلان نص البردية على وسائل الإعلام العالمية، لكان لابد أن يترتب عليها نشوب أزمات سياسية دولية كبرى تنتج عنها خسائر كبرى لا يمكن تخيلها لبريطانيا فى الشرقين الأدنى والأوسط، وربما كان مثل ذلك الإعلان يدفع ورثة العائلة الهاشمية بمن فيهم الملك فيصل فى العراق وعبد الله أمير الأردن أن يقودا ثورة جديدة ضد الاحتلال البريطانى لفلسطين.

وبالرغم من أنهما كانا فى ذلك الوقت يحكمان قطرين عربيين، إلا أن عائلة الشريف حسين كانت غاضبة من نكوص بريطانيا عن الوفاء بوعودها لهم بإقامة دولة عربية مستقلة تم الإتفاق عليها فى إتفاقية حسين - ماكماهون عام ١٩١٥م.

الخوف من التقسيم

كانت التبعات التى يمكن أن تترتب على إفشاء محتويات البردية على مشروع الدولة اليهودية المستقبلية لا يمكن حصرها، وبالرغم من أن

الوصاية البريطانية على فلسطين كانت قد أقرت قبل ذلك بعامين، إلا أن قلق وايزمان كان يتزايد من احتمال تقليص الاتساع الجغرافى للدولة المزمعة عند عرضها على عصبة الأمم نتيجة للمعارضة الفلسطينية المتزايدة، مما يضعف مقدماً القوة المتوقعة فى المستقبل لدولة يهودية شرق أوسطية تتمتع بميزات استراتيجية واقتصادية قادرة على الصمود والمنافسة على مسرح الأحداث العالمية.

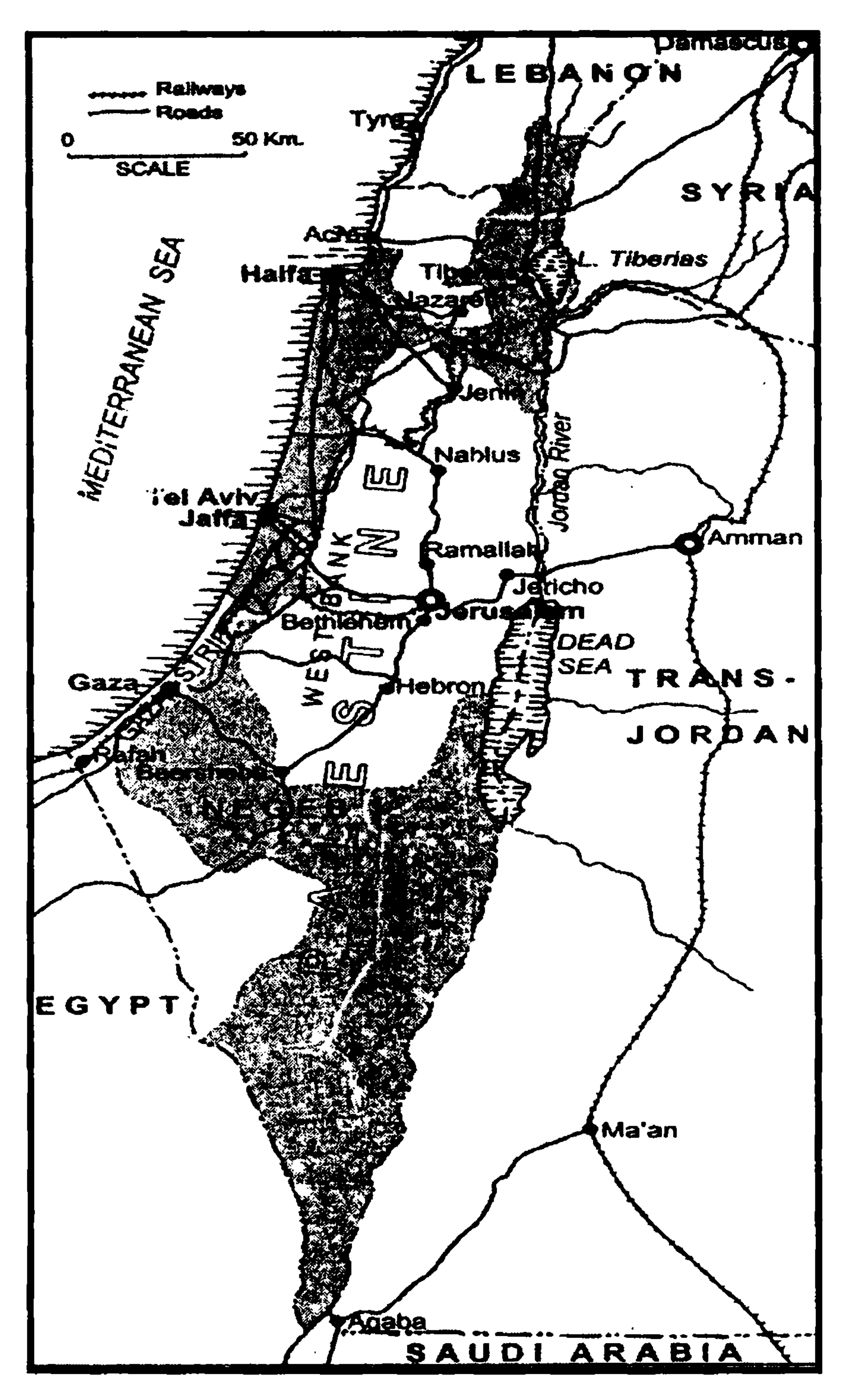
وكانت منطقة عبر الأردن قد سبق استثناؤها من التفاوض بموجب ورقة تشرشل البيضاء الصادرة عام ١٩٢٢، والتى كانت تشكل ثلاثة أرباع الأراضى المفترض أن تكون تحت الانتداب البريطانى.

فلو كان قد تبين فى تلك المرحلة الحرجة أن يشوع وجيوش إسرائيل القديمة لم توجد أصلاً، ولم تقم أبداً بغزو أرض كنعان فإن ذلك يطيح بـ «الارتباط التاريخي لليهود بفلسطين»، ولذلك كان من المستحيل السماح لكارتر بإعلان نص تلك البردية التى تؤدى بالضرورة إلى نسف شرعية الدولة اليهودية المستقبلية.

مشكلة العقبة

ظل الخوف من مزيد من التقسيم معلقًا مثل سيف ديموقليس على مستقبل «أرض إسرائيل»، وظل ذلك التهديد قائماً حتى نوفمبر عام ١٩٤٧ حين حان موعد إعداد التحديد النهائى لمناطق الهيمنة التى ستعرض على الأمم المتحدة، وصوت أعضاء المنظمة لصالح استثناء جنوب صحراء النقب الواقعة جنوب فلسطين من إطار حدود الدوله اليهودية المستقبلية، وخصصت لتكون ضمن حدود أرض عرب فلسطين تحت وصاية المملكة الأردنية الهاشمية.

كان ذلك بشكل عملى يحرم إسرائيل المستقبلية من الأراضى الساحلية الواطئة بما فيها مدينة غزة الهامة، وبشكل أكثر إزعاجاً لليهود، كان ذلك يحرمهم من الوصول إلى خليج العقبة، الذراع الشرقى للبحر الأحمر.



خريطة تظهر حدود الدولة اليهودية المقترحة (المظللة) عام ١٩٤٨، في عام إعلان تأسيسها.

وفى حين وصف وايزمان رأس خليج العقبة أنه لا يعدو كونه «خليجًا لا فائدة منه»(٢٦)، إلا أن نيته كانت معقودة على تطوير ذلك الساحل حول ميناء إيلات، أو إيليم التوراتية القديمة، غرب ميناء العقبة الأردنى، ويحوله إلى مدينة مزدهرة؛ لتكون منفذاً للدولة القادمة للسفن المتجهة من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندى. وبدون الحصول على إيلات، فإن ذلك يعنى أن على سفن إسرائيل المتجهة إلى تلك الجهات أن تمضى من موانيها على البحر المتوسط، ثم تمر عن طريق بورسعيد وقناة السويس إلى البحر الأحمر مما يزيد من زمن وطول تلك الرحلات وأعبائها الاقتصادية، وكان مثل ذلك التوجه مرفوضًا من الصهاينة، وفى محاولة منهم لعرقلة ذلك القرار، سافر حاييم وايزمان الذى كان قد اختير ليصبح أول رئيس لإسرائيل عام ١٩٤٨ م - إلى واشنطن طالبًا معاونة الرئيس الأمريكى هارى ترومان (١٨٨٤ - ١٩٧٢م). كان وايزمان قد أعلن أن صحراء النقب تحت الإدارة اليهودية ستتحول من مجرد صحراء خاوية إلى مركز حيوى للتجارة الدولية، وتمكن من إقناع الرئيس الأميركى بذلك، وتم التوصل إلى تسوية جديدة يتم بمقتضاها تقسيم صحراء النقب رأسيًا بدلاً من تقسيمها أفقيًا، مع إعطاء القسم الشرقى منها لإسرائيل؛ لتتمكن من الوصول إلى خليج العقبة، ويعطى الجانب الغربى بما فيه قطاع غزة وسهلها الساحلى إلى عرب فلسطين، وهو ما يعرف اليوم باسم قطاع غزة، إضافة إلى ذلك، تم تخصيص مساحة ممتدة من المرتفعات الشمالية بفلسطين حتى المرتفعات الجنوبية - والتى تضم مدناً هامة مثل جنين ونابلس ورام الله وأريحا وبيت لحم والخليل وبئر سبع - لعرب الضفة الغربية، وأطلق عليها ذلك الاسم لوجودها غرب نهر الأردن، أما مدينة القدس ذاتها فقد تم تقسيمها حيث خصص نصفها الغربى لإسرائيل ونصفها الشرقى لعرب فلسطين. وفى الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧ قام تحالف من الدول العربية، خاصة سوريا ومصر والأردن بدخول شرق فلسطين وهزمتهم القوات الإسرائيلية، وبذلك خضعت كل

الأرض التى كانت مخصصة لعرب فلسطين للهيمنة الإسرائيلية.

وكما ذكرنا، ظلت مشكلة الخوف الصهيونى من مزيد من التقسيم قائمة حتى نوفمبر عام ١٩٤٧، أى قبل ستة أشهر من إعلان قيام دولة إسرائيل المستقلة فى ١٤ مايو ١٩٤٨، وانتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى منتصف ليلة إعلان قيام دولة إسرائيل.

تحقيق تسوية

طبقًا لما ذكره «لى كيديك» فى مذكراته، بعد أن انفجر غضب كارتر فى مكتب القنصل البريطانى بالقاهرة، تم التوصل إلى تسوية بحيث يصمت كارتر بموجبها للأبد، ولا يتطرق لذكر ذلك الامر أبداً، ووئد الموضوع فى مهده دون أن يتطور أبداً إلى مرحلة الإفشاء.

وبعد فترة، غادر كارتر مصر فى جولة لإلقاء المحاضرات فلاقت نجاحاً ساحقًا بالولايات المتحدة وكندا أشرف على تنظيمها لى كيديك، ثم طوى النسيان الأمر كله، وعاد كارتر إلى لندن فى صيف ١٩٢٤، ثم سعى سير جون ماكسويل مدير ممتلكات كارنرفون للتوصل إلى اتفاق جديد مع وزارة الأشغال العمومية المصرية وكان وزيرها فى ذلك الوقت مرقص بك حنا، وقام بذلك السعى باسم السيدة آلمنيا، كونتيسة كارنرفون، وكانت الاتصالات بطيئة للغاية وشاقة بل إنها بلغت درجة من البطء حتى إنه فى الوقت الذى أوشك فيه مرقص بك على دعوة كارتر للعودة واستئناف العمل بالمقبرة، سقطت الوزارة المصرية بأجمعها.

كانت الأحداث السياسية وتطوراتها المتلاحقة تشد الانتباه بعيداً عما يحدث فى مكاتب وزارة الأشغال العمومية المصرية حين وجدت السلطات البريطانية الفرصة التى كانت تنتظرها للإطاحة بالحكومة الوطنية المصرية التى يرأسها سعد زغلول، وأتت تلك الفرصة بعد اغتيال سير أوليڤرلى ستاك، وكان يشغل منصب الحاكم العام البريطانى للسودان وقومندان الجيش المصرى، وكان يعد الشخصية التالية مباشرة فى الأهمية للمندوب

السامى البريطانى على مصر، ففى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ كان يركب سيارته التى يقودها سائق استرالى حين أطلق عليه وطنيان ثوريان من حزب الوفد النار فلقى مصرعه هو وسائقه فى الحال، ووجدت الحكومة البريطانية فرصتها لربط حادث الاغتيال بسعد زغلول وحزبه الوطنى وطلبت بريطانيا اعتذاراً علنيًا رسميًا من رئيس الوزراء سعد زغلول، كما طلبت منه سرعة القبض على الجناة، وتقديمهم للمحاكمة، ودفع تعويض مقداره نصف مليون جنيه استرلينى، وفرض الأحكام العرفية، ومنع تجمع ما يزيد عن خمسة أشخاص، وبالرغم من أن زغلول أدان الحادث معلناً أنه عمل كريه ومرفوض من أعمال الإرهاب، إلا أن محاولته للتوصل إلى ترضية كريمة ذهبت أدراج الرياح ولم تلق محاولاته أى آذان بريطانية صاغية، فقد كانت تلك هى الفرصة التى تنتظرها بريطانيا لإحكام سيطرتها على مصر، وقدم سعد زغلول استقالة وزارته، وتم تعيين وزارة أخرى غير وفدية ممالئة لبريطانيا رأسها أحمد باشا زيوار، وكان أحد أصدقاء كارتر القدامى.

بدايات جديدة

وجد كارتر أن رئيس الوزراء المصرى الجديد متعاطف معه، وازداد أمله فى التوصل إلى تحقيق اتفاق جديد وجيد، وكانت الحالة المعنوية فى مكتب القنصل العام البريطانى قد تبدلت جذريًا، ولقى كل ترحيب وود بالرغم من تهديده السابق بإفشاء نص برديه الخروج المصرية، وبدا أن كل شىء يتدفق فى صالحه.

حتى الجنرال اللنبى الذى أصبح مندوبًا ساميًا على مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبح أكثر ميلاً للتوصل إلى حل نهائى فى النزاع القائم بين آلمينا كونتيسة كارنر ڤون ووزارة الأشغال العمومية المصرية، فقد أدرك اللنبى أن إعادة فتح المقبرة سيترتب عليه مكاسب كثيرة فى المجال السياسى والعلاقات العامة، وتحسينها، وصرف النظر عن أى

انتقادات لتشديد بريطانيا قبضتها على مصر.

كانت ليدى كارنرڤون قد أعلنت رسميًا أن لهم الحق فى حصة من الكنوز التى وجدت بالمقبرة، وبعد أحد عشر شهرًا من توقف كارتر وفريق العمل، أصدر محمود بك صدقى، وزير الأشغال العمومية الجديد ترخيصاً مدته عام باسم كارتر نائبًا عن آلمينا كونتيسة كارنرڤون، وبالرغم من أنه كان من المعروف أن الحكومة المصرية هى صاحبة الحق المطلق فى كل محتويات المقبرة، إلا أنها وعدت بمنح كارتر - كهبة - منها :

بعض القطع المتكررة تمثل الكشف، وترمز إليه بافتراض إمكان فصل بعض تلك المتكررات عن باقى المجموع دون إخلال بالمضمون المعرفى والعلمى للمقبرة(٢٧).

وعاد كارتر إلى عمله بصفته مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، وعمل على مدى سبعة أعوام أخرى حتى انتهى من إفراغ كل محتويات المقبرة، وكان ترخيصه يجدد سنويًا، وخلال تلك الفترة تشكلت وسقطت خمسة وزارات متتالية فى مصر، وانتهت عام ١٩٣٠ بعودة حزب الوفد إلى الحكم، وكان أول قرارات وزارة الوفد التى أطلق عليها «وزارة الشعب» تقديم مشروع قانون يحظر نهائيًا مغادرة أى قطعة أثرية أرض مصر مهما كانت الأسباب، وينطبق نص القانون على القطع ومتكرراتها وهكذا، فشلت آلمنيا، كونتيسة كارنرڤون فى الحصول على الاقل - رسميًا - على أى قطع أثرية من محتويات المقبرة، إلا أنها بالرغم من ذلك لم تمض خاوية الوفاض، ففى خريف ١٩٣٠ خصصت لها الحكومة المصرية مبلغ ستة وثلاثين ألف جنيه استرلينى كمكافأة، وتبين بالمصادفة أن المبلغ يساوى بالضبط المصروفات التى أنفقها زوجها على مدى سبعة عشر عاماً من البحث فى وادى الملوك.

وكان ذلك بمثابة نهاية العمل المشترك بين لورد كارنرڤون وكارتر فى مصر، وبالرغم من أن كارتر لم يكن قد انتهى من إفراغ كل محتويات المقبرة حتى عام ١٩٣٢، وباستثناء الحديث الخاص الذى دار بينه وبين

«لى كيديك» فى الولايات المتحدة فى ربيع عام ١٩٢٤، لم يشر كارتر أبداً لا تصريحاً ولا تلميحاً إلى العثور على بردية الخروج بالمقبرة.

أمور أكثر على المحك ؟

ظلت تفاصيل «التسوية» التى توصل إليها كارتر والدوافع التى جعلته يصمت عن ذكر البردية للأبد خافية وغير معروفة، ودفنت معه حين مات. هل كانت وعداً بدعمه من القنصل العام فى صراعه ضد نظام سعد زغلول، أم كانت هناك وعود، أو تهديدات أخرى ؟

ربما كانت وعوداً مالية، أو تنبؤًا بسقوط نظام الحكم الوطنى المصرى خلال شهور قليلة، مما يسمح لكارتر ببدء صفحة جديدة مع وزير أشغال جديد بدعم بريطانى. الحقيقة مجهولة لنا ولا نعلم عنها شيئاً، ربما كانت أحد تلك الاحتمالات، أو لا شيىء منها جميعاً .

أما هجوم كارتر الغاضب فيطرح تساؤلاً : إن كان قد خطط له بمفرده أم بالتشاور قبلها مع آخرين؟.

من السهل أن ننسى أنه قبل أقل من عام كان صديقه وراعى أعمال الكشف الإيرل الخامس لكارنرڤون قد مات ميتة مفاجئة غير متوقعه فى ظروف محيرة ومربكة، ويجب ألا ننسى أن الإيرل الخامس كان قد أعلن بثقة ورباطة جأش لكل وسائل الإعلام أنهم عثروا على وثائق بردية بعد أيام من اكتشاف المقبرة، وهى حقيقة يمكن الرجوع إليها مما نشرته الصحافة العالمية فى ذلك الوقت، ومما ذكره صديقه الحميم عالم اللغات القديمة الان هـ. جاردنر. فهل كان كارنرڤون على علم بمخططات كارتر قبل موته باستغلال بردية الخروج لابتزاز السلطات البريطانية بالقاهرة حين يحتاج إلى ذلك، أو بالتعامل بها مع جهات أخرى يمكن أن تخسر الكثير لو أذاع محتويات البردية ؟ والأكثر إلحاحاً، هل كانت هناك علاقة لذلك بموت لورد كارنرڤون المفاجئ غير المتوقع ؟

٢٥ - مصير البردية المفقودة

حين مات چورچ إدوارد ستنهوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنر ڤون على فراشه بفندق جراند كونتنتال بالقاهرة فى ساعة مبكرة من صباح ٥ ابريل ١٩٢٣، اصطحب معه إلى قبره بعض أسرار لم يشاركه فيها وهو حيٌ إلا صديقه الأقرب وخبير البحث الآثارى هوارد كارتر، ونحن على ثقة مطلقة أن من تلك الأسرار دخولهما السرى المشترك إلى مقبرة توت عنخ آمون قبل افتتاحها رسميًا، ومنها - أيضًا - حصولهما على قطع فنية منتقاة من المقبرة بطريقة غير مشروعة، ولما ظهرت تلك القطع بعد ذلك وذاع أمرها، كان ذلك يعنى انهيار سمعة كارنرڤون، ونهاية محزنة لكارتر كعالم آثار محترم.

ولكن، هل صحب إيرل كارنرڤون إلى قبره أسرارًا لا يعرفها إلا كارتر؟

لا يوجد أدنى شك أنه بالرغم من قرار كارتر ابتزاز الدبلوماسى البريطانى بالقاهرة بنصوص بردية الخروج فى ربيع عام ١٩٢٤ قد كان تلقائياً ووليد اللحظة، إلا أن هناك أمورًا أخرى خلف ذلك التهديد، فطبيعة التهديد كانت محسوبة، وقصد منها الحصول على أقوى رد فعل داعم لموقفه، وتحقق له ذلك كما كان يأمل، بعد أن تغلب الفكر الهادئ الموضوعى، وتم التوصل إلى تسوية مجهوله صمت كارتر بمقتضاها إلى الأبد عن هذا الامر ، ولم يخرج تهديده أبدًا إلى حيز التنفيذ(١) .

هل ترجمت البردية سراً؟

هل كانت تلك المناسبة هى الوحيدة التى نوى فيها كارتر استغلال المعلومات الخطيرة الموجودة فى البردية ؟ وهل كان الإيرل الخامس لكارنرڤون متورطاً فى ذلك الأمر الخطير قبل موته المفاجئ ؟

لو اعتبرنا أن البردية قد اختلست من المقبرة مثلما اختلست باقى القطع الأثرية النفيسة فلابد أن نصوصها قد ترجمت سراً للإحاطة على الأقل بما تذكره نصوصها، ولا يوجد أى دليل على أن عالم اللغات القديمة آلان هـ. جاردنر كان متورطاً فى ذلك الامر. ولكن، لأنه الصديق الحميم لكارنر ڤون، فقد سأله فى ديسمبر ١٩٢٢ إن كان يقبل القيام بترجمة أى برديات يعثر عليها بالمقبرة، وربما كان ذلك يشمل فى طيات سؤاله بردية الخروج.

يحتمل أن كارتر وكارنرڤون كانا ينويان من بداية الكشف أن يسجلا رسمياً أى برديات يعثران عليها بالمقبرة، ولذلك ذكرا فى مراسلاتهما وتصريحاتهما لرجال الإعلام عثورهما على برديات بالمقبرة فى ذلك الوقت المبكر من الكشف، إلا أنه بعد أن ترجما النص، وجدا أن طبيعة المعلومات الخطيرة المذكورة بها تجعل من المستحيل تسجيل العثور على برديات رسمياً. وإن كانت البردية تحتوى كما ذكر كيديك على «القصة الحقيقية» للخروج والتى كانت تتسم بخطورة عظمى، ربما أوحت تلك المعلومات إليهما الاتصال بجهات معينة تعنيها تلك المعلومات، وتحرص كل الحرص على إبقائها سراً لا يعلم به أحد.

ولفهم تلك النقطة فهماً أفضل من الضرورى الغوص أعمق فى الحياة الشخصية للإيرل الخامس لكارنرڤون.

آلمينا، كونتيسة كارنرڤون

حين بلغ الإيرل الخامس التاسع والعشرين من عمره، اقترن بـ «آلمينا ڤيكتوريا مارى اليكساندرا وومبويل» البالغة من العمر تسعة عشر عاماً

وابنة السيدة مارى (مينا) فيلبس وومبويل من عائلة بوير، ويقال : إنها كانت من أصول مختلطة فرنسية إسبانية.

وبالرغم من أن أم آلمينا كانت زوجة لرجل إنجليزى اسمه چورچ وومبويل، إلا أنه كان من المعروف أنها على علاقة خاصة مستديمة بألفريد دى روتشليد (١٨٤٢ - ١٩١٨)(٢)، حفيد مؤسس فرع عائلة روتشيلد ببريطانيا، التى كانت أغنى وأقوى عائلة يهودية فى جميع أرجاء أوروبا.

ولد ألفريد دى روتشيلد بلندن فى ٢٠ يوليو ١٨٤٢ ومات فى ٣١ يناير عام ١٩١٨، وبالرغم من علاقته الحميمة بمارى الكاثوليكية، إلا أنهما لم يتزوجا أبدًا، وربما كان السبب انتماءهما الى دينين مختلفين، ونتج عن تلك العلاقة الحميمة مولد آلمينا - وكان اسمها يجمع بين مختصر اسم أبيها «آل» وأمها «مينا» - كابنة غير شرعية لألفريد دى روتشيلد، وهو مالم تنفه أسرة كارنر ڤون حتى بعد اقترانه بها، حتى أن نسب آلمينا الحقيقى مسجل فى مذكرات ابنها الإيرل السادس لكارنرڤون(٣)، ومسجل فى دليل عائلة كارنرڤون فى قلعة هايكلير(٤)، ومازالت صورة شخصية لألفريد معلقة على جدار إحدى الغرف المفتوحة لزائرى القلعة(٥) ولا يعد سراً أنه قبل اقتران الإيرل الخامس بآلمينا الذى اتخذ أقصى المظاهر الاحتفالية والدينية فى كنيسة مارجريت بكاتدرائية ويستمنستر، كان يعانى أزمة مالية خانقة، ومع نفاذ ثروة العائلة، وتقارب اللورد من ألفريد دى روتشيلد الفاحش الثراء، اشترط عليه فى حالة اقترانه بابنته غير الشرعية أن يدفع له مائة وخمسين ألف جنيه استرلينى؛ ليسدد بها ديونه، فضلاً عن ذلك، دفعة أخرى مقدارها نصف مليون جنيه استرلينى له ولزوجته كدوطة زواجها(٦) ويضمن لهما الأمان المادى طالما استمر زواجهما قائماً، وبذلك يضمنان أن يبدآ حياة زوجية مستقرة، بينما يضمن ألفريد لابنته آلمينا مستقبلاً آمناً كواحدة من المجتمع الارستقراطى البريطانى.

وفى عام ١٨٩٨ حملت المينا من زوجها الإيرل الخامس ابنهما هنرى چورچ ألفريد ماريوس هربرت الذى أصبح الوريث الشرعى لممتلكات

كارنرڤوت وأطلق عليه لقبه الوراثى، لورد بورشتستر، وظل يحمله حتى وفاة أبيه فى أبريل ١٩٢٣، وأصبح بعدها الإيرل السادس لكارنرڤون. إلا أن حقيقة ان اسمه الثالث، ألفريد، ليس إلا دلالة أخرى واضحة أن عائلة كارنرڤون لم تخف أن آلمينا ابنة غير شرعية لألفريد دى روتشيلد. وبعد مولد لورد بورشستر بثلاثه أعوام، حملت آلمينا مرة أخرى وولدت ابنتهما إيڤيلين والتى ستصبح الابنة المرافقة لأبيها حتى موته.

ولفترة طويلة بعد زواجها من الإيرل الخامس لكارنرڤون ظلت على اتصال وعلاقة دائمة بأبيها غير الشرعى الذى أوفى بكل وعوده المالية، وحرص ألا تشعر ابنته ولا زوجها بأى احتياج مالى. كثيراً ما كانت تذهب آلمينا لأبيها ألفريد فى بنكه التجارى ن.م. روتشيلد وأولاده لتطلب منه مبالغ مالية كبيرة، ولم يردها خاوية أبداً، وغالباً ما كانت تطلب آلاف الجنيهات، كما يذكر ابنها الإيرل السادس فى مذكراته :

«كانت أمى آلمينا فى نجم سعدها إذ كان بإمكانها التوجه إلى أبيها لتطلب منه خمسة أو عشرة بل حتى عشرين ألف جنيه استرلينى، وكان غالباً ما يرد عليها بكل لطف وحنان قائلاً : «آه منك يا قطتى، لقد اعطيتك عشرة آلاف من أسبوع واحد فقط، ماذا فعلت بها يا ابنتى الحبيبة ؟»(٧).

ويسترجع الإيرل السادس ذكرياته حين كان يذهب لزيارة جده غير الشرعى ألفريد دى روتشيلد فى مكاتبه لأسباب تجارية، ويقول عن ذلك :

«كنا فى العادة نجد ثلاثة من آل روتشيلد جالسين إلى مكاتبهم وهم : ناثان، وليو، وألفريد الذى كان يسعد ويسر جداً حين يرانى ويدللنى كل التدليل»(٨)

وكما عرفنا مما سبق، عانى الإيرل الخامس من نتائج صحية سيئة بعد الحادث الذى تعرض له فى ألمانيا عام ١٩٠١، وترك له مشاكل دائمة بالتنفس، وأمره بعدها طبيبه ماركوس چونسون بقضاء الشتاء فى مصر لجوها الجاف فى الشتاء، وبعد أعوام من الوقت المتكرر الذى يقضيه بالقاهرة وحياة المتعطلين البريطانيين وشوارعها المتربة، نقل إقامته إلى

الأقصر، وجذبته الآثار واقتناؤها، وقاده ذلك إلى الاهتمام بأعمال البحث الاثارى على الضفة الغربية لطيبة بدءًا من عام ١٩٠٧، وكان كثير من أعمال البحث والتنقيب يمول عن طريق زوجته من الأموال التى تحصل عليها من أبيها ألفريد دى روتشيلد، وكانت تصحبه فى بعض زياراته لمواقع البحث، إلا أن مصاحبتها له إلى مصر راحت تقل بمرور الأعوام وأصبحت تفضل البقاء فى انجلترا، ثم بدأت ابنتهما إيڤيلين تحل محلها فى مصاحبة أبيها، ورأت إيڤيلين أن زواج أبيها وأمها كان من بدايته زواجًا تقليديًا لا نتاج حب؛ لأنها لم تر أى صفات مشتركة تجمعهما معًا، ونادرًا ما بدا عليهما التقارب والتجاذب الذى يجمع بين حبيبين.

وكما هو معروف، لم تصحب آلمينا زوجها إلى مصر بعد تلقيه أول أبناء «الكشف العظيم» من كارتر لـ «مقبرة مازال على بابها أختامها الأصلية» فى يوم ٦ نوفمبر ١٩٢٢، كما كان من الصعب معرفة المكان الذى كانت توجد به حين سقط زوجها فى لجة مرضه النهائى والأخير فى مارس من ذلك العام. ولم تقرر الذهاب إليه بالقاهرة إلا حين علمت بمدى خطورة مرضه.

كان السبب الجوهرى فى تخلف آلمينا عن مصاحبة زوجها فى بداية الأمر فى الأعوام الأخيرة من حياتهما الزوجية هو انشغالها بدورها القيادى فى الأعمال الخيرية من إقامة المشافى، والمصحات، ودور الرعاية، وكانت قد شيدت أول دار من تلك الدور فى هايكلير أثناء الحرب العالمية الأولى للجنود الذين أصيبوا فى ميادين القتال، وألقت آلمينا بكل ثقلها فى تلك الأعمال، وبدأت بعدها تأسيس دار لرعاية الجنود فى برنستون سكوير فى لندن، وكانت تقضى أغلب وقتها فى متابعة ذلك العمل التطوعى وغادر آخر جندى ذلك المشفى عام ١٩١٩، وبعد ذلك أقامت مشفىً خاصاً أطلقت عليه اسم أبيها غير الشرعى فأسمته «دار ألفريد» فى حى مايفير، وشهد له الجميع أنه من أفضل دور الرعاية بلندن وارتاده للعلاج عليه القوم مثل هنرى، ابن چورچ الخامس ودوق جلوستر، وكانت تلك المشاغل تستنفذ

جل وقتها، ولم يكن لديها أى اهتمام بالآثار التاريخية المصرية ووفر لها ذلك الانشغال سببًا قويًا للتخلف عن مصاحبة زوجها فى رحلاته المتكررة إلى مصر.

وبالفعل، كانت آخر زيارة لها إلى مصر بصحبة زوجها قبل سقوطه فى براثن مرضه الأخير فى شتاء ١٩١٩ - ١٩٢٠. إلا أنه اتضح بعد ذلك أن هناك سبباً آخر لبقائها بعيداً عن زوجها.

تايجر دينيستون

فى الأعوام الأخيرة من حياة آلمينا الزوجية بلوردكارنرڤون صادقت ليدى كارنرڤون امرأة تدعى دورثى دينيستون وكانت زوجة عقيد سابق متقاعد من رماة الجيش يدعى إيان اونسلو «تايجر» دينيستون، وبالرغم من انفصالهما ظلت دورثى على تواصل به، وكان يعيش فى ذلك الوقت فى باريس. وذات يوم فى عام ١٩٢١ علمت أن آلمينا ستقوم بإحدى زياراتها المنتظمة لباريس، وأنها ستقيم بفندق ريتز؛ حيث كان زوج دورثى يقيم بشقة صغيرة به، طلبت من آلمينا أن تحضر لها بعض أشياء تخصها ومازالت لدى زوجها السابق، وقبلت آلمينا القيام بتلك المهمة، وبعد وصولها إلى باريس ذهبت إلى مسكن دينيستون وصدمها ما رأته، وطبقاً لوصفها، قالت : إنه كان «يحيا فى سقيفة لا يقبل أحد خدمها أن يحيابها، لم يكن بذلك المأوى مدفأة ولا ماء ساخن ولا حتى بارد، لم يكن به إلا كوة صغيرة تطل على فناء خلفى»(٩)، وأفزعها مظهره الرث : «بدا كما لو كان لا يأكل من الطعام ما يكفى أن تظل روحه داخل بدنه»(١٠). وهكذا، غلبتها الشفقة على حاله حتى إنها أمرته أن يبتاع فوراً ملابس جديدة لائقة على نفقتها، وأن ينتقل إلى جناحها الذى تقيم به بالفندق حتى ترعاه بنفسها.

وبالرغم من سوء حالته الصحية (كان مصاباً بربو شعبى حاد)، إلا أن آلمينا سرعان ما انجذبت إليه وأصبحا لا يفترقان، وتزوجا بعد ذلك فى مكتب مدنى لتسجيل الزواج فى ١٩ ديسمبر ١٩٢٣، بعد مرور ثمانية

أشهر بالكاد من موت زوجها الايرل الخامس لكارنرڤون. وبعد عامين من زواجها تعرضت لتلطيخ اسمها وسمعتها بصورة علنية فى كل وسائل الإعلام بسبب دعوى قضائية رفعتها زوجته السابقة دورثى ضد زوجها السابق مطالبة بنفقتها، وكانت بعض جوانب القضية تتوقف على تحديد تاريخ بداية علاقة آلمينا بالعقيد دينيستون، ووصلت الفضيحة الى ذروتها حين وقفت دورثى على منصة الشهادة، وأجابت على ذلك السؤال رحمة منها بآلمينا بأنها لا تعرف متى بدأت علاقة آلمينا بدينيستون مما جعل الجميع يتنفسون الصعداء. ولم يكسب القضية أى طرف من طرفيها بالرغم من أن ذلك كان فى صالح دينيستون، وكان الفضل يعود للمرافعة النهائية الحاسمة التى قام بها المحام الشهير نورمان بريكيت(١١). وقضت آلمينا العقد التالى فى رعاية تايجر دينيستون فى سكوتلندا، ثم راحا ينتقلان من مكان لآخر لفترة، واستقرا فى آخر الأمر فى هوڤ، بالقرب من برايتون فى سوسكس الغربية، وانتهت حياة دينيستون فى تلك المدينة.

وبالرغم من أن الإيرل السادس ابن آلمينا سجل فى مذكراته أن علاقة أمه بتايجر دينيستون لم تتجاوز علاقة الصداقة قبل موت أبيه الإيرل الخامس، إلا أن ذلك غير صحيح. فمن المعروف أنه كانت تربطهما علاقة غرامية حميمة خاصة حتى قبل موت زوجها الإيرل الخامس. فضلاً عن ذلك، كان الإيرل الخامس «يعلم علم اليقين أن زوجته آلمينا على علاقة حميمة بالكولونيل»(١٢). وبالفعل، بدا وكأنه يشجع تلك العلاقة، ليظهر بوضوح أن علاقته بها كزوجة قد انتهت وماتت من زمن طويل.(١٣). وقد أدلى لنا «تونى ليدبيتر» الابن الروحى لآلمينا الذى مازال على قيد الحياة حتى الآن بشهادته حول هذا الأمر. كانت أمه آن رفيقة ملازمة لآلمينا حتى عام ١٩٦٩، وحين ماتت أمه الكونتيسة ماتت معدمة بعد أن كانت شديدة الثراء، وعاشت الأعوام الأخيرة من حياتها فى مسكن بحى فقير فى ضواحى مدينة بريستول البريطانية. وذكر لنا ليدبيتر أنه حين كان لورد

كارنرڤون طريح الفراش فى مرضه الأخير، كانت آلمينا فى باريس مع تايجر دينيستون ولم تجد أى دافع قوى لمفارقته إلا أنها فعلت ذلك مضطرة بعد أن علمت أن زوجها فى مرض الموت، وطبقاً لما قاله :

«كان ما علمته أنها وصلت إلى زوجها فى آخر أيام حياته، وأن ذلك كان يسبب لها متاعب وضياع وقت ومال، وأنه من الأفضل لها أن تنتهى حياة زوجها بسرعة؛ لتعود إلى دينيستون، ولا أعتقد أنها حزنت لموته بأى قدر» (١٤).

ويدعم شهادته ما نشرته الصحيفة المصرية «ايچيبشيان جازيت» التى تصدر باللغة الإنجليزية، فى صباح الجمعة ٣٠ مارس ١٩٢٣، والتى ذكرت فى تقرير لها : «وصلت ليدى كارنرڤون إلى القاهرة وانضمت إلى زوجها لورد كارنرڤون، وابنتهما ليدى إيڤيلين هربرت المقيمين فى فندق كونتننتال - ساڤوى»، وبافتراض أن الجريدة تطبع فى ساعات الليل السابقة على صدورها فى الصباح، فإن ذلك يعنى أن آلمينا لم تصل الى القاهرة إلا يوم الخميس ٢٩ مارس، أى قبل موت زوجها بأسبوع واحد.

الميراث

وخلال سنوات زواجهما، اعتمدا كلياً على الوصية الدسمة لألفريد دى روتشيلد، فحين مات عام ١٩١٨ عن عمر يناهز ٧٦ عامًا، أوصى بالجانب الأكبر من ثروته الشخصية التى كانت تبلغ مليون ونصف المليون جنيه استرلينى الى ابنته غير الشرعية آلمينا وابنائها من الإيرل الخامس، كما أوصى بمنحها بيته الكائن بـ «سيمور بليس» فى لندن(١٦). إلا أن المعروف أن لورد كارنرڤون كان يعانى من ضائقة مالية قبل بدء موسم حفر شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣، وعارض بشدة تبنى نفقات موسم عمل آخر فى وادى الملوك، ويبدو أن ما ضاعف من تلك الضائقة المالية بعد اكتشاف المقبرة، ضرورة توفير نفقات وتكلفة خمسة مواسم عمل أخرى حتى يتم إفراغ المقبرة كليًا من محتوياتها (وفى الحقيقة، استغرق إفراغ المقبرة عشرة أعوام).

ومع معاناته من تلك الضائقة المالية وإحساسه بالأسى من وجود ثروة طائلة ورثتها زوجته وابنه وابنته عن أبى آلمنيا غير الشرعى ألفريد دى روتشيلد، يبدو محتملاً أنه فكر فى استغلال الوثائق البردية التى عثر عليها بالمقبرة.

ومن انفجار غضب كارتر بمكتب القنصل البريطانى بالقاهرة نعرف أن نصوص تلك البرديات تنسف ماهو متداول عن قصة الخروج أحادية المصدر، وأن ذلك الأمر فى حالة ذيوعه كان يشكل حرجًا بالغاً للصهاينة فى جميع أرجاء العالم. ويحتمل أن الإيرل الخامس لكارنرفون أبلغ بعض قادة الصهاينة اليهود أن تحت يده وثيقة مصرية قديمة تحتوى على معلومات ذات حساسيه فائقة، وأنها يجب أن تختفى عن العيون.

ومن أجل ضمان عدم وصولها الى الرأى العام، لابد أن يحصل بالمقابل على تعويضات عما أنفقه من أموال حتى توصل إلى ذلك الكشف الذى عثر به على تلك البرديات، فهل يمكن أن يكون قد طلب تعويضًا ماليًا مقابل تلك البرديات ؟

لو صح ذلك الافتراض، فلمن كان يمكن أن يتوجه بمثل ذلك العرض ؟

آل روتشيلد

لابد أن نقر - أولاً - أنه لا يوجد دليل حتى الآن على الأقل أن مثل تلك الصفقة التى تغلب عليها صفة الابتزاز قد وقعت، إلا أنها لو كانت قد وقعت، فإن أهم من كان يمكنه أن يتوجه اليهم بذلك العرض هم عائلة ألفريد المباشرة، آل روتشيلد.

ويرجع تاريخ آل روتشيلد إلى أبناء خمسة لأحد البارونات وهو ماير أمشيل روتشيلد (١٧٤٤ - ١٨١٢)، وكان يهوديًا مرموقًا وممولاً ماليًا معروفًا فى مدينة فرانكفورت بألمانيا. استقر ابنه الثالث ناثان ماير (١٧٧٧ - ١٨٣٦) بإنجلترا، وأسس بنكًا تجاريًا باسم ن.م. رتشيلد وأبنائه فى منطقة نيوكورت بلندن، ثم واتته فرصة تمويل حملة دوق

ولنجتون فى شبه جزيرة ايبريا بإسبانيا، كما موَّل الحلفاء الأوروبيين بسبائك الذهب فى تحالفهم العسكرى ضد نابليون وفى عام ١٨١٢، استقر أخوه الأصغر چيمس (١٧٩٢– ١٨٦٨) فى باريس لتنظيم عمليات تحويل الأموال، ومن إمبراطوريته المالية، ظهر الفرع الفرنسى من بنوك آل روتشيلد، ويقال : إنه بعد انتصار ولنجتون على نابليون فى معركة ووترلو عام ١٨١٥، كان ناثان دى روتشيلد أول من أبلغ بأنباء النصر اعترافًا بفضله(١٧).

بعد ذلك، تبوأت عائلة روتشيلد مركز الصدارة فى عالم بنوك كل القارة الأوروبية، من خلال شبكة بنوك العائلة التى انتشرت فى بلدان أوروبا وفرضت هيمنتها ونفوذها على المجتمع الأوربى، وعبروا عن تلك الهيمنة، بشعار مكون من خمسة أسهم ترمز إلى الأخوة الخمسة، تقبض عليها يد بقوة. ومات الأب ماير أمشيل فى بيته بالجيتو اليهودى فى فرانكفورت عام ١٨١٢. إلا أنه جمع أبناءه قبل موته، ونصحهم أن يعملوا متكاتفين، وأن يثقوا فى بعضهم كل الثقة، وهو ما عملوا به وحافظوا عليه حتى أن الزيجات كانت تتم بين أبناء القربى فى العائلة للحفاظ على وحدتها، وعمل كل ابن من الأبناء الخمسة على تأسيس مؤسسة مالية قوية فى إحدى الدول الأوروبية، وسرعان ما أصبحوا من أصحاب المليارات، وكما عرفنا، أسس ناثان ماير بنكًا فى لندن، واستقر الأخ الأصغر چيمس فى باريس حيث أنشأ بنك إخوان روتشيلد (روتشيلد فريرز) الذى أصبح خلال عشرين عامًا أكبر بنك فرنسى.

بارون إدموند دى روتشيلد

قام الابن الرابع لچيمس وهو البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥ – ١٩٣٤) بالدور الأكبر فى تأسيس البيت اليهودى القومى، وكما رأينا، موَّل المستوطنات اليهودية فى فلسطين من بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر وما بعدها، ومنها المستوطنة الرائدة ريشون لوزيون التى أسسها مهاجر

روسى يهودى، ووهب إدموند لمستوطنى ذلك التجمع اليهودى ٣٠٠٠٠ فرنك، وكرس إدموند أغلب حياته للقضية الصهيونية، وفى عام ١٨٩٧م أسس صندوق تمويل المستعمرات اليهودية، وساعد ذلك الصندوق على شراء مساحات شاسعة من أرض فلسطين للقادمين من المهاجرين اليهود، واستمر فى ضخ المال للمستعمرات الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر حين سلم إدارة الصندوق مع مبالغ وفيرة من المال إلى اتحاد المستعمرين اليهود الذى بدأ فى تحويل القرى اليهودية الزراعية المتوسعة إلى مدن. وفى عام ١٩٢٤. استثمر البارون إدموند كل ما يملك فى شركة استثمارية تسمى اتحاد الاستعمار اليهودى لفلسطين، وعين ابنه چيمس (١٨٧٨ - ١٩٥٧) أول رئيس لها، وكانت العوائد التى يكسبونها من تلك الشركة كافية لتمويل المشروعات الصناعية اليهودية بفلسطين بما فيها هيئة كهرباء فلسطين والمشاريع الاخرى التى تتطلب كوادر فنيه على درجة عالية من التعليم، وكذلك المستشفيات ومراكز البحث العلمى.

واستقر چيمس دى روتشيلد الابن بإنجلترا، وحصل على جنسيتها وخدم فى الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى حتى وصل إلى رتبة كابتن، إلا أن ما جمعه بوالده حبهما وولاؤهما الشديدان لتحقيق الحلم الصهيونى، حتى إن چيمس اشترك مع وايزمان فى توقيع إعلان بلفور مع كبار الشخصيات البريطانيه التى وقعته مثل مارك سايكس ولورد بلفور.

الفرع البريطانى من آل روتشيلد

كان إخلاص وولاء الفرع البريطانى من آل روتشيلد للقضية الصهيونية من الأمور التى يصعب وصفها. فبعد موت ناثان ماير دى روتشيلد عام ١٨٣٦، احتل ابنه ليونيل مكانه فى إمبراطورية البنوك (١٨٠٨ - ١٨٧٩م)، وعلى مدى الأربعين عامًا التالية أصبحت بيوت تمويل ن.م. روتشيلد وأولاده ضالعة فى أهم وأخطر المعاملات المالية التى خاضتها الحكومة البريطانية، شملت تلك المعاملات قروض تحرير العبيد،

وقروض تمويل مواجهة مجاعة أيرلندا عام ١٨٤٧، وشراء أسهم قناة السويس من خديوى مصر إسماعيل باشا عام ١٨٧٥، وكان للصفقة الأخيرة أهمية سياسية واستراتيچية كبرى لبريطانيا، وتحققت بفضل تقديم بنك ن.م. روتشيلد قرضًا فوريًا نقديًا مقداره أربعة ملايين جنيه استرلينى لحكومة بنيامين دزرائيللى (١٨٠٤ - ١٨٨١)، وكان أول رئيس وزراء بريطانى يهودى .

وبعد موت ليونيل عام ١٨٧٩، رأس ابنه الأكبر ناتانييل - الذى اشتهر باسم «ناتى» - ماير دى روتشيلد (١٨٤٠ - ١٩١٥) بنك ن.م روتشيلد.

وبوساطة صديقه وزميله بنيامين دزرائيللى الذى تعاون معه فى شراء أسهم قناة السويس، منحته ملكة بريطانيا لقب لورد، وهكذا، أصبح أول لورد من آل روتشيلد. وظل «ناتى» على مدى أربعين عامًا كاهنًا يهوديًا، ومديراً لبنك روتشيلد، ثم أصبح عضواً فى البرلمان الإنجليزى عن حزب الأحرار، وعضواً فى الجمعية الملكية للهجرة، وبذل كل جهده لتظل أبواب الهجرة مفتوحة أمام اليهود الروس لإنجلترا، إلا أن ناتى لم يكن صهيونيًا، وأعلن عن ذلك بوضوح قائلاً : «إننى أنظر برعب إلى تأسيس أى مستعمرة يهودية فى فلسطين»(١٨) .

ألفريد وليوبولد دى روتشيلد

كان لنا ثانى شقيقين، أصغرهما ليوبولد، والثانى ألفريد، أبو ليدى آلمينا غير الشرعى. وظل ألفريد بلا زواج، ويفترض أنه ظل بلا زواج بسبب حبه الذى دام طويلاً لمارى وومبويل أم آلمينا. وبالرغم من أنه كان عضواً فى بنك ن.م روتشيلد وأولاده، إلا أن اهتمامه بالفنون والحياة الاجتماعية والرياضة البدنية كان يستحوذ على جل اهتماماته. بكل المقاييس. كان مدللاً وتياهًا متفاخراً، كان يقيم المآدب والحفلات فى بيته بسيمور بليس وهالتون، وكانت ضيعته فى بوكنجهام شاير تحظى بسمعة أسطورية فى الأوساط الاجتماعية.

فوق ذلك، كانت له فرقة موسيقية خاصة أوركسترالية، وكذلك سيرك خاص، وكان يسبب توقف الحركة فى شوارع لندن حين يقود عربة تجرها أربعة حمر وحشية(١٩)، واشترك هو وأخوه الأصغر ليوبولد فى امتلاك كثير من خيول السباق.

ولم يبد على أى من ألفريد أو ليوبولد أنهما يضمران أى ميول خاصة تجاه الحركة الصهيونية، وذلك بعكس الابن الأكبر لشقيقهما الأكبر ناثانييل، وهو ليونيل والتر (١٨٦٨ - ١٩٣٧)، الذى تمنى فى شبابه أن يكون عالم طبيعة، وكان يؤمن بالمذهب الطبيعى، إلا أن أباه ناثانييل أغراه بالدخول إلى عالم البنوك والمال والتجارة والسياسة، ولم يسمح له بمتابعة اهتماماته الأخرى إلا بعد أن كان قد أقحمه فى عالم المال والسياسة. وبموت أبيه عام ١٩١٥، أصبح ثانى لورد من آل روتشيلد.

وكما يسجل التاريخ، كان إعلان بلفور موجهًا إلى ليونيل والتر دى روتشيلد. كان صهيونيًا حتى النخاع، وعمل متكاتفًا مع حاييم وايزمان فى التمهيد والإعداد، والتوقيع، ثم إصدار إعلان بلفور التاريخى. وفى الاحتفال التاريخى بذلك الحدث الكبير الذى أقيم فى أوبرا كوفنت جاردن فى ٢ ديسمبر عام ١٩١٧، ألقى كل من والتر وچيمس روتشيلد كلمة مؤثرة، قال والتر : «إن إعلان وعد بلفور من أعظم الأحداث التى وقعت فى التاريخ اليهودى فى الألف وثمانمائة عام الماضية»، بينما أعلن چيمس أن «الحكومة البريطانية أقرت البرنامج الصهيونى»(٢٠).

وبالرغم من الأهمية الفائقة لوالتر فى تاريخ الصهيونية، إلا أن شقيقه الأصغر ناثانييل تشارلز (١٨٧٧ - ١٩٢٣) هو الذى رأس ن.م. روتشيلد وأولاده.

لم يكن لدى والتر فى البدايه ميول قوية تدفعه أن يلعب دورًا نشطًا فى القضية الصهيونية؛ لمعاناته من الاكتئاب والأفكار السوداوية التى جعلته ينأى بنفسه عن حياة لندن وتجنب الاندماج فيها، إلا أنه كان يلتقى بوايزمان ويبدى تعاطفه مع القضية. أما روزيكا زوجة ناثان، فقد كانت

ضالعة كلياً بأقصى جهدها فى المشروع الصهيونى، ولعبت دوراً كبيراً فى مساعدة وايزمان وجماعته لمقابلة أصحاب النفوذ وصناع القرار من الساسة الإنجليز(٢١).

ويذكر وايزمان عن آل روتشيلد: أنهم ربما كانوا أهم عائلة فى تاريخ المهجر اليهودى(٢٢) بالرغم من ظهور انقسامات وعدم إجماع على المسألة الصهيونية بين أفراد العائلة، إلا أنه من خلال مشاركة ومساهمة البارون إدموند دى روتشيلد وابنه چيمس، وما قام به الشق البريطانى من العائلة وعلى رأسهم ليونيل والتر دى روتشيلد، تحول الحلم الصهيونى إلى حقيقة.

ولا يوجد شك أن النفوذ الذى تمتع به آل روتشيلد من خلال إمتلاك البنوك ومؤسسات التمويل دفع القضية الصهيونية ماليًا وسياسيًا لتحقيق حلمها النهائى فى إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين.

والتفسير ذاته ينطبق على الحكومات البريطانية التى وضعت سمعتها على المحك؛ لتحقيق فرض وصايتها على فلسطين بعد إعلان بلفور، وبعد تحقيق الاستقرار فى الشرق الأوسط لتحمى مصالحها فى نفط العراق والجزيرة العربية، وتأمن طرق تجارتها مع الهند وآسيا. كانت أى محاولة لإثناء حكومات بريطانيا عن أهدافها البعيدة فى تلك المنطقة بمثابة تهديد كبير لمصالحها الخارجية فى الشرقين، الأدنى والأوسط.

ماذا حدث للبردية المفقودة ؟

لو كان لورد كارنر ڤون شريكاً لكارتر فى نوايا استغلال بردية الخروج، فمن الممكن أن يكون قد لوح باستخدامها لأولئك الذين يمكن أن يخسروا الكثير إذا فشلت خطة تحقيق وإنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين. ولو كان قد سمح لكارتر بإفشاء أى تفاصيل من تلك الوثائق، لكان قد أصاب التطلعات الصهيونية إصابة قاتلة.

وطبقًا لذلك المفهوم، وافق كارتر على عدم إفشاء أى شىء عن نصوص البردية، ثم تناسى الأمر بأجمعه بعد ذلك ولم يعد يشكل أى تهديد حقيقى لأى توجهات سياسية.

وحيث إن كارتر كان معروفًا كعالم مصريات له مكانته، فلم يكن من المتوقع أن يأتى وقت يخرج فيه عن صمته ليعترف أنه سرق وثائق بردية من مقبرة توت عنخ آمون، ولم يقم بتسجيلها وتصنيفها رسمياً وترجمتها كما يجدر به أن يفعل كأى عالم أمين. لو خرج عن صمته لكان بلا أى شك قد دمر سمعته المهنية، ويضع نهاية لاسمه كعالم مصريات أمين وكاتب ناجح، ومحاضر عام، ومتحدث شهير فى الاحتفالات والمناسبات. لم يكن أمامه سبيل ليعرض وجوده وسمعته للدمار، خاصة أن مهنته فى البحث الآثارى كانت ستنتهى فى ربيع عام ١٩٣٢. وبدا انفجار غضبه فى مكتب القنصل العام البريطانى بالقاهرة كطفرة لم تتكرر بعد ذلك أبداً.

فى نهاية المطاف لا نجد لدينا دليلاً مطلقًا ويقينيًا أن بردية الخروج كانت موجودة، ولا يمكن فى الوقت نفسه لأى امرئ أن يبرهن أنها لم تكن موجودة.

ولكن، إن كانت قد وجدت، فما هو مصيرها المحتمل ؟ هل دمرها كارتر حتى لا تقع فى يد من يذيع نصوصها ؟ أم مازالت قابعة فى درج منسى بأحد المتاحف، أو مدفونه تحت أكوام من برديات أخرى لا تحمل قيمة خاصة ؟ أم سلِّمت لجماعة ما يشكل نص البردية أهمية خاصة لها، ثم أعدمت أو وضعت فى إحدى الخزائن الآمنه بعيداً عن العيون الفضولية؟

لسوء الحظ، لا توجد إجابه شافية، ولا نأمل إلا فى ظهور بعض الأدلة فى المقبل من الأعوام تحدد المصير النهائى لتلك البردية، وما تحتويه من أحداث وقعت على مسرح التاريخ المصرى القديم.

التسمم بالعناصر النادرة

وماذا عن موت الإيرل الخامس لكارنرڤون تلك الميتة الغريبة ؟ وهل يمكن ربط موته ذاك بالمعلومات الحساسه التى وردت ببردية الخروج ؟

كما نعلم، مات لورد كارنرڤون فى ظروف غير طبيعية فى ٥ أبريل ١٩٢٣م، بعد أن أصيب بالتهاب رئوى نتيجة انهيار وضعف جهازه المناعى، بعد تسمم الدم الذى أصابه إثر لدغة بعوضة قبل ذلك بخمسة أسابيع، كل ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، إلا أن هناك أدلة قطعية تثبت أنه قبل لدغة البعوضة كانت صحته تنهار فى تسارع، وسجل ذلك توماس هوڤنج قائلاً : «كانت تتخلخل له سن أو ضرس كل بضعة أيام ثم تسقط. لم يدرك أن بجسمه خللاً ما فى ذلك الوقت، وكانت تلك الأعراض فى رأيى مظاهر التهاب داخلى دفين ينهش أعضاءه الداخلية»(٢٣).

ويشير كل ذلك إلى أن هناك سبباً آخر لمرض الارستقراطى البريطانى وكل الدلائل تشير إلى أنه كان يعانى من أعراض تسمم بأحد العناصر النادرة والمحتمل جداً أنه ناتج عن ابتلاع لا إرادى لعنصر الزئبق. وبدا على زميلة آرثر ميس أعراض مرضية فى الوقت ذاته تقريباً، وكل الأسباب تدفع إلى الاعتقاد أنه عانى هو الآخر من التسمم بالعناصر النادرة بالرغم من أن حالته تلك شخصها طبيبه بأنها تسمم بالزرنيخ.

ولكن، لو كان السم الذى سبب موته لم يكن مادة أو مواد موجودة بالمقابر المصرية القديمة، فإننا لابد أن نتساءل إن كان الارستقراطى البريطانى - وينطبق الأمر ذاته على آرثر ميس - قد تعرض للإصابة بالتسمم بالعناصر النادرة عبر وسائل أخرى ؟

من المعروف أن كارنرڤون وميس كانا معاً فى رحلة نيلية قاما بها فى فبراير عام ١٩٢٣، وبعد ذلك بفترة قصيرة، بدأت صحة الرجلين فى الانهيار والتداعى، فهل يمكن أن يكونا قد تعرضا للتسمم خلال تلك الإجازة القصيرة ؟

لسوء الحظ، لا يبدو ذلك مقبولاً لسببين :

أولهما : أن ميس كان يعانى من تداعى صحته قبل أن يقوم بمصاحبة كارنرڤون فى تلك الرحلة النيلية.

وثانيهما : أن تأثير الزرنيخ أو الزئبق لا يظهر إلا بعد التعرض له بفترة طويلة على مدى بضعة أسابيع ويحتمل بعد شهور أو أعوام، هذا إن لم تدخل إلى الجسم كمية كبيرة دفعة واحدة، ولم يظهر دليل يؤيد الاحتمال الأخير في حالتى كارنرڤون وميس.

الوسيلة الوحيدة التى مازالت متاحة للتوصل إلى مفاتيح جديدة هى بفحص عينات من شعرهما، وإجراء اختبار فحص قناة الشعر الداخلية كما يقترح الكيميائى المؤرخ مايكل كارمايكل، وهى وسيلة مثالية يلجأ إليها علماء السموم فى فحص الأحياء والأموات، فقنوات الشعر الداخلية تحتفظ داخلها بأنواع العقاقير حتى بعد الموت. وفحص عينة من شعر كارنرڤون قد يعاون فى حل لغزه المحير، ولكن لابد من موافقة عائلته على نبش قبره والحصول على عينات الشعر، والأرجح ألا توافق العائلة.

لقد كان سلوك كارتر فيما يتعلق ببردية الخروج المفترضة يشى أن هناك جوانب مازالت خافية خلف موت كارنرڤون، ولهذا السبب، لا يمكننا أن نبرئ اسم كارنرڤون من التورط فى تلك المسألة الشائكة عن البردية المفقودة، والتى يفترض أنهما عثرا عليها معًا فى مقبرة توت عنخ آمون، كذلك لا يمكننا إنكار حقيقة أنه لو كان چورچ إدوارد ستانهوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنرڤون قد تعرض فعلاً إلى التسمم بأحد العناصر النادرة فإننا لا يمكن أن ننفى نفياً قاطعاً أن موته لم يكن نتاج مؤامرة كبرى قام بها مجهولون لهم مصلحة عظمى فى إبقاء ما ورد بالبرديات سرًا خافيًا إلى الأبد.

الملحق ١
مصرع توت عنخ آمون

فى كتابه الذى حقق أفضل مبيعات فى العالم «مقتل توت عنخ آمون»، الذى نشر أول مرة عام ١٩٩٨، اتهم الكاتب بوب برابر - وهو عالم تشريح الجثث المحنطة - آى وزير توت عنخ آمون وإدارييه بقتل الملك الصبى.

توصل بوب براير إلى ذلك الاستنتاج بعد فحص الأنسجة المصابة فى جسم توت عنخ آمون، وقام بفحص تلك الأنسجة البروفيسور رونالد ج. هاريسون من جامعة ليڤربول.

كانت الجامعة قد تقدمت بطلب للسماح لها بفحص جسم توت عنخ آمون بالأشعة، وحصل هاريسون على تصريح من الجهات المصرية المختصة لفحص الملك الصبى عام ١٩٦٨. ومنذ أن فحص الدكتور دوجلاس إ. ديرى أستاذ التشريح بالجامعة المصرية بالقاهرة جسم الملك الصبى عام ١٩٢٥(١) لم يقم أحد من بعده بفحص جسم الملك، وظل فى تابوته الصخرى الضخم فى مكانه بالمقبرة.

وبصحبة فريق متخصص شمل أخصائى أشعة متمرسين، وأطباء عموميين، وأطباء أسنان، وعلماء مصريات، سمح لهاريسون بفحص جثة الملك على مدى يومين فقط. وأصابهم ما توصلوا إليه بالذهول، كان هناك تلف كبير بالهيكل العظمى لم يسجله أحد رسميًا من قبل، لاكارتر، ولا ديرى. بل إن هاريسون وجد جسم الملك منشورًا إلى نصفين لتخليصه من الأكفان الداخلية، ومكنه ذلك من حمل أجزاء الجسم منفصلة لتصويرها بالأشعة. كانت السلطات المصرية قد سمحت لفريق الفحص بالعمل أثناء النهار فقط، ونقلت أفلام الأشعة بعناية إلى مدينة الأقصر حيث تم تظهيرها فى إحدى غرف فندق ونتر بالاس.

وحين فحصت صور الأشعة لأول مرة، أثارت دهشة فريق الفحص، فقد كانت قطعة من عظام الجمجمة مكسورة، ومنفصلة من مكانها إلى داخل فراغ الجمجمة، مما رجَّح صحة النظرية التى رأت أن توت عنخ آمون قد مات من إصابة قوية أصابته فى الرأس، إما من ضربة متعمدة، أو إثر حادث تعرض له، وعمد هاريسون إلى التقليل من مغزى شظية العظام المكسورة مقترحًا أنها ربما كانت من عظام الأنف التى يمكن أن تنفصل أثناء التحنيط عند إفراغ مُحتويات الجمجمة من فتحات الأنف إلا أن بوب برابر شك فى صحة ذلك الافتراض موضحًا أن عظمة الأنف التى يتحدث عنها هاريسون قد تكون فى العادة من العظام المسامية الإسفنجية وتتحول إلى شظايا صغيرة عند كسرها، بينما تلك الموجودة داخل جمجمة توت عنخ آمون عظام قشرية وأكبر حجمًا وناتجة عن كسر بالجمجمة وهو حى لا بعد موته. ومضى برابر فى شرح وجهة نظره، ليستنتج أنها قد انفصلت بعد ذلك عن الجمجمة بسبب تعامل كارتر وديرى الخشن مع جسم الملك، وهم يفضون عنه الأكفان عام ١٩٢٥(٢)، وكان لذلك التفسير أهميه خاصة وهامة؛ لأن عددًا كبيرًا من علماء الآثار كانوا يعتقدون أن تلك العظمة نتجت عن حادث أدى إلى موته فى الحال. ولكن برابر على عكس ما اعتقده العلماء لعقود طويلة منذ أن أجرى ذلك الفحص لجسم الملك عام ١٩٢٥، رأى أن تلك العظمة المكسورة ضللت الجميع عن حقيقة أن الملك الصبى عانى من نزيف داخلى بالمخ بعد ضربة شديدة أصابت رأسه(٣).

فهل كان الحادث اغتيالاً ؟

لقد طرأت على ذهن برابر فكرة أن موت الملك الصبى نتج عن مؤامرة لاغتياله حين كان يشاهد برنامج وثائقى على شاشة B.B.C كان المذيع يسأل الضيف البروفيسور هاريسون أن يعلق على ما توصل إليه بعد فحص صور أشعة الجمجمة، وأثناء شرحه لنتائج الفحص أشار إلى جزء

كثافته أعلى عند قاعدة الجمجمة عند موضع إتصالها بالعنق، أو كتلة داكنة لا يعرف سبب وجودها، ثم قال مفسراً إنه يرى :

«أن تلك المنطقة الداكنة فى نطاق النمو العادى للجمجمة، ولكنها فى الحقيقة، يمكن أن تحدث نتيجة لنزيف تحت الغشاء المغلف للمخ فى تلك المنطقة. ويمكن أن تنتج عن ضربة قوية على خلف الرأس وضربة مثل هذه يمكن أن تفضى إلى الموت» (٤).

فما هى حقيقة تلك المنطقة أو ذلك الجزء الداكن الذى وجد عند نهاية الجمجمة فى موضع اتصالها بالعنق، أو ما ذكر عنه أنه أشد كثافة مما حوله ؟

وكيف يمكن أن تنتج عن ضربة قوية لخلف الجمجمة ؟

توجه براير بتلك التساؤلات إلى دكتور چيرالد إيروين، مدير برامج الأشعة الفنية فى جامعة لونج إيلاند، وخبير صور أشعة إصابات الرأس.

وبعد أن شاهد البرنامج المسجل عن B.B.C فحص إيروين صور أشعة رأس توت عنخ آمون التى أرسلها إليه أحد زملاء هاريسون من جامعة ليڤربول، أقر ايروين أن المنطقة الداكنة (ورقة جدار الجمجمة فى المنطقة ذاتها) يمكن أن تنتج عن ضربه قوية خلف الرأس(٥)، وعدا ذلك، استنتج أن مثل تلك الإصابات لابد أن يترتب عليها تجمع دموى يتراكم خلف أغشية المخ. وفسر ذلك الجزء الكثيف بأنه ترسب للكالسيوم في التجمع الدموى حتى يتحول إلى عظام كثيفة وهو ما يسميه الأطباء، التجمع الدموى المزمن تحت غشاء الام الجافية، أو اختصاراً، ورم ناتج عن تجمع دموى.

وعلق ايروين - أيضًا - على مكان الإصابة عند اتصال الجمجمة بالعنق(٦)، وذكر أنه لو كانت ضربة متعمدة فلابد أن يكون توت عنخ آمون مستقليًا على وجهه أو على جانبه حين ضرب (٧).

وخلص براير إلى أنه بالرغم من أن الدليل المستمد من صور الأشعة لا يثبت حدوث تآمر، إلا أنه يدخل فى نطاق التوصيف البوليسى «الموت

المريب» (٨) .

فهل هذا هو ماحدث لتوت عنخ آمون؟ هل ضرب بهراوة وهو نائم فى فراشه، وترك ليموت موتًا بطيئًا مؤلمًا وهو فاقد الوعى حتى جاءت النهاية ؟

بالتأكيد كان ذلك ما يعتقده بوب براير، ومن الممكن أن يكون مصيباً، والدليل على أنه تلقى ضربة قوية فى رأسه دليل قوى وثابت من صور الأشعة ومن العظام المكسورة المنفصلة عن موضع الإصابة. ولكن، هل كانت الضربة نتيجة تآمر واغتيال ؟ وهل هناك شخص ما دبر موته ؟

الإجابة الصحيحة أنه لا أحد يدرى، فالدليل الوحيد يمكن أن يستمد فقط من صور الأشعة التى صورت عام ١٩٦٨، ومن أقل القليل الذى نعرفه عن توت عنخ آمون.

ومن الأرجح - أيضاً - أن تكون تلك الإصابة قد ألمت به نتيجة حادث وقع له، على سبيل المثال : السقوط على خلف الجمجمة من الممكن أن يماثل ضربة قوية لخلف الرأس، وربما يكون قد سقط للخلف من عربته ووقع على ظهره على حجر أو صخرة أو نتوء فى الأرض. ولو كان قد ضرب بهراوة أثناء نومه، لماذا لم يجهز عليه قاتله بضربات أخرى تضمن له موت؟. بالتأكيد لم يفترض الشخص أو الأشخاص الذين قاموا باغتياله أن الملك قد مات بضربة واحدة من هراوة على رأسه.

وحتى لو كان قد قتل أو اغتيل، فإن اختيار بوب براير لـ «أى» كقاتل له يبدو مجافيًا لكل منطق. وطبقًا لما ذكره بوب براير فى كتابه «مقتل توت عنخ آمون»، فإن المرشح الثانى لأن يكون قاتله هو «حور محب»، نائبه وخليفته، والمسئول عن إدارة الشئون العسكرية والسياسية من مقر إقامته فى ممفيس، التى أصبحت المقر الإدارى لمصر بعد هجر مدينة أخيتاتون، وان كان قد قام بتلك المهمة الدنيئة، لم يكن ليحول دونه حائل فى إرتقاء عرش مصر. وهكذا، يبقى المرشح الأقوى لأن يكون قاتله كما يعتقد براير هو «آى» الذى خلف توت عنخ آمون على عرش مصر. وفى رأينا، فإن هذه النظرية تذهب إلى أقصى مدى من التطرف فى الرأى، وكل الأدلة تشير

بقوة إلى عكسها.

بعد موت توت عنخ آمون المفاجئ وغير المتوقع، كان على «آى» العراب القديم للعائلة المتبقى، القيام بإعداد ترتيبات الدفن، وهذا ثابت؛ لأن آى مصور على جدار مقبرة توت عنخ آمون وهو يلبس جلد الفهد بصفته الكاهن الأعظم. واقفًا أمام البدن المحنط متخذًا هيئة أوزوريس رب العالم الآخر، ممسكًا بالمطرقة ويقوم بإجراء طقوس فتح الفم. فى تلك الطقوس وبتلك المرتبة يقوم آى بدور حورس، ابن اوزوريس، وهو يحى «أباه» الروحى، وذلك الطقس لا يقوم به إلا الوريث الشرعى للعرش.

وتظهر تلك الصورة الجدارية - أيضًا - أن آى كان قد عين وريثًا شرفيًا للعرش، مما خوله أن يقوم بكل طقوس المرور التى تمكن الملك الصبى الميت من دخول عالم الآخرة.

عبادة أتون

حملت قطع كثيرة فى قبر توت عنخ آمون رموز آتون الرب الشمسى بكل إجلال، و نصوصًا مكتوبة تحمل اسمه، أى بعد تسعة أعوام من حكم توت عنخ آمون كان يفترض خلالها أنه حرم ومنع أى ذكر لديانة أخناتون المكروهة. ومن أوضح الأمثلة : كرسى العرش المذهب الذى وجد بالغرفة الخارجية، فعلى مسند الظهر صور الملك الشاب جالسًا والملكة تقف أمامه وهما متساويا الطول فى الرسم، تمسك فى يدها اليسرى كأس تقدمات مليئة بالزيت المقدس، ويدها الاخرى تمس كتفه فى رقه بادية. وكلاهما مصور بالطريقة، والاسلوب النمطى المميز لفنون حقبة العمارنة، إلا أن ما يحمل دلالة خاصة، قرص الشمس المصور فوقهما رمز الإله آتون تمتد منه أشعة تنتهى بكفوف تقدم الحياة على شكل عنخ فوق رأسى الزوجين، فى حين يظهر اسم الملك فى شكله المستحدث المنتمى للديانه العائدة التقليدية، أى توت عنخ آمون، أما الشكل فينتمى إلى حقبة العمارنة وهو توت عنخ آتون.

وحيث إن ذلك الكرسى الرائع اختير لمصاحبته فى عالم الأبدية. فإن ذلك يظهر بوضوح أن توت عنخ آمون وزوجته عنخسن آمون ظلا على ولائهما للديانة الملغية حتى آخر لحظة من حياتهما. فضلاً عن ذلك، حيث إن «آى» كان المسئول عن إعداد الترتيبات الجنائزية للملك حتى دفنه، فلابد أنه أيضًا كان مدركًا أن كل القطع المنتمية إلى دين العمارنة وفنونها قد وضعت بالمقبرة، مما يظهر أنه هو - أيضًا - كان محتفظًا على الأقل ببعض إيمانه بآتون. ويظهر ذلك وغيره أن عنخسن آمون وآى كانا يعملان بتنسيق مشترك متناغم، وأنهما لم يتناقضا فى المعتقدات الدينية ولا التوجهات السياسية.

وبعد أن أحطنا علمًا بتلك الحقائق، نأتى إلى الموضوع الخطير من تناول ذلك الموضوع، وهو المراسلات التى جرت بين غخسن آمون بعد موت توت عنخ آمون وسبيللوليوما ملك الحسنيين(٩). فلإدراكها عدم وجود وريث شرعى من صلبهما، خشت من وقوع انقلاب عسكرى من أحد قادة الجيش الشرهين للقوة والنفوذ، دفعها ذلك الخوف إلى اتخاذ قرار لم يخطر بذهن أحد من قبلها فى التاريخ المصرى القديم.

فسعيًا منها الى إيجاد شريك حكم ملائم يحكم البلاد بقبضة قوية مثل أعظم الفراعنه، بعثت برسالة إلى سبيلو ليوما تحثه فيها على إرسال أحد أبنائه ليكون زوجًا لها. فى البداية تشكك سبيللوليوما فى جدية الطلب وفى دوافعه، إلا أنه وافق فى النهاية وأرسل أميرًا شابًا من أبنائه يدعى زانانزا، إلا أنه قتل فى ظروف غامضة فى الطريق (من تركيا إلى مصر)(١٠) .

فى رسالتها الأصلية إلى سبيللوليوما قالت : «لا يمكن أن أنتقى أحد خدمى وأجعله زوجى»(١١). فمن الذى كانت تقصده حين كتبت تلك العبارة القوية ؟ كان آى من أهم شخصيات البلاط الملكى فى العمارنة أثناء حكم أخناتون. ووهبه الملك لقب «سيد الخيل» الذى يعنى أنه مستشار الملك ووزيره، وصورت نقوش أخرى لآى بصفته «أبو الإله»، وهو

لقب ظل يحمله من عهد أخناتون حتى عهد حكمه هو القصير الذى استمر أربعة أعوام. وكان المقصود بـأبى الإله أنه أبو الملك الفرعون مما يدل على قرابته المباشرة أو بالنسب لأخناتون واللقب ذاته منح - أيضًا - ليويا، أبى تايى، زوجة أمونحتب الملكة العظيمة وأم أخناتون(١٢). وهكذا، توجد احتمالات قوية بقرابة آى للملك المرتد، ويفترض أنه أبو نفرتيتى(١٣)، أى أنه كان أحد أفراد الأسرة الملكية، ولا يمكن أن تشير اليه عنخسن بعبارة «أحد خدمى».

فإلى من إذن كانت تشير عنخسن بعبارة أحد خدمى فى رسالتها ؟

الأقرب إلى الاحتمال أنها كانت تشير إلى حور محب، فلم يكن يمت للدماء الملكية بأى صلة، وهو المرشح الثانى فى حال البحث عن قاتل لتوت غنخ آمون.

ولكونه قائداً عسكريًا محنكًا وقديرًا فلا نستبعد تطلعه لانتزاع الحكم لنفسه من المراحل المبكرة لفترة الردة الدينية لتل العمارنة، ومن المحتمل جدًا أنه كان يقوم بالتنسيق مع كبار كهنة ديانة آمون الملغية وكبار ضباط الجيش لتحقيق تطلعاته.

إلا أن الحقيقة السافرة من أن حور محب لم يعتل عرش مصر بعد موت توت عنخ آمون مباشرة يدل بقوة أكبر أن توت عنخ آمون لم يغتل. أما لو كان حور محب هو المسئول عن قتله، فإن آى لم يكن ليعتلى عرش مصر بأى حال.

ويوضح ذلك سبب إرسال عنخسن آمون بتلك الرسالة الى ملك الحسنيين تطلب منه إرسال زوج ملائم لها، بعد أن ملأتها المخاوف أن يدبر حور محب إنقلابًا عسكريًا، ويعتلى العرش، ويجبرها أن تتزوجه حتى يضفى على حكمه الشرعية اللازمة. ومع مرور الوقت الذى كان يتناقص بسرعة أمام الملكة المذعورة، أضفت على آى لقب ملك مصر حتى تسد السبل امام نوايا حور محب.

حادث صيد ؟

ونعود للتساؤل، كيف مات توت عنخ آمون ؟

لقد عرف عن توت عنخ آمون ولعه بالصيد(١٤)، وهناك احتمال قوى أن يكون قد سقط من عربته في رحلة من تلك الرحلات، وتلقت رأسه تلك الإصابة القاتلة، كان فى الثامنة عشرة من عمره حين مات، ولم تكن لديه الدربة ولا الدراية التى يظنها فى نفسه عن مطاردة طرائد الصيد، ويحتمل - أيضًا - أن يكون ذلك الحادث قد وقع له أثناء انتقاله بعربته من مكان إلى آخر.

حين فحص كارتر وديرى رأس توت عنخ آمون عام ١٩٢٥، وجدا أن شعر رأسه قد حلق بأجمعه وهو عمل غير معتاد إجرائه لملك ميت، فهل أزال الأطباء الملكيون شعر رأسه وهم يحاولون التعرف على طبيعة ذلك التورم الذى ظهر فى الأسابيع التالية بعد الضربة التى أصابته ؟ ولما لم يجد الأطباء جرحًا خارجيًا لم يقوموا بأى إجراء لإزاله الورم الذى بدأ يضغط على مخه، وراح الملك يعانى من نوبات صداع وآلام بالرأس تزداد سوءًا بمرور الأيام، ثم بدأ يعانى من إغماء متكرر مع ازدياد التجمع الدموى الضاغط على المخ، ثم سقط أخيرًا فى غيبوبة طويلة انتهت بموته. وحيث إنه من الثابت حدوث تكلس للتجمع الدموى، فإن ذلك يدل دلالة قاطعة أن توت عنخ آمون قد عاش شهرين على الأقل بعد إصابته أو عدة شهور فى المعتاد، قبل أن تؤدى مضاعفات الإصابة الى موته.

سقوط فرعون

أين تضعنا تلك الصورة الحية من الأحداث المثيرة التى وقعت عند نهاية عهد توت عنخ آمون فى العلاقة الجدلية بين حقبة العمارنة وعلاقتها بالخروج التوراتى والذى يبدو بجلاء أنه حدث فى فترة اضطراب ما بعد العمارنة ؟

في باكورة عام ١٩٢٣، حتى قبل أن يقوم كارتر وديرى بفحص البقايا المحنطة من جسم توت عنخ آمون، أشار عالم المصريات البريطانى أرثر ويجال فى كتابه «توت عنخ آمون ومقالات أخرى» إلى قصة غريبة فى التلمود تعكس الطريقة العنيفة التى لقى بها توت عنخ آمون مصرعه، إلا أن قصة التلمود تتحدث عن الفرعون الذى خرج موسى فى عصره من أرض جوشن الى أرض ميديان بعد أن قتل موظفًا مصريًا كان يسىء معاملة أحد أبناء إسرائيل. وطبقًا لتلك الأسطورة التلمودية، نجدها تذكر أن الملك أصابه الجذام (ربما تصوير تخيلى يعكس إصابته بمرض فكرى وهو الإيمان بآتون)، وتضيف القصة التلمودية :

بينما كان فى عذابه (بالجزام) جاءته تقارير من جوشن أن أبناء إسرائيل يهملون عملهم ويتكاسلون عن أدائه، وزادت تلك الأبناء من معاناته، وقال : هل لأنى مريض، استهانوا بى؟ أسرجوا خيلى وأعدوا عربتى وسأتوجه بنفسى إلى جوشن، وأرى تلك السخرية التى يسخرها أبناء إسرائيل منى. ورفعوه ووضعوه على عربته فلم يكن قادراً على ركوبها بنفسه، وحين وصل هو وحاشيته إلى الحدود بين مصر وجوشن مروراً بممر ضيق، وزحمت الخيل المسرعة بعضها البعض حتى سقط حصان الملك وهو جالس فوقه، وانقلبت العربة على وجهه، والحصان سقط فوقه. وتمزق لحم الملك وحمله عبيده على أكتافهم وأعادوه إلى مصر وأضجعوه فى فراشه، وعلم أن نهايته قد حانت، وتجمع حوله الملكة الفرعنيت والنبلاء وبكوا بكاءً مريراً(١٦).

هل يمكن أن تكون تلك القصة الفولكلورية اليهودية صدى بعيداً للسقطة التى أودت بحياة توت عنخ آمون، بالرغم من أن بعض العناصر التى احتوتها القصة التلمودية لا تنطبق على ما عرفناه عن الملك الصبى ؟

لقد رأى آرثر ويجال أن الملك المعنى فى تلك القصة التلمودية هو أخناتون(١٧)، بسبب العلاقة الواضحة بين نظام العمارنة وقصة مانيتو عن أوسر سيف – موسى، وأن القصة التلمودية تؤكد أن ذلك الملك كان قد

أنجب أبناءً كثيرين (وهو مالا ينطبق على توت عنخ آمون الذى لم ينجب)، وأن الملك فى القصة التلمودية كان له أبناء ذكور وإناث من الملكة الفرعنيت، غير أبنائه من خليلاته(١٨).

ومن الواضح أن ويجال لم ير صور أشعة رأس توت عنخ أمون التى صورت عام ١٩٦٨.

إن صور أشعة رأس توت عنخ آمون تدحض بشدة نظرية بوب برابر عن اغتيال توت عنخ آمون أثناء نومه بأوامر من آى، فقد عاش توت عنخ أمون بعد إصابة رأسه شهوراً كانت كافية لإحداث تكلس بالتجمع الدموى الذى تكوَّن داخل الجمجمة. وبذلك تصبح نظرية برابر عن الاغتيال بلا ثقل ولا وزن بأى قدر كان.

الملحق ٢

تحريم أكل الخنازير وعبادة ست

فى الأعوام الأخيرة، تراكم لدى الباحثين الأنثروبولوچين وعلماء الأحياء القديمة ثروة من المادة العلمية الخاصة بالحيوانات الحقلية الأليفة واقتصادياتها فى الشرق الأدنى أثناء العصرين : البرونزى والحديدى، وأدت تلك المعلومات إلى اكتشاف جوانب جديدة عن مواطن الأصول العرقية لمن قبل الإسرائيليين فى منطقة المرتفعات الوسطى من فلسطين، واعتمد ذلك التحديد للمواطن المعيشية على غياب بقايا عظام الخنازير بين بقايا عظام الحيوانات التى عثروا عليها بتلك المناطق الدالة على الحقبة التاريخية.

على سبيل المثال : تبين أن المواقع المبكرة للاستيطان فى تلك المرتفعات فى آخر العصر البرونزى ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م تحتوى على عظام خنازير كانت تربى كأحد مصادر الغذاء الدائم، إلا أن بقايا العظام المنتمية الى العصر الحديدى ١٢٠٠ - ٥٨٥ ق.م، لا تحتوى على أى عظام خنازير ويذكر برايان هيس من قسم الأنثروبولوچيا بجامعة آلاباما فى بيرمنجهام عن ذلك «تقدم أماكن سكن حقبة العصر الحديدى فى فلسطين صورة حياة تخلو تماماً من وجود الخنازير .. وبتوسيع نطاق البحث عن بقايا الخنازير فى المراحل الأخيرة من العصر الحديدى، وكذلك عينات ليست محددة الانتماء بشكل قاطع لأى مرحلة من العصر الحديدى، أشارت نتائج البحث إلى نتائج أكثر سلبية عن وجود الخنازير»(١)

وحيث إن تحريم أكل الخنزير قاصر على اليهود والمسلمين فى عالمنا المعاصر، فإن أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل : إسرائيل فرانكلنشتاين ونيل آشر سيلبرمان وآخرين افترضوا أن غياب عظام الخنازير من مخلفات مجتمعات العصر الحديدى فى فلسطين فى المرتفعات الوسطى،

يظهر أن أولئك السكان كانوا أسلاف الإسرائيليين الأوائل، وظهروا على مسرح أحداث تلك المنطقة لأول مرة بعباداتهم الدالة عليهم(٢)؛ لأن «الخنزير لم يكن يطهى ولا يؤكل، ولا حتى يربى» في تلك المواطن(٣).

فضلاً عن ذلك، احتوت المناطق المجاورة على بقايا عظام خنازير فى نفس فترة العصر الحديدى، وهى المناطق التى كان يسكنها أعداء إسرائيل التقليديون(٤) وأدت تلك الاحصائيات أن يستنتج فرانكلنشتاين وسيلبرمان ما يلى :

ربما توقف أسلاف الإسرائيليين عن أكل الخنزير فقط؛ لأن الشعوب المجاورة - أعداءهم - كانوا يأكلونه؛ لأنهم كانوا يرون أنهم مختلفون عنهم ونتج عن ذلك عادات غذائية عرقية فصلت بين الأعراق، ومن الواضح أن ديانه التوحيد اليهودية والخروج وتابوت العهد قد جاءت متأخرة كثيراً بعد تكون تلك العادات قبل كتابة التوراة بخمسمائة عام بما احتوت عليه من تفاصيل تشريعية ونظم غذائية دينية واختار الإسرائيليون - لأسباب ليست واضحة تماماً لنا - ألا يأكلوا الخنزير. وحين يقوم اليهود المعاصرون بالامتناع ذاته، فإنهم إنما يمارسون العادات التحريمية القديمة جداً لشعب إسرائيل القديم فيما قبل التشريع (٥) .

هل يمكن أن نستنتج من خلو مواقع المرتفعات الوسطى بفلسطين فى العهد الحديدى أن ساكنى تلك المناطق كانوا من أسلاف الإسرائيليين الذين طوروا تميزهم العرقى ؟ إن النهى الدينى عن أكل الخنزير موجود فى كل الأسفار الخمسة الأولى، وضمن النظم التى تحكم العلاقة بين إسرائيل ويهوه فى سفر اللاويين فى الاصحاح الحادى عشر، الذى ينص على: «والخنزير؛ لأنه يشق ظلفاً ويقسمه ظلفين لكنه لا يجتر فهو نجس لكم. من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم»(٧)، والتحريم ذاته مكرر فى سفر التثنية، الاصحاح١٤(٨) .

وبالرغم من احتمال منشأ تلك القواعد فى القرن السابع قبل الميلاد فقط حين أدخلت إصلاحات دينية متطرفة بهدف تقنين عبادة يهوه، إلا أنها

كانت تعكس عادة أقدم وهى تحريم أكل الخنزير من العصر الذى سكن فيه الإسرائيليون الأول منطقة المرتفعات الوسطى من فلسطين.

ويذكر باحث الآثار التوراتية رولاند دى ڤو :

الإجابة الوحيدة المحتملة ان المنع يعود إلى الأسلاف الأوائل، وأن تلك العادة ظلت سائدة فى إسرائيل بعد أن نسيت جذورها الدينية. وعلى أى حال، فاليهود والمسلمون المعاصرون يمتنعون عن أكل الخنزير دون أن يعرفوا سبب ذلك باستثناء أن ذلك التحريم مذكور فى التوراة والقرآن، ومن المحتمل جداً أن يكون رفض الخنزير وكراهته جاء من رؤية الاسرائيلين الأوائل للخنزير الذى كان يقدم كقربان فى الطقوس الوثنية(٩) .

ويردد الباحثون - بوجه عام - الرأى القائل أن أصل تحريم أكل الخنزير بين الإسرائيليين الأوائل يعود لأسباب صحية ومكانية وتوزيعية ودينية وسياسية(١٠). إلا أن التحريم كان موجوداً قبل التحريم الدينى لأسباب صحية؛ لأن الخنازير كانت تعد حيوانات نجسة وغير طاهرة تربى فى أماكن النفايات والقاذورات من أجل التخلص من تلك النفايات والقاذورات وغالبا ما كانت الخنازير مصابة بالديدان الشريطية، وهكذا، كان هناك دائماً الاعتقاد الساذج أن الأمراض، ومنها الجزام، من الممكن أن تنتقل من التعامل مع الخنازير أو شرب لبنها. وبتلك الاعتبارات الصحية توفرت الدوافع لدى الإسرائيليين الأوائل لتحريم أكل الخنزير، وبقيامهم بذلك فصلوا وميزوا أنفسهم عن قبائل الفلسطينيين المجاورة والموآبين والعمونيين، الذين كانوا أقل حكمة (١١) .

وبالرغم من أن تلك الترجيحات تبدو منطقية فى ظاهرها ولعبت دورها بلا شك فى تطوير القواعد الدينية التى تحرم أكل الخنزير بين قبائل اسرائيل إلا أن من المحتمل تلك أن العادات تعكس عادات وأفكاراً لا تمت إلى أرض فلسطين، بل تمت إلى مصر القديمة. إضافة إلى ذلك، فإن عدم وجود عظام خنازير فى المناطق المفترض معيشة أسلاف الإسرائيليين بها

فى المرتفعات الوسطى تدعم الاحتمال الذى توجد عليه أدلة وبراهين عن الأصل المصرِى ،لذلك الاعتقاد الذى حرم أكل الخنزير لارتباطه بالإله المخادع ست.

حيوان نجس

قضى المؤرخ والرحالة الإغريقى هيرودوت بضعة أعوام فى مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد مسجلاً عادات شعب مصر وتقاليده، ولاحظ أن الشعب المصرى يعتبر أن «الخنزير حيوان نجس غير طاهر، حتى إنه لو مس أحد المصريين وهو سائر - لشأن ما - يهرع المصرى إلى النهر ويقفز إلى الماء ويغطس بما عليه من ملابس ليتطهر»(١٢) .

ويضيف هيرودت إلى ذلك قائلاً :

«ومع أن رعاة الخنازير فى مصر من دم مصرى نقى، إلا أنه محرم عليهم دخول أى معبد دينى مفتوح لكل المصريين، ولا يقبل أى مصرى آخر أن يزوجهم من بناته، كما لا يتزوج من نسائهم حتى إن رعاة الخنازير يتزوجون من بعضهم البعض، ولا يقدم المصريون الخنازير كقرابين لآلهتهم، باستثناء الإله باخوس (أوزوريس) وإله القمر الذين تقدم اليهم قرابين من الخنازير التى يضحى بها فى وقت اكتمال القمر، ويأكلون من لحمها فى تلك المناسبة فقط(١٣)، ويذكر هيرودت عن التضحية بالخنازير فى وقت الاكتمال القمرى، أن طرف الذيل والطحال والغشاء الجامع للأمعاء توضع معًا وتغطى بكل الدهن الموجود فى بطن الخنزير وتحرق مباشرة(١٤)، وما يتبقى من الحيوان يؤكل فى اليوم نفسه «ولا يتذوقونه فى أى وقت آخر».

أما الفقراء الذين لا يستطيعون تقديم خنزير «فيصنعون خنزيراً من العجين، يخبزونه ويقدمونه قرباناً»(١٥) وعند تقديم الخنزير كقربان لاوزوريس الذى عرفه اليونانيون باسم باخوس، كانوا يضحون بالحيوان على عتبات باب المعبد قبل أن يحمله رعاة الخنازير بعيداً عن الباب

لإعداده، وهم الرعاة الذين باعوا ذلك الخنزير حياً»(١٦)

وفى القرن الأول الميلادى سجل الكاتب والداعية الأخلاقى بلو تارك أن المصريين كانوا يضحون بالخنازير مرة واحدة فى العام لرب القمر سيليين(١٧)، بالرغم من اعتبارهم أن الخنزير حيوان نجس.

كذلك كتب المؤرخ وعالم الطبيعة الرومانى إيليان فى القرن الثانى عن الخنازير فى مصر، وذكر أن ذلك الحيوان «فى نهمه الدائم لا يتعفف عن أكل صغاره» وأنه «لو صادق جثة إنسان لن يتردد فى أكلها»(١٨)، ولهذه الأسباب كره المصريون «ذلك الحيوان النجس ملتهم القاذورات»(١٩).

وذكر - أيضًا - عن مانيتو أنه قال «من يتذوق لبن الخنزير يصاب بالجذام والطفح الجلدى القشرى»(٢٠)، واستنتج إيليان من ذلك:

المصريون مقتنعون أن الخنزير مكروه من الشمس والقمر ولذلك يضحون به لربة القمر مرة كل عام، ولا يضحون به لأى آلهة أخرى(٢١) .

وأخيراً، يذكر إيليان ما نقله عن الفلكي والطبيب الإغريقى إيودوكسوس السندوسى (٣٥٥ ق.م):

يمتنع المصريون عن التضحية بالخنازير؛ لأنهم بمجرد حصد القمح يستخدمون الخنازير للمرور على المحاصيل لفصل الحبوب وغرسها فى التربة حتى لا تأكل الطيور تلك الحبوب(٢٢) .

الخنزير الأسود

كانت تلك هى المفاهيم والعادات المترتبة عليها المرتبطة بالخنازير فى مصر القديمة، فمن جهة، كان ينظر إليها على أنها نجسة، ومن جهة أخرى كانت تعامل بتقديس وتقدم كقرابين مرة كل عام عند اكتمال القمر.

وبالرغم من أن رفضها كطعام يعود إلى عدم نظافتها، إلا أن الخنازير كانت ترتبط مباشرة بطقوس وعبادات الإلة ست (أو ست، الاعصار الإغريقى) إله الفوضى والدمار حاكم ورب الصحارى الحارة والخرائب.

وهناك أسطورة تؤكد على الشكل الخنزيرى لست، وهى الأسطورة

الخاصة بمولد ذلك الرمز المصرى القوى وهو رمز عين حورس. فالسفر رقم ١١٢ من كتاب الموتى يحكى عن رب الشمس رع الذى قال ذات يوم لحورس: «دعنى أرى من خلال عينيك ما يأتى به الزمن القادم»، وحين نظر بعمق فى عينيه قال لحورس : «أرى خنزيراً أسود(٢٣)، ونتيجة لذلك، أمر الإله رع من تلك اللحظة بتحريم الخنزير، لانه حيوان بغيض وكريه.

ويظهر ست - أيضًا - فى صورة خنزير فى أسطورة أوزوريس الدينية، والذى يمثل أوزوريس فيها أبدية الموت والبعث. فبعد أن ذبح أوزوريس على يد اخيه الشرير ست، أسرعت أرملته إيزيس الى دلتا النيل لتطمئن على سلامة ابنها حورس، ولما وصلت تخفت على هيئة حدأة وراحت تراقب تحركات ست الهائج وهو فى هيئة خنزير برى بينما كان ابنها حورس فى هيئة صقر مختفياً فى عشه(٢٤) .

وتوجد حكاية أخرى - أقدم - ذبح فيها أوزوريس على أيدى ست الذى كان على هيئة خنزير برى مقدس(٢٥)، وتحكى أن «تيفون كان يصطاد خنزيراً بريًا حين اكتشف جثة أوزوريس الذبيح، وأنه لذلك السبب بدأ يضحى بالخنازير مرة كل عام»(٢٦) .

أى أن التضحية لم تكن إلا فعلاً انتقاميًا موجهًا ضد قاتل أوزوريس الذى اتخذ شكل خنزير أسود أو خنزير برى شرس.

ويرى الأنثروبولوجى البريطانى الشهير سير چيمس چورچ فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١) فى عمله المعروف «الغصن الذهبى» الذى نشر لأول مرة عام ١٩٢٢م أن الخنزير الذى كان يضحى به لاسم أوزوريس كان يعتبر الإله ست بذاته وفى مظهره كـ «روح الحبوب الحقلية»(٢٧)، والعلاقة الوثيقة بين الخنازير والقمح مذكورة فى قصة الخروج، والتى تذكر أن الحبوب بعد حصد الحنطة كانت تجمع لتمر عليها الخنازير لفصل الحبوب عن السنابل، ويعتقد فريزر أنه بعد زمن طويل تطورت رؤية الحيوان ككائن بغيض وكريه ومرفوض، لا يصلح إلا كإله للكوارث والخداع والفوضى والدمار.

عبادة الإله ست

إن هيئة ست الذى يصور على شكل خنزير برى شرس لاجدال حولها، وكان يصور فى الفن المصرى والأدب المصرى القديم كحيوان أسطورى يشار إليه باسم ست - الحيوان، أو «فينيخ»، وهو شكل هجينى من ثعلب الصحراء ويظهر - أحياناً - فى هيئة جاموس البحر، وعدا ذلك صور -أحياناً - بجسد بشرى ورأس ست الحيوانى يحمل رمحاً فى يده. ومن خلال اقترانه بابنه سوبيك المصور على هيئة تمساح أصبح يعبد أيضاً على هيئة تمساح خاصة فى معبد كوم امبو جنوب مصر. كان ست غالباً ما يصور فى صراعه ضد حورس قاتله القدرى المحتم وحورس واقف فوق جثته بعد أن صرعه، ويحتمل جداً أن تلك الصورة هى منشأ مضمون الأيقونه المسيحية التى يظهر فيها القديس مايكل وهو يطعن برمحه الشيطان المصور علي شكل تنين)، وسادت عبادة سوبيك (ست) فى شرق الدلتا، وكذلك كان يعبد فى كوم امبو بإيمان عميق أيضًا، فمثلاً : فى معابد منطقة تل الدبا، حواريس القديمة أو بى - رمسيس (مدينة رمسيس التوراتية) عبد ملوك متتابعين من الأسرة الثالثة عشرة ذلك الإله (١٧٨٦ - ١٧٠٠ق.م)، حتى إن بعضهم كان له أسماء مركبة تحتوى على اسم سوبيك تعظيماً وإجلالاً له.

كان ملوك الأسرتين، الثالثة عشرة والرابعة عشرة يمضيان فى تداخل وكونا النصف الأول من ملوك الأسرات المتوسطة فى التاريخ المصرى القديم ١٧٨٦ - ١٥٧٥ق.م .

ووصلت الأسرتان إلى نهايتهما حين اجتاحت جحافل الهكسوس أرض مصر حوالى ١٧٣٠ - ١٦٥٠ ق.م، وأسسوا عاصمتهم فى تل الدبا، وحيث إن ذلك المكان كان مركز عبادة سوبيك وأبيه ست، فإن إله أرض الحدود ورب الأغراب المقدسين(٢٨) أصبحا مرادفًا ورمزًا لصفات رب الهكسوس الإله بعل(٢٩).

ومنذ ذلك العصر وما تلاه، عبد ذلك الإله المختلط الجديد باسم الإله سوتيك (الاسم البابلى للإله ست). وحتى بعد رحيل الهكسوس وطردهم من مصر، ظلت عبادته قائمة فى منطقة شرق الدلتا.

وبالرغم من أن عبادة ست أصبحت تمارس سراً أثناء عهد أخناتون فى حقبة تل العمارنة، إلا أنها ظهرت من جديد فى ممارسة علنية فى عهد حور محب خاصة فى منطقة شرق الدلتا فقد أمر حور محب بإقامة معبد كبير لعبادة ست فى تل الدبا يقع مباشرة فوق أقدم مركز لعبادة ست، وفى المنطقة التى عبدت فيها الحاكمة المصرية الأنثى سوبيك نوفرو أو سوبيك كار حوالى ١٧٨٩ - ١٧٨٦ق.م خلال عصر الأسرة الثالثة عشرة، قبل وصول الهكسوس إلى مصر مباشرة(٣٠) .

وقد بنى المعبد الذى أمر حور محب بتشييده على نفس المحاور والاتجاهات على نمط المعبد الآسيوى الذى كان مبنيًا فى المكان ذاته مما يظهر استمرارية عبادة ست فى شرق الدلتا بدءًا من الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة الثامنة عشرة، وهو زمن يصل إلى أربعمائة عام.

وهناك مكان آخر أصبح مركزًا لعبادة ست فى شرق الدلتا، وهو مركز مدينة سيلا الحدودية. كان رمسيس الأول الذى حكم مصر لعام واحد بعد موت حور محب (١٣٠٨ ق.م) حاكمًا على تلك المدينة قبل أن يرتقى عرش مصر، ومثلما فعل أبوه سيثوس الذى حكم - أيضًا - مدينة سيلا فى عهد آمونحتب الثالث، وعرف عن رمسيس الأول أنه كان - أيضًا - من عبدة ست، واستمر ذلك التقليد عند ابنه سيتى الأول، وحفيده رمسيس الثانى الذى قام بعد ٣٤ عامًا من ارتقائه العرش بتشييد نصب تذكارى يعرف باسم نصب الـ ٤٠٠ عام التذكارى، وعثر عليه فى مدينة تانيس ويظهر فيه رمسيس الثانى وهو يقدم فروض الطاعة والولاء للإله ست فى هيئته السامية على شكل الإله بعل أو سوتيخ وهو كامل الهيئة فى جسد إنسانى، وبتاج على رأسه على شكل قمع(٣١)، وكانت الملامح تظهر الإله فى صورته الآسيوية، وهكذا يبدو فى هيئة حاكم ورب الأراضى

الأجنبية(٣٢) .

ويظهر نصب الـ ٤٠٠ التذكارى أن كل جدود وأسلاف رمسيس الثانى كانوا يعبدون ست بمن فيهم جده الأكبر سيثوس، وهو مذكور - أيضاً - فى قصة مانيتو عن أوسر سيف - موسى، والنصب التذكارى يحدد زمن حكم ست الإلهى لشرق الدلتا بأربعمائه عام سابقة على النصب وهو زمن يتفق فى رأى عالم المصريات النمساوى مانفريد بايتاك مع بدء إقامة مدينة حواريس القديمة، أو تل الدبا حاليًا، أثناء حكم ملك يدعى نحسى من الأسرة الثالثة عشرة، والذى حكم فى الفترة من ١٧٢٠ - ١٧٠٥ ق.م(٣٣) .

على أى حال، وكما ذكرنا سابقًا، عبد ملوك تلك الأسرة حاكمة أنثى اسمها سوبيك - نوفرو، وهى من عباد سوبيك فى منطقة تل الدبا، حيث أقام الهكسوس معبداً كبيراً للإله سوتيك. وكل الأسباب تدعو لاستنتاج أن سوبيك نفرو هى التى أدخلت عبادة سوبيك وست إلى شرق الدلتا، لا أى ملك آخر من ملوك الأسرة الثالثة عشرة.

خط الانتقال

حين اعتنق الهكسوس الإيمان بست كليًا وهم فى حواريس أصبحوا يقدمون قرابينهم له، وتأكد ذلك من خلال ماعرف عن ملك هكسوسى يدعى أبو فيس ١٦٠٨ - ١٥٧٥ ق.م ذكر عنه أنه جعل من ست إلهه وربه الشخصى، وأن ست لا يقدم رعايته لأحد سواه، وشيد معبداً رائعًا لست ملاصقًا لقصره، وكان ذلك الملك «يتوجه كل يوم ليقدم القرابين الى ست»(٣٤)، إلا أنه لا يوجد أى دليل على أن تلك القرابين كانت من خنازير ويثبت القياس المقارن أن معبد الهكسوس الرئيسى فى تل الدبا يماثل فى نمطه الهندسى المعبد الذى كان موجوداً فى حازور فى المرتفعات الشمالية لفلسطين، وأثبت البحث فى العظام التى تعود إلى تلك المرحلة أن الخنازير لم تقدم أبداً كقرابين فى معبد حازور، بالرغم من وجود دليل بمقابر

الهكسوس يظهر أنهم قدموا الخنازير كقرابين(٣٥) .

وعلق بايتاك على نتائج البحث فى عظام حيوانات تلك المرحلة فى فلسطين قائلاً : «كانت بقايا العظام تبدو بقايا قرابين مقدمة لآلهة، وكانت الخنازير محرماً تقديمها حتى من قبل ذلك العصر»(٣٦)، وهذا يثبت أن الهكسوس تبنوا ذلك التحريم الذى أخذوه عن المصريين إلا أنه قبل أن تكتسب تلك الاستنتاجات أى مصداقية، لابد أن نشير إلى أن الخنزير كان يعبد فى فلسطين من عصور مبكرة ترجع إلى العصر الحجرى القديم أى حوالى ٨٠٠٠ ق.م، و بداية العصر البرونزى المبكر أى ٣٥٠٠ – ٢٢٠٠ ق.م، وظل يعبد حتى بداية العصر البرونزى الأوسط ٢٠٠٠ – ١٥٥٠ ق.م، (٣٨) وبالفعل، ارتبط الخنزير، أو الخنزير البرى المفترس بالرب الأعظم بعل (٣٩)، وبأرباب العالم السفلى(٤٠)، الذين بدوا أنهم «الحيوانات المضحى بها» فى عصور تالية (٤١). كان الامتناع عن أكل الخنزير وتحريمه واسع النطاق، وشمل الفينقيين فى سوريا ولبنان، وسكان قبرص (التى كانت مستعمرة فينيقية كبرى)، وعرب ما قبل الإسلام والشعوب المتحدثة لغات سامية فى العالم القديم (٤٢).

وبالرغم من ذلك، فإنه لا يوجد دليل على اجتناب أكل الخنزير فى العصر البرونزى المتأخر فى كل المناطق التى جرى البحث فيها من فلسطين.

ونعتقد أن تلك العادة وذلك التقليد نشأ فى شرق الدلتا فى عصر الهكسوس وتبناها نقلاً عنهم المستوطنون الآسيويون فى عهد ما بعد الهكسوس، ونقلت من مصر إلى المرتفعات الوسطى بفلسطين فى قمة، عصر انهيار مرحلة العمارنة، وهو عصر الإطار التاريخى للخروج كما افترضه وسجله كل الكتاب القدماء مثل مانيتو وآبيون، بالرغم من أن المستوطنات المبكرة ترجع إلى العصر الحديدى الأول أى إلى وقت مبكر قبل ١٢٠٠ م– ١١٠٠ ق.م، ولابد أن نقدر زمناً يصل إلى مائه عام كزمن كاف للهجرة والاستقرار فى مكان جديد.

لو كان اجتناب أكل الخنزير بين مجتمعات أسلاف الإسرائيليين مستمداً فى أصله من مصر، فإن ذلك يعنى أن ذلك قد انتقل عن طريق الحضور المصرى العسكرى القوى بفلسطين، خاصة فى عصر ميربنتاح وأبيه رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان الحضور العسكرى ممثلاً فى حامية عسكرية مصرية قوية فى أورشليم، وفى تحصينات عسكرية على امتداد الطريق التجارى الساحلى بين مصر وسوريا.

ولو أجرى البحث فى تلك المناطق - أيضا - لجاءت النتائج بخلوها - أيضًا - من عظام الخنازير فى تلك المرحلة والتعارض الوحيد موجود فى موقع يسمى «تل چيما» على الساحل الجنوبى لفلسطين حيث وجد أن ٣ر٠ بالمائة من العظام التى عثر عليها فى حفر بقايا العظام الحيوانية التى تعود إلى العصر البرونزى المتأخر كانت عظام خنازير. وأدى ذلك بـ «هيس» أن يستنتج أن ذلك «قد يعكس تأسيس عادات غذائية بتلك المنطقة مستمدة من العادات الغذائية للشعب المصرى»(٤٣)، أى أن استقرار واستيطان المصريين بتلك المنطقة أدى إلى الامتناع عن أكل الخنزير فى منطقة تل چيما حتى أصبحت عظام الخنازير على تلك النسبة الضئيلة جداً بين عظام الحيوانات الأخرى فى تلك المرحلة.

وما يماثل تلك النتائج ويتطابق معها قصة طرد المصريين والآسيويين من دلتا نهر النيل إلى فلسطين بعد مرحلة العمارنة والواردة فى التوراة والمصادر الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية، وهى تزودنا بخط أكثر وضوحاً لانتقال اجتناب أكل الخنزير بين الإسرائيليين الأوائل.

والدليل القوى الجديد المستنتج من اجتناب أكل الخنازير الثابت من تجمعات العظام فى العصر الحديدى الأول فى المرتفعات الوسطى من فلسطين يدل على أن الخروج قد وقع بعد طرد الهكسوس بمئات السنين .

الملحق ٣
الأسماء المصرية بين اللاويين

توصل سيجموند فرويد إلى إيجاد ارتباط بين مرحلة العمارنة والعصر الذى عاش فيه موسى، ونشر ما توصل إليه فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وقوبلت رؤيته بتجاهل من علماء التاريخ المصرى القديم، حتى نشر عام ١٩٩٠ كتاب يحمل عنوان «موسى : فرعون مصر» كتبه المؤرخ المصرى المولد أحمد عثمان. وذهب عثمان فى كتابه هذا إلى أبعد مما ذهب إليه فرويد وآرثر ويجال من قبله، فقد استنتج بجرأة يحسد عليها أن أخناتون وموسى لم يكونا إلا شخصية واحدة.

وجعل عثمان أخناتون يترك عرش مصر فى العام ١٧ من حكمه، ونفى نفسه أو اعتزل فى شبه جزيرة سيناء لمدة ٤٠ سنة، ثم عاد إلى مصر مطالبًا بإطلاق سراح السجناء الذين آمنوا بآتون أثناء الحكم القصير الذى دام لمدة عام لرمسيس الأول حوالى ١٣٠٨ - ١٣٠٧ ق.م، بالرغم من أنه لا يوجد دليل واضح يثبت أن أخناتون قد عاش بعد العام ١٧ من حكمه.

ويقدم عثمان فكرة أن هناك علاقة بين انهيار نظام حقبة العمارنة الدينى والأصل التاريخى لموسى والخروج، وذلك لأول مرة فى عصرنا الحديث.

وأظهر عثمان أن بعض أبرز الشخصيات الإسرائيلية التى غادرت مصر فى ذلك الخروج تحمل أسماءً مصرية، على سبيل المثال : كان الاعتقاد السائد أن موسى استمد اسمه من الكلمة العبرية MOSE (h)، بمعنى «السحب»، كما فى «أنا سحبته من الماء»(١) إلا أن الاحتمال الأصح أنه من الكلمة المصرية القديمة MOSE، والتى تعنى ولد، أو بمعنى أبسط «ابن»، كما فى «تيو تموس» أى «ابن الإله توت»، أو كما فى

«رعموسيس» أى «ابن الإله رع»(٢)، كذلك اسم ميرارى وهو الابن الأصغر للاوى(٣)، ويعد السمى الأكبر للميراريين(٤) أحد الأفرع الثلاثة لعائلة الكهانة الدينية اليهودية من سبط لاوى(٥)، يعتقد فى الثقافة اليهودية أن اسمه مستمد من كلمة عبرية / كنعانية تعنى «مر»(٦)، إلا أن الأصح أن اسم ميرارى مستمد من كلمة المصرية القديمة Mrry / Mrri والتى تعنى «أن تحب» أو «محبوب»(٧)، ومن المثير أنه كانت توجد شخصية مصرية تحمل هذا الاسم وهو ميرى رى الثانى، كبير كهنة آتون، وعاش فى عهد أخناتون ومازالت مقبرته الصخرية الخاوية موجودة على تل خلف موقع مدينة أخناتون فى تل العمارنة بوسط مصر(٨).

هناك - أيضًا - اسم بنحاس، ابن اليعازر، الكاهن الأكبر لليهود، وكبير اللاويين(٩)، وحفيد هارون(١٠)، وتظهر التوراة أنه كان له دور كبير أثناء التيه فى البرية، ويعد الجد الأول للكهنة الصديقيين(١١)، والمعنى العبرى لاسم بنحاس هو «فم النحاس»(١٢)، إلا أنه من الواضح جدًا أن ذلك الاسم مستمد من المصدر المصرى القديم p3 - nhsy، والتى تعنى «نوبى»، وهى تشير إلى الشخص الداكن البشرة(١٣)، أو إلى من ينتمى إلى منطقة النوبة بأقصى جنوب مصر. ومن الطريف فعلاً أنه كان يوجد من يحمل اسم بنحاسى، وكان الخادم الأول لآتون، وعاش فى عصر أخناتون مثل ميرى رى الثانى، ومن الممكن - أيضاً - التأكد من ذلك من مقبرته فى التلال الواقعة خلف مدينة اخيتاتون.

وأبرز عثمان ذلك الارتباط الواضح بين اسمى ميرارى وبنحاسى ووجودهما فى خدمة أخناتون، فى مقارنة بين ذلك ووجود الاسمين ذاتهما بصحبة موسى أثناء فترة الخروج والتيه، ثم رحلا مع الفرعون إلى حيث توجه فى منفاه الاختيارى فى سيناء بعد أن هجر عرش البلاد(١٤)، وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلت عثمان يفترض أن أخناتون وموسى ليسا إلا شخصية واحدة.

فهل عثمان محق فى هذا الافتراض ؟

لا يوجد برهان قاطع يثبت صحة النظرية، خاصة أن أسماء مثل ميرى رى وبنحاس لم تكن قاصرة على عهد أخناتون وحده.

كهانة اللاويين

وبغض النظر عن تماثل الأسماء، من الواضح أن عثمان كان يسعى لإثبات شيء ما وهو أن الأسماء المصرية كانت منتشرة بين الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر. فاسم جدة بنحاس هو بيوتيل(١٥)، وهو اسم كان يظن أنه هجين أو خليط من عبرية / كنعانية لاسم «إيل»، إلا أن أصل الاسم مصرى p3dy، ويعنى «عطية»(١٦)، أى «عطية الله» أو «هبة الله»، بينما نجد أن أزير (izhir)، ابن قوره اللاوى وحفيد ازهار izhir، شقيق عمرام أبو موسى(١٧) يبدو أن اسمه مستمد من ازارasar أو أوزوريس، رب العالم الآخر(١٨).

وأخيراً، هناك اسم حور، وكان رفيقًا ملازمًا لموسى وهارون، ويعنى اسمه فى العبرية «حفرة أو ثقب» كفوهة حفرة الثعبان(١٩)، والاحتمال الأصدق والأصح أنه مستمد من المصدر المصرى hr أى «حورس»(٢٠) وهو الإله الذى له رأس صقر. وكان الفرعون يمثل أثناء حياته الإله حورس.

ويخبرنا سفر الخروج أن حور صعد مع موسى وهارون إلى «رأس الجبل» فى رافيديم، والأصح أنه حوريب(٢١)، وبالرغم من احتمال أنه جبل حور الذى ذكر عند سرد قصة ذهاب الإسرائيلين تحت قيادة يشوع لمحاربة العماليق حين تجمعوا فى برية سيناء(٢٢)، ووقف موسى وهارون وحور فوق الجبل لمتابعة سير المعركة ضد العماليق، وكان كلما رفع موسى يده بعصا يهوه تدور المعركة لصالح الإسرائيليين(٢٣)، وكلما كلت يده وأصابها الإجهاد وانخفضت بعصا يهوه، تدور الدائرة على الإسرائيليين وترجح كفة العماليق، وتزداد وطأتهم، فقام هارون وحور بوضع حجر ليرتكز عليه موسى، وأمسكا بيديه عاليًا حتى «مغيب الشمس»(٢٤) (حتى

غابت الشمس قبل موعدها)(٢٥). وبالطبع، انتصر يشوع وجيش إسرائيل. بعد ذلك، بنى موسى مذبحًا «على رأس الجبل»، وأطلق عليه «يهوه هو صاريتى»(٢٦). ومن الواضح قبل أن ننتقل من هذه النقطة أن صارية يهوه وعصا موسى إنما يشيران إلى نصب تذكارى من نوع ما(٢٧) موجود على مذبح عند رأس جبل، وأكثر من ذلك أن بالنص الأصلى كلمة تشير إلى معنى مقعد أو كرسى، والمعنى بأجمعه يعنى يد على كرسى يهوه، مما يدل على أن المذبح عبارة عن عامود على عرش يهوه، أى على قمة الجبل(٢٨). فهل يثبت ذلك صحة ما افترضناه أن جبل سيناء الأصلى ليس إلا جبل حوريب، جبل يهوه، فى البتراء أى قمة جبل المدهبة بعاموديها (انظر الفصل ٢٠).

ونقرأ عن حور مرة أخرى بمناسبة سماح موسى لهارون وأكبر ابنين من أبنائه وهما ناداب وأبيهو وسبعين من شيوخ أبناء إسرائيل بالصعود إلى جبل يهوه. حين همَّ موسى ويشوع بالصعود إلى أكثر مما صعدا أمر شيوخ إسرائيل بالانتظار فى مكانهم ومعهم هارون وحور حتى يرجعا هو ويشوع إليهم(٢٩). وبعد ذلك لم يرد اسم حور ثانيه أبداً فى كل التوراة. وتثبت علاقه حور الوثيقة كما بدت على جبل يهوه بكل من موسى وهارون أنه على درجة قرابة قوية بهما حتى إنها تبدو علاقة دم وعلاقه دينية لوجود حور بين هيئة الكهنة.

ولو صح هذا الافتراض فإنه يثبت أن كل واحد من الإسرائيليين كان له اسم مصرى، مثل موسى، وميرارى، وبنحاس، وأزير وبيوتيل، وحور وكانوا كلهم من اللاويين، أحفاد لاوى الابن الثالث ليعقوب، وطبقًا لما تذكره التوراة، فإن الأفرع الثلاثة للاويين قد تفرعت عن الأبناء الثلاثة للاوى وهم جرشون، وكوهات الجد الأكبر لموسى وهارون، وميرارى، وكل فرع تولى مسئوليات دينية معينة حتى عصر سليمان، حين أصبحوا جميعًا من المذهب الصدوقى(٣٠). ويذكر سفر العدد أن موسى حصر منصب كير الكهنة على هارون وسلالته، وبعد موت أكبر أبنائه، ناداب

وأبيهو، تقاسم المنصب اليعازر وأخوه الأكبر ايتامار(٣١). إلا أننا نقرأ بعد ذلك فى التوراة أن موسى طلب من هارون واليعازر الصعود معه إلى جبل هور، حيث أمر هارون بخلع ملابس الكهنوت، ووهبها إلى اليعازر بدلا عنه ككاهن أكبر على اللاويين(٣٢). ويذكر سفر العدد «ولرئيس رؤساء اللاويين اليعازر بن هارون الكاهن وكالة حراس حراسة تابوت العهد»٣٣٠)، وأصبح اليعازر مسئولاً عن تابوت العهد - وهو أقيم مقدس لديهم - خلفاً لأبيه هارون(٣٤) ثم بعد ذلك السلف الأول للصدوقيين.

كذلك يذكر سفر الأمثال أن اللاويين اختصوا بتابوت العهد وبجملة فى كل انتقالهم وتجوالهم، كما اختصوا بمباركة الشعب(٣٥)، وأثبتوا أنهم مخلصون للعقيدة حين لم يشتركوا مع باقى الشعب فى صناعة وعبادة العجل الذهبى أثناء غياب موسى على الجبل. وذكرت التوراة أن موسى حين عاد ووجدهم يعبدون العجل الذهبى أمر بإعدام ثلاثة آلاف ممن أقدموا على ذلك (٣٦). وظل اللاويون بأسمائهم المصرية، فمثلاً: حوفى وبنحاس ابنا ايلى كانا كهنة المقدس فى شيلوه(٣٧)، وحملوا تابوت العهد أثناء الحروب التى خاضوها ضد الفلسطينيين(٣٨). وهكذا، نجد أنه حوالى ١٢٠٠ - ١١٥٠ ق.م كان اسم بنحاس من الأسماء القديمة المتداولة، أما اسم حوفى فيعتقد أنه مشتق من hfn(r) بمعنى الضفدع الصغير(٤٠).

مثل هذا التيار العريض من الأسماء المصرية الظاهرة بين اللاويين من الصعب تفسيره، خاصة قصور تلك الأسماء على اللاويين المسئولين عن الكهانة والدين وعدم ظهور تلك الأسماء بين القبائل الأخرى. والتفسير ينحصر فى سبب من اثنين : إما أن تلك الأسماء المصرية انتشرت بينهم؛ لوجودهم لزمن طويل على مدى أجيال فى مصر مع المصريين، أو أن اللاويين كانوا مصريين أبناء مصريين، وإن صح ذلك فهل كانوا هم كهنة آتون الذين آمنوا برسالة أخناتون؟ وهل يثبت ذلك صحة ما افترضه أحمد عثمان؟ وهل كانت لهم قرابات آسيوية ؟

ومن المعروف على وجه اليقين أن أخناتون قد استخدم أسيويين من رتب عليا فى قصره.

على سبيل المثال : اكتشف الآثارى البلچيكى آلان زيفى فى مقابر سقارة مقبرة وزير أول للملك المرتد اسمه ابير - إيل (خادم إيل)، والتى تقابل الآن اسم عبد الله، والاسم يشى بأصله الآسيوى(٤١).

إن انتشار الأسماء المصرية بين اللاويين وأسرهم يعد دليلاً إضافياً على أن جوهر القبائل الإسرائيلية والمحور الذى التفت من حوله لم يكونوا إلا نخبة من المستنيرين الدينيين المصريين، وبالرغم من أن أصل تلك النخبة مازال غامضاً، إلا أن الأرجح أنهم نخبة من رجال الدين المصريين احتوت على بعض الآسيويين الذين اكتسبوا الجنسية المصرية، وسمح لهم بالإقامة على مدى أجيال هم ونسلهم فى شرق دلتا مصر. وفى كل الأحوال، فإن ذلك يزيد من الشكوك فى مدى المصداقية «التاريخية» للخروج التوراتى.

الهوامش

15 Ex. 6: 25.
16 Propp, p. 280.
17 Ex. 6: 21.
18 Propp, p. 280.
19 Easton, *s.v.* 'Hur', p. 340.
20 Odelain and Séguineau, *Dictionary of Proper Names and Places of the Bible*, *s.v.* 'Hur', p. 166; Propp, pp. 617–8.
21 Propp, p. 617, cf. ibn Ezra; Houtman 1989: 118.
22 Ex. 17: 8–10.
23 Ex. 17: 11.
24 Ex. 17: 12.
25 Ex. 17: 12. Trans. Propp, p. 26.
26 Ex. 17: 13–15. Trans. ibid.
27 Propp, p. 620.
28 Ibid.
29 Ex. 24: 14.
30 1 Kings 2: 27, 35; 1 Chron. 29: 22.
31 Num. 3: 4.
32 Num. 20: 25–6.
33 Num. 3: 32.
34 Jg. 20: 28.
35 Deut. 10: 8, 31: 9, 25.
36 Ex. 32: 26–9.
37 I Sam. 1: 3.
38 I Sam. 4: 4, 11, 17, cf. 2: 29, 34.
39 Odelain and Séguineau, *s.v.* 'Hophni', p. 164.
40 Budge, *An Egyptian Hieroglyphic Dictionary*, i, 480a.
41 Osman, p. 185.

8 Deut. 14: 8.
9 Vaux, *The Bible and the Ancient Near East*, p 267.
10 See Hesse.
11 Blaisdell, 'Abominable and relatively unclean flesh: parasites and the prohibition against pork in Ancient Egypt and Israel', *Argos* 19 (1998), pp. 363–70.
12 Herodotus, *The History of Herodotus* ii, 47.
13 Ibid.
14 Ibid.
15 Ibid.
16 Ibid.
17 Plutarch, *Isis and Osiris*, 8.
18 Aelian, *On the Characteristics of Animals*, x, 16.
19 Ibid.
20 Ibid.
21 Ibid.
22 Ibid.
23 Budge, *The Gods of the Egyptians*, ii, p. 368.
24 Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 47.
25 Frazer, *The Golden Bough*, p. 475.
26 Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, xii, p. 133.
27 Frazer, *The Golden Bough*, pp. 472–6.
28 Te Velde, *Seth, God of Confusion*, p. 119.
29 Ibid., pp. 121–2.
30 Bietak, p 269–70; Habachi, 'Khatâ'na-Qantîr: importance', *ASAE* 52 (1952), pp 458–70.
31 Te Velde, pp. 124–5.
32 Ibid., p 125.
33 Bietak, p. 270
34 Gardiner, *Late Egyptian Stories*, pp. 85–6.
35 Bietak, 'Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta', *PBA* 65 (1979), pp. 250–1.
36 Bietak, p. 251.
37 A jawbone of a large wild pig was found alongside human remains on Mount Carmel, while at Gezer in the coastal lowlands a number of pig bones were found in a cave later used in the Early Bronze Age as a storehouse. See Vaux, p. 253.
38 Ibid., pp. 252–4.
39 Ibid , p. 259: 'In a mythological text, eight "wild boars" (or pigs, *hnzr*,) form part of the retinue of Baal along with seven "young servants"; and in an as yet unedited text, twelve "wild boars" (or pigs, *hnzr*) must come to work at Ugarit with eleven artisans'.
40 Bones of pigs have been found in underground sanctuaries at Gezer and Tell el-Fâr'ah in Palestine. See ibid., p. 265
41 Ibid., p. 256, quoting A Bertholet, *Kulturgeschichte Israels*, 1919, p. 23.
42 Ibid., p. 266, cf. the works of Movers and Bochart, *Hierozoicon*, 1675, col. 702–3.
43 Hesse, p. 212.

APPENDIX III: EGYPTIAN NAMES AMONG THE LEVITES

1 Ex. 2: 10; Propp, *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 152.
2 Propp, p. 152.
3 Ex. 6: 16.
4 Num. 3: 33, 35; 26: 57.
5 Num. 3: 17, 1 Chron 5. 27, 6: 1.
6 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Merari', pp. 457–8.
7 Osman, *Moses: Pharaoh of Egypt*, p. 185, Propp, p. 276, after Cody, 1969: 40 n. 4.
8 Osman, p. 185.
9 Num 3. 32
10 Ex. 6: 25.
11 1 Chron. 27: 17.
12 Easton, s.v. 'Phin'chas', p. 548
13 Propp, p. 280, after Lauth 1871: 139–40; Cody 1969.71
14 Osman, p 185.

12 Personal interview between Tony Leadbetter, a surviving godson of Almina, Countess of Carnarvon, and the authors on 3 August 2001.
13 Ibid.
14 Personal interview between Tony Leadbetter and the authors on 3 August 2001.
15 *The Egyptian Gazette*, 30 March 1923.
16 Ferguson, p. 247.
17 Comay, *SV Who's Who in Jewish History after the period of the Old Testament, Rothshild Family*, p. 307.
18 Ferguson, p. 281.
19 Comay, *SV*, *Rothschild Family*, p. 313.
20 Ferguson, p. 452.
21 Weizmann, *Trial and Error*, p. 205.
22 Ibid., p. 204.
23 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 221. Hoving accepts that Carnarvon's decline in health began *prior* to the fatal mosquito bite that led eventually to Carnarvon's unexpected death. Email from Thomas Hoving to Chris Ogilvie-Herald dated 18 July 2001.

APPENDIX I: THE DEATH OF TUTANKHAMUN

1 See Carter, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, II, pp. 106–40; Derry, 'Report upon the Examination of Tut.ankh.Amen's Mummy', in Carter, II, pp. 143–61.
2 Brier, *The Murder of Tutankhamen: A 3000-year-old Murder Mystery*, pp. 166–7.
3 Ibid., p. 167.
4 RG Harrison's comments quoted in ibid., p. 165.
5 Ibid., pp. 172–3.
6 Ibid., p. 172.
7 Ibid., p. 173.
8 Ibid.
9 Güterbock, 'The Deeds of Suppiluliuma as Told by His Son Mursili II', *JCS* 10 (1965), pp. 41–130.
10 Ibid., pp. 107–8, Fragment 31, Bo 4543 and 9181.
11 Ibid., p. 94, Fragment 28, Kbo V 6, Aiii.
12 Aldred, *Akhenaten: King of Egypt*, p. 221.
13 See, for instance, Aldred, p. 221.
14 See, for instance, Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 301.
15 Ibid., Brier, p. 174.
16 Ginzberg, *The Legends of the Jews*, II, p. 297.
17 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 116.
18 Ginzberg, II, p. 297.

APPENDIX II: PORK ABSTINENCE AND THE WORSHIP OF SET

1 Hesse, 'Pig Lovers and Pig Haters: Patterns of Palestinian Pork Production', *JE* 10:2 (Winter 1990), pp. 195–225. For a full distribution of Iron Age pig remains see Table 3, pp. 215–16.
2 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, pp. 119–20.
3 Ibid., p. 119.
4 For instance, at Mount Ebal, near Nablus (ancient Shechem), and Raddana in the highlands there were no pig bones at all in the bone assemblage, while at Shiloh just 0.1 per cent of the faunal assemblage were pig bones. These figures contrast markedly against 10.4 per cent at Ashkelon, 18 per cent at Tel Miqne and 8 per cent at Tel Batash, sites on the southern coastal plain traditionally associated with the Philistines during this period, and 4.8 per cent at Hesban in the Transjordan, south of Amman, land of the Ammonites and Moabites. See Finkelstein, 'Ethnicity and Origin of the Iron Settlers in the Highlands of Canaan,' *BA* 59:4 (December 1996), p. 206.
5 Finkelstein and Silberman, pp. 119–20.
6 See Hunn, 'The Abominations of Leviticus Revised: A Commentary on Anomaly in Symbolic Anthropology', in Ellen and Reason, eds., *Classifications in their Social Context*, 1979, pp. 103–116.
7 Lev. 11: 7–8.

24 John, p. 60.
25 Ibid.
26 Ibid., pp. 62–3.
27 Ibid., p 63.
28 Landman, p. 5.
29 Ibid., p. 4.
30 Ibid., p. 5, cf. the Franco-British Convention, December 1920 (Cmd. 1195).
31 Ibid.
32 John, p. 67.
33 Ibid.
34 Weizmann, p. 256.
35 Ibid., p. 266.

CHAPTER 24: THE SWORD OF DAMOCLES

1 See Graves, *Lawrence and the Arabs*.
2 Weizmann, *Trial and Error*, p. 293.
3 See Westrate, *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916–20*.
4 Weizmann, p 319.
5 Ibid., quoting an account from 1923 by Philip Graves, *Times* correspondent at the time of the Jerusalem pogrom.
6 Ibid., p. 320, quoting an account from 1923 by Philip Graves, *Times* correspondent at the time of the Jerusalem pogrom
7 Ibid., pp. 348–9.
8 Ibid., p. 349.
9 Ibid., pp. 350–1
10 Ibid., p. 350.
11 Ibid., p. 351.
12 Ibid.
13 Ibid., pp. 351–2
14 Ibid., p. 343.
15 Ibid., p. 353
16 Ibid., p. 355.
17 Ibid., p. 348.
18 Ibid., p. 360.
19 Ibid., p. 364.
20 Shepherd, *Ploughing Sand: British Rule in Palestine 1917–1948*, p. 39.
21 Ibid.
22 Ibid.
23 The reference here to the 'Egyptian Government' does not, of course, mean the Zaghlul government of 1924, but the one officiating in Tutankhamun's day.
24 From Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter'.
25 Ibid.
26 Weizmann, p. 562.
27 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 348.

CHAPTER 25: THE FATE OF THE MISSING PAPYRI

1 From Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter', c. 1924.
2 Ferguson, *The House of Rothschild: The World's Banker 1849–1998*, p. 247.
3 Carnarvon, *No Regrets*, p. 6.
4 Greenwood, *Highclere Castle*, 'Smoking Room': 'The table was probably brought to Highclere by the fifth Countess who was an illegitimate daughter of the wealthy Alfred de Rothschild'.
5 Identified by the authors during a visit to Highclere on Friday 3 August 2001.
6 Ferguson, p. 247; Carnarvon, pp. 6, 115.
7 Ibid., p. 21.
8 Ibid.
9 Hyde, *Norman Birkett: The Life of Lord Birkett of Ulverston*, p. 149.
10 Ibid.
11 Ibid., pp. 133–56

29 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Lachish', p. 413.
30 Jos. 10: 31–2.
31 Silberman, 'Visions of the Future: Albright in Jerusalem', *BA* 56:1 (1993), pp. 8–16
32 See, for example, Redford, *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times*, p. 265.
33 See Alt, *Essays on Old Testament History and Religion*.
34 Silberman, 1992, pp. 25–6.
35 Mendenhall, 'The Hebrew Conquest of Palestine', *BA* 25:3 (1962), pp. 66–87.
36 Ibid., p. 73.
37 Ibid.
38 See Gottwald, *The Tribes of Yahweh*.
39 Mendenhall, p. 73.
40 Ibid.
41 Ibid., p. 74
42 Ibid.
43 Finkelstein and Silberman, p. 104.
44 Mazar, 'The "Bull Site" – An Iron Age I Open Cult Place', *BASOR* 247 (1937), pp. 27–42. See also ibid., p. 109.
45 Mazar, p. 30.
46 Finkelstein and Silberman, p. 109.
47 Ibid., p. 119.
48 Ibid.
49 Ibid., pp. 43–7.
50 Ex. 12: 37
51 Finkelstein and Silberman, pp. 112–13. See also Silberman, 'Who Were the Israelites?', *Archaeology* 45:2 (1992), pp. 22–30.
52 See Whitelam, *The Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History*, pp. 164–7
53 See Finkelstein and Silberman, p. 129.
54 Josephus, *Wars of the Jews*, VI, ix, 3.

PART FIVE: ZION

CHAPTER 23: THE RETURN TO ZION

1 Comay, *Who's Who in Jewish History after the period of the Old Testament*, s.v. 'Rothschild family', p. 313.
2 Luke, 21: 25.
3 Luke, 21: 26–8.
4 See Gidney, *The history of the London Society for Promoting Christianity amongst the Jews from 1809 to 1908*.
5 Michell, *Eccentric Lives and Peculiar Notions*, p. 169.
6 Ibid., p. 170.
7 Herzl, *Der Judenstaat: Versuch einer modernen Lœsung der Judenfrage … Dritte Auflage*.
8 Ps. 137: 5. See Weizmann, *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*, p. 125.
9 Dugdale, *Arthur James Balfour: First Earl of Balfour; etc.*, vol. 1, pp. 434–5.
10 Weizmann, p. 164.
11 Ibid., p. 165.
12 Ibid., p. 192.
13 Dugdale, p. 433.
14 Ibid.
15 Weizmann, p. 200.
16 Ibid., pp. 191, 224.
17 Ibid., pp. 191–2.
18 Pope and Wheal, *The Macmillan Dictionary of the First World War*, s.v. 'United States of America', p. 487.
19 John, *Behind the Balfour Declaration: The Hidden Origins of Today's Mideast Crisis*, p. 58.
20 Landman, *Great Britain, the Jews and Palestine*, p. 4.
21 John, p. 58.
22 Ibid., p. 59.
23 Landman, p. 4.

15 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
16 Ibid.
17 Ibid.
18 Ex. 3: 5.
19 Phillips, *The Moses Legacy*. As this book goes to press, neither Andrew Collins or Chris Ogilvie-Herald have been able to read Graham's book, which they hope will throw even further light on many of the subjects explored in *Tutankhamun: The Exodus Conspiracy*.
20 Browning, p. 212.
21 Ibid., pp. 196–7.
22 Nielsen, 1928, pp. 15–16.
23 Ibid., pp. 15–16, 18–19.
24 Ex. 15: 17, trans. Propp, *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 22.
25 Giveon, *Les Bédouins Shosou des documents Égyptiens*, p. 28.
26 Ibid., p. 236.
27 Habak. 3: 3.
28 Gen. 36: 11, 15, 42.
29 Amos 1: 12.
30 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Bozrah', p. 107.
31 Jer. 49: 7; Ezek. 25: 13.
32 Obad. 8–9.
33 Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, s.v. 'Phoenicians', ix, p. 893.
34 Sanchoniatho, in Philo, as quoted in Cory, *Ancient Fragments*, p. 4.
35 Gen. 25: 25.
36 Gen. 25: 27.
37 Sanchoniatho, in Philo, as quoted in Cory, p. 5.
38 Ibid.
39 Ex. 18: 1.

CHAPTER 22: THE CONQUEST OF CANAAN

1 Num. 14: 45, 21: 3.
2 Num. 21: 1–2.
3 Odelain and Séguineau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Arad', p. 34; s.v. 'Hormah', p. 164.
4 Num. 21: 4.
5 Num. 21: 11.
6 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, p. 64.
7 Ibid.
8 Num. 21: 4.
9 Num. 21: 11.
10 Num. 23: 1–6.
11 Deut. 34: 1–4.
12 Deut. 34: 5.
13 Deut. 34: 6.
14 Num. 25: 3; Josh. 22: 17–18.
15 Num. 25: 1–6, 31: 16.
16 Num. 25: 9.
17 Num. 32: 39.
18 Num. 21: 33–5.
19 Num. 22: 2, 4.
20 Jos. 9: 17–27; 10: 12–13.
21 Jos. 10: 28–39.
22 Num. 31: 1–12.
23 Num. 21: 25.
24 Num. 21: 33.
25 Jos. 5: 10–15; 6: 1–27
26 Jos. 7: 2–5; 8: 1–29.
27 Jos. 11: 10–13.
28 Jos. 11: 11–13.

41 Browning, p. 211.
42 Ibid., p. 212.
43 Ibid.
44 For instance, see *The Koran*, Sura 2: 54, 28: 17.
45 Browning, p. 212
46 Ibid., pp. 214–16.
47 Ex. 24: 5.
48 Ex. 24: 6.
49 Browning, p. 213.
50 Ibid., pp. 215–16.
51 Ibid., p. 216.
52 Nielsen, p. 16.
53 The betyl is orientated at an angle of 251 degrees from north.
54 Nielsen, p. 16.
55 Ibid.
56 Ibid.
57 Ibid.
58 Ibid. See also Nielsen.
59 Glueck, *The Other Side of the Jordan*, p. 178
60 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar, an archaeologist and tour guide from Wadi Mûsa, in March 2002.
61 See Robertson Smith, *The Religion of the Semites*, pp. 201–12, for a full account of the veneration of pillars among the early Semites.
62 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
63 Browning, pp. 46–7.
64 Ibid., pp. 108, 210–11.
65 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
66 Browning, p. 48.
67 Gündüz, 'The Knowledge of Life', *JSS* 3 (1994), pp. 83, 118–19
68 Ibid., p. 154.
69 Ibid., p. 138.
70 Ibid., p. 154.
71 Rev. 17: 3–6. For the association between Venus and Babylon see Hislop, *The Two Babylons, or the papal worship proved to be the worship of Nimrud and his wife*, pp. 5–6.
72 Nielsen, p. 21. With respect to Jebel Hilal, Menashe Har-el says that it cannot have been connected with the moon because its name derives not from *hilal*, 'new moon', but *hallal*, meaning 'lawful'. See Har-el, *The Sinai Journeys: The Route of the Exodus*, p. 284. This must surely be a matter of speculation, and in the knowledge that biblical place names for the region reflect lunar connotations, there is no reason to assume that Mount Hilal does not take its name from the Arabic word for the new moon.
73 Nielsen, p. 21.

CHAPTER 21: THE HOUSE OF GOD

1 See Nielsen, *Die altarabische Mondreligion und die mosaische Ueberlieferung*, 1904, pp. 171–6. Here he is comparing Petra's al-Madhbah with the design of the Mosaic high place.
2 Num. 20: 22.
3 Num. 20: 25–29.
4 Josephus, *Antiquities of the Jews*, IV, iv, 6–7; IV, vii, 1.
5 Ibid., IV, iv, 7.
6 Deut. 32: 51–2.
7 Deut. 34: 1–5.
8 Deut. 32: 50.
9 Nielsen, *The site of the biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, 1928, p. 19.
10 This story of Nabi Harûn was related to Andrew Collins by Mu'tasim Nawafleh, the head barman of the Petra Forum Hotel, Petra, in March 2002.
11 Browning, *Petra*, p. 172.
12 Nielsen, 1928, p. 22; Ex. 24: 9.
13 Ex. 24: 10.
14 Ex. 24: 15.

CHAPTER 20: THE CASE FOR THE HIGH PLACE

1 Num. 20: 16.
2 Num. 20: 11.
3 Num. 20: 8.
4 Num. 20: 11.
5 Num. 27: 14; Deut. 32: 51–2.
6 Num. 27: 14.
7 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Meribah', pp. 458–9.
8 Deut. 32: 51.
9 Stanley, *Sinai and Palestine in connection with their history*, p. 67.
10 *The Koran*, Sura 2: 60.
11 Zayadine, 'Caravan Routes Between Egypt and Nabataea and the Voyage of Sultan Baibars to Petra in 1276' in Hadadi, *Studies in the history and Archaeology of Jordan*, II, p. 173, quoting al-Nuwairi's MS No. 1578, Bibliothéque Nationale, Paris.
12 Ibid., p. 169
13 Ibid., p. 170. Also personal conversation between Andrew Collins and Ahmad Muammar, an archaeologist and tour guide from Wadi Mûsa in March 2002. He too feels that the el-Odmal spring is more likely to be the true site of Ain Mûsa.
14 Josephus, *Antiquities of the Jews*, I, xii, 4.
15 Zayadine, p. 173, Quoting Nuwairi.
16 Browning, *Petra*, p. 128.
17 Stanley, p. 95.
18 Stanley, p. 89, quoting Sheikh Mohammed, source unknown.
19 Zayadine, p. 173, quoting Nuwairi.
20 2 Kings 14: 7; 2 Chron. 25: 11–12.
21 Zayadine, p. 167.
22 Browning, pp. 26–7.
23 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, p. 63.
24 Ibid., pp. 95–6.
25 The Targums of Onkelos, Jonathan and Jerusalem refer to Kadesh-barnea as Rekem-Giah, 'of the ravine'. See Stanley, p. 94 n. 3.
26 Nielsen, *The site of the biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, p. 9, cf. the Targum of Deut. 1: 19.
27 Rekem, or Rokan, was an ancient name for Petra, see Jerome, *De Loc. Heb voc. Petra* and *Rekem*, quoted in Stanley, p. 94 n. 3. See also Josephus, *Antiquities of the Jews*, IV, vii, 1, who states that Petra was called Arecem, after a Midianite king named Rekem. He says also that Mount Hor lay above Arke, i.e. Arecem, or Rekem.
28 Browning, p. 114.
29 Stanley, p. 94 n. 3, cf. Schwarz, pp. 23–4.
30 Josephus, IV, iv, 5.
31 Ibid., IV, iv, 6.
32 Ibid.
33 Ibid., IV, iv, 7.
34 Jerome, *De Loc. Heb. Voc. Petra* and *Rekem*, as quoted in Stanley, p. 94 n. 3 & 4.
35 Num. 20: 1.
36 Ex. 17: 1.
37 Ex. 17: 6–7.
38 Stanley, p. 95.
39 It has been suggested that there were originally four obelisks on the Obelisk Ridge, since two other rectangular stone bases are to be found in the proximity of the existing examples. However, having examined these in some detail, Andrew Collins is of the opinion that they are simply the stumps of cut blocks removed from the plateau in antiquity. For instance, the base to the west of the westerly positioned obelisk shows clear signs of horizontal sawing across its upper surface, implying that its block or pillar was removed in this manner. This makes little sense of the view that it was originally an obelisk, for it hardly seems likely that the Nabateans, or whoever, would have sawn away an existing pillar and left two others standing. The fourth stump, which lies to the west of the easterly placed obelisk is much too small to conform with the height of the existing pillars, also ruling it out as a possible obelisk.
40 Browning, p. 185. Here the author states that: 'If they [i.e. the water cisterns] are Edomite, as has been suggested, it would indicate that the Edomites were not only capable of the techniques of rock cutting but might have passed this skill on to the Nabateans'.

14 Ibid.
15 Gilbert, *Magi: The quest for a secret tradition*, p. 177.
16 Ibid.
17 Ibid.
18 Gündüz, 'The Knowledge of Life', *JSS* 3 (1994), pp. 32–3, 35.
19 Gen. 12: 1–5.
20 Gen. 12: 6.
21 Gen. 12: 8.
22 Jg. 21: 19.
23 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Si'nai', p. 634. Some sources link the name 'Sinai' with the Hebrew *seneh*, meaning 'bush'. See Odelain and Séguineau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Sinai', pp. 354–5. However, it could be argued that the legend of the Burning Bush evolved as a result of ignorance concerning the true origin of the name Sinai.
24 Gündüz, p. 201.
25 Ibid., p. 200.
26 Ibid., p. 224.
27 Ibid.
28 Ibid., p. 44.
29 Ibid.
30 Ibid., p. 224; Drower, *The Mandaeans of Iraq and Iran*, pp. 265–9.
31 Drower, p. 266.
32 Ibid.
33 Gündüz, p. 225.
34 Ibid., p. 207.
35 Ibid.
36 Oesterley and Robinson, *Hebrew Religion: Its Origin and Development*, p. 65.
37 Ibid., p. 128. See also Nielsen, *Die altarabische Mondreligion und die mosaische Ueberlieferung*, 1904, p. 50.
38 Ibid.
39 Ex. 12: 12–28.
40 Deut. 16: 1: 'Observe the month of Abib and keep the passover unto the Lord thy God'. See also Oesterley and Robinson, p. 128; Nielsen, *Handbuch der Altarabischen Altertumskunde*, 1927, i, 244.
41 Propp, *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 392.
42 Ex. 12: 9.
43 Ex. 12: 46.
44 Oesterley and Robinson, p. 131.
45 Nielsen, *The Site of the Biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, 1928, p. 21.
46 Ibid., p. 23.
47 At the Council of Nicea in AD 325 it was decided that since the Last Supper is thought to have occurred on the feast of the Passover (most probably on the Feast of the Unleavened Bread), then Easter Day should be celebrated on the first Sunday either on or after the full moon that follows the spring equinox in the northern hemisphere. This Roman calculation of Easter Day was imposed on the Church of England at the Synod of Whitby in AD 664.
48 Propp, p. 399.
49 Num. 29: 12–13.
50 Num. 29: 17.
51 Num. 29: 20.
52 Num. 20: 32.
53 Oesterley and Robinson, pp. 128–9. For a review of the lunar cult among the Semitic peoples of the Near East see Nielsen, 1901, pp. 50 ff., and 1927, i, pp. 213–24.
54 Gündüz, pp. 2, 12, 37, 51, 119, 131.
55 Ibid., p. 83, 118–19.
56 Num. 1: 1.
57 Num. 9: 1.
58 Num. 10: 12.
59 Num. 10: 33, 35.
60 Easton, s.v. 'Paran', p. 521.
61 Num. 11: 35.
62 Num. 13: 21.
63 Num. 13: 26.

58 Lucas, *The Route of the Exodus of the Israelites from Egypt*, pp. 32–3.
59 Ex. 15: 27.
60 Lucas, p. 48.
61 1 Kings 9: 26.
62 Ex. 16: 1.
63 Ex. 17: 1–6.
64 Ex. 19: 1–2.
65 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts*, p. 13.
66 Deut. 33: 2.
67 Jud. 5: 3–5.
68 Redford, p. 272 n. 70, cf. P. Montent, Kemi 5 (1937), pl. III ('despoiler of the land of the Shasu, plunderer of the mountain of Se'ir'); Ward, pp. 50–1.
69 Redford, p. 272 n. 70, cf. P Anastasi vi. 54–56 ('clans of the Shasu of Edom'); Giveon, 1971, pp. 235–6.
70 Deut. 2: 10.
71 Deut. 2: 11.
72 Gen. 6: 4, Num. 13: 33. See Collins, *From the Ashes of Angels*, for a full account of the relationship between the Anakim, Nephilim and the Watchers of the 'Book of Enoch'.
73 Gen. 36: 20.
74 Gen. 14: 6.
75 Deut. 2: 12, 16.
76 Gen. 36: 8.
77 Gen. 36: 20.
78 Odelain and Séguineau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Horites', p. 164.
79 Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament*, 'Hymn of Victory of Mer-ne-Ptah (The "Israel Stela")', p. 378 n. 19.
80 Easton, s.v. 'Se'ir', p. 611.
81 Gen. 36: 9.
82 Gen. 36: 8.
83 Bamberger, *Fallen Angels*, p. 154.
84 Ibid.
85 Lev. 9: 3, 15; 10: 16.
86 Lev. 16: 9–10.
87 See Collins, *From the Ashes of Angels*, p. 252.
88 Bamberger, p. 154, cf. *Pirke d'R Eliezer*, ed. D Luria, Warsaw, 1852; *Bereshit Rabba*, ed. J Theodor and Ch. Albeck, Berlin, 1912–29.
89 Ibid.
90 Bamberger, p. 155.
91 Gen. 25: 30–1.
92 Gen. 36: 16; 1 Chr. 1: 36
93 Neilsen, *The Site of the Biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, p. 11.
94 Num. 20: 14–21.

CHAPTER 19: MOUNTAIN OF THE MOON

1 Vaux, *The Bible and the Ancient Near East*, p. 152.
2 2 Kings 22: 2.
3 2 Chron. 25: 1.
4 2 Chron. 25: 14.
5 Eze. 35: 3–5.
6 Mackenzie, *The Myths of Babylonia and Assyria*, p. 52.
7 Ibid.
8 Gen. 10: 22, 11: 10, 24–7, 22: 21.
9 Gen. 11: 26.
10 1 Chron. 1: 32.
11 Gen. 11: 28, 31, 15: 7.
12 Gen. 11: 2.
13 Woolley, *Ur of the Chaldees*, p. 14.

3 Giveon, 1964, pp. 244–5; Giveon, 1971, p. 27.
4 Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 272 n. 70, cf. P. Harris I, 76:9 ('Se'ir with the Shasu clans').
5 Ward, 'The Shasu "Bedouin": notes on a recent publication', *JESHO* 15 (1972), pp. 50–1.
6 Ibid.
7 Grdseloff, 'Édôm, d'aprés les sources égyptiennes', *RHJE* 1 (1947), p. 74 n. 1, after Champillion and Sethe.
8 P Anastasi IV, 18, quoted in Redford, p. 228.
9 Redford, p. 203.
10 Ibid., p. 270. See also Moran, *The Amarna Letters*, EA 285: 5-6.
11 Barkay, 'What's an Egyptian Temple doing in Jerusalem?', *BAR* 26:3 (May/June 2000), pp. 48–57, 67.
12 Redford, p. 271. See also Moran, *EA* 287.
13 Redford, p. 275; Ward, p. 46.
14 Redford, p. 275.
15 Giveon, 1971, pp. 235–6.
16 Ward, p. 52, cf. P Anastasi I, 19, 1–4 and 23, 7–8.
17 Ibid., p. 53.
18 Ibid., p. 54.
19 Giveon, 'The Shosu of the Late XXth Dynasty', *JARCE* 8 (1969–70), p. 52.
20 Giveon, 1971, pp. 48–9.
21 Giveon, 1969–70, pp. 51–3.
22 Giveon, 1971, p. 28.
23 Ibid., p. 28.
24 Ibid., p. 236.
25 See Grdseloff, pp. 86, 98–9.
26 Ibid., pp. 81–2.
27 Redford, pp. 272–3.
28 Giveon, 1971, pp. 74–7; Grdseloff, pp. 79–83.
29 Gen. 32: 38.
30 See Greenberg, *The Hab/piru*, and Na'aman, 'Habiru and Hebrews: the transfer of a social term to the literary sphere', *JNES* 45:4 (1986), pp. 271–88; Rowton, 'Dimorphic structure and the problem of the 'Apirû-'Ibrîm', *JNES* 35:1 (1976), pp. 13–20.
31 Ex. 3: 1.
32 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Horeb', p. 336.
33 Ex. 3: 14.
34 Ex. 3: 15, trans. Propp. *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 6.
35 Propp, p. 204.
36 Ex. 6: 3.
37 Gen. 33: 20.
38 Ex. 15: 17.
39 Ex. 15: 17, trans. Propp, p. 22.
40 Ex. 3: 5.
41 Ex. 19: 11, 18, 20, 23.
42 Ex. 33: 6.
43 Ex. 32: 15.
44 I Kings 19: 8.
45 1 Kings 19: 9.
46 1 Kings 19: 3.
47 Har-el, *The Sinai Journeys: The Route of the Exodus*, p. 181.
48 Ibid.
49 Ibid.
50 Ibid.
51 Ibid.
52 Petrie, *Researches in Sinai*, pp. 251–2.
53 Ibid., pp. 252–3.
54 Ex. 13: 17.
55 Ex. 13: 18.
56 Propp, pp. 339, 486–7.
57 Ex. 15: 22.

45 Cheremon, quoted in ibid., I, 33.
46 Ibid.
47 Pompeius Trogus, quoted in Assmann, p. 36.
48 Bower, *Scotichronicon*, I, 9.
49 Ibid.
50 Ibid., I, 12.
51 Ibid., I, 14
52 Ibid., I, 15.
53 Ibid., I, 18.
54 Ibid.
55 For the descendants of Scota colonising the Irish DilRiata, see *Lebor Gabála Erenn: The book of the taking of Ireland*, Bk. 5, VIII, 384–6. Bk. 5, VIII, 387, which states: 'Scota d. Pharao, king of Egypt, also died in that battle [of Sliab Mis against the demons and Fomoraig, that is, against the Túatha Dé Danaan] the wife of Érimón s. Míl. For Míl s. Bile went a-voyaging into Egypt, for ships' companies strong, and he took Scota to wife, and Érimón took her after him. In that night on which the sons of Míl came into Ireland, was the burst of Loch Luigdech in Iar-Mumu.' Yet Scota's ancestry is confusingly set in two different periods of history, for she is the daughter of 'Pharao', named as Chencres (see Bk. 5, VIII, 409, 424, 435) and of 'Nectanebus' (Nekhtnebef, c. 380–363 BC), see Bk. 5, VIII, 410. Both kings are seen to have been on the throne when an Irish voyage of four vessels, led by Míl s. Bile reached Egypt, although clearly these events are deemed to have taken place around the time of the Exodus. After her death, Scota was said to have been buried in 'Scota's Grave' between Sliab Mis and the sea. See Bk. 5, VIII, 420.
56 For Scota going to Scotland see the 'Pleading of Baldred Biset', 1301, as referenced in the Intro. to Bower, p. xx.
57 For Scota going straight to Ireland see 'Instructions', 1301, as referenced in the Intro to Bower, p. xx.
58 For Scota going first to Ireland and then on to Scotland see *Chron. Picts-Scots*, 106–16 and *SEHI*, 609–10, as referenced in the Intro. to Bower, p. xix. Here Scota is the wife of Nelus or Niulus, a Greek, the son of a certain Lacedaemonian Aeneas, a prince of the Chorischii.
59 See the 'Pleading of Baldred Biset', 1301, as referenced in the Intro. to Bower, p. xx.
60 Nennius, *Historia Brittonum*, 15.
61 Bower, I, 10.
62 For a very interesting thesis that Scota, Pharaoh's daughter, was in fact Meritaten, the eldest daughter of Akhenaten, see Evans, *Kingdom of the Ark*. She links her expedition with various Late Bronze Age finds in Britain and Ireland which appear to show an Egyptian influence here at this time.
63 Moran, *The Amarna Letters*, EA35, 11–15.
64 Aldred, p. 283.
65 Ibid.
66 Goetze, 'The Plague Prayers of Mursilis' in Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament*, KUB, xiv, 8; KUB, xxiv, 3, pp. 394–6.
67 Ibid. KUB, xiv, 8, p. 394.
68 Ibid., KUB, xiv, 8, p. 395
69 Ibid., KUB, xxiv, 3, p. 396.
70 Kitchen, *Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs: A Study in Relative Chronology*, p. 47.
71 Moran, EA11, 5–14.
72 Phillips, *Act of God*, pp. 301–2.
73 Ex. 11: 1.
74 Ex. 12: 29–30.
75 Phillips, pp. 302–3.
76 Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, pp. 244–5.
77 Redford, 1986, p. 282.

PART FOUR: YAHWEH

CHAPTER 18: THE SEARCH FOR YAHWEH

1 Giveon, 'Toponymes ouest-Asiatiques à Soleb', in *VT* 14, 1964, pp. 239–55; Giveon, *Les Bédouins Shosou des documents Égyptians*, 1971, pp. 24–8.
2 Giveon, 1964, pp. 244–5; Giveon, 1971, pp. 25–7.

28 Ibid., fr. 52, from Syncellus, according to Africanus; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius; fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius: 'This is the king who was reputed to be Memnon, a speaking stone'.
29 Manetho, trans. Waddell, fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Acenchêrês as 12 years 1 month; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives the reign of Acenchêrês as 12 years 1 month; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives the reign of Acherrês as 12 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives the reign of Achencherşês as 12 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives the reign of Achencheres as 16 years.
30 Ibid., fr. 50, from Josephus, *Contra Apionem*; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19.
31 Ibid., fr. 50, from Josephus *Contra Apionem*; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19.
32 Ibid., fr. 52, from Syncellus, according to Africanus.
33 Ibid., fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius; fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius.
34 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Ramessês as 1 year 4 months; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives him 1 year 4 months; fr 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives him 1 year; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives him 68 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives him 68 years.
35 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Harmaïs as 4 years 1 month; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives the reign of Hannais as 4 years 1 month; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives the reign of Armesis as 5 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives the reign of 'Armais, also called Danaus' as 5 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives the reign of 'Armais, also called Danaus' as 5 years.
36 Ibid., fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius.
37 Ibid., fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius.
38 Ibid., fr. 53 (a), Syncellus's additional note to Eusebius's text.
39 Indeed, the principal of them, Josephus in *Contra Apionem*, who includes a version of Manetho's *Epitome*, believed that the expulsion of the Hyksos from Egypt was a distorted memory of the Exodus, so would have chosen to ignore any contrary claim by Manetho regarding its suggested time frame in the Amarna Age. Moreover, it was from Josephus that another source of Manetho's *Epitome*, the *Ad Autolucus* of Theophilus (d. c. AD 181–6), the saint and Greek ecclesiastical writer, was derived. It is for this reason alone that before his entry for 'Tethmôsis', or Ahmose, the founder of the Eighteenth Dynasty, Theophilus writes:

Moses was the leader of the Jews ... when they had been expelled from Egypt by King Pharaôh whose name was Tethmôsis. After the expulsion of the people, this king, it is said, reigned for 25 years 4 months, according to Manetho's reckoning. (See Manetho, trans. Waddell, fr. 51, from Theophilus, Ad Autolyc. iii. 19.)

A third source that fails to link the reign of Acenchêrês with the time frame of the Exodus was the *Pentabiblon Chronologicon* of Sextus Julius Africanus (d. c. AD 232), a Greek Christian historian. Although his work is no longer extant, sections from it, including Manetho's *Epitome*, are quoted by Syncellus. His entry for Ahmose, or Amôs as he calls him, states that in his reign:

Moses went forth from Egypt, as I [Africanus] here declare; but, according to the convincing evidence of the present calculation [put forward by me, Syncellus] it follows that in this reign Moses was still young'. (See Manetho, trans. Waddell, fr. 52, from Africanus)

Clearly, Africanus was simply quoting an earlier form of Manetho, which included the entry concerning the Exodus having occurred in the reign of Ahmose. Yet Syncellus himself obviously had contrary views on when exactly the Exodus took place, calculated perhaps using biblical chronology.

40 For a full résumé of these different Graeco-Egyptian and Graeco-Roman Exodus accounts, see Redford, 1986, pp. 282–96.
41 See, for instance, Lysimachus, *Aegyptiaca*, from Josephus, *Contra Apionem*, trans Waddell, I, 34.
42 Ibid.
43 Ibid
44 Ibid., I, 35.

Thera and the chronology and history of the Aegean and east Mediterranean in the mid second millennium BC. Whichever date best fits the evidence, none of them correspond with the reign of Ahmose and so it is extremely unlikely that the Exodus was connected in any way with activities during his reign, including the expulsion of the Hyksos, an idea originally derived from Josephus in *Contra Apionem*, quoting Manetho, who believed that the Asiatics were synonymous with Joseph and his brethren. See Manetho, trans. Whiston, I, 14. In Josephus' opinion, Manetho had *implied* that the Shepherds were synonymous with the 'Captives', or Hebrews enslaved in Egypt during the time of the Oppression, as contained in the 'sacred books' of the Jews. This fact seems to be affirmed by an earlier statement to the effect that the Hyksos had built Jerusalem, even though the Old Testament tells us that the holy city did not rise to any kind of prominence until the time of the united monarchy under David and Solomon. Perhaps inevitably, Josephus seized this statement to demonstrate how Manetho had preserved a record of the departure from Egypt of the Israelite nation at the time of the Exodus.

CHAPTER 17: DIVINE RETRIBUTION

1 Manetho, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, '*Flavius Josephus Against Apion*', trans. Whiston, I, 26.
2 Ibid.
3 Ibid.
4 Ibid.
5 Redford, *Pharaonic King-Lists, Annals and Day-books*, 1986, p. 293.
6 Assmann, *Moses the Egyptian: The Memory of Egypt in Western Monotheism*, p. 39.
7 For an extensive discussion on the relationship between the Hyksos, the Thera eruption and the Tempest Stela see Chapter 16, Note 49. See also Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, 1992, pp. 419–20.
8 Aldred, *Akhenaten: King of Egypt*, pp. 173–4.
9 Ibid., p. 174.
10 Pendlebury, 'Summary report on the excavations at Tell el-'Amarnah 1935–1936', *JEA* 22 (1936), p. 198.
11 Ibid.
12 This includes a broken fragment of a statue from the north entrance to the royal palace at Amarna showing a person's hands and forearms holding an offering table. Its inscription gives the names of Akhenaten, his father Amenhotep III and the Aten in the later form current only after Year 9 of Akhenaten's reign. See Pendlebury, pp. 197–8.
13 Aldred, p. 174.
14 Pendlebury, p. 198.
15 Aldred, p. 180.
16 See, for example, Reeves, *Akhenaten; Egypt's False Prophet*, pp. 75–8.
17 Assmann, p. 26.
18 See Pausanias, *Description of Greece*, I, 42.
19 Aldred, p. 164.
20 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 175.
21 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
22 Aldred, p. 164.
23 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
24 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 232.
25 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Orus as 36 years 5 months; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives 36 years 5 months; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 37 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 36 years (38 years in another copy); 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 28 years.
26 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Amenophis as 30 years 10 months; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives 30 years 10 months; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 31 years, fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 31 years, 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 31 years.
27 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the names of 18 kings of the Eighteenth Dynasty; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives 18 kings; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 16 kings; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 14 kings (but Syncellus elsewhere says he leaves out two kings); 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 14 kings.

19 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
20 Ibid.
21 Ibid. It is 'grandfather Rapses' in Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 245.
22 Manetho, trans. Whiston, I, 27.
23 Weigall, pp. 108–9.
24 Ibid., p. 109.
25 Ibid., p. 110.
26 Ibid., p 111.
27 Ibid.
28 Ibid., p. 112.
29 Ibid.
30 See Greenberg, *The Hab/piru*, and Na'aman, 'Habiru and Hebrews: the transfer of a social term to the literary sphere', *JNES* 45:4 (1986), pp. 271–88, Rowton, 'Dimorphic structure and the problem of the 'Apirû-'Ibrîm', *JNES* 35:1 (1976), pp 13–20
31 Weigall, pp. 115–16.
32 It is acknowledged by the authors that Eduard Meyer identified characters in Manetho's account of Osarsiph-Moses with Amenhotep III and Akhenaten. See Meyer, *Geschichte des Altertums*, ii, pp. 421, 424–5. However, he connected the main events surrounding the expulsion from Egypt of 'the lepers', 'impure people' and Asiatics with the reigns of Rameses II and Merneptah. See ibid., pp. 420–6 and Meyer, *Aegyptische Chronologie*, pp. 92–5.
33 Budge, *Tutânkhamen, Amenism, Atenism and Egyptian Monotheism etc.*, p. xiii.
34 Freud, *Moses and Monotheism*, pp. 97–8.
35 Ibid., p. 42.
36 Ex. 12: 12.
37 Weigall, p. 111.
38 Hecataeus of Abdera, quoted in Diodorus Siculus, *Bibliotheca Historica*, 40, 1–8.
39 Ibid., 40, 1.
40 Ibid., 40, 3.
41 Apion, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, II, 2.
42 Redford, *Akhenaten: the Heretic King*, p. 152.
43 Weigall, p. 110.
44 Budge, Gods of the Egyptians, I, p. 471; II, p. 361.
45 Aldred, *Akhenaten – King of Egypt*, pp. 43, 260; Redford, p. 149.
46 Redford, pp. 146–7.
47 Aldred, pp. 87, 273.
48 Apion, in Josephus, II, 2.
49 Like for instance, the reign of Ahmose, the first king of the Eighteenth Dynasty, who reigned c. 1575–1550 BC, and under whom the Hyksos Asiatic kings were expelled from Egypt. This last case is argued by Ralph Ellis in *Tempest and Exodus*, who cites the rainstorms and accompanying period of darkness described in the so-called Tempest Stela, dating from Year 1 of Ahmose's reign, to prove that both the Thera eruption and the biblical plagues occurred at this time. A connection between the aftermath of the Thera eruption and the plagues of Egypt is also posited by Ian Wilson in his 1985 book *The Exodus Enigma*, although he places this event during the reigns of Hatshepsut, c. 1490–1468 BC, and Thutmose III, c. 1490–1436 BC, the time frame of the Exodus offered by a literal interpretation of biblical chronology. A connection between the Tempest Stela and the Thera eruption is offered by Polinger Foster and Ritner in 'Texts, Storms, and the Thera Eruption', *JNES* 55:1 (1996), pp. 1–14. However, their arguments are persuasively demolished by Wiener and Allen in 'Separate Lives: The Ahmose Tempest Stela and the Theran Eruption', *JNES* 57:1 (1998), pp. 1–28. There is no question that the aftermath of the Thera eruption was felt in Egypt and might well have influenced the narrative of the book of Exodus. However, the problem comes from the dating of the event, with most scholars today opting for a high date in the range of 1628 BC based on dendrochronology and recalibrated Carbon-14 dates of organic materials from Akrotiri. For a general view of the Theran eruption and its effects on the Aegean and the Mediterranean see McCoy and Heiken, 'Anatomy of an Eruption: How a Terrifying Series of Explosions Reshaped the Minoan Island of Thera', *Archaeology* 43:3 (1990), pp. 42–9. Another school has proposed a lower date in the range of 1520 BC, while many historians continue to hold on to the traditional date of c. 1450 BC, based on stratigraphic evidence from the Minoan culture of Crete and Akrotiri on Thera/Santorini, and from contemporary cultures in other regions of the Mediterranean. For a full account of the problems regarding the dating of the Thera eruption see Manning, *A Test of Time: the volcano of*

39 Ibid., p. 269
40 Ibid., p. 273.
41 Ibid., p. 279.
42 Easton, s.v. 'Pharaoh', pp. 538–42.
43 Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, 'Hymn of Victory of Mer-ne-Ptah (The "Israel Stela")', pp. 376–8.
44 Ibid., p. 378.
45 Lichtheim, *Ancient Egyptian Literature*, pp. 57–73.
46 Pritchard, p. 378 n. 19.
47 Lichtheim, pp. 77.
48 P Anastasi VI, 4: 11–5:5, in Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 228.
49 Naville, *The Store-city of Pithom and the Route of the Exodus*, pp. 4–5.
50 Ibid.
51 Ibid., p. 4.
52 Ibid., pp. 13–14, 28.
53 Ibid, pp. 4, 10, 12–13.
54 Ibid., pp. 12–13.
55 Ibid., pp. 11–12. See Ex. 5: 7–8.
56 Holladay, *Cities of the Delta, pt. III: Tell el Maskhuta: Preliminary Report on the Wadi Tumilat Project 1978–1979*, pp. 10–27.
57 Millard, 'How Reliable Is Exodus?', *BAR* 24:4 (July/August 2000), p. 55.
58 All dates for biblical events are taken from Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, Appendix I – Chronological tables, pp. 715–27. However, Wright, *The Illustrated Bible Treasury*, p. 173, gives 973 BC as the date for the foundation of Solomon's Temple.
59 Ex. 12: 40.
60 Bimson, 'A Chronology for the Middle Kingdom and Israel's Egyptian Bondage', *SISR* 3 (1979), pp. 64–9.
61 Ibid.
62 Wilson, *The Exodus Enigma*, p. 20.
63 Ibid.

CHAPTER 16: MOSES THE EGYPTIAN

1 Weigall, *The Life and Times of Akhenaten*.
2 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 100.
3 Ibid., pp. 101–2.
4 See Manetho, trans. Waddell, p. xiv.
5 Weigall, p. 107.
6 Manetho, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, *Flavius Josephus Against Apion*, trans. Whiston, I, 26.
7 Ibid.
8 Ibid.
9 Ibid.
10 Ibid.
11 Ibid.
12 Ibid.
13 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 237.
14 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
15 Ibid., Osarsiph, or Osarsêph in Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 238, seems to be derived from the names of two deities, *Asar*, or Osiris, god of the underworld, and Sêph, a Hebrew variation of the name Set, god of the burning desert wastes, venerated at Avaris by the Hyksos Asiatic kings under the name Sutekh (see Appendix II – 'Pork Abstinence and the Worship of Set'). In Egyptian mythology, Set governed the northern sky, the place of darkness, while in Jewish tradition the region of darkness is called Sêphôn, a name connected with the word Sâphôn, 'north'. See Budge, *The Gods of the Egyptians*, II, p. 249. However, the Jews would have seen in the name Osarsiph a form of the Hebrew name Joseph, which might itself have derived from the same word root. See Manetho, trans. Waddell, p. 125 n. 3.
16 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
17 Ibid. I, 14.
18 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 246.

20 *List of Egyptian Antiquities belonging to Hy. Salt Esqr. forwarded to the British Museum*, one of two MSS in the Department of Egyptian Antiquities, the British Museum, quoted in ibid., p. 40.
21 Ibid., p. 40, cf. Arundale, Bonomi and Birch, Gallery, 47.
22 Ibid., pp. 40–1. The item in question is British Museum No. EA882.
23 Ibid, pp. 40, 44 n. 14.
24 Ibid.
25 Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, p. 18.
26 Reeves, 1985, p. 41.
27 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, 1995, p. 129.
28 Budge, p. xii.
29 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 180.
30 Hoving, p. 311.
31 Keedick, op. cit.

PART THREE: MOSES

CHAPTER 15: AGE OF THE EXODUS

1 Ex. 1: 8. All biblical quotations and references are taken from the Revised King James Bible, unless otherwise indicated
2 Ex. 1: 11.
3 Ex. 1: 12.
4 Ex. 1: 14.
5 Ex. 2: 1.
6 Ex. 2: 3.
7 Ex. 2: 10.
8 Acts 7: 22.
9 Josephus, *Antiquities of the Jews*, II, x, 1–2.
10 Ex. 3: 1.
11 Ex. 3: 2–3.
12 Ex. 3: 7–8.
13 Ex. 3: 14.
14 Ex. 3: 14–15
15 Ex. 14: 21.
16 Ex. 16: 1.
17 Ex. 19: 11.
18 Ex. 33: 6.
19 Ex. 32: 4.
20 Deut. 34: 1.
21 Deut. 34: 6.
22 Keedick, 'Howard Carter', unpublished memoirs, c. 1924.
23 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Pharaoh', pp. 538–42, which describes Rameses II as Pharaoh of the Oppression.
24 Gen. 45: 10; 46: 28, 29, 34.
25 Gen. 47: 11.
26 Num. 13: 22
27 Ps. 78: 12, 43.
28 Easton, s.v. 'Zo'an', pp. 713–14.
29 Bietak, 'Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta', *PBA* 65 (1979), pp. 228–9.
30 Adam, 'Recent discoveries in the Eastern Delta', *ASAE* 55 (1958), pp. 306, 318–20.
31 Ibid., p. 320.
32 Ibid., p. 323; Habachi, 'Khata'na-Qantir, Importance', *ASAE* 52 (1952), p. 443
33 See Adam, pp. 322–4.
34 Habachi, pp. 443–4.
35 Van Seters, *The Hyksos: a new investigation*, pp. 127–51.
36 Naville, 'The Geography of the Exodus', *JEA* 10 (1924), pp. 28–32
37 Van Seters, pp. 148–9.
38 Bietak, pp. 247–53.

him as Sir Thomas Cecil Rapp (1893–1984), who spent most of his life as a diplomat in various postings around the world. Rapp's own memoirs, from 1920–52, are located in the Private Papers Collection of the Middle East Centre at St Antony's College, Oxford. The authors could find no reference in them to the reported meeting with Howard Carter during this period. However, Rapp's memoirs relating to his term in Cairo amount to no more than seventeen or so pages and one would not expect, in so short an account, for the confrontation to have been recorded. Although, not within the above context, Rapp does mention meeting Carter shortly after Carnarvon's death when he was attending to the 'formalities for the transfer of his body to England'. It is possible that Keedick, not being a man of politics, misunderstood the intricacies of the British forms of political office, but until further research can shed more light on with whom exactly Carter had his confrontation, the official's identity remains a mystery. Thus for the purpose of this book the authors will refer to the unknown person as the 'British official'.

2 The reference here to the 'Egyptian Government' does not, of course, mean the Zaghlul government of 1924, but the one officiating in Tutankhamun's day.

3 Taken from a two-page extract of Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter', which include notes on the British Egyptologist. Although undated, they were probably written down in 1924 during Carter's lecture tour of the United States and Canada. The copies used by the authors were kindly supplied by TGH James.

The authors attempted to track down more extensive information, which Lee Keedick may have recorded about Carter, by attempting to trace his son Robert Keedick. Sadly, Robert died on 1 November 2000 in Florida and his surviving relatives, wife Mable and son Ted, were not in a position to help us with our enquiries, but were kind enough to respond to our queries as best they could.

4 Keedick, op. cit.

5 The exact date of the exchange is not recorded in Keedick's memoirs. However, from the authors' knowledge of the situation with respect to the 'lock out' at the tomb, the subsequent court case and the cancellation of the concession it would seem to have occurred around February/March 1924. Carter's diary notes that on 3 March 1924 he had an appointment at 08.30 at 'The Residency' in Cairo, where the offices of the High Commissioner and the High Consul were located. Plausibly it was during this meeting that the exchange occurred, since no other appointment at the Residency is recorded in his diary between January 1924 and 21 March 1924 when Carter left for England via Venice to prepare for his spring tour of North America.

6 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 311.

7 Letter from Lord Carnarvon to Alan H Gardiner, dated 28 November 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter. Before Tutankhamun*, p. 141.

8 Budge, *Tutânkhamen: Amenism, Atenism, and Egyptian Monotheism etc.*, pp. xviii–xix.

9 Merton, 'An Egyptian treasure: Great find at Thebes: Lord Carnarvon's long quest'; 'Doctor Petrie's views. Unique finds', *The Times*, 30 November 1922, p. 13.

10 'The Egyptian find: Lord Carnarvon's hopes: Difficulties of photography: The unopened chamber', *The Times*, 18 December 1922, p. 14.

11 Telegram from Howard Carter to Alan H Gardiner, date unknown, c. early December 1922, quoted in Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh*, p. 125. The authors have been unable to track down this item, but have no reason to doubt its existence.

12 'The Egyptian treasure: The importance of the find: Dr A Gardiner's views', *The Times*, 4 December 1922, p. 7.

13 Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, p. viii. It is a fact, however, that papyrus fragments were indeed found in boxes deposited in the Antechamber. For instance, the online 'Tutankhamun: Anatomy of an Excavation' resource at http://www.ashmol.ox.ac.uk/gri/4tut.html records that the items found in Box. No. 101y(1) included 'Piece of dried papyrus about 45 mm long. From a mat? Not kept.' While the contents of Box No. 102 likewise included 'Piece of papyrus', presumably also not kept.

14 Carter and Mace, I, p. viii.

15 Herbert, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–3, British Library Manuscript Collection, RP 17991.

16 Reeves, 'Tutankhamūn and his Papyri', *GS* 88 (1985), pp. 39–45.

17 Ibid., p. 39.

18 Ibid.

19 Belzoni, *Narrative*, p. 235 f.; cf. Belzoni, *Description of the Egyptian Tomb*, 1821, 10, quoted in ibid., p. 40.

20 Ibid.
21 Ibid., p. 351.
22 Ibid.
23 Ibid., p. 356.
24 See Harris, 'Akhenaten and Neferneferuaten in the Tomb of Tut'ankhamūn,' in Reeves, *After Tut'ankhamūn: Research and excavation in the Royal Necropolis at Thebes*, p 60. For information online concerning the Nelson-Atkins sequins go to http://echoesofeternity.umkc.edu/Sequins.htm
25 Harris, p. 60
26 Hoving, p. 356.
27 Ibid., p. 355.
28 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, pp. 96–7.
29 Carter, III, p. 34
30 Hoving, p. 357.
31 Ibid. The authors made every attempt to trace the current whereabouts of the rings inherited by Phyllis Walker through an intermediary. Initially they were informed that these items were stored in the basement of the Egyptian Museum in Cairo, along with the other objects bequeathed by Farouk. They were told also that the 'rings are felt to be fakes by all who have had a chance to study them'. Yet, later, they were advised that the former curator of the museum, who had catalogued the Farouk material, claimed that there were no rings in the collection. There is obviously an element of confusion here and one that the authors have been unable to resolve. For the moment at least the location of the rings remains a mystery.
32 Lee, ... *the grand piano came by camel: Arthur C Mace, the neglected Egyptologist*, p. 100, from a conversation with Margaret Orr.
33 'Cheiro' (Hamon), *Real Life Stories: A Collection of Sensational Personal Experiences*, p. 47.
34 Ibid., pp. 49–50.
35 'Tragedy of the Hon. R Bethell. Death at his club. Tut-ankh amen curse recalled', *Daily Mail*, 16 November 1929, p. 11.
36 'Cheiro' (Hamon), p. 52, cf. Universal News Service press release on the death of Lord Westbury, February 1930.
37 Ibid., p. 49.
38 Ibid., p. 51.
39 *Daily Mail*, 16 November 1929, p. 11.
40 'Tragedy of Lord Westbury "I cannot stand any more horrors." Pharaoh's curse', *Daily Express*, 22 February 1930, pp. 1–2.
41 Ibid., p. 1.
42 For instance, the shadowy role played by Howard Carter and Lord Carnarvon in the purchase, on behalf of the Metropolitan Museum of Art, of the collection of some 225 items that came to be known as the Treasure of the Three Princesses, which went on display for the first time in 1926. See Hoving, pp 127–37
43 Letter from Arthur Weigall to Howard Carter, dated 25 January 1923, to be found in the Carter Files, Department of Egyptian Art, Metropolitan Museum of Art, New York, and quoted in James, *Howard Carter: the Path to Tutankhamun*; p. 242
44 James, pp. 242–3.

CHAPTER 14: A SCANDALOUS ACCOUNT

1 Carter's confrontation with a British official in Cairo has come down to us through the memoirs of Lee Keedick, president of the Keedick Lecture Bureau and Carter's lecture agent in the US, yet the identity of the official is not at all clear. Keedick records Carter as having said that he confronted the 'British Vice Royal of Egypt', but after Egypt's independence in 1922 that office no longer existed. This fact seems to have been acknowledged by Thomas Hoving, for, in his book *Tutankhamun – The Untold Story*, he draws upon Keedick's memoirs but states that the official with whom Carter had his row was the vice-consul. Quite how Hoving reaches this conclusion seems unclear. While on the other hand TGH James in his book *Howard Carter: The Path to Tutankhamun* says it was General Sir Edmund Allenby, who served as Egypt's High Commissioner from 1919 until his retirement in 1925. Yet there is nothing in Keedick's notes to indicate that this was indeed the case.

According to the 'Foreign Office List and Diplomatic and Consular Year Book' for 1924, the vice-consul during the spring of 1924 was a Captain TC Rapp. The authors have identified

11 Ibid., pp. 139–40
12 Letter from Arthur C Mace to Albert Lythgoe, dated 14 January 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in ibid , p. 140.
13 Letter from Arthur C Mace to Albert Lythgoe, dated 7 August 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in ibid.
14 Ibid.
15 Chris Ogilvie-Herald spoke at length with Christopher C Lee, the curator of the Paisley Museum in Scotland, during July 2001, who was unable to elaborate any further on the cause of Mace's arsenic poisoning.
16 Email from Dorothy Arnold to Andrew Collins, dated 12 March 2002.
17 Pearce, 'Bangladesh's arsenic poisoning – who is to blame?' *UNESCO Courier*, January 2001.
18 F Hoefear, *Histoire de la chimie*, 1842, I, p. 226, quoted in Lucas, 'Poisons in Ancient Egypt', *JEA* 24 (1938), pp. 198–9.
19 Pliny, *Natural History*, XV, xiii, 45.
20 Lucas, p 198.
21 Ibid., p. 199.
22 Ibid., p. 199.
23 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002.
24 See Davis, *The Serpent and the Rainbow*.
25 For further information on arsenic sulphate visit www.sis.gov.eg/pharo/html/immon03.htm.
26 See Lucas, op. cit.
27 Harmon, 'Oakland arsenic fears resurface', *Detroit News*, 12 March 1997.
28 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 221.
29 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002.

CHAPTER 12: LOCKOUT!

1 Carter, *Tut.Ankh.Amen, The Politics of Discovery*, pp. 10–12
2 Ibid., p. 69
3 Ibid , p 5
4 Ibid.
5 Ibid., Appendix I, p. 133.
6 Ibid.
7 Ibid., p. 134.
8 Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, II, p. 51.
9 Ibid., II, p. 53.
10 Carter, p. 99.
11 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 325

CHAPTER 13: TOMB ROBBERS

1 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 41 (1942) p. 136.
2 Carter, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, II, pp. 89–90.
3 Ibid., II, p. 90.
4 Lucas, p. 137.
5 Ibid.
6 Ibid., pp. 137–8.
7 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 350.
8 Ibid.
9 Ibid.
10 Ibid., pp. 350–1
11 Ibid., p. 351
12 Ibid.
13 Ibid.
14 Ibid., p. 354
15 Ibid.
16 Ibid., pp. 352–3.
17 Ibid.
18 Ibid., p. 350.
19 Ibid., p. 352.

4 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
5 Winstone, *Howard Carter and the Discovery of the Tomb of Tutankhamun*, p. 189.
6 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
7 For instance, see Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The Discovery of Tutankhamun*, 1978, p. 160.
8 For instance, see Carnarvon, p. 126; Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, p. 134.
9 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
10 For those readers who possess a copy of Nicholas Reeves's superb book *The Complete Tutankhamun*, a photograph of the death certificate (currently on display at Highclere Castle) appears in a plate on Page 63, and the time of death is clearly visible.
11 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 130.
12 Vandenberg, 1978, p. 161.
13 Ibid.
14 Carnarvon, p. 127.
15 Ibid.
16 'Egyptian collectors in a panic: Sudden rush to hand over their treasures to museums: Groundless fears', *Daily Express*, 7 April 1923, p. 1.
17 Ibid.
18 Ibid.
19 Brackman, p. 113.
20 Ibid.
21 Ibid., p. 114.
22 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 227.
23 Ibid.
24 Ibid.
25 Vandenberg, *The Curse of the Pharaohs*, 1973, p. 19.
26 Ibid.
27 Ibid.
28 A letter from Herbert E Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, 28 March 1923, quoted in Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 82. See also James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 218, who quotes the first paragraph.
29 Carter, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, II, p. xxv.
30 See Lucas, 'The Chemistry of the Tomb', in Carter, II, pp. 162–88.
31 Ibid., II, p. 165.
32 Ibid., II, pp. 165–6.
33 Ibid., II, p. 166.
34 Vandenberg, 1973, p. 157.
35 Ibid.
36 Ibid.
37 NBC television report, no screening date, c. 1990s.
38 Hoving, p. 221.

CHAPTER 11: THE PRESENCE OF POISON

1 Quoted in Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 114.
2 Morton, 'Tragedy of Lord Carnarvon', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 4.
3 A number of Internet news sites posted articles on the discovery. For example see http://www.egyptvoyager.com/drhawass_findingthetomb_2.htm.
4 Posted on various Internet news sites. For example see. http://abcnews.go.com/sections/science/DailyNews/egyptmayor000523.html.
5 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002
6 Ibid.
7 Letter from Arthur C Mace to his wife Winifred, dated 4 March 1923, quoted in Lee, ... *the grand piano came by camel: Arthur C Mace, the neglected Egyptologist*, p. 109.
8 Letter from Arthur C Mace to his wife Winifred, dated 4 March 1923, quoted in James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 253.
9 Letter from Arthur C Mace to Albert Lythgoe, dated 14 January 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in Lee, p. 138.
10 Ibid

23 Ibid., pp. 142, 144.
24 'Cheiro' (Hamon), 1934, p. 45.
25 Ibid., pp. 19–26, 35–47. See also Nelson, *Out of the Silence*, pp. 31–2.
26 'Cheiro' (Hamon), 1934, p. 45.
27 Ibid., p. 46.
28 Ibid., p. 47.
29 Ibid.
30 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, 1976, p. 120
31 Lee, *... the grand piano came by camel: Arthur C Mace, the neglected Egyptologist*, p. 111.
32 Carter, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, II, p. xxv
33 Ibid.
34 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
35 Rapp, unpublished memoirs (GB165–0234), Private Papers Collection, Middle East Centre, Oxford.
36 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 137.
37 Ibid., pp. 137–8.
38 Wynne, p. 95.
39 Ibid., pp. 95–6.
40 Ibid., p. 96.
41 Ibid., p. 96.
42 Ibid.
43 Ibid.
44 Ibid., p. 103.
45 Ibid.
46 Ibid., p. 104.
47 Ibid
48 Ibid.
49 Carnarvon, 1976, pp. 120–2. It is, however, recognised by the authors that large sections of this book were taken wholesale out of Barry Wynne's own book *Behind the Mask of Tutankhamen*, published in 1972, particularly in areas dealing with the death of the fifth Earl of Carnarvon and his contact with Count Louis Hamon and Velma. Indeed, it seems likely that Wynne may well have had a hand in significantly contributing to the writing of the sixth earl's memoirs.
50 See Coates and Bell, *Marie Corelli: The Writer & the Woman*.
51 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 62 and Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 129, the latter of whom states that Corelli said the old Egyptian book contained the classic curse line, 'Death comes on [swift] wings to him who enters the tomb of a Pharaoh'.
52 Keys, 'Curse (& Revenge) of the Mummy Invented by Victorian Writers', *The Independent*, 31 December 2000.
53 Ibid.
54 LMA (Louisa May Alcott), 'Lost in a Pyramid' *The New World*, vol. 1, no. 1, 1869, p. 8. Periodicals collection, Library of Congress, Washington DC, Cat. No. AP2 N6273. The authors would like to thank Fred Bauman, manuscript reference specialist, at the Library of Congress for his help in obtaining the reference details for this item. See also Montserrat, 'Louisa May Alcott and the Mummy's Curse', *KMT* 9:2 (Summer 1998), pp. 70–5.
55 See Stoker, *The Jewel of Seven Stars*. By far the best film to be based on Stoker's book is *The Awakening* (1980), starring Charlton Heston.
56 A letter from Herbert E Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, 28 March 1923, quoted in Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 82. See also James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 218, who quotes the first paragraph.
57 Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The discovery of Tutankhamun*, p. 158.
58 Ibid.
59 Weigall, pp. 137–8.
60 Wynne, p. 200.

CHAPTER 10: A SENTENCE OF DEATH

1 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, p. 124.
2 Ibid.
3 Ibid.

16 Merton, op. cit.
17 Letter from Lady Evelyn Herbert to Howard Carter, 18 March 1923, in the Carter archives of the Metropolitan Museum of Art and quoted in James, pp. 257–8.
18 Letter from Albert Lythgoe to Howard Carter, 20 March 1923, held by the Egyptology Department of the Metropolitan Museum of Art and quoted in Hoving, pp. 223–4.
19 Merton, op. cit.
20 Letter from the Hon. Richard Bethell to Howard Carter, 26 March 1923, held by the Egyptology Department of the Metropolitan Museum of Art and quoted in Hoving, p. 224.
21 Merton, op. cit.
22 Ibid.
23 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, pp. 120, 124.
24 Letter from Alan Gardiner to his wife, dated 1 April 1923, quoted by Margaret Gardiner in *A Scatter of Memoirs*, pp. 107–8.
25 Merton, op. cit.
26 Ibid.
27 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
28 Merton, op. cit. Merton incorrectly states that his death occurred at 2.30 a.m.
29 Ibid.
30 Ibid.
31 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
32 This appears to have been Algernon Maudslay (1873–1948), a public servant, although the authors have been unable to verify this fact.
33 Gardiner, pp. 39–40.
34 Reeves, p. 62.
35 Hoving, p. 221.
36 Letter from Lord Carnarvon to Howard Carter, December 1922–January 1923, source unknown, quoted in Hoving, p. 153.
37 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 96.
38 Ibid., p. 89.

PART TWO: THE CURSE

CHAPTER 9: THE CURSE OF CARNARVON

1 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 114
2 From a conversation between Anthony Leadbetter, a surviving godson of Almina, Countess of Carnarvon, and the authors on 3 August 2001.
3 Carnarvon, *Ermin Tales: More Memoirs of the Earl of Carnarvon*, 1980, p. 16.
4 Ibid.
5 Ibid.
6 Ibid.
7 Ibid.
8 Ibid.
9 Ibid.
10 From a conversation between Anthony Leadbetter and the authors on 3 August 2001.
11 'Cheiro' (Hamon), *Confessions: memoirs of a modern seer*, 1932, p. 38; 'Cheiro' (Hamon), *Real Life Stories: A Collection of Sensational Personal Experiences*, 1934, p. 29.
12 'Cheiro' (Hamon), 1932, Mark Twain, p. 168; Sarah Bernhardt, p. 147; Austin Chamberlain, pp. 123–4; Oscar Wilde, p. 152; Mata Hari, pp. 248–57.
13 Ibid., p. 132.
14 Ibid., pp. 97–100.
15 Ibid., pp. 108–9.
16 Ibid., pp. 113–16.
17 Ibid., pp. 39–42.
18 Ibid., p. 62.
19 Ibid., p. 66.
20 Ibid., p. 68.
21 Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, p. 51.
22 'Cheiro' (Hamon), 1932, pp. 135–44.

than likely that the originals were either sold as part of a private transaction or bought at auction. The current province of Carnarvon's original account is unknown and we have been unable to trace its present owner.

33 Ibid., pp. 5–6, 9.

34 Letter from Lord Carnarvon to Alan H Gardiner, 28 November 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter Before Tutankhamun*, pp. 141–2. This letter forms part of a collection of Gardiner papers archived at the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.

CHAPTER 7: THE TREASURE OF TUTANKHAMUN

1 The Turin papyrus of Rameses IV's tomb, Museo Egizio, Turin. See Carter and Gardiner, 'The tomb of Ramesses IV and the Turin plan of a royal tomb', *JEA* 4 (1917), pp. 130–58. See also Desroches-Noblecourt, *Tutankhamen: Life and Death of a Pharaoh*, p. 259 and pl. 165.

2 In his book Carter claimed that the rope tie between the handles of the double-door had been broken in antiquity by tomb plunderers. But, given that there is little evidence of the robbers' activities in the Burial Chamber and Treasury (see Chapter 13), it may well have been Carter and company who broke the seal in their desire to see what lay beyond the first door of the shrine. See Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, p. 183.

3 Ibid., I, p. 184. The authors recognise that the quotations from Carter and Mace's first volume of *The Tomb of Tut.ankh.Amen* and used to accompany the text of this chapter supposedly relate to Carter and company's official entry into the Burial Chamber and Treasury on Friday 16 February 1923. However, it is clear that Carter's words (with the help of Mace) are mainly expressing his initial feelings when he first entered these same chambers some three months beforehand in November 1922.

4 Ibid.

5 Ibid., I, p. 185.

6 The evidence for Carter's resealing the hole, and also stamping the wet mortar with his own prefabricated seal of the necropolis, can be seen in Burton's photograph (Plate 11) of the wall between the Antechamber and the Burial Chamber before it was dismantled in February 1923. Since Burton did not join Carter's team until mid-December 1922, just a few weeks *after* Carter et al. had breached the wall, the photograph cannot be misinterpreted as showing a record of a resealing in antiquity. Burton, Harry, Griffith Institute, Oxford, photograph GB7 282.

7 Herbert, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–23, British Library Manuscript Collection, RP 17991, pp. 1–10.

8 Gardiner, *My Working Years*, pp. 37–8.

9 Dawson to Robbins, Memorandum, 'Informing him of Lord Carnarvon's offer of exclusive news on the opening of Tutankhamun's' tomb', 14 November 1922, TNL Archive at the Archives and Records Office of the News International Group, GR/3/19/3.

CHAPTER 8: SIX WEEKS TO LIVE

1 Rapp, unpublished memoirs (GB165–0234), Private Papers Collection, Middle East Centre, Oxford.

2 Letter from James Henry Breasted to his son Charles Breasted, dated 12 March 1923, quoted in Breasted, *Pioneer to the Past*, p. 347.

3 Breasted, p. 347.

4 James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 254.

5 Letter from Lord Carnarvon to Howard Carter, 23 February 1923?, in the Carter archives of the Metropolitan Museum of Art, New York, and quoted in James, p. 254 and Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 222–3.

6 Hoving, p. 222.

7 For instance, see Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 156–7.

8 Merton, 'Ld. Carnarvon's Death. 16 Years' Work in Egypt', *The Times*, 6 April 1923, p. 11.

9 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 106.

10 Merton, op. cit.

11 Breasted, p. 347.

12 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 62.

13 James, pp. 256–7.

14 Ibid., p. 257.

15 Gardiner, *My Working Years*, p. 40

reconstruction of events using Carter's appointments diaries and his (and Mace's?) recollections. It is clear that this notebook was written up at a much later date than the entries therein. As such, it is likely that they do not always give us an accurate account of events.
31 Ibid.
32 Carter and Mace, I, p. 100.
33 Ibid.
34 Ibid., I, p. 101.

CHAPTER 6: UNOFFICIAL OPENING

1 Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, p. 98.
2 Carter, Lett's No. 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Sunday, 26 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
3 Carnarvon, typewritten draft article dated 10 December 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 140–1. At the time of publication of Reeves and Taylor's book this letter formed part of a collection owned by Reeves, but it is now held by the Department of Egyptian Antiquities at the British Museum.
4 Carnarvon, 'The Egyptian treasure: story of the discovery', *The Times*, 11 December 1922, pp. 13–14.
5 Typewritten draft article written by Lord Carnarvon, 10 December 1922, quoted in Reeves, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 140–1
6 Ibid.
7 Ibid.
8 Ibid.
9 Carter, *Tut.Ankh.Amen: The Politics of Discovery*, p. 4.
10 Carter and Mace, I, p. 93.
11 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 84–5.
12 Carter, p.4.
13 Hoving, p. 85
14 Carter and Mace, I, p. 101.
15 Hoving, pp. 90–103
16 Ibid., p. 91.
17 Carter and Mace, I, p. 97.
18 Carter and Mace, I, p. 104.
19 Ibid., I, p. 178.
20 Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, pp. 114–16.
21 Herbert, Mervyn, diary 1917–23 (an earlier diary covers the period 1912–17 but is not referenced in this work), Private Papers Collection, Middle East Centre, St Antony's College, Oxford, GB165–0144. Permission to quote from the diary was kindly given by Janet Powell and Martin Argles.
22 Ibid.
23 Ibid.
24 Ibid.
25 Carter and Mace, I, 101–2.
26 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 41 (1942), pp 135–47.
27 Ibid., p. 136.
28 Ibid.
29 Ibid.
30 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 45 (1947), pp 133–4.
31 Ibid.
32 Herbert, George, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–23, British Library Manuscript Collection, RP 17991. The account is undated and while the British Library reference gives a broad period within which it could have been written, the authors believe that it was probably composed sometime between 26–30 November 1922, when the events described in the text were still fresh in Carnarvon's mind. According to staff at the British Library the original papers have been exported yet the copies were deposited at the library as per legal requirements for historical documents. No further information was forthcoming but it is more

12 Carter and Mace, I, p. 82.
13 Ibid., I, p. 83.
14 Ibid., I, p. 85.
15 Breasted, p. 328.
16 Ibid.
17 Carter and Mace, I, p. 85.
18 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 73.
19 Ibid

CHAPTER 5: DEATH OF THE GOLDEN BIRD

1 Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, p. 90.
2 Gardiner, *My Working Years*, p. 37.
3 Carter and Mace, I, p. 87.
4 Breasted, *Pioneer to the Past: The Story of James Henry Breasted Archaeologist*, p. 332.
5 Carter and Mace, I, p. 88.
6 Ibid., I, p 89.
7 See, for example, James, *Howard Carter: the Path to Tutankhamun*. Background information on Arthur J Callender is severely lacking but both James and Dawson and Uphill's *Who was who in Egyptology* does provide us with some biographical material.
8 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 81.
9 A letter from Herbert E Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, dated 28 March 1923, quoted in Hoving, p. 82. See also James, p. 218, who quotes the first paragraph.
10 Breasted, p. 342.
11 Letter from Winlock to Robinson, 28 March 1923, op. cit.
12 Ibid.
13 Breasted, p. 342.
14 Letter from Winlock to Robinson, 28 March 1923, op. cit.
15 Ibid.
16 Ibid.
17 Hoving, p. 52.
18 Breasted, p. 342.
19 For instance, TGH James takes a sceptical approach to the incident by questioning 'how a cobra could have got through the bars of the cage' and if they were so widely set 'surely the canary could have got out'. See James, p. 306. Yet during the filming for the TV series *The Face of Tutankhamun*, which accompanied the publication of Christopher Frayling's book of the same title, an opportunity presented itself to test the validity of the story. A live cobra was set before a birdcage containing a canary on the steps of 'Castle Carter' at the head of the Valley of the Kings. All present watched in amazement as the snake reduced itself to the necessary width and began sliding through the bars, prompting the film crew to stop the poor bird from being consumed. See Frayling, *The Face of Tutankhamun*, pp. 55–6.
20 Carter, Lett's No. 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Friday 24 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
21 James, p 305.
22 Carter, Lett's No 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Friday 24 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
23 See, for instance, Alan H Gardiner's account of events quoted in his daughter Margaret Gardiner's *A Scatter of Memories*, p. 98: 'On November 23rd Carnarvon arrived at Luxor with his daughter Evelyn'.
24 Carter and Mace, I, p. 92.
25 Ibid.
26 Ibid., I, p 93 n. 1.
27 Ibid., I, p. 94.
28 Ibid., I, p. 96.
29 Ibid., I, p. 96.
30 Carter, MSS Notebook 1, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford. The notebook contains extended entries, some sketches and newspaper cuttings relating to the discovery. According to a spokesperson from the Griffith Institute, it 'is clear that this is not a diary which was written at the end of each day'. Indeed, it is unlikely that there ever was one. Rather, it is a

CHAPTER 3: CARTER'S QUEST

1 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, pp. 54–5
2 Harris, 'How long was the Reign of Horemheb?' *JEA* 54 (1968), p. 97; Aldred and Sandison, 'The Pharaoh Akhenaten: a problem in Egyptology and pathology', *BHM* 36 (1962), pp. 298–9.
3 Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The Discovery of Tutankhamun*, p. 21
4 Ibid.
5 Ibid., pp. 24–5.
6 Petrie, *Tell el Amarna*, p. 38.
7 Redford, *Akhenaten: The Heretic King*, p. 141. Another interpretation of the name Akhenaten is 'He who is useful to the Sun-disc', although this makes little sense of its intended spiritual implications. See ibid.
8 Petrie, p. 41.
9 Ibid.
10 Derry, 'Note on the skeleton hitherto believed to be that of King Akhenaten, *ASAE* 31 (1931), p. 116.
11 See, for instance, Aldred and Sandison, pp. 305–15.
12 Burridge, 'Akhenaten: A New Perspective. Evidence of a Genetic Disorder in the Royal Family of 18th Dynasty Egypt', *JSSEA* 23 (1993), p. 65.
13 Ibid.
14 Phillips, *Act of God: Tutankhamun, Moses and the Myth of Atlantis*, p. 68.
15 Burridge, p. 65.
16 Burridge, pp. 63–74; Burridge, 'Did Akhenaten Suffer from Marfan's Syndrome?', *BA* 59:2 (June 1996), pp. 127–8.
17 Filer, 'The KV 55 body: the facts', *EA* 17 (Autumn 2000), p. 14.
18 See Collins, *Gods of Eden*, Ch. 11.
19 See Stecchini, 'Notes on the Relation of Ancient Measures to the Great Pyramid', in Tompkins, *Secrets of the Great Pyramid*, pp. 287–382.
20 Molleson & Campbell, 'Deformed Skulls at Tell Arpachiyah: the Social Context', in Campbell & Green (eds), *The Archaeology of Death in the Ancient Near East*, Oxbow Monograph No. 51, 1995, pp. 45–55.
21 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 27.
22 The permit or 'Authorization to Excavate' issued to Carnarvon was renewable annually, the details of which can be found in James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, Appendix II, pp. 413–15, and Carter, *Tut.Ankh.Amen: The Politics of Discovery*, pp. 3–6. The latter work also gives the dates when the permit was renewed and, following Carnarvon's death, the change from 'excavation' rights to 'clearance' rights issued to his widow, Almina, Countess of Carnarvon.
23 Whether or not Carter had been issued a temporary permit during the interim period between Davis' giving up his own concession and the issuing of an official permit to the fifth earl in 1915, is not known. But, given that World War One had begun just a few months beforehand, this might well have been an oversight by the Department of Antiquities. In any case, Carter's activities in Upper Egypt, official or otherwise, would have been of little importance to the British and Egyptian officials based in Cairo. Their attentions would have been focused most fully on the initial stages of the conflict, and whether or not the Turks now intended to seize control of the Suez Canal, Britain's vital artery between the Mediterranean Sea and the Indian Ocean.

CHAPTER 4: THE SEARCH COMMENCES

1 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 44.
2 Burghclere, 'Introduction', in Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, p. 27.
3 A modern translation of the Greek word *hyksos* is given as 'rulers of foreign lands'. See Laughlin, *Archaeology and the Bible*, p. 72.
4 Carnarvon and Carter, *Five Years' Explorations at Thebes: A record of work done 1907–1911*.
5 Winstone, *Howard Carter and the Discovery of the Tomb of Tutankhamun*, p. 114.
6 Carter and Mace, I, p. 80.
7 Ibid., I, p. 81.
8 Ibid.
9 Ibid. I, p. 82.
10 Ibid.
11 Breasted, *Pioneer to the Past: The Story of James Henry Breasted Archaeologist*, p. 328.

skull of Tutankhamun. They are strikingly similar in size and shape, hinting at some familial relationship'.

14 Harrison, pp. 113–14
15 Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, p. 54
16 Engelbach, 'The so-called coffin of Akhenaten'. *ASAE* 31 (1931), pp. 98–114; Engelbach, 1940, p. 152.
17 For the theory that Smenkhkare was Nefertiti see, for instance, Samson, *Nefertiti and Cleopatra: Queen-Monarchs of Ancient Egypt*, pp. 86–9, 95–7, and Reeves, *Akhenaten: Egypt's False Prophet*, 2001, pp. 170–3, after the work of John R Harris in 1973. For strong arguments against this conclusion, see Allen, 'Nefertiti and Smenkh-ka-re', *GM* 141 (1994), pp. 7–17. There are so many reasons why Smenkhkare cannot possibly have been Nefertiti. First, the main confusion comes from the assumption that the co-regent using the names Neferneferuaten and Ankhkheperure was one and the same person. However, it makes better sense to conclude that, as Allen suggests, there were in fact two co-regents – one Nefertiti and the other Smenkhkare, the latter having been given the same throne name by Akhenaten, seemingly after the former's departure from the scene. Secondly, there are various depictions of Smenkhkare, some of them in the company of Akhenaten. For a round-up of these see Engelbach, 1931, p. 105. Thirdly, Smenkhkare married, or at least took as his consort, Meritaten, Akhenaten's eldest daughter. For example, their two names were inscribed in cartouches accompanying an unfinished wall relief of a royal couple originally intended to represent Akhenaten and Nefertiti in the rock tomb of Meryre II at el-Amarna. See Davies, *The Rock Tombs of El Amarna: Part II – The tombs of Panehesy and Meryra II*, pp. 43–4, pl. xli. If Smenkhkare was really Nefertiti, then why should a woman go through the motions of taking a royal wife? In the opinion of the authors this makes no sense whatsoever.

   Then, of course, there is the problem of the identity of the body in KV 55, which according to the anatomical examinations by Smith (1912), Derry (1931) and Harrison (1966), and most recently by Filer (2000), is that of a young man between 20 and 25–6 years of age, making it unlikely to be Akhenaten. Only one royal male fits the picture, and this is Smenkhkare. The high-profile Amarna expert Nicholas Reeves, who argues in his books and on TV documentaries that Smenkhkare is Nefertiti and the body in KV 55 is Akhenaten, refuses to accept the results of these anatomical examinations and instead cites the findings of Fawsia Hussein and John R Harris, who in 1988 decided that the body belonged to a mature man in his mid-thirties, due to sinus ageing. See Reeves, 2001, pp. 83–4. However, Hussein and Harris have been criticised for their procedures, and their findings are rarely quoted or accepted by Egyptologists. Yet to ensure that Akhenaten *was* found in KV 55, the body has to be seen as at least 35 years of age, and if his body *has* been found, and Smenkhkare is Nefertiti, then this provides the perfect opportunity for the search for Nefertiti's tomb in the Valley of the Kings. This is the current aim of the Amarna Royal Tombs Project, founded in 1998 by Nicholas Reeves, after permission was given by Egypt's Supreme Council of Antiquities for a British team to begin exploration of the Valley. This is the first time that a digging concession of this kind has been granted since the days of Howard Carter.
18 Harris, 'Akhenaten and Neferneferuaten in the Tomb of Tut'ankhamûn', in Reeves, *After Tut'ankhamûn. Research and excavation in the Royal Necropolis at Thebes*, 1992, pp. 55–62.
19 Eaton-Krauss, 'The Sarcophagus in the Tomb of Tut'ankhamûn', in Reeves, 1992, pp. 85–90.
20 Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, p. 8.
21 For a more recent case for the body from KV 55 being that of Smenkhkare see Rose, 'Who's in Tomb 55', *Archaeology* 55:2 (March/April 2002), pp. 22–7. Filer, 'Anatomy of a Mummy', *Archaeology* 55:2, (March/April 2002), pp. 26–9
22 See, for example, Reeves, 2001, pp. 81–4, 173–4
23 Fairman, 'Once again the so-called coffin of Akhenaten', *JEA* 47 (1960), pp. 25–40.
24 Harrison, pp. 115–16
25 Davis, *Excavations. Bibân el Molûk: The Tombs of Harmhabi and Touatânkhamanou*, 1912, p. 2.
26 Ibid., pp. 3, 125
27 Ibid., p. 127.
28 Ibid., p. 128.
29 Ibid., Carter and Mace, *The Tomb of Tut.ankh.Amen*, I, pp. 77–8; Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, pp. 9–10
30 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 61–2
31 Davis, 1912, p. 3.

PRELUDE

1 This account of the death of the fifth Earl of Carnarvon and the sixth earl's journey from India to be at his father's bedside is taken from Carnarvon, *No Regrets: The Memoirs of the Earl of Carnarvon*, pp. 118–22.
2 Ibid., p. 119.
3 Ibid., p. 124.

PART ONE: TUTANKHAMUN

CHAPTER 1: THE KING IS DEAD

1 All dates for the reign of Egyptian kings are taken from Sir Alan Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*.
2 Brier, *The Murder of Tutankhamen: A 3000-year-old Murder Mystery*, p. 8.
3 Ibid.

CHAPTER 2: MYSTERY IN THE VALLEY

1 For a discussion on the names inscribed originally on the magic bricks see Fairman, 'Once again the so-called coffin of Akhenaten', *JEA* 47 (1960), p. 37.
2 However, for an argument that the coffin was prepared originally for Meritaten, see ibid., pp. 30–2.
3 See Aldred and Sandison, 'The Pharaoh Akhenaten: a problem in Egyptology and pathology', *BHM* 36 (1962), p. 301.
4 See Davis, *The Tomb of Queen Tiyi: The Discovery of the Tomb*, 1910.
5 In 1910 Smith wrote a paper for Theodore M Davis' book *The Tomb of Queen Tiyi* reassessing the age of the remains, originally cited in 1907–8 as 25 to 26 years at death, after he had been repeatedly asked whether the bones could be those of a much older man of, say, 28 to 30 years, i.e. the youngest possible age of Akhenaten at the time of death. Since the skull of the individual, in his opinion, showed signs of hydrocephalus, i.e. water on the brain (a fact later dismissed by Dr Douglas E Derry after his own examination of the remains – see below), he concluded that 'the bones, therefore, cannot be regarded as those of a perfectly normal person', thus allowing him to propose that the process of ossification might have been delayed. He was therefore persuaded to admit that the person could have been 28 to 30 years of age, but this clearly went against his own better judgment for, in his final opinion, 'I still maintain the opinion mentioned above: – that the skeleton is that of a man twenty-five or twenty-six years of age, without excluding the possibility that he may have been several years older'. See Smith, 'Note of the estimate of the age attained by the person whose skeleton was found in the tomb', pp. xxiii–xxiv. See also Smith, *The Royal Mummies*, p. 54, in which he reasserts the age of the person as 25 or 26 years, but now adds, 'no anatomist would be justified in refusing to admit that this individual may have been several years younger or older than the above estimate, which after all is based upon averages'.
6 Harrison, 'An Anatomical Examination of Pharaonic Remains Purported to be Akhenaten', *JEA* 52 (1966), pp 95–119.
7 Ibid., p. 111.
8 Ibid.
9 Derry, 'Note on the skeleton hitherto believed to be that of King Akhenaten, *ASAE* 31 (1931), pp. 115–19. See also Engelbach, 'Material for a revision of the history of the heresy period of the XVIIIth Dynasty', *ASAE* 40 (1940), p. 151.
10 Filer, 'The KV 55 body: the facts', *EA* 17 (Autumn 2000), pp 13–14.
11 See Note 17 for a fuller account of the controversy over the age of the body found in KV 55.
12 Derry, pp. 116–17
13 Filer, p. 14: 'A comparison was made between the X-rays of the KV 55 skull and those of the

الفهـرس

أعمال سابقة نشرت للمترجم

١- عصور فى فوضى - طبعة أولى ١٩٩٢ - دار سيناء - القاهرة
طبعة ثانية يناير سنة ٢٠٠٠- جماعة حور الثقافية - القاهرة

٢- عوالم فى تصادم - طبعة أولى - جماعة حور الثقافية سنة ١٩٩٩، القاهرة.

٢- من الخروج إلي الملك إخناتون - إيمانويل فلايكوفسكى- دار سينا ١٩٩٥.

٣- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الأول، الطبعة الأولى - كولن ويلسون - جماعة حور الثقافية - ديسمبر ٢٠٠١

٤- الحياة الجنسية فى مصر القديمة -ليز مانيش- جماعة حور الثقافية - ٢٠٠٢.

٥- والت ديزنى - كاترين وريتشارد جرين - مختارات ثقافية ٢٠٠٣.

٦- قزم بين العمالقة - مات رولوف وتريسى سومنر- شرقيات ٢٠٠٢

٧- تهويد التاريخ بالمشاركة مع :
رضا الطويل - أحمد عمر شاهين - محمد جلال عباس - فاروق فريد.

تحت الطبع :

١- الطريق إلى مكة - محمد أسد - دار التراث - الرياض.

٢- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الثانى - كولن ويلسون.

تهويد التاريخ

توت عنخ أمون كان أحد فراعنة الأسرة المصرية الثامنة عشر في تاريخ مصر القديم،
وكان فرعون مصر من 1334 إلى 1325 ق.م. في عصر الدولة الحديثة.

